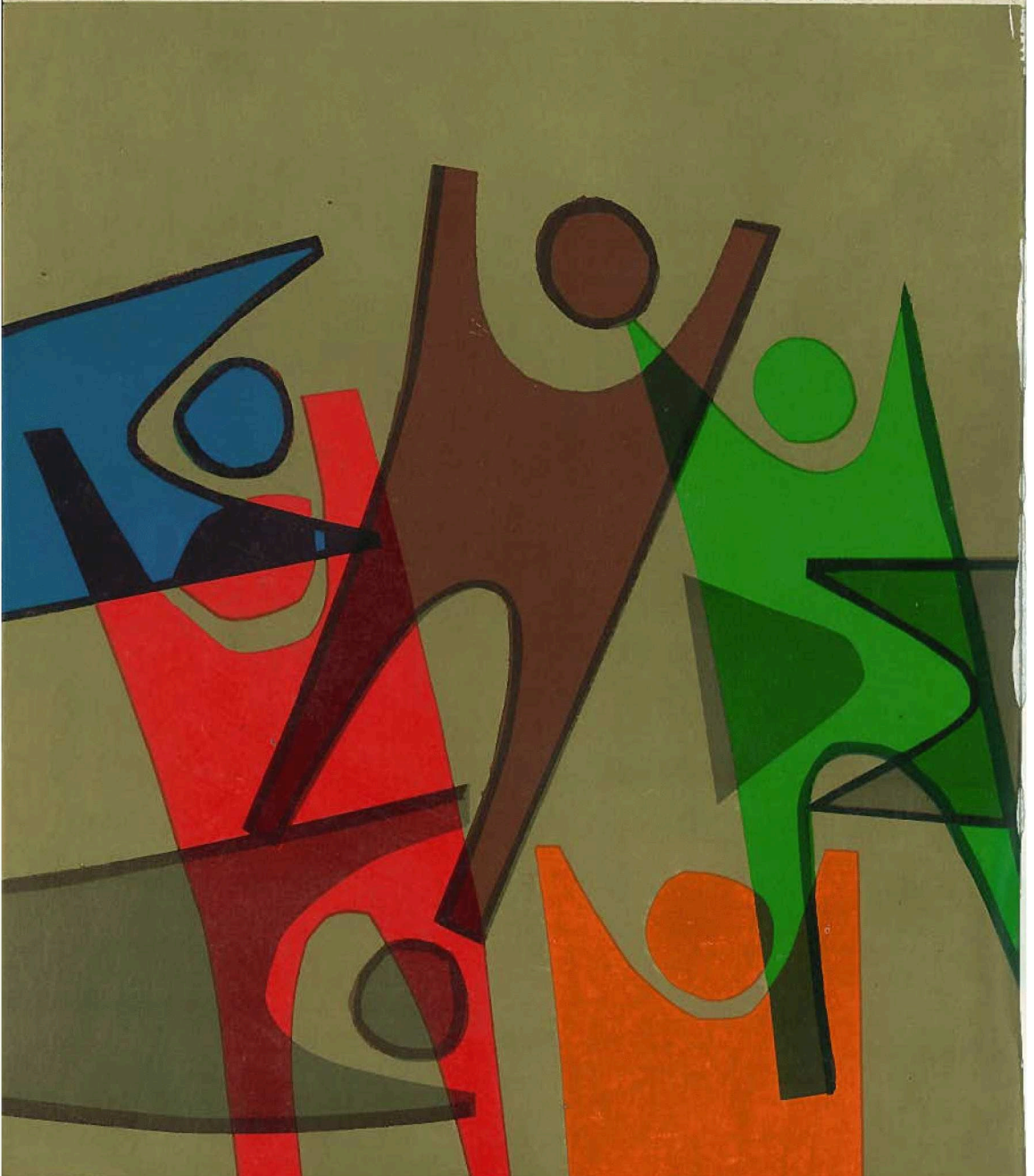


للشؤون الفلسطينية

تموز (يوليو) ١٩٧٥

٤٧



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

تموز (يوليو) ١٩٧٥

رقم ٤٧

- شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
- تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

• **يشارك في التحرير : محمود درويش .**

• **سكرتير التحرير : ابراهيم العابد مدير التوزيع : غازي خورشيد .**

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بنايسة الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت - لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برتقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد : ٣١/٤ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والمراق ، ٤١/٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في امريكا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

٤	صفحة	شؤون فلسطينية ، محمود درويش .
٧		مستقبل العلاقات اللبنانية - الفلسطينية ، ندوة اشترك فيها الدكتور امين الحافظ ، الاستاذ كمال جنبلاط ، الشيخ ميشال الخوري ، الدكتور نجيب ابو حيدر ، الاستاذ سمير فرنجية ، والاستاذ شفيق الحوت .
٢٨		انتصار فييتنام وتحرير الارض العربية ، الدكتور سامي منصور .
٣٤		تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها ، هالة سلام مقصود .
٥٦		التصنيع الحربي العربي أمام تحدي الصناعات الحربية الاسرائيلية ، طارق الصواف .
٦٩		غسان كنفاني : طريق الكاتب والمناضل الثوري ، افنان القاسم .
٩٧		يا أخضر .. أنهم يقربصون بك ، عز الدين المناصرة .
١٠٢		سلاح النفط العربي وصلته بالقضية الفلسطينية ، رهب البدوي .
١١٥		أسس الايديولوجية الصهيونية ، ماهر الشريف .
١٢٥		البارون هيرش والحركة الصهيونية ، فارس المنصوري .
١٤١		الحزب الاشتراكي الفرنسي والقضية الفلسطينية : نظرة تاريخية ، الدكتور فيصل دراج .

- ١٥١ جنوب افريقيا واسرائيل : علاقة خاصة ، الدكتور سميح فرسون .
- ١٧٨ حزب العمال البريطاني وقضية فلسطين ، ديفيد واتكنز .
- ٢٠١ **مراجعات** : قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ ، الدكتور أسعد عبد الرحمن . الصهيونية والصراع الطبقي ، هأني الزعبي . المساعدات الاميركية العسكرية لايران ، وليد نويهض . تعليق على تعقيب علي ماهر رشدي الشوا ورد حسين ابو النمل ، عبد القادر ياسين .
- ٢١٨ **تقارير** : (١) تحليل لاتجاهات الدعاوة الصهيونية في شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٥ ، ادريس الخالدي . (٢) اوضاع العمال الفلسطينيين في برلين الغربية ، عدنان الغول . (٣) جاك دوكلو : مناضل نموذجي ، ف.د. (٤) تطور العلاقات النيبالية الاسرائيلية ، الدكتور محمد علي العويني . (٥) اضاء على زيارة دايان لليابان ، أنور عبد الغني عبد الرحمن . (٦) تجربة المسرح الفلسطيني في الارض المحتلة ، محمود شقير .
- ٢٤٣ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخيني . (٢) القضية الفلسطينية دوليا . (٣) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) اسرائيليات ، يوسف حمدان وحنه شاهين . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، سمير جريس ، والرائد الطيار حسين عويضة . (٦) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ - ١٢/٦/١٩٧٥ ، غازي خورشيسد .

شؤون فلسطينية

طريق مسدود آخر

● في أوج التفاؤل العربي الرسمي باحتمالات الضغط الأمريكي على إسرائيل من أجل تليين موقفها ، تبني حزب العمل الإسرائيلي « خريطة لحدود إسرائيل النهائية » .

وليست هذه الخريطة القائمة على برامج الضم والتوسع الإسرائيلية جديدة . أنها صياغة مكتوبة لما يسمى في إسرائيل « بالنظرية الشفهية » التي تحدد سياسة إسرائيل تجاه المناطق العربية المحتلة وتضبط حركة السياسة الإسرائيلية الخارجية . وقد التزمت بهذا الاتفاق الشفهي كل الاجنحة التي يتألف منها حزب العمل الحاكم في عام ١٩٦٩ .

ويبدو ان الخريطة السياسية في منطقة الشرق الاوسط التي أعقبت حرب تشرين لم تكن حافزا كافيا ، في وعي حزب العمل ، لاعادة النظر في هذه « النظرية الشفهية » .

ويبدو الآن ، وبعد ان ارتأى حزب العمل نسيخ « النظرية » من الشفاه الى الورق ان بعض المتفائلين العرب بنضال الرئيس الأمريكي من أجل السلام سيثشعرون بخيبة أمل من السلوك الإسرائيلي « المفاجيء » . ولكن ، هل تعقب هذه الصدمة صحوة لاتهام امريكا القادرة على الضغط — اذا شاعت واذا تنافت مصالحها الامبريالية مع مصالح إسرائيل التوسعية ؟ أم اننا سنشهد من جديد ، وكالمعتاد ، حملة تبرئة للسياسة الأمريكية « العاجزة » عن الضغط على إسرائيل . وهل يكفي أيضا أن نسمع من المتفائلين العرب بنوايا امريكا ان إسرائيل هي ، وحدها ، المسؤولة عن احباط الامل الرسمي في التسوية ؟

قد يكون الادراك الأمريكي — الإسرائيلي لاصرار بعض المسؤولين العرب على الثقة بأمريكا أحد الدوافع التي جعلت حزب العمل يعلن « خريطة حدود إسرائيل النهائية » الآن بعدما تریسخت الشائعات القائلة ان الرئيس الأمريكي قد دخل المرحلة الاخيرة من مراحل اعادة تقييم السياسة الأمريكية . وبعدها أعلن كبار المسؤولين الاسرائيليين ان العلاقات الأمريكية — الإسرائيلية لن تكون كما كانت عليه في السابق ، على ضوء الحرص الأمريكي على ايجاد توازن بين المصالح الأمريكية لدى العرب وبين اتفاقها العام مع السياسة الإسرائيلية .

ولكن رئيس وزراء اسرائيل أعلن انه عرض على الرئيس الاميركي المبادئ الاساسية التي تضمنتها الخريطة الاسرائيلية ، ولم يعلن عن حقيقة موقف مورد منها ، مما يوحي بأن المطالب الاسرائيلية تحظى بمعرفة اميركا وموافقتها . وكان راين مطمئنا الى ان واشنطن لن تتخذ موقفا لا ينسجم مع موقف اسرائيل .

ولكن اميركا تجد بين العرب من يعفيها دائما من القدرة على الضغط ، ومن يسجل عجزها عن ممارسة هذا الضغط على اسرائيل . ومن هنا جاء اعلان حزب العمل الاسرائيلي نوعا من الضغط المضاد يشكل ذريعة امريكية امام « الاصدقاء العرب » مؤداه ان التصلب الاسرائيلي يصعب التغلب عليه .

ماذا جاء في « خريطة اسرائيل النهائية » ؟ انها تتضمن — كما أعلن الامين العام لحزب العمل الاسرائيلي في ١٩/٦/١٩٧٥ ما يلي :

- « ضم مرتفعات الجولان
- ضم قطاع غزة
- جعل نهر الاردن الحدود الآمنة لاسرائيل
- ترك الباب مفتوحا لاجراء مفاوضات في المستقبل حول السيادة على الضفة الغربية .
- ترك الباب مفتوحا لمفاوضات حول السيادة على شرم الشيخ وعلى مساحة ضيقة من الارض في الضفة الشرقية لخليج العقبة تربط اسرائيل بالعقبة » .
- وعن القدس أعلن الامين العام لحزب العمل : « لا مجال للتساؤل بشأنها . فقد ضمت الى اسرائيل نهائيا » .

هذا هو جوهر المطالب الاسرائيلية التي تم الاتفاق عليها ، داخليا ، قبل حرب تشرين ، وتمت صياغتها كتابة بعد مرور أكثر من عامين على حرب تشرين . فهل جاء هذا السلوك الاسرائيلي تعبيرا عن الحيرة أم عن تقديم ضغط مضاد أم اعلانا لحقيقة النوايا ؟ قد يكون الامر واحدا ، وقد يضاف اليه ان حزب العمل قد كشف أوراقه دفاعا عن التهمة التي يوجهها اليه خصومه الداخليون بأنه لا يملك سياسة واضحة تجاه مستقبل الاراضي المحتلة .

اضافة الى قسوة المطالب الاسرائيلية التي تضع حدودا للتسوية كما تتصورها اسرائيل ، كشف رئيس الوزراء الاسرائيلي عن خطة تحركه السياسي في المرحلة المقبلة وجوهرها هو رفض التسوية الشاملة وتكريس الجهود لاحراز لبنات اتفاقيات جزئية مع دولة عربية واحدة . وعندما يعلن راين هذه المطالب وهذه الخطة في ختام مباحثاته مع فورد فان للامر دلالة اميركية حادة .

لقد وصلت محاولات الحل الجزئي الى حالة الانفضاح من جهة والى مفترق طرق خطير من جهة ثانية . وصار السؤال المطروح على الطرف العربي من معادلة الحل الجزئي محرجا : ان ثمن هذا الحل التخلي عن الارض وعن الالتزام العربي وعن حقوق الفلسطينيين . ورفض هذا الحل هو الحرب . فهل يستطيع هذا الطرف المضي في الشق الاول ، ام لا يجد مغرا من اختيار البديل الثاني ؟

ان الاوان لان يعيد بعض المسؤولين العرب النظر في طريقة تحرير الاراضي العربية المحتلة بواسطة التنافس مع اسرائيل على كسب الرضا الاميركي . فان نظرية دخول العرب في فجوة الخلافات التكتيكية بين اميركا واسرائيل لم تعد على العرب بغير سلسلة من التراجعات ، وتحرير الولايات المتحدة من الحاجة الى الضغط على اسرائيل تحت قبضة الضغط العربي .

مر اكثر من عامين على حرب تشرين ، وما زالت السياسة الاسرائيلية — بدعم مادي وعسكري وسياسي من الولايات المتحدة — تصعد تصليبها ورفضها الانسحاب من المناطق المحتلة ، فهل يحتاج اصحاب الحلول الاميركية الى مزيد من الادلة واضاعة الوقت والفرص لاعلان اليأس من التحرير عبر واشنطن ؟

ان كل الدلائل تشير الى ان هذه الطريق طريق الحل الباهظ الثمن قد وصلت الى الباب المسدود ، وان تصعيد الصمود على أرض الصراع وحشد مقومات معركة التحرير هي التي تحدد مصير الصراع .

مستقبل العلاقات الفلسطينية - اللبنانية

ندوة

اشترك فيها : الدكتور أمين الحافظ

الاستاذ كمال جنبلاط

الشيخ ميشال الخوري

الدكتور نجيب ابو حيدر

الاستاذ سمير فرنجية

الاستاذ شفيق الحوت

ادارها : عصام سخيني

مندوب المركز : باسم مركز الابحاث في منصة التحرير الفلسطينية ومجلة « شؤون فلسطينية » نرحب بهذه النخبة من قادة الفكر والرأي والسباسة في هذا القطر العزيز .

ايها الاخوة ، ان ما يجري في الساحة اللبنانية الآن لن يكون له تأثير على الاوضاع المحلية في لبنان فحسب وانما سوف يمتد اثره الى مجمل الصراع في المنطقة ، وربما سيصبح لسنوات قادمة احد مكونات هذا الصراع ومحدداته . ومن هنا كان حرص مركز الابحاث ومجلة « شؤون فلسطينية » على استشارة هذه النخبة بالنسبة لمستقبل العلاقات اللبنانية - الفلسطينية وهي علاقة تعود بالتاريخ الى زمن بعيد . وسنترك في هذه الندوة الحوار مفتوحا دون اعداد لاية ورقة عمل او برنامج لسير الندوة لان في ذلك اخصابا للحوار وتوضيحا لكل الآراء المطروحة . والمجلة واثقة من ان نتائج هذا الحوار الصريح الواضح سوف تكون لمصلحة شعبنا اللبناني وشعبنا الفلسطيني وقضيتهما العربية المشتركة . واقتراح ان نعطي الكلمة للاخ شفيق الحوت ليضع العلاقة في اطارها التاريخي ، ثم ننقل بعد ذلك الى مناقشة واقع العلاقة الراهنة ، ثم الى استشراف المستقبل والتعرف على آفاقه .

الجزء الاول : الافكار الاساسية

الاستاذ شفيق الحوت : نحن نعيش في فترة يمكن وصفها بأنها ازمة حادة في العلاقات الفلسطينية - اللبنانية . غير ان الانسان يكتشف فجأة ان تاريخ العلاقة الفلسطينية - اللبنانية لم يبدأ اليوم ، لم يبدأ بهذه الازمة الحادة .

فقد كان ذات يوم قطر اسمه فلسطين وكان هناك شعب اسمه الشعب الفلسطيني ، وكان ذلك الشعب يقيم على حدود لبنان الجنوبية ، وكانت تربطه بلبنان اوثق العلاقات واطيبها ، سواء على صعيد الروابط العائلية لم على صعيد الهجرة ام على صعيد العمل المشترك . وتذكر جميعا ان عشرات الآلاف من الاخوة اللبنانيين كانوا يعيشون في فلسطين ، كانوا يعملون هناك ويتعايشون مع الشعب الفلسطيني . ومن جهة مقابلة

لم يكن الفلسطينيون غرباء عن لبنان في جولاتهم وزياراتهم ، وفي تجاراتهم وعملهم . وإذا كنا نمر بهذه المرحلة سريعا فلا بد من تثبيتها حتى يتذكر الناس اننا لسنا غرباء عن بعضنا البعض ، واننا لسنا شعبا مستوردا من اقاصي الدنيا الى الاراضي اللبنانية .

ثم قامت اسرائيل . وكان قيامها حدثا تاريخيا ضخما لا على صعيد المنطقة فحسب وانما على صعيد العالم كله . ان قيام اسرائيل خلق علاقات دولية جديدة ، وترك متغيرات على الواقع الدولي ، ربما بالحدة نفسها التي تركها على المنطقة . وكان من الطبيعي — بحكم الجوار الجغرافي ان لم يكن لأي سبب آخر — ان يعكس قيام دولة اسرائيل آثارا ضخمة على الواقع اللبناني . فمع قيام اسرائيل وبسبب ذلك ازداد الوجود الفلسطيني في الساحة اللبنانية ، مما أوجد علاقة جديدة بين الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني . وكان للحالة الاجتماعية والاجتماعية والسياسية التي تميز بها النزوح الفلسطيني تأثير في تكوين ملامح هذه العلاقة .

لقد مر الوجود الفلسطيني في لبنان بمرحلتين أمر بهما سريعا أيضا : المرحلة الاولى مرحلة ما قبل قيام الثورة الفلسطينية والمرحلة الثانية ما بعد قيامها . ولا بد لنا من الاشارة الى أن نوعية العلاقات التي كانت قائمة في المرحلة الاولى تغيرت وتطورت بحكم قيام الثورة الفلسطينية التي اعتبر ان قيامها — وأظنكم تشاركوني الرأي — كان ردة فعل تكاد تكون مساوية ، او هي على طريق أن تصبح مساوية ، لقيام دولة اسرائيل لجهة الاثر الذي خلفه قيام الثورة الفلسطينية على مجمل العلاقات السياسية في المنطقة وخارجها على الصعيد الدولي . ونتيجة لحمل الفلسطيني البندقية وقيام ثورته ولما انتزعت من مكتسبات محلية وقومية ودولية انعكس هذا الوجود على العلاقات اللبنانية — الفلسطينية لاسباب موضوعية . فسواء شاء الفلسطينيون أم لم يشاءوا فبمجرد حملهم السلاح فرضوا نوعا جديدا من العلاقات ، ومناخا لا بد أن يعكس نفسه نحو تطوير العلاقات اللبنانية — الفلسطينية الى أن وصلنا ، للأسف ، الى ما وصلنا اليه من أزمة لم تكن الاولى وان كنا نرجو ان تكون الاخيرة .

انني كعربي أقول ان العلاقات ، اية علاقات بين شعبيين ، تحتاج الى مشاركة الفريقين في تحديد هذه العلاقات والسعي لتطويرها وتنميتها . والحقيقة ان هنا حرصا ورغبة في معرفة الشعور اللبناني لنوعية العلاقة التي يجب أن تكون بين الفلسطينيين واللبنانيين انطلاقا من واقعنا الراهن بأمل تنمية هذه العلاقة التي نحن بصدد البحث في صورتها المستقبلية التي نرجو جميعا أن تكون على ما يتمناه الشرفاء والطيبون في الشعبين الفلسطيني واللبناني ، أي علاقة أخوية ايجابية مربوطة بأكثر من رابط ، أهمها أن هناك عدوا مشتركا ، وأن هناك وجودا لبنانيا فلسطينيا مشتركا في الساحة اللبنانية .

الاستاذ كمال جنبلاط : انني اعتقد انه ما من نتيجة أو معلول الا ولهما علة او سبب ، وأظن ان العلاقات الفلسطينية — اللبنانية تتأثر بالعوامل التالية :

خوف مسيحي تقابله خشية فلسطينية

العامل الاول الذي يتحكم بهذه العلاقات هو الخوف المسيحي الذي يتمثل عند اغلبية اخواننا المسيحيين لأسباب تاريخية متعددة ولتصورات نفسانية عميقة أضحت لديهم مثالات . لان الطوائف في لبنان تعكس في الحقيقة بنسب اجتماعية نفسانية يصعب اختراقها — في معظم الاحيان — من جانب الافكار المتطورة حتى يصعب ذلك بالنسبة للفكر المسيحي الحقيقي الاصيل وكذلك الاسلام . فنحن في تكويننا الذي لا يزال حديثا

— لان لبنان لم يتطور بكيانه السياسي الحالي الا منذ عام ١٩١٦ — لم نزل نعيش في نفسيتنا ومن خلال طوائفنا ومذاهبنا ، الهرطقات القديمة التي تمثلت قبل الاسلام وبعد الاسلام في هذا المحيط العربي الحديث الواسع . اضع الى ذلك ان الحركة الوطنية ، خاصة في الاوساط المسيحية ، لم تعط الفرصة لتظهر وتتقوى . خصوصاً ان الدولة بعد عام ١٩٥٨ اعتمدت على بعض العناصر الانعزالية اللبنانية التي تمثل بشكل واضح نسمة الهرطقة ، اذا جاز التعبير ، او رياح هذه المذهبية القديمة . ان عهد الرئيس فؤاد شهاب وعهد الرئيس شارل حلو والعهد الحالي لم يعطوا مجالاً للشخصيات الوطنية المسيحية وللأجيال الجديدة المسيحية بأن تتمثل في الحكم وأن تتقوى بواسطة الحكم ، لان الحكم هو وسيلة لتقوية الافكار وللخروج من البنى القديمة كما ظهر ذلك جليا في حقبة الاستقلال الاولى عندما فرض فيها بشاره الخوري وعدد من الدستوريين توجيهها وطنيا ساحقا في الاوساط المسيحية .

وقد نما هذا الخوف لدى الاغلبية من المسيحيين بشكل خاص بعد الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا وتغلب على بعض النفوس بسبب سوء تصرف الجانب المسلم ، او انتياده هو ايضا الى لون من الصنميات الطائفية، وقد تغلغل هذا الخوف وتأكد لظروف لن اذكرها هنا لافسح المجال لغيري في الحديث .

مقابل هذا الخوف نشأ ما أسميه الخشية الفلسطينية ، فالشعب الفلسطيني لا يزال يعيش أيضا ضمن رواسب تذكره بما كان عليه قبل ثورته في المخيمات وبممارسات السلطة اللبنانية والمكتب الثاني بشكل خاص قبل ان تحرره الثورة من سوء المعاملة التي كان الوجود الفلسطيني راضخا لها . ان الشعب الفلسطيني لا يزال يخشى العودة الى السابق ولا يطمئن للحكم اللبناني بوصف هذا الحكم لا يمثل اتجاها وطنيا بالمعنى الصحيح للكلمة . ذلك ان رواسب الانعزالية لا تزال فيه ، ولا يزال يمثل أيضا ، بشكل واسع ، هذه الانعزالية المسيحية في الحكم وفي الادارة وفي الجيش . ان الامر سيكون مختلفا لو اطمأن الفلسطينيون الى أن الحكم في لبنان هو حكم وطني وليس فقط قشرة وطنية يتلبس بها في الداخل ويزيف بها في الخارج دون ان يكون له فعلا بنية وطنية عميقة تقوم على اصول الثورة الوطنية التي حدثت في البلاد عام ١٩٤٣ والتي رمز اليها بنشاطهم وتمثيلهم الشيخ بشاره الخوري ورياض الصلح ومن لف لفهما من المسيحيين الوطنيين ، وهم كثرة ، من أمثال ميشال زكور ، الذي توفي في عهد سابق ، وحמיד فرنجية ، وغيرهما من الشخصيات المسيحية البارزة التي طبعت في ذلك الوقت المسيحيين بطابعها الوطني المتطور .

ان هذه الخشية الفلسطينية التي تقابل الخوف المسيحي هي ، في نظري ، سبب معظم المشاكل التي نعيش في جوها . اما اذا اطمأن الفلسطينيون الى وجود سلطة وطنية فائتي أتصور انه لن يكون لديهم مانع في ان يدخل الحكم اللبناني الى المخيمات ، وان يصبح الشرطي اللبناني هو الذي يمارس صلاحية الامن اليوم داخلها .

ينبغي أن نضيف هنا عنصرا آخر يجعل الخوف المسيحي مستعرا ، هو الخوف من التيارات الفكرية ؛ فالثورة الفلسطينية أخذت تجرف اللبنانيين — مسيحيين ومسلمين وعلى اختلاف نزعاتهم — في تيارها . ذلك ان من يعايش الثورة لا بد أن يتأثر بها خاصة ضمن النظام الديموقراطي البرلماني الموجود في هذا البلد .

مسؤولية النظام المتحجر

العنصر الثالث (بالاضافة الى الخوف اللبناني والخشية الفلسطينية) والذي له

أهميته في العلاقات الفلسطينية - اللبنانية وتوترها هو دور النظام السياسي ، فهو نظام سياسي متحجر لا يريد أن يتطور على أي صعيد . لقد دفع فؤاد شهاب النظام في الحقل الاجتماعي الى بعض وجوه التطور . غير ان فؤاد شهاب وقف أمام حائط المأل عندما باثر بعض اصلاحاته الاقتصادية التي ربما لم تكن ثورية على الاطلاق . كما وقف أيضا أمام حائط آخر ، حائط الذين يعتبرون النظام السياسي اثنوما جديدا من اثنائهم لا يستطيعون التخلي عنه سواء بالنسبة للمجلس النيابي أم بالنسبة للحكم أم الرئاسة .

ازاء ذلك كان لا بد ان يشعر الجميع ، لبنانيين وفلسطينيين ، ان هذا النظام السياسي هو عدوهم ، عدو التطور ، عدو التقدم ، عدو الفئات التي تنم من الاحتكار اكانت وسطى أم محدودة الدخل أم صغيرة ، أم كانت من العمال ، كما هو عدو تطور المفهوم الوطني للبلد ، هذا المفهوم المتمثل في عبور اللبنانيين من اتحاد الطوائف او هذا التعاليش الكاذب الذي ينفجر من أن الى آخر في فورات دامية ، الى انصهار هذه الطوائف ضمن شعب لبناني حقيقي وبمفهوم للوطن لا مفهوم للملجأ .

التبدلات الديموغرافية والتوازن القائم

العنصر الرابع يكمن في التبدلات الديموغرافية التي طرأت على التوازن الداخلي بين المسلمين والمسيحيين . وعلى الرغم من أن التمهذب والتشردم قائمان داخل الفئات الاسلامية كما هما داخل الفئات المسيحية ذاتها الا أنهم يجتمعون عندما تبلغ الازمة حدها الاقصى . هذه التبدلات أخذت تتفاعل في الضمير المسيحي المتخوف من ان يسيطر المسلمون الذين أضحي عددهم يناهز ٦٥ في المائة ، وقد أضحي الموارنة ، في هذا العدد ، او في هذا التسلق لسلم التكاثر النسبي ، ثالث طائفة في لبنان بعد الشيعة ثم السنة ، وأصبح الارثوذكس بدورهم يتسلقون سلم النسل لكسي يصبحوا تقريبا في موازاة الموارنة .

هذا ، بينما أخذت الحركات التقدمية والافكار الجديدة تلعب دورها في كل ذلك وتتخطى التناقضات ، وأحيانا تستعين بالتناقضات ذاتها ، في لعبة ذكية جدا تتجاوز ببعيد عدد المنتسبين للحركات التقدمية في لبنان ، فيظهر لمن هو خارج لبنان أن اليسار أصبح الاكثري الساحقة في لبنان ، بينما الامر هو عكس الحقيقة تماما وعكس الواقع . غير انه أمام يمين غبي متحجر وأمام دولة لا تريد التطور ظهر هذا اليسار وكأنه هو المهيمن على الجماهير الغفيرة ، خاصة في المدن .

الاطء فلسطينيا

أما العنصر الخامس الذي يتحكم بالعلاقات الفلسطينية واللبنانية فهو عدم الانضباط الموجود في الصف الفلسطيني . هناك اخطاء ترتكب من خطف وسرقة سيارات واعمال مخالفة للقانون اللبناني ولأمن الثورة ذاته ولنظام الثورة . هذه الاعمال يتحملها فريق كبير من الناس لانه يجب أن نتذكر أن من بين ٤٠٠ ألف فلسطيني الذين يعيشون في مخيمات فلسطينية هناك فقط ١٥ ألفا منهم يسكنون على باب المتن ، فالمسلمون يتحملون هذه الاخطاء ، وربما بعضهم يضجون منها ويطالبون بتصحيحها وبالقبض عليها بشكل مباشر وبالغنف النظامي المطلوب ، غير أن هناك فئات لا تستطيع ان تتحمل ذلك ، بل هي تستفيد من هذه الاخطاء فتستغل قطع طريق أو خطف انسان كي تقيم القيامة . هذا مع علمي الاكيد ، من خلال عملي وزييرا للداخلية ، أن نسبة المخالفات التي يفتريها الفلسطينيون في لبنان - حسب الاحصاء الموجود لدى قوى الامن - هي أقل نسبيا بكثير من المخالفات التي يرتكبها الجمهور اللبناني .

من جهة ثانية فان اللبناني لا يفتن الى أن تصاعد الجرائم والمخالفات في لبنان ناجم عن عامل حضاري أساسي . لقد دخلنا في التيار الذي سبقتنا اليه الولايات المتحدة والذي أخذ يظهر أيضا في أوروبا . ففي فرنسا مثلا زاد عدد الجرائم خلال أربع سنوات بنسبة ٥٥ بالمئة في أنواع معينة من الجرائم . ان العصر الحضاري هو بحد ذاته عصر الجريمة ، عصر المخالفات ، فالحياة المدنية لكونها مصنعة تضيق على أهلها كمن يضع جردانا في قفص اختبار فتبدأ في الاختلاف اذا كان عددها ثلاثة ثم بالاعتقال اذا زاد عددها عن ذلك ، فتبدأ الجريمة في مستوى الحيوان ولا يثمد عن هذه القاعدة الانسان .

بطبيعة الحال علينا أن نعالج هذه الاخطاء بحزم . وأمس رحبنا بالقرار الذي اتخذته منظمة التحرير الفلسطينية بتشديد العقوبة على المخالفات حتى تصل الى حد الاعدام في بعض الجرائم . على الثورة أن تكون نظيفة في علاقاتها مع اللبنانيين لكي لا تستثير الحساسيات المدفونة في باطن التاريخ والتراث المؤسف الغابر حتى لا تعود بعض النفوس متتحرك من جديد .

ويضاف الى كل ذلك تأثير الدعايات الاجنبية والمداخلات الاجنبية والتناقضات التي تحدثها الدول العربية في لبنان . لاننا نحن في الحقيقة مشاع للحرب القائمة بين الغرب والعرب وبين العرب أنفسهم ضمن لبنان .

السلاح ، والجيش الثقة هو البديل

العنصر الاخير الذي اتحدث عنه هنا هو التسليح الذي يخيف الجميع . أن نفكر بأن هنالك ٣٠٠ ألف او ٤٠٠ ألف قطعة سلاح (أو أقل من ذلك أو أكثر حسب التقديرات المبالغ فيها) أمر خطير بحد ذاته لانه ماذا سيكون مصير البلد اذا افلت هؤلاء المسلحون؟ ربما سنعود الى ما قبل عهد الامارات الى الاتطاعات ، عندها يؤسس كل شخص امانة أو مشيخة على حسابه من جنوب لبنان الى شماله ، خاصة في غيبة السلطة وفي غيبة جيش يمكن لجميع اللبنانيين ان يثقوا فيه . لهذا السبب كنا أول من طالب بأن يشعر اللبنانيون جميعا ، بادية ذي بدء ، بأن الجيش هو للجميع حتى يتمكن من النزول الى الساحة . ان تنظيم الجيش أمر أساسي كذلك جعل التوازن تاما كاملا في جميع الوظائف الحساسة في لبنان ، شاء هذا القائد أم لم يشأ ، فالقضية أصبحت مصرية بالنسبة للبنان . عندئذ ، يتمكن الجيش من النزول والفصل بين الناس أيا كانوا . وعندها يثق الفلسطينيون انه اذا نزل الجيش فانه لن يعتدي عليهم .

نظرة الى المستقبل

هذه هي العناصر التي تشكل الثقل في مصير العلاقات الفلسطينية — اللبنانية . وهي علاقات ستظل تمر بهذا التأزم الدائم ، لانه من الصعب جدا اقتناع الدولة أو فريق كبير من الناس على الصعيد التقليدي الاسلامي او على الصعيد التقليدي الانعزالي المسيحي بأن يبدلوا ولو شيئا من النظام السياسي في هذا البلد . لهذا السبب فان الوضع الفلسطيني في لبنان يرتبط بشكل عضوي وأساسي بالوضع اللبناني . ذلك ان انعكاسات هذه العلاقات بين الجانبين اللبناني والفلسطيني مترابطة ومتلازمة وكأنها في النهاية ثورة واحدة يشعر فيها الناس ان هناك التزاما فلسطينيا بتقديم لبنان والتزاما لبنانيا بثورة فلسطين . وبدون هذا الالتزام لا يمكن أن نخطو خطوة في مواجهة هذا الحائط الرجعي اللبناني الانعزالي المسيحي والانعزالي الاسلامي ، لان التقليد الاسلامي كان أشد وطأة علينا لرداءة تمثيله السياسي وبثقله كل تسوية أتية على ظهر القضايا الرئيسية وعلى ظهر التقدم الحقيقي في لبنان ، تماما كالانعزالية ذاتها التي نشكو منها

أحيانا على الصعيد المسيحي والتي يجب علينا أن نتفهمها حتى نتمكن من حل مشكلتها لأنها مشكلة نفسية قبل أي شيء آخر ، ومشكلة سلاح طبعاً . ولو كانت مشكلة نفسية فقط لكانت أخف وطأة . لكن عندما تسمع المدافع تضرب ليل نهار على بعض الأحياء وتقابلها مدافع أخرى ، يفكر المرء ويتساءل أين صرنا ؟ هل اقتربنا من انفجار حرب طائفية في لبنان كما تشتهيها المخابرات الأميركية وكما يدور في حلم إسرائيل ؟ اننا على يقين انه لن يحدث شيء من ذلك ، لأن الشعب اللبناني يتغلب على جميع المحن في النهاية ، ولا بد من نهاية لكل جنون ، على أي صعيد سياسي أو طائفي . فقد علمنا لبنان اننا نستطيع في النهاية أن نعود الى العقل فنتحكم بكل شيء .

الدكتور أمين الحافظ : لقد رسم الاستاذ كمال جنبلاط هيكلًا للموضوع ونحن سندخل هذا الهيكل ، كما وضع فيه كثيرا من التفاصيل وستضيف نحن تفاصيل أخرى .

البعدان : القومي والاجتماعي

عندما نتحدث عن العلاقات الفلسطينية - اللبنانية ، في الماضي وفي المستقبل ، فاننا ننطلق من منطلق التجزئة . ولو كان منطلقنا منطلقا وحدويا لما كان مبرر للحديث عن ذلك . وقد قادت التجزئة الى أن يتوافق اللبنانيون على نظام وعلى كيان في عهد الاستقلال ارتضوه لانفسهم ، لأن هذا الكيان كان بمثابة الحد الأدنى بالنسبة لفريقي كانا ، في ذلك الحين ، يتجهان اتجاهين مختلف أحدهما عن الآخر . ولكن بفضل هذا القاسم المشترك ، وبسبب وجود عناصر طائفية وثقافية متنوعة ، أصبح بالإمكان قيام كيان مثل الكيان اللبناني ، وأريد له ، ونحن جميعا نريد ، أن يساهم مساهمة بناءة ، وأن يستمر بالمساهمة ، في الحضارة الانسانية وفي النهضة العربية .

إذا أخذنا هذا الواقع بعين الاعتبار نجد أن فلسطين هي أقرب الاقطار العربية الى المفهوم اللبناني . فلسطين مكونة من طوائف على الرغم من أن نسبها لا تتماثل مع تلك الموجودة في لبنان ، الا ان هناك زيادة تيارات ثقافية ، وطائفية أيضا ، كونت ما يسمى بشعب فلسطين . من هنا فان امكانية تفاهم هذين الشعبين الجارين تعتبر مرتفعة أكثر من تفاهم أي شعبين آخرين . قد يتولد لدى بعض اللبنانيين حذر وخشية من شعوب عربية أخرى ، ولكن لا أرى كيف يمكن أن تكون ثمة خشية من الفلسطينيين . ولقد مر بخاطري كل ذلك عندما شاهدت ، من أيام ، لبنانيين من طائفة معينة يطلقون النار على فلسطينيين ينتمون الى الطائفة نفسها .

ليس الموضوع ، إذن ، موضوعا طائفيا ، ولكني أسارع الى القول بأنه موضوع اجتماعي . ذلك ان الثورة الفلسطينية ليست ثورة تحرير فقط ، وانما بجانب انها ثورة تحرير، هي رائدة للثورات العربية المقبلة التي نريدها . وقد تكون الثورات القادمة عنيفة وقد تكون ثورات بيضاء ، تتناسب مع ظروف كل بلد من البلاد العربية ، الا ان الثورة الفلسطينية ستظل رائدة اذا اكتسبت ما نتوخى لها من الصفات . وبهذه المناسبة أشير الى مقالة كتبها الاستاذ شفيق الحوت يشرح فيها أسباب نجاح الثورة الفيتنامية ، وكان في كل بند من بنودها وكأنه يهيب بالثورة الفلسطينية أن تكون كذلك . وان أهم ما جاء في تلك المقالة على ما أذكر الحديث عن جدية الثورة .

ان لبنان واللبنانيين والفلسطينيين ينتمون الى هذه الأمة العربية، التي تنتهي بدورها الى الشعوب المتخلفة . وأمراض الشعوب المتخلفة معروفة ، والتخلف ليس تخلفا ماديا فقط بل هو تخلف بشري واجتماعي أيضا ، وللعالجة هذا التخلف علميا ينبغي انهاء

المناطق المتخلفة كما يجب أن يوجه قسم كبير من الانماء نحو الناحية الاجتماعية الاقتصادية .

اني اثعر ان كثيرا من اللبنانيين ، سواء اكانوا مسيحيين ام مسلمين ، يحقدون على الثورة الفلسطينية ضمنا او علنا لانها قد تهدد التركيبة الاجتماعية الاقتصادية الموجودة في لبنان . وعلينا ان نذكر ان جزءا من الثروات في لبنان قد جني بالفعل من فلسطين وان بداية المدخرات التي مولت التجارة في لبنان ، في مطلع هذا القرن وبداياته ، كانت من اثمان الاراضي التي باعها اللبنانيون لليهود في فلسطين ، وقد تساوى في هذا المسيحي والمسلم ولا أريد أن أسمى أشخاصا . اذن فان هذه المدخرات كانت بداية قيام المؤسسات التجارية ونمو قطاعات الخدمات والتجارة التي يفخر بها لبنان . غير ان هذه الاهمية التي للبنان ، في التجارة والخدمات ، ان لم يرافقتها مقابل لها في التنمية العمرانية والانتاجية والصناعية والزراعية ، فان من شأنها ان تبقى على هذا الخوف وهذا الحذر وهذه الحرب على الثورة الفلسطينية من كلا الطرفين : المسلم والمسيحي .

بطبيعة الحال ان تحويل الامر وتغييره ليس في يد اللبنانيين وحدهم ، ذلك ان لبنان جزء من هذه المنطقة والامراض التي تفتك بنا تفتك في اجزاء المنطقة الاخرى مع اعترافنا بأن هنالك تقدما كبيرا اصاب الانظمة المحيطة بنا . واذا كانت هذه الانظمة قد تلهت كثيرا عن انماء نفسها فانها الآن قطعت شوطا واسعا . غير ان خلافتها ، بعضها مع بعض ، كان من ثمراتها ان الوضع في لبنان قد تأخر عن التطور . فنحن العربيين في لبنان مسلمين ومسيحيين نسند ظهرنا الى القوة العربية فاذا كانت هذه القوة متفككة أصبنا نحن بذلك . وأعطي مثلا على ذلك بما يسمى بالسوق العربية المشتركة ؛ فلو كانت العلاقات والاحوال السياسية بين الدول العربية على ما يرام لنجحت هذه السوق وفي حال نجاحها كان لا بد للتنمية الزراعية والصناعية ان تؤتي ثمارها وان يجري تحول اجتماعي في لبنان وبذلك يرتبط السواد الاعظم من الشعب اللبناني ، سواء كان مسيحيا ام مسلما ، بالعرب والعروبة وبالمصالح العربية الكبرى .

لذلك فاننا يجب أن نوجه همنا الى هذا القطاع الشعبي المسيحي الخائف ، ويجب ان نعترف ان هناك مسيحيين من الطبقات الشعبية منساقون الى الرجعية بما في ذلك من تناقض . ومن هنا فانني أتوجه الى الطليعة التقدمية والاحزاب التي صرفت وقتها في تبشير المؤمنين في أثناء تركيزها على القطاعات الشعبية الاسلامية وهذا تحصيل حاصل ، أتوجه اليها وأدعوها ان لا تستسهل الامور وان تتركب الصعاب وان تحاول ان تتسلل الى الفئات الشعبية المسيحية والمناطق المسيحية لكي تستدرجها ولكي توعيها . وقد تكون مهمتها ايسر لو ارتبطت هذه الطبقات الشعبية أكثر بالبلاد العربية ذات الانظمة التقدمية عن طريق السوق العربية المشتركة مثلا .

دور لبنان في الصراع

علينا الآن ان نبحث فيما نحن بصددده في هذه الايام . لا شك ان ما يسمى مشكلة الشرق الاوسط محتدمة ونحن لا نتوقع ان تنتهي قريبا حتى لو تم التوصل الى تسوية سلمية . فلا بد اذن من ترابط لبناني فلسطيني لدحر الوجود الصهيوني في المنطقة ، ذلك ان الخطر الصهيوني قد يكون أكبر من خطر اسرائيل نفسها كما ان انفتاح اسرائيل ، بطريقة أو بأخرى ، على العالم العربي يجعل من الضروري قيام تعاون لبناني فلسطيني أوثق مما هو موجود . وفي هذه الحالة لا بد من وجود منظمات وفئات وحركات تقوم بحملات مكثفة لربط القوى الشعبية المسيحية بالقوى الشعبية المسلمة .

لقد قدمت دول مثل سوريا ومصر آلافا وآلافا من الجنود للقضية الفلسطينية كما قدمت دول أخرى ، كدول النفط ، ملايين من الليرات للقضية وان لم يكن ذلك كافيا . أما لبنان فعليه ان يتحمل حصته . وقد تكون هذه الحصص شيئا من عدم الاستقرار ، وهذا أمر طبيعي ، ذلك ان لبنان لا يمكن ان يطلب كل الغنم من العرب ومن القضية الفلسطينية ولا يقبل بأي غرم . ولان لبنان بلد مفتوح تتصارع فيه كل التيارات العالمية والعربية والمحلية تصارعا فكريا وماليا وغسريا ذلك ، فنحن نشهد الحسد الأدنى من الاستقرار . ولا يمكن ان نحلم بأن يكون هناك استقرار في لبنان ما لم تنته القضية الفلسطينية ويتم ضبط الخطر الصهيوني .

العودة الى الاتفاقات والرجوع الى الشعب

من أجل تنظيم العلاقة وجد ما يسمى باتفاقية القاهرة ثم بعد أحداث طويلة الحق بهذه الاتفاقية تفصيلات باسم تفاهم ملكارت، وقد كان لي شرف وضع نقاط هذا التفاهم عندما كنت في الحكم بعد معاناة طويلة وبعد لقاءات مع جميع القادة الفلسطينيين والمعنيين اللبنانيين . وضعنا هذا التفاهم وساد بعده هدوء نسبي خلال عامين من جراء هذه الاتفاقية . وكان يمكن تلافي عودة الاصطدامات لو اتنا رجعنا في الوقت المناسب الى اتفاقية ملكارت والى اتفاقية القاهرة فنفذناهما ووضعنا الجميع أمام مسؤولياتهم . ولكن يبدو ان هذه الاتفاقات قد أغفلت ، كما كان هناك من يتهيبا ، قبل الاوان ، لشن حملة كبيرة لنسف هذه الاتفاقيات ولتشويهها وتخريبها مسووا بالتسلح ام بانتقاد هذه الاتفاقيات او حتى باثارة المنتقدين . فقد وجد بعض السياسيين ممن كانوا يأخذون على حزب من الاحزاب انه قبل باتفاقية القاهرة بقصد اثارته وما كان هذا بحاجة الى الاثارة فقد كان يسلم نفسه .

الآن ، أن الرجوع الى الحالة الطبيعية والنظر الى مستقبل العلاقات الفلسطينية — اللبنانية لا يتم الا عن طريق الشعب : الفئات الشعبية والمنظمات الشعبية والاحزاب الوطنية التي يجب أن تتفاهم فيما بينها لعزل كل القوى التي يمكن أن تؤثر في مسيرة الثورة الفلسطينية الرائدة التي سوف يتمخض عنها تحولات اجتماعية وسياسية في البلاد العربية ومنها لبنان . وقد يأخذ هذا بعض الوقت ولكن هذا هو الطريق الاسلام والقويم ، وبانتظار هذا الامر غلبنا أن نحاول أن نخفف من المعاناة قدر الامكان .

الشيخ ميشال الخوري : يصعب علي ان أزيد شيئا عما تفضل به كمال بك ودولة أمين الحافظ ، الا اني أريد أن انوه ببعض النقاط التي وردت ثم انطلق الى الموضوع الذي نعيشه .

لبنان دخل التاريخ الفلسطيني مبكرا

اشير الى ما تفضل به الاستاذ شفيق الحوت عن العلاقات اللبنانية الفلسطينية في الفترة التي سبقت انشاء دولة اسرائيل، واقول ان في لبنان من ادرك الخطر الصهيوني في وقت مبكر جدا وربما قبل اي شخصية عربية او اية دولة عربية وربما قبل الفلسطينيين انفسهم . وقد سمعت اصوات كثيرة في لبنان تنبه العالم العربي وتنبيه الشعب الفلسطيني وتنبيه العالم الى ما يمكن ان يحدث فيما اذا تجسدت الصهيونية العالمية في دولة اسمها اسرائيل ، وفيما اذا بنيت هذه الدولة على ارض فلسطينية عربية كجسد غريب ادخل الى المنطقة وهو يحمل ايشع صورة من صور الاستعمار بالاضافة الى الاطماع الصهيونية الناتجة عن فلسفة الصهيونيين وعن طموحهم بالاستيلاء على العالم كله . هذه النقطة الاساسية جئت على ذكرها لأؤكد ان لبنان

دخل في التاريخ الفلسطيني ، وفي التاريخ العربي الفلسطيني ، وفي التاريخ اللبناني الفلسطيني ربما قبل اي دولة أخرى ، مما يجعلنا جديرين بأن نتكلم عن القضية الفلسطينية بكل اقتناع . الا ان الامور في لبنان تطورت بعد ذلك بشكل اضعف فيه الخط الوطني الذي اتى على ذكره كمال بك ، الخط الوطني الذي شمل جميع الطوائف والذي ساهم مساهمة جدية في انشاء الدولة اللبنانية العصرية وفي الالتزام العربي والفلسطيني للدولة ، اضعف هذا الخط بسبب الاحداث المتتالية التي حصلت في لبنان منذ ازمة سنة ١٩٥٨ ومن الازمات التي نعيشها اليوم والتي تستعمل ذريعة لبعض الفئات لتعزيز العنصرية والتعصب الطائفي الى غير ذلك من مواقف تعزل لبنان او فئة من اللبنانيين عن التزامها الطبيعي الجغرافي - التاريخي - السياسي .

تمائل الثورتين الفلسطينية واللبنانية

انطلاقاً من ذلك اقول انه اذا كانت العلاقات اللبنانية الفلسطينية تظهر في بعض الصحف وفي بعض الاقوال بصفحات سوداء يتألم لها طبعاً الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني الا انني اعتقد انها ستتحوّل الى صفحات ذهبية في تاريخ الشعبين الفلسطيني واللبناني وفي تاريخ العرب باجمال . لان الثورة الفلسطينية على الرغم مما يعترضها من مصاعب ومتاعب هي حدث تاريخي حيوي في مصير العرب يستتسبب في ايجاد تغيير اساسي في حياتهم وفي فلسفتهم وفي نظرتهم للحياة وفي تركيبهم السياسي . ولبنان بالخاص سيستفيد الكثير من الثورة الفلسطينية لانها قريبة جداً الى ما ينبغي ان تكون عليه الثورة اللبنانية يوماً ما . فمن حيث الجغرافيا يكون لبنان وفلسطين نوعاً من التكامل الجغرافي في هذه البقعة من الارض العربية ، كذلك تنتهي فلسطين ولبنان الى حضارة واحدة والى البحر الابيض المتوسط ويجمعهما كثير من الروابط التاريخية . وبالإضافة الى ذلك فان الثورة الفلسطينية تنادي اليوم بدولة علمانية تؤمن لجميع سكان الارض الفلسطينية الحبيبة الحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية دون اي تفرقة بسبب الطائفية ، وهذا ما يصبو اليه لبنان وما ينبغي ان يكون عليه لبنان المستقبل . ان علينا ان نستفيد من التفاعل الممكن بين الوجود الفلسطيني في لبنان وبين الانية اللبنانية الكبيرة بأن يتحول لبنان يوماً ما الى بلد يتعد عن الطائفية ويعتمد العلمانية بشكل صحيح .

الوجود الفلسطيني جيش حليف

لقد احببت ان ائوه بهذه الامور لانني اعتبرها ايجابية . وعلينا الان ان ننظر الى العلاقات اليومية بين الفلسطينيين الموجودين على الارض اللبنانية وبين الدولة اللبنانية والشعب اللبناني . على صعيد العلاقات الرسمية بين المقاومة والدولة اعتقد ان الظروف التي نعيشها يجب ان تعطينا عبراً ومثلاً لتعاون اوثق . انا لا اسلم بالقول بوجود تناقض بين منطق الثورة ومنطق الدولة ، ولكن اذا سلمنا بذلك فعلياً ان نقبل - بادنى تفسير ممكن - بالوجود الفلسطيني كوجود جيش يحارب معنا عدواً مشتركاً ، وعلينا ان نعطي كل ما نملك من طاقات ومن امكانيات ومن مساعدة الى هذا الجيش الحليف ، وان نلتحم بواسطة جيشنا مع هذا الجيش ، ونحارب مع العدو المشترك . واعتقد ان هذه الفكرة بدأت تدخل تماماً في اذهان المسؤولين في الدولة ، او على الاقل في اذهان الكثير من رجال السياسة والقادة .

بجانب هذه النقطة ، لا بد من وجود بعض التجاوزات ولا بد من بعض المخالفات من قبل وجود مثل الوجود الفلسطيني في لبنان ، وبوجود بعض الفئات اللبنانية التي

يضعب عليها ان تتفهم ذلك بسهولة ، وبسبب عجز الدولة الاعلامي عن توعية اللبنانيين بهذا الواقع . واعتقد ان هذه التجاوزات يمكن ان تضبط وان تنظم بواسطة اللجان المشتركة وبكل ما ورد في الاتفاقيات المشتركة التي حصلت وان ستحصل في المستقبل ان شاء الله . وانا متفائل جدا بأنه يمكن للدولة اللبنانية ، حتى في حال بنيتها الحاضرة المنهارة والمتفككة ، ان تؤمن الحد الأدنى من التعاون ومن الأمن المشترك بواسطة الاتفاقات الموجودة .

أتمنى ان ينادي المسيحي بالثورة قبل المسلم

وإذا انتقلنا الى العلاقة بين الشعبين الفلسطيني واللبناني فأنني أتمنى — اذا جئنا الى المنطق الطائفي — ان يكون المسيحي في لبنان هو الذي يحمل لواء فلسطين وهو الذي ينادي بالثورة الفلسطينية قبل المسلم . وعلى المقاومة الفلسطينية ، بواسطة اجهزتها الاعلامية وعملها على الارض اللبنانية ، ان تقوم بمساعي ايجابية في هذه الناحية ، لتعطي للمواطن المسيحي في لبنان صورة صحيحة ، وصورة صادقة ، وصورة مغرية ، عن الوجود الفلسطيني وعن الكفاح الفلسطيني ، وعن ما يمكن ان ينتج من نتائج ايجابية فيما لو حصل تعاون بين الشعبين . ان من واجب المقاومة الفلسطينية ان تتوجه اولا الى الراي العام المسيحي قبل ان تتوجه الى رأي عام قد يعتبر بالنسبة لها تحصيل حاصل . وانا مستعد ، كشخص وكمسؤول ، على قدر المستطاع ان اعطي من وقتي ، واعطي كل مساعدة في هذا المجال .

أما بالنسبة للتقليد الطائفي في لبنان الذي اتى على ذكره كمال بك ، فأقول ان الانتساب الطائفي في لبنان لم يكن فقط انتسابا دينيا فهو انتساب اجتماعي سياسي . والمسيحي الذي ينتمي الى طائفة مسيحية قد يكون ملحدا في اغلبيه الاحيان الا انه ينتمي الى نوع من التفكير في نوعية الحياة ، في كيفية الحياة ككل . انه يؤمن ببعض القيم التي يمكن ان توصف كقيم مسيحية او كقيم حضارية اذا سلمنا بذلك . ويمكن لهذه القيم ان تفيد العالم العربي كله يوما ما . فعليه ان يطمئن الى ان هذه القيم ستبقى محفوظة عبر الثورة الفلسطينية وغير الالتزام العربي حتى لو محي انتسابه الطائفي . ان مصدر الاطمئنان لم يكن مصدرا مسيحيا او دينيا بل هو مصدر حضاري وعلينا ان ندرك ذلك .

الاستاذ سمير فرنجيه : أحب ان أركز على نقطة واحدة في موضوع العلاقات الفلسطينية — اللبنانية هي ما قيل عن أزمة النظام وعن الخوف المسيحي .

أزمة النظام والفئات الانعزالية

ان سبب توتر العلاقات ناتج عن أزمة نظام غير قابل ان يجدد نفسه ، وبرهن على فشل وطني وفشل اجتماعي . وهذا النظام يستخدم فئة المسيحيين كاحتياط له ويستغل خوفها التقليدي من كل ما هو خارجي . وان احد اسباب هذا الخوف هو عدم وجود فئة مسيحية قادرة على ان تطرح كبديل للفئات الانعزالية الموجودة حاليا . وبذلك فان العمل التبشيري في الوسط المسيحي لا يكفي لان الخوف اضلا غير ناتج عن تحليل منطقي . ومن هنا فان ازالة هذا الخوف لا تأتي باقناع الشخصن بالقول له ان العرب لا يشكلون خطرا عليك او ان ثمة مسيحيين بين الفلسطينيين ، او ان هناك على رأس بعض المنظمات الفدائية اشخاصا مسيحيين كجورج حبش ونايف حواتمه . هذه الامور لا تشكل اهمية بالنسبة للمسيحيين الخائفين لان عقدة الخوف لا تحارب الا اذا وجدت قوة قادرة بحكم وجودها على ان تعطيه حماية معينة . وهذه القوة يمكن

ان تتجه اما الى طريق انعزالي او الى طريق العقل . وحتى الان حدث عدد من التجارب الكبيرة في هذا الصدد . فمثلا لقد هزمت الفئة الانعزالية التي كانت موجودة عام ١٩٤٣ وعزلت الكتلة الوطنية عن الحكم عدة سنوات . وفي عام ١٩٥٨ هزمت الفئة الانعزالية التي كان يمثلها كميل شمعون وانعزلت ايضا عن الحكم خلال فترة طويلة ، على الرغم من أن هاتين الفئتين كانتا تمثلان جمهورا واسعا من المسيحيين . ولكن بأي منطق هزمت هاتان الفئتان ؟ لقد هزمنا بمنطق قوة وليس بمنطق الضعف ولا منطق الائتلاف . واطن ان افضل تجربة في هذا السياق كانت تجربة زغرنا التي وقعت في عام ١٩٥٨ في الصف العربي ضد اكثرية المسيحيين . ولم تكن تلك ظاهرة جديدة في تاريخ لبنان . اذن فان الاسلوب هنا هو الاساس .

انني اوافق كمال بك الرأي في ان الدولة لعبت دورا في تقوية الفئات الانعزالية . لقد مدت الكتائب بالسلاح وبالمساعدات على جميع انواعها حتى انها اوجدت فئات ثانية مثل « جبهة حراس الارز » ، وهي فئات مسيحية مهمتها تحريض الوسط المسيحي ، كما ساعدت الرابطة المارونية وغير ذلك . ولكن في مقابل ذلك برزت في الاوساط المسيحية اتجاهات جديدة تعمل على اعادة النظر في الوضع الحالي . ويجسد ذلك ، كمثال ، انتخابات الجامعة اللبنانية ، ووجود فئة مسيحية متعاطفة مع الحركة الوطنية ، كما برز ذلك في ازمة الحزب القومي السوري الموجود اصلا في الريف المسيحي ، والذي كان نتيجة التطور الموجود في هذا الريف .

الاتجاهات الجديدة مقابل مشروع الكتائب الانتحاري

هذه الفئات العديدة قادرة برأيي على ان تخوض معركة مع الكتائب بهدف اعادة اكثرية المسيحيين الى الخط الوطني خاصة وقد ظهر في نهاية المطاف ان المشروع الكتائبي هو مشروع انتحاري يقف في طريق مسدود . فاذا كانت الكتلة الوطنية او كميل شمعون قد طرحا على الجمهور المسيحي اهدافا محددة (كميل شمعون كان يسعى الى تجديد ولايته) فماذا يريد بيار الجميل اليوم ؟ بتعبير اخر ما هو الهدف المحدد الذي تطرحه الفئة الانعزالية الاقوى في الوسط المسيحي على انصارها ؟ عمليا لا شيء . فهم يطرحون على انصارهم ان المسألة هي مسألة قتال مع المقاومة ومع الاسلام . وليس ثمة من هدف اخر يستطيعون ان يعيّنوا على اساسه ، وجميع الاسباب التي اعطيت للخلافات ولتوتر العلاقات بين الطرفين كانت حلقتها المركزية هذه المسألة .

على الحركة الوطنية ان تسهم في حركة المسيحيين

وهنا ، فكما ان الحركة الوطنية الراهنة استطاعت ان تتحالف مع حركة المسلمين انطلاقا من ظروف كثيرة محددة تدور حول ان المسلمين محرومون من بعض الحقوق السياسية والاجتماعية ، فان على الحركة الوطنية ان تساهم في ايجاد حركة المسيحيين ، اي ان عليها ان يكون لها الطرفان . اما بالنسبة لقدرة الحركة الوطنية على انجاز هذه المهمة ، فقد تكون غير قادرة على خلق البديل المسيحي بسرعة نظرا للظروف الحالية بما فيها من تعبئة طائفية ، ولكنها قادرة على انجاز امر اخر انجازا سريعا هو ان تتعامل مع شخصيات وطنية مسيحية ليس كبديل عن الحركة الوطنية ولكن كقوة مساعدة رديفة للحركة الوطنية . واعتقد ان معركة عزل الكتائب عن الحكم هي الجزء الاول من معركة تكوين البديل . وعندما عزل كميل شمعون عن الحكم اضطر فؤاد شهاب ان يخلق الكتائب خلقا لانه وجد من الضروري ان يكون ثمة طرف

مسيحي محاور مقابل الطرف المسلم . ربما كان اختيار فؤاد شهاب غير سليم وذلك موضوع آخر ، غير ان فؤاد شهاب استطاع ان يعزل كميل شمعون وكانت قوته تفوق قوة الكتائب الحالية . ان التركيز الان يجب ان يكون على كيفية تشكيل القوة البديلة وكيفية تجميع كافة العناصر الراضية للمنطق الكتائبي والتي برزت خلال الاحداث .

ان من يتابع اخبار المناطق المسيحية ، فقط من خلال الصحف ، يأخذ فكرة مشوهة عما جرى فيها . ولكن في الحقيقة هناك مناطق معينة لم تحدث فيها تعبئة طائفية ولم يكن هناك قدرة على تحريك مناطق عديدة نحو ذلك ، من الجنوب في الزهراني الى البقاع الى زحلة الى منطقة الشمال . وقد حدث عكس ذلك في أكثر من منطقة اذ اخذت هذه القوى المبادرة في التصدي للكتائب والتأكيد على ان العرب قد تطوروا وان الامور قد تغيرت عما كانت عليه في الماضي . ولكن يظل مع هذا أن مثل هذا الكلام يمكن ان يفيد فئة معينة من اللبنانيين هي الفئة المثقفة القادرة على فهم هذه المعطيات غير ان القسم الاكبر من المسيحيين لن يسير الا وراء قطب جاذب يطرح نفسه بكل صراحة بأنه البديل عن الكتائب . فالكتائب هي آخر رمز للانعزالية اللبنانية ويمكن ضربها اذا تمت عملية عزلها سياسيا . وبذلك تصبح مهمة تكوين البديل ، القادر وحده على تخفيف حدة التوتر بين الشعبين الفلسطيني واللبناني ووضع الازمات في اطارها الطبيعي العادي ، هي المهمة الراهنة والاساسية والتي ، برأيي ، يمكن ان تنجز بأسرع مما يتصور .

الدكتور نجيب ابو حيدر : نحن طائفة الروم كنا على مدى التاريخ مجموعة غير طائفية وقد رفضت الطائفية ، وكانت تعتبر نفسها دائما من المجموعة العربية حتى ان بطريرك الروم في زيارته الاخيرة الى السعودية كان يوازي مع ملك العربية السعودية ايها الأكثر عروبة بطريرك الروم ام الملك . لهذا السبب فانني شخصيا اجد من الصعوبة الكلام عن القضية الطائفية في لبنان خاصة اني لا افهمها كما ان فهمي لها صعب قليلا .

الفهم الطبقي للطائفية

انا ارى ان الطائفية في لبنان ليست الا مظهرا من مظاهر الصراع الطبقي . فلو اخذنا هيكلية حزب الكتائب وتساءلنا مما يتألف حزب الكتائب لوجدنا انه مؤلف من الموارنة على وجه الخصوص بالاضافة الى عدد قليل جدا من غير الموارنة . اما القيادة فيه فهي من صميم القطاعات الاستثمارية اللبنانية وعددها يعد على الاصابع . اما بقية الكوادر الكتائبية فهي من الاشخاص الذين يفترض انهم من طبقات المحرومين ، ولكننا نرى هؤلاء يقاثلون مع الطبقات التي تستثمرها في هذا البلد . وربما يعود ذلك الى ان القيمين على الامور في هذا القطاع اكثر ذكاء من القيمين على الامور في بقية القطاعات ، فقد استطاعوا ان يقتنعوا هذا الشعب الفقير العامل بأن مصلحته تكمن في الدفاع عن الوضع الحالي في لبنان ، الوضع الاستثماري الرأسمالي .

ما الذي جرى في الدكوانه ؟ لقد شاهدت العامل هناك يقاثل العامل . وان الذي خسر في الدكوانه هو العامل . وقد تحدثت مع اصدقائي في المقاومة وبالاخص مع الحركة العمالية الفلسطينية وكنت اسألهم ماذا فعلتم وبمن الحقتم الضرر ؟ وكنت اذهب الى الجانب الاخر واسألهم بمن الحقتم الضرر ومن الذي تضرر ؟ وكان هنما في اليومين الاخيرين ان نفتح الطوق كي يعود العمال الى اعمالهم فهم يجب ان يأكلوا . ولهذا السبب فانني ارفض الدخول في الوضع اللبناني الطائفي لاني اعتبر المسألة

صراعا طبقيًا وصراعا على مراكز القوى بين الزعماء السياسيين . ومن هنا فان ظاهرة الطائفية ليست عميقة الجذور ويمكن انهاء الصراع الطائفي في لبنان بتطوير الوضع اللبناني مهما كانت هذه المهمة صعبة .

تذكير ببعض حقائق التاريخ

أريد ان ارجع قليلا الى التاريخ، وعندما نتحدث عن شعبين، الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني، فإني اعتبر ذلك رجعة الى الوراء فقد كان في الماضي شيء اسمه القومية العربية، ومنذ عام ١٩٢٠ تدهورت القومية العربية تدهورا مخيفًا . لقد أصبحنا اليوم نتحدث عن شعب لبناني وشعب فلسطيني وشعب قطري وشعب كويتي وهلم جرا . كما اننا أصبحنا نرى اقتتالا بين الشعوب العربية على قطرات الماء : بين لبنان وسوريا، وبين العراق وسوريا، واقتتالا على لقمة العيش . لهذا السبب اجدني مضطرا، لسوء الحظ، ان اتحدث عن شعب فلسطيني وشعب لبناني . ان لكل من الشعبين تناقضاته . وفي فلسطين لم تكن الطائفية موجودة . لقد عثت في القدس عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ وقد لمست في الحقيقة انه لا وجود للطواهر الطائفية في فلسطين . ولكن قبل احتلال الصهيونية لفلسطين كان في فلسطين وجود وتطاحن اكثر ضرا من الوجود الطائفي هو التطاحن العائلي ما بين الحسينيين والدجانيين والخالدين والنشاشيبيين . وكان ذلك التطاحن يضا هي التطاحن الموجود في لبنان . وقد ادى ذلك، اكثر من اي شيء اخر، الى الكارثة الفلسطينية . لقد فقدت الوحدة في الصف الفلسطيني للقتال ضد منظمة صهيونية موحدة استطاعت ان تخلق جيشا للسيطرة على البلاد، بينما كان الفلسطينيون يتقاتلون : الحاج امين رحمه الله كان يقتل وغير الحاج امين كان يقتل . غير انه من حسن حظ الشعب الفلسطيني، وبعد هذه المحنة، انه خرج من فلسطين دون قيادة تقليدية . لقد انهارت القيادة التقليدية . ونظرا لهذا الحدث فقد كانت هناك امكانية بروز قيادة فلسطينية من الشعب وللشعب . ولهذا فان امامنا حاليا الظاهرة الفلسطينية الراهنة التي يمكن ان تعتبر مستقبلية في مجالها .

الدعوة الى وجود سلطتين قويتين وطنيتين

هنا على ارض لبنان يوجد شعب فلسطين، ان الس ٤٠٠ الف نسمة يؤلفون شعبا . والشعب الفلسطيني أصبح له نوع من المؤسسة الوطنية هي منظمة التحرير الفلسطينية . وكما في لبنان يمين ويسار وغير ذلك، كذلك فان للشعب الفلسطيني تناقضاته . ولكننا يجب ان نقبل ان تكون منظمة التحرير هي المسؤولة عن كل ما يجري ضمن هذا الشعب وان تكون مسؤولة عنه حتى تتمكن من ان تتكلم باسمه وتقوم بعقد تعهدات تعاقدية مع أي مؤسسة شعبية اخرى في لبنان وغيره . لهذا السبب فان من ضروريات التعايش اللبناني الفلسطيني في المستقبل وجود مؤسسة مركزية فلسطينية تكون مسؤولة عن اي تعاقد حصل او قد يحصل في المستقبل . وعلى هذه السلطة ان تقرض على الشعب الفلسطيني ما تقبله هي . وعلينا ان نشير الى انه ليس الشعب الفلسطيني فقط وانما العالم بأسره قد وافق على ان تمثل المنظمة الشعب الفلسطيني، عندما تكلم ياسر عرفات باسم الشعب الفلسطيني في الامم المتحدة .

اذن فان على الشعب الفلسطيني ان ينظم اموره في هذا الاطار وان يقبل بان تكون منظمة التحرير الفلسطينية هي المؤسسة المركزية التي تتعاقد باسمه وتوقع التعهدات . وانا لا اعرف حتى الان اسباب عدم اعلان حكومة فلسطينية في المنفى، غير ان التعبير ليس له قيمة فان منظمة التحرير الفلسطينية تقوم بهذا العمل . ويجب

ان تكون هذه المنظمة قوية لدرجة تستطيع فيها ان تمارس جميع الصلاحيات التي تمارسها اية حكومة على شعبها .

في مقابل ذلك لدينا الشعب اللبناني بتناقضاته الطائفية والحزبية . ونحن في صراع ضمن هذه التناقضات . أما من سربح في المستقبل فلا أستطيع ان اتنبأ وأن كانت الطبقة الاقطاعية السياسية هي الرابحة حتى الان . ولكن هذا لا ينفي ضرورة قيام سلطة وطنية لبنانية قوية تمارس جميع الحقوق . وهنا اشير الى المقال الذي نشرته في « النهار » يوم ٧٥/٥/٣٠ والذي بينت فيه الضرورات الاساسية لقيام مستقبل العلاقات بين اللبنانيين والفلسطينيين .

توجيه الجهد اللبناني نحو الصراع مع اسرائيل

منذ عام ١٩٦٧ حدثت ثلاثة صراعات اساسية ولو كانت معركتان فقط لكان ذلك كثيرا . وكانت هذه المعارك التي حدثت بين اللبنانيين والفلسطينيين تحل بطريقة واحدة : الاتفاقات ، سواء اتفاقية القاهرة أو ملاحق ملكارت . وفي رأيي لم تكن تلك في حد ذاتها علاجات اساسية في حل الصراع ولم تكن الا مخدرات مؤقتة . وهنا أحب ان انزع عن نفسي الصفة التقدمية والوطنية واتعامل بحسب الربح والخسارة واتساءل ماذا يمكن ان تكون خسارة لبنان لو شارك في المعركة العربية ضد اسرائيل ، ماذا يمكن ان تكون الخسارة في الرجال والعناد وفي الاقتصاد وفي المعنويات ؟ مقابل ذلك ما هي الخسارة التي حصلت الان نتيجة معاهدة القاهرة وغيرها والتي اصابت لبنان في الرجال والمعدات وفي الماديات والمعنويات ؟ بتقديري اننا لو اشتركنا في المعركة العربية العامة لكانت خسارتنا فيها اقل بكثير مما نخسر الان ومما يمكن ان نخسر في المستقبل .

اسمحوا لي ان اقول هنا ، وفي هذا الموضوع ، اننا اذا اردنا ان ننظم العلاقات اللبنانية - الفلسطينية واللبنانية - العربية ، فلا يمكن عزل فئة من اللبنانيين مهما كانت ، بل يجب ان يشارك جميع اللبنانيين في المعركة ، لان المعركة اكبر من اي فئة وحدها ، وان المعركة تتطلب تضحيات كبيرة جدا . وان لم نقم بهذه التضحيات فلن يكون لنا بقاء في المستقبل .

ان ضرورة المشاركة اللبنانية في المعركة القادمة ضد اسرائيل هي ضرورة حتمية وضرورة لبقاء لبنان . واذا لم يشارك لبنان في المعركة القادمة فلا اعلم ماذا سيكون مصير هذا البلد على جميع الاصعدة . كما أرى من الضروري اقتناع اللبنانيين بأن عليهم ان يقوموا بتضحيات اكبر مما قدموا حتى الان . ولا شك اننا قدمنا تضحيات في هذا البلد .

ان علينا ان نخلق سلطة لبنانية قوية وجيشا لبنانيا قويا وان تقوم معاهدات بين السلطة اللبنانية والسلطة الفلسطينية والسلطة العربية المشاركة في القتال كي يصبح الجيش اللبناني احد الجيوش المشاركة في القتال . واذا لم تتحول هذه المعاهدات من كونها نظرية الى ان تصبح تطبيقية فلا بقاء للبنان .

اما بالنسبة للسلاح الموجود حاليا في ايدي الشعب اللبناني فان استعماله وتنظيمه اذا بقيا على ما هما عليه الان فهو لن يأتي على لبنان الا بالكوارث . ان هذا السلاح يجب ان يصبح سلاحا منظما تحت الراية اللبنانية وتحت قوة حرس وطني ، ينظم بالاساليب العسكرية ويعاقب من يستعمله خارج هذا النظام باعتباره مخالفا للقوانين اللبنانية ومجرما امام القانون . وعندئذ يصبح هذا السلاح الموجود في ايدي اللبنانيين

حاليا جزءا من اداة المعركة المصرية مع اسرائيل — وانا شخصيا لا ارى ان الحل السلمي وراء الابواب كما ارى ان المعركة طويلة — وفي هذه الحالة فلن يبقى السلاح للاستعمال اللبناني الفولكلوري الذي تعودنا عليه حتى هذا التاريخ .

الجزء الثاني : المداخلات

الدكتور امين الحافظ : انني ارفض فكرة عدم الاستقرار في لبنان ، لان عدم الاستقرار الناتج عن الوجود الفلسطيني يجب ان يتحول الى استقرار ، والى مركز قوة كي يتمكن لبنان من المشاركة في المعركة . اما اذا بقينا على هذا النمط مسن عدم الاستقرار فان ذلك سينتجر كل ثلاثة اشهر او اربعة في حوادث كما نرى الان التي يدفع ثمنها الثورة الفلسطينية اولا والشعب اللبناني بمجمله ثانيا سواء اكان مسيحيا أم مسلما .

الشيخ ميشال الخوري : لقد اتى الدكتور ابو حيدر على ذكر الطائفية وقال انها ليست سوى صورة من صور الصراع الطبقي . وانا اعتقد ، خلافا لما تفضل به الدكتور ابو حيدر ، ان الطائفية هي العائق الذي يردع الصراع الطبقي وان الطائفية هي صورة من المخلفات القديمة التي تمنع هذا الصراع . واذا حللنا الوضع اليوم — وهو ما يجب ان يفهمه الجميع حتى نستطيع ان ندرك في النهاية اين الجرثومة واين المرض فعلا — على الطريقة الماركسية فاننا نجد ان ثمة طبقة حاكمة وطبقة محكومة عليها . اما الطبقة الحاكمة فهي مؤلفة من نسبة كبيرة من المسيحيين ومن نسبة قد تكون ٣٠ بالمائة او ٤٠ بالمائة من غير المسيحيين ، اي ان الاكثية مسيحية . والطبقة المحكوم عليها مؤلفة من اكثرية غير مسيحية واقلية غير مسيحية نسبتها ٤٠ بالمائة . لكن الفئة المحكوم عليها المكونة من الطبقة الكادحة ، طبقة المحرومين ، هي في حالة تواطؤ مستمر مع الطبقة الحاكمة ، سواء عن جهل ام ادراك ، بسبب الطائفية . بمعنى ان الرابط الطائفي هو الذي يجعل العامل المسيحي — الذي يطلق النار اليوم على العامل المسيحي — يفضل ان يحكمه مسيحي عن ان يحكمه شخص اخر . واذا لم تعالج المرض هذا فلا يمكننا في النهاية حل المشكلة وانني اعتبر هذه النقطة اساسية .

الدكتور امين الحافظ : طرح الاستاذ سمر مسألة ايجاد شخصية مسيحية او قوة تستقطب المسيحيين . فهل هو يفضل الاحزاب أم الاشخاص ؟ بمعنى انه عندما يكون هناك حزب ينتمي اليه عدد من الشخصيات الوطنية والتقدمية من مختلف الطوائف المسيحية والاسلامية أفليس هذا أفضل من أجل الانصار ؟ هذه نقطة ، ونقطة ثانية انه بنظرة الى المستقبل ومن أجل دعم الثورة الفلسطينية طرحت في الماضي فكرة توحيد المليشيات من أجل تكوين مليشيا كبيرة وطنية لبنانية لمساندة الثورة الفلسطينية ، أفلا ترون ان هذه الفكرة قابلة للتنفيذ ؟

الدكتور نجيب ابو حيدر : اريد أن أقول للاخوان الفلسطينيين اننا في الحقيقة لا نعرف بعضنا بعضا . فالأخوان الفلسطينيين لا يعرفون من لبنان سوى بيروت والمدن ، أما ما يسمى الجبل المسيحي الدرزي فهم لا يعرفونه . أنا ، مثلا ، من منطقة بعبدا ، من حمانا . وهي منطقة درزية مسيحية والاكثية فيها روم وموارنة . ليس لدينا في هذه المنطقة طائفية فالدروز منقسمون قسمين وكذلك الموارنة قسمان ، قسم من الدروز مع الموارنة وقسم من الموارنة مع الدروز . في الماضي كان الدروز منقسمين الى يزيكية وجنبلاطية ، الآن أصبح الجنبلاطيون اشتراكيين .

عندما أتحدث مع بعض الاخوان المسيحيين عن المحرومين يقولون انه ليس من جائع في لبنان ولكني أقول أن المسألة ليست هي الخبز وحده وإنما ادعوهم الى منطقة صبرا ليشاهدوا اذا كان بإمكانهم أن يقبلوا بأن يعيش لبنانيون في هذا المستوى من المعيشة غير المقبولة . ولذلك فاني أرى أن من أهم أسباب حل الازمة تعارف الشعوب بعضها ببعض . ان اللبنانيين لا يعرفون ماذا كان يحدث في المخيمات قبل عام ١٩٦٧ ، وعندما أقول لهم ان الفلسطينيين كانوا يتعرضون لاضطهاد قوى الامن قبل عام ١٩٦٧ لا يصدقون . ان هذه المعلومات غير متوفرة عند اللبنانيين كما ان الشعب اللبناني جاهل بالقضية الفلسطينية أكثر بكثير من الشعب الفرنسي . لقد صرفت أموال كثيرة للدعاية في الخارج ، في أوروبا وأمريكا ، وصرف القليل جداً في لبنان . وقد أثرت هذه المواضيع في الجمعيات التي ننتمي اليها ، جمعية الخمس من حزيران والجمعية اللبنانية للاعلام الفلسطيني ، وتحدثنا عن ضرورة الاعلام الفلسطيني في لبنان نفسه الذي جهل الفلسطينيين ، فحيثما ذهبت في الجبل فهم لا يعرفون عن القضية الفلسطينية سوى انها قضية شعب طرد من أرضه وأنه « حرام » ، لازم يرجع اليها » . يمكن لان الشيخ بيار قال ذلك وقبلوا به . فمن الضروري اذن من أجل دعم القضية الفلسطينية تعريف هذه القضية للبنانيين ، ليس في بيروت الغربية فقط وإنما في الشرقية أيضاً وفي منطقة كسروان وفي جميع المناطق اللبنانية .

الاستاذ سمير فرنجيه : ان أكثر المسائل اهمية في قضية الصراع الطبقي والصراع الطائفي ان ثمة شعورا قوميا مزيفا لدى المسيحيين يجعلهم يتحدثون بصيغة الجمع ساعة يتحدثون عن لبنان بحيث يعتبرون انهم ورثوه وأنه ملك لهم . وهذا الشعور القومي المزيف يجعل العامل المسيحي يؤيد بيار الجميل كما كان يؤيد قبل ذلك كميل شمعون . وهذا الواقع يجب أخذه بعين الاعتبار وان كان ذلك لا يعني اننا نشجع هذا الشعور القومي المزيف . خذ مثلاً قضية اجتماعية مطروحة كالفلاء او قضية الايجارات ، فبدلاً من معالجتها يقول هؤلاء هناك مسألة أهم ، هناك الخطر على المسيحيين . فالطائفية لا تبحث في الخطر على الدين وإنما على « الوجود القومي » لفئة معينة ، وهذا هو التسعور الذي تتركه الكنائس ، ومن هنا قولهم انهم يمثلون نصف لبنان ، ومن هنا أيضاً مشاريع قبرصة لبنان وتقسيمه .

أما بالنسبة للملاحظة التي طرحها دولة الرئيس الحافظ فان الحل المثالي بطبيعة الحال هو أن يكون هناك حزب يوحد بين الجميع . غير ان علينا أن ننطلق من واقع معين فهناك تشتت سياسي في المناطق المسيحية ، والأرض المشتركة غير واسعة لتوحيد جميع هذه الفئات في حزب واحد ، فهناك الديمقراطية والأشترافي وغير ذلك ، لذا فان توحيدهم يجب ان يتخذ الشكل الجبهوي بدل شكل الحزب . وبالإضافة الى ذلك فهناك التركيز على ايجاد القطب المسيحي ويعود هذا التركيز الى ان المسيحيين الريفيين هم من الفئة البرجوازية الصغيرة التي لا تملك الاستقلالية بحد ذاتها والتي لا بد ان تتبع إقطاباً معينين . ولو كانت البروليتاريا موجودة في المناطق المسيحية فان المسألة عندها تجد حلاً ما دام البديل موجوداً . غير ان الحل يجب ان يتخذ الشكل الواقعي لفقدان الجزء الثاني من المعادلة أعني فقدان البروليتاريا . بجانب ذلك فهناك مسألة أساسية هي ان محاربة الكنائس من جانب أطراف مسيحية يعطل جميع قدراتها القتالية . لقد حاربت مليشيا الكنائس في الذكوانة ليس بالعامل الموجود هناك فحسب بل كذلك بابن العاقورة وابن نورين وابن قرطبا وهؤلاء يستحيل تعيبتهم ضد ابنساء زغرنا او حراجل او غيرها . وحادث ترشيش في العام الماضي يعطي مثلاً على ذلك فرغم

الوجود العسكري القوي للكثائب هناك فهم لم يستطيعوا ان يعبئوا المنطقة لان الحادث وقع في الجبل حيث لا وجود للفلسطينيين هناك .

الإستاذ شفيق الحوت : في الحقيقة لم أسمع في هذه الندوة كلمة أجد نفسي في موقف مضاد منها أو مختلف معها . وأمام هذه الروحانية اللبنانية غير المستغربة أو المستهجنة عن الطرح الموضوعي الذي لا يخلو من نقد ذاتي أجد كائنسان ينتمي الى حركة المقاومة الفلسطينية انه لا بد لي من أن ادلي بكلمة أحاول فيها أن أعطي صورة عن المفهوم الفلسطيني اللازمة .

انني كفلسطيني أقام في لبنان وأعرفه بتكوينه السياسي والاجتماعي والطائفي لم أكن أتمنى في حياتي أن ينتهي المطاف بالثورة الفلسطينية في القطر اللبناني . كنت أتمنى لها أن تقوى وأن تنمو وتستمر في الساحة الأردنية مثلاً او في أي قطر عربي مجاور لاسرائيل الا في الساحة اللبنانية . لانني ، بحكم تواجدي على هذه الارض أعرف مشاكل لبنان الكثيرة . ربما يكون وجودها هنا — كما تفضل بعض الاخوة وبالأخص الشيخ ميشال — هو لمصلحة لبنان بقدر ما هو لمصلحة فلسطين ، بمعنى أنها قد تدفع هذا القطر على طريق التقدم وعلى طريق الديموقراطية والعلمانية .

أمام تعدد المجتمع اللبناني ومشاكله جاءت قيادة فلسطينية تجهل هذا الواقع اللبناني . فعندما اضطرت هذه القيادة تحت وطأة الاحداث الرهيبة في الاردن الى المجيء هنا ، دخلت ساحة لا تعرف الكثير من خفاياها السياسية والاجتماعية . لقد كان أختونا الذين هم على مستوى قيادي وقدموا من الاردن أو غزة أو مصر يستغربون كثيراً بعض الأمور عندما كنا نحدثهم عنها نحن أبناء فلسطين الذين أقمنا في الساحة اللبنانية . كانوا يستغربون مثلاً عندما نقول لهم ان كورنيش المزرعة يمينه له اتجاه سياسي ويساره له اتجاه سياسي آخر ، أو عندما نقول لهم انكم اذا دخلتم في الأزقة ستجدون هنا السريان ، وهناك وطى المصيطبة وهناك كركول الدروز ، ولكل من هذه الاحياء اتجاهات سياسية تنعكس على تواجدنا هنا بأشكال مختلفة . غير ان من حسن حظ الثورة الفلسطينية — وقد يأخذ البعض هذا مأخذاً سلبياً — انها كانت منذ تواجدها مرنة بالنسبة للتعاون مع الانظمة ومع الحركات الوطنية . ربما كان بعض العقائديين في حركة المقاومة الفلسطينية يتمنون عدم التعامل اطلاقاً مع الانظمة وينظرون الى الثورة ، من منظار طوباوي ، بأنها حركة التغيير العربية الشاملة واعتبارها البديل للحركة الوطنية الموجودة في لبنان وغيره من الاقطار العربية . غير انه اضافة الى هذا الجهل الفلسطيني بالنسبة للعقد اللبنانية أخذ الفلسطيني يتساءل مع أي لبنان يتعامل ومع أي جهة يتعاون ؟ هل يتعاون مع السلطة أم مع الاحزاب أم مع الطوائف ؟ وبالإضافة الى هذا السؤال عن الجهة التي يتعامل معها الفلسطيني علينا ألا ننسى ان الوجود الفلسطيني حدث هنا في أعقاب مذبحه أيلول ١٩٧٠ ويضيف ذلك سبباً الى ما ذكره كمال بك عن الخشية الفلسطينية . فبجانب خشيته التقليدية الموروثة من ايام المكتب الثاني وضعت هذه الجزرة الفلسطيني على شفير البارائويا او الشعور بالاضطهاد وخطر التصفية بحيث كاد هذا ان يصبح مرضاً فلسطينياً . ولكن على الرغم من هذا فانني أقول بصراحة وبصدق ان المقاومة الفلسطينية كانت براغماتية الى أبعد الحدود الممكنة بمعنى انها تعاونت مع جميع الانظمة بالتساوي . غير انه ثبت شيء من خلال التجربة ان النظام من حيث هو نظام هو في موطن مضاد للثورة الفلسطينية . وليس هذا بغريب . كما يجب الا نغضب منه أو نستهجنه ، لاننا في واقع الامر قد نكون في استراتيجيتنا النهائية ضد أي نظام لاننا ثورة بالتعريف وتلك دول بالتعريف .

حتى ان الرئيس الاسد عندما طرح مشروع الوحدة الفلسطينية - السورية اشترط ان لا نحول سورية الى ثورة والا نتحول نحن الى دولة . اذن فان العلاقة يجب ان تكون واضحة لان ثمة خلافا في المواقع السياسية والنظرية والنضالية بين الثورة والنظام . وهكذا فان النظام بمعناه العام كان دائما موضع حذر من جانب الثورة الفلسطينية وموضع شك وعدم ثقة مطلقة والعكس قائم كذلك .

بجانب ذلك فقد نما احساس موضوعي بأنه يمكن ان يكون في النظام شخصيات وطنية - سواء اكانت في مواقع الحكم ام خارجه - تستطيع ان تبني علاقات بناءة مع الفلسطينيين . وانا اشهد التاريخ الآن انه في العام ١٩٦٩ عندما كان الاستاذ كمال جنبلاط وزيرا للداخلية وكنا آنذاك في مشاكل صعبة واتفاقية القاهرة جديدة ، وموجة المخالفات بعد ذلك وكثرة الحديث عن الفدائي الذي يخرج بثيابه المرقطه و« يسرق وينهب » ، استطعنا آنذاك بالفعل ان نحقق شبه معجزة أمنية بالتعاون ما بين المقاومة الفلسطينية والسلطة اللبنانية لان الاستاذ جنبلاط وهو في موقع المسؤولية كان موضع ثقة الفلسطيني .

ان هذه القضية ليست سياسية فحسب وانما هي نفسية ايضا . فقد كنا نستعين في تلك الفترة بالاستاذ كمال جنبلاط لتسهيل امور الفلسطيني العادي في الوزارات المختلفة ونستعين به لحل مشاكلنا في وزارة الشؤون الاجتماعية حيث لا يزال الوضع فيها ، بالنسبة للتعامل مع الفلسطيني ، كما كان عليه في عام ١٩٤٩ اي سنة اللجوء . وبهذه المناسبة اشير الى أنه لا يوجد في وزارة الشؤون الاجتماعية قانون يحدد علاقات الانسان الفلسطيني بالدولة سواء اكان عاملا ام مزارعا ام متخرجا من المعاهد الجامعية العليا .

بسبب هذه الممارسة أخذ على الثورة الفلسطينية انها تضع ثقل تعاونها مع الحركة الوطنية التقدمية في لبنان وكنا دائما نرد ردا سياسيا ، لاننا نفضل الرد السياسي على الرد العقائدي ، بالقول ان الاخوة في الحركة الوطنية والتقدمية والديمقراطية هم الذين مدوا أيديهم الينا بالدعم والتعاون ، فهل نرفض يدا امتدت الينا ؟ بمعنى آخر ان الحركة الوطنية هي التي اختارت - وكان طبيعيا أن تفعل ذلك - المقاومة الفلسطينية كرفيق وحليف وصاحب قضية مشتركة . ومع هذا فان القيادة الفلسطينية لم تهمل الاطراف الأخرى حتى ان بعض كوادرنا وجهوا الى القيادة نفسها نقدا بأنها مدت يدها الى اليمين اللبناني . وأستطيع أن أقول بصدق وبصراحة انه كان للكثائب حظوة لدى المقاومة الفلسطينية لدرجة انني شخصا كنت أحيل بعض الناس في حل قضاياهم الى عضو في المكتب السياسي لحزب الكتائب اصبحت شبه رفيق دائم لنا في مكتب القائد العام للثورة الفلسطينية . كما ان الحوار كان مستمرا مع الشيخ بيار الجميل والشيخ أمين الجميل وغيرهما . لقد كنا دائما نحاول جهدنا ان نطمئن التخوف المسيحي من خلال الحوار مع اخوتنا في الكتائب ومع رجال الدين ومع البورجوازية اللبنانية على اختلاف أنواعها . ولكن يبدو ان الخلاف الاستراتيجي بينك وبين أي فريق هو الذي يتحكم في النهاية في قضية الصراع .

أما بالنسبة للأخطاء فانا أعتقد بوجود عدم انضباط في الصف الفلسطيني ولكن ذلك ليس هو الاساس وانما هي قضايا هامشية يمكن حلها بواسطة التلفون . ومن خلال تعامل الثورة الفلسطينية مع الشخصيات الوطنية ثبت انه يمكن حل هذه المشاكل بأسهل ما يكون الحل . أما عندما توضع كذريعة لتصعيد الخلاف والتناقض فهنا يصبح الحل مستحيلا . أنا لا أقول هذا دفاعا عن عدم الانضباط في الصف الفلسطيني ، فهو

موجود وهو ناتج عن كوننا عربا ننتسب كما اشار الدكتور امين الحافظ الى منطقة متخلفة في هذه المرحلة من تاريخنا ، ومن الطبيعي ان يكون لدينا اخطاء . ولكن ذلك ناتج عن طبيعة الوضع في لبنان ايضا . فلماذا ينتفي عدم الانضباط في سورية ؟ لاننا في سورية نتعامل مع سلطة واضحة تحدد معها ما لك وما عليك . كما انك مطمئن على صعيد خطها الاستراتيجي . وهذا هو السبب الذي اشار اليه الدكتور ابو حيدر . فسوريه خاضت معارك وضحت بالرجال فكان من الطبيعي — حتى ولو على حساب اشياء كثيرة تمس تنظيماتنا الفلسطينية — ان نتحمل من سورية وان نسكت وأن نرضى ببعض الاجراءات ، لاننا نقول في النهاية انها دولة حاربت ودولة ضحت ودولة ما زالت ترفع شعارات وطنية وقومية مقبولة لدينا .

هنا يصعب على السلطة في لبنان أن تطلب منا ذلك لاننا نجد ان موقفها الاستراتيجي غير مطمئن فكلنا نعرف مشاكل الجيش ، وكلنا نعرف حقيقة السياسة الدفاعية اللبنانية . وما من لبناني يجهل انه ليس من سياسة دفاعية في لبنان وان هنالك عراقيل حقيقية تحول دون قيام سياسة دفاعية في لبنان .

أريد هنا ان اقول ، وليس ذلك في مجال الدفاع ، انه صحيح اننا قصرنا الى حد ما في الواجب التبشيري . ولكن أرجو أن أقول للشيخ ميشال اننا فعلنا بقدر ما تسمح لنا به جدران الوضع في لبنان . أنا شخصيا حضرت في رهبانيات وغيري كذلك من الرفاق والزلاء وقد عمل الاخ محمود درويش ندوة في زغرنا واستقبل استقبالاً جيداً لانه ينتمي الى المقاومة الفلسطينية . مع هذا فاني اشارك الاخ سمير فرنجيه الرأي بأنه يمكننا ان نبشر ولكن في النهاية لا بد للفئات الشعبية المتعاطفة معنا من وجود من يحميها . وهناك بالتأكيد صوت تقدمي ثوري وربما هذا كان من الاسباب التي دفعت الكتائب الى المغامرة . انا لم يكن في حلمي ان اذهب ذات يوم الى الجامعة اليسوعية محاضرا وقد صعقت عندما صنفني الطلاب هناك يمينيا فلسطينيا لاني لم اكن من الجراة في طرح الامور بالمقدار الذي كانوا على استعداد لاستقباله . وهنا يشعر المرء أن ثمة تقدما وهذا دليل صحة . وأظن أن الموقف المسيحي الذي لم يعلن عن نفسه بقوة ولم يترجم بشخصيات قيادية وحركات ، استطاع ان يلجم في مناطق عديدة امكانات الكتائب وشعرت الكتائب فيها انها معزولة . حتى كميل شمعون على الرغم من أنه على مستوى القواعد دعم الكتائب قليلا الا انه أدرك لانه سياسي محنك وربما أكثر مرونة من الجميل ، ان الوضع لم يعد يسمح لاي زعيم طائفي بأن ينفخ في بوق الطائفية ويجند الشارع بالسهولة التي كان يجنده بها في الماضي .

اننا نتمنى كمقاومة فلسطينية ان تتضح الصورة مع الايام كي نتمكن من التعاون . ان التعاون مع السلطة يخضعه الدكتور امين لاتفاقية القاهرة وتفاهم ملكارت . لكن تبقى القضية الاساسية والتي عكست نفسها موضوعيا على الواقع اللبناني هي ان الحركة الوطنية تظل هي الحليف الاساسي الذي يمكن الركون اليه . ومثل واحد أحب ان اشير اليه هنا ان هذا النظام عبر عشر سنوات لم يسمح لصوت او وجه فلسطيني ان يظهر في أية وسيلة من وسائل الاعلام الرسمي . حتى الاتفاقات التي كانت تعقدتها السلطة لو كانت حريصة عليها لدعت وجها فلسطينيا لتوضيحها . لقد تحدثت وزير اعلام سابق ان يعطي منظمة التحرير دقيقة واحدة يوميا في الاذاعة اللبنانية يوجه خلالها نداء يتفق على صيغته ، فقط لكي يشعر المواطن اللبناني العادي الذي يعيش في كسروان او جبيل او سواها ان هذا الانسان الفلسطيني ليس مجرد شبح مرقط قاتل يخطف الطائرات . ان النظام اللبناني منذ عام ١٩٦٥ او منذ ١٩٦٩ بالتحديد ، أي منذ

تواجدت الثورة الفلسطينية حتى اليوم لم تتحمل معدته ان يعطي المجال للظهور لصوت فلسطيني يمثل منظمة التحرير .

كما تفضل الدكتور ابو حيدر نحن احرص من غيرنا على ان يتم التعامل معنا « كمنظمة التحرير » من قبل السلطة . ولكن بعض اجهزة السلطة تظن ان التعامل مع الفئات المتعددة يخردق المقاومة الفلسطينية . حتى نحن ابناء المقاومة الفلسطينية كثيرا ما نشاهد صورا في الصحف ونقرأ عن مقابلات لا نعرف في الحقيقة من الداعي اليها ، بينما هنالك مراجع رسمية موجودة وقيادة موجودة يجب ان يتم الاتصال بها دائما عبر منظمة التحرير والقيادة الحالية وعبر ابو عمار . وأقول هذا دون حساسية فان ما يقتنع به ابو عمار وقيادة منظمة التحرير هو الذي يمر ولا يمر غير ذلك . أما اذا اختلفنا في الساحة بيننا فأعطونا حقنا وفرصتنا ان نرتب نحن أمورنا الداخلية .

الاستاذ كمال جنبلاط : أحب ان أشدد فقط على بعض النواحي التي وردت ومنها ضرورة البديل المسيحي الوطني وأوافق تماما الصديق سمير غرنجيه على وجهة نظره وعلينا أن نفعل كل جهدنا لايجاد هذا البديل كما يجب على المسيحيين الوطنيين ان يجتمعوا ويظهروا بمواقف يتراكم أثرها في الرأي العام الاسلامي والمسيحي والعربي على السواء . فان نقاط المطر تصبح ذات يوم جدولا صغيرا وفي المستقبل تضحى نهرا واسعا يجر معه الاكثية الساحقة من المسيحيين .

فيما يتعلق بالوضع اللبناني والتسمم الداخلي فان الذي نلاحظه ان للصحافة أثرا في ذلك خصوصا تلك التي تتوجه الى جمهور المسيحيين . وعندما تستوي روح الحقيقة لدى بعض الصحف فسيحصل تبديل هائل في الذهنية المسيحية . وفي الطرف المؤلم الذي عشناه منذ شهر ونيف لعبت بعض الصحف دورا في تشويه الحقائق بتقديمها بشكل لا يقبله الا الذين يريدون التطرف الطائفي ويسعون وراءه . ولو ان هذه الصحف أخذت فقط بمنطق الاعتدال لما تجرأت الكتاب على ما تجرأت عليه ولما جرت قسما كبيرا من المسيحيين وراءها بشكل مؤقت .

مسألة أخرى في الوضع اللبناني هي التقسيم الانتخابي ففي الطائفية يجعل التقسيم الانتخابي الجائر اكثية ساحقة من المسلمين في جهة واكثية ساحقة من المسيحيين في جهة أخرى . لذلك يجب ان ننظر بجدية الى تعديل هذا القانون والافنح أمام قلعين تطول فيهما يد المزايدات الطائفية .

ومن جهة المشاركة المطلوبة بين الفلسطينيين واللبنانيين فقد سعت اليها عندما كنت وزيرا للداخلية ولم يقبل رأبي . وكان رأبي هو ان المخيمات يجب الا تبقى معزولة عن المحيط الذي تعيش فيه . وكان أحد الافكار الأساسية ، مثلا ، ادخال مخيم تل الزعتر في اطار بلدية الدكوانة وأن يصبح جزءا من هذه البلدية من حيث المنافع العامة كالطرق والمجارير وسواها وان يصبح للمخيم ممثل في هذه البلدية ، وهكذا بالنسبة لسائر المخيمات . ان هذا الامر يحسن من جهة الوضع السكني الفلسطيني فلا يعود يقوم على ما يقوم عليه اليوم من وضع سكني متأخر وغير متطور كما انه من جهة ثانية يشعر بالروابط التي تربطه بجواره وهذه الرابطة أساسية . لان المعرفة تبدل كثيرا من الاتجاهات اللاشعورية . وكنت كما تذكرون اطالب بتخصيص عشرة ملايين تصرف على سنوات لتحسين وضع المخيمات بالاضافة الى اشتراكها في الحياة اللبنانية . وينبغي ان نعود الى طرح مثل هذه القضايا لتأمين الاستقرار النفسي عند اخواننا الفلسطينيين ولتوفير الامن ايضا بالنسبة للفلسطينيين واللبنانيين على السواء .

أضيف في ختام كلمتي شيئاً قاله الدكتور أبو حيدر وأوافق عليه أيضا هو المعرفة . لماذا نعيش في الجبل بهذه الروح المتسامحة ؟ لاننا نتعايش بعضنا مع بعض في قرى مشتركة والتعارف شيء أساسي ذلك ان الانسان عدو ما جهله . وفي هذا المجال فان السكنى غير المشتركة في بيروت حيث انعزال المسلمين في أحياء وحدهم وانعزال المسيحيين في أحياء وحدهم أيضا ، تمنع التعارف الذي كان موجودا قبل عام ١٩٥٨ عندما أجبر نفر من المسلمين على الانتقال الى هذا الشارع ونفر آخر على الذهاب الى ذاك الشارع، وقبل التقسيم الانتخابي الذي كان يجعل المرشح او النائب المسلم مضطرا لزيارة الاحياء المسيحية في الاشرافية والجميزة في الاعياد والمآتم وسواها من المناسبات الاجتماعية . ان المشاركة في السكن لها أهمية كبيرة في نظري ويجب أن نعدل التشايع الانتخابية من أجل احيائها من جديد .

الدكتور نجيب أبو حيدر : يجب الا نتناسى الاقتتال السياسي الحالي في لبنان اذ اننا في زمن انتخابات ، والاقطاب السياسيون الآن في طور استقطاب القوى وان اي وضع يقوي فئة سنقوم ضده الفئات الثانية . لهذا أرى ان على السلطة الفلسطينية في هذه المرحلة بالذات ان تكون حذرة في التعاون حتى مع من سبق ان مد لها يده سواء باقتناع أم بغير اقتناع ، لانها اذا دخلت اللعبة السياسية اللبنانية فان هذه اللعبة مميتة بأقل ما يمكن ان يقال . ولهذا فأقول للاستاذ الحوت انه شيء حسن ان الفئات التقدمية مدت يدها ولكن علينا تحذير المقاومة الفلسطينية من الوقوف مع أي جهة لان الجهة الاخرى ستعتبر هذا الامر موجها ضدها لان عملية الاستقطاب قائمة الآن .

نقطة ثانية أود ان أذكرها هي عدم سماح السلطات اللبنانية للسلطات الفلسطينية بالظهور . ان هناك تخوفا لبنايا من اسرائيل ناتجا من سنوات ١٩٤٩ و١٩٥٦ و١٩٦٧ . ونحن ما زلنا في لبنان نرفض القول انه يوجد لدينا فلسطينيون منظمون خوفا من أن تضرب اسرائيل لبنان . ولن يزول هذا الخوف الا بانشاء قوة لبنانية رادعة تشارك في الاقتتال ضد اسرائيل : تردعها عند الردع وتصد هجماتها وتشارك بالهجوم عليها والقضاء عليها في النهاية . لذلك أعود فأكرر انه يجب ان يكون هناك تعاقد بين سلطتين قويتين ، وعلى جميع المخلصين ان يساعدوا ويساهموا في انشاء سلطة لبنانية أقوى في الوطن اللبناني لان السلطة اللبنانية القوية هي وحدها التي بإمكانها التعامل ندا لندا مع السلطة الفلسطينية القوية .

مندوب المركز : شكرا للاخوة الذين شاركوا في هذه الندوة ، ونحن واثقون من ان نشر وقائعها سيخلق جوا ايجابيا يساهم في تمتين العلاقات الاخوية بين الشعبين الشقيقين اللبناني والفلسطيني .

انتصار فيتنام وتحريم الارض العربية

الدكتور سامي منصور

في ١ مايو ١٩٧٥ انتهت أطول حرب في القرن العشرين ، حرب فيتنام . استغرقت أكثر من ٣٠ عاما ، هزمت فيها ثلاث من أعتى الامبراطوريات الاستعمارية متوالية : اليابان ، فرنسا ، الولايات المتحدة . قدم الشعب الفيتنامي فيها مليون شهيد مع ٦ ملايين مشرد . دمرت خلالها نصف قرى فيتنام . قتل للجيش الامريكي وحده حسب التقدير الرسمي ٥٦ الف جندي غير اضعاف هذا الرقم من الجرحى . والقى الولايات المتحدة اربعا وعشرين مليون طن من القنابل على شعب فيتنام ، أي ما يعادل مرتين ونصف ما استخدم في كل الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك فقد انتصرت الثورة وهزمت الامبراطوريات الاستعمارية واكبرها واغناها الولايات المتحدة ، والخوف ان يتحول هذا الانتصار على الارض العربية الى ملحمة شعبية تتحدث عن البطولة ، او سيمفونية تعزف لحن الانتصار ثم ينتهي الامر عند ذلك الحد ، وكأن شيئا لم يقع . والواقع ان معركة العرب مع الاستعمار تفرض على الجميع سواء من كان على مستوى مسؤولية العمل او يحمل مسؤولية « المواطنة » ان يستوعب الدرس الفيتنامي جيدا دون حرج او حساسية .

ولعل ما تقوله ثورة فيتنام المنتصرة للشعوب العربية خاصة وشعوب العالم الثالث بوجه عام هو :

اولا : ان الاستعمار الامريكي بكل ما تملكه المؤسسة العسكرية الامريكية من ترسانة مسلحة واماويل بلا حدود وهيئات علمية على أعلى درجات التخصص ، ليست قوة اسطورية لا تهزم ، بل على العكس انها تهزم وليس ذلك على يد قوة عملاقة ذرية مثلها ولكن على ايدي ثوار دولة صغيرة وفقيرة .

ثوار فيتنام دخلوا في حرب مع الولايات المتحدة نفسها بجيشها وعتاها . ويكفي ان نعرف ان الحكومة الامريكية استخدمت ٥٤٣ الف جندي امريكي — أي ثلث الجيش الامريكي كله — هذا غير ١٦١ مليون جندي لدى الحكم الفيتنامي الامريكي الى جانب نصف مليون جندي آخر من الدول الحليفة التي اشتركت مع الجيش الامريكي في مواجهة الثوار . والمهم في ذلك ان الجندي الامريكي نفسه الذي درب وتعلم في الولايات المتحدة ، وليس جنود دول أخرى هي التي حاربت في فيتنام ورسمت وخطت للمعارك بكل ما يساندها من عقول اليكترونية وجامعات ومراكز ابحاث امريكية .

يضاف الى ذلك ان سلاح الطيران الامريكي استخدم كل انواع الطائرات وأحدث ما انتجته المصانع الامريكية من الطائرات التي تستخدم أحدث الاجهزة العلمية ، هذا الى جانب ١٣٠٠ طائرة هي السلاح الجوي لحكومة فيتنام الامريكية* . ويكفي ان نقول ان

* سوف نستخدم تعبير حكومة فيتنام الامريكية عند الحديث عن حكومة فيتنام الجنوبية قبل دخول الثوار سايجون .

سلاح الطيران الامريكى قام بأكثر من ١٦٨٩٩٦٦٨ غارة على شعب فيتنام — أي حوالي ٢ مليون غارة — أسقطت خلالها ٧٤١ مليون طن من القنابل أي ما يعادل مرتين ونصف من القنابل التي استخدمت في الحرب العالمية الثانية . هذا مع ١٩ مليون جالون من المواد الحارقة والسامة القتها الطائرات الامريكية وأحرقت بها ٣٦٥ مليون غدان . وتعتقد الدوائر الامريكية ان هذه الاراضي قد فسدت لسنوات طويلة يقدرها البعض بقرن من الزمن . هذا غير ٤٧٤٨٩ عبوة من المواد الكيماوية لتغيير الجو .

أما تائة الخسائر الامريكية حسب التقديرات الامريكية فقد كانت ٥٦ الف قتيل ومعنى ذلك ان عدد الجرحى لا يقل عن ٢٨٠ ألف . وغدنت امريكا ٨ آلاف طائرة منها ٤٦٠٠ طائرة هليكوبتر . أضف الى ذلك ان الولايات المتحدة انفقت ما يزيد عن ١٥٠ الف مليون دولار . ومعنى ذلك ان الولايات المتحدة استخدمت كل جنودها وأكبر عقلياتها العسكرية وعبأت كل واحد الأسلحة ، ورصدت كل الاموال بلا حدود ومع ذلك فقد استطاع الشعب الفيتنامي ان يهزمها . وهي حقيقة لا يمكن انكارها . الشيء الوحيد الذي يجب الا يضيع وسط شريط الاحداث ان الارقام تكاد تفقد قيمتها من ضخمتها وهو ما يجب ان نقاومه وان نستوعبه . وخاصة اذا اجرينا عملية مقارنة بسيطة بالارقام في الحروب العربية مع اسرائيل !

وإذا كانت الولايات المتحدة قد عرفت متى تنسحب قبل ان تكون نهايتها مثل نهاية فرنسا في ديان بيان فو ، فان ذلك لا ينفي هزيمتها وبالتالي فلا بد من التاكيد والايمان بأن الولايات المتحدة بكل امكانياتها الاستعمارية يمكن ان تهزم وعلى يد شعب لا يملك قبلة ذرية ولا طائرات فانتوم ولا اكاديميات عسكرية مشهورة .

وصحيح ايضا ان القياس خطأ ولكن الحقيقة تبقى ثابتة وهي انه ليس هناك استعمار لا يهزم مهما ملك وتضخم . ولا بد ان يكون واضحا او لا بد من التذكر هنا بأن اسرائيل استعمار استيطاني ممرکز في فلسطين وان كان هدفه ورقعته تشمل العالم العربي كله . وإذا كان ضروريا ان تبقى هذه المقارنة الخاصة بالاستعمار الاسرائيلي حتى نهاية تحديد النقاط التي تبرز من انتصار شعب فيتنام الا انه كان لا بد من التأكيد على الحقيقة الاكبر وهي ان الاستعمار الامريكى يهزم ويمكن لشعوب وفق ظروف معينة ان تحارب امريكا نفسها وان تنتصر عليها ، ليس من الاحلام ولكن على أرض الواقع . وليس ثوار فيتنام بشياطين او ملائكة او هم يقومون بمعجزة ، بل هو واقع امام العيون وملء الاسماع .

ثانيا : ان التوازن الدولي بين العملاقين لا يمنع شعبا توفرت له ارادة الثورة من تحرير أرضه . فتورة فيتنام بدأت حرب تحريرها مع السنوات الاخيرة للحرب العالمية الثانية وبالتالي فهي قد شهدت كل مراحل التطور التي مر بها تاريخ التوازن الدولي المعاصر ابتداء من انفراد الولايات المتحدة لسنوات معدودة بالقوة الذرية ثم مشاركة الاتحاد السوفييتي لها فالحرب الباردة ، وانتهاء بسياسة الوفاق بين العملاقين . وهي لم تتوقف طوال ذلك عن الحرب والثورة الى ان حققت تحرير أرضها كاملة بلا نقصان او مساومة او تنازل عن شبر واحد منها .

وقد اوضحت استمرارية الثورة في فيتنام ان التوازن الدولي قيد — ان كان يمثل قيادا — على القوى العملاقة الاطراف فيه في علاقاتها مع بعضها . بمعنى انه يمثل قيادا على العمل العسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ولكنه لا يمثل قيادا على طرف ثالث حتى لو كان يتحرك في مواجهة احدى القوتين . واثبتت وقائع التاريخ

المعاصر أي ما بعد الحرب العالمية الثانية ان التوازن الدولي لا يمثل قيودا الا على من لا يفهم قوانين الحركة في اطاره .

ففكرة ميزان القوى قديمة بعمر البشرية منذ أصبحت في شكل دول . أما في شكله المعاصر ، فان العالم بعد الحرب الثانية قد انقسم الى معسكرين شرقي وغربي — شيوعي ورأسمالي — وفي ظل سيادة ذرية امريكية كانت السياسة ذلك الوقت هي القدرة على « الردع الشامل » تحولت الى التهديد بالهجوم الشامل المدمر للعدو . وبعد نجاح السوفيت في دخول النادي الذري ظهرت الحرب الباردة بديلا لاستحالة الحرب الحقيقية بين العملاقين ثم تطور الامر بعد دخول الصواريخ بعيدة المدى دائرة العمل فأصبحت كل من الدولتين — الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة — في دائرة الدمار الشامل لصواريخ الدولة الاخرى . وقدمت أجهزة الرادار والتقدم الفني خطوة اخرى جعلت الضربة الاولى لا تختلف كثيرا عن الضربة الثانية ، بمعنى ان الذي يبدأ الحرب الذرية من العملاقين لا يختلف في مصيره عن الذي سوف يأخذ الخطوة الثانية . فكلاهما مصيره الدمار الكامل الشامل .

وقد ترتب على توازن الرعب الذري ان خرجت الاستراتيجية الاستعمارية الامريكية بفكرة العودة الى الحرب المحدودة . اذ ان توازن الرعب الذري جعل استخدام الاسلحة الذرية محصورا في حالة الدفاع عن النفس فقط . أما الحرب المحدودة فهي حرب بالاسلحة التقليدية في مواقع جغرافية بعيدا عن مواقع العصب لاي من الكتلتين اي على صعيد العالم الثالث . وبالتالي بقيت القدرة على الحركة والعمل ، الحرب ممكنة من اطار مدلول الحرب المحدودة . وهي لا تعني بالقطع ان تكون محدودة الرقعة الجغرافية فهي يمكن ان تتسع وتشمل منطقة بأكملها ولكنها بالقطع تعني ان تبقى محدودة في اطار الاسلحة التقليدية .

وليس معنى ان تملك دول العالم الثالث القدرة على الحركة هو ان تكون هذه الحركة مطلقة أي عدم وجود قدر من القيود التي تحد منها . وأبرز القيود التي طرحتها الحرب المحدودة قيودان الاول خاص بالسلح حيث ان مصادر السلاح في العالم محكومة الى حد كبير — وليس تماما — بالتوازن الدولي بين العملاقين والثاني هو قدرة أي من العملاقين على التدخل المباشر لصالح أي من الاطراف في الحرب المحدودة . وبرغم مباشرة كلا القيودين الا ان ثورة فيتنام عرفت طريقها وتجاوزت ذلك .

ومع تزايد قدرة الدول الصغيرة على فهم قوانين الحركة في اطار تبادل الرعب الذري تطور ميزان القوى ووصل الى ما اتفق على تسميته بسياسة الوفاق . وبرغم كل ما يقال عن ما تفرضه هذه السياسة على العالم الثالث واتفاق العملاقين على معالجة الامور فان درسن الواقع ان كان لا ينفي اتفاق العملاقين فهو يؤكد قدرة أي شعب توفرت له ارادة الثورة ان يحزر ارضه حتى لو كان المحتل هو الاستعمار الامريكي نفسه وليس أحدا من حلفائه . وان مباشرة القيد بالسلاح لا يمكن أن ينجح مع ارادة الثورة بديل ان ثورة فيتنام حصلت على كل ما ارادت . هي ان تحصل عليه ووجدت البديل من ثورتها لما لم تستطع ان تحصل عليه . وبالتالي فالتوازن الدولي لا يمنع الشعوب من تحرير اراضيها .

ثالثا : ان السلاح ليس هو العامل الحاسم في الانتصار حتى لو كان الخصم هو أعتى الامبراطوريات الاستعمارية وهي الولايات المتحدة بكل ما لدى ترساناتها من أسلحة الدمار ، التي لم يشهد او يسمع العالم عن مثيل لها .

مؤكد ان الولايات المتحدة قد استخدمت كل انواع الاسلحة وحدث ما انتج منها .
ويكفي ان نعرف ان ما استولت عليه الثورة في الاشهر الاخيرة من القتال قد بلغ ٥ آلاف
مليون دولار . وقد وصل الامر الى تغيير المناخ نفسه بالقاء ما يصل الى ٤٨ الف عبوة
مواد كيميائية لتحقيق ذلك . ولعل العودة الى تقارير وكالات الانباء تكفي لاعطاء صورة
لهذه الانواع من الاسلحة وحدثها ما استخدم في آخر ايام الحرب في فيتنام وكمبوديا ،
وهي قنبلة تقوم بامتصاص الاكسجين من الجو من مسافة ١٥٠ مترا مربعا . وقد عثر
على مئات من الجثث تكشف عن بشاعة السلاح الذي استخدمته الولايات المتحدة ،
وبرغم ذلك فقد خسرت امريكا المعركة وانتصر الثوار .

ولست اريد ان اعدد الامثلة من قنبلة مغناطيسية الى الغازات السامة
والمواد الكيميائية ، فان ذلك سوف يحتاج الى كتاب وربما أكثر ، والمهم ليس
في الامثلة ولكن في الدلالة .

فان احدث الاسلحة الامريكية بالقوات المسلحة الامريكية نفسها لا يهزم شعبا ثائرا
يحرر أرضه ، والاهم ان هذا الشعب لم يدخل سباق اقتناء الاسلحة المقابلة أي
الحدث .

فان الحقيقة التي يجب ان تبقى بارزة ان الثوار في فيتنام او كمبوديا لم يكن لديهم
طائرات لا حديثة مثل الفانتوم ولا قديمة ، فهم يحاربون بدون حماية أو غطاء جوي بل
لم تدخل في لغتهم تعبيرات الغطاء الجوي . وخطأ تصور انهم كانوا على طول السنوات
يحاربون حرب عصابات بل ان السنوات الاخيرة شهدت حرب تحرير حيث كانت قوات
الثوار ترحف بمئات من الدبابات والعربات المصفحة على المدن ومع ذلك فالزحف كان
يتم تحت الآلاف من غارات الطائرات الامريكية وبدون حماية جوية على الاطلاق .
وبرغم ذلك فان الثوار كانوا يتقدمون باستمرار والقوات الامريكية وحليفاتها وقوات
حكومة فيتنام الامريكية تتراجع باستمرار امامهم .

صحيح ان شعب فيتنام قدم — حسب التقديرات الامريكية بعد انتهاء الحرب —
مليون شهيد و٤ ملايين من الجرحى مع تشريد ٦ ملايين وفي تقدير آخر انهم عشرة
ملايين من البشر أي حوالي ٥٥ ٪ من الشعب الفيتنامي اصبح من اللاجئين ذلك كله
صحيح ولكن الاصح منه ان هذا الشعب رغم ذلك انتصر . هذا الى جانب اننا لم نسمع
طوال هذه السنوات اصواتا تحاول ايقاف النزيف الدموي المستمر والاستسلام أو
التنازل عن جزء من الاهداف باستثناء اصوات عملاء الحكم الامريكي طبعاً ، اما بعد ذلك
فقد كان الاجماع على مستوى الشعب بقياداته هو التصدي للاستعمار الامريكي
والحكم الفيتنامي الامريكي دون خوف من السلاح الامريكي او القوات الامريكية .

**والمؤكد من النتيجة التي انتهت بها الحرب وانتصار الثورة هو ان المسألة ليست
طائرة الفانتوم اقوى من الميراج او ان الميراج أكثر قدرة من الميج ولكنها في الانسان اما
السلاح فهو العامل الثاني للانسان باصالته وبمدى تعبيره عن شعبه .**

هذا الى جانب ان قيادات الثوار ابتداء من جياب وانتهاء بخيو ساتغان لم تتعلم في
سان هيرست — بريطانيا — ولا في ويست بوينت — الولايات المتحدة — ولا في أي من
الاكاديميات العسكرية التي تتناقل وكالات الانباء كل يوم اسماءها ، ومع ذلك فان هذه
الاكاديميات تدرس وتتعلم اليوم استراتيجيات وتكتيك ثوار فيتنام وكمبوديا ، وليس
العكس . فالقيادات تعلمت من واقعها ، وأرضها وشعبها . وطوعت كل شيء لتحقيق
الهدف وهو التحرير .

والواضح من ذلك كله ان العامل الحاسم في النصر هو الانسان بفضل تنظيم ، وانتماء ، وتعليم وطني ، وقيادة تنتمي الى الجماهير وتبقى بينها دون ان تنسلخ عنها . وهو ما يستحق الدراسة التفصيلية في حرب فيتنام وكمبوديا .

رابعا : ان الدخول في المباحثات وتوقيع الاتفاقات ان كان تعبيرا عن الواقع الذي تحققه القوات الا انه لا يغير الهدف الاستراتيجي او يعرقل الوصول اليه اذا لم تكن القوات قد انجزت المهمة كاملة بعد . فالتفاوض والاتفاق يصبح مجرد تكتيك ، وفرصة لالتقاط الانفاس واعادة ترتيب الاوضاع .

وقد برز أمام العالم أن المفاوض الفيتنامي يمكن أن يكون ندا للمفاوض الأمريكي ، بل وأكثر قدرة على المناورة . ولكن المهم أن المفاوض لم يتعد عن الهدف بتنازلات غير محسوبة . ودليل ذلك نظرة على الاتفاق الذي تم توقيعه في يناير ١٩٧٣ تؤكد انه وضع ليفتح الطريق أمام القوات الثورية لتحقيق الجولة الأخيرة وهي تحرير سايجون .

فاتفاق باريس كان تعبيرا عن انتصار فيتنام الثورة وليس تعبيرا عن انتصار الولايات المتحدة بل كان مجرد انقاذ لأمريكا من ورطتها ومنعا من مواجهتها بديان بيان فو أخرى بالانسحاب خلال ٦٠ يوما . واذا كان البعض قد تصور أن الاتفاق كان دعما للوجود الأمريكي فان الواقع والاحداث قد كشفت عن صدق رؤية الثوار وایمانهم بقدرة المقاتل الفيتنامي على انهاء الوجود الاستعماري الأمريكي في فيتنام ممثلا في الحكم الذي انهار أمام زحف الثوار .

ثم ان الثوار لم يذهبوا للتفاوض الا بعد أن تأكد للولايات المتحدة استحالة هزيمتهم ، وأصبح انتصارهم مسألة وقت . يومها ذهب الثوار الى مائدة المباحثات . اي ان ذهابهم لم يكن الا من موقع القوي القادر ان لم يكن على فرض ارادته كاملة في هذه المرحلة فعلى الاقل فهو قادر على أن يمنع فرض ارادة الآخرين عليه .

خامسا : ادراك العلاقة الوثيقة بين العمل الدبلوماسي والعمل العسكري وان أي كسب دبلوماسي هو في الواقع نتيجة عمل عسكري سابق له . فالمفاوض مهما بلغت درجة كفاءته هو لا يستطيع ان يحقق أكثر من خطوة او اثنتين ابعده من العمل العسكري ، ولهذا نجد ان القتال لم يتوقف ايمانا بأن تحرير الارض لا يتم بالعمل السياسي وحده والا كان مشروطا ، وناقضا مهما بلغت كثافة الجهد السياسي المبذول . ولهذا لم يتوقف الثوار عن الحرب الا بعد تحرير أرضهم كاملة .

سادسا : ان حرب فيتنام قد أوضحت — اذا توفرت القدرة والارادة طبعاً — ان الضمانات الدولية لا تمنع الشعوب من اتمام تحرير أرضها فالمعاهدات التي وقعت في فيتنام ابتداء من سنة ١٩٥٤ حتى اتفاق سنة ١٩٧٣ قد ضمنها عدة دول وأشرفت على وقف اطلاق النار كثير من الدول حتى شملت القائمة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وفرنسا وبريطانيا والمجر وبولندا وكندا وأندونيسيا . ومع ذلك فان ثوار فيتنام كانوا يتحركون وكان الموقف خال الا من ارادتهم . . ارادة الثورة .

فالحساب السياسي للثوار كان بارعا حقا الى درجة أن شيئا لم يستطع أن يعرقل عملهم الحربي في كل الظروف وتحت أي قيود مهما كانت صفتها . فالمسألة ليست تحد للمجتمع الدولي ولكن براعة الحركة في اطار ما هو قائم . وليس هناك معاهدة أو ضمان دول لا يمكن ايجاد المنفذ من خلاله للعمل واستمراره حتى يتم التحرير .

سابعا : ان الاستعمار الأمريكي لا يحمي العملاء الذين باعوا أنفسهم له اذا ما

تعرضت المصالح الاستعمارية الأمريكية لاي خطر بسببهم . ولعل الاستعمار الأمريكي أدرك أيضا ان العملاء لا يمكنهم حماية مصالحه طويلا .

صحيح أنهم دفعوا مبلغ مليون دولار للون نول قبل أن يغادر كمبوديا ولكنها أيضا قد جعلت منه مجرد لاجئ هارب من بلده ، أما بقية الهاربين فان المناقشة التي دارت في الكونغرس وعلى صفحات الصحف وفي الاذاعة في الولايات المتحدة توضح كيف يعامل الاستعمار الأمريكي الذين باعوا انفسهم له .

فمع ان الرئيس الأمريكي فورد قد طالب باعتماد مبلغ ٥.٧ ملايين دولار لمساعدتهم الا أن الرأي السائد هو عدم الترحيب بوجودهم في الأراضي الأمريكية . فالولايات المتحدة اليوم لا تريد في أراضيها الذين خانوا أوطانهم وعملوا لحسابها . ولعله درس يستوعبه كل المتأمركين — ان جاز هذا التعبير علميا — في العالم الثالث .

وتبقى ملاحظة أخيرة في هذه السطور هي ان مقارنة الارقام أيضا لم يقع الثوار فريستها ، بمعنى ان الحكم الفيتنامي الأمريكي مثلا كان له جيش من ١١ مليون جندي بينما كان جيش الثوار من ٢٢٠ ألفا فقط أي ربع جيش فيتنام الأمريكي . وحكومة فيتنام الأمريكية حصلت مثلا خلال ١٩٧٤/٧٣ على مبلغ ٣.٩ مليار دولار بينما حصلت فيتنام الثورة من الاتحاد السوفيتي والصين معا على ١١ مليار دولار اي حوالي النصف . ومع ذلك فان الثورة لم تتآمرن ولا ارتفعت أصوات بالشكوى والبكاء ، وانما استمر النضال حتى حقق كل أهدافه بالتحريك الكامل .

هذه بعض الحقائق التي تبرزها حقيقة انتهاء حرب فيتنام بانتصار الثورة ، وهي ما يجب أن يدرسها ويناقشها ويستوعبها العرب خاصة وكل دول العالم الثالث بوجه عام ، باعتبار ان العدو واحد . . وهو الاستعمار الأمريكي . فان كان قد هزم هناك فهو لا بد أن يهزم هنا وفي كل مكان .

تحدي التقنية الاسرائيلية وكيف نواجهها

هالة سلام مقصود

هناك اجماع اليوم على أن التقدم العلمي والتقنية هما المفتاح للتطور الاقتصادي وللقوة العسكرية . وقد اعترفت الحركة الصهيونية منذ نشأتها بأهمية العلم فكان من أهم وأولى الاعمال التي قامت بها ، وضع حجر الاساس لانشاء الجامعة العبرية في القدس عام ١٩١٨ ، بينما كانت الحرب العالمية الاولى لا تزال مندلعة . ومنذ ذلك الحين ، واسرائيل تسعى سعيها حثيثا لتطوير العلوم وخلق المؤسسات العلمية والاستفادة بتطبيقاتها في جميع المجالات العسكرية والسلمية .

والعلوم اليوم ليست ممارسة خارجة عن عمل الانسان اليومي ، انها في صميم حياتنا في البيت وفي المكتب وفي الزراعة وفي كل المجالات . اننا في الوطن العربي ما زلنا حتى اليوم نستورد نتائج العلم من الخارج ولا بد ان نبقى معتمدين على العالم الخارجي لامدادنا بالوسائل التقنية ، طالما اننا لا نطبق العلم ولا نعني بانشاء مؤسسات البحث والتطوير المطلوبة .

وكما هو معروف ، فانه لم تعد في العالم اليوم عزلة في العلوم ، فلا يمكن للعالم ان يعمل لوحده في مختبره ويتوصل الى نتائج مهمة اذا لم يكن يعيش في مناخ علمي ولم يكن محيطا بشكل متواصل بالنتائج العلمية التي توصل اليها غيره من العلماء في مجاله . لذلك ، فقد خلقت اسرائيل علاقات وثيقة بين مؤسسات البحث والتطوير في اسرائيل ومؤسسات البحث والتطوير في العالم مما جعلها قادرة على الاطلاع والاستفادة من نتائج الابحاث التي تجري في العالم بأقل كلفة ممكنة ، كما انها بذلك توفر على العالم الاسرائيلي كثيرا من الأخطاء التي هي جزء لا يتجزأ من تجربة البحث العلمي . وللعالم العربي الامكانات البشرية الناتجة من جراء الدراسة العليا التي يتلقاها الكثير من العلماء العرب في الخارج . ونتيجة وجود الكثير منهم ايضا في مؤسسات البحث والتطوير في الولايات المتحدة والدول الغربية والشرقية لخلق علاقة وثيقة بين المؤسسات العربية والمؤسسات العلمية في الخارج ، الا اننا لم نستعمل هذه الطاقات لخلق المستوى المطلوب من العلاقات مع المجموعات العلمية العالمية .

والمجتمع العربي ، لا يعتمد اعتمادا كبيرا على استيراد النتاج التقني من الغرب ، كما ذكرنا اعلاه فحسب ، بل لا يحاول ايضا الحفاظ على ما يستورد بصيانتته الصيانة المطلوبة . ويمكن أن يكون هناك مستوى صيانة رفيع في حالة عدم وجود مؤسسات تقنية متطورة وذلك حتى للآلات البيتية التي نستعملها في حياتنا اليومية حيث نتركها دون صيانة حتى تخرب ثم نستبدلها . ونتيجة عدم وجود مؤسسات تقنية للصيانة ، تظهر اكثر وضوحا في المجال العسكري حيث نجد ان معدات كثيرة لا يمكن استعمالها

أقصى حدود الاستعمال ، لأنها ليست بحالة ممتازة ، ولم يصر الي صيانتها بشكل مستمر .

وتدخل التقنية ايضا في مجال اختيار الاسلحة الملائمة . فقد اشترت احدى الدول العربية مثلا بمبلغ ٣٠ مليون دولار صواريخ ارض - جو بعد حرب ١٩٦٧ تنطلق بقوة دفع مائية مصممة لبلدان باردة اجمالا ولم تستطع هذه الدولة في مناخها الحار ان تستعمل هذا السلاح وهكذا ذهب هدرا (١). ولو اعتمد الاختيار على اسس علمية صحيحة لما كان نصح العلماء بشراء هذا السلاح ، ولو كانت هناك مؤسسات عربية علمية بالمستوى المطلوب لسعت بعد اتمام الصفقة الى تغيير المحرك وابداله بمحرك ديزل مثلا كما فعلت اسرائيل بكثير من الاسلحة التي اشترتها والتي لا تلائم المناخ الاسرائيلي . فقد لاقت اسرائيل مثلا صعوبات كثيرة في استعمال دبابت سنثوريون البريطانية الصنع وغير المهياة لاجواء حارة فقد كانت تسخن بشكل كان يسبب دائما مشاكل ميكانيكية . فاعتمد الجيش الاسرائيلي تنظيف مروحة التبريد فيها كل يوم ولم تعد تسبب أية مشاكل (٢) .

والعلاقة بين الجندي الاسرائيلي الذي يستعمل السلاح والمهندس والعالم السذي يعمل على تطويره هي علاقة وثيقة جدا وهم جميعا يعملون سوية لاكتشاف الوسائل لجعل هذا السلاح اكثر ملاءمة والحاجات الخاصة الاسرائيلية . فمثلا ، يعتمد سلاح الجو الاسرائيلي بالاساس على خريجي المدارس الثانوية لا على خريجي الجامعات في حين ان سلاح الطيران المعتمد في العالم مصمم بشكل يستعمل من قبل طيارين وفنيين جامعيين . لذا ادخل الاسرائيليون تعديلات تبلغ الستماية على طائرة الميراج مثلا لتمكين الملاحين ذوي الثقافة الثانوية من استعمالها كما يجب (٣) .

ومن المهم جدا للذي يستعمل السلاح ان يشعر بأنه يفهم هذا السلاح فهما تاما وان هذا السلاح هو سلاح جيد ولن يخونه عندما يحتاجه .

ولا تكمن اهمية البحث العلمي في تأثيرها على المؤسسة العسكرية فحسب بل لها ايضا اهمية سياسية واعلامية . وقد حاولت اسرائيل بشتى الوسائل الاعلامية خلق صورة لها كبلد متفوق علميا في وسط عالم عربي لا يزال غارقا في التخلف (٤) . ويفضل هذه الدعاية تكنت من التغلغل في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية اي في بلدان لم تكن تود الاستعانة بالمعرفة التقنية من البلدان الكبرى لانه يولد حساسيات خاصة فرأت في اسرائيل بلدا صغيرا ليس له طموحات عندها وبالتالي يمكن ان يمددها بالمعرفة التقنية دون خوف . وقد شجعت الولايات المتحدة هذه الخطة ودعمتها ماليا بشكل غير مباشر (٥) . وقد نجحت اسرائيل في ذلك حتى اصيبت بنكسة في الدول الافريقية فسي اوائل السبعينات .

البحث والتطوير

لقد كان عدد الاطباء والمهندسين والعلماء من المهاجرين اليهود الذين جاؤوا الي فلسطين حتى سنة ١٩٤٨ كبيرا جدا وكان معظمهم من يهود المانيا واوروبا الشرقية . لذلك فان اسرائيل لم تعلن منذ تأسيسها مشكلة تعليم العلماء وتخريجهم بل كرست جهودها للاستفادة من الطاقة البشرية الموجودة عندها استفادة قصوى . كما بقيت نسبة العلماء المهاجرين الي اسرائيل كبيرة جدا . ففي سنة ١٩٦٤ كانت الجامعات والمؤسسات المحلية تخرج ٥٢ ٪ من مجموع عدد الاطباء والمهندسين والعلماء بينما كان ٤٤ ٪ من المجموع من المهاجرين الجدد و ٤ ٪ من الاسرائيليين الذين يتخرجون من جامعات في الخارج .

وهكذا كان لدى الجامعات ومؤسسات الأبحاث التي أسستها الحركة الصهيونية طاقة بشرية كبيرة وعلى مستوى عالٍ من الاختصاص . وكان على الحركة الصهيونية أن تؤمن فقط المكتبات والمختبرات ووسائل الأبحاث الملائمة . وحتى قبل قيام إسرائيل كانت الحركة الصهيونية قد أنشأت ثلاث جامعات هي : (١ .) الجامعة العبرية في القدس ، أسست سنة ١٩٢٥ ، (٢ .) معهد إسرائيل التكنولوجي (التكنيون) في حيفا أسس سنة ١٩٢٥ ، (٣ .) جامعة وايزمن للعلوم في رحفوت أسست سنة ١٩٢٤ . وبعد قيام إسرائيل تأسست عدة جامعات ومؤسسات أبحاث أخرى وهي جامعة تل أبيب التي أسست سنة ١٩٥٤ وجامعة بار ايلان التي أسست سنة ١٩٥٥ وجامعة حيفا التي افتتحت سنة ١٩٦٤ وجامعة بن غوريون في النقب التي أسست سنة ١٩٦٤ . وقد أعلن البروفيسور الكس كينان نائب مدير الجامعة العبرية وكان يشغل في الماضي منصب رئيس المجلس القومي للبحث والتطوير أن نصف البحث الأساسي تقريبا يتم في إطار الجامعة العبرية ويتم جزء آخر في معهد وايزمن بينما ينحصر البحث التكنولوجي في التكنيون . وقد بدأت جامعة تل أبيب أخيرا تعنى بالبحث العلمي . واضاف ان هناك الآن ٢٠ معهدا للبحوث التطبيقية وأن البحث الصناعي كان مهملًا جدا إلا أنه حدث أخيرا تحسن في هذا المجال فاقيم في السنوات الأخيرة ٥٠ مشروعا صناعيا على أسس علمية (٦) . ويقدر عدد خريجي الجامعات في إسرائيل بـ ٢٤٠.٠٠٠ شخص منهم ٨٠٠٠ مهندس و٦٠٠٠ طبيب .

أما الطاقة البشرية العلمية في إسرائيل فتقدر بعشرة آلاف شخص يكرسون معظم أوقاتهم للبحث ويشمل هذا العدد الباحثين في جميع الجامعات ومؤسسات الأبحاث المدنية والعسكرية ومختبرات البحث في الصناعة (٧) . إلا أن تقديراتنا هي أن عدد العلماء العاملين في البحث لا يتجاوز ٧ آلاف شخص .

وقد أسست إسرائيل عام ١٩٤٩ مجلس البحوث الإسرائيلي التابع لمكتب رئيس الوزراء . وقد أنشأ هذا المجلس معظم المختبرات الصناعية إلا أنه تبين عام ١٩٥٩ أنه يجب توسيع أفقه كي يعنى برسم السياسة العلمية وتخطيطها والتنسيق بين جميع مراكز البحوث الموجودة . فشكل المجلس الوطني للبحث والتطوير كما يلي : (١ .) تقديم المشورة إلى الحكومة في العمل المتعلق بالبحث والتخطيط العلميين وفي التطوير التقني ، (٢ .) اتخاذ القرارات في تخصيص الأموال لأعمال البحث والتطوير ، (٣ .) بدء برامج لمشاريع البحث العلمي والتطور التقني . إلا أن أبحاث وزارة الدفاع السرية بقيت خارج سلطته . وقد حاول المجلس جاهدا تقوية قطاع البحث الصناعي بواسطة هيئات مالية ومشاريع مشتركة مع الصناعة إلا أنه لاقى صعوبات جمة في هذا القطاع بحيث أنه لم يفلح في البدء في خلق العلاقة المناسبة بين العلماء والقطاع المدني . بتوسيع القطاع الصناعي العسكري وزيادة طلبات المؤسسة العسكرية على الصناعة ، ترسخت العلاقة بين المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات الصناعية ، إلا أن البحث الصناعي لا يزال نقطة الضعف في مجال البحث العلمي والتقني في إسرائيل .

في حزيران ١٩٦٨ شكل موشي دايان « اللجنة الاستشارية للبحث والتطوير العلمي » وهي تابعة لوزارة الدفاع ومهمتها دراسة المبادئ العامة لإدارة البحث الموجه للدفاع ولوضع مشاريع جديدة للبحث والتطوير .

كما يحاول العلماء الإسرائيليون أن يبقوا على اطلاع على المستجد في الأبحاث في العالم وذلك بثلاث وسائل : (١ .) حضور المؤتمرات العلمية العالمية ، (٢ .) تنظيم مؤتمرات دولية علمية في إسرائيل ، (٣ .) أخذ إجازات من مؤسساتهم للعمل في

مؤسسات علمية في العالم. ونجد لدى مراجعة صحيفة الجروسالم بوست في زاوية القادمين والمسافرين الى ومن اسرائيل ان هناك يوميا أحد العلماء الاسرائيليين تقريبا يسافر لحضور مؤتمر ما كما اننا نجد اعلانات عن مؤتمرات وندوات علمية وتقنية تعقد في اسرائيل وذلك بمعدل مؤتمرين أو ثلاثة في الشهر .

في مجال الذهاب في اجازة الى مؤسسات علمية في الخارج يتبين من دراسة للدكتور انطوان زحلان انه مقابل كل ثلاث دراسات ونصف تنشر لاسرائيل في المجلات العلمية العالمية هناك دراسة تنشر لعالم اسرائيلي يعمل لوقت محدد في إحدى المؤسسات في الخارج . كما يتبين ان انتاج العلماء في الجامعة العبرية ومعهد وايزمن للعلوم والتخنيون كان ٣٨١ دراسة في مجال الفيزياء سنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٧ . كما انه صدر عن علماء من هذه الجامعات في اجازة في مؤسسات اجنبية ١١٩ دراسة في السنة ذاتها(٨).

نوع الابحاث : يتبين من دليل نشره مركز المعلومات العلمية والتقنية التابع لمكتب رئيس الوزراء في اسرائيل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ انه كان هناك ٢٩٢٨ مشروعاً للبحث في ٣٧٢ مجالاً مختلفاً وتشارك فيه ١٤١ مؤسسة ومعهد علمي . وهذا العدد لا يشمل الابحاث التي تتم في مختبرات وزارة الدفاع والابحاث النووية أو الابحاث التي تتم لحساب وزارة الدفاع وتحاط بالسرية . ويتبين من هذا الدليل ان اكثر المجالات نصيباً هي الطب والعلوم البيولوجية وتأتي من بعدها مباحثرة الزراعة والكيمياء اما الباقي ففي المجالات الأخرى كالفيزياء والهندسة وغيرها . ومما يسترعي الانتباه انه كان هناك في تلك السنة ٨٧ مشروعاً للبحث فقط في مجال الهندسة ومتفرعاتها وانه كان يعمل في نطاق البحث في هذه المشاريع ١١١ مهندساً فقط وهذه نسبة قليلة جداً لبلد يفخر بأن لديه ٨٠٠٠ مهندس .

تمويل معاهد الابحاث ومشاريع البحث والتطوير : انفقت اسرائيل سنة ٧١ — ١٩٧٢ على الابحاث والتنمية في جميع القطاعات والفروع نحو ٦٥٠ مليون ليرة اسرائيلية ، ويشكل هذا المبلغ ٢٥٠ ٪ من الناتج القومي القائم وتعادل هذه النسبة مثيلاتها في معظم الدول المتقدمة في العالم . وينفق اكثر من نصف هذا المبلغ على الابحاث العسكرية . اما باقي الـ ٣٢٠ مليوناً فقد وزعت على النحو التالي : ابحاث بمعدل ١٨٠ الى ٢٠٠ مليون ليرة تنفق في مؤسسات التعليم العالي و ٥٠ الى ٦٠ مليون ليرة تنفق في معاهد الابحاث الحكومية وه ٨ ملايين في المستشفيات و ٥٠ الى ٦٠ مليوناً في القطاع الانتاجي أي الزراعة والصناعة . وينفق في الصناعة اقل من نصف هذا المبلغ وهذه نسبة منخفضة جداً إذ ان للصناعة في باقي الدول المتقدمة حصة الاسد(٩) .

وتغطي الحكومة في اسرائيل نحو نصف ميزانية الجامعات ومعاهد البحوث لديها اما باقي الميزانية فيغطي من قبل « اصدقاء » لهذه الجامعات أو المعاهد في الغرب ومن قبل مؤسسات عالمية خاصة وعامة كصندوق فولكسفاكن الالمانى الذي يقدم سنوياً هبات كبيرة الى معاهد بحوث في اسرائيل . وتدفع وكالات حكومية امريكية اموالاً طائلة لبحاث تجري في اسرائيل فقد ساهمت الولايات المتحدة سنة ٦٥ — ١٩٦٦ بحوالي ٢٢ مليون ليرة اسرائيلية كهبات للجامعة العبرية وبمبلغ ١٠٥ مليون ليرة اسرائيلية للتخنيون وبـ ٤ ملايين ليرة اسرائيلية لمؤسسة وايزمن كما اعطت هبات للجامعات والمعاهد الأخرى . واذا ما تفحصنا الدراسات التي نشرها العلماء الاسرائيليون سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٧ نجد أن ٤٠ ٪ منها قد نفذت بأموال الوكالات الحكومية

الأميركية (١٠) . وقد أعلن الملحق العلمي في السفارة الأميركية في إسرائيل أن الولايات المتحدة منحت إسرائيل مبلغ ٢٣٠ مليون ليرة إسرائيلية خلال الـ ١٥ سنة الأخيرة في إطار مشروع مشترك للأبحاث بين الحكومتين (١١)، وذكر أن المساعدات الأميركية أفادت البحث الأساسي في إسرائيل التي تعاني مشكلات أمنية . وفي حديث لبنيحاس سبير وزير المال السابق نشرته معاريف في ١٢/١/٧٣ أن ٢٥٠ مليون ليرة ستخصص في الموازنة العامة لسنة ٧٣ - ٧٤ للبحث المشترك مع الأميركيين .

وقد استفادت الولايات المتحدة كثيرا من الأبحاث التي أجريت في إسرائيل في مجال الزراعة وفي مجال تحلية مياه البحر وقد عقدت اتفاقية أميركية إسرائيلية مشتركة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٢ توصي بانفاق ٢٢ مليون دولار بمساهمة من البلدين لتغطية نفقات استكمال المنشآت في إيلات لتحلية مياه البحر ولإقامة مصنع تجارب مشابه في سان دياجو من قبل الحكومتين الأميركية والإسرائيلية وإقامة مصنع متطور في أشدود إذا ما حقق مصنع إيلات التوقعات والمقاييس المطلوبة . وقد وافق الكونغرس على هذا المشروع المشترك « لاقتناعه بأن التعاون مع إسرائيل سوف يؤدي إلى تقدم تقنية اللوحة » (١٢) وقد شغلت تحلية مياه البحر بالطاقة جهود إسرائيل منذ سنة ١٩٦٣ ومن الدلائل على الأهمية التي تعلقها إسرائيل على هذا المشروع أن رئيس الوزراء نفسه تولى مسؤولية هذا الأمر سنة ١٩٦٤ .

كذلك فقد وافقت الحكومة الأميركية في أيار (مايو) ١٩٧٣ على تحويل نحو ١٠ - ١٥ مليون دولار من شركات أميركية إلى إسرائيل للقيام بأبحاث حول مصادر الطاقة التي ستحل محل النفط . وستمول هذه المبالغ الأبحاث خلال ثلاث سنوات . وقد أقرت الحكومة الأميركية هذا المشروع لأن لإسرائيل « ميزات في هذا الموضوع كونها خارج النفوذ المالي لشركات النفط » (١٣) .

الأبحاث النووية : بين ليونارد بيتون وجون مادوكس (١٤) كيف بدأ البحث في برنامج تطوير الأسلحة النووية في إسرائيل تحت إشراف وزارة الدفاع الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ فيقولان : « لقد وضعت أولى المشاريع التقنية لصنع القنبلة الذرية مباشرة بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ . في هذه الأثناء جمعت مجموعة من العلماء الشباب وسميت لجنة الطاقة الذرية وقد أرسلت مجموعة منهم إلى الخارج لدراسة الموضوع تحت إشراف أكبر العلماء في هذا المجال » .

ولم يكن اهتمام إسرائيل المبكر بالقوة النووية تطورا منفصلا أو اعتباطيا بل كان تعبيرا عن الدور الأساسي الذي خصص للعلم والتكنولوجيا في مواجهة التطور ومشكلات الأمن . وكان اهتمام إسرائيل في المرحلة الأولى من البرنامج هو الحصول على التقنية الضرورية لصنع القنبلة الذرية . ولذلك فقد أسست رأسا بعد رجوع بعثة العلماء الشباب من الخارج دائرة للفيزياء النووية في معهد وايزمن وذلك في سنة ١٩٥٤ . وقد قامت هذه الدائرة ببحث مركز في حقول استغلال خام اليورانيوم المنخفض الدرجة وتخصيب الماء الثقيل بالتقطير التفاضيلي (١٥) . كما كانت تجري في الوقت نفسه تجارب لاستخلاص اليورانيوم من خامات الفوسفات في النقب . وقد نتج عن هذه الأبحاث أن طور العلماء في إسرائيل عملية لإنتاج الماء الثقيل لا تعتمد على القوة الكهربائية كما طورت مؤخرا طريقة جديدة تقوم على استخلاص اليورانيوم كمنتوج جانبي في عملية إنتاج حامض الفوسفوريك من صخور الفوسفات ويمكن بهذه الطريقة رفع نسبة رأسب اليورانيوم بعد معالجة فوسفات النقب من ٩٩ بالمائة إلى ١٢ بالمائة (١٦) .

وقد أسست لجنة الطاقة الذرية سنة ١٩٥٢ ولها الآن مركزان : مفاعل طاقته ٥ مفاعلات في ناحال سوريك وهو بشكل بركة سباحة ومفاعل ٢٦ مفاعلات اورانيوم طبيعي في مركز الأبحاث النووي في النقب المعروف بديمونا وقد ساعد الأفرنسيون في بناء هذا المفاعل وبذلك صار لدى الإسرائيليين القدرة على صنع القنبلة الذرية خلال عام بعد أخذ القرار السياسي ويؤكد البعض أن إسرائيل قد عملت بهذا الخيار وأن لديها القنبلة .

وقد ساعدت فرنسا على وضع أسس العمل في البرنامج الإسرائيلي بفتحها أبواب مؤسستها الذرية أمام الإسرائيليين وبتزويدهم بالمعلومات التقنية في السنوات الأولى . أما الولايات المتحدة فقد كانت الدولة التي أعطت إسرائيل أول مفاعل ذري بموجب اتفاقية عقدت سنة ١٩٥٥ وقد كان مركزه ناحال سوريك . وقد وضع تصميم هذا المفاعل مهندسون إسرائيليون بالتعاون مع العلماء الأمريكيين وبوشر العمل به في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٨ وبدأ المفاعل عمله في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٠ . والمركز هو في الأساس لتدريب العلماء والفنيين وللبحث النووي وتطويره وتجري في ناحال سوريك الآن دراسات في حقول الفيزياء والكيمياء النووية وفي حقل الراديوبيولوجي ومصادر الإشعاع العالي وغيرها من الحقول المتفرعة . وقد كبر المركز كثيرا أن كان لناحية عدد العلماء فيه أو لناحية إنتاجه وهو مركز للاتصال بالمجتمع العلمي الدولي والاستفادة منه .

أما مركز ديمونا فقد تم الاتفاق على بنائه سنة ١٩٥٧ عندما أبرمت الاتفاقية مع فرنسا ولا تزال بنود هذه الاتفاقية التي تتعلق بمصادر الوقود والتفاصيل الأخرى سرا حتى اليوم . وقد لقي بناؤه معارضة شديدة في إسرائيل لأنه كلف إسرائيل أموالا طائلة وقد أعلن وقتها أن المفاعل سيكلف ٢٥٠ مليون ليرة إسرائيلية (١٧) ولقي صعوبات تقنية جمة وكان بعض الإسرائيليين يتخوفون من ردود الفعل العالمية .

ولدى إسرائيل بالإضافة إلى المفاعلين في ناحال سوريك وديمونا عدة منشآت فرعية أخرى ذات أهمية كبيرة وتأتي في طليعتها « المختبرات الحامية » التي بنيت بمساعدة بريطانيا لأجراء الأبحاث على المواد الإشعاعية التي ينتجها مفاعل ناحال سوريك . وتكمن أهمية هذه المنشآت في ما توغره من خبرة وتدريب على الفن الصعب الخاص بتداول المواد المشعة .

وهناك أيضا مركز متقدم للبحث والتطوير في كلية العلم النووي التابعة لمعهد وايزمن في رحوبوت كما أن في التخنيون دائرة خاصة للعلم والهندسة النووية هدفها تدريب العلماء على التقنية النووية واعداد الموظفين التقنيين للمفاعلين الموجودين في إسرائيل .

ويمثل جهاز وزارة الدفاع للبحث العلمي ومخبراتها زيادة إضافية في غاية الأهمية على الجهد النووي الإجمالي . ولكن ليس هناك أرقام رسمية حول حجم هذه المراكز (١٨) .

ومن الصعب جدا الحصول على أرقام مجموع عدد العلماء والمهندسين المرتبطين بالعمل المتعلق بالجهد النووي ويقدر هذا الرقم بحوالي ألفي شخص وقد جاء في دليل اليونيسكو لعام ١٩٦٨ أن لجنة الطاقة الذرية وحدها تستخدم ٣٠٠ عالم ولديها ٦٠٠ موظف فني (١٩) .

أن إسرائيل من الدول الأعضاء في الوكالة الدولية للطاقة الذرية وقد صوتت إلى

جانب نظام المراقبة سنة ١٩٦٠ وعقدت اتفاقيات للتعاون في الحقل النووي مع ثمانية بلاد واتفاقيات لتبادل المعلومات مع ٦٠٠ مؤسسة في ٨٠ بلدا (٢٠).

مركز العلماء الاسرائيليين في العالم : تظهر دراسة اعددها ديريك ج. دوسولا برايس مركز كل دولة في حقل العلم والتقنية واسرائيل هي البلد السادس عشر بين بولندا وهنغاريا . ويظهر من الدراسة ايضا ان لاسرائيل علماء تنشر نتائج ابحاثهم اكثر مما هناك علماء تنشر ابحاثهم في دول اميركا اللاتينية مجتمعة واكثر بكثير من افريقيا كلها (٢١).

وفي دراسة للدكتور انطوان زحلان حاول فيها المقارنة بين المؤسسات العلمية ومراكز الابحاث في الدول المتقدمة وفي اسرائيل توصل الى ان اسرائيل قد طورت مؤسساتها بشكل تزامم فيه المؤسسات في الدول المتقدمة في عدد اساتذة العلوم بالنسبة لعدد السكان وفي حجم انتاجهم (٢٢). ويضيف زحلان انه بينما استفاد الصهيونيون من اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل وكانوا قد تعلموا على حساب الغرب جير الصهاينة التقنية الغربية الى حسابهم ، فان التقنية الغربية كانت تستعمل ضد بلدان العالم الثالث . وهكذا فان التقنية الغربية كانت عنصرا ايجابيا لاسرائيل وسلبيا للدول التي استعمرها الغرب (٢٣).

وفي مقارنة اخرى اجراها الدكتور انطوان زحلان بين العلماء في العالم العربي والعلماء الاسرائيليين يتبين : ١ - ان انتاج اسرائيل العلمي (وعدد سكانها ٣ ملايين) هو ٢٤ مرات اكثر من انتاج العالم العربي العلمي (وعدد سكانه ١٢٦ مليوناً) ، ٢ - ان انتاج اسرائيل العلمي هو اربعة اضعاف انتاج مصر العلمي مع ان عدد سكان مصر هو ١٢ ضعف عدد سكان اسرائيل (٢٤).

وهكذا فان اسرائيل بالنسبة لعدد سكانها تحتل مركزا مرموقا في مجال البحث العلمي والتقني وقد استفادت هذا المركز سياسيا واعلاميا لتظهر بمظهر الدولة المتطورة في بحر من التخلف .

تقييم البحث والتطوير : لا تزال اسرائيل تعتمد اعتمادا كبيرا على المهاجرين من الاطباء والمهندسين والعلماء كما انها تعتمد اعتمادا كبيرا على تمويل اجنبي لكثير من مشاريع الابحاث العلمية التي تقوم بها . ولذلك فان عددا من العلماء الاسرائيليين يبدي قلقه من ان يكون مردود هذه الابحاث اكثر فائدة لمولي المشروع مما هو لاسرائيل . واسرائيل مثلا مركز مهم لترجمة الكتب والمقالات العلمية لان فيها عددا كبيرا من العلماء الوافدين من جميع انحاء العالم والذين يعرفون لغات اجنبية عديدة . ورغم ان مشاريع الترجمة هذه هي فرصة لاجاد العمل لهؤلاء العلماء ، ولكنها لا تعود بنفع مباشر لاسرائيل .

وصحيح ان اسرائيل تخصص مبلغا كبيرا بالنسبة لميزانيتها في البحث والتطوير الا ان هذا قد عاد عليها بالفائدة في المجال العسكري اذ أصبح بإمكانها صنع القنبلة الذرية كما انها استطاعت ان تطور الصناعات العسكرية الاساسية وطورت اشياء عديدة اخرى كما انها في مجال الاقتصاد ضاعفت انتاجها الزراعي واستعملت وسائل تقنية للمحافظة على انتاجها الزراعي لتسويقه في الخارج كما انها طورت صناعات اساسية مهمة . وقد استفادت اكثر ما استفادت في مجال الاعلام والعلاقات الخارجية وكنان المستوى العلمي والمساعدات العلمية مدخلها الى افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية حتى اصيبت بنكسة في هذا المجال في اوائل السبعينات . ولكنها لا تزال تحاول الرجوع الى افريقيا بهذه الوسيلة كما انها تنشط في آسيا واميركا اللاتينية وقد وقعت مؤخرا

اتفاقيات مع تشيلي والبيرو والارجنتين لتقديم المساعدة التقنية في مجال استعمال المياه استعمالا سليما وتخزينها وطرق الري الصحيحة (٢٥).

في المجال العسكري

لقد لقي القطاع العسكري في عصره — البحث والانتاج — اهتماما كبيرا منذ قيام اسرائيل ، ولكنه اندفع دفعة قوية ولائى دعما كبيرا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . اذ حاولت اسرائيل تنفيذ سياسة اكتفاء ذاتي خاصة في ميدان تصنيع الاسلحة الخفيفة وقطع الغيار بعد الحظر الفرنسي اثر هذه الحرب . واعتمدت اسرائيل في هذا المجال على نتائج الابحاث والتطوير في البلاد المتقدمة خصوصا الولايات المتحدة فاستوردت المعلومات وبراءات الاختراع وعملت لتكيفها وتطويرها في مؤسساتها العلمية كسي تخدم حاجاتها العسكرية .

وقد تمت صناعة اسرائيل العسكرية ، لتصبح الدولة اكبر صاحب عمل ، فصناعة الطائرات وحدها تستخدم ما يزيد على ١٣ الف شخص . واسرائيل مدرجة في معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن بين الدول الاربعة والعشرين في العالم التي تطور وتنتج بعض اسلحتها بينما لا تضم القائمة ايا من البلدان العربية .

وفي تصريح لموشي دايان في حزيران (يونيو) ١٩٧٣ قال : « فيما بلغت قيمة اسلحتنا عشية حرب الايام الستة ٨٠٠ مليون ليرة اسرائيلية . ٥٠ ٪ منها انتاج محلي ، فان اسلحتنا تبلغ هذه السنة ٢٥٠ مليارا ليرة اسرائيلية ٤٨ ٪ منها انتاج محلي . وتوقع دايان ان تبلغ قيمة السلاح الاسرائيلي سنة ١٩٧٧ ، ٦٢٥ مليارا ليرة ٧٥ ٪ منها انتاج محلي يشمل طائرات وصواريخ ودبابات ، وقال ان حوالي ٩٠ ٪ من الذخيرة تنتج في اسرائيل » (٢٦) .

وقد نقلت « دافار » في عددها الصادر في ٤/٩/١٩٧٤ ، عن المهندس ميخائيل شور مدير الصناعة الحربية قوله ان احدى عبر حرب يوم الغفران ، كانت زيادة احتياط الذخيرة على انواعها لحساب الجيش . وقد بذل منذ انتهاء الحرب جهد مركز لهذا الغرض . وتستمر فترة الطوارئ في الصناعة الحربية لتوفير حاجات الجيش من الاسلحة والذخيرة . وتعمل هذه الصناعة حاليا في انتاج ذخيرة للأسلحة التي تسم الحصول عليها اخيرا . وفي انتاج بعض هذه الاسلحة ايضا ومن بينها الاسلحة والمعدات السوفياتية الصنع التي غنمت في الحرب الاخيرة (٢٧) .

وجاء في التقرير السنوي لمراقب دولة اسرائيل بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، انه : كان الامداد الفعلي من الصناعة العسكرية للقوات البرية الاسرائيلية خلال فترة نيسان — ايلول ١٩٧٣ يشكل نسبة ٧٨ ٪ فقط مما كان مخططا لتلك الفترة . كما حصل سلاح الجو على ٦٧ ٪ من الامداد الذي كان مخططا له في السنة المالية ١٩٧٣ واجل الباقي لسنة ١٩٧٤ وفي شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ضوعف معدل الامداد الشهري ولكن الامداد الشامل حتى نهاية الشهر كان لا يزال اقل بنحو ٢٨ ٪ من الامداد المخطط (٢٨) .

وقد اعلن ان جهاز الامن استثمر ٥٠٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٧٤ في البحث والتطوير ، مقابل ٧٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٧ (٢٩) .

وقد توصل رؤساء جهاز الامن بعد حرب تشرين الى استنتاج انه من الضروري بذل جهد اكبر كثيرا من الماضي في تطوير وسائل قتال ذاتية . واحد الاستنتاجات هو انه

نظرا الى عدم قدرة الجيش الاسرائيلي على سد الفجوة الكمية بينه وبين الجيوش العربية ، يجب بذل جهد لزيادة الفجوة النوعية . واحدى الطرق للمحافظة على نسبة ملائمة كما ونوعا بين الجيش الاسرائيلي والجيوش العربية ، هي تطوير اسلحة حديثة وانتاج مستقل لاسلحة متقدمة . . . لقد تم خلال السنوات الماضية بناء قاعدة صناعية تمكن من زيادة طلبات جهاز الامن من السوق المحلية . فقد كان حجم هذه الطلبات سنة ١٩٦٧ ٤٠٠ مليون ليرة اسرائيلية . وسيصل حجمها في السنة المالية التي تبدأ في اول نيسان ١٩٧٤ نحو ٥ مليارات ليرة اسرائيلية . . . وقد تلقت الصناعة الاسرائيلية طلبات من الخارج لاجهزة واسلحة وعتاد الكتروني تبلغ قيمتها نحو ٣٠٠ مليون دولار وستلبي هذه الطلبات خلال ثلاث سنوات (٣٠) .

وقد اعلن ميخائيل شور مدير الصناعة الحربية في تصريح نشرته يديعوت احرونوت في ١٩٧٤/٩/٤ ان الصناعة الحربية صدرت قبل الحرب الاخيرة ما قيمته ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية في السنة . ولكن هذا الرقم سينخفض هذه السنة الى ٧٠ مليون ليرة بسبب التركيز على سد حاجات الجيش الاسرائيلي . وقال ان عائدات الصناعة العسكرية بلغت هذه السنة ٨٠٠ مليون ليرة اسرائيلية (٣١) .

وتنتج مصانع الصناعة الحربية الاسرائيلية التابعة لوزارة الدفاع جميع انواع الصواريخ والقذائف الصاروخية وذخيرة المدفعية والدبابات والذخيرة الخفيفة . ويبلغ عدد العمال في هذه المصانع ١٠٠٠٠ شخص ويتنظر ان يرتفع هذا العدد في نيسان (ابريل) ١٩٧٥ الى نحو ١١٤٠٠٠ شخص (٣٢) .

لنلق الان نظرة سريعة على الاسلحة التي تضمها اسرائيل وتصنعها او انها تصنعها وتكون مضممة من قبل فريق اخر او انها ادخلت عليها تحسينات مهمة :

(١) المدرعات : كشفت اسرائيل في ١٢/٢/٧٣ انها ادخلت تعديلات مهمة على دبابات ستوريون مارك ٥٠ ابرزها تغيير المدفع الاصلي عيار ٨٥ ملم بمدفع عيار ١٠٥ ملم . كما استبدل المحرك الذي كان يعمل على البنزين وقوته ٦٥٠ حصانا بمحرك ديزل اميركي تبلغ قوته ٧٥٠ حصانا . وقد زادت حمولة الدبابة من الذخيرة كما زادت سرعتها من ٣٥ الى ٤٣ كلم في الساعة . وقد تم تركيب علبة سرعة هيدروليكية من صنع شركة جنرال الكتريك الاميركية فيها سرعتان للامام وسرعة للخلف كما تم استبدال اجهزة التنسير في الدبابة مما زاد من مرونتها وضيق قطر دائرة تغيير اتجاه سيرها من ٤٠ مترا الى ١٣ مترا . ولم تتوفر معلومات عن التعديلات الاخرى التي ادخلت على هذه الدبابات ، ولكن من المتوقع ان يكون الاسرائيليون قد استبدلوا اجهزة الاتصال الموجودة في هذه الدبابات باجهزة جديدة . ومن الممكن جدا ان تكون قد زودت هذه الدبابات باجهزة الرؤية الليلية التي تعمل بالاشعة ما تحت الحمراء . ويرجح ايضا ان تكون اسرائيل قد ادخلت تحسينات اخرى على دبابات ستوريون وهو استخدام اجهزة قياس بعد وتهديف تعمل بالاشعة لايزر (٣٣) .

وقد ادخلت اسرائيل تعديلات مهمة ايضا على دبابة شيرمان (٣٤) كما انها غيرت المدفع والمحرك في دبابة باتون M-48 (٣٥) . أما دبابات ت - ٥٤ وت - ٥٥ السوفياتية الصنع التي غنمتها في حرب ١٩٦٧ فقد غيرت اجهزة الاتصال والتصويب واجهزة الانارة الموجودة في هذه الدبابات كما ادخلت تعديلات تزيد من راحة الطاقم وركبت جهاز رماية كهربائي كما استبدلت المدافع الاصلية بمدافع ١٠٥ ملم البريطانية التصميم والتي تصنع في اسرائيل (٣٦) .

أما الدبابة الوحيدة التي هي من تصميم وصنع إسرائيل ، فقد أطلق عليها اسم سابرا وتقول المصادر الإسرائيلية أنها قد أنتهت من صنع هذه الدبابة وأنها الآن قيد الاستعمال وقد زودت بمدفع ١٠٥ ملم الذي يصنع في إسرائيل أيضا ويقال أنها صممت خصيصا لتعمل في الصحراء (٢٧) .

ب (المدفعية : معظم المدفعية التي تنتجها إسرائيل تصمم وتصنع من قبل شركة سولتام الإسرائيلية . وقد أسست هذه الشركة سنة ١٩٥١ من قبل مجمع كور (التابع للحكومة الإسرائيلية) ومجموعة من المستثمرين الاسكندنافيين ، وهي تصدر الآن ٦٠ ٪ من انتاجها . وقد صدرت سولتام معدات عسكرية بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٧٢ بقيمة ١٠٨ ملايين دولار منها ١٥ مليون دولار سنة ١٩٧٢ . ويتم التصدير الى خلف الاطلسي في أوروبا ودول أخرى في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . ويساعد هذا التصدير الجيش الإسرائيلي اذ انه يمكن تحويل كامل انتاج الشركة المعد للتصدير الى الجيش وقت الحاجة كما حصل سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٧٣ . وتشغل الشركة حوالي ١٣٠٠ شخص (٢٨) .

وقد صممت الشركات الإسرائيلية وصنعت مدفعا مضادا للمدرعات بعبار ٩٠ ملم ، أطلق عليه اسم ٩٠ ملم . س . ب وهو يركب على نصف مجنزرة من طراز م - ٣ التي تحولت لتقبله . ويمكن للمدفع ان يطلق النار في جميع الاتجاهات حتى عندما تكون النصف مجنزرة محركة . وهو نصف آلي . طوله ٧ أرم قدم وطاقمه ٥ جنود (٢٩) .

وتصنع إسرائيل مدافع عيار ٥٢ ملم و ٨١ ملم و ١٢٠ ملم كما تصنع شركة سولتام مدفعا عيار ١٦٠ ملم من تصميم شركة تمبالا في فنلندا (٤٠) . وكشف الإسرائيليون عن مدفع جديد أطلق عليه اسم ل - ٣٣ من عيار ١٥٥ ملم محمول على عربة شيرمان من صنع شركة سولتام أيضا . ويتميز هذا المدفع بهداه الذي يصل الى ٢٠ كلم وبفضل سرعة اطلاق النار التي تصل الى ٣ قذائف في الدقيقة . وهو يحمل ٦٠ قذيفة ومصنح من جميع الجهات بما في ذلك السطح وهو مزود بجهاز تلقى نصف آلي ويسير ٢٠ ساعة متواصلة بسرعة قصوى تصل الى ٥٨ كلم في الساعة . ويتألف طاقمه من ٧ جنود (٤١) .

وعرض الإسرائيليون في ايار (مايو) ١٩٧٣ مدفعا مضادا للطائرات بسببانتين من عيار ٢٠ ملم مركبا على ناقلة جنود نصف جنزير من نوع م - ٣ وقد صمم هذا السلاح لتأمين دفاع جوي للقوات الالية اثناء تحركها وتقول المصادر الإسرائيلية ان هذا السلاح استخدم اثناء حرب الاستنزاف (٤٢) .

ج (سلاح المشاة :

١ - رشاش عوزي : من أهم الرشاشات التي يستعملها المشاة في الجيش الإسرائيلي رشاش عوزي من تصميمهم وصنعهم وقد صدر هذا الرشاش الى ألمانيا الغربية ودول اوروبية أخرى ، ويعتبره البعض أحسن رشاش خفيف موجود في العالم اليوم . عياره ٩ ملم ، وزنه ٧٫٧ رطل ، طوله ٢٤٫٥ إنش مجاله ٢٠٩ يارد ويطلق ٦٠٠ طلقة في الدقيقة (٤٣) .

٢ - بندقية غاليل : عرض الإسرائيليون في نيسان (ابريل) ١٩٧٣ سلاحا آخر من انتاجهم وتصميمهم هو بندقية غاليل من عيار ٥٦ ملم ويمكن استخدامها لاطلاق القذائف المضيفة وقذائف مضادة للدروع ورمانات شديدة الانفجار . ويمكن تزويدها بمخازن تحتوي ١٣٥ و ٥٠ طلقة ، وتطلق نظريا بمعدل ٦٥ طلقة في الدقيقة . وتقول

المصادر الغربية والاسرائيلية ان هذه البندقية افضل من بنادق الكلاشينكوف ومن المرم - ١٦ الامريكية وانها ستكون السلاح الفردي الاسرائيلي بدلا من البنادق الاخرى المتعددة الانواع (٤٤).

(د) سلاح البحرية : لقد حققت البحرية الاسرائيلية عدة تطورات مهمة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ فقد لاقبت اهتماما كبيرا بعد الضربتين الكبيرتين اللتين تلقتهما القوات البحرية الاسرائيلية خلال حرب ١٩٦٧ وبعدها ، وهما اغراق المدمرة ايلات وفقدان الغواصة داکار .

وتبينت نتائج التقنية الاسرائيلية اكثر ما تبينت خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ في سلاح البحرية اذ وفق الاسرائيليون باعتراض صواريخ ستيكس السوفياتية بواسطة آلة الكترونية صممها الاسرائيليون تستطيع تغيير وجهة سير صاروخ ستيكس اثناء رحلته (٤٥) .

وتنتج اسرائيل منذ سنة ١٩٦٩ حوامات وقد اطلق اسم ليدي بيرد على اول تلك الحوامات التي صنعت في اسرائيل وهي من انتاج وتصميم شركة (Israel American Motor Corporation) التي اسست سنة ١٩٦٤ . وهذه الشركة كما يظهر من اسمها هي شركة اسرائيلية امريكية يملك ممولون امريكيون ٤٩٪ من اسهمها ويساعد الامريكيون ايضا في الخبرة (٤٦) .

وقد كشف الاميرال بنيامين تيليم قائد سلاح البحري الاسرائيلي في مؤتمر صحفي عقده في ٤ شباط (فبراير) ١٩٧٣ ان اسرائيل تصنع حاليا زوارق جديدة اطلق عليها اسم ريشيف تتميز بقوة ضاربة تعادل ضعف قوة زوارق سالمار التي بنيت في فرنسا . ويسلح هذا الزورق بـ ٧ صواريخ غبريئيل ومدفعين عيار ٧٦ ملم وقاذفات قنابل اعماق وعدد من الاسلحة الرشاشية (٤٧) و (٤٨) ويعتقد ان عددا من هذه الزوارق قد شارك في حرب اكتوبر ١٩٧٣ الا انه لم يعرف بعد ما هو العدد الذي انجز صنعه حتى اليوم .

واهم ما تنتجه اسرائيل لسلاح البحرية هو صاروخ غبريئيل . وقد عرض هذا الصاروخ لأول مرة سنة ١٩٧٠ وهو صاروخ موجه من السفن الى السفن ، تنتجه مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص . ط . ا) ويستطيع هذا الصاروخ العمل في جميع الاحوال الجوية ولا تؤثر فيه المعطلات الالكترونية ، وطوله ٣ر٣٥ امتار ووزن الرأس الحربي فيه ١٥٠ كلغ . واعلنت اسرائيل وقتذاك ان هذا الصاروخ هو الوحيد من نوعه خارج الكتلة الشرقية . ويتبع هذا الصاروخ في مساره خط طيران منخفض جدا فوق الامواج ويصيب الهدف بدقة بالغة . وفي اوائل سنة ١٩٧٢ عرف انه تم بيع صواريخ غبريئيل الى خارج اسرائيل بقيمة ٢٨ مليون دولار ، ومن المحتمل ان يكون قد بيع الى الحبشة وايران وجنوبي افريقيا وسنغافورة . وقد حقق هذا المشروع نجاحا كبيرا لشركة ص . ط . ا (٤٩) .

وتعمل اسرائيل حاليا في تزويد صواريخ غبريئيل البحرية بكاميرات تلفزيونية لزيادة مدى هذه الصواريخ الى ابعد من مداها الحالي الذي يصل الى نحو ٢١ كلم . ويستطيع مشغل الصاروخ ان يرى الهدف البعيد ويرسل اشارات بضبط توجيه الصاروخ في المرحلة النهائية من رحلته . والجدير بالذكر ان الاسرائيليين كانوا قد اعلنوا انهم يصنعون نوعين من صواريخ غبريئيل : الاول بمدى ٢١ كلم والثاني بمدى ٤٢ كلم . لذلك من المتوقع ان يكون التوجيه التلفزيوني قد صمم ليستخدم على النوع

ذي المدى البعيد . ومن جهة أخرى تطور اسرئيل حاليا صواريخ غبريئيل لإطلاقها من الشواطئ وذلك لتأمين دفاع فعال عن الموانئ والمدن الساحلية ولا يحتاج الصاروخ نفسه الى تعديل في هذه الحالة وإنما يجب بناء قواعد ثابتة له على الارض مع اجهزة توجيه شبيهة بتلك المستخدمة في الزوارق(٥٠).

هـ **الصناعة الجوية** : تنصب جهود اسرئيل التقنية اكثر مما تنصب في صناعة وتطوير سلاح الجو . وهناك عدة صناعات نمت وازدهرت لارتباطها بشكل مباشر او غير مباشر بالصناعة الجوية .

واهم المؤسسات التي تعمل في هذا المجال هي مؤسسة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص. ط. أ) وقد اسست سنة ١٩٥٣ وكان اسمها حينذاك « بيديك » ، وكان عملها الاساسي صيانة الطائرات والمحركات . وكان رأسمال المؤسسة عام ١٩٥٣ ، ٦٠٠ الف دولار وكان عدد العاملين فيها ٧٠ شخصا ، وقد أصبح رأسمالها الان مئات الملايين من الدولارات ويعمل بها الان نحو ١٣ الف شخص .

وقد بقيت الشركة حتى سنة ١٩٥٨ تعمل أساسا في الصيانة الا انها اصبحت تستعمل من قبل شركات تجارية اجنبية لصيانة طائراتها أيضا . وفي عام ١٩٥٨ وقعت اتفاقا مع شركة بوتيز إير - فوغا لانتاج طائرات التدريب فوغا - ماجستير في اسرئيل لحساب سلاح الجو الاسرائيلي وقد انطلقت ص. ط. أ منذ ذلك الحين في مجال انتاج الطائرات او ادخال تعديلات على الطائرات الموجودة لديها .

وتستوعب مؤسسة ص. ط. أ معظم خريجي معهد تخنيون في حقل العلوم الفضائية والجوية وقد حاولت سد حاجاتها باستقدام مهندسين وفنيين من الخارج الا انها فشلت في معظم الحالات في استقدام واستبقاء المهندسين والفنيين الذين اتوا من البلدان الغربية المتقدمة . وكشف مسؤولون اسرئيليون ان ٦٠ مهندسا كانوا يعملون في الصناعة الجوية تركوا عملهم ونزح معظمهم عن اسرئيل وازداد عدد كبير آخر على وشك النزوح خلال الاشهر المقبلة وبينهم عدد غير قليل ممن خدموا الدولة في مشروعات مهمة . وقدر المسؤولون ان ٢٥ ٪ من المهندسين من بين اصحاب العقود لمدة ٣ سنوات ينزحون قبل انتهاء مدة تعاقدهم وتصل هذه النسبة في نهاية العقد الى ما يزيد على ٣٣ ٪ (٥١) . وقد نسب نزوح المهندسين من اصل اميركي الى الانسحاق المهني والقيود الادارية . وقد ذكر المهندسون النازحون ان مستوى الادارة في الصناعة الجوية منخفض ، وانه يسود هذه الصناعة تنافس شخصي حاد اذ يسيطر على ادارات مهمة للتخطيط والتنفيذ مهندسون اوروبيون متخلفون في الخبرة الادارية عن التطور الذي شهدته صناعة الطيران في العالم(٥٢) .

وقد ادخلت ص. ط. أ تعديلات رئيسية ومهمة على بعض انواع اسلحة الجو التي يستخدمها الطيران الاسرائيلي . فقد غيرت محركات طائرات سكايهوك وابدلتها بمحركات Pratt و Whitney من نوع ٦5 J كما ابدلت مدفع الـ ٢٠ ملم الذي كان على هذه الطائرات بمدفع DEFA من عيار ٣٠ ملم وهو يصنع في اسرئيل بموجب ترخيص خاص(٥٣) .

وقد حولت طائرات ستراتوكروزر الى طائرات صهريج تزود الطائرات المقاتلة بالوقود اثناء تحليقها ، مما يعطي هذه الطائرات مدى اطول بكثير من مداها الاصلي(٥٤) وزودت طائرات الهليكوبتر سيكورسكي اس ٦٥ بخزانات اضافية ومصاف للوصل ضرورية للعمل في الصحراء(٥٥) .

- وتصنع اسرائيل طائرات الفوجا ماجستير برخصة خاصة من شركتها الاصلية ولقد انتجت حوالي مئة طائرة من هذا النوع حتى عام ١٩٧٣ ، وباعت بعضها الى الدول الافريقية والاسيوية . وطائرة فوجا ماجستير هي في الاساس طائرة للتدريب النفات وقد اجرت عليها تعديلات عديدة بحيث اصبح بالامكان استعمالها كطائرة لدعم الهجوم الارضي (٥٦) .

وتعمل مؤسسة ص. ط. ١ أيضا في انتاج قطع الغيار وقد زاد الاهتمام بهذا الموضوع بعد الحظر الفرنسي عام ١٩٦٧ ، وتركز على قطع الغيار لطائرات ميراج ، الا انه سرعان ما تبين انه لم يكن بإمكان ص. ط. ١ سد الحاجة وعلم ان المانيا الغربية والولايات المتحدة تصنعان بعض قطع الغيار المطلوبة لحساب سلاح الجو الاسرائيلي (٥٧) .

وتنشر ص. ط. ١ الكثير من الاعلانات عن انجازاتها وتشارك في المعارض الجوية الدولية ، وهي تفاخر اكثر ما تفاخر بانتاجها طائرتي عرافا وكومودور - جت او وستويند ، وهذه محاولة لتسويق انتاجها من هذه الطائرات لتغطية النفقات الباهظة التي تكلفتها لصنع هاتين الطائرتين كما سيتبين .

طائرة عرافا : وضعت شركة صناعة الطائرات الاسرائيلية (ص. ط. ١) سنة ١٩٦٦ اول تصميم لطائرة « عرافا » على ان تكون طائرة نقل خفيفة معدة للاستخدامين العسكري والمدني ، ومصممة بحيث تتمكن الطائرة من الاقلاع والهبوط على مدارج قصيرة (١٢٠ - ١٥٠ مترا) وغير معدة . وتستطيع هذه الطائرة ان تحمل ٢٠ جنديا بكامل اسلحتهم او ما حمولته طنين من الذخيرة . وكان من المنتظر ان يبدأ الانتاج التجاري لهذه الطائرة سنة ١٩٧١ . ولكن الصعوبات بدأت تعترض هذا المشروع سنة ١٩٧٠ . اذ تحطم اول نموذج للطائرة في اثناء رحلة تجريبية في ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٠ وقتل ٣ طيارين . وفي سلسلة مقالات كتبها الصحافي الاسرائيلي شمشون ارليخ في هارتس في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ يقول انه قد استثمر في هذا المشروع نحو ٢٠ مليون ليرة اسرائيلية وهذه زيادة عدة اضعاف عما كان متوقعا له (٥٨) .

وكانت الصناعة الجوية الاسرائيلية تدرس امكانية انتاج نوع اطول من طائرة عرافا بإمكانه نقل ٣٠ - ٤٠ جنديا او مسافرا ، ولكن تقرر أخيرا ان يركز على انتاج النموذج العسكري من الطائرة .

وقد اشترت المكسيك ٥ طائرات عرافا من اسرائيل بمبلغ ١٥ مليون دولار اي انها دفعت ٣ ملايين من الدولارات ثمن الطائرة على الرغم من ان اسرائيل كانت قد أعلنت ان ثمن الطائرة لن يزيد على نصف مليون دولار (٥٩) .

وقد أعلن في يونيو ١٩٧٣ انه تم تجهيز طائرة عرافا الاولى لحساب المكسيك ، ومعدل الانتاج الحالي هو طائرتان كل شهرين مع ان المسؤولين الاسرائيليين كانوا قد أعلنوا انه بمقدورهم انتاج عشر طائرات عرافا في الشهر (٦٠) .

ولم يعرف بعد كم من هذه الطائرات تملك المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، الا انه مما لا شك فيه ان طائرة عرافا قد شاركت في حرب اكتوبر الاخيرة وان مهمتها الاساسية كانت نقل الجنود من والى الجبهة كما انها كانت تنقل الجرحى والقلى (٦١) .

طائرة « كومودور - جت » او وستويند : اشترت الحكومة الاسرائيلية في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ الادوات الخاصة بصنع طائرات جيت كوماندور من شركة ايرو -

كوماندور روكويل الاميركية . وبلغت قيمة الصفقة ٢٥ مليون دولار . وهذه الطائرات مصممة لاستعمال رجال الاعمال ورؤساء الدول في رحلات قصيرة .

وبعد نقل المصنع الى اسرائيل ادخلت (ص . ط . ا) تعديلات على الطائرة وبدأت انتاجها باسم كومودور - جت فاستخدمت محركات أقوى وزادت طول هيكل الطائرة لتستطيع نقل ١٠ أشخاص بدلا من ثمانية ، وازادت تحسينات اخرى على الاجهزة الكهربائية وغيرها . الا أن النموذج الاول تحطم اثناء رحلة تجريبية في ٢١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٩ وقتل الملاحون الاربعة الذين كانوا على متنه مما اخرز في انتاج الطائرة ايضا (١٢) .

ومنذ ذلك الوقت غيرت اسرائيل من تصميم هذه الطائرة واصبحت تفتجها الان باسم وستويند ١١٢٣ او وستويند ١١٢٤ المطورة عن الاولى . وقد عرضت هذه الاخرة لأول مرة في معرض جوي في لويس انجلوس في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٤ وكشف لأول مرة عن بعض تفاصيل هذه الطائرة الفنية .

وكانت الشركة قد أبرمت في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ اتفاقية مع شركة افبيشن اتلانتيك الاميركية ، وقد باعت منذ ذلك الحين ١٨ طائرة في الولايات المتحدة بسعر ١٥ مليون دولار للطائرة (١٣) .

وقد أتمت ص . ط . ا صنع النموذج العسكري الاول لطائرة وستويند ١١٢٣ لصالح قوات خفر السواحل الاميركية سنة ١٩٧٣ . وستشارك هذه الطائرة في مسابقة لاختيار طائرة لخفر السواحل تستخدم للاغراض الالكترونية ولعمليات البحث والإنقاذ . واذا قبلت هذه الطائرة فمن المتوقع ان تطلب قوات خفر السواحل الاميركية ٣٥ طائرة منها على الاقل . وتبحث شركة ص . ط . ا في تغيير محركات طائرة وستويند (وهي الان تستعمل محركات من صنع جنرال الكتريك) لاعطائها المدى المطلوب لطائرة خفر السواحل (١٤) . ويقول الاسرائيليون انه بإمكانهم انتاج اربع طائرات وستويند ١١٢٣ في الشهر (١٥) .

طائرة « باراك » : ظلت التكهات والأقاويل حول ما اذا كانت اسرائيل تصنع طائرة مقاتلة نفاثة أسرع من الصوت موضع جدل حتى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، اذ تبين ان حوالي ٢٥ طائرة من هذا النوع كان قيد الاستعمال خلال الحرب (١٦) . ولم تعرض اسرائيل هذه الطائرة في أية من المعارض الجوية التي شاركت بها مع أنها تعرض عادة في هذه المعارض نماذج عن الطائرات الباقية التي تصنعها او تجمعها ولذلك فمن الصعب جدا معرفة دقائق هذه الطائرة بالتفصيل الا أنه من المعروف ان هذه الطائرة مشابهة جدا لطائرة ميراج-٣ . وكانت تصنع في الاساس تحت اسم Super - Mariage وقد سرقت تصاميم هذه الطائرة بواسطة مهندس سويسري في صيف سنة ١٩٦٩ وسلمت الى اسرائيل كما ان اسرائيل استعانت في تصنيعها لهذه الطائرة بالمعلومات والخبرة التقنية التي حصلت عليها من شركة داسو الفرنسية عندما كانت العلاقات مع فرنسا طبيعية ومتينة . وكذلك فمعروف ايضا ان محرك هذه الطائرة هو جنرال الكتريك (٥٩-٦) ، وهو من تصميم الشركة الاميركية ويصنع في اسرائيل بترخيص خاص من هذه الشركة (١٧) .

وقد اتفقت الحكومة الاسرائيلية في اوائل سنة ١٩٧٣ مع الحكومة الاميركية لتساعدها في انتاج هذه الطائرة . اذن فان المعدات الاسرائيلية الصنع والتصميم في هذه الطائرة محدودة للغاية ، اذ انه يعتقد ان المساعدة الفنية الاميركية كانت في مجال

التسليح والاجهزة الإلكترونية مما لا بد ان يحل الكثير من المشاكل التقنية الخاصة بانتاج هذه الطائرة . ويعتقد ايضا ان اسرائيل استثمرت نحو ٣٠٠ - ٤٠٠ مليون دولار في انتاجها « الباراك » .

وكانت مصادر غربية قد ذكرت ان الطائرة الاسرائيلية هذه تستطيع نقل حمولة خارجية وزنها ٤ و ٦ اطنان وتستطيع الطيران بسرعة تزيد ٢٥٥ سرعة الصوت، وتستطيع العمل على مدارج قصيرة (١٨) . الا ان هذه المعلومات لا يمكن التأكد منها بعد للسرية التامة التي تحيط بها اسرائيل هذه الطائرة .

ان للصناعة الجوية الاسرائيلية فوائد كثيرة على المجتمع الاسرائيلي . فهذه الصناعة تعود بفائدة كبيرة في مجال تنمية القدرة العلمية والتقنية في اسرائيل . كما ان لها فائدة اقتصادية من حيث انها تزيد في حجم النشاط الاقتصادي داخليا وما يوفره من ارتفاع في توظيف اليد العاملة كما انها تخفف من عبء الاستيراد باستبداله بالانتاج المحلي .

ووجود صناعة محلية قادرة على تزويد سلاح الجو الاسرائيلي بطائرات مقاتلة ففائدة يعطي اسرائيل قدرة اكبر على تحمل الضغوط السياسية الخارجية . فاسرائيل لم تتأثر كثيرا نتيجة الحظر الفرنسي عليها لا لان الولايات المتحدة فتحت سوقها امامها فحسب ، بل لانه كان بمقدور الصناعة الاسرائيلية تلبية حاجات الجيش الاسرائيلي في معظم قطع الغيار التي كان يحتاج اليها .

واسرائيل تستغل هذه الصناعة استغلالا اعلاميا كبيرا في محاولة منها لاكتساب اعجاب وتقدير الدول المتقدمة للاستفادة من تبادل الخبرات بينها وبين الدول المتقدمة من جهة وفي محاولة من جهة اخرى لتحسين علاقاتها بالدول النامية بعرض مساعدتها التقنية على هذه الدول ومن جهة ثالثة وهي الاله لاجداث آثار نفسية معينة عند الشعب العربي من خلال اعلامه بهذه المنجزات العلمية والتقنية التي تحرزها .

الصواريخ : يبرز دور التقنية في اسرائيل اكثر مما يبرز في تطوير وصنع الصواريخ في اسرائيل ، فعدا صاروخ غبريئيل الذي تكلمنا عنه اعلاه ، طورت اسرائيل عدة صواريخ ، فاسرائيل تنتج صاروخ ارض - ارض اسمه جريكو ، وكانت تصنع هذه الصواريخ في فرنسا قبل ١٩٦٧ حيث تقرر نقل المصنع الى اسرائيل ليكون تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية مباشرة . وكانت اسرائيل تنتج ٤ الى ٦ من هذه الصواريخ في الشهر ، ويكلف الصاروخ ٥٥ مليون دولار ومداه ٣٠٠ ميل . وقد كانت تملك ٦٠ صاروخا من هذا النوع اثناء حرب ١٩٧٣ (١٩) .

وقد اعلنت مصادر غربية في تموز (يوليو) ١٩٧٢ ان اسرائيل تعمل على تطوير عدة انواع من الصواريخ التكتيكية للاستعمال من الارض الى الارض لنقل رؤوس حربية غير نووية ويبلغ المدى الأقصى لهذه الصواريخ ٥٦ كلم (٧٠) .

كما اعلنت نفس المصادر في ايار (مايو) ١٩٧٣ ان اسرائيل تطور نموذجا حديثا من صاروخ جو - ارض من نوع « زوني » الموجه بواسطة اشعة لايزر (٧١) ولكن من الظاهر انها لم تطوره بعد لانها لا تزال تتفاوض الحكومة الاميركية للحصول على انواع مشابهة من الصواريخ (٧٢) .

اما الصاروخ الذي يفاخر الاسرائيليون به فهو صاروخ « شفيرير » الذي تدعي اسرائيل انه من تصميمها وصنعها كليا . وقد كشفت عنه لأول مرة في ايار (مايو) ١٩٧٣ . وقد قالت المصادر الاسرائيلية وقتذاك ، ان هذا الصاروخ استعمل اثناء حرب

الاستنزاف وفي الممارك الجوية التي تلتها ، وهو صاروخ جو - جو . ويقول الاسرائيليون أن بإمكان الصاروخ اعتراض طائرات تحلق على ارتفاعات تصل الى ٧٥ الف قدم ويبلغ مداه ٥ كلم ووزنه ٩٣ كلغ ويحمل رأسا حريبيا وزنه ١١ كلغ ، ويعمل بالحرارة ما تحت الحمراء أي أنه يتبع الحرارة الصادرة عن الطائرة المعادية . وتقول المصادر الاسرائيلية بأن صاروخ شفيرير مزود بأجهزة غير موجودة في الصواريخ الأخرى كما يقال ان تكاليفه هي ثلث تكاليف صواريخ Matra جو - جو المشابهة وهي فرنسية الصنع وقد استعمل هذا الصاروخ في حرب أكتوبر ١٩٧٣ (٧٢) .

الصناعة المدنية

كان انتاج الصناعة القائمة على التكنولوجيا العصرية حتى سنة ١٩٧٢ يشكل ٢٨٫٧ ٪ فقط من مجمل انتاج الصناعات في اسرائيل (٧٤) . وهذه النسبة لا تدل على وجود صناعة متطورة تلائم الاتجاهات السائدة في القرن العشرين ، كما انها لا تتلاءم مع الكفاءة التكنولوجية للطاقة البشرية الموجودة في اسرائيل . وقد تطورت الصناعة القائمة على التكنولوجيا تطورا كبيرا منذ سنة ١٩٦٧ لتلبي حاجات جهاز الامن في اسرائيل وهي تظهر اناكالية كبيرة على هذا الجهاز مما أدى ببعض المسؤولين الاسرائيليين الى التساؤل عما اذا كان هذا مظهرا صحيا في تطور أية صناعة (٧٥) .

وسنلقي نظرة سريعة في هذا البحث على مجالين من هذه الصناعة التي تعتمد في الاساس على مستوى عال من التقنية لتطويرها : (١) الصناعة الالكترونية لاهميتها العسكرية ولأن مواجعتها مع اسرائيل هي في الاساس مواجهة عسكرية ، (٢) الصناعة الكيماوية لانها نمت خاصة بعد استيلاء اسرائيل على نفط سيناء ، ولأنه بمقدور العرب تطوير صناعة كيماوية أهم بكثير بالنسبة لانتاجهم الكبير من النفط ، ولاهمية متفرعات هذه الصناعة في المجال العسكري أيضا .

١ - الصناعة الالكترونية : لقد نمت هذه الصناعة نموا كبيرا في الستينات بتشجيع من المؤسسة العسكرية إذ اتخذت وزارة الدفاع قرارا بانتاج أكبر عدد ممكن من الآلات الالكترونية الخاصة بالجهاز الدفاعي في اسرائيل نفسها بسبب العجز في ميزان المدفوعات الاسرائيلي وصعوبة الحصول على العملات الاجنبية وكانت هذه الصناعة حتى سنة ١٩٥٨ لا تنتج تقريبا سوى أجهزة الراديو . وكان من أهم العوامل التي ساهمت في تحقيق هذا التطور السريع للصناعة الالكترونية تشجيع الدولة وتحملها نسبة كبيرة من النفقات والمساعدات التي تلقتها هذه الصناعة من مراكز الابحاث التي تضم عددا كبيرا من العلماء والمتخصصين والمزودة بمختبرات حديثة ومتطورة وبمكتبات غنية .

وكان لدى اسرائيل سنة ١٩٦٨ ٢١٨٠٠ مهندس وعامل وكانت مدارسها التقنية تخرج ٥٠٠٠ مهندس تقني في السنة (٧٦) والى جانب خريجي المعاهد المحلية كان لدى اسرائيل في تلك السنة نحو ٧٠٠٠ مهندس وعالم يدرسون في الولايات المتحدة وكان بين هؤلاء ٨٥٠ يتخصصون في حقل الالكترونيات . وكان لدى اسرائيل سنة ١٩٦٩ ١٥٠٠ مهندس الكتروني مؤهل ، منهم ٦٠٠ يعملون في الصناعة والباقيون يعملون في المؤسسات الحكومية ومراكز الابحاث . وقدر عدد المهندسين الالكترونيين في اسرائيل سنة ١٩٧٠ بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ مهندس قدم معظمهم من الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة . ويعمل هؤلاء بموجب عقود عمل لثلاث سنوات عادة (٧٧) .

وتنتج هذه الصناعة المعدات التي تستخدم في الاسواق بما فيها شبكة الهاتف

الاسرائيلية وأجهزة الراديو والاسلاك وغيرها من اجهزة الاتصال لصالح المؤسسة العسكرية . ويشكل هذا الحقل ميدانا واسعا لنشاطات الأبحاث والتطوير المحلية . وقد أصبحت اسرائيل تنتج ٨٥ ٪ من معدات الاتصال التي تستعمل محليا . فمصانعها تنتج جميع أجهزة الاتصال بالموجات الدقيقة (Micro Waves) ومئات الأنواع من الصمامات الثنائية (Diodes) وأجهزة الترانزيستور والدورات المكملة وللدورات الغشائية الرقيقة والغليظة (Thin and Thick Film Micro Circuits) . وتصنع معظم هذه الآلات برخص إنتاج وبراءات اختراع من الولايات المتحدة الاميركية بعد تطويرها في اسرائيل . كذلك فان اسرائيل بدأت بتصنيع الآلات الحاسبة المصغرة المتطورة ذات الاستعمال التجاري والعسكري . كما أنها تتوسع بسرعة في مجال ارسال المعطيات (Data Transmission) وتسلسل البيانات (Data Processing) ويتم صنع قطع ومعدات هامشية لصناعة هذه الآلات .

وقد طورت شركة مبات الالكترونية التابعة للصناعة الجوية جهاز انذار الكتروني - كهربائي تدعي اسرائيل انه بيع الى عدة دول . وقد صنع الجهاز لمكافحة الفدائيين ولقتضيات حرب الاستنزاف . وتقول المصادر الاسرائيلية ان ما يميز جهاز الانذار هذا عدم حاجته الى أسلاك خاصة لنقل الذبذبات بل تنقل أسلاك السياج المعلومات الى مركز بعيد ثم تنقل التعليمات بعد وصول الانذار . . . يعمل جهاز الانذار المركزي لدى كل محاولة للتسلل عبر السياج ، ويشير الى الجزء المحدد الذي جرت منه محاولة العبور . وتضيف هذه المصادر ان هذا الجهاز « بيع الى جهات مختلفة خارج البلد بما في ذلك شركات تستخدم اجهزة حساسة وثمينة وتعاني مشكلة الحراسة الخاصة » (٧٨) .

كما ان شركة التنا للصناعة الالكترونية وهي شركة تملكها (ص . ط . ا) قد باعت اجهزة رادار للملاحة الجوية المدنية من نوع (EL/M-2205) لكل من فنلندا والارجنتين . وهذا الجهاز بديء باستخدامه حديثا في مطار اللد وقد عرضته اسرائيل في معرض باريس الجوي سنة ١٩٧٣ . والجهاز ذو قوة متوسطة وهو يصنع بطريقة معيارية (Modular Construction) ويستخدم تقنية حالة الصلابة (Solid State) والدورات الكهربائية المصغرة وفيه جهاز اختبار ذاتي (٧٩) .

وكما ذكرنا اعلاه فان الشركات الاسرائيلية تتمتع اعتمادا كبيرا على المعرفة الالكترونية التي تستوردها من الولايات المتحدة الاميركية ، فقد وقعت شركة تاديران الاسرائيلية اتفاقا سنة ١٩٧٣ مع شركة هيوز الاميركية لتقديم المساعدة التقنية والسماح بانتاج دورات كهربائية غشائية مصغرة رقيقة وغليظة وتصديرها الى العالم غير الشيوعي (٨٠) .

كما اشترت تاديران أيضا سنة ١٩٧٤ شركة ElectroSpace الاميركية بعد ان اقلست هذه الشركة ، وكانت هذه الشركة تصنع اجهزة اتصال عسكرية وقد صار الى نقل معداتنا الى اسرائيل . وكانت ElectroSpace تنتج جهاز اتصال عسكري من نوع PRC-77 ذو ذبذبات عالية يحمله الجنود ويمكن تركيبه على آليات وهو يستعمل للمسافات القصيرة . كما كانت تنتج جهاز VSC-13 وهو جهاز ارسال واستقبال للمعلومات ويستعمل في طائرات الاستطلاع الاميركية EC-130 Q ، وجهاز يركب على الدبابات وطائرات الهليكوبتر للاستطلاع أيضا من نوع VSS-R وجهاز اتصال تكتيكي من نوع GRC-10 يعمل على موجات اف . ام وجهاز للتليتايبرايتر واجهزة هاتف يدوية وغيرها . وتنتج تاديران الآن جميع هذه الاجهزة لحساب الجيش الاسرائيلي وللتصدير الخارجي (٨١) .

وتصدر اسرائيل منتجاتها الالكترونية الى ٤٠ دولة ، كما انها تقيم بعض المنشآت الصناعية في عدد من الدول في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، ومن بين هذه الدول سنغافورة والبرازيل (٨٢) .

ونقلت معاريف عن مردخاي شفيط مدير عام شركة مونسيل للصناعة الالكترونية في اسرائيل قوله ان عائدات الصناعة الالكترونية ارتفعت من ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية سنة ١٩٦٥ الى ٧٠٠ مليون ليرة اسرائيلية سنة ١٩٧٢ . وكان يعمل في هذه الصناعة نحو ٣٠٠٠ شخص سنة ١٩٦٥ منهم ٢٠٠ مهندس وقد ارتفع هذا الرقم سنة ١٩٧٢ الى ١٧٠٠٠ شخص منهم نحو ٤٠٠٠ مهندس وأكاديمي . وأضاف شفيط ان الصناعة الالكترونية في اسرائيل تستفيد من التعاون وميزانيات البحث والتطوير من وكالة الفضاء ووزارة الدفاع الامريكيتين كما يتم انتاج بعض المعدات الالكترونية لمصلحة جهاز الدفاع في الحلف الاطلسي (٨٣) .

وذكرت معاريف في عددها الصادر في ١٩/٩/١٩٧٤ ان قيمة صادرات الصناعات المدنية والالكترونية قد تصل هذه السنة الى ١٧٠ مليون دولار مقابل ١٣٦٨ مليون دولار سنة ١٩٧٣ و١٤٤ مليون دولار سنة ١٩٧٢ . وتعكس هذه الزيادة في الصادرات الجهد الموجه نحو التصدير على الرغم من الحرب الاخيرة وطلبات الجيش المتزايدة التي أعقبتها . هذا برغم الصعاب التي تواجه الصناعة من جراء التضخم المالي في اسرائيل والنقص في الطاقة البشرية والنقص في المواد الخام وشبكة العلاقات بين اسرائيل والجهات الدولية مما يزيد في صعوبة التغلغل في الاسواق الاجنبية وجذب الاستثمارات الخارجية الى اسرائيل (٨٤) .

٢ — **الصناعة الكيماوية** : تمثل هذه الصناعة مركزا هاما في الصناعة الاسرائيلية عامة ويتوقع لها مستقبل كبير بالنسبة للتخطيط الصناعي في اسرائيل اذا استمرت المعطيات الراهنة — أي استيلاء اسرائيل على حقول النفط في سيناء . وصناعة الكيماويات التي تشمل بشكل عام المناجم والمحاجر والمواد الكيماوية الاساسية والخفيفة والمعادن غير الحديدية ، متطورة بشكل جيد في اسرائيل في الوقت الحاضر . وقد دفعت هذه الصناعة الى الامام مجالات التصدير الكبيرة لهذه الصناعة واهمية التصدير في الميزان التجاري الاسرائيلي فقد كانت نسبة تصدير الكيماويات من مجموع الصادرات ٧٫٦ ٪ سنة ١٩٦٠ واصبحت تشكل اربا ٥٦ ٪ سنة ١٩٧١ (٨٥) .

وكان معدل الزيادة في حجم الانتاج في هذه الصناعة منذ سنة ١٩٦٧ وبعد الاستيلاء على حقول النفط في سيناء ١٥ ٪ ولكن المسؤولين عن وزارة التخطيط لم يكونوا راضين عن هذه الزيادة اذ كان من المفروض ان تزيد ١٦ ٪ — ٢٠ ٪ بالسنة .

وفي حقل الصناعة البتروكيماوية بالتحديد تتمتع اسرائيل ببعض المزايا النسبية ويرجع ذلك لوجود المادة الخام الاساسية فضلا عن ان تلك الصناعة تتطلب الكثير من المعرفة التقنية الموجودة في اسرائيل . وتتفرع عن هذه الصناعة صناعات أخرى متعددة مما يزيد في قيمتها . وقد قررت اسرائيل سنة ١٩٧١ صرف مبلغ ٥٠٠ مليون دولار على عشر سنوات لتطوير صناعة البترول ولاقامة مجمع بتروكيماوي في أشدود بمبلغ ٨٠ مليون دولار ، ومصفاة جديدة في ايلات لتكرير مليون طن من المازوت لمُد السفن العابرة مستعملة زيت سيناء (٨٦) .

وتنتج اسرائيل الآن الاثلين والبولثلين والفنلشرونايد وهي مادة اساسية للبلمرة وهي هامة في صناعة البلاستيك ، والكربون الاسود وحامض النتريك وكبريت الامونيا . كما بدأت سنة ١٩٧٣ في انتاج الماثول واليوربا والفينول .

وتعطي اسرائيل أهمية كبيرة لصناعة البلاستيك فقد أقامت في شباط (فبراير) ١٩٧٢ اسبوعا خاصا للبلاستيك دعت اليه ٢٠٠ من أصحاب مصانع البلاستيك والعلماء والباحثين المختصين في العالم لتبادل المعلومات والخبرات في هذا المجال .

ويتجلى اهتمام اسرائيل في هذه الصناعة أكثر ما يتجلى في اقدمها على اقامة مدرسة خصيصا لدراسة البلاستيك لتخريج الفنيين والمهندسين المختصين كجزء من كلية الهندسة في التخنيون كما أدخلت مواد دراسية خاصة بدراسة مادة البلاستيك في معهد الدولة للتقنيين كما وسعت وزارة التربية التعليم الفني في مجال البلاستيك والمجالات التابعة لها وأنشأت قسم تقنية البلاستيك كجزء من المركز الحكومي للأبحاث الصناعية في حيفا وأقامت قسما لأبحاث البلمرة في معهد وايزمن للعلوم (٨٧) .

وتزود صناعة الكيماويات الصناعة العسكرية بـ ٧٠ نوعا مختلفا من المنتجات وأهم هذه المنتجات المذيبات المأمونة لتنظيف الآلات الكهربائية والالكترونية والموتورات كما تنتج مواد للحماية من الرطوبة ، وزيت متطورة ومواد لازالة الصدا ومواد مانعة للتآكل . وتستعمل هذه المواد في المجال العسكري لصيانة الطائرات والآلات العسكرية المختلفة والآلات الالكترونية والموتورات وغيرها . وتدعي اسرائيل ان منتجاتها تضاهي بمستواها منتجات الشركات التي تزود الجيش الأمريكي وشركات بوينغ ودوغلاس (٨٨) .

الخاتمة

ينضح لنا من هذا العرض المقتضب أن اسرائيل تتوجه من خلال تنمية قدراتها الصناعية والعلمية نحو بناء قوة ذاتية كي لا تظل اتكالية على المساعدات التي تستلمها من الخارج وخاصة من الولايات المتحدة . وبرغم من ان الاكتفاء الذاتي لن يكون الا نسبيا فانها تركز على تقوية جهاز البحث العلمي في كل المستويات . كما ان اسرائيل تستهدف من هذه التنمية الذاتية التكنولوجية خلق تفاوت بينها وبين الامكانيات الذاتية العربية بغية اعطاء الانطباع بعجز عربي كامن عن قدرة اللحاق ناهيك بسباق وتجاوز القدرة التكنولوجية الاسرائيلية .

ويقع هذا المخطط ضمن استراتيجية صهيونية تعمل على تحويل اسرائيل الى ترسانة عسكرية وإنتاجية في الوقت نفسه مثلها مثل كافة الجيوب الاستيطانية الاستعمارية التي ترسخ عندها صناعة باستحالة انتماء مواطنيها الى ما هو أبعد من التثوق الصهيوني التي تسعى اسرائيل والعقيدة الصهيونية الى سجن مواطنيها فيه .

الا أنه مهما بلغت اسرائيل في تصميمها في تحويل نفسها الى ترسانة عسكرية تكنولوجية ، تبقى حقيقة واقعية وهي ان موازين القوى في المنطقة ، في المدى المتوسط والبعيد ، لن تبقى في واقعها الراهن وأن موازين القوى لن تترجح في صالح العرب فقط من خلال التوجه الودودي والتأييد الدولي للقضايا العربية والقبول العالمي بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بل ان أحد العوامل الرئيسية في حسم عملية ترجيح موازين القوى لصالح العرب يكمن في الثورة العلمية والتكنولوجية الآخذة بالتحقيق والتي لاحت بوادرها في عدد من الأقطار العربية والتي تركز لا على الجواب القومي الشامل على التحدي الصهيوني فحسب ، بل على ما تنطوي عليه الثورة التكنولوجية من إمكانيات تفجير طاقات التحرر والتنمية والتحول الاجتماعي الجذري في بنية المجتمع العربي .

فالامة العربية بالاضافة الى ان عدد سكانها يتجاوز ١٣٠ مليون نسمة وان دخلهم

القومي أخذ يتزايد حتى يكاد يبلغ نحو ٦٠ مليار دولار فانه يوجد في الوطن العربي نحو ٦٠ ألف خريج جامعة — هذا الواقع — طاقة بشرية ، مال متوفر — يعطي العرب اذا توفرت خطة عربية عامة تلتزم بها الاقطار العربية التزاما تنفيذيا وليس لفظيا، الامكانية الكفيلة بتأمين النهضة العلمية المطلوبة .

فالذي ينقصنا هو القرار السياسي بتنسيق وتدعيم مؤسسات البحث العلمي وتعزيزها حتى تصبح متناسبة مع واقع التحديات العلمية الراهنة ومتهيئة لتقبل مستمر للجديد وللمتغير وتمكين العلماء العرب ايضا من المساهمة النشطة في التنقيب والبحث بجو من الحرية والمساهمة النشطة في المؤتمرات العلمية الدولية كما لا بد ان تشجع الهيئات العلمية الدولية لاقامة المؤتمرات الدولية في الاقطار العربية . كذلك يتطلب التخطيط العلمي العربي ان تكون برامج البحث العلمي متكاملة على الصعيد القومي ومكاملة بعضها لبعض من خلال هيئة تخطيط عربية لمنع التكرار وتنظيم الجهودات البحثية العلمية .

يضاف الى ذلك ان مؤسسات البحث العلمي والتكنولوجي يجب ان تنعتق من مقتضيات الروتين البيروقراطي الذي يقعد الباحث لا عن الانتاج فقط بل عن الابداع ايضا .

في هذا المضمار يجب ان يتوفر المناخ العلمي العام الذي يتيح للعلماء والتقنيين العرب فرص متابعة آخر الفنتائج العلمية وأن تكون له الضمانات التي تجعل التزامه بالنهضة العلمية في بلاده لا فقط رسالة مهنية بل رسالة اجتماعية ايضا .

ولا بد ان ندرك ايضا ان تحرير البحث العلمي من البيروقراطية المتزمتة ومن الروح الوظيفية الضيقة يعني ان لا بد ان يكون في هذا المجال وخاصة في المرحلة الاولى من النهضة العالمية الكثير من التجربة والخطأ . فقد أدرك العدو الاسرائيلي مثلا هذه الحقيقة اذ تبين ان ٣٠ ٪ فقط من الابحاث التي تجري في اسرائيل يستفاد منها بينما لا يستفاد من ال ٧٠ ٪ الباقية عمليا ولكن ال ٣٠ ٪ تغطي نفقات جميع الابحاث وأكثر (٨٩) فمردود مؤسسات البحث العلمية لا يكون فوريا أو سريعا ولكنه يأتي بنتائج ملموسة ومتعاضمة اذا نحن وفرنا له الامكانيات البشرية والمادية واذا جاء القرار السياسي نتيجة لتشبعه لا بضرورة البحث العلمي فقط بل بالمناخ العلمي المطلوب .

وهكذا يتضح انه اذا رصدنا الطاقات المتوافرة في الامة العربية لوجدنا التبرير الكافي لتفاؤلنا بحتمية التفوق العربي وبمساهمة الثورة العلمية العربية في معركة المصير مع الصهيونية والتخلف .

Higher Education in Israel, (The Institute for Palestine Studies, 1970, p.9.

Leopold Laufer, *Israel and the Developing Countries : New Approaches to Cooperation, (Twentieth Century Fund, New York, 67,*

• مجلة *Israel Today* ١٧/٥/١٩٦٨ .

٦ — معارف ، ١٢/١٢/١٩٧١ .

٧ — المصدر نفسه .

٨ — زحلان ، *Science and Higher*

Education ص ٨٥ .

Antoine Zahlan, «The Science and Technology Gap in the Arab-Israeli Conflict», *Journal of Palestine Studies*. Vol.1 No 3, (Spring 1972), p. 24.

Riad Ashkar and Ahmed Khalidi, *Weapons and Equipment of the Israeli Armed Forces, (The Institute of Palestine Studies, 71 p. 2 .*

٣ — زحلان ، ص ٢٨ .

٤ — Antoine Zahlan, *Science and*

ber 1973, American Enterprise Institute for Public Policy Research, (Washington D. C., 1974)

- ص ٢٣ .
- ٢٨ - جيروساليم بوست ، ١١/٥/١٩٧٣ .
- ٢٩ - رياض الاشقر وأحمد الخالدي ، ص ١٣ .
- ٤٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٠ - ٢٢ .
- ٤١ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٥ و ١٦/٦/١٩٧٣ .
- ٤٢ - المصدر نفسه .
- ٤٣ - رياض الاشقر وأحمد الخالدي ، ص ٢٥ .
- ٤٤ - جيروساليم بوست ، ١٢/٤/١٩٧٣ .
- ٤٥ - Aviation Week and Space Technology ، ١٥/١٠/١٩٧٣ ، ص ٢٠ .
- ٤٦ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٥ و ١٦/٦/١٩٧٣ .
- ٤٧ - المصدر نفسه ، ١٦/٢/١٩٧٣ .
- ٤٨ - واشنطن بوست ، ٥/٢/١٩٧٣ .
- ٤٩ - نشرة م. د. ف. ، ٢١/٢/١٩٧٣ .
- ٥٠ - المصدر نفسه ، ١٦/٨/١٩٧٣ وراجع أيضا Aviation Week and Space Technology ، ١١/٦/١٩٧٣ ، ١٥/٣/١٩٧٣ .
- ٥١ - معاريف ، ٢٣/٧/١٩٧٢ و ٢٥/٧/١٩٧٢ .
- ٥٢ - المصدر نفسه .
- ٥٣ - رياض الاشقر وأحمد الخالدي ، ص ٤٢ .
- ٥٤ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٣/١٩٧٣ .
- ٥٥ - المصدر نفسه .
- ٥٦ - نشرة معهد الدراسات الاستراتيجية ، (لندن ١٩٦٩) .
- ٥٧ - Aviation Week and Space Technology ، ٢٦/٤/١٩٧١ .
- ٥٨ - هارتس ، ١٣/١/١٩٧٣ .
- ٥٩ - Aviation Week and Space Technology ، ٢٦/٣/١٩٧٣ .
- ٦٠ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٦/١٩٧٣ .
- ٦١ - تامتين ، ص ١٥ .
- ٦٢ - رياض الاشقر وأحمد الخالدي ، ص ٦١ .
- ٦٣ - معاريف ، ٢٤/٩/١٩٧٤ .
- ٦٤ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٨/١٩٧٣ .
- ٦٥ - المصدر نفسه ، ١٦/٦/١٩٧٣ .
- ٦٦ - تامتين ، ص ٧ و ١٥ وراجع أيضا Aviation Week and Space Technology ، ١٥/١٠/١٩٧٣ .
- ٦٧ - رياض الاشقر وأحمد الخالدي ، ص ٣٥ .
- ٩ - دافار ، ٢٦/٦/١٩٧٣ .
- ١٠ - زحلان ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ - ٥٠ .
- ١١ - يديعوت احرونوت ، ١٩/١/١٩٧٣ .
- ١٢ - Near East Report ، ١١/٨/١٩٧٢ .
- ١٣ - معاريف ، ٢٢/٥/١٩٧٣ .
- ١٤ - (The Institute for Strategic Studies, London, 1962) «The Spread of Nuclear Weapons» ص ١٦٩ - ١٧٠ .
- ١٥ - فؤاد جابر ، الأسلحة النووية واستراتيجية إسرائيل ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٢٢ - ٢٤ .
- ١٦ - The Israel Economist ، كانون الثاني ١٩٧٣ ، ص ٢٧ .
- ١٧ - فؤاد جابر ، ص ٤٣ - ٥٢ .
- ١٨ - المصدر نفسه ، ص ٥٤ - ٥٧ .
- ١٩ - اليونيسكو ، الدليل العالمي للهيئات التي توضع السياسة العلمية الوطنية ، المجلد ٢ ، ص ٦٦ (١٩٦٨) .
- ٢٠ - فؤاد جابر ، ص ٦٢ .
- ٢١ - زحلان ، Science and Higher Technology ، ص ١٠٩ - ١١١ .
- ٢٢ - المصدر نفسه ، ص ١١٣ .
- ٢٣ - المصدر نفسه ، ص ١١٤ - ١١٥ .
- ٢٤ - زحلان The Science and Technology ، ص ٢١ .
- ٢٥ - عال همشمار ، ١٢/٨/١٩٧٤ .
- ٢٦ - معاريف ، ٨/٦/١٩٧٣ .
- ٢٧ - دافار ، ٤/٩/١٩٧٤ .
- ٢٨ - هارتس ، ٣٠/٤/١٩٧٤ .
- ٢٩ - دافار ، ٢٧/٣/١٩٧٤ .
- ٣٠ - المصدر نفسه .
- ٣١ - يديعوت احرونوت ، ٤/٩/١٩٧٤ .
- ٣٢ - دافار ، ٤/٩/١٩٧٤ .
- ٣٣ - جيروساليم بوست ، ١٣/٢/١٩٧٣ .
- وراجع نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١/٢/١٩٧٣ .
- ٣٤ - المصدر نفسه .
- ٣٥ - رياض اشقر ، وأحمد الخالدي ، المصدر السابق .
- ٣٦ - نشرة م. د. ف. ، ١٦/٥ و ١٦/٦/١٩٧٣ .
- ٣٧ - Dale R. Tahtinen, «The Arab-Israeli Military Balance Since Octo-

- ٧٩
Aviation Week and Space Technology
 • ١٩٧٢/٥/٢٨
 • المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٢/٥ ، ٨٠
 • ١٩٧٤/٦/٥ ، ٨١ — بديعوت اهرنوت ،
 • ١٩٧٢/٦/٧ ، ٨٢ — معاريف ،
 • ١٩٧٢/٤/٢٧ ، ٨٢ — المصدر نفسه ،
 • ١٩٧٤/٦/١٩ ، ٨٤ — المصدر نفسه ،
Israel Industry, Commerce and — ٨٥
Export News.
 كانون الاول ١٩٧٢ ، ص ٢ وراجع ايضا
Israel Export and Trade Journal
 ايلول / تشرين الاول ١٩٧٢ ، ص ٧
 • ١٩٧٢/٧/١٩ ، *Business Diary* ،
 ص ٤٠٩
 — ٨٧
Israel Export and Trade Journal,
 • كانون الثاني / شباط ١٩٧٢
Israel Industry, Commerce and — ٨٨
Export News.
 ايلول / تشرين الاول ، ص ٩ — ١٠
 • ١٩٧٢/٢/٥ ، ٨٩ — معاريف ،

- ٦٨ ، *Ordinance* ، ايلول — تشرين الاول
 • ١٩٧٢ ، ص ١٢٧
 Dale R. Tahtinen ، ص ١٥ ،
The Arab-Israeli Balance (Washing-
 ton D. C., 1973) • ٢٣ ص
 — ٧٠
Aviation Week and Space Technology
 • ١٩٧٢/٧/٣
 • المصدر نفسه ، ١٩٧٢/٥/٣٠ ، ٧١
 • ٧٢ — تاهتين ، المصدر الاول ، ص ١٦
 • ٧٣ — المصدر نفسه ، ص ١٥ وراجع نشرة م. د.
 ق. ، ١٦/٥/١٦/١٩٧٢ ،
 • ٧٤ — دافار ، ١٩٧٣/٧/١ ،
 • ٧٥ — نفس المصدر
 — ٧٦
Science Based Industries in
Israel, Israel Aliyah Centre, Nov.
 1968, p. 4.
 — ٧٧ ، *Jewish Digest* ، تموز ١٩٧٢ ، ص
 • ٧٣
 • ٧٨ — دافار ، ١٩٧٢/١/١٤ ،

التصنيع الحربي العربي أمام تحدي الصناعة الحربية الاسرائيلية

طارق الصواف

خلال السنوات القليلة الماضية ، تنهت معظم الاقطار العربية الى اهمية التصنيع الحربي العربي من حيث تحرير الارادة العربية من ضغوط مصادر السلاح ومصالحها ، ومن حيث الاثر البالغ الذي سيركبه في المستقبل القريب والبعيد على كافة نواحي التنمية الصناعية العربية . وقد ساعد مؤخرا هذا التوجه ، ارتفاع عائدات النفط ، فبدأت دول عربية كثيرة تتنادى لاقامة الصناعات الحربية العربية ، وبدأت ترصد بالفعل ، بعض المبالغ من المال هنا وهناك لهذا الغرض .

غير ان الكثير من المهتمين بشؤون التصنيع الحربي العربي ، بدأ يتساءل عن جدوى هذه المشاريع ومدى ما يمكن ان تحقق من نجاحات ، وينخوف من ان يكون مصيرها كمصير مثلها من المشاريع الكثيرة التي باءت بالفشل التام . فالاعتقاد السائد لدى هؤلاء المهتمين ، هو ان الانسان العربي لا زال غير مؤهل لتحمل تبعات التصنيع الحربي العربي بسبب تعقيداته وصعوباته الكبيرة . ان هذا الاعتقاد صحيح الى حد بعيد في الشق الاول المتعلق باهلية الانسان العربي فهو لا زال يفتقر الى الخبرات التقنية الاساسية المطلوبة لاقامة مثل هذه الصناعات وعلى الاخص الكوادر التقنية الوسطية ، ولكنه خاطيء في شقه الثاني من حيث تعقيدات الصناعات الحربية ، والعكس هو الصحيح في معظم الحالات . فتصنيع جرار كبير من طراز كاتربيلار مثلا ، هو اكثر صعوبة وتعقيدا من تصنيع دبابة من ذات الوزن ، كما ان تصنيع اسطوانة هيدروليكية يحتاج الى دقة اكبر من تصنيع سبطانة مذفع له نفس الحجم . اما سبب ذلك فيعود الى ارتفاع « عامل السلامة » (Safety factor) في تصنيع السلاح مما يسمح بحصول بعض الاخطاء التصنيعية ، بينما « عامل السلامة » المنخفض في الصناعات المدنية لا يساعد اطلاقا على السماح بحصول الاخطاء نفسها .

ما دامت طبيعة التصنيع الحربي لا تختلف عن طبيعة التصنيع المدني وقد يكون اقل تعقيدا كما اسلفنا ، لماذا يتخلف التصنيع الحربي العربي عن التصنيع المدني بهذا الفارق الهائل ؟ الجواب على هذا السؤال بسيط وما علينا الا ان نعرف واقع التصنيع المدني العربي فغيتبين لنا السبب بسهولة . يتولى اقامة مشاريع التصنيع المدني في الوطن العربي حتى يومنا هذا ، حكومات او مؤسسات اجنبية ، بدءا من اصغر صامولة الى اعقد آلة فيها . فالخبراء الاجانب يقومون بانجاز كافة الامور : انهم يضعون الدراسات الاولى والتصاميم ويضعون المعدات ومن ثم يتولون ببناءها وتشغيلها ، وما على المهندسين والعمال العرب من مجهود يشاركون به سوى امور الصيانة اضافة الى الضغط على الازرار ، لتعمل الآت المصنع اوتوماتيكيا وتنجز ما هو مطلوب منها . فمشاركة الانسان العربي ليست مشاركة اساسية فعلية اذن في

عمليات اقامة مشاريع التصنيع المدني ، ولهذا لم تتوفر في الوطن العربي حتى الان ، تلك القاعدة الصناعية البشرية المؤهلة للمساهمة في اقامة مشاريع التصنيع الحربي العربي والتي ترفض الحكومات والمؤسسات الاجنبية المساهمة في اقامتها رفضا قاطعا في معظم الحالات والظروف . بسبب هذا الواقع يتخلف التصنيع الحربي العربي عن التصنيع المدني بهذا الفارق الهائل ، فالصناعات المدنية في الوطن العربي لا زالت صناعات اجنبية التصميم والتنفيذ والتطوير ، وهي بحاجة ماسة لان تصبح عربية في كافة نواحيها الاساسية من اجل خلق هذه القاعدة الصناعية السليمة التي تستطيع تحمل مسؤوليات اقامة مشاريع التصنيع الحربي العربي وتطويرها .

من خلال هذا الواقع ، علينا ان نضع حلولا جديدة جذرية لحل مشاكل التصنيع المدني والحربي ، وقد تبدو هذه الحلول غريبة مستهجنة اذ لا تتوافق مع الطول الاخرى المطروحة . لهذا ، ندعو كافة المهتمين في هذا الحقل ، الى تدارسها ومناقشتها بتوسع مع مزيد من التأمل والتمحيص ، لعلنا نستطيع المساهمة في اشادة القاعدة الصناعية البشرية - المادية التي تقوم عليها مؤسسات التصنيع الحربي العربي المتقدمة في المستقبل القريب .

الصناعة الحربية الاسرائيلية ومنجزاتها

قبل طرح اي تصورات لمستقبل الصناعة الحربية العربية ، علينا ان نتعرف اولا على ملامح الصناعة الحربية الاسرائيلية وانجازاتها وما يمكن ان تحققة في المستقبل القريب والبعيد .

بعد عام ١٩٤٨ ، حققت الصناعة الحربية الاسرائيلية تقدما ملموسا واضحا كان له اثر كبير على القدرة الحربية الاسرائيلية في معظم الحروب العربية - الاسرائيلية . فخلال السنوات العشرين المنصرمة ، قامت صناعات حربية متقدمة في الوطن المحتل ، بعدما توفرت لها الخبرات المختلفة بكل كوادرها عن طريق الهجرة المستمرة بين اليهود الاوروبيين والاميركيين الى فلسطين ، واصبحت هذه الصناعات الان ، الى جانب انتاجها الاعتاد والاسلحة ، توفر كل او معظم الكوادر التقنية المطلوبة عن طريق برامج التدريب المدروسة المختلفة . وقد يكون هناك خلاف حول الدور الاميركي - الاوروبي في مساعدة الصناعة الحربية الاسرائيلية على النهوض ، ولكن مما لا شك فيه ان هذه الصناعة تعتمد الان بصورة اساسية على امكاناتها الذاتية وان المساعدات الاميركية - الاوروبية لم تعد الان ، تشكل الركيزة الاساسية في هذه الصناعة .

وبجانب الصناعة الحربية الانتاجية هناك صناعات لا تقل عنها اهمية هي صناعات تطوير الاسلحة القديمة والحديثة التي تشرف عليها وتقوم بها المؤسسات العلمية التطبيقية امثال التكنيون ورحبوت والجامعات الاخرى بالتعاون مع مؤسسات صناعية حربية ومدنية مختلفة . اضافة الى ذلك ، تقوم المؤسسات العلمية - التطبيقية بالتعاون مع خبرات اميركية واوروبية مستتظة بمهام تصميم الاسلحة الجديدة وصنع نماذج لها واختبارها ، ومن ثم دفعها للانتاج عن طريق المؤسسات الصناعية الحربية المختلفة .

اما منجزات الصناعة الحربية الاسرائيلية ، فان المعلومات التالية توضح لنا اهم تلك المنجزات ، وهي مقتبسة مما نشر في مراجع اجنبية تهتم بشؤون التسليح ، وكلها لا تمثل بالتأكيد ، كافة نشاطات الصناعة الحربية الاسرائيلية الحالية . وكما ذكرنا آنفا ، يمكن تقسيم هذه المنجزات الى ثلاث فئات :

* الفئة الاولى هي فئة الصناعات الحربية الانتاجية المقلدة للأسلحة الاميركية والاوروبية وتحوي صناعات الذخائر بدءا من ذخيرة المدفعات وانتهاء بأثقل قذائف المدفعية ، كما تحوي صناعات : بنادق الناتو ، ومدافع الهاون على اختلافها ، ومدافع ١٠٦ ملم عديمة الارتداد ، ومدافع الهاوتزر ١٥٥ ملم البريطاني التصميم . أما صناعة الزوارق الحربية فظهرت بتصنيع زوارق « رشاف » و « كيشيت » وهما نوعان متشابهان يصنعان في اسرائيل ويشبه تصميمهما تصميم الزوارق الفرنسية نوع سار التي سرقت من ميناء شاربورغ عام ١٩٦٦ وزنة كل منهما ١٨٥ طنا ويحمل طاقما مؤلفا من (٤٥) ملاحا ، ومزود بصواريخ بحر - بحر من طراز جبريل وصواريخ سطح - جو وطوربيدات تحت الماء .

وتحوي صناعة الطائرات صنع طائرة وست وند رقم ١١٢٣ وهي طائرة نفثة ذات محركين تتسع لعشرة ركاب مع ملاحين ، وكانت اسرائيل قد اشترت المعمل الذي ينتجها من شركة روكويل مع امتياز تصنيعها . وعدلت تصاميمها بحيث اصبحت النماذج الجديدة منها تستعمل لاغراض الشحن . وتقوم اسرائيل حاليا بتسويق هذه الطائرة في اميركا الشمالية ، واتفقت مع المكسيك على اقامة مركز لصيانتها هناك .

أما طائرة عرافا رقم ٢٠١ العسكرية ، فانها طائرة توربينية تنتج في اسرائيل وتستخدم حاليا للنقل العسكري والمدني ولها مميزات اخرى مثل حراسة الشواطئ وكشف الغواصات والسفن المعادية ومهاجمة الاهداف الارضية البسيطة . تزود هذه الطائرة بالرشاشات وقنابل زنة (٢٥٠) رطل انكليزي . أما الطراز ١٠١ المدني فيستخدم في النقل الجوي المدني الداخلي من قبل شركة « اركيا » .

وهناك طائرة « باراك » وهي طائرة حربية نفثة أنتجت في اسرائيل لتلبي احتياجات سلاح الطيران المتزايدة ، محركها امريكي الصنع من نوع جنرال الكتريك GE - ١١ - ٧٩ J اي النوع المستعمل على طائرة الفانتوم ، وقوة دفعه تساوي (٨١٢٠) كغ . أما هيكلها فهو شبيه بهيكل طائرة الميراج - « ٣ س » ، ولقد ادعت اسرائيل ان هذه الطائرة شاركت في معارك حرب رمضان الاخيرة ، لكنه لم تتوفر اية معلومات تؤكد ذلك . ونظرا للصعوبات المالية ، فيشك في قدرة العدو على مواصلة انتاجه لهذه الطائرة اذا ما تم انتاجها فعلا . كما انها تحوي صناعة قطع غيار الطائرات فهناك معمل في شمال فلسطين المحتلة في قرية « الكابري » ينتج معظم قطع غيار الطائرات النفثة . وتقوم في اسرائيل مصنع لانتاج ناقلات للجنود متوسطة الحجم نوع (م ٢) . كذلك هناك الصناعات الالكترونية المتقدمة التي تؤمن للصناعة الحربية الاسرائيلية معظم احتياجاتها في هذا المجال (١) .

* الفئة الثانية من الصناعات الاسرائيلية هي فئة صناعات التطوير الحربي ، وتشمل مدافع الهاوتزر حجم ١٥٥ ملم المحمولة على اجسام دبابت فرنسية نوع AMX 13 ، وتشمل كذلك تطوير الدبابات الروسية نوع ت ٥٤ و ت ٥٥ فقد تم تغيير مدافعها عيار (١٠٠) ملم بمدافع جديدة من عيار ١٠٥ ملم مع اجراء تحويرات اخرى عليها . كما تم ايضا تغيير مدفع دبابة « باتون » عيار (٩٠) ملم بمدفع جديد عيار (١٠٥) ملم ، وتبديل محركها الذي يعمل بالبنزين بمحرك آخسر يعمل بالديزل من نوع « كونتيننتال » . وبالنسبة لدبابة « سوبر شيرمان م ٤ » فقد تم تبديل مدفعها

(١) انظر شؤون فلسطينية عدد ١٧ ، الصناعة الالكترونية في اسرائيل .

من عيار ٧٥ ملم بمدفع من عيار (١٠٥) ملم مع تبديل محركها الذي يعمل على البنزين بأخر يعمل على الديزل . وكذلك الامر مع مدافع دبابات سنتوريون مارك ٥ و ٧ و ٨ عيار (٢٠) رطل فقد استبدل بمدفع آخر من عيار (١٠٥) ملم مع تبديل محركها الذي يعمل بالبنزين بأخر يعمل بالديزل .

اما تطوير الطائرات فيشمل طائرة « سترااتوكروزر » وهي طائرة من طراز بوينغ (٣٣٧) جرى تطويرها لتصبح صهريج نقل جوي لمتوین الطائرات المقاتلة النفاثة بالمحروقات في الجو ، وتستعمل كذلك لنقل المظليين . وهناك طائرة « فوجاميسير » وهي طائرة فرنسية تجمع اجزاؤها في اسرائيل بعد ان اجرت عليها تطويرات كثيرة ، وقد أنتجت منها حوالي مئة (١٠٠) طائرة وتستخدم اساسيا في التدريب النفثات المتقدم .

* الفئة الثالثة هي فئة صناعات الاسلحة المصممة كليا في اسرائيل . وتشمل صناعة البنادق من نوع « عوزي » و « جليل » ، كما تشمل صناعة مدافع الهاون الخفيفة الوزن التي يستعملها المظليون ومدافع الهاون الثقيلة من عيار (١٦٠) ملم . وهناك صناعة الصواريخ من نوع « جبريل » وهو صاروخ سطح — سطح يطلق من على ظهر الزوارق والسفن الحربية . يبلغ مداه الان (٢٠) كم وتحاول الصناعة الحربية الاسرائيلية ادخال تعديلات عليه بحيث يزداد مداه الى (٤٠) كم . هناك ايضا صاروخ « اريحا » وهو صاروخ تكتيكي أرض — أرض ومداه يبلغ (٤٠٠) كم .

اما الصناعات النووية فان المعلومات الدقيقة المتوفرة حولها ضئيلة جدا بالرغم من كل ما نشر في هذا المجال حتى الان .

العرب ومستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية

ان من الصعب وضع تصور معين لمستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية ، وذلك بسبب المتغيرات الكثيرة في ميزان القوى العربي — الاسرائيلي ، فلمعركة بين العرب واسرائيل جوانب اقتصادية وسياسية اضافة الى الجانب العسكري ولا يستطيع اي امرئ قطعا ، ان يتنبأ بماهية هذه المتغيرات خلال فترة السنوات العشر القادمة والتي ستؤثر على مستقبل الصناعة الحربية الاسرائيلية سلبا او ايجابا .

ولكن على افتراض ازدهار وتقدم الصناعة الحربية الاسرائيلية كما ونوعا خلال فترة العقد القادم ، وهو الافتراض الاسوأ بالنسبة للعرب ، فان ذلك لا يعني سوى المزيد من الجهد والعطاء العربي من اجل اقامة الصناعة الحربية العربية المستقبلية على اساس متينة سليمة ، ولا يعني اطلاقا وقوف العرب مكتوفي الايدي في دوامات الحيرة والارتباك .

اهداف الصناعة الحربية العربية

يصنف التصنيع الحربي العربي في سلم الاولويات لدول عربية متعددة ، وهي تجاهد باكثر من طريقة ووسيلة في سبيل اقامة صناعات حربية متقدمة . غير ان اهداف التصنيع الحربي العربي لا زالت غير واضحة البعد والحجم ، فهل نتصنع بغية الوصول الى ما وصلت اليه الصناعة الحربية الاسرائيلية الان ؟ وكـم سيستغرق ذلك من الزمن ؟ واين تكون الصناعة الحربية الاسرائيلية انذاك ؟ هل نتصنع لمواجهة الآلة الحربية الامريكية والاوربية التي تمد اسرائيل بما تحتاج من سلاح ؟ وكـم سيستغرق هذا من الوقت ؟

ليس هنا من مخطط او جهاز تخطيطي متخصص في هذا الحقل ، يستطيع الاجابة على هذه الاسئلة المحرجة ، لان الاجابات ستكون رهن الظروف والتطورات في الساحة العربية والدولية وهي متغيرات لا يمكن التنبؤ بها منذ الان . لهذا ، لا يمكننا تحديد انواع الاسلحة التي ستقوم الصناعة الحربية العربية بانتاجها خلال السنوات العشر القادمة ، وبالتالي لا يمكننا تحديد مواصفات المصانع الحربية المطلوب اقامتها خلال هذه الفترة القادمة .

ولكن يمكننا التخطيط لاهداف مرحلية لفترة العقد القادم ، حيث يوجه التصنيع الحربي نحو ايجاد القاعدة الصناعية البشرية - المادية اللازمة لاقامة وتطوير الصناعة الحربية العربية في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة حين يمكننا انذاك البدء بانتاج الاسلحة المتطورة التي نحتاجها في صراعنا ضد العدو الصهيوني .

ومن ضمن هذا الهدف المرحلي يمكن وضع تصورات لكيفية حل مشاكل الصناعة الحربية العربية الحالية وكيفية تطويرها في المستقبل . اما التفكير والتخطيط الآن خارج نطاق هذه الاهداف فهو ضرب من سوء التقدير لمستلزمات التصنيع الحربي العربي في هذه الحقبة الزمنية وتصرف ضار بمستقبل التنمية الصناعية العربية بوجه عام .

اوضاع الصناعة الحربية العربية منذ محاولات الثلاثينات حتى وقتنا الحاضر

قبل تقييم الصناعة الحربية العربية الحالية ، سنلقي على مسيرتها نظرة متفحصة لنستخلص منها العبر المفيدة في تجنب اخطاء المستقبل . منذ الثلاثينيات قامت في اكثر من قطر عربي ، محاولات متعددة لاقامة صناعات حربية حقق منها القليل نجاحات جزئية وباء الباقي بالفشل التام . في احدى تلك المحاولات ، وكان ذلك منذ حوالي اربعين سنة ، انفقت مبالغ باهظة على اقامة مشروع حربي لصناعة نوع من الاسلحة الفردية الصغيرة ، وكان اول انتاج له قبل سنة فقط ودون المستوى المنشود . وفي محاولة اخرى حصلت تقريبا في نفس الفترة الزمنية ، ما زالت معدات مصنع عتاد حربي حتى الان في صناديقها يتاكلها الصدأ ، ومكدسة فوق بعضها البعض في عتابر ضخمة مهجورة .

وصناعة الصواريخ ، فقد انفق عليها في قطر عربي اكثر من مئة وستين مليون جنيه ولم يطلق حتى الان ، صاروخ واحد من انتاجها في اي من الحروب العربية - الاسرائيلية . كذلك حال صناعة الطائرات بالرغم من توفر كافة الاحتياجات البشرية والمادية الرئيسية لها . وقد صادفت بعض المحاولات نجاحات جيدة في مراحلها الاولى ، ولكن ما لبث العمل فيها ان تعثر وفشل كليا ، وذلك بسبب فرض الادارات الصناعية عليها فيما بعد ، والتي تفتقر الى الخبرة والشجاعة والنزاهة . وفي اكثر من محاولة كان الوضع مترديا وشادا : فلا هو وضع استعداد وتحضير للانتاج ، ولا هو وضع توقف مؤقت عن العمل . كان ذلك اشبه بتمثيلية تستمر فصولها سنوات وسنوات طويلة قد تصل احيانا العشرين .

في المقابل ، قامت ونجحت مشاريع صناعية حربية لا زالت منتجة حتى الان ، منها صناعات المسدسات والبنادق والذخائر وغيرها مما لا يمكن ذكرها بداعي الحصر على السرية .

هذه بعض النماذج من المحاولات التي حصلت في ميدان الصناعة الحربية العربية في اقطار عربية متعددة خلال الاربعين سنة الماضية . اما اسباب فشل القسم الاعظم

من هذه المحاولات ، فتعود الى امور عديدة مختلفة سنعرض اهمها بشكل موجز وسريع .

قبل الخمسينات ، كانت محاولات التصنيع الحربي تحصل لاسباب مختلفة قلما كانت بدافع وطني صادق . معامل كثيرة اشترت ارضاء لسياسات اجنبية ، اذ كانت هذه المعامل مهترئة ومستهلكة تماما ، وكان يطلب الى الحاكم العربي دفع ثمنها لدوافع سياسية ويكون الثمن عادة عال . او يشترك بضع تجار متنفذين في صفقات مشبوهة ينالون عليها عمولة معينة بعدما يدفع هؤلاء رشاوى للصحافة المأجورة من اجل التهليل والتمجيد بمكان هذا المعمل وفوائده الجمة . هذا ناهيك عن عدم الاهتمام والجدية بشأن تشغيل المعمل بعد شرائه لو كان في ذلك القليل من النتائج والفوائد .

اما في فترة ما بعد الخمسينات ، فقد كانت هناك جدية صادقة لدى المسؤولين في بعض الاقطار العربية بصدد بناء الصناعة الحربية ، وبذلت جهود كبيرة على مستويات متعددة من اجل انجاح تلك المشاريع . لكن ، لم تكن هناك نتائج ملموسة في معظم الحالات ، بالمستوى الذي اراده هؤلاء المسؤولون .

كان الخبراء الاجانب عادة يتولون المسؤوليات الرئيسية في اقامة وتشغيل هذه المشاريع ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يلتزمون بتعليمات دولهم التي لم تكن في يوم ما ، الا فيما ندر ، تسمح بانجاح تلك المشاريع ، وحتى الدول الصديقة كانت تمنع وتتهرب من تقديم مساعدات حقيقية في هذا الصدد . ناهيك عن نوعية الخبراء وخبراتهم ، ففي احد المشاريع الحربية ، وجد ان الخبر الاجنبي المسؤول لسنوات طويلة عن تشغيل المشروع متخصصا في مجال آخر .

النمط الاكبر في هذا الصدد ، يكمن في المردود النفسي السيء الذي ينعكس على الانسان العربي من جراء استلام الخبراء الاجانب دائما اكبر المسؤوليات والصلاحيات في هذه المشاريع . ان ذلك يولد التشكيك وعدم ثقة الانسان العربي بنفسه او ما يسمى « بعقدة تفوق الاجنبي » وبالتالي يولد في ذاته القناعة التامة بعدم قدرته على استيعاب تقنيات التصنيع الحربي . محزن ان يبقى الانسان العربي مشلول الارادة ، عديم الثقة بنفسه ، معطل العقل ، يقف ويتفرج ويراقب من بعيد ولا يجرؤ على الغوص في بحر هذه التجربة الصناعية .

اما التخطيط لهذه المشاريع او المحاولات ، فكان مرتجلا في معظم الحالات ولا يشمل جميع نواحي مستلزمات العمل . لم تكن هناك خطط بديلة جاهزة لدى فشل اي خطط مرحلية ، كما لم يشتمل على نظام المراقبة والتنفيذ المرحلي وتصحيح الاخطاء حال حصولها لمنعها من التراكم فتسمي خطرا يهدد مصر المشروع . كذلك ، لم تكن تتوفر في حينها ، تلك الادارات الصناعية الخبيرة في تخطيط واقامة مشاريع التصنيع الحربي الخبيرة في ادارة تلك المشاريع التي اقيمت . وما يحصل كان مجرد حشو لاصحاب الشهادات المدرسية العديمي الخبرة والكفاءة ، في شتى مراكز السلطة الادارية ، مع ما يتبع ذلك من مشاكل لا تحصى .

من الظواهر الخطرة التي كانت تهدد هذه المشاريع (وجميع مشاريع القطاع العام الاخرى) هي ظاهرة تفشي الامراض الاجتماعية - الاخلاقية في معظم اجهزتها الرئيسية ، ولم تكن تلك الادارات بقادرة على التخفيف من نتائج هذه الامراض وكبحها الى الحد الادنى القليل الاذى . فبدلا من ان ينصرف كافة العاملين والمسؤولين في المشروع الى العمل المثمر الخلاق الضروري لانجاح المشروع ، كان يحصل العكس :

انصراف نحو الطعن بالآخرين والدس عليهم لاقصائهم عن مراكزهم للحلول مكانهم وكانت هذه الامراض كافية لتدمير تلك المشاريع .

واخيرا لا آخر ، يأتي موضوع النقص في الكوادر الوسطية وما كان له من اثر بالغ على تلك المشاريع . لدى بدء العمل على اقامة مشروع حربي ، لم تكن تتأمن له مقدما الكوادر الوسطية الضرورية ، على اساس تعذر تأمينها آنذاك وابقاء تأمينها من ضمن مهام المشروع نفسه . الخطأ الناجم عن تدريب الكوادر الوسطية على هذا النحو ، يكون خطأ قاتلا للمشروع في معظم الاحيان وذلك على الشكل التالي : يبدأ أولا بتدريب الكوادر بالمستويات العادية البسيطة ويستغرق التدريب عادة بضع سنوات ويبقى انتاج المعمل مشلولاً خلال هذه الفترة . ومن خلال سير العمل ، تكتشف الحاجة الى تدريب الكوادر بالمستويات الاعلى الوسطية ، وهذا يحتاج الى فترة زمنية من التدريب لا تنقل عن بضع سنوات اخرى ، يبقى الانتاج مشلولاً خلالها أيضا . في هذه الفترة الزمنية الطويلة من شلل المعمل . تذهب حكومات وتأتي أخرى ويتغير تبعاً لذلك الحماس للمشروع وضرورة انجازه وبدئه الانتاج ، ويكون ذلك اما عن حسن نية نظرا لتعثر العمل فترة طويلة واما عن سوء نية بقصد اظهار السلف بمظهر الفاشل لتحمله تبعات عدم نجاح المشروع ومحاسبته وبالتالي ادانته . كل ذلك يقود في النهاية الى تدمير المشروع وبعثرة كافة الجهود المبذولة وذهابها هباء .

منجزات التصنيع الحربي العربي

لن نذيع اسراراً اذا ما ذكرنا منجزات التصنيع الحربي ، فانها منقولة عن منشورات عالمية متداولة بين ايدي العامة من الناس ، ولكنها لا تمثل بالتأكيد كافة المنجزات نظرا لوجود منجزات محافظ على سريتها حتى الان .

تتوزع في عدة اقطار عربية صناعات الاعتدة الحربية على مختلف انواعها واحجامها بدءاً من ذخائر المسدسات وانتهاء بأثقل انواع قذائف المدفعية . أما بقية مشاريع التصنيع فانها موجودة بأكثرها في جمهورية مصر العربية وتتألف من صناعات المسدسات والبنادق والرشاشات الخفيفة والمتوسطة والقواذف المضادة للدروع والذبابات الصغيرة .

هذا هو معظم انتاج مؤسسات التصنيع الحربي العربي من حيث الفولاذ والبارود (الحاجات الصلبة) اما ما تنتجه هذه المؤسسات من خبرات وتقنيات بشرية فهو ليس بالانتاج المقبول ، لا من حيث النوع ولا من حيث الكم ، اذا كان هذا الانتاج من البشر هو من سيتولى بناء وتطوير مؤسسات التصنيع الحربي العربي على اساس متينة وسليمة . ويعود سبب هذا التدني في النوع والكم ، الى امرين اساسيين : اولاً ، ان هذه الصناعات الحربية العربية على قلتها ، لا زالت في الواقع صناعات اجنبية التخطيط والتنفيذ والتطوير ، لم يساهم الانسان العربي في اقامتها مساهمة اساسية ، وثانياً ، ان الادارات والقيادات العاجزة السيئة النية التي تقود هذه الصناعات ، لم تسمح للانسان العربي ان يساهم مساهمة جذرية في تطوير هذه الصناعات وتنميتها ، وهذا بسبب التخلف الاخلاقي - الاجتماعي الذي لا زال ، مع الاسف الشديد ، صفات ملازمة للسواد الاعظم من الشعب العربي .

خلق القاعدة الصناعية البشرية المادية

من خلال اصلاح الوضع الحالي للصناعة الحربية العربية القائمة

ان التخطيط للصناعة الحربية العربية خلال السنوات العشر القادمة يجب ان يتركز

في معظم أوجهه نحو تأمين إقامة القاعدة الصناعية البشرية والمادية السلمية التي ستتولى مسؤوليات التصنيع الحربي العربي المتقدم لفترة ما بعد العقد القادم . وإذا ما تجاهلنا هذا التوجه في كافة نواحي التخطيط ، وحاولنا منذ الآن ان نشيد صناعات جديدة متطورة جدا ، فاننا سنرتكب خطأ فادحا ونكون كمن يبني قصورا عالية على الرمال . اما اذا كبرنا وتصورنا او صورنا للآخرين ، اننا قد اقمنا بالفعل مثل هذه القاعدة الصناعية المتقدمة والضرورية لاشادة هذه الصناعات الجديدة المتطورة ، فاننا سنسبى ابلغ الاساءة الى قضية التصنيع الحربي العربي وبالتالي الى اماني الشعب العربي وامانيه . علينا ان نتعرف بامانة وتجرد الى مواقع اقدامنا في حقل التصنيع الحربي والمدني ونبدأ بالتخطيط للتصنيع المستقبلي من هذه المواقع الحقيقية .

وقبل توضيح معالم هذه القاعدة الصناعية وكيفية اقامتها ينبغي توضيح الامور الاساسية التالية : اولا : وجوب الاستعداد والتهيؤ النفسي الكامل من قبل المسؤولين لدفع الثمن الباهظ من السهر والتعب والصبر الى جانب صرف المبالغ الكبيرة من المال ، وثانيا افساح المجال الواسع امام العقل العربي والارادة العربية للعمل دون قيود ومعوقات مهما كان نوعها ، مع قبول كبار المسؤولين وصغارهم . ان حصول الاخطاء التقنية والادارية من قبل اي فرد عامل او مجموعة ، هو امر طبيعي وطبيعي جدا في سبيل اكتساب الانسان العربي كافة الخبرات والكفاءات المطلوبة من اجل خلق هذه القاعدة الصناعية المثينة ، وثالثا ان يفهم هؤلاء المسؤولون ان تقييم عمل الفرد والمجموعة لا يبنى تطلعا على اساس حصول او عدم حصول الاخطاء بل يبنى على اساس النتائج النهائية للعمل حسب المعادلة التالية : المرود من الانتاج في مقابل الجهد والمال المبذولين ، آخذين بعين الاعتبار ان المرود من الانتاج ليس ماديا فقط بل هو ايضا الخبرات والتقنيات المكتسبة خلال انجاز الاعمال .

بعد توضيح الامور الاساسية السابقة ، نبدأ بتدارس السبل المؤدية الى قيام هذه القاعدة الصناعية منطلقين من حيث ما وصلت اليه الصناعة الحربية الحالية لاننا اذا ما تجاوزنا منجزاتها وسلبياتها الكثيرة ، نكون قد اضعنا الكثير من الخبرات المكتسبة وهذا خطأ فادح لا يغتفر ، ونكون بالتالي عاجزين عن اصلاح اوضاع هذه الصناعة .

يحيي اصلاح الصناعة الحربية العربية العمالية شقين رئيسيين وهما الانسان والمنشآت . الانسان هو الشق الاهم في صرح التصنيع الحربي والمدني ولنا مثل على ذلك المانية بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية ودمار كافة منشآتها الصناعية والحربية . فبقاء الشعب الالماني الذي يحمل في ذاته كافة الخبرات التقنية ، كان سببا لعودة القدرة الصناعية الحربية والمدنية الى ألمانيا بشقيها الشرقي والعربي بعد عقد ونيف فقط من انتهاء الحرب ! اما الانسان العربي العامل في حقل التصنيع الحربي والمدني فهو للأسف الشديد سلعة ثانوية رخيصة بينما تعتبر الآلة والمنشآت السلع الغالية المقدسة .

لهذا ، سيتوجه الجزء الاعظم من معالجتنا الاوضاع الحالية للصناعة الحربية العربية ، الى هذه السلعة الرخيصة ، الى هذا الانسان العربي العامل في تلك المؤسسات والى ما يعاني من صعوبات ومشاكل وخيبات أمل عظيمة .

اول ما ستطرحة هذه المعالجة هو افتقار مؤسسات التصنيع الحربي لاجهزة الرعاية التي تشمل جميع النواحي الانسانية والمادية بلا استثناء . فنشدد هنا على وجوب تأمين اجهزة الدعاية المخلصة الامينة الواعية ، ليخلق لدى جميع كوادر

العاملين ، الشعور بالكفالة والاستقرار والامن والحماية وعلى الاخص الحماية من شرور هؤلاء الطفيليين والانتهازيين المتنفذين واساءاتهم الفظيعة . يتم كل ما تقدم عن طريق اقامة اجهزة الرعاية التي تتمتع بصلاحيات وسلطات تنفيذية واسعة لمراقبة انجازات جميع العاملين بدقة وتجرد ومنع أي فرد أو مجموعة من « اغتصاب » انجازات الاخرين مع ما يرافق ذلك من اساءات تنعكس بالنتيجة على العمل والانتاج .

بعد قيام اجهزة الرعاية وممارستها صلاحياتها ، تجري عمليات مسح واستقصاء دقيقة شاملة من أجل تحديد الطاقات البشرية الخلاقة ونوعيات خبراتها غير العادية ، الموجودة في كافة مؤسسات التصنيع الحربي والمدني ومن ثم يصار الى اعادة تنظيم الهياكل الوظيفية للادارات الصناعية المختلفة على اساس وضع هذه الطاقات الخلاقة في مراكز التوجيه والقيادة الصناعية . أما الطفيليون والانتهازيون المتنفذون فيجري نقلهم الى مراكز ثانوية لا تمكنهم من تحقيق الأذى والاساءة لعمليات التصنيع والانتاج والتطوير . في نفس الوقت ، توضع لبقية كوادر الايدي العاملة الأخرى في جميع مؤسسات التصنيع ، الخطط المتكاملة الهادفة الى هضم وامتصاص كل كفاءاتهم عن طريق افساح المجال امام الجميع لممارسة حرية التفكير والاختبار والابداع .

يجب ان يرافق هذه الخطوات عملية تثوير واسعة للادارة الصناعية تقضي باطلاق ايدي تلك الادارات من اعلى الهرم الى القاعدة للتصرف بحرية كبيرة خلال تصريفها شؤون التصنيع والبحث والتطوير وذلك عن طريق الاستقلالية المالية لكل مؤسسة واعطائها سلطات ادارية تنفيذية اوسع للابتعاد عن المركزية وتعقيداتها الادارية قدر المستطاع . كذلك يتحتم على الادارة الصناعية ان تخرج من نطاق روتين اجتماعات اللجان واتخاذ القرارات باكثرية الاصوات وتنقل الى نظام فرق العمل Team Work حيث يرأس كل فريق خبير قدير يكون مسؤولاً عن كافة اعمال الفريق اتجاه رؤسائه . بهذا الاسلوب تحدد المسؤوليات ويسهل تقييم النتائج حيث تكافأ الانجازات وتحاسب الاعمال الفاشلة .

كذلك ، يجب ان ينال التدريب الصناعي بشكل عام قسطاً كبيراً من اهتمام المسؤولين ، وعلى الاخص ما يسمى منها بالكوادر التقنية الوسطية . ان المعمل هو المؤسسة الوحيدة التي تخرج مثل هذه الكوادر ويستغرق ذلك سنوات وسنوات طويلة من التدريب والممارسة من خلال ثمنى المسؤوليات اثناء عمليات الانتاج الفعلي . ولا تستطيع أي مدرسة صناعية لوحدها ، مهما كان مستوى برامجها عالياً ومدروساً ، من ان تخرج أي فئة من هذه الكوادر الوسطية . يوجه التدريب الصناعي على اساس سد حاجات المصانع القائمة من هذه الكوادر لفترة السنوات العشر القادمة ، وعلى اساس سد حاجات الصناعات الجديدة التي تقام خلال هذه الفترة نفسها . ان الفهم الصحيح الدقيق لطبيعة الخبرات الوسطية المطلوبة ولكيفية الحصول عليها امران مهمان يجب امتلاكهما للتمكن من وضع برامج سليمة للتعليم والتدريب الصناعي ومن معرفة كيفية تنفيذها للحصول على افضل النتائج . وعلى نفس هذا الصعيد ومن أجل فرض التعليم والتدريب الصناعي ، يجب وضع انظمة لتبادل جميع الخبرات التقنية المكتسبة في كافة المجالات ، بين كافة الكوادر وفي جميع مؤسسات التصنيع الحربي ، من اجل زيادة كفاءة هذه المؤسسات . ويمكن أن تطور مثل هذه الانظمة الى نظام اعم للتثقيف الصناعي الحربي (والمدني) يلعب دوراً خطيراً جداً في عملية دفع عجلة الصناعة الحربية والمدنية الى الامام . وتبرز اهمية وخطورة التثقيف الصناعي الآن

نظرا لانعدام التعريب والتأليف الصناعي وافتقر المكتبة العربية المختصة بشؤون التصنيع في هذه الناحية .

بخصوص المؤسسات التصنيعية القائمة التي تعاني من مشاكل حادة من نوع او آخر ، فينبقى ان يعاد تقييم اوضاعها والتخطيط لعملها من جديد . وهنا نود ان نشير بشكل واضح الى مشكلة التخطيط الصناعي الحربي في الوطن العربي وما يسمى بأعناق الاختناق التي تواجه المخططين . ان من الخطأ اعتبار مبادئ التخطيط المتبعة في دول العالم الصناعي صالحة للتطبيق في مشاريعنا الحربية والمدنية وذلك بسبب اختلاف الظروف والعطيات بيننا وبين دول العالم الصناعي . هناك تهمل التفصيليات التصنيعية الصغيرة (وهي العمليات الصناعية الصغيرة التي تؤلف مع بعضها عملية التصنيع الكاملة) اثناء التخطيط لمشاريعهم التصنيعية الحربية والمدنية ، بينما يؤدي اهمال التخطيط في بلادنا لمثل تلك التفصيليات الى فشل المشاريع ودمارها .

ان عدم توفر الكوادر التقنية الواسطة في الوطن العربي التي تتولى تنفيذ كافة العمليات الصناعية يجعل من تلك التفصيليات التصنيعية اعناق اختناق خطيرة تقود كامل المشروع الى الفشل والدمار . لهذا ، يجب اعادة تخطيط المشاريع القائمة المتعثرة الخطى ، على اساس واقعية تأخذ بعين الاعتبار كافة مراحل عمل المشروع مع تفصيلياته التصنيعية المختلفة وحسب الظروف الموضوعية من الناحيتين البشرية والمادية ، ويؤكد على عدم وجود اعناق اختناق من اي نوع كانت . كذلك يجب ان يحوي التخطيط لكل مؤسسة نظاما جيدا للمراقبة وتصحيح الاخطاء ومنعها من التراكم لئلا تصبح اخطاء قاتلة .

اما الناحية المادية من درسا اوضاع الصناعة الحربية العربية ومحاولة تصحيحها ، فانها في الواقع ناحية قليلة الاهمية من حيث محاولة تغيير اصناف الاسلحة والاعتادة المصنعة نظرا لكون هذه المصانع في معظمها مصانع متخصصة ومصممة لانتاج انواع محددة من العتاد والسلاح ومن الخطأ محاولة البحث في هذا الشأن . ولكن هناك ناحية بالغة الاهمية من حيث امكانية رفع جودة السلاح وزيادة كميته المنتجة . اذ يمكننا تحسين جودة الانتاج الى مستوى الصناعات الحربية الاجنبية او حتى الى اعلى من هذا المستوى ، وذلك كي نحافظ على سمعة السلاح العربي بين مختلف رتب الجنود والضباط في القوات المسلحة العربية ، فنزيد من ثقة الجندي بسلاحه وهذا امر كثير الحسنات . تشمل جودة السلاح نواحي عدة ، منها دقة التهديد والرمي على كافة الاهداف التي تقع ضمن مدى السلاح ، وهذا امر يمكن تحقيقه في كثير من الحالات اذا خففنا « السماحات » اثناء التصنيع ، او اثناء ضبط اجهزة التهديد نفسها . كما تشمل الجودة متانة السلاح ومقاومته للحرارة وعوامل الطبيعة كالصدا والتآكل ، وكلها امور يمكن العمل عليها وتحسينها باستمرار . ومن ضمن تحسين الجودة ، هناك وزن السلاح ، فكلما خف وزن السلاح كلما كان افعال واسهل اثناء الاستعمال ، ويمكن تخفيف اوزان كافة الاسلحة المصممة قديما والتي تستعمل انواعا قديمة من سبائك الفولاذ . هناك مثلا مدفعية الميدان الضخمة الروسية الصنع والمستعملة كثيرا في الجيوش العربية ، قد صممت عام ١٩٣٨ على اساس استعمال اجود انواع الفولاذ المعروف في تلك الفترة . يمكننا الان استعمال انواع حديثة من الفولاذ ذات مواصفات افضل بكثير من تلك الانواع القديمة الصنع هذا النوع من المدافع بأوزان اقل بكثير من اوزانها الحالية . فتزداد فعالية استعمالها كثيرا عما هو عليه الان . يمكن تطبيق هذه الطريقة في انتاج كافة الاسلحة القديمة التصميم

فتتحسن تبعاً لذلك جودة السلاح . في الناحية الأخرى ، هنا إمكانية لزيادة كميات السلاح المنتج في كل مصنع إذا ما توغرت له الإدارات الصناعية الجديدة المؤهلة لتحمل مثل هذه المسؤوليات .

مشروعات التصنيع الحربي الجديدة

أول ما يجب أن يتنبه له المسؤولون عند إقامة مشاريع التصنيع الحربي الجديدة هو عدم الوقوع في أفخاخ ومغريات شراء المصانع ذات الآلات الأوتوماتيكية المعقدة العالية التخصص . إذ أن لدى أجهزة التخطيط والتنفيذ القليلة الخبرة في بلادنا ميل طبيعى دائم لتبني مثل هذه المصانع والآلات نظراً لغزارة إنتاجها وانعدام المسؤولية أثناء إقامتها وتشغيلها ، إذ يتولى الخبراء الأجانب عادة كل مثل هذه الأمور دوماً على هذه الإدارات من مسؤوليات سوى الضغط على الأزرار . وفي المقابل تظهر هذه الإدارات أمام الحكام والمسؤولين الكبار وكأنها حققت المعجزات فتكسب ثقتهم وحظوتهم وتتكن بهذا من التسلل إلى مراكز التوجيه والقيادة وهنا تقع الطامة الكبرى . عملياً ، يصلح هذا الموضوع لأن يكون مقياساً لكفاءة وقدرة المخططين في هذا الحقل ، فكما اتجهوا نحو المكننة المعقدة المتقدمة كلما كانت كفاءتهم قليلة لانهم يحاولون من خلال هذا التوجيه ، إخفاء النقص في أنفسهم . وكما أسلفنا في مقدمة هذا البحث ، فإن عيب هذه الآلات المعقدة المتخصصة يكمن في عدم توفرها فرص اكتساب الخبرات والتقنيات الأساسية من قبل الكوادر العاملة عليها . لهذا يتوجب على كافة المخططين لمشاريع التصنيع الجديدة أن يتجهوا نحو الأكتاف من الاعتماد على الآلات التقليدية (القليلة الإنتاج) من أجل اكتساب مثل تلك الخبرات الأساسية ، أما الحصول على الإنتاج العالي فيتم عن طريق استخدام الأعداد الكبيرة من تلك الآلات فتعوض بذلك عن انخفاض قدرتها الإنتاجية وتزيد في نفس الوقت من الأيدي العاملة عليها لتوفير أعداد كبيرة من الكوادر التقنية المطلوبة . أما الفوائد الأخرى التي يمكن جنيها من وراء استعمال الآلات غير المتخصصة (الآلات الإنتاجية التقليدية) فإنها كثيرة . منها إمكانية صنع أكثر من نوع من السلاح بواسطة نفس الآلات وسهولة تحويل الإنتاج الحربي إلى إنتاج مدني وبالعكس ، وإن تكاليف هذه الآلات أقل بكثير من تكاليف الآلات المتخصصة المعقدة .

الموضوع الثاني الواجب أن يتنبه له المخططون في هذه المرحلة هو الابتعاد ما أمكن عند بدء مشروعات منذ الآن لتطوير الأسلحة القديمة أو تصميم الأسلحة الجديدة وتصنيعها وذلك لعدة أسباب . أولاً لا زالت معظم الخبرات اللازمة لقيام هذه المشروعات غير متوفرة في ظروفنا الحالية ، وثانياً لأن الكثير من الخبرات المتوفرة لا يمكن أن يستغنى عنها في حقل الإنتاج والتدريب الصناعي ، وثالثاً لأن مثل هذه المشروعات تستهلك وقتاً طويلاً ثمينا من هذه الخبرات لا يمكن المجازفة بها الآن في مشاريع قد تكون أو لا تكون منتجة . لذلك يجب أن يقف المسؤولون عن مشاريع التصنيع الحربي الجديدة ، بكل حزم وشجاعة ضد طموحات الحكام وبعض المغامرين من المسؤولين وأن يحاولوا قدر استطاعتهم تأجيل قيام صناعات تطوير وتصميم الأسلحة أكبر فترة زمنية ممكنة ، والاكتفاء حالياً بقيام صناعات تقليد الأسلحة فقط . إن التخطيط في المرحلة الحالية والقريبة القادمة يجب أن لا يتعدى صناعات تقليد الأسلحة الشرقية المتوفرة لدى الجيوش العربية بأعداد ضخمة بدءاً من الأسلحة الخفيفة وانتهاء بالصواريخ والطائرات ، على أن يؤخذ بعين الاعتبار في تفاصيل التخطيط لكل مشروع جديد توفر كامل المتطلبات لصنع السلاح المطلوب والتأكد من عدم

وجود اعتناق مهما كان نوعها او مصدرها ، كما وان جودة السلاح المصنع يجب ان لا تتدنى عن الحد الادنى من المواصفات العسكرية المسموح بها .

وقد يقول البعض ان هذه الاسلحة الشرقية معقدة وصعبة التصنيع ولهذا ينبغي ان نصمم اسلحة جديدة مماثلة لها واقل تعقيدا منها ونقوم بعدئذ بتصنيعها . ان هذا الكلام مرفوض جملة وتفصيلا ، لانه اذا كان تصنيع مدفع ميدان عيار ١٥٥ ملم أمرا صعبا ، فهل يعقل ان يكون تصميم مدفع جديد له نفس الكفاءة والقيام من ثم بتصنيعه أمرا أقل صعوبة ؟ ان هذا البعض من الثرثارين لا يعرف شيئا عن الصعوبات الهائلة الرافقة لتصميم الاسلحة الجديدة وعلى المسؤولين في موضع السلطة الا يأخذوا بهذه القترهات او يعيروها آذانا صاغية .

ان القصد الحقيقي من وراء اقامة صناعات تقليد الاسلحة خلال العقد القادم ليس من أجل الحصول على اسلحة اقل كلفة لان العكس هو الصحيح ، ولا من أجل التخلص من ضغوط مصادر السلاح لاننا لن نستطيع في هذه المرحلة من انتاج كافة الاسلحة التي نحتاجها ، بل هو من أجل الحصول على الخبرات التقنية من ضمن التوجه الاساسي نحو اقامة القاعدة الصناعية المستقبلية المتينة .

وهنا نأتي على موضوع الصناعات الاولية في خطط التصنيع الحربي القادمة وهو الامر الحيوي الذي يوفر اسباب ومقومات الاكتفاء الذاتي لكلا الصناعات الحربية والمدنية . ان قيام الصناعات الاولية المختلفة خلال العقد القادم يوفر ، الى جانب ما تقدم ، خبرات وتقنيات عريضة تساهم الى حد بعيد في اقامة القاعدة الصناعية البشرية والمادية التي هي محور الاهتمامات المستقبلية في حقل التصنيع ، وتشمل هذه الصناعات : استخراج الخامات / التعدين وتشكيل سبائك الفولاذ ، الصناعات الكيمائية ، الآلات الدقيقة واجهزة المراقبة ، اجزاء المعدات الالكترونية ، آلات الانتاج ، آلات انتاج آلات الانتاج وغيرها من الصناعات الاساسية الحيوية .

اثناء كامل فترة العقد القادم من التصنيع الحربي والمدني يجب التأكيد على ضرورة تدريب وتهيئة القيادات الصناعية المتكاملة بكل كوادرها ، وفي مختلف الاختصاصات ، من أجل المساهمة في خلق الصناعات الحربية الجديدة المستقبلية . ان ذلك يتطلب خلق المناخ المناسب العلمي - العملي وتحرير العقل العربي من قيود التجهيل والتخويف وافساح حرية الممارسة لهذه القيادات اثناء تهيئتها وتدريبها .

ومن منطلق خلق القاعدة الصناعية من اجل المستقبل ، تقام مؤسسات البحث العلمي بهدف مساعدة وتنشيط الابحاث والاختبارات العلمية في الجامعات والجمعيات العلمية والمختبرات وكافة المؤسسات الاكاديمية الاخرى . وتنسق كل هذه الجهود مع حاجات مؤسسات التصنيع الحربي المختلفة من اجل استيعاب كافة الانجازات العلمية البحثية وتحويلها الى نتائج عملية ملموسة . تعطى جميع هذه المؤسسات صلاحيات مالية واسعة للانفاق على نفسها وعلى باقي المؤسسة الاخرى التي تتعاون معها .

وايضا بنفس هذا التوجه تطور المؤسسات الحالية المعنية بالتطبيقات التقنية ، وتقام الى جانبها مؤسسات جديدة للتطوير التقني الحربي بحيث ان تستوعب هذه المؤسسات اعدادا كبيرة متخصصة من الصناعيين والعسكريين والباحثين النظريين وغيرهم وتكون مهمتها ابداء المشورة للاجهزة العسكرية العربية والمشاركة في وضع الاستراتيجيات العربية وتطوير الاسلحة وتعميمها ومن ثم دفعها للانتاج .

الصناعة الحربية العربية في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة

ان من الصعب وضع تصور دقيق لمستقبل التصنيع الحربي العربي في فترة ما بعد السنوات العشر القادمة وذلك لعدم القدرة على التكهّن بالمعطيات والمتغيرات التي ستحصل للصناعات الحربية العربية خلال العقد القادم والتي ستؤثر انثذ بالتاكيد على توجه ومستقبل التصنيع الحربي العربي . كذلك ، فان الاحتياجات الموضوعية لالة الحربية العربية انثذ تتعلق مباشرة بالاوضاع العسكرية - السياسية الاقتصادية وهي متغيرات لا يتكهن بها احد . لهذا يتعذر علينا وضع اي تخطيط مستقبلي صحيح في هذا الصدد واي شيء غير هذا هو ضرب من الخيال لا يتصل مع الواقع بصلة .

ان الصناعة الحربية العربية لا زالت متخلفة عن الصناعة الحربية الاسرائيلية بأشواط بعيدة ، أولا بسبب امتناع الشركات والحكومات الاجنبية عن المساهمة في اقامتها وثانيا بسبب افتقارها الى القاعدة الصناعية - البشرية - المادية القادرة على تنميتها وتطويرها ولهذا لا يمكننا اقامة صناعة حربية متطورة قادرة على مواجهة تحديات الصناعة الحربية الاسرائيلية خلال السنوات العشر القادمة ، هذه الفترة التي ستبقى فترة استعداد وتحضير لصناعات المستقبل . يتحقق قيام هذه القاعدة من خلال تصحيح اوضاع الصناعة الحربية الحالية ، واقامة الصناعة الانتاجية المقلدة للاسلحة الشرقية الى جانب اقامة الصناعات الاولية المختلفة. ويكون للانسان العربي المتحرر من كافة قيود الفكر والارادة الدور الاول والاخير في تشييد بنية التصنيع الحربي العربي وتطويره باستمرار .

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

كتاب

القوات المدرعة الاسرائيلية

عبر أربع حروب

بقلم

محمود عزمي

٥٢٣ صفحة باربع لسرات فقط

اطلب نسختك من : قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ - بيروت .

عسان كنفاني طريق الكاتب والمناضل الثوري

افنان القاسم

المقالة التالية قسم من رسالة للدكتوراه يعدها صاحبها في جامعة السوربون الجديدة في باريس تحت اشراف المستشرق اندريه ميكل .

(١) مرحلتنا كفاح التحرر الوطني من ١٩٣٠ الى ١٩٦٥

(١) الكفاح ضد الاستعمار حتى نكبة ١٩٤٨ (المرحلة الاولى) :

يعتبر تاريخ الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الاولى ، تاريخ مقاومته ضد استعمار خبيث ومداح لفلسطين . وبسبب السيطرة المتتالية لامبراطوريتين استعماريتين ، الامبراطورية العثمانية ، والامبراطورية البريطانية ، رأى الشعب الفلسطيني نفسه ممنوعا منذ عهد طويل أن يقيم كيانا على شكل دولة مستقلة . في هذا الوضع ، البعيد تاريخيا ، كان على الشعب الفلسطيني أن يواجه عدوا آخر جديدا ، لا يريد فقط استعمار البلاد لأسباب سياسية واستراتيجية ، بل أيضا امتلاك الارض نفسها . هذا العدو هو الصهيونية ، وشتى أشكالها من منظمات سياسية وعسكرية ودعائية .

وهكذا فقد تميزت المرحلة الاولى للكفاح من أجل التحرر الوطني بهاتين الجبهتين ضد الاستعمار البريطاني والاستعمار الصهيوني لفلسطين . نذكر تاريخا هاما في عمر هذا الاستعمار المزدوج : التحالف الذي ربط العدوين سنة ١٩١٧ ، والذي عرف منذ ذلك الحين بتصريح بلفور .

لقد ارتكز استعمار فلسطين على شكلين أساسيين ، استطاعا فيما بعد ان يحددا دياكتيكيا أشكال المرحلة الاولى للمقاومة :

١ - سياسيا ، بوعود كاذبة للامبريالية البريطانية من أجل استقلال وطني : « لقد عزا تقرير اللجنة العسكرية الاضطرابات التي حدثت الى يأس العرب من تحقيق الوعود التي قطعت لهم أثناء الحرب بالاعتراف باستقلالهم . والى ثقتهم من أن تصريح بلفور يتضمن عدوانا على حقوقهم في تقرير مصيرهم ، وكذلك الى خشيتهم من أن يؤدي انشاء الوطن القومي اليهودي الى تضخم الهجرة اليهودية تضخما يسفر عن استعبادهم اقتصاديا وسياسيا » (١) .

٢ - اقتصاديا ، بشراء الارض من كبار الملاكين الاقطاعيين ، وتقسيمها الى مستوطنات منظمة تحت شكل معسكرات حربية : « وكان المظهر الثاني للنسلط

الصهيوني والتآمر البريطاني هو تسهيل انتقال الاراضي العربية الى اليهود عن طريق القوانين الخاصة وبواسطة تملك اراضي الدولة وباغراء بعض الاسر الاقطاعية العربية التي كانت تملك اراض واسعة بأن تباع ارضها» (٢) لتتحول الى مستوطنات . « كما ان السلطة الاستعمارية كانت تتفاوض عن وصول السلاح اليها ، وتقدم اسلحة للمستوطنات من أجل مواجهة نفمة السكان الفلسطينيين ، ومن اجل السيطرة على الموقف في حالة الصدام» (٣) .

وتتجسد المقاومة في ذاك التاريخ ، والتي بلغت أوجها في ثورة ١٩٣٦ الشعبية ، عبر معارضة هذين الشكلين الاستعماريين . فالنضال المسلح بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ قد وحد للمرة الاولى القوى الشعبية ، وقسما من البورجوازية الوطنية ، وجناحا من الاقطاعية المناهض للاستعمار . وكان هذان الطموحان جوهرين :

١) سياسيا ، بالتعبير الواضح عن الاستقلال الوطني . ومع هذا ، فقد كان شكل هذا التعبير مشروطا ايدولوجيا وسياسيا واقتصاديا ، بالبورجوازية والاقطاعية : « لم تختلف شعارات اللجنة العربية العليا (توحدت القيادات التقليدية في اللجنة العربية العليا برئاسة المفتي لتسلم زمام القيادة السياسية) عن شعارات الحركة القومية : وقف الهجرة ، ومنع بيع الاراضي ، وانشاء حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي» (٤) .

٢) اقتصاديا ، بمعارضة كل الطبقات في فلسطين ، والتي لا تتفق مصالحها بالضرورة ، للسوق التجاري الذي اقامته الصهيونية ، وامتلاكها للاراضي : « قاوم المواطنون العرب النشاط الصهيوني كله بنشاط مضاد : بيع الاراضي بالسياسة المضادة لبيع الاراضي ، والنوسع الاقتصادي الصهيوني بتوسع اقتصادي مضاد ، وبمحاصرة التوسع الصهيوني» (٥) .

وهكذا فقد كانت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ مشروطة بشكل عدوان استعماري نطلق عليها مصطلح **النضال ضد الاستعمار** . وان الصيغ الايدولوجية لهذا النضال تستلقت النظر بشكل واضح للطبيعة المحدودة التي يتميز بها نضال كهذا . ولا يكن ذلك فقط في جهل الاسباب الحقيقية للاحتلال ، ولكن أيضا في أشكاله الدينية للمقاومة . وما كان ناقصا في هذه المرحلة الاولى ، انما هو العامل الذي يتميز به اليوم نضال الثورة الوطنية الديمقراطية . هذا العامل هو : المعرفة الواضحة والواعية للتقدم الاجتماعي الممكن تحقيقه في آن واحد مع الاستقلال الوطني : « كانت التنظيمات التي قامت في فلسطين بين ١٩١٨ - ١٩٤٠ تنظيمات عشائرية قامت عليها زعامات عائلية تقليدية للمحافظة على زعامتها ، شوهدت معالم التنظيم وهاجمت كل ما هو علمي في روح التنظيم ، لان التنظيم المبني على أسس علمية يؤدي بالنتيجة الى زوال تلك الزعامات ، فعملت جاهدة للحيلولة دون قيام منظمات علمية قادرة على مواجهة الاستعمار والصهيونية ذات التنظيم الدقيق» (٦) . « وهذا يظهر التوجيه الايدولوجي الذي سيطر على الثورة : فالاستشهاد كان غاية الجهاد ، وهكذا لم يكن الكفاح وطنيا بقدر ما كان دينيا» (٧) .

ويمكن تفسير ميزات الثورة المحدودة بفشلها ، لان اتحاد مختلف الطبقات الفلسطينية المتعارضة لا يمكنه تحقيق أي هدف مهما كان محدودا . ومن ناحية اخرى يمكن تفسير فشل الثورة باستسلام الزعماء الاقطاعيين للجيش البريطاني ، والذي كان من نتيجته عدم الوصول لاي هدف . وعلى العكس ، فقد أظهر الفشل للقوى الشعبية ان عدم تحقيق الاهداف لم يكن الا لاسباب داخلية في جبهة المقاومة . وبالتالي ، لم تذهب عبرة الدرس المسحوب من الثورة سدى ، لانه مدرج في العملية المتطورة للنضوج ، والتي

اثبتت ان الطبقة الاقطاعية عاجزة عن قيادة الثورة : « أما الذين ادعوا النضال من أجل فلسطين من الوجهاء والاقطاعيين فقد كشف أمرهم . . . انهم ضعفاء يدعون الذود عن الحمى زورا » (٨). « وهكذا فان تثوير النظرة (بمعنى تحول الوعي السياسي) الذي هو الشرط المسبق لتثوير التنظيم (بمعنى تحول البنى السياسية والعسكرية) لم يصطدم بالتفرقة القائمة فحسب ، بل بالتقيدية الراسخة المعقدة ذاتيا » (٩).

وتميزت الفترة اللاحقة حتى ١٩٤٨ بتدهور حالة الشعب الفلسطيني داخل بلده . فالظروف العالمية قد تغيرت بصفة جذرية ، اذ أن الحرب العالمية الثانية وعملية ابادة اليهود في أوروبا قد سمحتا للصهيونية أن تعمل على ترويج ايديولوجيتها في الغرب : بأن حل المسألة اليهودية في احتلال فلسطين . ولكن ، ولكي تواجه الامبريالية البريطانية احتدام الحرب العالمية ، حاولت بكل السبل التخفيف من توتر مستعمراتها . فكان من جديد ، الوعد باستقلال فلسطين ، بينما جاء الموقف البريطاني تجاه الصهاينة على شكل تنبيه ، للحيلولة دون خطر انقلاب الهدوء العارض المهيمن على أوضاع البلاد . وفي ذلك الوقت ، كانت الامبريالية البريطانية قد ضعفت ، وأخذت الصهيونية تبحث عن حليف قادر يمثل مصالحها ، وجدته في الولايات المتحدة الامريكية . فأقام عدو الشعب الفلسطيني في زاوية جديدة ، وبدأت الحليفتان القديمتان ، بريطانيا والصهيونية ، تنفصلان لحظة أن أخذت هذه الاخيرة في الاعداد لاستبدال القمع الامبريالي بأخر أكثر قوة .

وفيما يخص الشعب الفلسطيني ، لم يكن مهياً بما فيه الكفاية لحل المشكلتين اللتين طرحتها ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ ، وهما : (١) التخلص من القيادة الاقطاعية في كفاحه ضد الاستعمار والتي انكشف عجزها . (٢) تحديد برنامج عمل دقيق لتحقيق أهداف الكفاح من أجل الاستقلال .

ويجب علينا الالاحاح حول الحالة التاريخية لذلك الوقت ، والتي أدت الى ولادة تحالف استثنائي بين الشعوب المستعمرة ومستعمراتها لمواجهة خصم أشد خطرا ، ألا وهو الفاشية : « اقتنع الهاشميون — الشريف حسين والامير فيصل وأشقائهم — بصدق نوايا الامبرياليين البريطانيين الذين كانوا قد وعدوا الشريف بمساعدته على اقامة دولة عربية واحدة تشمل شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب (العراق وسوريا الطبيعية) . وقبلوا فيما بعد ببيان الحلفاء الذي صدر في ٨ نوفمبر ١٩١٨ لتبديد الشكوك المتعاظمة في نوايا بريطانيا وفرنسا الامبريالية في المنطقة ، وجاء فيه : (ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانجلترا في الشرق هو رغبتهما في تحرير شعوبه من ظلم الترك واستعبادهم وخالصهم من عسف الالمان ومطامعهم . . .) » (١٠).

شجعت هذه الظروف التاريخية اذن ، التوسع الاستيطاني الصهيوني ، وأعاققت اعادة التجمع الثوري لدى الشعب الفلسطيني . وحتى بعد انتهاء التناقض مع الفاشية ، وبعد مواجهة الصهاينة المباشرة لأول مرة ، وجد الشعب الفلسطيني نفسه دوما تحت قيادة الطبقة الاقطاعية . ولكن ، كانت هزيمة ١٩٤٨ هزيمة كلية للانظمة الاقطاعية العربية وللطبقة الاقطاعية ، ونتيجة لذلك كانت سنوات الخمسين تشكل انقطاعا مع ماض عاجز يمكن التعبير عنه سياسيا بسقوط الملكية في مصر وسوريا والعراق .

أما الشعب الفلسطيني ، فقد كانت له الهزيمة مفعمة ، انها الابعاد بالقوة عن الوطن ، وحياة المنفى في مخيمات اللاجئين .

(ب) فترة سنوات الخمسين (الفترة الانتقالية)

١ - دياسبورا الشعب الفلسطيني

تندرج حياة غسان كنفاني في السياق التاريخي الذي حددناه. ولد في ٩ نيسان ١٩٣٦ سنة اول ثورة كبرى ضد الاستعمار ، في عكا ، المدينة الحصينة الواقعة شمال فلسطين ، حيث كان أبوه يمارس مهنة محام شعبي . أي انه أمضى شبابه المبكر في فلسطين ، في جو من النضال المتميز بحالة عدم الامن ، والذي أدى الى غزو القوات الصهيونية لعكا .

طردت عائلة كنفاني من بيتها وأرضها ، ومثلت سنوات الخمسين في حياتها عدم الاستقرار الدائم ، إذ أقامت العائلة أولا في الغازية ، قرية من جنوب لبنان ، بعد ذلك في زبداني السورية ، وأخيرا في دمشق .

أما بالنسبة للشعب الفلسطيني ، فقد كانت هذه حالة الالوف من العائلات ، ونصف هذه الفترة بالتشتت الاولي ، ثم بالتجمع التالي .

لقد تبدلت الحالة جذريا : بلا بلد ، بلا تنظيم دولي (من دولة) ، بلا تنظيم سياسي ، الاحساس بالعار نفسيا ، والحرمان من كل شيء ماديا : « لقد عمق الاحساس بوجود مؤامرة مستمرة ، طرح مشاريع التوطين والتهجير التي حاولت الوكالة القيام بها في الخمسينات بغية محو الهوية السياسية للشعب الفلسطيني ، عن طريق التعامل معه بتحويله من شعب له حقوقه التاريخية والقومية في فلسطين ، الى شعب من اللاجئين » (١١) .

كيف يمكن البدء من جديد في حالة كهذه ؟

يجب على الشعب الفلسطيني أن يعيد تجمعه بشكل آخر يتفق والوضع التاريخي الجديد . ويثبت نجاح هذه المهمة الصعبة دون الانهيار في عملية الدمج مع الجنسيات الأخرى ، ليس فقط طاقة وقدرات القوى الوطنية للشعب الفلسطيني ، بل أيضا الإرادة الدولية للقوى التقدمية التي يزداد وزنها أكثر فأكثر في العالم . لقد أظهرت سنوات الخمسين في العالم قاطبة تيارا واسعا لحركات التحرر الوطني ، وان كفاح الشعب الفلسطيني لإعادة بناء كيانه القومي تندرج في هذا السياق . ولنشر الى هذه الحركة الدولية المناهضة للاستعمار ببعض التواريخ : ١٩٤٨ استقلال الهند . ١٩٥٢ فشل البريطانيين في استيطان كينيا ، فكانت المقاومة المسلحة التي عززت فهم ان عصر الاستعمار قد انتهى . ثم الانتصار الساحق لكفاح الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو سنة ١٩٥٣ ، مما أدى الى مغادرة الفرنسيين للهند الصينية . وفي الاخير ، نعطي مثلا عظيما لشعب عربي شقيق : انتصار الثورة الجزائرية المظفرة سنة ١٩٥٤ لطردهم الفرنسيين ، والتي رافقت سقوط الانظمة الملكية ، وخاصة في مصر .

٢ - طريق الثورة الصعب

تبدل الوضع العالمي بشكل جذري بعد الحرب العالمية الثانية لصالح الانظمة الاشتراكية وحركات التحرر الوطني . قبل الحرب العالمية الاولي كان المناخ السياسي غير مؤات لكل نضال من أجل الاستقلال . بعد الحرب العالمية الثانية ساعد الوضع الجديد الشعب الفلسطيني للخروج من شدته ويأسه ، ليعيد ولادته رغم الهزيمة الماحقة . وقد ردت الامبريالية بشكل مباشر على هذا التحول في علاقات القوى بعدوانية طاغية ، وعلى الخصوص ضد طبقة البروليتاريا في بلدها ، سميت فيها بعد

« بالحرب الباردة » . وفيما يخص الصراع بين حركات الاستقلال الوطني والامبريالية، فقد سجلت سنوات الخمسين أيضا ، أول انتصار لنظام جمال عبدالناصر الوطني والمناهض للاستعمار في مصر ، إذ أهم سنة ١٩٥٦ شركة قناة السويس الاجنبية ، ورغم التدخل الفرنسي - البريطاني - الاسرائيلي ، والنجاح العسكري الذي حققته الامبريالية ، الا أن منظمة الامم المتحدة قد أدانتها ، وأجبرت البلدان المعتدية على الانسحاب ، وكانت هزيمة القوة العسكرية الامبريالية أمام القوة السياسية للبلدان التقدمية .

وعلى هذا الحال فان المناخ السياسي لسنوات الخمسين يمثل انطلاقا كبيرا للبلدان العربية التي أثمرت بقدر كلي الواجبات الاولى لثورتها الوطنية الديمقراطية . على نقبض الشعب الفلسطيني الذي ليس له لا بلد ولا دولة ليعتم هذا الواجب : « أقام الفلسطينيون منذ عام ٤٧ - ١٩٤٨ في البلاد العربية على طول الحدود المجاورة للمنطقة المحتلة من فلسطين ، سواء في الخيام التي أقامتها وكالة الغوث الدولية، أو في الكهوف، ولا يزالون يقيمون فيها من ذلك التاريخ حتى الان، عرضة لحر الصيف القاتل ، ولبرد الشتاء القارس ، وللأمراض الفتاكة ، يحيون حياة البؤس والفاقة ، ويسدون رمقهم بما يحصلون عليه بالدمع والعرق » (١٢).

وذهب بعض الفلسطينيين الى العربية السعودية ، أو الى امارات الخليج العربي ، ومنهم من هاجر الى الغرب لاكتساب لقمة العيش : « بلغ عدد اللاجئين المسجلين في وكالة غوث اللاجئين بالاضافة الى عدد اللاجئين في غزة والضفة الغربية قبل ٥ حزيران ١٩٦٧ : ١٣٤٤٠٥٧٦ ، أما غير المسجلين : ١٠٩٤٢٤ ، أي أن العدد الاجمالي : ٢٤٥٣٠٠٠ » (١٣).

في ضوء هذه الوقائع ، نستطيع أن نفسر حياة غسان كنفاني المضطربة في دمشق ، عاملا ومدرسا وصحافيا ، ثم في الكويت سنة ١٩٥٦ مدرسا لسنوات أربع ، أخيرا مجيئه بيروت ليعمل في جريدة الحرية .

لكن أحداث البلدان الشقيقة أعادت للشعب الفلسطيني ثقة كبيرة ، إذ أننا نرى رغم الوضع البائس للحاضر ، أن تحولا قد بدأت تتضح معالمه في هذه الفترة لصالح هدف الشعب الفلسطيني الاساسي ، الا وهو : استرجاع أرضه وحقه الوطني .

(ج) الكفاح من أجل التحرر الوطني (المرحلة الثانية) :

١ - إعادة بناء التنظيم الثوري

مع ١٩٥٦ ، ظهرت بعض الاشكال الجنبية للتنظيم الثوري عبر عمليات فدائية شنت من قطاع غزة وسوريا . أخذت هذه النشاطات مقاييس متزايدة مع بداية الستينات ، عندما حصلت تحولات كبيرة في بلدان أخرى (أصبحت الجزائر مستقلة سنة ١٩٦٢ ، وحوالي سنة ١٩٦٠ تحطمت كل الامبراطوريات الاستعمارية على التقريب) دون أن يتبدل شيء في الوضع الفلسطيني . لقد أصبح المد الشعبى متزايدا أكثر فأكثر في البلدان العربية ، وعلى الخصوص في الأردن ، حيث معظم الفلسطينيين لاجئون . في سنة ١٩٦٤ ، قامت « منظمة التحرير الفلسطينية » ، وفي سنة ١٩٦٥ تأسس أول تجمع شعبي ذو بنية منظم بمولد « فتح » . وهكذا فان الانطلاقة الهادفة للتحرر الوطني قد اجتازت فترة هامة في عملية نضجها : إذ عبرت « فتح » في الواقع عن تنظيم شعبي له أهدافه المحددة، تحت قيادة طليعة ثورية . وقد أبدى برنامج «فتح»، النقاط الاساسية لثورة وطنية - ديمقراطية، مستجيبة لحركة التحرر الوطني العريضة، العربية والعالمية،

واعتبرت «فتح» الكفاح المسلح مهمة فلسطينية بحتة، وبهذا المعنى (« ليس مجرد وسيلة فعالة لاستعادة حقوق شعب فلسطين ، ولكنه أيضا الطريق الوحيد لتوكيد شخصية الفلسطينيين الوطنية » (١٤) .

« ان فشل الثورة الفلسطينية (٣٦ - ١٩٣٩) يعود الى نقص في التنظيم والوعي السياسي ، والى غياب مفهوم شامل للكفاح ، والى الافتقار الى التخطيط المتناسق لحركة التحرير » (١٥) .

وشددت فتح على ضرورة تحقيق وحدة منظمات المقاومة ، مؤكدة ان الوحدة الاصلية هي التي تتبع من النضج الثوري ، وان « الوحدة ليست حصيلة عوامل ظرفية ، والتوافق الجدي والفعال هو فقط حصيلة تفهم متبادل ، وتفاعل متكامل ، وجهود متعاونة ، وتحليل دقيق ، وهذه كلها منطلقات كل مرحلة جديدة من النمو الثوري » (١٦) .

« ومع ان الفلسطينيين يؤمنون بالوحدة العربية الا ان عليهم الحفاظ على هويتهم المستقلة ، وتقوية احساسهم بها » (١٧) .

« ان شعب فلسطين يتوجه الى جميع شعوب العالم الحرة والمحبة للسلام . . . لتساعده في كفاحه المحق والعاقل لتحرير وطنه » (١٨) . . . (١٩) .

ان قيام « فتح » عبارة عن بداية تطور تنظيمي طويل للشعب الفلسطيني ، اعطى اليوم منظمة وطنية قادرة كمنظمة التحرير الفلسطينية . اما اوضاع البلدان العربية الاخرى ، وخاصة سوريا ، فقد ظهرت عبر ترسيخ مواقع القوى الديمقراطية التي فتحت آفاقا نحو التوجه للاراسمالي .

٢ - انفتاح الثورة الوطنية الديمقراطية نحو ثورة اشتراكية

يشير تاريخ ١٩٦٧ الى انطلاقة جديدة في الوعي الثوري للشعب الفلسطيني ، فقد اظهرت الهزيمة الجديدة في معركة الاستقلال الوطني معبرا هاما لهذه المعركة ، حيث وجود « فتح » كتنظيم ثوري ، وكميلاد لامال عديدة وجديدة . فالشعب الفلسطيني دواما كان خاضعا لوصاية البلدان العربية ، وقد اثبتت له هزيمة حزيران ١٩٦٧ . ضرورة العمل بصفته قائدا لذاته ولقضيته . عند ذلك الحين ، اخذت الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني تثبت نفسها على المحفل السياسي الدولي باستقلال عن كل وصاية عربية او اقطاعية . وتميزت الثورة الفلسطينية بميزة تقدمية ، ان لم تكن اشتراكية ، عندما انشأت جناحا ماركسيا - لينينيا داخل منظمة التحرير .

ولم تعق مجازر ايلول ١٩٧٠ استمرار الثورة الفلسطينية ، التي عرفت ان تستخلص منها الدروس ، ووقفت « وقفه جادة امام التجربة بمجملها ، في محاولة لوضع خط سياسي واستراتيجي جديد قائم على ادراك عياني للظروف المحددة ، والتعيين الدقيق للاولويات والاهداف المرحلية » (٢٠) .

ونتيجة لاسسها وآفاقها التقدمية الواعية ، كانت الهجمات التي تعرضت لها المقاومة ، والتي ذهب ضحيتها غسان كنفاني كقائد فلسطيني في حادث انفجار سيارة ملغومة يوم الثامن من تموز ١٩٧٢ . وفي الوقت نفسه ، وللانسباب ذاتها ، سجلت المقاومة انتصاراتها قبل وخلال وبعد حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

لقد تجسد النصر العظيم الذي حققه الشعب الفلسطيني ، بعد ان أكد شخصيته الوطنية التقدمية ، بقبول وفد فلسطيني في هيئة الامم المتحدة ، وبخطاب ياسر عرفات في ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ . وعلى لسان رئيسها ، فان منظمة التحرير الفلسطينية ، أي الشعب الفلسطيني ، قد اظهرت انها تتمتع بكل مقومات المجتمع المنظم .

والفريد هنا ، بل اللافت للنظر ، أن إعادة البناء والتنظيم قد جرت في المنفى ، وتحت الاضطهاد الدائم . ولتر كيف استطاع شعبنا أن يقدم نفسه اليوم للعصبة الدولية : « وتعتز منظمة التحرير الفلسطينية بأنها وهي تخوض المعارك المسلحة وتواجه قساوة الارهاب الصهيوني ، قامت بمآثر عديدة حضارية وثقافية ، فشكلت مؤسسات البحث العلمي ، والتطوير الزراعي ، والرعاية الصحية ، واحياء التراث الحضاري لشعبنا ، وتطوير الفولكلور الشعبي ، وخرجت من بين صفوفها عددا من الشعراء والفنانين والكتاب الذين يسهمون في تطوير الثقافة العربية ، وربما امتد ذلك الى الثقافة العالمية » (٢١) .

كيف أمكن لهذا التحول العميق أن يتحقق ؟ منذ الهزيمة الكبرى الثانية والتالية للعدوان الاسرائيلي ، استعاد الشعب الفلسطيني الشعور بالوعي في نفسه كذات ، فمثل كفاحه الوطني بنفسه ، ولم يتركه تحت وصاية أحد . ويحث عن حلفائه الحقيقيين في المعسكر الاشتراكي ، وعند شتى حركات التحرر الوطني . وما كان هزيمة عسكريا سنة ١٩٦٧ ، كان في ذات الوقت قطيعة مع ماض سلبى .

(٢) انحطاط علم الجمال الرجعي وارتفاع علم الجمال الثوري في الادب العربي

(١) انحطاط علم الجمال العربي الرجعي

بدأ علم الجمال العربي الكلاسيكي يتحول بين الحربين العالميتين ، وقد احتل الكتاب المصريون المقدمة في عملية التوجه الجديد . وتميز الواقع التاريخي في هذا العصر ، مثلما ذكرنا ، بالكفاح ضد الاستعمار في فلسطين ، ولكن أيضا في سوريا ومصر . وقد تمخض الاستعمار الجديد ، بعد أفول نجم الامبراطورية العثمانية العجوز ، عن أخفاق النظام الاقطاعي القديم في هذه المنطقة من العالم . وانكشف هذا النظام بعدم قدرته على مواجهة التحدي الجديد ، وكان التعبير عن عدم القدرة هذه هو تنامي الضيق الاجتماعي . ولاول مرة منذ قرون ، بدأت الجماهير الشعبية تحتج على حالة الركود ، وتطالب بتغيير الشروط الاجتماعية . فأدت الانتفاضات الى استقلال بلدين عربيين نعرض بشأنهما مقتطفا من تقرير اللجنة الملكية البريطانية لعام ١٩٣٧ : « في شتاء ٣٥ — ١٩٣٦ شهدت المنطقة اتبعائا في النشاط القومي في مصر وسوريا ، وكان على درجة من الحيوية في القطرين بحيث حقق أهدافه خلال بضعة شهور ، وغاز القطران بالاستقلال القومي » (٢٢) .

ان الانطلاقة الشعبية الرامية للاستقلال لها محتوى اجتماعي مواز للثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ ، وهي الحركة الشعبية التي أصبحت قوة سياسية رغم طابعها العفوي واللامنظم : « اندلعت (الانتفاضة) في مصر في شهر تشرين الثاني ١٩٣٥ على شكل مظاهرات عنيفة اجتاحت القاهرة وغيرها من المدن ، وأدت الى مصادمات مع قوات الامن وسقوط قتلى وجرحى ، واضراب عام في القاهرة جرى في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، وتحرك شعبي ديناميكي أجبر الاحزاب على تأليف جبهة وطنية في ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ ، طالبت باعادة دستور ١٩٢٣ والاعتراف عمليا باستقلال مصر » (٢٣) . . . (٢٤) .

ويجدد بنا ان نأخذ بعين الاعتبار هذه التحولات داخل البنية الاجتماعية العجوز ، لنفهم التعديلات التي طرأت على القيم الثقافية القديمة . لقد وجدت هذه القيم القديمة نفسها متخلفة نسبة الى التطور الاجتماعي ، وأصبحت بالتالي وبشكل مكشوف رجعية . وبالمناسبة نذكر مثلا عباس محمود العقاد ، الذي يدافع في كل انتاجاته عن القيم الميتة ، ممتدحا الجهود البائدة ، ومقاتلا كل أشكال الفكر التقدمي .

فما هي هذه القيم القديمة ؟

يعطي العقاد في وصف واسع للعصر الاسلامي الاول تحت عنوان « العبقريات » ، تمجيذا « للشخصية العبقرية » التي تمتع بها الحلفاء الاوائل . ويبدو فكره الديني العميق ، ولصالح القديم ، عندما يعارض العالم الواقعي بعالم وهمي روحاني مجرد : « وللعيازة على الجملة ولع بعالم الغيب ، وخفايا الاسرار ، على نحو يلحظ تارة في الزكناة والفراسة ، وتارة في النظر على البعد ، وتارة في الحماسة الدينية او في الخشوع لله » (٢٥) .

هذه التصورات تدور حول قيم شخص نادر واستثنائي ، كذلك فان رؤية الكاتب للعالم تتركز حول الانا . وعندما يصف حياة عمر يستعمل مقولات مثل هذه : « عبقري - رجل ممتاز - صفاته - مفتاح شخصيته ... الخ » (٢٦) .

ان الميزة الرجفية لهذا الجمال تكمن اولا في التعارض والتناقض القائم بين الفرد ومجمعه ، وثانيا في تقييم الخواص الارستقراطية المتقنة (من قناع) تحت شكل اخلاقي ارستقراطي . وقد احس المنظرون العرب بقوة ، بانحطاط وسقوط هذه القيم الجمالية كنتيجة مباشرة للتحويلات الاجتماعية : « وكان لا بد لاية تحولات في الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي باتجاه اسقاط هذه السلطة من ان تؤدي الى اسقاط سيطرة الكلاسيكية على الشعر العربي المعاصر » (٢٧) .

ولتكمل هذه اللمحة حول علم الجمال الكلاسيكي الذي اصبح بالنسبة لوقتنا الحالي رجعيا (بمعنى انه يعمل مباشرة او لامباشرة بواسطة قيمه الماضية ضد قيم حقيقية تاريخية جديدة) نضيف الكاتب خليل السواحري مثلا آخر . فهو يختار ابطالا لقصصه بعض الفلسطينيين الهامشين ، ويدعي انهم ممثلون للشعب الفلسطيني بأكمله ، وهكذا يعطي صورة زائفة وخاطئة لشعب مسحوق وشجاع ، ويساهم بهذا المعنى في السياسة الرسمية للنظام الاردني الرجعي ، والتي تقوم على انكار تقدم واستقلال الشعب الفلسطيني (لاسباب اللاحق والضم) .

في قصة « مقهى الباشورة » اثر السواحري نذالة المعلم ابو بلطة ، الذي حول مقهاه الى صالون استقبال لمجموعة متحطة من الصهاينة . وعندما تحتم على المعلم دفع ضرائبه الثقيلة ، ذهب الى سكان حي الباشورة في القدس ليطلب النصيحة . فاقترحوا عليه ان يشنوا اضرابا جماعيا لدعوه ضد قوات الاحتلال ، لكن المعلم يرفض ذلك ، ويفضل بيع الحشيش للصهاينة قصد تغطية المبلغ المطلوب منه . وبعد ان تمت الصفقة « شربوا القهوة على حسابه ، وتمازحوا ، وتضاحكوا ، وضرب المعلم الفتاة (الصهيونية) على فخذيها ، وحين غادروا المقهى ، كان ابو بلطة يودعهم عند الباب ، فعدا سوف يدفع الثلاثة آلاف ليرة بأكملها » (٢٨) .

وفي مكان آخر من القصة ، تكشف زوجة المعلم عن تخاذلها بهذا القول : « أيام الجدنة راحت يا معلم ، اليهود اليوم ضبطوا على رقابنا ، وكسروا جيوشنا ، اليوم تغيرت الاحوال ، خرجوا و الاصرهم ما خرجوا » (٢٩) .

الشخصيات المزدوجة - المحدودة ، بل يمكن القول غير الموجود ، والتي لا تقابلها شخصيات منافسة ايضائية التي هي شخصيات الكاتب ، تتكرر ايضا في قملص اخرى ظهرت في مجموعة « ثلاثة اجنات » المنشورات النظام - ١٩٧٢ ، أي بعد مذابح ايلول ١٩٧٠ .

ان هدف المؤلف التقليل من قيمة نضال الشعب الفلسطيني وصموده، لصالح النظام الاردني ، كذلك فان المواضيع التافهة والشخصيات المهزوزة تتعدى ذلك الى « الفهم الساذج لعملية البناء الفني ... وقد اعتمد (الكاتب) في سردته الساذج على عشرات الشتائم ... (التي) تؤكد تفاهة القصة ولا معقوليتها » (٣٠) .

تزييف الواقع ، وتجاهل الهموم الحقيقية لشعبنا الصامد في وجه الاحتلال ، كذلك نضالاته اليومية ، يتفقدان وخطط العدو الرجعي والصهيوني ، ويؤكدان جانبا آخر من المعايير الجمالية للادب الرجعي .

(ب) ارتقاء علم جمال ثوري جديد

بدأ ميلاد علم الجمال الثوري الجديد لحظة ان دخل الكفاح من أجل التحرر الوطني مرحلته الثانية ، بمعنى انه أصبح الكفاح من أجل الاستقلال كفاحا واعيا يرمي الى التقدم الاجتماعي . وفي هذه المرحلة الثانية ظهر عامل هام في الادب العربي ، الا وهو علم الجمال الجديد ، ممثلا في ابطال الاعمال الشعرية والروائية ، والتي تطرح نفسها أكثر فأكثر وبصفة نامية كأبطال ثوريين ، تشارك بشكل مباشر في النضال ضد العلاقات الاجتماعية القائمة والقمع الامبريالي .

وينعكس قبل كل شيء ، من خلال هذا العامل الجديد ، التطور الثوري في العالم العربي بصفة عامة . اذ بعد ان كسب استقلاله السياسي، بدأ بازالة بقايا الاستعمار، وبناء مجتمع جديد . وبعد ذلك ظهرت التحولات الواسعة في فكر الشعوب العربية ، الموازية للتحولات التي طرأت على العلاقات الاجتماعية . وقد وصف هذه التحولات جمال عبد الناصر بهذه الكلمات : « ثورة عربية حقيقية ولدت في عقولكم ومشاعركم وقلوبكم » (٣١) .

ولنذكر بتلك الاحداث الكبرى ذات المرامي التاريخية ، والتي وجدت انعكاسا لها في الادب العربي كإشارة لمنطلق ثوري مناهض للامبريالية وللعدالة الاجتماعية . هذه الاحداث هي : سقوط الملكية في مصر ، حرب التحرير الجزائرية ، الاعتداء الامبريالي على السويس ، ثورة تموز في العراق ، وكفاح الشعوب العربية ضد العدوان الاسرائيلي .

ويجب علينا تأكيد ان هذا المنطلق الثوري قد وجد مجاله في الادب ، أكثر فأكثر ، وبصفة نامية ، كعملية متطورة ، ترمي مضمونا وهدفا الى التحول في العلاقات الاجتماعية القائمة .

ان العرض الوصفي لطريقة ساكنة في الحياة والتي كانت خلال قرون ، الامكانية الوحيدة لوجود ظاهرة ادبية ، قد اخلت مكانها لما يمثله الفعل الادبي ، والذي يوجد في مقدمته البطل الثوري .

ما هي خواص البطل الثوري ؟

مثل كل تهمين سياسي — معنوي للبطل الادبي نسبة الى تمثيله للصورة الانسانية ، المشروطة بالطبقة ، فان صورة الثوري تخضع أيضا للتحولات التي طرأت على الادب العربي في العقود الاخيرة بعلاقتها مع التحولات الاجتماعية . وتمتد سلسلة خصائص الثوري الى الباحث الذي يتنبأ حدسيا بأبعاد النضال الثوري للمقاتل الواعي الملتزم من أجل التقدم الاجتماعي مع كل خصائصه المعنوية المميزة والمحددة بالانتماء الطبقي . وهنا ، نريد ان نعطي مثالين من نمط هذا البطل الثوري في الادب العربي . أولا ،

مثالا عن الكفاح من أجل التحرر والاستقلال في الجزائر . وفي هذا الشأن ، يجدر بنا القول ان نجاح معركة استقلال الشعوب العربية قد انعكس في الادب انواقعي ، حيث تتحرك الشخصيات الثورية بصفتها التمثيلية ، محققة الانتصارات في نضالها ضد الامبريالية ونضالها الاجتماعي . ويقدم المناضل المناهض للامبريالية في الادب العربي الحديث ضمن حالات جد مختلفة بصفته مواطنا مضطربا . وهكذا اظهر الكاتب الجزائري محمد ديب ، في روايته « سيف افريقي » ، الفلاح (مرحوم) الذي كان يخاطر بنفسه لتموين المقاتلين في الجبال ، جالبا لهم الغذاء الضروري . وبهذه اللفتة عبر عن دعمه للكفاح المسلح ضد السيطرة الاستعمارية الفرنسية (٢٢).

مثال آخر عن معركة الاستقلال ، « غير مباشر » هذه المرة . اذ اننا نلتقي أحيانا بين الامثلة العديدة للبطل الثوري ، بنماذج ليست للوهلة الاولى نماذج « نجيعة » ، لكنها تمارس نفوذا عظيما بفكرها وفعلها الثوريين فيمن حولها .

لقد قدم لنا احمد ابراهيم الفقيه الكاتب الليبي هذا النموذج في قصته « الجراد » التي نشرت قبل سقوط الملكية . في هذه القصة : عامل زراعي بسيط يصبح بطلا عندما يجند قرية كاملة لتواجه خطر سرب من الجراد . ويصبح مثالا ثوريا لحدة ذهنه ، وفعله المباشر ، اذ يقدم اقتراحا عمليا لمواجهة هذه الكارثة الطبيعية ، والتي حسب ما يبدو ، لا يمكن تحاشيها ، وقد اداه ذلك لمهاجمة سلطة الشيخ كي يحمي قرينه من الجراد . هذا الشيخ ، حاول ان يفرض على القرية اقتراحات لا فائدة فيها تماما ، مثل زيارة ضريح احد الاولياء ، او الدعاء ، او اشعال النار وضرب الطبول من حولها ، بينما يبدي الشاب العامل فكرة حقا ثورية ، وحتى الان ليست متصورة ، تزعزع سلطة الغدامي بقوة ، وتعرضهم للسخرية : « ان فكرتي هي هذه . . . ان ناكل الجراد بدل ان ياكلنا » (٢٣).

حقا ، لا تحول هذه الفكرة البسيطة العامل الزراعي الشاب الى ثوري بالمعنى الواسع المنسوب للمجتمع ، لكنها تمثل تحت شكل فني لقصة ، شيئا لم تره أبدا الى ذلك الحين : ثورة تطيح بالمؤسسات الدولية (من دولة) والدينية والتصورات التقليدية .

وليس هذا كل شيء ، اذ لا تبقى الفكرة عند حدود الفكر ، بل توضع على محك العمل ، وتتطور بصفتها واقعا اجتماعيا جديدا . ولا يتحقق هذا التطور من خلال الطرُق التقليدية ، ولكن يعون أناس بسطاء — سكان القرية : الاطفال ، والشيوخ ، والنساء ، والرجال — يخرجون تحت قيادة الشاب العامل الزراعي (وليس الممثل الديني الدولي — من دولة —) الى الحقول ، كي يجمعوا الجراد المشلول في استرخائه بسبب الليل . وهكذا ينجح بانقاذ القرية من الكارثة ، ويعدو الجراد غذاء وغيرا للسكان . لقد أصبحت فكرة العامل الزراعي حقيقة ، والبطل مثالا ثوريا . لم يحترمه وسطه لشجاعته ومواجهته التصورات الرجعية السلطوية فقط ، بل ايضا لثباته عند العمل من أجل رغد العيش الجماعي .

وفي الوقت نفسه فان هذا الاحترام تجاه البطل الفردي يعبر عنه في الفعل الجماعي ، فعل أهل القرية . ويمكن القول ان الناس البسطاء هم الأبطال الحقيقيون لهذه الواقعة الغربية ، العادية في الوقت نفسه .

ولننّه لمحتنا القصيرة حول علم الجمال العربي الجديد نلخص هنا ما امتاز به من ملامح تقدمية تكمن فيما يعكسه من تقدم اجتماعي في الواقع ، ويعطينا بالتالي جوابا حول واقعية الأبطال . ولنلاحظ أولا ان هؤلاء الأبطال يدافعون عن التقدم الاجتماعي ،

ويناضلون ضد كل أشكال القمع وخاصة القمع القومي الذي تقوده الامبريالية ، وهم يعملون بوعي او بدون وعي لمصلحة اغلبية الشعب ، وهذا ما يظهر باختيار «شخصيات شعبية» للابطال الثوريين (غالبا ما يكونون ممثلين للفلاحين). وزيادة على ذلك يرمي الفعل الثوري الى **تحول** العلاقات الاجتماعية . ورغم ان الغايات والوسائل من اجل تحقيقها غالبا ما تبدو مضطربة ، فان صفات الثوري تمثل الشرط الضروري لقطع كل علاقة مع التقاليد البائدة لطريقة تأملية في التفكير ، ارتبطت بالتطورات الاجتماعية التي تنغرس جذورها عميقا في الدين . ونرى في قصتنا الليبية على الخصوص ، ان الافكار التقدمية تتغلب على سلطة التصورات الرجعية .

اما العنصر التقدمي الثالث الذي نود الاشارة اليه هو ان البطل الثوري يعمل ويتحرك بصفته انسانا فعالا داخل المسرح السياسي . انه يحمل مصيره بيديه ، وليس شيئا أصما دون ارادة ، خاضعا للمسلّمات اليقينية . هنا ، يصبح الانسان خالقا لنفسه .

(ج) ميلاد ادب فلسطيني جديد

في الفترة بين ثورة ٣٦ — ١٩٣٩ وهزيمة ١٩٤٨ استولت الطبقة الاقطاعية بالتحالف مع الاستعمار على الفن (الادب على الخصوص) ، واستخدمته للتعبير عن قيمها ومصالحها . وبقي الادب عاجزا تحت سيطرتها — الا من بعض الامثلة القليلة ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود — الى ان كان سقوط فلسطين وهذه الطبقة ايضا ، وميلاد ادب فلسطيني جديد .

بعد ١٩٤٨ صدرت مجموعات قصصية عديدة ، كتب بعضها قبل الهزيمة ، نلمس من خلالها أثر الاحداث التاريخية على الواقع الاجتماعي ، والانتقال المموس من رؤية عامة وغيبية ، الى رؤية ثقافية واجتماعية متقدمة .

١ — **نجاتي صدقي : موضوعة الثقافة الوطنية** : لقد شجنت الثقافة الوطنية بمعايير جديدة ، وان ظلت عاجزة عن رؤية عينية للصراع الطبقي ، والصراع مع قوى الاستعمار ، وبقيت مشدودة لكل ما هو نظري ، الا انها ساهمت في تحديد دور الاديّب « الصحيح ... الذي يضرب مساويء الحاضر بحسنات الماضي ، ويصور مستقبلا جميلا ... وأن الادب هو علم الانسان ... يرمي الى ادراك كنه حقيقة الانسان » (٣٤)

كذلك فقد تجاوزت هذه المعايير الجديدة المعايير القديمة التي تستند على العادات والتقاليد وكل ما هو متخلف من اجل ثقافة أوسع : « والانسان لا يكون مثقفا الا اذا تحلى بثلاث سجايا : التحرر من الخرافات ، والنفكير في غده وغد غيره من ابناء قومه ، والقدرة على تخطي الحدود القومية الضيقة في تفكيره » (٣٥) .

هذه هي بعض الافكار الرئيسية لقصة « جثة حية » من مجموعة « الاخوات الحزينات » المكتوبة في الفترة بين ١٩٣٩ — ١٩٤٨ . ورغم ما يؤكد احد أبطالها بأن « الادب الواقعي انما هو تصوير الحياة بدقة وصدق ، ومن ميزاته انتقاء الحقائق المحيطة به » (٣٦) . الا أن ذلك قد بقي عند حد النظرية في جميع قصص المجموعة . حتى في قصة « الاخوات الحزينات » فان الرمز الذي يستعمله الكاتب لم يكن بإمكانه عكس الواقع : بما في ذلك الكفاح ضد الاستعمار والصهيونية ، والتعلق بالارض .

لكن موضوعة الارض هذه قد اخذت تتطور وتأخذ منحى اجتماعيا أكثر عمقا وأكثر جذرية ، حينما قدم الادب الفلسطيني الجديد صورة واقعية عن (الارض مع صاحبها

الفلاح) كممثل للطبقة المسحوقة ، وأن لا معنى لكل منهما إلا لعلاقتها الوثيقة والمتبادلة القائمة منذ دهور .

٢ - **أسمى طوبى : موضوعة الأرض :** ففي قصة « أمة الأرض » من مجموعة أسمى طوبى « أحاديث من القلب » لدينا صورة رائعة « للعم مصطفى يزيل عرقه من جديد عن جبينه ، وهو يقلب أرض حديقتنا . وكانت الذرات المبلورة تنحدر لمتزج بالتراب ، وسمعته يهمس : ما أصدق هذا ! ان عرق جبیني وقوة عضلاتي في الأرض ، دم قلبي أيضا هناك . لقد جرثها آبائي واجدادني لعشرات السنين ، فلن أكون الرجل الذي يضيعها » (٢٧) .

التأكيد على موضوعة الأرض في الأدب الفلسطيني له دلالات عديدة منها : امتزاج الإنسان الفلسطيني بالأرض الفلسطينية ، وفي سبيلها يقف ليواجه التحديات الإمبريالية .

٣ - **سميرة عزام : الالتزام الاجتماعي لأجل الشعب الفلسطيني :** من هنا كانت قصة « في الطريق إلى برك سليمان » من مجموعة « أشياء صغيرة » لسميرة عزام ، التي تصور دفاع الإنسان الفلسطيني عن الأرض أمام هجمات الصهاينة عام ١٩٤٨ .

ان النضال من أجل الاحتفاظ بالأرض يأخذ مداه في قصة « خبز الفداء » ، حيث تعيد الكاتبة صياغة الواقع الذي عاشته قبل سقوط عكا . عندما يتحدى البطل الفلسطيني العدو ، ويبدل دمه فداء للأرض .

وقد وافق تحدي العدو تحدي القيم التقليدية في المجتمع ، وتميزت قصة « أشياء صغيرة » بموقف رافض جديد لكل ما هو « خالد ومقدس وأصيل » في العائلة . إذ تدور القصة حول فتاة كانت تظن نفسها من سلالة متميزة عن سائر البشر ، لما كرسه والداها في عقلها من أفكار رجعية محافظة . لكنها اليوم أصبحت شخصاً جديداً متفتحا استرد ثقته بنفسه ، وامتلا حسه بالوجود . لقد اكتشفت زيف وضعها الاجتماعي السابق ، بعد ان أحبت رجلاً فتح عينها على أمور كثيرة غابت عنها في الماضي .

كذلك « قصة في رسالة » تطرح موضوع سقوط المرأة المسحوقة ، و « على الدرب » كيف يتخلى الخطيب عن فتاته الفقيرة بعد أن أصبح سائقاً خاصاً لصاحب المصنع .

وترمي الكاتبة من طرح مشاكل المرأة إلى البحث عن عالم أفضل ينتهي فيه اضطهادها ، إذ ليس هناك فصل بين التصدي للاحتلال ومواجهة العدو ، وبين التصدي لآفات المجتمع ومواجهة الفكر الرجعي . « في قصتي (إلى حين) و (زواج العمه) حاولت الكاتبة ان تصور صورتين من صور سلوك الانتهازيين من الأتارب ، فالعمتان في القصة الأولى تريدان اقتناص زوج شاب غني لابنة أخيها . . . أما القصة الثانية فنصوّر طمع الأخ وزوجته في مال شقيقته الأرملة . . » (٢٨) .

وفي باقي قصص المجموعة موقف اجتماعي واضح يرفع مطلب التحول من خلال التأكيد على ظاهرة الفقر والبحث عن القوت اليومي . وقد عبرت سميرة عزام عن بعض سمات الحياة الفلسطينية التي شكلت خطوط البنية الاجتماعية والاقتصادية العريضة لعدم استقرار الإنسان الفلسطيني ، وشعوره المعذب في المنفى .

(١) فترة توجه المنفي

(أ) دمشق والكويت : عدم الاستقرار الحياتي — البحث عن تحديد ايدولوجي

(١١) موت سرير رقم ١٢

تنعكس عن مراحل حياة غسان كنفاني مباشرة المراحل التي عاشها الشعب الفلسطيني . اولا الترحيل بالقوة ، وثانيا اقامة غير مستقرة في لبنان وسوريا . وكان غسان كنفاني قد بدأ سنة ١٩٥٢ وعمره ستة عشر عاما ، الحياة المهنية معلما في احد مخيمات اللاجئين في دمشق ، فرأى المصير الذي آل لشعبه اليه ، واخذ يعي بنفسه ما وقع . لقد اعطته المرحلة الاولى هذه من حياته الفعالة في دمشق تجربة المنفي المرة ، الا وهي : حياة التعرب في المخيم ، والشعور الشديد بعجز عدو اقام دون عناء في بيت او مدينة كانت للفلسطينيين دون ان يمكن تصديقه ضمن حقيقته الثرسة .

وبناء على ذلك ، سنقوم بتقديم عرض اولي للموضوعات الرئيسية التي طرحتها اعمال غسان كنفاني نسبة الى التطور التاريخي للتحرر الذي عبره الشعب الفلسطيني ومعه غسان كنفاني منذ هزيمة ١٩٤٨ حتى سنوات السبعين .

وأول موضوعه (٢٩) نعني ببارازها من خلال هذا التسلسل التاريخي هي **شعور المنفي المعذب الذي يعطف الى الوراء** لحاجة فهمه الحقيقية . وقد عبرت عنها الثلاث قصص الاولى من مجموعة « سرير رقم ١٢ » ، المعنونة : ١ — البومة في غرفة بعيدة . ٢ — شيء لا يذهب . ٣ — منتصف ايار .

ما هي الصور الفنية (٤٠) التي تقابل هذا الشعور ؟ ان صورة القصة الاولى هي صورة **البومة** التي كان قد رآها البطل عند هزيمة ١٩٤٨ ، وهي تظهر بالوصف التالي : « كان يومض في عيونها ذلك الغضب المشوب بخوف غريب . . وبدت لي انها مصرة على وقوفها المتحدي ، وانها سوف تبقى رغم الرصاص والموت » (٤١) .

يحتفظ البطل في حجرة المنفى بصورة فوتوغرافية للبومة ، وبما ان البومة طائر ليلي ، فهي تبعث على التدقيق ذكرى ماضٍ معذب . وهكذا فان الصورة الفنية **للبومة في الليل** تعبر جماليا عن شعور الذكرى المفجعة في ليل المنفى .

اما صورة القصة الثانية فهي **الورود** التي يريد البطل وضعها على قبر عمر الخيام في طهران . وكانت حبيبته في حيفا قبل سقوط فلسطين ، قد اهدت له كتابا عن عمر الخيام ، آخر ما تبقى له من ماضٍ سعيد بعد ان ماتت دفاعا عن الوطن : « لماذا اصر على الاحتفاظ بكتاب الخيام ؟ ان احدا لا يعرف الحقيقة ، تراني اريد من الكتاب ان يوهم الآخرين بأنني ما زلت مرتبطا بحيفا ؟ » (٤٢) .

ان صورة **الورود على القبر** مثيرة بشكل خاص ، اذ تعبر عن دفن ماضٍ سعيد دون التطلع نحو المستقبل . تتجه الرؤية هنا نحو الماضي ، وتبقى مشلولة امام تعاسة الحاضر المفاجعة .

لكن صورة القصة الثالثة باعثة اكثر على الحزن من سابقتها : الا وهي **رسالة الى ميت** . فالبطل المنفي يكتب رسالة الى صديقه الذي مات خلال احداث ١٩٤٨ ، حيث تطفئ ذكراه على الحاضر : « والسؤال الذي يجار في رأسي هو : لماذا اذكرك الآن ، واكتب لك ؟ اما كان الاجدر بي ان استمر في صمتي ؟ » (٤٣) .

ويجدر بنا التذكير من جديد بالموضوعة الاساسية التي سبق لنا طرحها لهذه

المجموعة « موت سرير رقم ١٢ » ، الا وهي **شعور المنفي المذبذبي الذي يعطف الى الوراء** ، والذي تعبر عنه كافة الصور من خلال التعلق الاحادي الجانب بالماضي . اما باقي قصص المجموعة فهي تنير جانباً اخر من هذه الموضوعية : **دافع العار عند المنفي** ، اشارة لفهم اول يبعث على التساؤل : كيف يمكن محو العار ، وبالتالي شق طريق نحو المستقبل ؟

ولنتابع عرضنا للصور الاساسية الاخرى التي رسمت باقي قصص المجموعة :

في قصة « كعك على الرصيف » يتطور الشعور بالعار من خلال صورة اكثر تعقيدا : اكتشاف الحقيقة التي تختفي وراء شبكة من الاكاذيب . والقصة هذه سمة من سيرة الكاتب الذاتية ، اذ يتضح لمعلم ان احد تلاميذه قد كذب عليه ليخفي اوضاع عائلته السيئة ، مدعيا انه يعيل أسرته عوضا عن والده الميت ، ببيعه كعكا على الرصيف ، ولكن في الحقيقة ان الوالد قد اصبح مجنوناً عندما شاهد المصعد وهو يقطع رأس أحد ابناؤه ، ولم يكن التلميذ سوى ماسح احذية . ويكمن دافع الموضوعية الاساسية للمنفى في **الورطة التي سببتها الاكاذيب لتغطية العار** ، هذا العار الناجم عن وضع الطفل البائس ، معتبرا اياه ، وضعا منزوعا من الكرامة ، لكنه يعترف لاستاذة عند نهاية القصة : « انه لم يمت (ابوه) ، انه مجنون يدور في الشوارع نصف عاز » (٤٤) .

ويقدم لنا الكاتب صورة مزدوجة تعبر عن هذه الاكاذيب في العنوان « كعك على الرصيف » ، الا وهي صورة **ماسح الاحذية الذي يدعي انه بائع كعك** ، بينما هو في الحقيقة يقضي كل وقته راكما على الرصيف لمسح الاحذية .

وقصة « في جنازتي » تعطي تعبيرا واضحا عن دافع موضوعية المنفي يختلف عن غيره ، وهو **الحقد الذي يملأ قلب من ضاع** . انها حكاية مريض غير قابل للشفاء ، يكتشف ان لحبيته عشيقا ، فيشعر انه مقطوع تماما عن عالم الاحياء : « ولكن من يستطيع ان يمنعني انا الاخر من ان احقد عليكما ، على الجميع ، وعلى نفسي ؟ من يستطيع ان يحرمني من ان اكرهكم جميعا ، واتمنى الموت لكم ، ولكل شيء ؟ القيم والمثل ؟ كلا ، انها قيمكم ومثلكم انتم ، الناس الاصحاء ، السعداء . . . » (٤٥) . لكن دافع الحقد الذي يملأ قلب من ضاع يتضمن معنى اخر جديرا بالذكر : دافع خيانة الحبيبة الذي ينضح شيئا فشيئا ، والذي سيحتل مكانا هاما في باقي اعمال كنفاني . ان اهمية التضامن وقت الشدة لتناجاة النضال يدفع البطل لمعاقبة حبيته : « انت لا تعرفين كم خرمنتي من وسيلتي الوحيدة التي كنت اريد فيها ان اقنع نفسي ، بأنني ما زلت . . . استطيع ان اكون شجاعا » (٤٦) .

لا يوجد في هذه القصة تطور واضح للصورة الفنية مثلما هي عليه في القصص الاخرى ، اذ تكمن الصورة المعبرة عن هذا الحقد ، وهذا اليأس في رسالة **الوداع التي يكتبها المشرف على الموت** .

سنستطرق الان للقصة التي حملت المجموعة اسمها « موت سرير رقم ١٢ » ، هنا تتطور موضوعية المنفي الاساسية تحت دافع **الموت الكاشف عن سر الحياة** : يأخذ احد المرضى بمراقبة مريض اخر يجتضر ، اصله من عمان ، لا يؤثر وجوده في أحداث القصة ، فيشرح المريض - الراوي بتكوين فكرة عن حياته .

لقد تخيله كمنفي شق طريقه بشجاعة رغم العقبات العديدة ، لكن الحياة نبذته بعد اصابته بهرض فاتك . وقد تخيل ايضا في صندوقه الذي يمسك به على الدوام ثروته : « عباءة بيضاء شفافة مذهبة الاطراف . . . حلق خزفي لاخته سبيكة تزين به

أذنيها ، وزجاجة من عطر قوي ، وصرة بيضاء مصرورة على ما يسره الله له من نقود «(٤٧)» .

يموت العماني ، فنكتشف الحقيقة : ان ما كان خيالا كان صورة رومنطيقية للحياة ، اذ ان حياة العماني في الواقع اكثر تسوة . فهو يقيم في الكويت بعيدا عن وطنه واطفاله الخمسة ، بينما يتخيله الراوي رجلا غادر بلاده ليجمع المال ، ويرجع غنيا كي يستحوذ على حبيبته . غير ان ما كان في الصندوق سوى : « مجموعة فواتير بديون الدكان الجديدة للمخازن الموردة تملا انحاءه ، وكانت في الطرف صورة قديمة لوجه مليح ، وجلد ساعة قديم ، وخيط من القنب ، وشمعة صغيرة ، وبضع روبيات منثورة بين الاوراق »(٤٨) .

وهكذا لم يحتو الصندوق على « قيمة » ثمينة ، وانما على قيم لحياة الفقر والمنفى الشاققة . الصورة الفنية هنا تتمثل في **المحتوى المزوج للصندوق** : ان الصندوق الخيالي يتضمن محتوى ذا طابع مثالي « مجمل » ، ومفعم بالاوهام ، بينما الصندوق الحقيقي يحتوي على اشياء حزينة للحياة يذوق الفقير مرارتها . من هنا ، القيم الوهمية مثل العبادة الجميلة تفقد « قيمتها » ، بينما الاشياء الصغيرة التي « لا معنى لها » تستمد قيمة انسانية عظيمة .

اثار الراوي الذي هو مريض ايضا مسألة موت الانسان : فهو يرى ان حياة المشقاء والالم ، ذات المحتوى المحدد ، لا تترك سوى آثار عديمة الجدوى كالفواتير والشموع . وهذا ما يفكر به : « ان قضية الموت ليست على الاطلاق قضية الميت ، انها قضية البائتين . . ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة البداية . يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت »(٤٩) .

ما هو سبب اعطاء موضوع الموت تفسيراً فلسفياً ؟ ما هي علاقتها مع دافع الحياة الوهمية والحياة الحقيقية ؟ الصورة هي صورة **الموت الكاشف عن سر الحياة** ، تسامي مشكلة المنفى ، وموت الشعب الفلسطيني الذي كان يحتضر غداة النكبة . نقول « تسامي » ، لان المشكل المثار يبقى مركزاً في صدمة موت « عديم الاهمية » ، ولا يتطرق حقيقة الى ما يكشفه هذا الموت . فكان الموت لازماً لمعرفة الحقيقة التي كانت فيما مضى « لا معنى لها » . لقد اعطى الموت في هذه القصة معنى لما لم يستطع الراوي معرفته سابقا . فهل من اللازم ان ننتظر الموت دائماً لمعرفة الحياة ؟ اذا طبقنا هذه الفكرة على مصير الشعب الفلسطيني نقرأها هكذا : يجب ان نفهم حقيقة الشعب الفلسطيني قبل ان يموت . ومع هذا فلم تطرح هذه المسألة عند غسان كنفاني بشكل واضح الا في وقت لاحق ، اذ لا تحمل سوى طابعها الفلسفي : « يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت »(٥٠) .

اما القصة الاخيرة التي اخترناها من هذه المجموعة فهي تبرز جانبا هامشيا من القصة السابقة . وكما قلنا سابقا ، ان الراوي المريض قد صنع لنفسه صورة رومنطيقية للمنى كالسعي الشره وراء ثروة . وقد تطورت هذه الصورة في قصة « لؤلؤ في الطريق » لتأخذ أبعاد **اللؤلؤة التي في المحارة الاخيرة** . انها حكاية رجل شد الرحيل الى الكويت طامعا الحصول على ثروة ، لكنه يفشل . وقبل ان يعود الى بلاده يجرب حظه للمرة الاخيرة بشراء بعض المحار ، دفع ثمنها لها ما كان عليه ان يدفعه للحصول على تذكرة السفر الذي وهبه اياه صديقه ، أملا ان يجد فيها إحدى اللآلئ . يأخذ في فتحها دون فائدة ، وقبل ان يفتح المحارة الاخيرة يسقط ميتا . ويتساءل صديقه راوي الحكاية : « لماذا مات . . ؟ هل كان ثمة لؤلؤة في داخل تلك

المحارة الاخيرة المعونة فمات فرحاً ، ام كانت فارغية كأخواتها العاقسات فمات
غماً ؟ « (٥١) .

تعبير صورة اللآلئ في المحار عن وهم الثروة الساقطة من السماء ، فالويت هنا
صورة شعرية تعبر عن دمار كل من سار في هذا الطريق . وقد وضع غسان كنفاني
في اعماله اللاخقة موضوعة الحل الوهمي هذا الذي يستبدل به الانسان بؤس
الحاضر . وتكمن العلاقة بين صورة اللؤلؤة في المحارة الاخيرة ، والموضوعة الرئيسية
**لشعور المنفي المعذب في السؤال الذي يطرحه غسان كنفاني : كيف يمكن التحرر من
هذا الشعور ؟**

٢١) أرض البرتقال الحزين

تدور المجموعة القصصية الثانية لسنوات الخمسين حول نفس الموضوعة
الاساسية : شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الوراء ، وقد اتسعت وتعمقت ،
بعد ان بدأ المنفي برصد الماضي ، واثارة الاسئلة حول اوهامه . وتميزت القصص
بميلها نحو تحول **باتجاه الحاضر** ، واصبح الانسان المنفي متسائلاً بشكل جذري .

ويعود من جديد دافع الكشف عن الاكاذيب في قصة « الافق وراء البوابة » ، وتبدو
في العنوان صورة : **البوابة التي تفصل بين الكذب والحقيقة** . انها حكاية شاب يجتاح
بوابة مندلبوم ، آتياً من الارض المحتلة (حيث عاش مع الكذب) الى الجانب الاخر من
مدينة القدس ليوافه الحقيقة . القصة في ذاتها بسيطة جداً ، اذ يحاول الشاب اخفاء
موت أخته التي قتلها الصهاينة عن امه ، بينما تحاول عمته بدورها اخفاء موت الام
عنه . وعندما يلتقيان ، وكل منهما يحمل هدية للاخت وللام ، يفهمان اكاذيبهما
المتبادلة .

وهناك ثلاث قصص اخرى تحمل عنوان « ثلاث اوراق من فلسطين » ، ننع فيها
لاول مرة علي دافع **الماضي الايجابي** . في قصة « ورقة من الرملة » يفقد رجل امراته
وابنته بعد ان قتلها الصهاينة ، وكان قد باع املاكه ليشتري اسلحة ومنتجات ،
نسف بها نفسه ومن معه من الصهاينة في الوقت الذي كانوا يستجوبونه .

اما القصة الثانية « ورقة من الطيرة » فهي تحكي عن المقاتل القديم المنفي في
دمشق ، يبيع الكعك ، ويسأل الماضي مبديا الجوانب الايجابية للنضال ، وفي نفس
الوقت استيائه من رؤساء الدول العربية الرجعية التي كانت في يدها القيادة ، فيقول :
« الخطأ لم يكن مني انا ، كان من فوق » (٥٢) .

اخيراً القصة الثالثة « ورقة من غزة » تعيد من جديد وبشكل مباشر ، موضوعة
المنفي الذي يبحث عن « السعادة » في أمريكا ، وقد دعاه صديقه للعودة الى الوطن
ليقوم بواجبه في المعركة بعد ان قص عليه حالة ابنة أخته الصغيرة التي فقدت ساقها
ايام حرب ١٩٥٦ ضد الصهاينة : « عد لتتعلم من ساق ناديا المتبورة من اعلى الفخذ
ما هي الحياة وما قيمة الوجود . عد يا صديقي ، فكلنا ننتظرك » (٥٣) .

هكذا ، تظهر الثلاث اوراق هذه من فلسطين ثلاثة جوانب للماضي : **الشهيد ذو
المشاعر الوطنية ، المقاتل الذي خاب امله ، والهارب امام الحقيقة** .

اما قصة « أرض البرتقال الحزين » التي تحمل اسم المجموعة ، فهي من التعقيد
بقدر ما كانت عليه « موت سرير رقم ١٢ » ، وذلك لسبب تعدد الدوافع التي تشمل
موضوعة المنفي . وللمرة الاولى لدينا نفس يكاد أن يكون ملحمياً ، ويمكن اعتباره
رواية صغيرة ، نجد فيه مبراً نوعياً أدبياً من القصة الى الرواية .

ان الصورة الجمالية لهذه القصة هي : **البرتقالة الجافة** ، ولها بعض من جوانب سيرة الكاتب الذاتية : عائلة تغادر عكا اثر الاحتلال الصهيوني الى لبنان ، وعندما يرى رب العائلة البرتقال في طريقه ، ينفجر باكيا . ولم يستطع احتمال خزي المنفى : بلا عمل ، بلا سلاح ، وبلا أهل (فقدت حتى ايمانه بالله) ، يتمنى الموت ، وهكذا نجده يحتضر والى جانبه برتقالة جافة .

المنفى هنا هو اليائس ، الانسان الذي حارب ، والذي اقتلع ، وانمرغ من جوهره الانساني مثل ثمرة انتزعت عن غصنها . حتى الله يصبح في نظره منفيا ، بعد ان اضاعه خلال الرحيل : « لم اعد اشك في أن الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الآخر ، وانه لا جيء في حيث لا أدري ، غير قادر على حل مشاكل نفسه ، واننا نحن ، اللاجئين البشر ، القاعدين على الرصيف منتظرين قدرا جديدا يحمل حلاما ، مسؤولون عن ايجاد سقف نقضي الليل تحته » (٥٤) .

بالنسبة لموضوعة **الشعور المعذب للمنفى** ، نجد هنا تغيرا هاما لها ، الا وهو كبرياء المنفى الذي يفضل الموت على الخزي .

ولكي نلخص اعمال غسان كنفاني لفترة سنوات الخمسين ، سبق وقلنا انه كان يبحث عن تحديد ايديولوجي . لقد كتب كنفاني معظم هذه القصص بين سنتي ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ في دمشق والكويت ، اي عندما كان يعيش تجربة المنفى ، وفي نفس الوقت كان يعمل على تثقيف ذاته . زوده هذا التثقيف الذاتي بموقف ازداد اكثر فأكثر وضوحا الى ان أصبح ماركسيا - لينينيا ماضلا .

وهذا ما قائلته زوجه حول سنواته في الكويت : « تابع غسان عمله السياسي خلال السنوات الست التي قضاها في الكويت ، وكان يعلم الرسم والرياضة . وفي الحقيقة ، تشهد هذه السنوات بأهميتها العظيمة في حياته ، اذ كان يمارس اثناء فراغه الرسم والكتابة والقراءة - قراءة الاعمال السياسية ، خاصة ماركس ، انجلز ، لينين . . وغيرهم » (٥٥) .

(ب) بيروت : اول اشارة لفهم عميق

ب ١) رجال في الشمس

في سنة ١٩٦٠ اتى غسان كنفاني بيروت ، وعاش حياة غير مستقرة : دون جواز سفر ، ولا اذن عمل ، ولا مصدر مالي يعتمد عليه ، رغم عمله في جريدة الحرية ، وكان يشكو فوق هذا من مرض السكري . وقد عكست لقامته الاولى في بيروت شعور عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي اتسمت به هذه المرحلة في دمشق والكويت ، ولكن بشيء من تحديد النظر ، والبحث عن جواب لاسئلته .

من هنا كانت رواية « رجال في الشمس » الذي كتبها غسان كنفاني مختبئا سنة ١٩٦٢ ، لتأزم الوضع السياسي آنذاك . نفس الموضوعة تسيطر دوما ، أي **شعور المنفى المعذب الذي ينعطف الى الوراء** ، ولكن بشيء متطور أكثر نحو اكتشاف حقيقة المنفى ، وصلب الألم ، ليجد الفلسطيني خلاصه .

وقبل ان نعرض الجوانب الأخرى لموضوعة المنفى ، أي الدوافع التي أعطتها ، كذلك الصور التي عكستها ، يجدر بنا ملاحظة ما سبق لنا قوله عن قصة « أرض البرتقال الحزين » ، عندما اعتبرناها رواية صغيرة ، أي رأينا فيها ممرا نوعيا الى الرواية ، وهذا ما أعطى بالفعل رواية « رجال في الشمس » . ولو دققنا النظر لوجدناها

تجوي — مقسمة الى فصول — عدة قصص ، ولولا خط الاحداث الواصل ما بينها ، لاعتبرنا كلاً منها رواية صغيرة ، فيها ميزات مستقلة « كأرض البرتقال الحزين » . لهذا نرى ان « رجال في الشمس » ليست رواية كاملة بالمعنى الادبي ، بل فيها ملامح القصة القصيرة ، مثلما رأينا ان « أرض البرتقال الحزين » ليست قصة فقط ، بل لها ملامح الرواية .

ان « رجال في الشمس » عمل ادبي انتقالي نحو رواية فلسطينية ناجحة ، وهي في نفس الوقت تمثل المرحلة الانتقالية التاريخية ذاتها ، من عدم الاستقرار الاجتماعي والايديولوجي الى الاستقرار الاجتماعي الايديولوجي ، كأول اشارة للفهم الاكثر عمقا للواقسح .

نجد في الرواية صورتين فنييتين مترافقتين على الدوام ، على الرغم من تناقضهما . احدهما تمثل الماضي الخصب المفعم بالكرامة ، الا وهي صورة **الأرض الخضراء** ببرتقالها وزيتونها ، والاخرى تمثل الحاضر الصعب المفعم بالمشاق الا وهي صورة **الصحراء القاحلة** بحرارتها ورمالها .

وملخص الرواية ان ابطالها يقطعون الصحراء مهربين الى الكويت **للحصول على ثروة** ، تمكنهم من قلب الحاضر الصعب الى ما كانوا عليه من ماض رغيد . لكن هذه العملية اللاعقلانية تكلفهم الموت ، اذ يلقون حتفهم عند حدود الكويت ، دون ان يصلوا الى غرضهم .

ان انتصار الصحراء ، أي الحقيقة اللاسعة ، على ما هو وهم ، وزوال صورة الارض الخضراء يمثل هذه النهاية التراجيدية ، له دلالات عميقة : انها بداية الشعور بالوعي الذي يقربان الصحراء وما ترمز اليه من وعورة المسار لا يمكن اجتيازه والتغلب عليها الا بمواجهة حقيقية ، وليس بالهرب سعياً وراء **ثروة سهلة** .

أما الدوافع التي شكلت موضوعة المنفي هنا فهي كثيرة ، وقد عبرت عنها ميزات الشخصيات ، فكان دافع **الإنانية وعدم الشرف** اللذين اتصف بهما ابو الخيزران :

« — استطيع ان اهريك الى الكويت .

.....

— كم ستأخذ مني ؟

.....

— كم بوسعك ان تدفع ؟

— خمسة دنائير .

— فقط ؟

— لا أمك غيرها .

— حيناً ، ستقبلها .. ولكن لا تقل ذلك لاي انسان . اعني اذا طلبت من رجل آخر عشرة دنائير ، فلا تقل له انني أخذت منك خمسة فقط » (٥٦) .

كذلك دافع **الخضوع للقدرية** الذي اتصف به ابو قيس ، فهو عاجز عن السيطرة على شروط وضعه البائس ، وقضي وقته واهما منتظرا ان تنقذه المعجزات : « وراء هذا الشط توجد كل الاشياء التي حرماها . هناك الكويت ، الشيء الذي لم يعيش في ذهنه الا مثل الحلم والتصور » (٥٧) .

وايضاً دافع **النسبية** التي اتسم بها أسعد ، فهو متحمس لقضيته ، لكن حماسه

أجوف دون قاعدة حزبية متينة ، فجاء دعمه للقضية محدودا ، وحينما أحس بالخطر يداهمه ، ترك كل شيء هاربا : « لماذا تهربون من هناك ؟ . . — انها قصة طويلة » (٥٨) .
 واخيرا دافع **المغامرة** التي انقذت مع أهوالها مروان الفتى المراهق ، لتحقييق المستحيل الذي تعجز عنه امكانياته وقدراته : « كان يريد ان يعرف سبب ذلك الشعور البعيد الذي يوحي له الاكتفاء والارتياح ، شعور يشابه ذلك الذي كان يراوده بعد ان ينتهي من مشاهدة فيلم سينمائي ، فيحس بأن الحياة كبيرة وواسعة ، وانه سوف يكون في المستقبل واحدا من أولئك الذين يصرفون حياتهم ، لحظة اثر لحظة ، وساعة اثر ساعة ، بامتلاء وتنوع مثيرين » (٥٩) .

من هنا ، لم يكن الموت تقديرا ، بل كان حتميا . فمثل هذه الشخصيات المستسلمة المهزومة ، التي ربطت مصائرهما مع ما هو وهمي ولا اخلاقي ، هي نتاج للمنفى ، مثلما كان المنفى نتاجا للموت . واكتمال المعادلة امر عادي جدا ، رغم ما فيها من تعقيد : اشارة متطورة نحو تفهم أشمل وأعمق لهذه المرحلة .

ب ٢) عالم ليس لنا

تستوجب هذه المجموعة الصادرة سنة ١٩٦٥ ترتيبها ضمن هذه الفترة، حيث تطغى موضوعة المنفى بشكل أكثر تطورا ، اخترنا منها ثلاث قصص ، عنوان الاولى « جدران من الحديد » ، والصورة الشعرية التي تعطينا اياها تشرح نفسها بنفسها ، اذ هي صورة **الطائر في القفص** : حكاية طائر يضرب بجناحيه قضبان قفصه دون انقطاع ، حتى عندها يقدمون له قفصا اكبر ، ويوقف ضرباته لحظة ان يبدأ احتضاره .

وبالنسبة لموضوعة المنفى ، فان هذه الحكاية تصفه كالسجن ، لكن النهاية غامضة : هل يموت الطائر لانه استنفذ قواه ، او هل يموت لانه توقف عن الضرب ؟

القصة الثانية « كفر المنجم » تعطينا صورة شعرية تذكر بمضمونها صورة اللؤلؤة في المحارة الاخيرة ، وهي تروي ايضا البحث عن ثروة يتوج بنجاح مبتغيها ، ولكن على حساب كرامته . المقصود هنا جمع **الذهب المدفون بالبصاق** ، صورة هذه القصة التي تتبنى تكنيك الاساطير بسردها مغامرة رجل شاب اراد ان يجرب حظه للهمرة الاخيرة قبل ان ينتحر ، فيبحر نحو مدينة من الذهب وسط البحر ، وهناك يجمع ذهبا كثيرا مطمورا بالبصاق الاسود . ان **دافع فقدان الشخصية بواسطة النقود** يظهر واضحا جدا للهمرة الاولى ، وهذه اشارة اخرى لتفهم أكثر عمقا للنضال الاجتماعي الذي تتضمنه مشكلة شعبنا .

وكذلك فان فهم دافع « **الفلسطيني الذي يبيع نفسه** » هو ايضا عبارة عن الشعور بالوعي ، الوعي بالمستقبل الذي بدأ أكثر فأكثر يمثله . فاذا كان الكاتب يطرح مسألة ذاك الذي ضاع من أجل قضية الشعب ، فهو يطرح في نفس الوقت مستقبل وطريق هذه القضية .

قصتنا الثالثة « العروس » تتجه بشكل واضح نحو المستقبل ، حكاية رجل يبحث في كل مكان عن عروسه ، له هيئة مجنون ، لكنه مقاتل قديم اصاع بندقيته . ونجد بهذا مطابقة بين صورة العروس وصورة البندقية التي تميز الكفاح بسمة جديدة ، اذ ان امل وخلص هذا المقاتل الشاب يوجدان في نصفه الآخر ، أي في بندقيته : « ابحت معي عنه (عن هذا المقاتل) حيث انت ، فلدي أخبار جديدة عن العروس » (٦٠) .

والجدير ملاحظته ان هذه القصة كتبت سنة ١٩٦٥ ، السنة التي كانت فيها انطلاقة الثورة .

يجدر بنا القول ان غسان كنفاني في هذا التاريخ قد أصبح عضوا في حركة القوميين العرب ، وأخذ منصب رئيس تحرير جريدة المحرر عام ١٩٦٣ ذي الاتجاه الناصري ، وكانت أعماله في هذه الفترة تمثل بالفعل المرحلة الانتقالية في بحثه عن تحديد ايدولوجي واضح .

وان التطور الايدولوجي في أعماله ، الذي لازم التطور التاريخي لمسار الشعب الفلسطيني ، يلتقي مع انطلاقة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٥ ، لبيدا الطريق الجديد ، نحو استقرار ايدولوجي واجتماعي ، مع ملاحقة مؤقتة ، لشعور المنفي المعذب ، ولكن الذي ينعطف الى الامام .

ج (بيروت نحو استقرار اجتماعي وايدولوجي

ج (١) ما تبقى لكم

كان انتاج غسان كنفاني في الفترة ما بين انطلاقة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٦٥ وسقوط انظمة البورجوازية الصغيرة بعد حرب ١٩٦٧ ينمو وينضج مع نمو ونضج المرحلة الثانية لحركة التحرر الوطني . وقد ميز هذه الفترة الشعور بالوعي ، وان تجاوز الحاضر البائس الى مستقبل زاهر لن يتم الا اذا تحرك الفلسطيني بنفسه ، ودون اعتماد على احد ، لمواجهة العدو السياسي والاجتماعي .

لقد أدرك غسان كنفاني في الفترة التي كان فيها ناصريا ، ان مصر او اي بلد عربي آخر ، لن يتحرك لتحرير فلسطين ، ما لم يتحرك الفلسطيني نفسه وبارادته الحرة على طريق التحرير ذاته . فكانت الموضوعة الرئيسية الثانية التي شملت انتاج هذه الفترة هي : شعور المنفي المعذب الذي ينعطف الى الامام .

من هنا جاءت رواية « ما تبقى لكم » سنة ١٩٦٦ ، التي اكدت فيها عناصر الرواية ، وأعطت مضمونا شاملا للتحول السياسي في هذه الفترة ، والنفوذ الى استقرار اجتماعي وايدولوجي يكون قاعدة انتقال من ثورة وطنية ديمقراطية الى ثورة اجتماعية .

وملخص الرواية : حامد يقطع الصحراء في طلب أمه (فلسطين) ، وهو في الطريق يلتقي بأحد الجنود الصهاينة ، يخلصه سلاحه ، ويتصدى له وجها لوجه . في الوقت الذي تقتل مريم — أخت حامد — زكريا الخائن ، الذي تزوجته بعد ان اعتدى عليها .

الدوافع كلها ايجابية ، كذلك الصور الفنية . صورتان هما ذاتهما اللتان في رواية « رجال في الشمس » ، اي الارض بجنانها وخيراتها ، والصحراء بشمسها ورمالها ، مترافقتان دوما ، ولكن ، ليستا متناقضتين ، بل تسعيان نحو بعضهما البعض ، حتى تكاد الواحدة ان تمتزج في الاخرى . الارض الخضراء التي تمثل فلسطين هي الام التي يذهب اليها حامد طوعا وبارادته — بعد ان جعلته شروط الحياة التعسفة في المخيم واعيا — لانقاذها ، او بالاحرى ، لتحريرها ، مواجها احوال الصحراء . هذه الصحراء التي تتعاطف معه « ومجأة ، جاءت الصحراء . رآها الان لأول مرة مخلوقا يتنفس على امتداد البصر ، غامضا ومريعا وأليفا في وقت واحد » (١١) وتصبح طوع يديه ، ويصبح جزءا من جسدها . « فأحس بدنه يعلو ويهبط فوق صدرها » (١٢) وهذا يستحيل الا مع ارضه ذاتها . وبما انه ذاهب من اجل مهمة فيها خلاص حقيقي من الواقع المعذب الذي يحياه ، تساعده الصحراء على العبور ، تعطيه الحياة وليس الموت مثلما حصل مع « رجال في الشمس » ، وتصبح مثل ارضه : لها طبيعة تربتها اللينة، وحرارتها اللطيفة .

صورة أخرى ايجابية هنا ، هي صورة **طريق الكفاح المسلح لتحرير فلسطين** ، وقد رافق هذه الصورة دافع **خلق حياة جديدة** تستجيب مع الموضوعة الرئيسية وتؤكد التجاوز والانعطاف الى الامام . هذا التجاوز يظهر بشكل متطور كدافع لما تميزت به شخصية مريم : **تجاوز الحرمان والذاتية** ، الذي يتبع الشعور بالبوؤس والخلاص منه بالممارسة لا بالتدريية .

وقد حققت مريم ذلك لحظة ان قتلت الخائن زكريا : العدو الثانوي وأحد اسباب الهزيمة السياسية والاجتماعية ، في الوقت الذي يقف أخوها في منتصف الصحراء ، منتصف الطريق الى فلسطين ، وجهها لوجه مع الجندي الصهيوني ، العدو الاساسي ، من أجل القضاء عليه . (في منتصف الطريق ، ووجهها لوجه مع العدو بانتظار الحركة التالية) هذا يفسر أولى خطوات الثورة .

ج ٢) عن الرجال والبنادق

وتأتي سنة ١٩٦٨ لتعطي عملا أدبيا جديدا ، ويعود الكفاح ضد الاحتلال الصهيوني قبل نكبة ١٩٤٨ ليشمل القسم الاول من الكتاب . أربعة فصول متسلسلة تحكي الماضي البطولي بكل ايجابياته . وهي اذ تتعرض لسلبيات هذا الماضي انما تسحب منها العبرة ، لحاضر بدأ التنظيم الثوري يأخذ مدها . ولاول مرة تبدو صورة **البندقية الفلسطينية** واضحة المعالم ، قوية ، وجميلة ، في قبضة المقاتل . أحدهما لا غنى له عن الآخر . أحدهما يستمد هويته وشخصيته من الآخر . كذلك فان أحدهما لا معنى له دون الآخر . ان كليهما يكتمل بالآخر ، وهكذا جاء ذلك الذوبان بين **صورة البنادق وصورة الرجال** الذين يحملون البنادق دفاعا عن فلسطين . وهناك ذوبان أيضا بين الماضي البطولي ، والحاضر البطولي بعد انطلاقة الثورة الفلسطينية ، فالقصة قصة الكفاح المسلح . لهذا أمكن لغسان كنفاني « تعصير » أحداث ووقائع الماضي باعطائها طابع أحداث ووقائع الحاضر . حقا انها تمثل مرحلة ماضية من النضال ، لكنها في ذات الوقت حافز لنضال المرحلة الحاضرة . من هنا يمكننا استنتاج دافع **استرداد الثقة** الذي أعطته موضوعة المنفى الذي ينعطف الى الامام . كذلك دافع **الاستمرارية** بعد اجتياز المرحلة الانتقالية ، لغاية التحرير . اذ لم يعد المنفى تلك الصحراء ذات الاهوال والصعاب ، وانما الذي يمكن اجتيازه ، مع الاستمرار في العبور ، طالما في القبضة بندقية ، وللثورة هدف واضح يرمي المقاتل الى تحقيقه .

وهذا ما نجده في القسم الثاني من الكتاب ، المؤلف من اربع قصص قصيرة ، يعيد فيها الكاتب تطور الكفاح الاجتماعي والسياسي بمراحله التي سبق ان تعرضنا لها — في المنفى : المخيم حيث الضياع والبوؤس (١٢) ، الشعور بالوعى (١٤) ، مواجهة الاحتلال الصهيوني (١٥) ، الايمان بالبندقية كناية عن الكفاح المسلح (١٦) . وتحدد معالم هذا التطور بصورة أدق وأشمل في انتاجات الكاتب اللاحقة .

مع انتهاء هذه المرحلة ، يبدأ غسان كنفاني مرحلة الكاتب والمناضل الثوري . فبعد حرب الستة أيام ١٩٦٧ استقر فكره السياسي والايديولوجي ، اذ أصبح ماركسيا — لينينيا ، وقائدا من قادة الثورة الفلسطينية ، الناطق الرسمي باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، الى جانب مهمات رئيس تحرير مجلة الهدف ، لللسان المركزي للجبهة .

٢) مرحلة الكاتب والمناضل الثوري

١) بيروت : اجتماعية ، سياسية ، ثقافية

١١) عائد الى حيفا

الاعمى والاطرش

لاحظنا ان التطور الايديولوجي والسياسي لغسان كنفاني قد رافق التطور التاريخي والاجتماعي للقضية الفلسطينية ، وبالتالي كان تطور الموضوعات الرئيسية في أعماله الادبية . وفي هذه المرحلة التي تحددت فيها المعطيات التاريخية للثورة ، تأتي موضوعة **المناضل الثوري** ، كتعبير حي وموضوعي للواقع التاريخي الحاضر . وتتعدد جوانبها ، ليأخذ كل جانب قسما من انتاج هذه المرحلة . تنتم ببعضها البعض ، بحيث ترتقي في ثلاث درجات ، صعودا نحو مفهوم اجتماعي عميق للثورة .

واكثر ما يتناسب مع القسم الاول من الانتاج روايتا « عائد الى حيفا » (١٩٦٩) و« الاعمى والاطرش » (١٩٧٢) رغم صدورهما في تاريخين متباعدين .

في الرواية الاولى يذهب البطل بعد هزيمة ١٩٦٧ بصحبة زوجته الى حيفا بحثا عن ولده الذي تركه رغما عنه صغيرا في المهدي وهاجر سنة ١٩٤٨ . عندما يصل بيته يجد فيه عجوزا يهودية اشرفت على تربية الطفل ، فنشأ وترعرع في كنفها ، ولم يقبل دونها أما ، ولا دون زوجها ابا ، وصار جنديا في الجيش الاسرائيلي .

الصورة الفنية هنا ، **ابواب مدينة حيفا المفتوحة للمهزومين** ، والبطل في طريقه اليها ، كان يتحدث طول الوقت لزوجته عن بيته وابنه والبحر ، كان يتحدث عن الماضي الذي فتحت الهزيمة ابوابه على المصراعين ، والذي يجد نفسه مجبرا — رغم ارادته او بارادته — على الدخول فيه . لكن العودة الى الماضي بشكل حقيقي وملهموس ، وليس عن طريق الحلم ، تنكشف دونه الحقيقية ، فيكشف الماضي عن الحياة : « كنت اتساءل فقط . افتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي اكثر من ذاكرة ، اكثر من ريشة طاووس ، اكثر من ولد . . » (١٧) .

بل تصبح معايشة الماضي عاملا ثوريا ، اذ يتمنى الاب ان يكون ولده الثاني قد انخرط في حركة المقاومة ، واصبح فدائيا .

ان دافع **الانخراط في الثورة** هو جانب من جوانب موضوعة المناضل الثوري ، وهو تأكيد على عدم تكرار خطأ ١٩٤٨ ، وان الفرق بين هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ ان الماضي ينتهي بلا رجعة وان الحاضر مفعم بالامل ، والهزيمة هزيمة للهزيمة ، فلا رحيل جديد ، ولا شتات آخر ، بل تنظيم واستعداد .

وفي الوقت الذي يحصل فيه الطلاق الابدي بين الفلسطيني والماضي/الوهم الذي تنتجه النكبة الاولى ، يجتاز الفلسطيني ايضا بؤس المخيم واغترابه المتمثل في « العمى » و« الطرش » . هذا العهد الذي يمتد بين النكبتين ، يصبح في عداد الماضي الميت ايضا في رواية « الاعمى والاطرش » : ابنا المخيم اللذان كانا يطمعان في الشفاء على يدي احد الاولياء الدجالين ، فيكتشفان ذلك عند لحظة الشعور بالوعي ، وان كل ما هو ميتافيزيقي وغيبى لا صلة له مع الواقع ، والخيار الوحيد هو الثورة .

لهذا نرى ان **صورة الليل والصمت** اللذين يرمزان الى العمى والطرش ، تحوي ضمنا النهار والصرخ اللذين يعبران الحياة الجديدة والغضب الثوري الباعث لهذه الحياة ، حيث يكمن الدافع المسيطر في هذه الرواية .

وهكذا فقد : ١ — تحددت **الثورة الاجتماعية** بادراك ثوري للشروط الاجتماعية الفردية لحالة البؤس ، نحو ادراك طبقي و ارادة جماهيرية فعالة : « نستطيع مثلا أن نذهب فنحطم قبر الولي . . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى (مدير مكتب الاعاشة) ونرغمه على الزواج من زينة (التي اعتدي عليها) نستطيع ان نلقي خطابا في جموع اللاجئين . . نستطيع أن نفعل ذلك وأكثر . نستطيع أن نعود الى الطيرة (في فلسطين المحتلة) . ألا نستطيع ؟ » (٦٨) .

٢ — تحددت **الثورة السياسية** بالمقاومة كتنظيم وكمفهوم ثوريين ، المعسودة باستراتيجية حرب التحرير الشعبية الطويلة النفس : « تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتنا ، فذلك شيء تحتاج تسويته الى حرب . . أرجو أن يكون خالد قد ذهب (ليشارك في العمل الفدائي) » (٦٩) .

٣ — تحددت **الثورة الثقافية** بوضع حد للمعايير الميتافيزيقية والغيبية ، وان الحقيقة هي الممارسة : « ورأيت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في أكتافهم وراء هذا الباب . يكورون قبضاتهم فتصبح مثل الصخور بصفد ، ويستعدون » (٧٠) .

٢١ (العاشق)

برقوق نيسان

من حصة هذا القسم الانتاج الادبي لسنتي ١٩٧١ ، ١٩٧٢ « العاشق » و « برقوق نيسان » على التوالي . هناك عودة الى الماضي ، ولكن **الماضي المشبع بدافع النضال والصمود** ، الذي استخلصناه من رواية « العاشق » . يوازيه **الحاضر المشبع بدافع النضال والصمود** في رواية « برقوق نيسان » .

ان الحركة الديالكتيكية بين الماضي — الهزيمة قبل وبعد ١٩٤٨ ، تقابلها حركة ديالكتيكية بين الماضي — النضال والحاضر — النضال ، والتي اصطدمت — لتناقضها الجوهرية — مع الحركة الاولى أيضا ديالكتيكية ، وتجاوزتها لتحدد مع كل ما يغلي فيها من عوامل ايجابية المرحلة الحاضرة للثورة .

ونلمس التحام تاريخ **النضال والصمود** في التحام المقاتل الفلسطيني على امتداد هذا التاريخ . « فالعاشق » هو « قاسم » الذي حارب الاقطاعية والاستعمار البريطاني قبل سقوط فلسطين ، وداوم على الهرب والاختفاء في الجبال والحقول خوفا ان يقع في شباكهما ، وهو « قاسم » (ليس اختيار الكاتب لاسم البطل عقويا) نفس المسحوق في « برقوق نيسان » الذي قتله الصهاينة بعد سقوط الضفة الغربية لكونه فدائيا . ان امتداد جسد المقاتل الفلسطيني ليملاً تاريخ النضال ، امتداد جسد الفلاح الفلسطيني كجذع متين للثورة ، يعطي معنى التقييم المادي والنفسي والطبقي لهذه المرحلة . ويتجسم هذا في التحالف القائم بين طبقة المسحوقين وطبقة المثقفين الثوريين كما في « برقوق نيسان » لمحاربة العدو الصهيوني في الاراضي المحتلة .

ان الصور الجمالية صور طبقية ، **فزهو البرقوق الاحمر** مخضبة بلون الدم : دم الفلاح : دم الطبقة المسحوقة ، وهي انعكاس صادق لجمالها . حتى ان الطبيعة هنا والربيع ايضا ، طبيعة و ربيع الطبقة التي أعطت كل قواها ، وتعطي دمه ايضا من أجل الخصب : « بدن الارض مثل بدن رجل مثقوب بالرصاص ، يتضرج بزهر البرقوق ، ويكاد يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته ، ولا ريب ان قاسم بدا كذلك بعد هنيئات من

سقوطه ، ثم ذبلت بقع الدم على سنترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقدة أوراق البرقوق الهشة « (٧١) .

ان صورة **زهرة البرقوق الاحمر** هي في دلالتها العميقة صورة فلسطين المحتلة ، ذات الجروح ، ولكن الصامدة والحمراء والمزهرة ، ولونها لون المقاومة المتأجج .

كذلك صورة **نار العاشق الحمراء** في رواية « العاشق » ، النار التجريدية ، نار الهوى ، والنار العينية نار اللهب : « أحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي ، وكدت أسمع نزيز الدم ينطفئ بصوت مسموع تحت بدني . . . وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب ، وسمعت نبض قلبي جنباً الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين ، وقلت بيني وبين نفسي : نبي أو مجنون ! » (٧٢) .

ان امتزاج الصورتين يعطي امتزاج **الدم والنار** : امتزاج العطاء وحدة العطاء : امتزاج ارض البرقوق وزارع البرقوق : امتزاج مرحلتين من تاريخ النضال الفلسطيني الايجابي ضمن الفعل التاريخي الدافع الى الامام .

وهكذا فقد : ١ - تحددت **الثورة الاجتماعية** بادراك طبقي للمعركة الاجتماعية ، نحو ادراك جماعي جذري : « ثمة أمور كبيرة تجري ، وهو بلا ريب يلعب فيها دورا كبيرا . . . على انه يتقن من ان هذا الرجل . . . هو الذي ينبغي ان يقود خطواته منذ هذه اللحظة (في المواجهة الثورية القائمة) » (٧٣) .

٢ - وتحددت **الثورة السياسية** بانساع قاعدة المقاومة الشعبية في اوساط الطبقة المسحوقة ، وامتداد التنظيم السياسي والعسكري داخل الاراضي المحتلة الذي ادى الى مواجهة يومية باسلة مع العدو : « كانت تشمر بشيء من الاعتزاز حين كلفت القيام باتصال صغير في نابلس (الارض المحتلة) . . . وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة الى مرتبة قيادية في نابلس » (٧٤) .

٣ - تحددت **الثورة الثقافية** بمساهمة المثقفين الثوريين في القيادة ، واعطاء الكفاح المسلح مضمونا علميا ماركسيا - لينينيا : « كان زياد عضوا قديما في الحزب الشيوعي . . . وكان يعتبر من المثقفين الاكثر اطلاعا في نابلس » (٧٥) . « ان المفتاح في يد الاستاذ زياد ، وهو وحده الذي يجيب على هذه الاسئلة » (٧٦) . المفتاح هو الفكر الثوري ، والاسئلة هي متطلبات الكفاح المسلح الملحة في حركته المتطورة .

٣١) أم سعد

هذه الرواية هي الجواب الذي كلف غسان كنفاني كل انتاجه الادبي . وهي الجواب لمسار مليء بالشوك منذ أن بدأت معاناة الشعب الفلسطيني الاولى . انها التجسد الواعي الكامل لموضوعة **المناضل الثوري** بكل دوافعها . وهي تعبير عن التطور الجدلي للمرحلة الثانية من تاريخ الثورة الفلسطينية نحو الاشتراكية . رواية « أم سعد » هي رواية الثورة الاجتماعية ، الرواية « الجمعية » التي عبرت عن الانسان الفلسطيني الجديد .

ولغناء العالم الذي تمثله الرواية ، نجد هناك تسعة فصول كل منها عبارة عن لوحة ، أو صورة ، رسمتها أم سعد الفلاحة الفلسطينية الفقيرة . تظهر ملامح الصورة الاولى في العنوان الذي أعطاه الكاتب « أم سعد والحرب التي انتهت » : أي صورة حرب ١٩٦٧ التي انتهت . تقابل أم سعد الهزيمة بارسال ولدها لينخرط في حركة المقاومة وترزع دالية عنب صادفتها في الطريق .

وتكمن الصورة الثانية أيضا في عنوان الفصل الثاني ، خيمة عن خيمة تفرق ، اي : **خيمة البؤس وخيمة الفدائي** . تقارن ام سعد بينهما ، وتقرر أن خيمة الفدائي هي الخيمة التي يجب أن تضم الجميع : « لو لم يكن لدي هذان الطفلان للحتقت به (ولدها الفدائي) . لسكنت معه هناك . خيام ؟ خيمة عن خيمة تفرق . لعشت معهم ، طبخت لهم طعامهم ، خدمتهم بعيني .. » (٧٧) .

الصورة الثالثة هي صورة **المطر والرجل والوحد** عنوان الفصل الثالث، عن الصمود في الوحد والمطر اللذين قضت ام سعد في جرفهما طوال الليل ، والرجل الفدائي الذي أتاه لينقل أخبار ولدها وهو يقوم بالعمليات ضد الجيش الاسرائيلي .

أما الفصل الرابع : « **في قلب الدرع** » ، الصورة التي نشاهدها حينما يقاتل سعد ورفاقه العدو في قلب الحقل ويعون أهل القرية ، مشكلين معا درعا يحميهم . أما صورة **الذين هربوا والذين تقدموا** فهي تشير الى أصحاب السيارات اللوكس ، الطبقة البرجوازية التي هربت وقت الغارات ، وطبقة الفقراء التي تصدت للطائرات وصمدت في أماكنها .

وصورة **الرسالة التي وصلت بعد ٣٢ سنة** ، عنوان الفصل السادس ، هي رسالة انذار بالقتل من فدائي اليوم لاقطاعي خان الثورة سنة ١٩٣٦ بقتله فدائي الامس ، لئلا يكرر فعلته . لم يتغير الفدائي بالطبع ، كذلك البندقية ، لكن الذي تغير وعي وارادة فدائي اليوم ، كاتب رسالة الانذار التي كان من المفروض ان يكتبها فدائي الامس منذ ٣٢ سنة ، فيحول دون انطفاء ثورة ١٩٣٦ .

ويمكن ايجاز صورة واحدة للثلاثة فصول الباقية ، بصورة **الانسان الفلسطيني الجديد في المخيم الجديد** : « عينك عالشباب في المخيم ، كل واحد منهم يحمل مرتينة او رشاشا ، والكاكي في كل بيت » (٧٨) .

هذه هي جماهير الثورة ، قوتها المادية الهائلة . ان دافع **التحول** تغنيه هذه الحركة الهادرة على الدوام . ودافع **التقدم الى الامام** يأخذ معناه من دفعات ذراعي الامم الفلسطينية التي تحمل البندقية بيد ، وتجرف الوحد بيد . كذلك فان دافع **الوفاء للوطن لا ينفصل عن الفداء** ، لان الثورة في العملية التاريخية تأخذ ابعادها من التضحية التي يبذلها الانسان .

وهكذا فقد : ١ — تحددت **الثورة الاجتماعية** بادراك جمعي جذري له ابعاده الاشتراكية العريضة ، وارادة جماهيرية خلقة : « وحدي ؟ كل نساء المخيم وأولاده وشبابه خرجوا كأنهم اتفقوا على ذلك سلفا ، ووقفنا جميعا هناك » (٧٩) « وبسرعة انتشروا كالاشباح ، على طول الطريق ، ينظفونه من العرائيل » (٨٠) . « اطفال المخيم وبناته ورجاله يقفرون عبر النار ، ويزحفون تحت الاسلاك ، ويلوحون بأسلحتهم » (٨١) .

٢ — وتحددت **الثورة السياسية** بما توجهه الثورة الشعبية من تغيير في الفعل السياسي والعسكري يتفق مع مطامح وآمال الجماهير : « اما الآن فقدت تغيير كل شيء . . (انه يتحدث) عن الكلاشينكوف الذي كان يفضل ان يشير اليه بمجرد كلمة « كلاشن » مثلما يفعل سعد حين كان يزورهم » (٨٢) .

« ترى ذلك الولد الذي يرفع المرتينة ؟ انه ابني سعيد .. واخوه الكبير سعد مع الفدائيين في الاغوار .. هذه المرأة تلد الاولاد فيصرون فدائيين .. وتغير ابو سعد منذ تلك الظهيرة .. قالت لي ام سعد : الحالة صارت غير . الزلة قال لسي انه صار للعيشة طعم الآن ، الآن فقط » (٨٣) .

٣ - وتحددت **الثورة الثقافية** بذوبان المتقف في المقاتل ، والمقاتل في الجماهير ، ليعطي وحدة جدلية يكون فيها نبضها الثوري : « اننا نتعلم من الجماهير ، ونعلمها .. المعلم الحقيقي الدائم ، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءا لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض القلب » (٨٤) .

لم تنته بعد هذه المرحلة من عمر القضية الفلسطينية الممتلئة بالنضج الثوري ، ولن يكتب لغسان كنفاني ، الكاتب والمناضل الثوري ، ان يرافقتها ويتطور فكره السياسي والايديولوجي اكثر معها ، بعد ان انقطع انتاجه الادبي بمقتله في بيروت يوم ٨ تموز ١٩٧٢ ، فكانت الاعمال الادبية الخلاقة التي تركها ، هي كل ما استطاع ان يقدمه لفلسطين .

- ١ - وزارة الارشاد القومي : قضية فلسطين (دمشق : مصلحة الاستعلامات ، ١٩٦٨) ص ٥١ .
- ٢ - المصدر السابق ، ص ٥٤ .
- ٣ - ناجي علوش : الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٤) ص ١٤٩ .
- ٤ - اميل توما : جذور القضية الفلسطينية (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٢) ص ٢٢٨ و ٢٣٥ .
- ٥ - ناجي علوش : المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
- ٦ - ساجي الجندي : عرب ويهود (بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨) ص ٥٩ .
- ٧ - هشام شرابي : المقاومة الفلسطينية في وجه اسرائيل وأمريكا (بيروت : دار النهار ، ١٩٧٠) ص ٢٠٣ .
- ٨ - زكي الحاسني : طوقان شاعر فلسطين (القاهرة : دار الفكر العربي ، بدون تاريخ) ص ١٧٣ .
- ٩ - هشام شرابي : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .
- ١٠ - اميل توما ، المصدر السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .
- ١١ - هاني مندس : العمل والعمال في المخيم الفلسطيني (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧٤) ص ١٣ .
- ١٢ - معين محمود : الفلسطينيون في لبنان (بيروت : دار ابن خلدون ، ١٩٧٣) ، ص ١٠ .
- ١٣ - المصدر السابق ، ص ١١ .
- ١٤ - حديث لناطق رسمي من فتح : النيويورك تايمز ، ٢ كانون الثاني ١٩٦٨ ، ص ٦ .
- ١٥ - مجلة الثورة الفلسطينية : عمان - ايلول ١٩٦٨ ، ص ١١ .
- ١٦ - المصدر السابق ، ص ٥ .
- ١٧ - مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ، القاهرة ، كانون الثاني ١٩٦٨ ، المادة ١٢ .
- ١٨ - المصدر السابق ، المادة ٢٢ .
- ١٩ - هشام شرابي : المصدر السابق ، ص ٢١٥ - ٢١٩ .
- ٢٠ - باشراف نبيل شعك : المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٧١) ، ص ٢٧٩ .
- ٢١ - ياسر عرفات : خطبة ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، مجلة فلسطين الثورة ، العدد ١١٨ / بيروت ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، ص ١٢ .
- ٢٢ - اميل توما : المصدر السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- ٢٣ - المصدر السابق ، ص ٢١٧ .
- ٢٤ - المصدر السابق ، ص ٢١٨ : الامور نفسها بالنسبة لسوريا حيث شن اضراب عام سنة ١٩٣٦ « وانتهى هذا الاضراب بعد حوالي خمسين يوما في مطلع آذار ١٩٣٦ ، بعد ان تفهدت الحكومة الفرنسية باعادة الحياة النيابية الى سوريا ، وعقد اتفاق مع حكومة تومية ، ينص على الاعتراف باستقلال البلاد » .
- ٢٥ - عباس محمود العقاد : عقيرة عمر ، (القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٤٨) ، ص ١١ .
- ٢٦ - المصدر السابق ، عناوين لبعض الفصول .
- ٢٧ - جلال فاروق الشريف : الشعر العربي الحديث والتحديات الجديدة ، مجلة الموقف الادبي ، رقم ٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٧ .
- ٢٨ - خليل السواحري : مقهى الباشورة ، مجلة أفكار / عمان .

- واقعية . وهكذا تقوم كل من الموضوعية والصورة
في منهجين مختلفين للمضمون الواحد ، الأولى
في المنهج الايديولوجي والثاني في المنهج الجمالي ،
وبالتالي فهما تمثلان الشمول الاعظم — ثلاثكار
والجمال — للعمل الادبي .
- ٤١ — غسان كنفاني : **الاثار الكاملة** ، الجزء
الثاني ، موت سرير رقم ١٢ (بيروت : دار
الطليعة ، ١٩٧٣) ، ص ٥٢ .
- ٤٢ — المرجع نفسه ، ص ٦٧ .
- ٤٣ — المرجع نفسه ، ص ٧٨ .
- ٤٤ — المرجع نفسه ، ص ٩٧ .
- ٤٥ — المرجع نفسه ، ص ١١١ .
- ٤٦ — المرجع نفسه ، ص ١١٠ .
- ٤٧ — المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .
- ٤٨ — المرجع نفسه ، ص ١٥١ .
- ٤٩ — المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .
- ٥٠ — المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .
- ٥١ — المرجع نفسه ، ص ١٦٣ .
- ٥٢ — غسان كنفاني ، **أرض البرتقال الحزين** ،
الجزء الثاني ، (بيروت ، دار الطليعة ١٩٧٣)
ص ٣٣٨ .
- ٥٣ — المرجع نفسه ، ص ٣٥٠ .
- ٥٤ — المرجع نفسه ، ص ٣٦٨ .
- ٥٥ — آني كنفاني : «**غسان كنفاني**» ، (بيروت :
مركز الابحاث ، ١٩٧٣) ص ١٣ .
- ٥٦ — غسان كنفاني ، **الاثار الكاملة** ، المجلد
الأول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ،
رجال في الشمس ، ص ٨١ — ٨٢ .
- ٥٧ — المرجع السابق ، ص ٤٦ .
- ٥٨ — المرجع السابق ، ص ٦٥ .
- ٥٩ — المرجع السابق ، ص ٧٣ — ٧٤ .
- ٦٠ — غسان كنفاني : **أرض البرتقال الحزين** ،
الجزء الثاني (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٣)
ص ٦٠٦ .
- ٦١ — غسان كنفاني : **ما تبقى لكم** ، المجلد
الأول ، (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ،
ص ١٦١ .
- ٦٢ — المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
- ٦٣ — غسان كنفاني ، قصة من «**عن الرجال**
والبنادق» بعنوان : **الصفير يذهب الى المخيم** ،
المجلد ٢ (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٣) ،
ص ٧١٠ .

- ٢٩ — خليل السواحري : **المصدر السابق** .
- ٣٠ — اسامة فوزي يوسف : **ملاحم فنية عامة في**
القصة الاردنية القصيرة ، **مجلة الموقف الادبي** ،
دمشق ، تشرين الاول ١٩٧٤ ، ص ٤٩ .
- ٣١ — جمال عبدالناصر : **خطاب ٩ آذار ١٩٥٨**
في دمشق ، **مجموع الخطب والتصريحات**
والبيانات — الرئيس جمال عبدالناصر — القاهرة
الجزء الثاني ، ص ٥٧ .
- ٣٢ — احدى التراكب المفجعة للاستعمار هي ما
يطلق عليه فرانسز مانون «**تجهيل**» déculturation
الشعب المسحوق ، ويعبر عن هذا التجهيل بواسطة
«**تلقين**» acculturation اللغة الفرنسية
في الجزائر ، والذي لا يمكن استبداله بعملية
تعريب ، بسهولة . وهكذا فقد كتب محمد ديب
روايته «**سينا افريقي**» بالفرنسية ، وقام
بترجمتها للعربية جورج سليم في دمشق سنة
١٩٦٤ .
- ٣٣ — احمد ابراهيم الفقيه : **الجراد** ، **مجلة**
المعرفة ، عدد ٦٤ ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص
٩٩ — ١١٦ .
- ٣٤ — ٣٥ — ٣٦ : **عبدالرحمن ياغي : حياة الادب**
فلسطيني (بيروت : المكتب التجاري ، ١٩٦٩)
ص ٥٠٣ — ٥٠٤ .
- ٣٧ — المصدر السابق ، ص ٥١٤ .
- ٣٨ — نادرة جميل السراج : **سميرة عزام في ذكراها**
الخامسة ، **مجلة شؤون فلسطينية** ، اكتوبر ،
بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .
- ٣٩ — **بموضوعه Theme** تطلق على مجموعات
ايديولوجية تنضوي تحت هيكل واحد ، وتتحدد
مقولة الموضوعية في المنهج الايديولوجي للعمل
الادبي . ولا يمكننا ان نستخلص سوى موضوعية
واحدة من عمل ادبي يحوي في المقابل عدة دوافع
Motif وهكذا فان الدافع عبارة عن «**موضوعية**
— مساعدة» تظهر جوانب اخرى من مركب
«**موضوعية**» .
- ٤٠ — بصورة فنية «**Image artistique**» ، نفهم
تشخيص الموضوعية عن طريق الرموز ، الاشياء
او الحالات . والصورة عبارة عن مجموعة جبالية
تقدم نفسها كتكثيف «**بصري**» ، بمعنى انها
تجمع او «**تكثف**» مظاهر جسد مختلفة من
الموضوعية . وتتشكل الصورة الفنية من عدة
«**صور** — مساعدة» نطلق عليها **تفاصيل**

- ٥٨٥ .
- ٧٢ — غسان كنفاني : **العاشق** ، المرجع نفسه ، ص ٤٢٤ .
- ٧٣ — غسان كنفاني : **برقوق نيسان** ، المصدر السابق ، ص ٦٠٢ .
- ٧٤ — المرجع نفسه : ص ٥٨٦ .
- ٧٥ — المرجع نفسه : ص ٦٠٠ .
- ٧٦ — المرجع نفسه ، ص ٦٠٧ .
- ٧٧ — غسان كنفاني : **أم سعد** ، الجزء الاول ، (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .
- ٧٨ — المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .
- ٧٩ — المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
- ٨٠ — المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
- ٨١ — المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .
- ٨٢ — المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .
- ٨٣ — المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .
- ٨٤ — المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

- ٦٤ — المرجع نفسه ، **القصة بعنوان : الصفيير** ، يكتشف ان المفتاح يشبه الفأس ، ص ٧٢٩ .
- ٦٥ — المرجع نفسه ، **القصة بعنوان : صديق سليمان** يتعلم اشياء كثيرة في ليلة واحدة ، ص ٧٣٩ .
- ٦٦ — المرجع نفسه ، **القصة بعنوان : حامد يكف عن سماع قصص الاعمام** ، ص ٧٥٥ .
- ٦٧ — غسان كنفاني : **عائد الى حيفا** ، الجزء الاول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٤١١ .
- ٦٨ — غسان كنفاني : **الاعمى والاطرش** ، الجزء الاول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص ٥٤٤ .
- ٦٩ — غسان كنفاني : **عائد الى حيفا** ، المرجع نفسه ، ص ٤١٣ — ٤١٤ .
- ٧٠ — غسان كنفاني : **الاعمى والاطرش** ، المرجع ذاته ، ص ٥٣١ .
- ٧١ — غسان كنفاني : **برقوق نيسان** ، الجزء الاول (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢) ، ص

يا أخضر ... إنهم يتربصون بك

عز الدين المناصرة

- ١ -

لهذا الصبح المبكر جداً مزايًا ... نَمَتْ لهفتي ...
 سأناديك ، بيني وبينك بحرٌ ونهرٌ ومقبرةٌ وحدودٌ .
 ألا تسمعين الرصاص يُلعلع في قبعات الجنود ؟؟
 بلى ... إنك الآن في سفح « عيبال » بين الهوى والرصاص ...
 استفيقي وطوفي الشوارع والمدن الناطرات السجينة ...
 - مَنْ هذه الوردة الطيفُ تركض فوق جيبني وفي
 شرَّيان الحنين - أعدِّي لهم ما استطعتِ من الشوقِ
 والطلقات ، استعدي ، نقاتل في جبهة النار صفراً الفنادقِ
 زُرُقَ المطاعم زهوًا السياحة عالي السُدود .
 أناديك . هذا الصباح المبكرُ جدًا ، أقول لنفسي : مِنْ هذه
 الدرب مرّت وفوق الثرى تركتِ خطواتٍ ووقع ...
 الصدى في دمي - يا رفيقُ أما زرتِ إحدى كائننا
 في الطريقِ؟ - بلى إنهم يزرعون الرصاص بقلب العدو
 وبيروت لم تحترم عهدها يا رفيقُ ، رأيت الشوارع تبصقُ
 في وجه بيروت ليست لهم إنها للجنود هزّونَ أردافها
 للوزير المفوض يعقد مؤتمرًا صحفياً يُردد ما علّموه وتلتقطُ
 السيداتُ الردود .
 معاً يا حبيبة قلبي نطلّ وإن وضعوا النار بيني وبينك
 نبقي معاً ، تَصْنَعِينَ القنابلَ ضدّ الغزاةِ ونحنُ نقاتلُ ضدّ الحدود .

« الخليل » دمي .. طافحٌ فوق هذي البسيطةِ .. النجمُ صوتي
وأهلي مع الليل قالوا نظارد عزلانَ بريةٍ قسد ...
هوئى النجمُ ...

والنجمُ بوصلةُ الفقراء .

ما الذي يجعل الدمع ناراً ، هديلَ الحمام أناشيدَ للثورةِ
المستجدة فينا وصوتَ العسافير قيثارة الإحتفالاتِ ...

والمرجَ والكرم ذاكرةً للصعاليك والأشقياء

ما الذي يجعل الشيخ والمريمية قرصَ دواء !!

وبابَ الخليل تراثاً من الذبح والقتل ..

يجعل من « باب ادريس » مقبرةَ الشهداء !!

شجرةُ « الميس » ... ظلكِ هاتي ... هنا اليوم عندك

ثم غداً سوف نرحل عند الأحبة .. يا طائر الميس تأتي

ترف علينا تزور بساتين أمي :

أصفُ البستان .. متى يأتي ، هذي الصفة الأولى لغيابي

أصف « الزعرور » أقول : الشوك الأخضر ينمو في ذاكرتي

هذي الصفة الأخرى لغيابي

وأقول بأنك يا بيروت صليبٌ كُتبَ علينا ، هذي

الصفة الثالثة لأحبابي .

أصف البلوط أقول بأنك يا « سامي طه » جرحٌ يندملُ

صباحاً في زمن النصر وأن رحيل الأشجار عذابي

أصف البحر ، أقول بأن الأمواج الزرقاء سترحل نحوك

يا « عكا » وأرى في « نجران » نداماي إذا دامهم حزنٌ

يتشقون السيف يقولون اقترَبَ إيابي .

أبدأ تبقى القنبلة .. مياه الأخصان ، أزيز النار الممتدة
 في قلب الكون الساكت ، غمغمة الطفل إذا احتسدت رأى
 الفاشست يغنون لمشهد قتل : يتقدم أحد الحراس
 ليخلع عيني طفل كردي - سوري - من يافا - من حيفا - حسب
 الصدفة - ثم يجيء الآخر يفتح نفقاً ، شلال دم في جبهة
 طفل آخر - ما للسعورين الأوغاد ?? .
 هل أصف المشهد كالتالي : طفل جاء من الأعشاش
 التنكية يصطاد الرزق من الأسياذ .
 يأكله الهم نهاراً ليلاً ويجوع فيأكل قمح الغربية ،
 جدران المنفى ، عطر الأجداد .
 ويضاف الى ذلك أن الطفل بكى وتقدم نحو الموت .
 كان الفاشست يصلون لربّ الحرب ويقتلعون
 الزيتون - اللوز - التفاح - الأطفال - وفاجأه
 أحد الحراس ، تسمّر فوق الإسفلت ، تدثر بالصمت .
 أبدأ تبقى القنبلة نشيد الإنشاد ، أناديك ألا يغويك
 نشيدي في آخر هذا الليل المفعم بالبارود - العنب -
 الليمون وأشجار « أريحا » . !!!
 الكحل بعينيك .. الرغبة في أعينهم والسيف القاطع معنا . هل
 تتساوى الرغبة بالفعل ، الصحف الملائنة ثرثرة ...
 برصاص يُطلق في « ساقوي » و « ترشيجا » !!!
 الزمن القادم فجر صعب ، مهر روضناه طويلاً من
 بيروت إلى غزة .

بيتٌ قربَ الفاشست يطل على البحر ، يعانق أشجار
الأرز ويحميني من زخات المطر ومن دقات الشرطة
فوق الأبواب البيضاء .

الجليلُ أمامي والبحر ورائي والفرسُ الخضرا بين الأحراش الزرقاء
هل اكتبُ أن المنطقة العليا تعني المنطقة السفلى ، هل اكتبُ
أنّ القمح رمادٌ أنّ الماء دمٌ وبأنّ الفرحَ الأخضر حزنٌ أنّ
الضحكَ بكاءً ؟؟

لم يعلم أحدٌ في الحارة ، أمي لا تعرف أيضاً أي أسكن في
الحدّ الفاصل بين الحجر وبين الأنواء .
بيتٌ قرب الفاشست . الليلةَ جاءوا ، سألوا ؟؟

— نزرع في هذي الأرض الميتة السوداء .
أشبالا ، ولقد أثمر شجر التوت
سحقوا « الفالانج » الأسود في بيروت .
و « أبو الليل » الليلة ذكّرني بالموت . سأسألُ
من يرقصُ تحت الشباك يعني للوطن الذبح و « عبد الخالق »
في القلب و « نيرودا » عصفورُ الحقل على أشجار
النخل الأخضر في البيداء .

« غسان » التّخفَ الشال الأحمر مندبّ جناحيه على المرح .
يُداعبُ قُبْرةً وينادي : الماء الماء الماء .
سألُ من يرويه إذا نادى في آخر هذا الليل : الماء الماء الماء !
الأخضر ... يرويه ويحميه إذا هاج البحرُ ، انشق القمرُ
ومن غيرُ الأخضر يروي الصحراء .

يا أخضر القسّماتِ يا ربيع الصبا إني أرى ما لا يُرى
وأشمُّ رائحةً ... وأعرفُ أن درب الشوكِ يمكنُ
أن تطولُ .

يا سيّدي وأرى المدائنَ في سُبّاتِِ والدم الغالي النليلُ
يا سيّدي وأرى الهضابَ تَعمّها هوج السيولُ
وأرى العصافير الجياح أرى البراكين التي
ثارت لتخضّرَ الحقول .

يا سيّدي وأرى زماناً أخضر القسّماتِ
يوشك أن يقولُ :

إن لم تشدّ الخيل .. ساختَ تحتنا الأرض البتولُ
إن لم تفجرها وتشعلها لهباً للسا الزرقا
تحجرت العقولُ .

إن لم تقلها في وجوههمُ ستصحو ذات يومٍ
فوق سمراء الطلّولُ .

يا سيّدي إني أرى ما لا يُرى
وأشمُّ رائحةً ... أرى سُمّاً شهباً قدّموه
لقتلنا هو في طعامِك .

وأرى « الخليل » حبيبي ، نهياً لتجار المالكِ
وأشمُّ رائحةً ... فحاذِرِ إنهمُ حرباءٌ تظهر
في الفصولُ .

أخشى إذا طلع النهار تصير « بيروتُ » - « الخليلُ » .

سلاح النفط العربي وصلته بالقضية الفلسطينية

رهف البدوي

ارتبط استخدام سلاح النفط العربي لتحقيق أهداف سياسية متعلقة بالقضية الفلسطينية بحرب أكتوبر ١٩٧٣ . جاء هذا الارتباط نتيجة النجاح النسبي الذي تحقق من تزاوج المبادرة العسكرية العربية وسلاح النفط . لكن يجب ألا يحجب هذا النجاح التاريخ السابق لارتباط سلاح النفط بالقضية الفلسطينية على الرغم من الاخفاقات التي عرفها هذا التاريخ مما يجعلنا أكثر ميلا لتناسيه في غمرة نشوة الانتصارات الحاضرة . ولهذا الامر أهمية لسببين : اولاً ، لان النجاح الذي عرفناه مؤخراً على صعيد استخدام سلاح النفط لم يأت ابن ساعته بل سبقته دعوات غاشلة وخطوات لم تتكلل بالنجاح شكلت نوعاً من التجارب والمحاولات الممهدة لما تحقق خلال حرب أكتوبر وبعدها في هذا الميدان . ثانياً ، لان الانتصار الحالي يتطلب رعاية وتعميقاً وحماية فعالة اذا كان لاثاره أن تستمر ونلاخفاقات العربية الماضية الا تعود لتفرض نفسها من جديد فيتحول نجاح ١٩٧٣ الى مجرد استثناء في سلسلة طويلة من الاخفاقات السابقة واللاحقة . فيما يلي مراجعة سريعة لاهم المحطات في تاريخ ارتباط سلاح النفط بالقضية الفلسطينية وبالاهداف السياسية الكبرى المطروحة يومها على البلدان العربية وجماهيرها وحكوماتها :

(١) جاءت الدعوة الرسمية الاولى لاستخدام سلاح النفط من أجل تعزيز الموقف العربي في مواجهة الاجتياح الصهيوني لفلسطين في مقررات مؤتمر القمة الذي عقده الملوك والرؤساء العرب في بلودان في حزيران ١٩٤٦ . انعقد المؤتمر يومها لدراسة السبل الفعالة « للمحافظة على عروبة فلسطين » ويجاد الطرق المناسبة للضغط على بريطانيا وأمريكا لتخففا من تحيزهما للاستيطان الصهيوني ودعمهما له . أخذت هذه المبادرة شكل قرار مائع وعام يدعو الى « اعادة النظر في الامتيازات التي تملكها بريطانيا والولايات المتحدة في الاراضي العربية » اذا لم تحترم هاتان الدولتان حقوق الشعب الفلسطيني والموقف العربي من الاستيطان الصهيوني . وكان كل ذلك جزءاً من قرارات أشمل ذات طابع اقتصادي تدعو الدول العربية الى الامتناع عن اعطاء اية امتيازات اقتصادية لهاتين الدولتين أو لرعاياهما في الاراضي العربية . الا ان هذه القرارات كغيرها من قرارات مؤتمر القمة لم تجد طريقها الى التنفيذ بسبب تخاذل الانظمة العربية يومها وتبعيتها المفضوحة والمعروفة للاستعمار في منطقتنا .

(٢) ظهرت نغمة استخدام سلاح البترول مجدداً في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في صوفر في ايلول ١٩٤٧ . تبني هذا المؤتمر بالاجماع قرارات مؤتمر بلودان وناقش مطولاً قرار « اعادة النظر بالامتيازات التي تتمتع بها الدول الغربية في البلاد العربية » (البترول بصورة رئيسية) . وجرت مزايدة طريفة بين مندوبي السعودية والعراق حول من سيكون السباق الى تنفيذ القرار العتيدي وتطبيقه . ومرة اخرى بقيت قرارات المؤتمر حبراً على ورق بدليل ان البترول العراقي ظل يتدفق الى حيفا بعد

خمسة أشهر من تبني قرار التقسيم في الجمعية العمومية لهيئة الأمم ولم يتوقف إلا بعد احتلال القوات الصهيونية للمدينة .

(٣) ومرة ثالثة برز موضوع سلاح البترول واستخدامه في مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في القاهرة في كانون الأول ١٩٤٧ . ناقش الملوك والرؤساء مجددا قضية « إعادة النظر بالامتيازات الأجنبية في الدول العربية » باعتبارها سلاحا أكثر فعالية من غيره لمواجهة ضياع فلسطين . إلا أن حظ قرارات هذا المؤتمر لم يكن بأفضل من حظ قرارات المؤتمرات السابقة .

(٤) جاءت أول محاولة ناجحة نوعا ما لاستخدام سلاح البترول أثناء العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ حيث قامت وحدة سورية خاصة بنسف إحدى محطات المضخ التابعة لشركة نفط العراق مما عطل تدفق النفط العراقي الى ساحل البحر الأبيض المتوسط . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة لم تؤد بحد ذاتها الى نتائج كبيرة وهامة على صعيد مضايقة الدول المستهلكة فقد تركت بعض الاثر السلبي على تجارة النفط العالمية . إلا أن أهمية الاجراء السوري كانت تكمن في الإقدام على تنفيذه بالفعل ضمن جو وطني عارم واندفاعة تحريرية كبيرة وحماسية جدا في معاداتها للاستعمار ، مما جعل الخطوة السورية رمزا محفورا في ذاكرة الجماهير العربية لما يمكن أن تفعله الدول العربية على صعيد استخدام سلاح النفط (ولم تكن سوريا دولة منتجة بل دولة عبور فقط) في المعارك القومية والتحريرية اذا توافرت لها القيادات الوطنية الجادة في تصديها للاستعمار في المنطقة العربية .

(٥) جاءت الخطوة التالية في استخدام سلاح النفط العربي خلال حرب حزيران ١٩٦٧ عندما قامت بعض الدول العربية المنتجة بفرض حظر على تصدير البترول الى الولايات المتحدة وبريطانيا ومانيا الغربية ، ذلك بعد خراب البصرة . لم تكن هذه الخطوة أكثر من محاولة تعمية للجماهير العربية المصعوقة بالهزيمة وتعويض سريع مصطنع عن الخسارة العسكرية التي حلت بالانظمة والامة عموما . لذلك لم تسفر عن أية نتائج تذكر خاصة انها لم تكن وليدة عمل مدروس مرتبط باستراتيجية عربية عسكرية وسياسية شاملة . كانت مجرد رد فعل على الهزيمة ومحاولة للحصول على « براءة ذمة وطنية » من قبل الانظمة المعنية أمام الجماهير العربية المفجوعة واستباقا لاية محاولات لضرب المنشآت النفطية على غرار المثل الذي ضربته سوريا في ١٩٥٦ . لكن هذا التقييم العام لاستخدام سلاح النفط في حزيران ١٩٦٧ لا يعفينا من طرح السؤال الهام : هل كانت الشروط متوفرة وقتئذ لنجاح مثل هذه الخطوة على افتراض أن نيات الانظمة المعنية خلصت وانها قامت بالتنسيق اللازم والدراسات الضرورية لذلك الخ ؟ الجواب على ما نرجح ويبدو لنا هو بالنفي للأسباب التالية : (١) السيطرة شبه الكاملة للشركات الكبرى على البترول العربي من منابعه الى مصباته وغياب أي هامش جدي للمناورة او الاستقلال النسبي لدى الحكومات العربية فيما يتعلق بتحديد السياسات البترولية مما جعل فرض أي تخفيض في مستويات الانتاج أمرا متعذرا على الدول العربية المعنية . وبدون هذا التخفيض لا يمكن لسلاح حظر النفط ان يكون فعالا حقا .

(ب) افتتار الدول العربية الى الاحتياطي المالي الكافي لتحمل النتائج الاقتصادية المترتبة على حظر النفط ولو لفترة محدودة وبصورة جزئية . وبديهي ان هذا الافتتار لم يكن مطلقا بل كان افتتارا نسبيا اذ اعتادت الانظمة البترولية وقتها على تسيير شؤون البلاد وعلى الإنفاق وفقا لمستويات الدخل النفطي المرتفع بدون أي التفات جدي الى

مصادر الثروة الأخرى في البلاد مما جعلها مرتبهة كلياً للعائدات البترولية . وكان من شأن أي انخفاض حقيقي في هذه العائدات رمي الأنظمة في أزمة مالية وسياسية طاحنة خلال فترة قصيرة جداً .

(ج) النزاعات الشديدة التي كانت قائمة بين الحكومات العربية على الأصدعة السياسية والاقتصادية والأيديولوجية (وحتى العسكرية) . على سبيل المثال اصطدام سوريا بالعراق في ١٩٦٦ حول موضوع مرور النفط في الأراضي السورية . كما كانت السعودية على خلاف كبير مع مصر (حرب اليمن) وكانت دول المغرب العربي منشغلة بقضاياها الخاصة وبعيدة عن مشكلات المشرق العربي ونزاعاته . وبطبيعة الحال كان السبب العميق وراء الخلافات العربية يومها تصدي عدد من الأنظمة العربية الرجعية للسياسة التحررية المعادية للاستعمار التي كان ينتهجها الرئيس عبدالناصر والتي بلغت ذروتها — ان كان من حيث التضحيات او من حيث النهاية المساوية لهذه السياسة — في حرب اليمن .

(د) عدم تأثير حظر النفط على الولايات المتحدة لأنها كانت تكفي نفسها بنفسها من هذه المادة الاستراتيجية . في الواقع تمكنت شركات البترول الأمريكية من تحقيق أرباح إضافية كبيرة (على حساب الدول الأوروبية) باستغلالها للآزمة الناشئة وقتها .

(هـ) تمكن شركات النفط من تعويض النقص الحاصل في تدفق النفط العربي عن طريق زيادة الإنتاج في أماكن أخرى على الرغم من إغلاق قناة السويس . كانت المشكلة تدور وقتها حول نقل البترول أكثر مما كانت تدور حول توفره .

(و) عدم تقيد بعض الدول العربية بدثة بقرار الحظر حتى ان واحدة من دول افريقيا الشمالية المنتجة استمرت بشحن البترول الى ألمانيا الغربية .

ننتقل الآن للنظر في التجربة الأخيرة في استخدام سلاح البترول العربي وتعيين عناصر نجاحها وشروطه . وأول ما يلفت النظر هنا هو التبدلات التي طرأت على الصعيدين العالمي والمحلي مع حلول عام ١٩٧٣ مما أدى الى الغناء معظم الشروط المعطلة المذكورة أعلاه أو تحييد فعاليتها . ويمكننا تلخيص أهم هذه التطورات في النقاط التالية :

(١) انحسار الهيمنة الأمريكية الكاملة على المعسكر الإمبريالي بعد أن سيطرت عليه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وجاء هذا التطور كجزء من الأزمة العاتية التي أخذت تعصف بالنظام الرأسمالي العالمي وتجلت أهم مظاهر هذه الأزمة في انهيار النظام النقدي العالمي المستند الى اتفاقيات بريتون وودز الشهيرة ، وآثار هذا الحدث السلبية على العملات الدولية ، تفاقم مشكلات التضخم النقدي ومضاعفاتها العالمية والمحلية وعجز الأنظمة الرأسمالية عن إيجاد الحلول المناسبة للحد من اندفاعه ، اشمئزاز التنافس الاقتصادي والتجاري بين الدول الرأسمالية الرئيسية حتى اقترب من المستويات التنافسية ، الانهيارات الحادثة في نظام الحلفاء والدفاعات الذي نسجته الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الأخيرة (أزمة الحلف الأطلسي خلال حرب أكتوبر وبعدها ، الانقلاب اليساري في البرتغال ، وصول أزمة العلاقات الأمريكية — اليونانية — التركية الى جافة الصدام المسلح ، الخ . . .) ، هزيمة أمريكا في الهند الصينية ومضاعفاتها العالمية والأمريكية المحلية ، ويضاف الى ذلك تحول الولايات المتحدة الى دولة مستوردة للنفط واعتمادها الى حد أكبر من أي وقت مضى على شحنات النفط العربي إذ أصبحت أمريكا تستورد حوالي مليونين ونصف المليون برميل من النفط الخام

ومشتقاته في اليوم اما بصورة مباشرة من البلدان العربية أو من المصافي الاوروبية التي تكرر البترول العربي . ففي نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ قدر مدير مكتب الطاقة والمحروقات في وزارة الخارجية الامريكية ، جورج بنسكي ، أن حظر النفط العربي سيحرم أمريكا حوالي ثلاثة ملايين برميل في اليوم خلال شتاء ١٩٧٣ — ١٩٧٤ ، أي حوالي ١٧ بالمئة من متطلبات البلاد البالغة ١٨ مليون ونصف المليون برميل في اليوم .

(٢) تحسن العلاقات بين مصر والمملكة العربية السعودية بعد غياب الرئيس عبدالناصر واستلام السادات السلطة في ١٩٧٠ . وتقدم الضغط الوطني العام الذي أخذ يفرزه استمرار احتلال الاراضي العربية ليفرض نفسه على كافة الانظمة والحكومات مهما كانت توجهاتها السياسية والايديولوجية مما جعل السلطة السعودية تفقد صبرها ازاء السياسة الامريكية بالنسبة للنزاع العربي — الاسرائيلي وما تسببه من احرجات ومشكلات للدول العربية الصديقة لأمريكا ، مما جعل الملك فيصل يتعد عن موقفه التقليدي القائل بضرورة فصل البترول عن السياسة والاقتراب أكثر فأكثر من موقف دعاء استخدامه كسلاح سياسي في خدمة القضايا العربية الكبرى . وبالفعل أعلنت السعودية في نيسان ١٩٧٣ عزمها على استخدام سلاح النفط لدعم القضية العربية . ولا شك انه كان لهذا القرار تأثير حاسم وكبير على سياسات بقية الدول المنتجة وتكتيلها في صف واحد بسبب الوزن الهام الذي تمثله السعودية في انتاج البترول العربي . على سبيل المثال بلغ الانتاج السعودي في اكتوبر ١٩٧٣ ٨٣ مليون برميل في اليوم الواحد وتمثل هذه الكمية ٤ بالمئة من مجموع النفط العربي الذي يصل الأسواق . يضاف الى ذلك أن مجموع ما تنتجه السعودية والكويت يبلغ ٥٦ بالمئة من مجوع الانتاج العربي كله .

(٣) مع حلول سنة ١٩٧٣ كانت معظم الدول العربية المنتجة قد وصلت الى مركز اقتصادي أقوى من أي وقت مضى بسبب سيطرتها المتعاضمة على حقول النفط (عن طريق التأميم المباشر أو المشاركة المتعاضمة في ملكيتها) ، وارتفاع أسعار البترول المصدر نتيجة تزايد طلب العالم الصناعي عليه وانعدام القدرة على زيادة الانتاج في الحقول الواقعة خارج العالم العربي . بعبارة أخرى أصبحت الدول العربية المنتجة في موقع القادر على تخفيض مستوى انتاج نفطها وحظر شحنه لفترات طويلة نسبيا بدون أن تترك هذه الاجراءات أي تأثيرات مدمرة على اقتصادياتها . على سبيل المثال لم تضطر الدول العربية لتخفيض انتاجها في ١٩٧٣ بأكثر من ٢٥ بالمئة كي تترك آثارا سلبية مباشرة ومهمة على الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

(٤) قيام مصر وسوريا بأخذ زمام المبادرة لأول مرة منذ ١٩٤٨ في شن حرب تحريرية على اسرائيل . بطبيعة الحال كان لهذه المبادرة العظيمة تأثيرها السياسي والمعنوي الضخم على الشعوب العربية ودولها مما جعل أي تخلف أو تقاعس في استخدام سلاح النفط محفوفا بمخاطر لا تقدر بالنسبة للدول غير المحاربة والمطلوب منها دعم الجهود الحربي المصري — السوري بأقصى الطاقات المتوفرة . وتشير الدلائل الى أن دولة نفطية أو دولتين كانتا على علم مسبق بنوايا سوريا ومصر وقامتتا برسم خططهما على هذا الاساس .

(٥) تعيين هدف سياسي واضح ومحدد ومتفق عليه عربيا — وهذا ما كان غائبا

تماما في استخدام سلاح النفط عام ١٩٦٧ — يفترض بسلاح النفط المساهمة في العمل على تحقيقه . وتلخص هذا الهدف — أي هدف الحرب بثقتها العسكري والسياسي النفطي — بالوصول الى تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ (تحرير الارض المحتلة) وتحقيق نسوية عادلة للقضية الفلسطينية .

(٦) ادراك الدول العربية نتيجة التجارب السابقة في استخدام سلاح النفط بأنه لا فائدة من حظره عن بلدان معينة بدون دعم هذا الاجراء بتخفيض مستوى الانتاج . اذ أن الحظر وحده لن يؤدي الى أكثر من عرقلة عمليات الامداد والاستهلاك لفترة قصيرة تقوم بعدها الشركات والحكومات باعادة ترتيب أوضاعها بحيث تتكيف مع الواقع الجديد كما تكيفت قبلها مع اغلاق قناة السويس . من هنا حكمة قرار الدول العربية في ١٩٧٣ بأن تكون الخطوة الاولى في استخدام سلاح النفط هي تخفيض الانتاج بصورة عامة وعدم الاقتصر على مجرد حظر تصديره الى دول معينة . وبالفعل فقد صعدت الدول المعنية تخفيضها لمستويات الانتاج بصورة سريعة بلغت ٢٥ بالمئة من المستوى الذي كان سائدا قبلها ، مما اظهر بجلاء ما بعده جلاء الفعالية الكبيرة التي ينطوي عليها هذا السلاح .

جدير بالذكر هنا انه خلافا للمزاعم والادعاءات التي تنشرها الدول المستهلكة والولايات المتحدة بالتحديد لم يكن لاتجاه أسعار النفط الى الارتفاع خلال فترة ١٩٧٠ — ١٩٧٣ اية علاقة مباشرة باستخدام العرب لسلاح النفط خلال الحرب الاخيرة . جاءت حركة ارتفاع الاسعار نتيجة تبدلات طرأت على طبيعة السوق النفطية وعلى موازين العرض والطلب ومقدرة كل من البائع والشاري على المساومة من مواقع تقوى وتضعف وفقا للظروف بالإضافة الى عوامل أخرى مشابهة لا مجال للدخول في تفاصيلها هنا . كان كل ذلك ظاهرا قبل استخدام الدول العربية لسلاح النفط بنجاح . على سبيل المثال عندما قررت دول الخليج بالاشتراك مع ايران في ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ (أي قبل يوم واحد من اتخاذ القرار العربي باستخدام سلاح النفط لدعم المعركة مع اسرائيل) رفع الاسعار المعلنة لنفطها الخام بما يزيد على ٧٠ بالمئة من السعر السائد يومها (أي حوالي دولارين لكل برميل) جاء هذا القرار تنويجا لحركة تصاعد أسعار النفط واتجاهها نحو الارتفاع بدون أن يكون له اية علاقة سببية او مباشرة بحرب اكتوبر . أي بدأت حركة الصعود هذه قبل الحرب بعدة سنوات ووصلت الى ذروتها بصورة مستقلة بعد الهجوم المصري السوري الناجح على القوات الاسرائيلية . لكن هذا لا يعني ان تخفيض الانتاج الذي فرضته الدول البترولية العربية لم يؤد الى ارتفاع كبير في أسعار النفط اذ أنه من طبيعة أي نظام قائم على آلية السوق وقوانين العرض والطلب ان ترتفع فيه أسعار السلعة المعينة عندما يطرأ نقصا في عرضها لا يوازيه نقص مشابه في الطلب عليها . لذلك أدى استخدام سلاح النفط الى زيادة أسعاره بنسبة بلغت حوالي ١٣٠ بالمئة .

على الرغم من أن كافة الشروط اللازمة لتحقيق انتصار كبير عبر استخدام سلاح النفط كانت متوافرة في اكتوبر ١٩٧٣ وما بعده لم يحقق هذا السلاح هدفه الاساسي والمعلن رسميا . في الاجتماع الذي عقده وزراء النفط العرب في الكويت اثناء الحرب (١٧ تشرين الاول) أعلنوا أن دولهم ستدعم الجهود الحربية المصري — السوري بخفض انتاج النفط بنسبة ٥ بالمئة كحد أدنى على أن يستمر هذا الخفض شهرا بعد شهر الى أن يتم تحرير الأراضي العربية المحتلة بكاملها وضمان حقوق الشعب الفلسطيني ، أو الى أن يصل مستوى الخفض في كل دولة الى نقطة تشكل خطرا على

اقتصادياتها وعلى التزاماتها القومية عموماً . إلا أن شيئاً من هذا الهدف الطموح لم يتحقق لأن الاعتبارات السياسية التي حكمت طبيعة الحرب ومدى تقدمها على الجبهتين المصرية والسورية حكمت أيضاً طبيعة « الحرب » ومدى اتساعها على جبهة النفط . فكما أن الهدف من معركة أكتوبر كان شن حرب محدودة لا تذهب إلى آخر الشوط ولا تقلب موازين القوى في المنطقة كلياً، كذلك لم يكن الهدف من استخدام سلاح النفط إلا الوصول إلى نتائج محدودة لا تذهب إلى آخر الشوط هي أيضاً في قلب موازين الستاتيكو السائد في المنطقة ولا تصيب الاقتصاد الرأسمالي العالمي بضربة موجعة حقاً قد تؤدي إلى شلله أو أركاعه . ولا بد لنا من أن نبقي هذه الوقائع في أذهاننا لكي نفهم التراجع التدريجي الذي حدث في شهر سلاح البترول العربي ونذكر طبيعة الخطوات المتتالية التي اتخذت لسحبه كلياً من الميدان . يضاف إلى ذلك طبعاً خوف الدول العربية المعنية من ردود فعل أمريكية وغربية عنيفة وشديدة في حال تضايقتها الشديد من نقص البترول العربي خاصة وأن الدول العربية لم تكن مستعدة على الإطلاق لتلقي مثل هذه الردود العنيفة أو التصدي لها أو مواجهتها بسياسة طويلة النفس . لذلك شملت الاستثناءات التي أقرتها الدول البترولية العربية من إجراءات الحظر بلداناً مثل فرنسا وبريطانيا وبلجيكا واليابان بالإضافة إلى بلدان استحققت عن جدارة مثل هذا الاستثناء مثل الهند ومعظم الدول النامية ودول الكتلة الأفريقية (غير العربية) . كما أدخلت الدول العربية المعنية التعديل تلو التعديل على الإجراءات القوية التي فرضتها أول الأمر وذلك باتجاه مزيد من التساهل . فمع حلول شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ لم يعد استخدام سلاح النفط مشروطاً بالانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي العربية المحتلة بكاملها وضمن حقوق الشعب الفلسطيني، إذ أعلن وزراء النفط العرب (في ٨ كانون الأول ١٩٧٣) قرارهم القائل بأنهم سيسحبون سلاح النفط من الميدان إذا تم التوصل إلى اتفاق حول الانسحاب من جميع المناطق المحتلة — وعلى رأسها القدس — وفقاً لجدول زمني توافق عليه إسرائيل وتضمن تنفيذ الولايات المتحدة . ومع حلول شهر آذار (مارس) ١٩٧٤ رفع الحظر عن الولايات المتحدة وتوقف كل تخفيض في الإنتاج على الرغم من أن كل ما تحقق على الصعيد السياسي لا يتعدى الاتفاقية الجزئية لفصل القوات على الجبهتين المصرية والسورية . وفي شهر تموز (يوليو) رفع الحظر على هولنده أيضاً . وجدير بالذكر هنا أن ليبيا لم توافق على هذه القرارات كما أن العراق لم يكن موافقاً منذ البداية على هذا الأسلوب في استخدام سلاح البترول (خفض الإنتاج وغيره من الإجراءات) بل دعا بدلاً من ذلك إلى تأمين

البترول العربي وغيره من المصالح التابعة للدول المعادية للقضية العربية . واضح إذن أنه على الرغم من التشدد الظاهر في الموقف البترولي العربي الأولي في أكتوبر ١٩٧٣ كانت الأنظمة المعنية تعمل على تحقيق نتائج محدودة ومحسوبة مسبقاً إلى حد ما تتناسب تماماً مع الحدود المحسوبة لحرب أكتوبر نفسها . لذلك ما أن ارتفعت أسعار البترول — على أعقاب تخفيض الإنتاج — إلى مستويات تضايقت منها الدول المنتجة تضايقت ملحوظاً حتى بدأت التنازلات من الجانب العربي على النحو المذكور ووصلت إلى حد قيام السعودية بالضغط على دول الأوبك لقرار تخفيض في أسعار البترول المعلنة . وهنا لا بد من الإشارة أيضاً إلى بعض العوامل الإضافية التي لعبت دوراً ضاغظاً ساعد على سحب سلاح النفط من التداول قبل تحقيق أهدافه المعلنة :

(١) عدم تحقق النسوية السياسية للنزاع العربي — الإسرائيلي بالسرعة المتوقعة على اثر حرب أكتوبر وتبدد كل أمل بالتوصل إليها في المستقبل العاجل مما أدى إلى

القول بأن استمرار استخدام سلاح النفط سيترك آثارا سلبية شديدة على الدول النامية والصديقة وعلى البلدان التي يسعى العالم العربي لكسب صداقتها ودعها للقضية العربية ، أو تحييدها على أقل تعديل . هذا على أن يكون واضحا للدول المستهلكة الرئيسية وللولايات المتحدة انه ما لم يتحقق تقدم جدي وملحوس على طريق التسوية السياسية العادلة للنزاع في المنطقة ستعود الدول العربية المنتجة الى استخدام سلاح النفط مجددا عندما ترى ذلك مناسبا لبلوغ الاهداف السياسية المعروفة ودعم القضية العربية (والفلسطينية بطبيعة الحال) .

(ب) طاقة الولايات المتحدة على تحمل آثار استخدام سلاح النفط العربي أكثر من البلاد الأخرى مثل أوروبا الغربية واليابان (خاصة على المدى القصير) . فضمن منظور الحدود السياسية المعروفة لحرب أكتوبر كان الاستمرار في حظر النفط وتخفيض مستوى انتاجه سيؤدي الى تقوية المركز النسبي للولايات المتحدة ازاء أوروبا مما سيحد من مقدرة الدول العربية على المناورة في الساحة الدولية . وهذا واضح من فشل دول السوق الأوروبية المشتركة في وضع سياسة موحدة نوعا ما ومستقلة عن أمريكا في ميداني الطاقة والعلاقات الخارجية (بالنسبة للشرق الاوسط) .

(ج) ضغط الولايات المتحدة على الحكومات العربية المعنية بقولها انه يتعذر عليها متابعة مهمتها في تحقيق السلام وهي واقعة تحت ضغط الاجراءات النفطية العربية ، مع المطالبة بفرصة أخرى لتبرهن عن فعالية سياستها في المنطقة . ومن ناحية أخرى كان هناك اصرار مصر — باعتبارها وزن الثقل العسكري والسياسي في العالم العربي — على افساح المجال أمام الولايات المتحدة للبرهنة على حسن نيتها ومصداقية سياستها المتوازنة الجديدة في الشرق الاوسط في مرحلة ما بعد العبور وحرب أكتوبر .

على الرغم من أن استخدام سلاح النفط العربي في ١٩٧٣ لم يحقق هدفه الرسمي المعلن وثباته سلبية كثيرة أثرتنا الى أهمها فقد ولد في الوقت ذاته عددا من النتائج الهامة والانجازات الايجابية التي يمكن ان تشكل قاعدة قوية لانطلاقة جديدة في المستقبل تهدف الى استخدام هذا السلاح بصورة أكثر فعالية ومهارة ودقة مما جرى في السابق . طبعاً ان تحقيق مثل هذه الانطلاقة مرهون بمدى استفادة الجانب العربي من الايجابيات والانجازات التي خلفها آخر شهر لسلاح النفط ومدى حمايتها لها وتثبيتها كوثائق لا تراجع عنها واستثمارها في الاعداد للمعارك والمجاهدات القادمة لا محالة . ويمكننا القول أن الايجابيات والمنجزات المذكورة جاءت على نوعين : الاول ذو طابع استراتيجي بعيد المدى والثاني ذو طابع تكتيكي تأثيره آني ومرهون بالظروف المتقلبة . ويتلخص النوع الاول بالانجازات التالية :

(١) كسر «الحاجز النفسي» الذي كان يعيق سابقا الدول المنتجة من اللجوء الى اسلحة من هذا النوع في مواجهة الدول الرأسمالية الكبرى والتصدي لسيطرتها واستغلالها للامم والشعوب الأخرى . بعبارة ثانية لقد سجل نزول سلاح النفط العربي الى المعترك السياسي سابقة مهمة وخطيرة جدا سيكون لها تأثيراتها المتنوعة على مستقبل العلاقات بين دول العالم الثالث وبلدان العالم الاول . وها هي الدول المصدرة للمواد الأولية تعد نفسها وتتكل لمواجهة البلدان المستوردة لهذه المواد وهي تحذو في ذلك حذو منظمة الاوبك وتتشبه صراحة في عزمها على استعمالها سلاح المواد الأولية بطريقة استخدام العرب لسلاح النفط .

(٢) ادراك الدول المنتجة (عربية وغير عربية) مدى اتساع هامش المناورة الذي تملكه في تقرير السياسات البترولية في وجه الشركات والدول المستهلكة التي كانت في

السابق تحتكر لنفسها السيطرة على اتخاذ القرار بالنسبة لكافة الامور الهامة المتعلقة بالنفط . لقد ابرزت حرب اكتوبر عموما واستخدام سلاح النفط خصوصا ان هامش المناورة هذا اوسع بكثير مما كان متوقعا ، ووجدت الانظمة المعنية في هذه المناسبة فرصتها الذهبية للاستفادة من هذا الهامش وتأكيد دورها ووجودها في صنع السياسات البترولية وتحديد طبيعتها ومستقبلها .

(٣) خلق الجو الملائم لاندفاع الدول المنتجة والمصدرة للمواد الخام عموما باتجاه اعادة صياغة الانظمة التجارية والمالية والتسعيرية الخ... المعمول بها حتى حينه بحيث تأخذ هذه الانظمة بعين الاعتبار مصالح الدول المنتجة والاستقلال النسبي الجديد الذي حققته فلا تبقى على حالها وكما فرضتها الدول المستهلكة والشركات الكبرى لخدمة مصالحها وتصيد ارباحها فحسب .

(٤) ابراز الوجه الحقيقي لسياسات امريكا النفطية في المنطقة بدون أي رتوش او مساحيق . لقد أدى استخدام سلاح النفط العربي الى مجاهرة امريكا — على أعلى المستويات وبمنتهى الصراحة — بعزمها على اتباع سياسة مجابهة وصدام مع الدول المنتجة بغية اخضاعها وتفكيك تضامنها وردعها منذ البداية حتى لو تطلب ذلك العدوان المسلح على سيادتها وأراضيها وثرواتها . وقد أصبحت تهديدات فورد وكيسينجر وشليزينجر (وزير الدفاع الامريكي) باحتلال منابع النفط العربي على درجة من الشهرة تغنيا عن أي تعليق* .

أما الانجازات ذات الطابع التكتيكي المباشر فتتلخص بالنقاط التالية :

(١) التبدل الطفيف الذي طرأ على موقف الولايات المتحدة من النزاع العربي — الاسرائيلي . ولا شك ان سلاح النفط كان واحدا من أهم العناصر المؤدية الى هذا التطور . وكان أهم مظهر لهذا التبدل مبادرة كيسينجر للتوسط مباشرة في النزاع على أمل الوصول الى تسوية سياسية على أساس دبلوماسية الخطوة خطوة (فشلت هذه الدبلوماسية بسبب تصلب اسرائيل وعنادها على حد التفسير الرسمي المصري) . هناك أيضا بعض التبدلات الطفيفة التي طرأت على مواقف عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الامريكي (المعروف بولاء أكثريته ولاء شديدا لاسرائيل وانصارها في امريكا) بحيث أصبحوا على استعداد أكبر لاعادة النظر ولو قليلا في حيثيات النزاع في المنطقة . يضاف الى ذلك التأثير الذي تركه سلاح النفط على قطاعات هامة من الرأي العام الامريكي وقطاعات من رجال الاعمال بشكل خاص بحيث أصبح كل هؤلاء يحسبون حسابا أكبر للقوة الاقتصادية العربية المكتسبة حديثا وتأثيرها المحتمل على الاقتصاد الرأسمالي العالمي .

(٢) تحرك دول السوق الاوروبية المشتركة واليابان خلال حرب اكتوبر باتجاه قريبا أكثر فأكثر من التفسير العربي لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ والمطالب العربية بضممان حقوق الشعب الفلسطيني . الا أن هذا التحرك لم يعط كل النتائج المطلوبة إذ تركت الدول الاوروبية واليابان الساحة كليا للولايات المتحدة ومكنتها من احتكار دور « صانع السلام » في الشرق الاوسط بدون أية محاولة من قبلها للمشاركة الفعالة في هذا الدور وبالمبادرات التي ينطوي عليها . وقد تم كل ذلك بحجة عجز دول السوق الاوروبية واليابان عن الضغط على امريكا والتأثير على سياستها في المنطقة فاكثقت هذه الدول بتسجيل المواقف والادلاء بالتصريحات « المتوازنة » وحتى المؤيدة صراحة

للسياسات العربية الرسمية . ولا شك ان من شأن «الضغط» النفطي على هذه الدول دفعها الى اتباع سياسات أكثر ديناميكية ازاء تحقيق التسوية السلمية في المنطقة والى بلورة سياسة أكثر استقلالا عن أمريكا في ميداني الطاقة والعلاقات الخارجية ، وأكثر مقدرة على مقاومة الضغوط الأمريكية الآتية عبر معاهدة الحلف الاطلسي . ويستدعي هذا الواقع تركيز الانتباه الدبلوماسي العربي على الدول الأوروبية واليابان لحملها على التحرك بالاتجاه المذكور وفضح الحجة القائلة بعجز هذه الدول عن التأثير على أمريكا والضغط عليها باعتبارها لا أكثر من اعداء واهية يقصد بها دعم السياسة الأمريكية (مهما كانت) ضمنا والظهور بمظهر المحايد او المتعاطف او المؤيد للعرب علنا .

(٣) قيام حوالي ٣٠ دولة أفريقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل وعلان الدول الإسلامية وكتلة الدول غير المنحازة دعمها غير المشروط للقضية العربية . طبعاً هذا لا يعني أن سلاح البترول وحده هو المسؤول عن هذه التطورات الهامة في صفوف الدول النامية . هناك أيضاً الشعور العميق بالمصالح المشتركة وبالمصير المشترك الذي يربط كل الدول النامية ببعضها . ومن ناقل القول ان هذه الإجراءات ادت الى تصعيد عزلة إسرائيل الدولية والدبلوماسية الى درجة لم يسبق لها مثيل، قبل ما ترك آثارا سلبية هامة داخل إسرائيل نفسها .

ننتقل الان الى مناقشة الاتجاهات العامة التي نتوقع بأن تسير وفقاً لها التطورات القادمة على جبهة البترول نتيجة استخدام سلاح النفط العربي على النحو الذي رأينا ونتيجة الآثار التي أفرزتها هذه الخطوة . يبدو ان هناك اتجاهات متعاظما نحو اقامة علاقات ثنائية بين الدول المستهلكة والدول العربية المنتجة بسبب الاختلاف في اوضاع مصادر الطاقة بين بلد مستهلك وآخر . وينطبق هذا بصورة خاصة على البلدان التي لا تتوفر فيها مصادر جيدة للطاقة مثل اليابان التي تجد نفسها مدفوعة بحكم الضرورة الى تحسين علاقاتها بالدول المنتجة . كذلك بذلت كل من فرنسا وإيطاليا (واليابان) جهوداً كبيرة لضمان حصولها على حاجاتها من النفط على امتداد فترات طويلة الامد نسبياً ولايجاد اسواق جديدة لمنتجاتها في البلدان النفطية . وأخذ هذا الجهد شكل عقد مفاوضات واتفاقيات مع الدول المعنية تبلغ قيمتها مليارات الدولارات . ويعني ارتباط مثل هذه الدول الصناعية بالبترول العربي لاجال طويلة اضعاف قدرتها على رفض تزويد الدول العربية بالاسلحة التي تحتاج اليها خاصة وان الدول المستهلكة المذكورة تعاني عجزاً كبيراً في ميزان مدفوعاتها وتتكبد نفقات مرتفعة جداً لانتاج اسلحتها . لا شك ان الدول العربية القريبة من إسرائيل وإيران مهتمة ليس بتسليح نفسها فحسب ، بل بتنويع مصادر سلاحها أيضاً وستسهل الاتفاقات الثنائية هذه العملية (اذا عرفت) الدول العربية كيف تستفيد من الفرصة المتاحة بمهارة) كما يمكنها أن تساعد في انتقال التكنولوجيا الحديثة (الحربية وغير الحربية) والمواد الاستراتيجية الى العالم العربي . بعبارة أخرى أصبحت الفرص مفتوحة امام العالم العربي أكثر من أي وقت مضى لبناء قدراته العسكرية بشكل لائق وتحديث نفسه بسرعة وعلى أساس من التصنيع الثقيل والمتوسط . اما على الصعيد السياسي فمن شأن استثمار الرصاصات العربية في الدول الاجنبية والصناعية منها خاصة — ان كان في مجالات التسليف الطويل الامد او التوظيفات — ان يؤدي في المستقبل الى ارتباط هذه الاستثمارات بشروط سياسية ضمنية او صريحة — بالإضافة الى الضمانات التقليدية للاستثمارات — على الدول المعنية احترامها اذا لم ترغب في انقطاع الرساميل المذكورة عن اسواقها . بعبارة أخرى ستجد الدول المحتاجة الى الاستثمارات العربية نفسها

مضطرة لأخضاع بعض أوجه سياستها الخارجية لمصالحها الاقتصادية المرتبطة بالعالم العربي .

في الواقع إذا تحقق مثل هذا النمو في العالم العربي وتعاضمت قدراته المالية وقوي مركزه الدولي فإنه لن يضطر الى اللجوء مباشرة لسلاح النفط (عن طريق حجه كليا او جزئيا عن العالم) من أجل تحقيق اهدافه السياسية وممارسة التأثير الدولي الذي يتناسب مع وزنه وطاقاته . عندئذ سيصبح سلاح النفط لا اكثر من واحد من الاسلحة الكثيرة المتوافرة لدى العالم العربي ولا يجري اللجوء اليه الا في الحالات القصوى . الا ان مثل هذه التطورات ما زالت مرتبطة بالمستقبل البعيد . في الوقت الحاضر يبقى سلاح النفط اهم سلاح متوفر عربيا اذا استخدم بالتنسيق الكامل مع الجهود العسكري العربي .

لكن يجب الا يغيب عن بالنا الجانب الاخر من هذا الموضوع وهو الدول النامية وشعوبها . اذ باستطاعة الدول الصناعية الكبرى التكيف مع التأثيرات التي ولدها ارتفاع اسعار البترول على اقتصادياتها وعلى موازين مدفوعاتها . اما أمل الغالبية العظمى من الدول النامية في تحقيق مثل هذا التكيف فهو مثل أمل ابليس في الجنة . وينطبق هذا الاعتبار بصورة خاصة على الدول الاكثر فقرا والتي يصل تعدادها الى حوالي ٤٠ بلدا تضم ما يقارب من مليار نسمة . هذه الدول مضطرة للانفاق بما يفوق قدراتها استيراد الطاقة والاغذية والاسمدة التي تتصاعد اسعارها باستمرار . تترتب واجبات مهمة على الدول العربية ازاء هذه البلدان وشعوبها عند اتخاذ اي قرار في المستقبل بالعودة لاستخدام سلاح النفط او دفع اسعاره او تخفيض انتاجه . ولا شك ان استشعار البلدان العربية لهذا الواجب وتقديرها له سيؤدي الى تلاحم اكبر بين العالم العربي وبقية دول العالم الثالث مما سيكون له تأثيراته الايجابية الهامة على النزاع العربي - الاسرائيلي او على اي نزاع حاد قد ينشأ بين الدول الرأسمالية الصناعية والدول المنتجة للمواد الخام عموما وللبنترول على وجه التحديد .

يبدو لنا ان العودة الى استخدام سلاح النفط العربي مسألة لا مناص منها في المستقبل القريب . ففي حال استمرار الولايات المتحدة بتسليح اسرائيل بكثافة ورفضها الضغط بصورة جدية لأخراج جيوش الاحتلال من الاراضي العربية ، وفي حال اندلاع حرب جديدة في المنطقة او حتى في حال العودة الى توازنات حالة اللإسلام واللاحرب المعروفة لن تتمكن اية دولة عربية من الامتناع عن شهر سلاح النفط مجددا او اقتحامه في المعركة مرة اخرى . وأمام هذا الاحتمال المرجح لا بد من اتخاذ اجراءات وقائية وتحضيرية من الان لضمان اكبر قدر ممكن من النجاح عندما تحين الساعات الحاسنة بالنسبة لسلاح النفط . ومن اهم هذه الاجراءات الضرورية في رأينا : (أ) المحافظة على مستوى اسعار النفط الحقيقية وليس الاسمية فقط (أي حماية العائدات) في وجه الضغوط التي تمارسها الدول المستهلكة لتخفيض الاسعار حتى لو استدعى ذلك خفض مستوى الانتاج . الواقع هو أن الاسعار الحقيقية تتجه حاليا نحو التدهور بسبب التضخم المتصاعد الذي يعاني منه النظام الرأسمالي والتقلب الدائم في اسعار العملات الرئيسية التي يجري التعامل بها في بيع البترول وشرائه . وجدير بالاشارة ان دول الاوبك ناقشت مشروعا لضبط مستويات الانتاج وتنسيقها بهدف دعم المستوى الحالي لاسعار البترول (وهذا اضعف الايمان) . لكن حتى الان لم تتخذ أية اجراءات جذرية في هذا المجال وما زالت دول الاوبك تستخدم الاجراءات المالية والتسعيرية المحض

للمحافظة على مستوى الاسعار الحالي بدون اللجوء الى خفض الانتاج* . ومما يبعث على الارتياح في الوقت الحاضر انه ما من دولة بترولية ذات شأن في الاوبيك ، باستثناء المملكة العربية السعودية ، تميل الى فكرة خفض اسعار النفط السائدة حاليا . وعلى الرغم من التأثير الكبير الذي تمارسه السعودية في المنظمة لن يكون بإمكانها على ما يبدو كسر الاسعار بمفردها وبدون الاتفاق والتحالف مع دول منتجة هامة اخرى . ولا يظهر ان مثل هذا التحالف وارد في المستقبل المنظور لان مزاج الاكثية الساحقة من دول الاوبيك لا يميل الى الابقاء على المستوى الحالي للاسعار فحسب ، بل يطالب برفعها لاجل تعويض الخسائر الناجمة عن تصاعد التضخم المالي العالمي . (ب) التعاون الحميم والسريع بين الدول العربية المنتجة للبتترول (بمشاركة اكبر عدد ممكن من دول الاوبيك) مع البلدان المصدرة للمواد الخام بهدف الضغط لادخال تعديلات اساسية وكبيرة على النظام الاقتصادي العالمي واصلاحه بحيث تتحقق علاقات اقل اجحافا واكثر توازنا ومساواة في عمليات التبادل التجارية مع البلدان الصناعية المستهلكة للمواد الاولية والبتترول . (ج) التحول الكامل للمجازفات التي ينطوي عليها استخدام سلاح النفط مجددا والاستعداد لتطويقها بكافة الوسائل الممكنة . وسنذكر بعض الامثلة عن الاوضاع الخطرة التي يمكن ان تنشأ في مثل هذه الحالة وضرورة التعامل معها بروية وبعد نظر . في حال فرض حظر جديد على تصدير النفط ستتذرع الدول المستهلكة بارتفاع الاسعار لقيام باعمال عدوانية على الاراضي العربية لذلك لا بد من اتفاق بين البلدان المعنية على تثبيت الاسعار عند حد معين خلال فترة الحظر لسلب الدول المستهلكة من ذريعتها . وينطبق هذا الاعتبار بصورة خاصة على فترات الانكماش الاقتصادي الشديد في الدول الرأسمالية . كما ان استخدام سلاح النفط يفرض اعباء غير متساوية على الدول العربية المنتجة بمعنى ان الدول ذات الانتاج الصغير نسبيا وعدد السكان الكبير - العراق والجزائر مثلا - ستعاني معاناة اشد نتيجة انخفاض الانتاج والعائدات من الدول ذات الانتاج الكبير اصلا وتعداد السكان الضئيل . وفي حال اضطرار العالم العربي الى استخدام سلاح النفط لفترة طويلة نوعا ما لا بد من توزيع الاعباء على اسس اكثر عدلا مما يسمح به الوضع القائم حاليا . هذا مع العلم ان بقاء البترول في باطن الارض في الظروف الاقتصادية العالمية الراهنة هو افضل بكثير من الاموال المودعة في البنوك . هناك ايضا مسألة دراسة امكانات اكتشاف احتياطي جديد من البترول خارج العالم العربي مما قد يكون له تأثير على استخدام سلاح النفط وفعاليتها . وواضح ان مثل هذا التطور يعتمد على حجم الاحتياطي المكتشف والمدة التي يحتاجها لتصنيعه** . وما اذا كان سيستخدم في الاستهلاك المحلي ام لاغراض التجارة في سوق البترول الدولية . وكتقدير اولي يبدو لنا انه من المستبعد ان يؤثر الاحتياطي المعروف وأي احتياطي يجري اكتشافه خارج العالم العربي على فعالية سلاح النفط قبل ثمانينات هذا القرن . لكن مع حلول النصف الثاني من العقد القادم عليها سلاح النفط العربي . مما يعني انه على الدول العربية الاستفادة القصوى من هذا السلاح في اقرب الفرص الممكنة .

لا بد لاي عزم عربي بالعودة الى استخدام سلاح النفط من مواجهة خطرين كبيرين

* انظر شؤون فلسطينية ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

** نفس المصدر ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

مترابطين : وكالة الطاقة الدولية (١٨ دولة مستهلكة بقيادة أمريكا وباستثناء فرنسا)
والتهديدات الأمريكية باستخدام القوة المسلحة للرد على أي خطر نفطي عربي جدي .
وكالة الطاقة الدولية ليست أكثر من أداة بخدمة السياسة الأمريكية هدفها تحطيم
منظمة الأوبك وما أصبحت تتمتع به من قوة وإجبار الدول الاعضاء على تخفيض
أسعار البترول . وكان توماس أندرس - مساعد وزير الخارجية الأمريكي المسؤول
عن السياسة النفطية الأمريكية - صريحا حول هذه النقطة عندما دعا في مقابلة
اجراها معه التلفزيون البريطاني (٦ نيسان ١٩٧٥) وقبل يوم واحد من الاجتماع
التحضيري لؤتمر الدول المستهلكة والمنتجة للنفط الذي انعقد وفشل في باريس) الى
انهاء الأوبك باعتبارها « كارتيال دولية قوية أكثر مما يجب » وأهم ما تركز وكالة
الطاقة الدولية على تحقيقه هو وضع خطة عملية تتشارك بموجبها الدول الاعضاء في
اقتسام البترول المتوافر لديها في حال قيام أي خطر على شحن النفط او الحد من تدفقه
بنسبة تزيد على ٧ بالمائة بالقياس الى المستويات السائدة وقتها . وتريد الولايات
المتحدة من وراء خطة المشاركة هذه اضعاف التأثيرات التي سيولدها استخدام سلاح
النفط على الدول الاعضاء في الوكالة الاكثر تعرضا لمخاطره وذلك عن طريق توزيع
الاعباء بصورة مناسبة فيما بينها . ويفرض هذا الترتيب على الدول العربية ضرورة
خفض الانتاج بنسب أكبر بكثير مما فعلت في السابق عندما تعود الى قذف سلاح النفط
في المعركة وذلك لالغاء مفعول الاجراءات الوقائية التي تعمل وكالة الطاقة على
تنبيهها منذ الان ومفعول كميات النفط المخزونة لدى الدول المعنية .

أما بالنسبة للتهديدات الرسمية الصادرة عن حكومة الولايات المتحدة فقد ورد
أهمها وأكثرها عنفا في مقابلة شهيرة أجرتها مجلة « بيزنيس ويك » مع كيسينجر*
(١٣ كانون الثاني ١٩٧٥) . ولا شك ان هدف هذه التهديدات هو ردع العرب ومنعهم
من العودة لاستخدام سلاح النفط لان الوزير الأمريكي استبعد اللجوء للقوة نتيجة
ارتفاع اسعار النفط فقط . خفف كيسينجر من وقع تصريحاته باستبعاده استخدام
القوة ضد المملكة العربية السعودية التي يفترض بها أن تكون الهدف الاول لمثل هذا
التدخل . صرح في مطار الرياض في ١٥ آذار ١٩٧٥ قائلا بأن الملك فيصل وغيره من
كبار المسؤولين لفتوا انتباهه الى مقالات صحافية ذكرت امكان حدوث تدخل أمريكي
مسلح في المنطقة . وأضاف كيسينجر قائلا بأنه أكد للملك فيصل والسلطات السعودية
بصورة قاطعة بأن علاقات بلاده مع السعودية تستند الى الصداقة والتعاون ولا يمكن
ان تشكل التهديدات - ان كانت عسكرية او غيرها - جزءا من هذه العلاقات القائمة
على التعاون وليس المجابهة . على الرغم من هذا « التطمين » واضح انه على البلدان
التي تنوي استخدام نقطها كسلاح سياسي ان تعد نفسها لاحتمال تدخل أمريكي مسلح
لمنعها من القيام بمثل هذا العمل . كما ينبغي عليها ان تعلن عن طبيعة استعداداتها من
اجل مفعولها الردعي . وتقتنع الخصم بأنها لن تتوانى عن استخدام اجراءاتها الرادعة
(تدمير منشآت النفط) ان دعت الحاجة لذلك . بعبارة اخرى على الدول العربية
المعنية اللجوء الى التكتيك الأمريكي نفسه . فالحكومة الأمريكية تهدد بسبب التأثير
الرادع لتهديداتها القائلة بأنها على استعداد للتدخل العسكري على أرض دولة نفطية
أو أكثر اذا استخدمت الدول العربية سلاح النفط بطريقة موجعة للغرب . كذلك ما
على الدول العربية الا التهديد باتخاذ الاجراءات الرادعة - مثل نصف المنشآت النفطية
وتخريبها - في حال حدوث مثل هذا التدخل . ويحمل هذا الموضوع أهمية خاصة

* انظر « شؤون فلسطينية » ، عدد ٤٦ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٥ ، ص ١٩٨ .

لان تهديدات كيسيونجر حددت بأن اللجوء الى القوة لن يحدث الا اذا وصل الاقتصاد الغربي الى نقطة « الاختناق » نتيجة استخدام سلاح النفط . بطبيعة الحال الولايات المتحدة وحدها تقرر متى تصل الحالة الاقتصادية الى درجة الاختناق . ومعروف ان الاسباب التي يمكن ان تؤدي الى مثل هذه الحالة متعددة وقد لا يكون اهمها البترول . وليس من المستبعد على الاطلاق ان تلجأ الولايات المتحدة الى أعمال حربية من هذا النوع للخروج من حالة « اختناق » يكون سببها اشياء اخرى غير البترول مثل الازمة البنيوية المستعصية التي تعصف بالاقتصاد الرأسمالي بكامله . وقد أشار المعلق السياسي الليبرالي الامريكي المعروف اي. ف. ستون في مقال له بعنوان « الحرب من أجل النفط » الى هذا الاحتمال (الوارد جدا) ذاكرا نزعة النخبة الامريكية الحاكمة لاستعمال العنف والجوء الى القوة عندما تشعر بالحصار الذي تفرضه عليها معضلات المجتمع السياسية والاقتصادية المعقدة . (يذكر ستون ان نزعة مشابهة تسيطر كذلك على الدوائر الحاكمة في اسرائيل) . ومما يزيد في اهمية هذا التحليل الخسائر والهزائم التي منيت بها الولايات المتحدة مؤخرا في اماكن مختلفة من العالم مثل الهند الصينية وقبرص وتركيا واليونان والبرتغال . وجاء السلوك العنيف بلا مبرر الذي سلكته امريكا في حادثة سفينة التجسس ماياغويز على الحدود الكيبودية اصدق شاهد على هذه النزعة . بعبارة اخرى الدول الامبريالية كثيرا ما تلجأ الى الحروب والمغامرات العسكرية لتخطي الازمات الداخلية والتناقضات التي تعصف بتركيبها الاجتماعي والاقتصادي . وما من شيء يمنع الولايات المتحدة من سلوك هذه الطريق بعد لوم العرب « بخرق العالم » ببتروهم . فاذا كانت الدول العربية تنوي حقا استخدام سلاح البترول في المستقبل عليها ان تخطط لذلك مسبقا وتتخذ الاجراءات اللازمة لحماية نفسها مما تعلن امريكا صراحة بانها على استعداد لتنفيذه عندما تحين الساعة الحاسمة . ومن اهم الاجراءات التي يمكن للدول العربية الاستعداد لاتخاذها — بالاضافة الى نسف الابار والحقول — تدمير محطات التجميع ومحطات الكهرباء في حقول النفط التي لا يمكن بدونها استخراج البترول ونقله خاصة وأن اعادة بناء هذه المحطات عملية صعبة ومكلفة وتستغرق وقتا طويلا نسيا (من سنة الى سنتين) . ومن الاهمية بمكان توجه الاعلام العربي الى الرأي العام في الدول المستهلكة لاجباره بأن تدمير منشآت النفط في حال حدوث تدخل عسكري خارجي يعني انقطاع تدفق البترول العربي لدة لا تقل عن سنة . مما سينزل نزول الكارثة الماحقة على اقتصاديات هذه الدول وخاصة الاوروبية منها واليابان . من الاهمية بمكان ايضا استعداد الدول العربية ماليا لوقوع مثل هذا الاحتمال الذي سيؤدي الى انقطاع المداخل النفطية بطبيعة الحال . بعبارة اخرى يستدعي استخدام سلاح النفط في المستقبل اخذ كافة هذه العوامل بعين الاعتبار والاستعداد لاسوأ الاحتمالات لان استخدام سلاح النفط برهن بها لا يترك مجالاً للشك على فاعلية عالية وعلى استعداد العرب لشهره عندما تدعو الحاجة القسوى الى ذلك وقضية فلسطين تحدد دوما ساعة حلول هذه الحاجة بالنسبة لهم .

أسس الايديولوجية الصهيونية

ماهر الشريف

لقد استطاعت الايديولوجية الصهيونية خلق جسم مترابط من الافكار المنبثقة عن المعتقدات والاساطير والحوادث التاريخية حقيقية كانت أم مزيفة ، لتخفي بذلك تاريخ نشوئها والتناقض الصارخ القائم بين شكلها ومضمونها الطبقي . وتقوم هذه الايديولوجية الرجعية على « دماغوجية اجتماعية بلاحياء ، وتؤثر على اناس مؤمنين غير ثابتين ايديولوجيا وغير واعين سياسيا » (١) . ويعتمد مبشروها في الترويج لها على العاطفة لا على الفكر ، كما يعتمدون على جهل البعض بالدوافع والظروف التاريخية التي رافقت ولادتها .

الايديولوجية الصهيونية هي بنية فوقية معقدة ، مبنية بشكل دقيق ، قادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة ، بحيث أصبح وعي ملايين الناس تجاهها — يهودا أو غير يهود — عاجزا عن التمييز بين الحقيقة والميتافيزيقيا ، بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخيا ، بين ما ينفع وما يضر بالجماهير اليهودية . وأصبح كل نقاش يدور حول جوهر هذه الايديولوجية وأصل نشوئها التاريخي ، لا يقوم بناء على وقائع مادية ملموسة ، وإنما بناء على قضايا مجردة متعلقة بالايديولوجية مثل : الايمان ، التميز ، التراث الثقافي ، الطموح القومي ، الحقوق « التاريخية » ، اللاسامية الابدية . . . الخ . وهكذا يحل المفهوم المثالي والخلقي للتاريخ ، القائم على اساطير وتنبؤات تاريخية يفترض انها ما زالت حية منذ القدم حتى يومنا هذا ، محل مفهومه المادي والديالكتيكي . ان محاربة الصهيونية كايديولوجية رجعية وكشف تضليلاتها ليس ضربا من اللاسامية كما يدعي أنصارها ، وذلك استنادا الى المعادلة التي وضعوها : معاداة الصهيونية يعني اللاسامية ، وإنما العكس هو الصحيح تماما .

ان محاربة الايديولوجية الصهيونية ، تهدف الى منع جميع اليهود من تبني هذه الايديولوجية العنصرية والعدوانية . انها تهدف الى معارضة موضوعة « الحقن الابدي على اليهود » بالاخوة والتضامن الاممي بين الجماهير الكادحة قاطبة ، انها تهدف الى الفصل مع « لينين » بين « الصفات النبيلة والتقدمية للثقافة اليهودية » وبين الموضوعات الشوفينية العرقية التي تصفها الصهيونية بـ « التراث الثقافي للشعب اليهودي » ، لتخفي بذلك انها موضوعات ايديولوجية ، وضعتها طبقة اجتماعية معينة — البرجوازية الكبيرة اليهودية — لتخدم أهدافها الطبقية وسخرتها لخدمة الامبريالية العالمية .

تنحصر الافكار الرئيسية للصهيونية كما صاغها « كلاسيكوها » تيودور هرتزل وليو بنسکر وبورخوف وغيرهم بما يلي : « اليهود هم شعب الله المختار » و « اليهود هم شعب ذو مصر تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الاخرى » و « كل يهودي ينتمي الى « الأمة اليهودية » » و « يجب على اليهود ان يطمحوا لموطنهم القديم — فلسطين — » .

اعتمادا على هذه الافكار الرئيسية يمكننا القول بأن الاساس الاول للايديولوجية الصهيونية ، هو الموضوعة القائلة بأن اليهود المتفرقين في العالم ، يشكلون أمة ، وان هذه الأمة تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى أرض فلسطين واقامة دولتها .

ان وثيقة اعلان قيام دولة اسرائيل الصادرة في 15 ايار 1948 تدعي بأن « الشعب اليهودي الذي طرد من دولة اسرائيل قد بقي وغيا لدولته في جميع بلدان تشتته ، وانه كان يصلي دوما للعودة اليها ، متأملا باستعادة حريته القومية . ولقد كان اليهود الذين تملكهم هذا الرابط التاريخي يبذلون دوما الجهود الشاقة ، خلال قرون متعاقبة للعودة الى أرض اجدادهم واعادة بناء دولتهم » (٢) .

انه من غير المجدي التأكيد كثيرا على زيف موضوعة « الأمة اليهودية » ، فالامم « ليست ازلية بمعنى أنها تتشكل في زمان ومكان معينين، ثم تخلد عبر العصور والازمنة، غير متأثرة بتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم » (٣) . ان الأمة هي نتاج تطور اجتماعي تاريخي ، تنشأ نتيجة للروابط الاقتصادية المتكونة ، ولتحول الاسواق المحلية الى سوق وطنية موحدة ، مكونة لغة واحدة وأرضا واحدة وثقافة واحدة . ان الادعاء بأن اليهود يشكلون أمة ثابتة عبر التاريخ لا يمكن له أن يثبت أمام أي مفهوم علمي للأمة . فهذه « الأمة » المزعومة ، تفتقر للحد الأدنى من العوامل الضرورية — والمحقق عليها علميا — لوجود الأمة . ان « بنسكرا » نفسه يعترف بأن « الشعب اليهودي يتقضه أغلب العوامل التي تشكل الشرط الذي لا غنى عنه لوجود الأمة » (٤) . ومع هذا فهو يصر على أن « الأمة اليهودية » موجودة بسبب « وحدة التكوين الروحي » لليهود ، و« ماضيهم التاريخي الواحد » و« دينهم الواحد » . . . الخ وهكذا تحل العوامل الميتولوجية محل العوامل العلمية . فحتى وحدة الدين هي قضية نسبية تماما . فالدين لم يكن في يوم من الايام ميزة من ميزات الأمة . فمواطنو أمة واحدة في بلد واحد ، يمكن أن ينتموا — وهم عادة ينتمون — الى مختلف المذاهب الدينية .

وتشكل موضوعة « الأمة اليهودية » التي تتطلع منذ الفي سنة للعودة الى صهيون ، وبناء دولتها ، احدى التزييفات الفاضحة للتاريخ . فالرجوع الى المعطيات العلمية يثبت أن مجمل ما حصل في حياة ومصير الشعب اليهودي القديم مماثل الى حد ما ، لطبيعة قيام وتطور دول عهد العبودية . فقد كان ذلك العهد ، هو عهد الحروب القبلية المتواصلة التي كانت تنشب من أجل النهب وامتلاك العبيد والاستيلاء على أفضل الاراضي . وكانت اشكال الدولة تتعاقب ، والاقوام والقبائل تتخالط فيما بينها ، وتنقل للعيش في البلدان المجاورة .

لقد سار الشعب اليهودي القديم أيضا ، على مثل هذا الدرب بوجه عام : كانت أراضي فلسطين في العهود القديمة تقطنها قبائل من الكنعانيين (قرييين جدا من اليهود من حيث الاصل لكنهم ليسوا يهودا) ، الذين كانوا قد بلغوا مستوى ثقافيا عاليا نسبيا . وهم بالذات الذين أسسوا مدينة القدس حسبما ذكر في مخطوطات تل العمارنة المكتوبة باللغة المسمارية والتي تعود الى نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد (٥) . وفي نهاية القرن العاشر قبل الميلاد غزت أراضي فلسطين قبائل يهودية من البدو الرحل ، يعتقد أنها قد أتت من الجزيرة العربية ، حيث استطاعت القضاء على قسم من الكنعانيين ، ودمجت فيها القسم الآخر . اما الفلسطينيين الذين لم تكن لهم أية علاقة بالساميين فلقد تم التغلب عليهم على أيام داوود ، وبعد ذلك تم دمجهم .

ان التاريخ يبين بأن فلسطين لم تكن في يوم من الايام الوطن الاصلي لليهود .
والتوراة ملأى بالقصص التي تحكي عن عمليات غزو اليهود للارض الكنعانية . ومنذ
تلك الازمنة الغابرة ، اختلط اليهود بالسكان المحليين . وكان الكنعانيون « على درجة
اعلى من التطور الاجتماعي . أما القبائل اليهودية المؤلفة من الرحل والرعاة ، والتي
كانت في مرحلة التحول الى زراعيين وحرفيين وتجار حضريين ، فقد أخذت تستوعب
ثقافة وأشكال العلاقات الاجتماعية لدى الشعب المغلوب على أمره » (٦) .

عندما غزا الرومان المملكة اليهودية كان « أكثر من ثلاثة أرباع اليهود يسكنون خارج
فلسطين » (٧) ، ولم يكن ارتباطهم بالمملكة اليهودية في فلسطين ، ليظهر الا أثناء الحج الى
القدس لتأدية فرائضهم الدينية .

ولقد ظهر بين اليهود المنتشرين في العديد من أنحاء الامبراطورية الرومانية اتجاهان:
اتجاه للانعزال عن السكان الاصليين ، واتجاه للاندماج بهم والتكيف مع الواقع الجديد .
ولقد كان اتجاه الانعزال يقوى سواء بفعل عوامل خارجية قسرية ، كاسكان اليهود في
الغيتوات مثلا ، أو عن طريق سعي الاوساط الدينية اليهودية المحافظة ، للانعزال
الذاتي ، أي عزل اليهود « شعب الله المختار » عن بقية السكان ، والركون الى الله ،
وذلك خوفاً على ضياع « خصوصيات » اليهودي .

ويجب الملاحظة ، بأن ايديولوجيي الصهيونية ، قد اعتمدوا فيما بعد ، على هذا
الاتجاه الانعزالي القديم ، في ايجاد « حلهم » للمسألة اليهودية .

ولقد ساعد سقوط أنظمة القرون الوسطي ، وتطور الحريات السياسية في أوروبا ،
خاصة بعد اعلان مبادئ الثورة البرجوازية الافرنسية الكبرى ، على تقوية اتجاه
الاندماج والتكيف ، حيث بدأت الجماهير اليهودية تتحرر سياسيا وتنال حقوقها
الديمقراطية ، وتنقل من التحدث بلغتها الى التكلم بلغة الشعوب التي تعيش بينها ،
كما كانت تسعى للاندماج في حياة هذه الشعوب الاقتصادية والثقافية .

ومع تطور الرأسمالية ، ازدادت فئة العمال اليهود في صفوف البروليتاريا ، كما
ازدادت مشاركتهم في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الثورية ، مما أثار قلق
البرجوازيات الأوروبية السائدة (خاصة البرجوازية الامبريالية الانكليزية) ، ودفعها
للتعاون مع البرجوازية الكبيرة اليهودية ، للعمل سوية على صرف نضال العمال
الثوريين اليهود ، وابعادهم عن المساهمة في صفوف الحركة الثورية (٨) ، خاصة في
روسيا القيصرية .

لقد كان اتجاه الاندماج ، والنضال المشترك في سبيل التحرر الاجتماعي لجماهير
الكادحين قاطبة ، هو الاتجاه المعبر عن الحل التقدمي للمسألة اليهودية . ولقد حظي
هذا الاتجاه على دعم الحركة الثورية العالمية ، وتبناه « كارل ماركس » و« لينين » من
بعده .

ان الاساس الثاني للايديولوجية الصهيونية ، هو موضوعة تميز اليهودي عن غيره
من البشر بخصوصياته العرقية الفريدة . يقول « ناحوم سوكولوف » : « ليس ثمة
أجناس نقية نقاوة مطلقة ، لكن اليهود ، دونما ريب ، أنقى أمة بين أهم العالم
المتمدنة » (٩) . ويؤكد ايديولوجيو الصهيونية على أن تميز اليهودي بخصوصياته
العرقية ، هو سبب الحقد الدائم الذي يكنه غير اليهودي له . كما يؤكدون على أن جميع
الشعوب التي يعيش اليهود بينها ، هي ذات نزعة لاسامية ظاهرة ام مخفية (١٠) .

ويذهب « وايزمن » أبعد من هذا عندما يصر على أن « السبب الرئيسي للاسامية هو وجود اليهودي » بحد ذاته .

وهكذا ينتج حسب هذا الادعاء بأن اللاسامية هي ظاهرة ازلية ، رافقت ولادة اليهودية ولازمتها عبر كافة العصور المختلفة . كتب « ليو بنسكر » : « ان اليهودية والعداء لليهودية يسيران جنبا الى جنب عبر التاريخ منذ قرون عديدة . فاليهود هم الشعب المختار بسبب الحقد الابدي للبشرية » (١١) . كما كتب أيضا : « ان اللاسامية هستيريا المت بالنفس البشرية حتى صار الناس يتقارئونها كالمرض ، وبناتقالها عن طريق الوراثة طيلة ألف عام ، صارت مرضا عضالا لا شفاء منه » (١٢) .

ان اللاسامية الابدية ، ما هي الا بدعة ابتدعتها أدمغة ايدولوجيي الصهيونية . انه لمن الضروري اعادة الاعتبار للحقيقة ، وفضح الموضوعة القائلة بأن اليهود كانوا مضطهدين دوما . فالطبقة الغنية من اليهود لم تشارك جماهير الكادحين بؤسهم ، بل كانت دوما في وضع اجتماعي مميز ، حيث كانت تتمتع بامتيازات عديدة ، وقد ساهمت كجزء من الطبقات السائدة باضطهاد الجماهير الكادحة .

تورد « جالينا نيكييتينا » في كتابها « دولة اسرائيل » مثلا عن الامتيازات التي كان يتمتع بها اغنياء اليهود في روسيا القيصرية ، فتذكر انه « عند ادخال نظام التجنيد في روسيا سنة ١٨٢٧ ، لم ينطبق هذا النظام على الطبقات الغنية من اليهود ، وعندما اجريت الاصلاحات اليهودية ، كما يشير تقرير الوزير بلودوفوف ، كانت هناك دعوى لفصل السكان اليهود ذوي النفوذ من ناحية الاموال والتعليم عن الجماهير الغفيرة » (١٣) .

وهكذا كانت ظاهرة تشرد كادحي اليهود ، تترافق مع ظاهرة امتلاك اغنيائهم للعديد من الامتيازات ، وقد طبعت هاتان الظاهرتان المتلازمتان تاريخ التجمعات اليهودية . ومع ان هاتين الظاهرتين (التشرد وامتلاك الامتيازات) ، قد تبتعتان عن معطيات تاريخية مختلفة ، حسب المكان والزمان ، الا انهما كانتا ترتبطان دوما بالدور الذي يحتله اليهود في كل مجتمع .

ان « طبيعة » اليهودي لا يمكن تحليلها « انطلاقا من اعتبارات ميثولوجية بل من خلال الشروط الاجتماعية ونمط الحياة المعين الذي مارسه اليهود » (١٤) ، اي من محيط العلاقات الاجتماعية والصراع الطبقي .

ان اللاسامية هي ظاهرة تاريخية ، ولدت نتيجة ظروف معينة ، وتتلاشى بتغير هذه الظروف .

لقد كان السبب الرئيسي للاسامية العصور القديمة والوسطى يمكن في الدور الاجتماعي الذي كان يلعبه اليهودي في تلك المجتمعات ، والذي تمثل عموما بدور التاجر والمرابي . ولقد اثر تفاوت التقدم الاقتصادي والاجتماعي بين بلدان أوروبا ، على أشكال اللاسامية وعلى فترات ظهور موجات العداء لليهود ، وعلى طبيعة القوى الاجتماعية التي كانت تشن الحرب ضدهم . ففي بعض البلدان قاد النبلاء الصراع ضد اليهود ، وفي بلدان أخرى قامت البرجوازية الفتية بهذا الدور ، أما في ألمانيا مثلا فلقد نظمت الجماهير الشعبية من الفلاحين والحرفيين المذابح ضدهم .

ان اللاسامية الحديثة ، لا يمكن تحليلها دون أن نأخذ بعين الاعتبار ، الواقع الاجتماعي الذي يميز النظام الرأسمالي ، خاصة وجود طبقتين متناقضتين رئيسيتين : البرجوازية والبروليتاريا .

لقد أعطى « لينين » تعريفاً دقيقاً لظاهرة اللاسامية الحديثة حين قال : « ان اللاسامية هي اشاعة العداء ضد اليهود . فعندما شعرت الملكية القيصرية اللعينة ان نهايتها قد دنت ، حاولت تحريض العمال والفلاحين غير الواعين ضد اليهود . وقد نظمت شرطة القيصير ، المتحالفة مع ملاكي الاراضي الكبار ومع الرأسماليين ، المجازر ضدهم . لقد عمل الملاكون الاقطاعيون والمستغلون كل ما بوسعهم ، لحرف الحقد الذي يكنه لهم العمال والفلاحون المعدمون ، وتوجيهه ضد اليهود .

ويحدث في بلدان أخرى ، ان يؤجج الرأسماليون اللاسامية بالقاء غشاوة على عيون العمال ، وحرفهم عن النضال ضد عدوهم الحقيقي : رأس المال .

ان أعداء العمال ليسوا اليهود . ان أعداء العمال هم رأسماليو جميع البلدان . يوجد بين اليهود عمال يشكلون الاكثية . انهم اخواننا ورفاقنا في النضال من أجل الاشتراكية ، فهم مضطهدون مثلنا من قبل رأس المال . ويوجد بين اليهود ، كما يوجد بيننا ، فلاحون أغنياء مستثمرون ورأسماليون .

ويحاول الرأسماليون جهدهم ، لتأجيج العداء بين العمال من مختلف الاديان ومختلف القوميات ومختلف الاجناس . ان أغنياء اليهود ، مثلهم مثل أغنياء الروس وأغنياء العالم اجمع ، يدوسون بأقدامهم العمال ، يضطهدونهم ويفرقونهم « (١٥) .

وهكذا ، لا يمكننا البحث عن جذور اللاسامية الحديثة — حسب تعريف « لينين » لها — في « خصوصية » اليهودي ، وانما في سعي الطبقات البرجوازية السائدة ، لتفريق صفوف العمال ، وحرقهم عن النضال ضد عدوهم المشترك : رأس المال .

ان الموضوعه القائلة بأن الصهيونية قد ولدت نتيجة لظاهرة اللاسامية ، وانها الرد الطبيعي عليها ، قد اصبحت احدي الركائز الاساسية للايديولوجية الصهيونية .

ويعتمد ايديولوجيو الصهيونية على فكرة اللاسامية الابدية للادعاء بأن الصهيونية ، قديمة قدم تشنتت اليهود في أرجاء المعمورة وانها « الشيء الذي كانوا [هم اليهود م.ش] يتوقون اليه على مر الاجيال ، لكنه الشيء الذي لم يكونوا يدركونه بفعل الصدفة فقط » (١٦) .

وهكذا فالصدفة كانت العائق الوحيد الذي اعاق اليهود عن ادراك الصهيونية ، التي لم تولد كحركة سياسية الا في أواخر القرن الماضي . ان محاولة ايديولوجيي الصهيونية تقليص حركة التاريخ على فعل الصدفة ونفي دور القوانين الموضوعية وتأثير القوى الاجتماعية المحركة ، يثبت مرة أخرى انهم ينظرون للتاريخ من خلال مفهوم مثالي غير علمي وغير دياكتيكي . ان هدفهم من وراء تزوير تاريخ الميلاد الحقيقي للصهيونية السياسية ما هو الا لطمس الجوهر الطبقي لهذه الحركة ، والتستر على مخططاتها العدوانية ، وعلى دورها في خدمة الامبريالية العالمية .

ان تطور الايديولوجية الصهيونية قد حددته التغيرات الاجتماعية — السياسية المرتبطة بقوانين تطور الامبريالية في نهاية القرن الماضي ، حيث تمكن القسم الاكثر شراة من البرجوازية اليهودية من التحول الى برجوازية احتكارية مرتبطة أوثق الارتباط بالرأسمال العالمي .

فالصهيونية هي الايديولوجية والممارسة الرجعية القومية للبرجوازية الكبيرة اليهودية .

يدعي ايديولوجيو الصهيونية ، ان المجازر التي شهدتها أوروبا الشرقية والوسطى ،

والتي ذهب ضحيتها الاف اليهود ، كانت وراء تطور الحركة الصهيونية وازدهار ايديولوجيتها !!

انه من الاكيد فيه بأن تلك المجازر الوحشية قد ساعدت على تطور الحركة الصهيونية السياسية ، حيث استغل الصهاينة تلك المجازر لدفع اليهود للانضواء تحت لواء حركتهم ، خاصة وانه لم يكن يكفي الحركة الصهيونية امتلاك الارض لاقامة « الدولة الموعودة » ، وانما كان يلزمها ايضا اقتناع الجماهير اليهودية الملاحقة ، بأن برنامجها الاستيطاني الكولونيالي قابل للتحقيق ، وانه الحل المنشود ، وذلك بهدف دفعها الى الهجرة .

ومع ذلك ، يجب التأكيد على أن اللاسامية لم تساعد فقط الصهيونية السياسية الامبريالية ، بل ساعدت أيضا حركات يهودية اخرى كانت تقدم طولا مختلفة للمسألة اليهودية . واذا استطاعت الحركة الصهيونية ان تتطور وأن تفرض نفسها أخيرا ، فهذا يرجع لطبيعتها الطبقية ، التي شكلت منذ تأسيسها ، قاعدة ارتباطها بالاستعمار ، الامبريالي العالمي .

لقد أحس ايديولوجيو الصهيونية منذ البداية ، بأن النزعة اللاسامية تشكل فائدة لهم ، حيث انها قد تساعد على ترويح ايديولوجيتهم بين الجماهير اليهودية ، حتى رأيانهم « يمدون يدا لاعداء السامية من أجل عقد التحالف الذي لم يحدث أن أخطوا به مرة واحدة طيلة تاريخ وجود المؤسسة الصهيونية الدولية » (١٧) . لقد كتب هرتزل في مذكراته : « في باريس اتسعت آفاق نظري الى اللاسامية التي بدأت أهمها تاريخيا ، وأغفر لها كل شيء . وأكثر من هذا فانني اعترف بتفاهة ولا جدوى النضال ضدها . وعلاوة على ذلك فان هذه القوة الجبارة المتمثلة فيها لن تجلب الضرر لليهود ، بل اعتبرها حركة مفيدة لتطوير الشخصية اليهودية » (١٨) .

أحيانا كثيرة ، يخطط الدارسون للايديولوجية الصهيونية بين أفكار الصهيونية كحركة للبرجوازية الكبيرة اليهودية وبين أفكار بعض المنظمات الدينية والمتصوفة اليهودية ومثال على هذا الخط ما يورده «فصل دراج» في مقاله « مسار الفكر الصهيوني » (١٩) حين يذكر بأن : « الأفكار الصهيونية الداعية الى ضرورة وجود وطن مستقل لليهود لم تكن في البدء واعية لبعدها الكولونيالي ، أي انها لم تلد مباشرة وبشكل واع كحركة كولونيالية وانما ولدت كرد فعل صوفي ضد واقع سيء يسيء اليهود شتى انواع الاضطهاد » .

لقد كانت الافكار الصهيونية الداعية الى بناء وطن مستقل لليهود واعية لبعدها الكولونيالي منذ البداية ، حيث كانت تعبر عن مصالح طبقة البرجوازية الاحتكارية اليهودية ، المتحالفة مع الامبريالية العالمية .

لقد كانت الايديولوجية الصهيونية تتناقض مع كافة الاتجاهات الدينية والمثالية التي كانت تطبع مختلف المنظمات اليهودية ، خاصة تلك التي كانت توجد في روسيا القيصرية . صحيح أن بعض هذه المنظمات ، مثل « عشاق صهيون » التي تأسست عام ١٨٨١ ، كانت تطرح فكرة الهجرة الى فلسطين للهروب من الملاحقات ، غير أنها كانت تعتبر فلسطين أرضا مقدسة ومكانا للصلاة والحج ، وليس كأرض هادفة الى إقامة دولة يهودية . لقد كانت الاتجاهات الدينية والصوفية اليهودية ، تعارض بشدة المشروع السياسي والكولونيالي الصهيوني ، حيث تراه متعارضاً مع الإرادة الالهية التي شنت لليهود في أنحاء المعمورة . فأقامة الدولة اليهودية وعودة الشعب اليهودي لاعادة تعمير المعبد ، لا يمكن ان تتحقق الا بعد ظهور « المسيح المنتظر » .

لقد كانت منظمات « عشاق صهيون » تهدف الى دفع اليهود للهجرة الى فلسطين بهدف « استيطانهم في مستعمرات زراعية بفلسطين ، وذلك بناء على تصورات مثالية ، خالية من أي بعد سياسي . وقد كانت هذه المنظمة غير مهتمة أبدا ، بل حتى تعارض الصهيونية السياسية التي كانت تسعى لبناء دولة » (٢٠).

كذلك لاقت الصهيونية معارضة اخرى ، بظهور الاحزاب الاشتراكية اليهودية ، كحزب البوند وحزب العمال اليهودي الاشتراكي وحزب عمال صهيون ، وذلك بالرغم من أن أفكار الصهيونية السياسية قد استطاعت التغلغل في صفوف هذه الاحزاب ، وطبعتها بطابع قومي شوفيني .

ولقد لاقت الصهيونية السياسية معارضة كبيرة في دوائر المثقفين اليهود . فلتقد أشار الكاتبان اليهوديان « أ. بونيسوك » و « م. فرنيكسل » في كتابهما « اليهود والصهيونية » ، الذي صدر في روسيا القيصرية سنة ١٨٩٨ الى أن الصهيونية هي « ظاهرة سطحية في جوهرها ، ولا تتناول الاحتياجات الحقيقية والاهداف التي يبتغيها الشعب اليهودي » (٢١) ، وقد عبرا عن ثقتهما بأنه عند تكوين الدولة اليهودية فأن البرجوازية اليهودية سوف تستولي على السلطة في يديها ، أما جماهير العمال فسوف تعزل عنها تماما وتتحول الى بروليتاريا مستقلة . كما أشار الى ان الصهيونيين هم « في حقيقة الامر قوميون ورجعيون » .

وفي الولايات المتحدة كان الصهيونيون « قلة تعارضهم كافة المنظمات اليهودية بما في ذلك اللجنة اليهودية الاميركية » (٢٢) ، كذلك كان الامر بالنسبة لفرنسا « حيث واجهت اقلية الصهيونيين معارضة الاتحاد اليهودي الفرنسي » (٢٣) ، أما في بريطانيا « فقد واجه الصهيونيون عداء اكثرية اليهود في البلاد ، بعضهم من أعيان اليهود في البلاد مثل ادمون مونتاغو الذي كان عضوا في الوزارة » (٢٤) .

لقد لاقت الحركة الصهيونية ، صعوبات عديدة لارغام الجماهير اليهودية على الهجرة الى فلسطين . ولقد كانت الوقائع تدحض فكرة « الحنين الدائم للعودة الى فلسطين » ، تلك الفكرة التي كان يشيعها ايديولوجيو الصهيونية . حتى أن « بنسکر » نفسه كان يتأفف من أن « كل ذكرى للوطن القديم قد انعدمت في نفوس اليهود » وأن الذي يمنع اليهود من تحسس ضرورة وجود كيان خاص بهم هو « واقع عدم تحسسهم للحاجة الى مثل هذا الكيان » (٢٥) .

لقد كان عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، في أواخر القرن الماضي ، ضعيفا جدا بالخارئة مع عدد المهاجرين منهم الى دول أوروبا الغربية وأميركا الشمالية . ففي عام (١٨٨٠) كان عدد اليهود في فلسطين (٢٣ ألف) يهودي ، وفي نهاية القرن كان عددهم لا يتجاوز (٥٦ ألفا) ، وذلك مع أخذنا بعين الاعتبار تأثير العامل الديموغرافي . وفي نفس الفترة ، هاجر ثلاثة ملايين يهودي الى بلدان اخرى ، خاصة الى الولايات المتحدة الاميركية (٢٦) .

لقد كانت ظاهرة الهجرة اليهودية في تلك الفترة ترتبط بظاهرة هجرة عامة ، أخذت حدودا كبيرة في أوروبا . ففي الفترة الواقعة بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٩٠٤ ، وصل الى مواليء بلدان أوروبا الغربية أكثر من خمسة عشر مليون مهاجر ، قدم غالبيتهم من دول أوروبا الوسطى والشرقية ، خاصة روسيا وجاليسيا . ولقد كانت تلك الهجرات ، التي ترافقت مع ظاهرة مماثلة هي الهجرة من الارياف الى المدن ، نتيجة من نتائج تطور الرأسمالية ودخولها طورها الاحتكاري . ولقد حظيت هذه الظاهرة بأهتمام

لينين الذي كتب : « تنتزع الرأسمالية الاميركية ، ملايين العمال من اوربا الشرقية المتخلفة . . . تنتزعهم من ظروفهم الشبيهة بظروف القرون الوسطى » (٢٧) .

وإذا كانت المنظمة الصهيونية العالمية قد وافقت في مؤتمرها الاول ، الذي عقدته في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، على فلسطين ، كوطن قومي لليهود ، على الرغم من معارضة « هرتزل » ، فذلك بهدف توحيد كافة الاتجاهات اليهودية ، وتجميعها في حركة عالمية ، تقودها البرجوازية الكبيرة اليهودية ، بحيث تكون قادرة على التصدي للعدو الاكبر للصهيونية الا وهو اندماج اليهود بالشعوب التي يعيشون بينها ، وأنضمام العناصر الواعية منهم للحركات التقدمية والثورية ، التي كانت تناضل في سبيل التحرر الاجتماعي لجماهير الكادحين قاطبة . ويضيف الدكتور « اميل توما » عاملا اخرًا كان وراء الاتفاق نهائيًا على اختيار فلسطين وهو « نشوء ظروف تساوقت فيها مصلحة الامبريالية البريطانية والصهيونية » (٢٨) .

يعتبر « ثيودور هرتزل » الاب الروحي للحركة الصهيونية . ولقد كان كتابه « الدولة اليهودية » الذي ظهر في الالمانية والامرنية والانكليزية سنة ١٨٩٦ ، بمثابة القاعدة الفكرية التي انعقد على أساسها المؤتمر الصهيوني الاول .

ان العطاء الرئيسي لكتاب « هرتزل » هو أنه قد رسم القواعد المادية والوسائل المالية والعملية ، اللازمة لتحقيق هدف بناء « الدولة اليهودية » ، الى جانب وضعه للاسس الايدولوجية الرئيسية التي قامت عليها الصهيونية السياسية .

لقد كان هرتزل ينطلق من أرضيته الايدولوجية والمصالح الطبقة الرأسمالية . ولقد استطاع بسهولة أن يلحح الخطر الكبير الذي يهدد مصالح البرجوازية الكبيرة اليهودية ، التي كانت تشكل جزءا من الطبقات السائدة ، خاصة وأن « المثقفين اليهود الذين لا يملكون الثروات يتوجهون جميعهم اليوم ، وبشكل طبيعي ، نحو الاشتراكية » (٢٩) ، أما اليهود الذين يتحولون الى عمال فهم « يتحولون الى ثوريين ، ويشكلون العناصر الفعالة ، داخل الاحزاب التخريبية » (٣٠) [أي الاحزاب الثورية م . ش] . وفي الوقت ذاته ، لاحظ هرتزل أن القوة المالية لاغنياء اليهود ، لا تتوقف عن الزيادة . لذلك اقترح تجميع اليهود قاطبة ، ضمن معسكر واحد ، ترفرف عليه راية السلام والمحبة الطبقة .

وكمرحلة نحو اقامة « الدولة اليهودية » التي لن تعرف الصراعات الطبقة ، اقترح هرتزل تأسيس « الشركة اليهودية » كشركة قائمة على اساس الاسهم ، ولقد أعطى لهذا الموضوع الجزء الاكبر من كتابه ، وذلك لانه كان يتوجه في المقام الاول الى « طبقة كبار المالكين اليهود » ، حيث أظهر لهم أن مشروعهم سيدير عليهم ارباحا خيالية ، فالايدي العاملة ستكون هناك [أي في الوطن الموعود م . ش] رخيصة جدا ، وفقراء اليهود سيهاجرون في البداية ، للقيام بالاعمال الجسمانية الشاقة لتهديب المكان استعدادا لاستقبال الميسورين منهم . وسيكون العمل منظما « على صعيد عسكري » (٣١) ، وسيترى الاولاد منذ البداية « في الاتجاه المطلوب » (٣٢) [أي اتجاه الشوفينية والعنصرية م . ش] .

ويظهر الطابع المعادي للديمقراطية ، وازدراء الجماهير الشعبية ، في كتابه بصورة جلية تماما فالديمقراطية « ستكون عاجزة في قراراتها ، وستقود الى المهاترات البرلمانية ، بدون القوة المعاكسة والمفيدة للملك » (٣٣) ، والجماهير الشعبية هي « أسوأ من البرلمانات ، لانها معرضة لتبني كافة المعتقدات الخاطئة » (٣٤) ، لذلك فالسياسة يجب

دوما « ممارستها من فوق » (٢٥)، ولهذا كله يجب بناء أجهزة قمعية متينة ف « الضباط وقوى البوليس يجب أن تمثل تقريبا عشر المهاجرين الذكور » (٢٦).

ويتوجه هرتزل منذ البداية الى مختلف قادة الدول الامبريالية ، فيعدها « بفوائد مباشرة » اذا دعمت مشروعه الكولونيالي ، خاصة وأن الدولة الصهيونية ستكون بمثابة مركز متقدم للامبريالية ضد آسيا ، مركز متقدم للمدنية ضد البربرية .

يختلف الدارسون في تحليل الجذور الطبقة للايديولوجية الصهيونية . فبعضهم يدعم الفكرة القائلة بأن هذه الايديولوجية هي ايديولوجية البرجوازية اليهودية الصغيرة « المختنقة بين الاقطاعية المنهارة والراسمالية الاخذة في الانحطاط » (٢٧)، وبالنسبة للبعض الاخر هي ايديولوجية البرجوازية اليهودية الكبيرة ، فهرتزل لم يوجه كراسه « الدولة اليهودية » الى : « البرجوازية اليهودية الوسطى التي يقال أنه انتهى اليها ، بل أصدره بمثابة نداء الى الممولين سعيا وراء رعايتهم لمشروعه ، والواقع أن الكراس كتب على أن يصدر في البداية تحت عنوان : الدولة اليهودية نداء الى عائلة روتشيلد » (٢٨).

اننا نعتقد بأن الرأي الثاني هو الاسلام . ولا ينفي في ذلك أن ايديولوجي الصهيونية الاوائل كانوا ينتمون الى طبقة البرجوازية اليهودية الصغيرة أو الوسطى ، فالانتماء الطبقي للبشر لا يكون بالضرورة وبصورة ميكانيكية متوافقا مع ايديولوجيتهم . ومن جهة أخرى ، فإن اعتماد الصهيونيين الاوائل على بعض الافكار الدينية والمثالية اليهودية القديمة ، في خلق ايديولوجيتهم ، لا ينفي أن الصهيونية هي ايديولوجية سياسية معاصرة ، نشأت في قرن محدد ، ونشطت في ظروف تاريخية ملموسة ، وذلك عندما ظهرت الطبقة الاجتماعية القادرة على انجاز مشروعاتها الكولونيالي الامبريالي — طبقة البرجوازية اليهودية الكبيرة — . فالافكار والايديولوجيات لا يمكن أن تظهر أبدا ، قبل ظهور القوى الاجتماعية القادرة على تجسيدها .

تحتل الايديولوجية الصهيونية مكانا بارزا في ترسانة الوسائل التي تستخدمها القوى الامبريالية للنضال ضد الافكار التقدمية والاشتراكية ، وللتأثير الفكري على الجماهير الشعبية .

وتملك الحركة الصهيونية العالمية ، ماكنة دعائية ضخمة « فتحت تصرفها ، وفق المعطيات الرسمية لنشرة « الصحافة اليهودية في العالم » الصادرة في لندن ، أكثر من ٨٥٠ صحيفة ومجلة .. » (٢٩). وتوجه الحركة الصهيونية العالمية ، نشاطها الدعائي ضد البلدان الاشتراكية ، وخاصة ضد الاتحاد السوفييتي ، وضد الحركة الشيوعية العالمية ، وضد النضال الوطني التحرري الذي تخوضه الشعوب العربية ، وخاصة الشعب العربي الفلسطيني .

تعاني الايديولوجية الصهيونية ، حاليا أزمة حادة ، تشهد عليها اعترافات زعماء الصهيونية الحاليين أنفسهم . وتتجلى هذه الازمة على جميع الاصعدة السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وأن هذه الايديولوجية الرجعية والثوفينية ، قد قامت على بنى مخالفة للعلم وغير متماسكة نظريا ، ولا يمكنها أن تصمد أمام تطور حركة التاريخ التقدمية . غير أن هذه الازمة الايديولوجية ، لا تعني أبدا أن الحركة الصهيونية سنتتهي من نفسها ، فهي لا تزال قادرة على الحاق الضرر بالحركة التقدمية والاشتراكية العالمية ، مما يتطلب تصعيد النضال ضدها ، وفضح الاسس الايديولوجية التي تقوم عليها .

الحواشي :

- ١ - بولشاكوف ، معاداة الشيوعية مهنة الصهيونيين ، ص ٧ ، منشورات نوفوستي ، موسكو ١٩٧٢ .
- ٢ - اسرائيل وقائع وارقام ، منشورات وزارة الخارجية الاسرائيلية ، باريس ، ص ٨ .
- ٣ - لطف الله حيدر ، الجذور الطبقيّة للحركة الصهيونية ، شؤون فلسطينية ، عدد ٣٦ ، ص ١٠٢ .
- ٤ - ليو بنسكر ، التحرر الذاتي ، ص ٣٤ ، باريس .
- ٥ - مارك ميتين ، الصهيونية شكل آخر من أشكال الشوفينية والعنصرية ، دراسة ، منشورات نوفوستي ، موسكو .
- ٦ - المصدر ذاته .
- ٧ - اورده ليون ابراهام ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ص ٢٢ ، دار الطليعة ، بيروت .
- ٨ - راجع بهذا الصدد مقال « أ.ن.سعد » ، ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية ، شؤون فلسطينية ، عدد ١٢ ، آب ١٩٧٢ .
- ٩ - ناحوم سوكولوف ، تاريخ الصهيونية ، باريس ، الجزء الاول ، ص ١٨٤ .
- ١٠ - هرتزل ، الدولة اليهودية ، ص ٢٢ ، باريس .
- ١١ - بنسكر ، التحرر الذاتي ، ص ٣٧ ، باريس .
- ١٢ - المصدر ذاته ، ص ١٢-١٣ .
- ١٣ - جالينا نيكيتينا ، دولة اسرائيل ، ص ١٨ ، دار الهلال ، القاهرة .
- ١٤ - فيصل دراج ، الماركسية والاتحاد السوفياتي في مرآة الصهيونية ، شؤون فلسطينية ، عدد ٣٧ ، ص ١٢٨ ، ايلول ١٩٧٤ .
- ١٥ - لينين ، التحريفات اللاسامية ، خطاب مسجل ، التي عام ١٩١٩ نقلًا عن المراسلات الصحفية الدولية عام ١٩٣٣ ، عدد ٢٧ - ٢٨ ، ص ٣٧٥ .
- ١٦ - يوري ايفانوف ، احذروا الصهيونية ، ص ٦٣ .
- ١٧ - المصدر السابق ، ص ٨٥ .
- ١٨ - اورده يوري ايفانوف ، المصدر ذاته ، ص ٨٦ .
- ١٩ - فيصل دراج ، مسألة الفكر الصهيوني ، فلسطين الثورة ، ٢٩ كانون ١٩٧٤ ، عدد ١٢٤ .
- ٢٠ - الموسوعة اليهودية ، مقال « الصهيونية » ١٩٠٣ - ١٩٠٦ ، نيويورك - لندن .
- ٢١ - اورده جالينا نيكيتينا ، المصدر السابق ، ص ١٩ .
- ٢٢ - أ.ن. سعد ، شؤون فلسطينية ، عدد ١٢ ، آب ١٩٧٢ ، ص ٢٩ .
- ٢٣ - المصدر ذاته ، ص ٢٩ .
- ٢٤ - المصدر ذاته ، ص ٢٩ .
- ٢٥ - ليو بنسكر ، التحرر الذاتي ، ص ٣٥ ، باريس .
- ٢٦ - شلومو ميتون ، اسرائيل هجرة ونمو ، باريس ، منشورات كوجاس ، ١٩٦٣ .
- ٢٧ - لينين ، المؤلفات الكاملة ، جزء ١٩ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ، باريس .
- ٢٨ - اميل توما ، جذور القضية الفلسطينية ، ص ٤٨ ، حيفا .
- ٢٩ - تيودور هرتزل ، الدولة اليهودية ، ص ٣٧ ، باريس .
- ٣٠ - المصدر ذاته ، ص ٤٠ .
- ٣١ - المصدر ذاته ، ص ٥٤ .
- ٣٢ - المصدر ذاته ، ص ٥٥ .
- ٣٣ - المصدر ذاته ، ص ٩٢ .
- ٣٤ - المصدر ذاته ، ص ٩٣ .
- ٣٥ - المصدر ذاته ، ص ٩٣ .
- ٣٦ - المصدر ذاته ، ص ٥٨ .
- ٣٧ - ابراهام ليون ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ص ١٨٥ ، دار الطليعة ، بيروت .
- ٣٨ - أ.ن. سعد ، المصدر السابق ، ص ٤٠ .
- ٣٩ - مارك ميتين ، المصدر السابق .

البارون هيرش والحركة الصهيونية

فارس المنصوري

البارون موريس ده هيرش (١٨٣١ - ١٨٩٦) هو أحد مشاهير الشخصيات في القرن التاسع عشر . فقد احتل مكانة بالغة الأهمية في كل من التاريخ الاقتصادي للقرن الماضي ، وفي تطور الحركة الصهيونية ، على حد سواء . وذاع صيته في أنحاء العالم كواحد من أغنى رجال عصره وأكثرهم بذخا . كما ان اسمه ارتبط بالفضيحة المالية الكبرى التي أثرت حول مشروع انشاء شبكة السكك الحديدية في البلقان ، ذلك المشروع السيء الصيت الذي تولى البارون انجازه وحصد من ورائه غناه الفاحش . ثم ان هيرش كان أبرز يهودي في عصره ، وهو الذي توجه تيودور هيرتزل ليقابله ويعرض عليه مشروعه بانشاء دولة يهودية . فقد أنفق هيرش عشرات الملايين من الجنيهات الاسترلينية على مساعدة اليهود وتهجيرهم من أوروبا الشرقية لاعادة توطينهم في الأرجنتين . ولذا توجت صورته بيوت الآلاف من اليهود الذين حفظوا له جميله . ويتذكر حايلم وايزمن ان صورة البارون كانت تحلي أحد جدران منزل والديه في مدينة منسك الروسية ، وقد علقته بجوار صورة الفيلسوف الاندلسي ميمون . وقد غالى بعض اليهود في اكرام هيرش ، فأطلقوا اسمه الكامل مع لقبه على أبنائهم . فكان الابن يدعى: البارون موريس ده هيرش . . فلان ، مما يسبب الإحراج له طول حياته . وما زال الموقف الذي انشأه هيرش تحت اسم : اليانس اسرائيليت اونيفيرسل * يقوم بدوره في مساعدة اليهود ، وفي ضخ الاموال باسرائيل . ولتخليد ذكراه ، أطلقت السلطات الاسرائيلية اسم البارون على أحد شوارع القدس الجديدة ، وكذلك على شارع في بتاح تكفا . كما ان الجالية اليهودية في نيويورك حرصت على أن يحمل شارع في تلك المدينة اسم البارون الذي نافس معاصره البارون ادمون ده روتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٥) في تزعم يهود العالم واغداق الاموال عليهم . الا ان هذه الشهرة العريضة كلها لم يصلنا منها اليوم الا الصدى الضعيف ، مما يثير بالغ الاستغراب . فعلى حد علمنا ، لا يوجد الا كتاب واحد فقط وضع عن البارون الشهير ، وهو الذي كتبه الاقتصادي الاسرائيلي كورت غرونفالد ، ونشره في اسرائيل في عام ١٩٦٦ ، أي في الذكرى السبعين لوفاته ، بعنوان «هيرش التركي - دراسة عن البارون موريس ده هيرش ، المقاول والمحسن» . وفي هذا الكتاب المختصر (١٣٩ صفحة) الذي لا يكاد يشفي غليل الباحث ، لا يترك لنا المؤلف غرونفالد مجالا للشك حول الاسباب الكامنة وراء الغموض الذي يحيط بالبارون الشهير . فهو يعترف صراحة بأن الضباب الذي لف اسم البارون بطياته في هذا العصر الحالي ، لم يكن محض مصادفة ، وانما كان مقصودا ، اذ يذكر في مطلع كتابه الواقعة التالية : في عام ١٩١٠ ، اتصل أحد المؤلفين (١) بالاوصياء على تركة هيرش ، وأبلغهم عزمه على تأليف كتاب عن البارون الراحل ، ملتصبا منهم تزويده بالاوراق والوثائق

* Alliance Israélite Universelle

١ - لا يذكر غرونفالد اسمه ، ولكن لعله الالمانى الكونت ايفون كورتى الذي ألف كتابين عن آل روتشيلد.

اللازمة . الا ان الاوصياء أخبروه انهم لا يريدون المساهمة في مثل هذا المشروع . ويذكر غرونفالد ايضا بأن أرشيف البارون اختفى تماما ، ولم يبق من مراسلاته ذات الحجم الضخم الا النزر اليسير ، مما اضطره الى ان يعتمد في مصادره على الكتب والوثائق المنشورة بدلا من الرجوع الى المراجع الاولية كالرسائل والوثائق الشخصية غير المنشورة ، مثلما كان يتمنى ان يفعل عندما بدأ دراسته لحياة البارون وانجازاته في ميداني المقاولات والاعمال الخيرية .

ما هو اذن سر هذا الغموض الذي يحيط بذكرى البارون الاسطوري الذي عاش حياته تحت الاضواء ؟ قبل الاجابة على هذا السؤال في سياق دراستنا المختصرة لحياة البارون ودوره في الحركة الصهيونية ، علينا اولا ان نلقي نظرة على جذور الرأسمالية اليهودية التي شكل هيرش نقطة الذروة فيها، وذلك من خلال الخلفية التاريخية للأحداث التي بلورت الاقتصاد الاوروبي في القرن الماضي . ففي الفترة الواقعة بين التوقيع على معاهدة وستفاليا عام ١٩٤٨ (وهي المعاهدة التي جلبت السلام الى الربوع الالمانية بعد حرب الاعوام الثلاثين الطاحنة التي دمرت البلاد) وبين الحروب النابليونية في اواخر القرن الثامن عشر ، شهدت المانيا المنقسمة الى ممالك وامارات عديدة ، ظاهرة جديدة هي ظاهرة يهودي البلاط . فالمانيا لم تمتلك عملة نقدية موحدة ، بل كان كل أمير وملك يصدر عملته الخاصة للتداول داخل منطقة حكمه . وهذه الفوضى الاقتصادية ابرزت الحاجة الى أشخاص مؤهلين للقيام بأعمال الصيرفة ، مما دعى الحكام الى الاستعانة باليهود ليشغلوا هذه المناصب . فكان يوجد في كل بلاط الماني يهودي يتولى أعمال الصيرفة . وعلى ممر الزمن ، تطور عمل صراف البلاط ، فأصبح مستشارا ماليا للحاكم ، بل ودائنا له في معظم الاحوال ، مما أكسبه نفوذا اقتصاديا متزايدا . ثم جاءت الحروب النابليونية لتعصف بأوروبا من اقصاها الى ادناها ، وكبقية الحروب الأخرى على مدى التاريخ ، كانت هذه فرصة ممتازة لمستغلي الفرص المناسبة لان يضاعفوا ثرواتهم . فبرزت في هذه الحقبة أسرة روتشيلد الشهيرة التي توزع ابناءؤها في فرانكفورت وباريس ولندن وفيينا ونابولي ليتحكموا بالاقتصاد الاوروبي ، وبرزت غيرها أسر يهودية عديدة .

وفي هذه الفترة ايضا ، برزت عائلة هيرش في شخص مؤسسها موسى ، الذي سنجد اول ذكر له في وثيقة يرجع تاريخها الى ١٨٠٣ (أي أوج الحكم النابليوني) ، وفي هذه الوثيقة الصادرة عن السلطات الالمانية المحلية، نجد توصية «باليهودي المحمي هيرش ، من اهالي مقاطعة كوننغز هوفن (بجنوب المانيا) بسبب سلوكه الحسن » . وهذا السلوك الحسن هو الذي جعل السلطات تضي عليه حمايتها وتسمح له ولابنائه بامتلاك الاراضي في المملكة البافارية . وعلينا هنا ان نتوقف لحظة في سردنا لحياة هيرش ، لنلقي نظرة سريعة على اوضاع اليهود في المانيا آنذاك . كانت المانيا قد طردت الجالية اليهودية من اراضيها في العصر الوسيط ، ثم عادت وسمحت لبعضهم بالاقامة فيها في العهود المتأخرة . الا ان السلطات قيدت حرية اليهود ولم تمنحهم حقوق المواطنة كاملة . فقد حرمت عليهم التجول في انحاءها بدون اذن رسمي ، وحثمت عليهم الاقامة في احياء معينة دعيت الغيتو ، ومنعتهم من امتلاك الاراضي الزراعية ، ومن الخدمة بالجيش ، ومن العمل في السلك الحكومي . وفي ولاية فرانكفورت ، لم يسمح القانون لليهود بعقد أكثر من اثني عشر زيجة في السنة ، وذلك بقصد الإبقاء على عدد الجالية قليلا . وفي هذه الظروف الخائفة ، انصرف معظم اليهود الى الاشتغال بالمال ، لا سيما وان الكنيسة لم تحبذ اشتغال المسيحي بالربا . وفي مجال المال برز اليهود ، وحصلوا

على حماية السلطات المحلية التي كانوا يعيشون في ظلها. ثم جاءت الحروب النابليونية، فازدادت حاجة الحكام الالمان الى مواهب اليهود المالية ، والى ثرواتهم . وترقى موسى هيرش في سلم الثراء عن طريق تجهيز الجيش بالموثون والمعدات وتقديم السلف الى الحكام . ولما مات موسى ، خلفه ابنه يعقوب كصراف للبلاد ، ونال المزيد من الامتيازات . فقد منح حرية التجول في انحاء المملكة البافارية ، ثم حصل عام ١٨١٨ على لقب النبالة الوراثي ، فأصبح يُلقب بالبارون ، وهذا اللقب توارثه عنه ابناؤه . وكان يعقوب قد نال رضى السلطات وثناءها عندما جهز سرية مؤلفة من ٧٥ مقاتلا على نفقته الخاصة . ولما توسع في الثراء ، فتح مصرفا في مدينة انسباخ ، وحصل على حقوق الانقطاع التي تتيح للنبل من مالكي الاراضي الزراعية ان يترأسوا المحسكة الجزائية في مقاطعتهم . ثم اخيرا استقر يعقوب في ميونخ ، عاصمة المملكة البافارية ، وهناك اسس مؤسسة مالية كبيرة ، وأضاف الي ممتلكاته مصنعا لليرة وآخر للسكر .

وعندما مات يعقوب هيرش في ١٩٤٠ ، كان قد ترك مركزين لعائلته: احدهما في مدينة غيرتزربرغ ، وقد ترأسه ابنه يوثيل الذي جعل من بيته مركزا لليهود المدينة وذلك لاحتوائه على معبد . وعرف عن يوثيل تزعمه لابناء جاليته ، وبذله المساعي لدى السلطات لنيل المزيد من الحريات المدنية لليهود . وكذلك عرف عنه اهتمامه بالزراعة مثل ابيه ، فان يعقوب كان قد أوقف جزءا من ثروته على المشاريع الخيرية لمنفعة اليهود ، وخصص قسما من هذا الوقف لهدف معين هو : تشجيع اليهود على العمل في الزراعة . أما الفرع الثاني من الاسرة ، فقد استقر في ميونخ حيث عمل الابن الثاني يوسف صرافا للبلاد لدى ملك بافاريا ، ولودفيك الاول ، وبقي في منصبه الهام هذا تحت حكم كل من الملكين المتعاقبين على عرش بافاريا : ماكسيميليان الثاني ولودفيك الثاني . وقد حافظ يوسف على ود كل من بروسيا والنمسا عندما حول قصره الفخم الى مستشفى للجرحى من البلدين اثناء اندلاع الحرب بينهما عام ١٨٦٦ .

ولد موريس هيرش في ميونخ في ٩ كانون الاول ١٨٣١ ، وابوه هو يوسف ، حفيد المؤسس موسى . أما أمه ، فكانت ابنة أحد اصحاب البنوك اليهود في فرانكفورت ، وتنتمي بصلة القرابة الى بعض من أغنى العوائل اليهودية في الاراضي الناطقة باللغة الالمانية . فأحد اجدادها كان الصراف الخاص لامبراطور النمسا ، وايضا في الوقت نفسه حاخام المجر .

وكانت الام شديدة التعلق بابنها ، فأشرفت على تربيته وتعليمه بنفسها ، وحرصت على ان يتلقى الدروس الدينية ويتعلم العبرية . الا ان موريس بالرغم من تربيته الدينية ، لم ينشأ متدينا ، وعلى مدى حياته اقتصرت محافظته على التعاليم اليهودية ، على الامتناع عن ممارسة هوايته المفضلة : الصيد ، في يوم كيبور ، اقدس المناسبات الدينية اليهودية . كما انه لم يكن بالرجل الذي يمكن وصفه بالثق المفر ، بل حرص على ان يعرف كرجل عمل وفعل ، اذ طالما ردد : أفضل الصبي الذي يعمل في مزرعة ابيه ، على ذلك الذي يقضي وقته في القراءة والكتابة . كما انه قال لهيرتزل في مقابلتها الشهيرة : لا اريد ان ارفع المستوى العام لليهود ، فكل مشاكلنا تنبع من طموحنا الى المقامات العليا . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ، وهدي هو ان انبط ميل اليهود للاندفاع الى الامام . على اليهود الا يحرزوا تقدما كبيرا ، فكل الكراهية التي تنهال علينا متأتية من ذلك .

انصرف هيرش الى ممارسة مهنة اجداده منذ بداية شبابه . وفي ١٨٥٥ تزوج من كلارا بشوفسهايم المنتمة الى عائلة يهودية بلجيكية تأتي بعد آل روتشيلد في الثراء ،

فقد لعبت اسرة بشوفسهايم دورا هاما في انشاء شبكات السكك الحديدية في اوربا ، وقدمت اكبر سلفه الى الخديوي اسماعيل ، حاكم مصر الارعن . وكانت تمتلك المصارف في كل من الاستانة والقاهرة ولندن وسان فرانسيسكو . وقد قضى هيرش فترة تدريبه في المؤسسات المالية التي امتلكتها أسرة زوجته ، ووجد في كلارا خير عون على تحقيق طموحه المالي ، وذلك لتمتعها بحدة الذكاء وقوة الشخصية . ولما كانت قبل زواجها قد عملت سكرتيرة خاصة لابيها البنكر الكبير ، فقد آلت بشؤون المال ، ولذا أصبحت سكرتيرة زوجها ومستشارته في اعماله .

عاش موريس هيرش في عصر تميز بأمرين ، هما : نشوء الرأسمالية على انقاض الاتطاعية الموروثة عن القرون الوسطى ، وانتقال اوربا من عصر الحكم المطلق الى العهد اللبرالي . فان الثورات التي انتشرت كالخريف في دول اوربا عام ١٨٤٨ ، وأسقطت بين من أسقطت ، البرنس ميترنيخ ، مستشار النمسا الشهير ، وشيخ الرجعيين في القارة ، هذه الثورات عممت التفكير اللبرالي بين الشعوب ، وبالتالي أعانت اليهود على نيل حقوقهم المدنية . ثم ان الثورة الصناعية التي كانت قد اخذت تغير وجه المجتمع الانكليزي في القرن الثامن عشر ، امتدت الان الى اوربا الغربية . فتأسست المصانع ، وتكاثرت البنوك ، ومعظمها من النوع الذي تسيطر عليه عائلة واحدة هي عموما يهودية والمانية اللغة . وواكبت الثورة الصناعية التي انجبت الرأسمالية ، عصر استخدام البخار كطاقة محرقة . فانتشرت شبكات السكك الحديدية في القارة ، وكان المقاولون الذين أشرفوا على انشاء وتشغيل هذه الخطوط هم عموما من أصحاب البنوك اليهود ، كآل بشوفسهايم في بلجيكا ، وآل روتشيلد في فرنسا ، وآل غنزبرغ في اوربا الشرقية ، الخ . . .

وبدا اول ظهور للبارون هيرش على مسرح المال عندما أصبح أحد الاشخاص القلائل الذين تمكنوا من خداع بسمارك ، مستشار بروسيا الحديدي . فقد ذهب ليقابل بسمارك ويبين له الفوائد الاستراتيجية والسياسية لبروسيا ، اذا ما هي حصلت على حقوق تشغيل خط لوكسبرغ الذي كانت الحكومة الفرنسية قد تخلت عنه بسبب خسارته . فلما استمال بسمارك التي فكرته ونال موافقته ، توجه الى باريس ، غريمة برلين ، وعرض عليها تحمس بسمارك للسيطرة على خط لوكسبرغ . وفورا دخلت الحكومة الفرنسية في اتفاقية مع هيرش حول الخط المذكور ، لتحول بين بسمارك وتحقيق مأربه . وكانت هذه الاتفاقية مريحة جدا لهيرش ، الا ان بسمارك لم يفر له حيلته قط ، وان لم يتمكن ابدا من ان يجعله يدفع الثمن عليها .

وكان هيرش قد انتقل للسكنى في بروكسل حيث حصل على الجنسية البلجيكية (وهي الجنسية الثانية من أصل اربع جنسيات حصل عليها هيرش في حياته) والسبب الذي يذكره مؤرخ سيرته لهذا الانتقال من ميونخ ، هو رغبة حماة هيرش البلجيكية في ان تكون ابنتها قريبة منها . وفي بروكسل دخل هيرش في شراكة مع بلجيكي يدعى الكونت لانجران دومونسو . وكان هذا الممول غير اليهودي قد ولد في اسرة مغمورة ، الا انه تمكن من شق طريقه بنجاح كبير في عالم المال ، ولا سيما بعد ان افتتح البابا بيوس التاسع (الذي انعم عليه بلقب الكونت) بأن يساعده في تأسيس سلسلة من الشركات والمؤسسات برأس مال كاثوليكي ، وذلك لانتزاع السيطرة الرأسمالية من أيدي اليهود ونقلها الى الكاثوليك . وفعلنا تمكن دومونسو من تأسيس امبراطورية مالية كبرى ، ضمت حوالي ٣٢ مصرفا ومؤسسة للرهونات والتأمين والعقار . ولكن الغريب العجيب هو ان هذا الرأسمالي الكاثوليكي الكبير ، الذي أساسا بنى

امبراطوريته المالية بهدف منافسة اليهود وضرب نفوذهم المالي ، كان هو الذي دخل شريكا مع عدد من أشهر الرأسماليين اليهود في زمنه ، ومنهم آل هيرش وروثشيلد وبشوفسهايم ! ولكن تحالف الاثرياء هذا لم يدم طويلا . ففي عام ١٨٧٠ ووسط ظروف غامضة لم تفسر تماما حتى اليوم ، انهارت الامبراطورية المالية الكبرى التي أسسها دومونسو ، وهرب الى البرازيل ، تاركا المحكمة تحكم عليه غيابيا بالسجن لمدة خمسة عشر عاما . ثم مات في روما عام ١٩٠٥ ، أي بعد مرور ٣٥ عاما على تلك الفضيحة المالية التي لا يضاهاها في الشهرة الا انهيار امبراطورية ملك الثقب السويدي كرويفر وعلان افلاسها في قرنا الحالي .

ما هي الاسرار الكامنة في التحالف المالي بين الخصمين اللدودين : اليهودي والكاثوليكي ؟ وهل كان هيرش وصحبه وراء سقوط دومونسو ؟ في الواقع تشير الدلائل الى ان هيرش كان أكبر مستفيد من تصفية امبراطورية دومونسو المالية ، لا سيما وان الشخص الذي اشرف على عملية التصفية كان الدبلوماسي البريطاني اليهودي السير هنري دراموند وولف الذي ربطته علاقة وثيقة بهيرش . ثم ان هيرش « ورث » عن دومونسو المشروع الكبير الذي سيدخله التاريخ كأحد أكبر المتاولين في القرن التاسع عشر ، وهذا المشروع هو انشاء شبكة خطوط حديدية في الجزء الاوروبي من الدولة العثمانية . فهذا المشروع الضخم يشكل البداية الفعلية لاسطورة هيرش : هيرش التركي ، كما أسماه معاصروه بسبب توليه هذا المشروع الذي استغرق أنشاؤه عشرين سنة ، فاحت اثناءها رائحة الفضائح والتصقت بأسماء بعض من أبرز رجالات أوروبا والدولة العثمانية .

ففي ٧ تشرين الاول عام ١٨٦٩ صدر الفرمان التاريخي في الاستانة بمنح البارون موريس ده هيرش امتياز انشاء وتشغيل شبكة من الخطوط الحديدية في البلقان ، وذلك بعد ان كان هيرش قد وزع الرشاوي الضخمة على كبار المسؤولين الاتراك لنيل الامتياز . وليس هنا المجال للاستفاضة في الحديث عن هذا المشروع الذي لم تلتصق الفضائح بمشروع آخر بقدر ما التصقت به ، ولذا نكتفي بالقاء نظرة سريعة عليه من خلال كتابات المؤرخين ، وبينهم الاسرائيلي غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش . فحتى غرونفالد المتعاطف مع هيرش لا ينفي التجاء البارون الى الاساليب الملتوية في أعماله . ولكنه يخفف من أثر الاتهامات الموجهة الى هيرش ، ولا سيما من قبل المؤرخ هالغارتن الذي تحدث في كتابه عن « الامبريالية » الصادر في ١٩١٤ عن عناصر « المكر والخداع والاكراه والسرقة التي احاطت بالمشروع » . فغرونفالد ينفي عن هيرش صفة الخداع ، قائلا انه عندما حصل على الامتياز لم يتوقع حدوث (ما حدث فعلا) من دسائس ومؤامرات وانغماس في المسألة الشرقية . ولكن هل كان هيرش بهذه السذاجة حقا ؟ « فالمسألة الشرقية » هي العبارة التي اعتاد سياسيو أوروبا استعمالها آنذاك عند الإشارة الى رجل أوروبا اريض الذي ينتظر الجميع وفاته بفارغ الصبر ليتقاسموا تركته ، ولذا ليس من المعقول ابدا الزعم بأن هيرش باشر مشروعه بقلب طاهر وذهن بريء ، بل ان جوان هاسليب ، المؤلفة البريطانية المعاصرة ذكرت بوضوح ، في سياق سيرتها عن السلطان عبد الحميد ، ان « هيرش حصل على الامتياز عن طريق توزيع البقشيش في الاوساط المناسبة » وهذه الرشاوى لم تكن بالسر الخفي ، فقد اعترف المصدر الاعظم بأن الرشوة التي قبضها بلغت . . ٤ الف ليرة عثمانية ، وقس على ذلك . ثم ان المشروع تم تنفيذه بأسلوب يتنافى مع مصالح الدولة العثمانية . فبسبب علاقة هيرش الوثيقة بأمر ويلز ، ولي عهد بريطانيا (وهو الذي اعتلى العرش بعد اعتزال أمه الملكة فكتوريا) راعى البارون الاعتبارات السياسية والاستراتيجية البريطانية في طريقة

التنفيذ ، مما جلب عليه عداء المانيا التي كانت بعد توحيدها تحت تاج ملك بروسيا ، قد بدأت تبرز كمنافسة خطيرة للإمبريالية البريطانية . فنشرت صحيفة المانية بايعاز من بسمارك مقالا تحدثت فيه باستهجان عن « أفراد مختارين من بين الشعب المختار ، أخذوا يستغلون تركيا ، زاعمين أنهم تحت الحماية الألمانية » . وحتى فرنسا أبدت امتعاضها بسبب طغيان العنصر الألماني بين العاملين على تنفيذ المشروع ، مما جعلها تعتبره مشروعاً يخدم المصالح الألمانية . أما في الواقع ، فالعنصر الطاغوي كان يهودياً ، والانتماء الى المانيا لم يكن الا على صعيد اللغة فقط . والمجال لا يتسع هنا ليراد جميع الاتهامات التي وجهت الى هيرش ، ولذا يكفي المرور سريعاً عليها :

لقد تساءل الناس : لماذا جعل هيرش الخط الحديدي مليئاً بالانحناءات والانعطافات التي لا تخدم غرضاً سوى انها تزيد من ارباحه ، باعتبار ان الانتفاكية التي وقعها مع السلطات العثمانية تحتسب الاجرة حسب المسافة ، وكل ميل اضافي يعني المزيد من المال الذي سيدخل جيب البارون . فالاستانة لا تبعد عن ادرنه الا مسافة ١٤٨ ميلاً بالطريق العادي ، بينما بلغ طول الخط الحديدي بين المدينتين ١٩٨ ميلاً ، منها ٢٤ ميلاً تقع داخل الاراضي البلغارية .

ثم اتهم آخر: لماذا اقيمت المحطات في الاماكن غير المأهولة ؟ فهناك مدن بلا محطات ، ومحطات بلا مدن .

الجواب : تفادي تكاليف الانشاء المرتفعة في الاماكن المأهولة .

واتهام ثالث : ان هيرش لم يدفع تعويضاً كافياً للاهالي الذين اجلوا عن بيوتهم وأراضيهم بسبب اختراق الخط لممتلكاتهم . فقد كتب أحد المنتقدين يقول : « ان المحسن المعروف (أي هيرش) يرفض التعويض عن البيوت التي هدمت وذلك لان المتضررين ليسوا من أخوته في الدين » . وفي معرض الدفاع عن نفسه ، أعلن هيرش انه دفع التعويض المطلوب ولكنه يأسف لأن هذه الاموال لم تذهب الى مستحقها من الفقراء الذين فقدوا بيوتهم وحقولهم ، وإنما دخلت جيوب الباشوات المرتشين .

وقد انبرى للدفاع عن هيرش رجل له مكانته ، وكان هذا الرجل هو سفير الولايات المتحدة في الاستانة : أوسكار ستراوس . فقد كتب في مذكراته ان هيرش حوّل طلب التعويض الى الحكومة العثمانية ، ولكن لما توجه عدد من المتضررين الى زوجة هيرش وعرضوا عليها سوء حالتهم ، فانها أشفقت عليهم وأصررت على أن تدفع لهم التعويض من جيبيها الخاص . بقي أن نذكر أن أوسكار ستراوس كان يهودياً ومرتبياً بالحركة الصهيونية . المهم هنا هو ان غرونفالد نفسه لا ينكر توزيع هيرش الرشاوي يميناً ويساراً فحتى الكونت بويست ، مستشار النمسا ووزير خارجيتها ، قبض ٨٠ الف فرنك مقابل السماح لهيرش باصدار السندات وبيعها في الاراضي النمساوية . وكذلك دفع هيرش المقسوم لكل من المسؤولين التركيين الكبارين : داود باشا ونديم باشا ، فأصيبا بالثراء المفاجيء من جراء ذلك ، ولم يفلتا من يد القضاء الا عندما غادرا اراضي الدولة العثمانية نهائياً ليتمتعوا بالعيش الرغيد في المنفى .

وكانت هذه الفضائح هي بين الاسباب التي دفعت بالمصلح العثماني الشهير ، مدحت باشا ، الى الاستقالة من منصب الصدر الاعظم . وقد كتب نجله أحمد مدحت بك في السيرة التي ألفها عن أبيه بأن هيرش تقصد أن يجعل خطه الحديدي يمر وسط الغابات الغنية بالاشجار ذات الخشب الثمين ، وذلك لينهب الخشب وينقله الى الخارج . ويذكر غرونفالد نفسه بأن الرشاوي التي اتهم هيرش بدفعها بلغت في مجموعها حوالي

مئة مليون فرنك ، وهو مبلغ هائل بمقاييس ذلك الزمن . فاذا علمنا انه بالرغم من هذه الرشاوي الضخمة خرج هيرش من هذا المشروع وهو أغنى رجال العالم ، أدرناكم كانت أرباحه عظيمة . ولم يكن السلطان عبدالحميد غافلا عن تصرفاته ، بل انه فكر في اعتقاله ، الا أن الدولة العثمانية الضعيفة بقيت عاجزة عن اتخاذ أي اجراء لايقاف حركة النهب المنظم الذي فرضه هذا المقاتل المحتال عليها . بل ان هيرش بعد هذه الفضائح كلها ، ابتاع لنفسه وساما عثمانيا رفيعا كمكافأة على خدماته !

ويستشهد غرونفالد بقول أحد المسؤولين عن المشروع عندما وقف امام القضاء في فيينا مدافعا عن نفسه ، قائلا : « ان السكك الحديدية لا تشيد بواسطة المواعظ الاخلاقية » . ثم يضيف مبينا ان المحكمة براته . ويستنتج غرونفالد من ذلك أن التورط في أعمال مشبوهة هو أمر لا مفر منه في مشروع ضخم مثل خط البلقان . ولكن اذا كان غرونفالد متحفظا في تبرئة البارون ، فقد أبدى كاتب يهودي آخر اعجابا بالبارون لانه تغلب على الصعاب والعقبات في « بلاد شبه همجية مثل تركيا » ولانه قام بدور « ممدن » فيها !

تم انجاز المشروع بعد مرور عشرين سنة على البدء فيه . وتولى السفير الاميركي ستراوس دور الوساطة النهائية بين السلطات العثمانية والبارون لتسوية الخلاف بينهما . وكانت الحكومة التركية تطالب هيرش بدفع ١٣٢ مليون فرنك اليها ، ولكنها استقطت مطالبتها عندما حصلت على ٢٢ مليون فرنك ، وبذا طوي الخلاف ، وغسل هيرش يديه من الارتباط بتركيا . لقد خرج من المشروع السيء الصيت ملطخا بعار الفضائح ، ولكنه كان أيضا أغنى من أي وقت مضى ، وأعظم نفوذا . وقد حدث في هذه الفترة أن وقعت معركة أخرى بين الكتلتين الرأسماليتين : اليهودية والكاثوليكية . فقد برز مقال فرنسي يدعى يوجين بونتو ، كان خبيرا في السكك الحديدية وسبق له أن عمل تحت إمرة آل روتشيلد ، ثم انفصل عنهم والف شركة تسيطر عليها مجموعة كاثوليكية ، هدفها المعلن هو تخليص الاقتصاد الفرنسي من سيطرة اليهود والماسونيين الاحرار ، فتحالف أثرياء اليهود ، وعلى رأسهم آل روتشيلد وهيرش ضد بونتو ، وأشاعوا بأن بونتو يتعاون مع اليهود في الخفاء . وبعد مضاربات حاسمة هزت البورصة ، انهارت مشاريع بونتو وانتهى ماليا . وهكذا مرة أخرى انتصر الراسمال اليهودي في معركة فاصلة ضد الكاثوليك . وكانت هذه معركة ثانوية بالنسبة لهيرش ، فهو اثر انتهائه من الخط البلقاني ، دخل الآن مرحلة جديدة من حياته . فبعد أن نال الشهرة العريضة كمقاتل عالمي ، أصبح الآن المحسن الكبير الذي يتبرع بالملايين . فكتبت صحيفة المانية معادية له ، تفسر انصرافه الى الاعمال الخيرية بأنه الى حد ما تابع من تائب الضمير المتأني من فضائح الخط البلقاني . ولكن هذه الصحيفة كانت ساذجة جدا ، باعتبار ان المستفيدين الوحيدين من تبرعات البارون كانوا اليهود وليس غيرهم . على ان هيرش استمر يلعب دور الرجل الانساني الكبير ، حتى انه عندما مات ابنه لوسين عن ٣١ سنة ، قال : لقد فقدت ابني ولكن ليس وريثي ، فوريثي هو الانسانية !

وقد شاركت زوجته في أعماله الخيرية بين اليهود ، لا سيما وانها من عائلة عرفت بحدبها على أبناء جلدتها . وقد كرس هيرش كل جهوده بعد انتهائه من المشروع التركي ، لتهجير اليهود من أوروبا الشرقية وتوطينهم في العالم الجديد ، أي في الارجتنتين والبرازيل وكندا والولايات المتحدة . وكان قد طلب من السلطات الروسية أن تسمح له بالاتفاق على اليهود في بلاده وذلك لرفع مستواهم الاجتماعي ، ولكن هذه

السلطات أصرت على أن تتولى هي بنفسها الاشراف على عملية الانفاق، فرفض هيرش هذا الشرط ، ولم يبق امامه الا ان يسحب اليهود من روسيا ليعيد توطئتهم في الخارج . ولما كان مقتنعا بإمكان اليهود ان يصبحوا مزارعين ممتازين ان اتاحت لهم الفرصة ، فقد ابتاع ٧٥٠ الف هكتار في الارجنتين ، واقام عشرين مستعمرة استوطنت فيها ٣٥٠٠ أسرة . الا ان معظم هؤلاء انتقلوا فيما بعد للسكنى في المدن .

وكان منهاج هيرش يتضمن تهجير ٣ ١/٢ ملايين يهودي من أوروبا الشرقية على مدى ربع قرن ، الا ان العمر لم يمتد به ليشهد تحقيق هذا الحلم . فقد مات في مزرعته بالمجر في ٢٠ نيسان ١٨٩٦ ، بالغا من العمر ٦٥ سنة . ونقلت رفاته الى باريس لتدفن هناك . اما زوجته فقد ماتت بعده بثلاثة أعوام . ولم يترك البارون وريثا شرعيا . فان ابنه الوحيد لوسين كان قد مات أثناء حياته ، بعد أن خلف ابنة غير شرعية تزوجت بعد ذلك من أحد أصحاب البنوك اليهود . وللبارون أيضا ابنان غير شرعيين استطاع أن يحصل لهما على لقب النبالة ، وان لم يمنحها اسمه . وقد مات أحد الابنين (وأمهما ليست معروفة) في ١٩١٢ ، اما الآخر المولود في ١٨٧٩ ، ويدعى الكونت بينديرن ، فقد أصبح نائبا في مجلس العموم البريطاني ، ثم نزع للاقامة في امارة ليختنشتاين ، المشهورة بأمرين : صفر حجمها (فهي من أصغر دول العالم) وقلة ضرائبها .

مات البارون الشهير ، وحمل معه الى القبر اسرار كثيرة لم تشاركه فيها الا زوجته . ولما كانت المؤسسات المالية الضخمة التي أنشأها في حياته ، أو ورثها عن أبيه ، تابعة له شخصيا ولا يشاركه فيها أحد باستثناء زوجته ، فان الوثائق والاوراق المتعلقة بمعاملاته ونشاطاته بقيت بمنأى عن الفحص . فلم تطلها عين غريبة أبدا ، ومع وفاة أرملة كلارا ، اختفى الارشيف بكامله ، وأثبط الاوصياء على تركة هيرش أي محاولة لتأليف الكتب عن البارون . أي أنهم أرادوا أن تنتهي شهرة البارون مع حياته ، ولذا تضاعف ذكره على مدى السنين الى أن كاد يصبح نسيا منسيا هذه الايام . ولا ريب أن هذا هو ما أراد البارون شخصيا ، إذ أدرك ان أي استفاضة في دراسة حياته وانجازاته ، ووضعها تحت المجهر الفاحص الدقيق ستكشف من الفضائح ما سيظل عالقا باسمه وأسماء الكثيرين من معاصريه ، ومعظمهم من مشاهير الناس ، الى الأبد . وهذه الفضائح ستكون مسندة بالأدلة الثابتة ، وليس مجرد شبهات وشكوك . وبعد هذه النبذة عن حياة البارون ، علينا الآن أن نفحص سجله الصهيوني . اننا نعلم ان هيرش قابل تيودور هيرتزل قبل سنة واحدة من وفاته (أي وفاة البارون) . وهذه المقابلة الشهيرة جرت في قصر البارون بباريس ، في حزيران ١٨٩٥ ، وفيما يلي ملخص لوقائعها كما سجلها هيرتزل في مذكراته :

انه (أي هيرتزل) في غاية القلق . فهل سيستجيب البارون الشهير الى دعوته بإنشاء الدولة اليهودية يا ترى ؟

انه يحمل معه خطة كاملة للمشروع في ٢٢ صفحة . فما الامل في تبني البارون للفكرة ؟ وكان هيرتزل قد ابتاع تقاضا جديدا للمناسبة التاريخية ، الا أنه جعده عمدا ثلثا يبدو جديدا** ومع انه كان من أسرة غنية ، الا ان فخامة الرياش في قصر البارون

* أنفقت زوجته ١٥ مليون دولار على المشاريع الخيرية اليهودية ، بعد وفاة البارون ، كما أوصت بانفاق عشرة ملايين دولار أخرى من تركتها بعد وفاتها .

** كان لهرتزل ولع بشراء العقارات الجديدة للمناسبات التاريخية ، وذكر ذلك في مذكراته . انه أيضا ابتاع تقاضا جديدا لمقابلته مع القيصر الألماني فيلهلم .

أخذت بلبه وزادت من قلقه وتخوفه . فقد وجد نفسه يحدق في لوحات فنية وتحف لا يوجد مثيل لها الا في أشهر متاحف العالم . وكان هيرتزل هو الذي طالب المقابلة ، فقد كتب الى البارون يطلب منه موعدا ليحدثه « حديثا سياسيا يهوديا » . فلما رد عليه البارون طالبا منه أن يحرر ما يريد عرضه عليه ويرسله اليه ، ثارت ثائرة هيرتزل الحساس ، وأجابه برسالة قال فيها انه واثق بأن البارون لن يقرأ المادة ان هو بعث بها اليه في شكل رسالة ولذا يريد ان يحدثه بالامر شفهيا ، ثم اضاف قائلا ان البارون قد اشتهر حتى الآن بأعماله الخيرية ، الا انه هو (أي هيرتزل) سيريه كيف بإمكانه أن يصبح أكثر من مجرد محسن . فوافق البارون على مقابلته وعين موعدا يصادف عيدا يهوديا . وعند ذلك انكب هيرتزل على تسجيل مقترحاته التي سيعرضها على البارون ، وقسمها الى ثلاثة أبواب تحت العناوين التالية : المقدمة — رفع مستوى الجنس اليهودي — الهجرة . وعندما حل اليوم الموعود حمل أوراقه واستقل عربة اجرة الى قصر البارون ، وهو يرتعش من القلق ، وها هو الآن ينتظر في قاعة البليارد حضور البارون . وجاء البارون أخيرا وحيا هيرتزل بمودة وقاده الى مكتبه . وهنا بادره هيرتزل قائلا باستعجال لاهت : « هل يمكنك أن تعطيني ساعة ؟ اذا لا ، فأفضل الا أبدا » . فابتسم هيرش بهدوء وقال : « تفضل » . فبدأ هيرتزل يعرض مشروعه ، ولكن بعد خمس دقائق رن جرس التليفون . فتأكد هيرتزل بأن هذه هي حيلة من البارون لانتهاء المقابلة ، بحجة ارتباطه بعمل مستعجل طارئ . ولكن هيرش رفع السماعاة وقال : لا أريد أن يزعجني أحد .

هذه المفاجأة السارة حققت هيرتزل بمصل الشجاعة، فاندفع يقول بحماس : « خلال الفتي عام من تشنتنا كنا بدون قيادة سياسية موحدة . وهذه كانت مصيبتنا الأساسية التي أضرت بنا أكثر مما أضرت بنا الاضطهاد ، وجعلت التعفن ينال منا من الداخل . ولو كانت لدينا قيادة سياسية موحدة ، لتمكنا من التقدم نحو حل للمشكلة اليهودية » . ثم وصل الى موضوع الهجرة ، فقال : « سيمر وقت طويل قبل ان نبلغ أرض الميعاد . موسى احتاج الى أربعين سنة . ونحن سنحتاج الى ربما عشرين او ثلاثين سنة » . ثم انتقد البارون عندما قال : « ان مبدأ الاحسان هو خاطيء تماما برأبي ، فانك تربى الناس على الاستجداء ، والاحسان يفسد طباع قومنا » . ولدهشة هيرتزل ، هز هيرش رأسه موافقا وهو يقاطعه بهدوء : « انت على حق في ذلك » .

وتشجع هيرتزل أكثر وأكثر ، وأخذ ينتقد تجربة البارون في توطين اليهود بالارجنتين قائلا ان اليهود ما زالوا غير مستعدين لان يصبحوا مستعمرين ، « فأولا يجب تقويتهم ، كما لو كان للحرب ، ويجب تعليمهم بهجة العمل وممارسة الفضيلة » .

وهنا فاجأ البارون زائره عندما تفوه بالعبارة التي سبق أن استشهدنا بها في صفحة سابقة : « لا أريد أن أرفع المستوى العام لليهود ، فكل مشاكلنا تنبع من طموحنا الى المقامات العليا . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ، وهدفي هو أن أثبط ميل اليهود للاندفاع الى الامام . على اليهود الا يحرزوا تقدما كبيرا ، فكل الكراهية التي تنهال علينا متأتية من ذلك » .

ثم انتقد ضيفه بسبب أفكاره التي اتخذت شكل الرؤيا . فهب هيرتزل من مكانه صائحا : « انك لا تعرف ما معنى أن يكون المرء صاحب رؤيا، اذ فقط من الاعالي بإمكان المرء أن يفهم غرائز الانسان الحيوية » .

وهنا أخذ هيرش يرفع صوته ، بينما بلغ صوت هيرتزل حد الصياح وهو يقول :
« اني سأذهب الى القيصر الالماني . انه هو سيفهم ، اذ ان تربيته غرست فيه المقدرة
على التفكير بالاشياء الكبيرة » .

ورمشت عين البارون عند سماعه ذلك ، بينما واصل هيرتزل صياحه قائلا انه
سيشتري من القيصر حق اليهود بمغادرة أوروبا . فسأله هيرش : « من أين ستحصل
على المال ؟ »

فأجابه هيرتزل بدون تردد انه سيجمع قرضا يهوديا قويا بمبلغ عشرة ملايين مارك
المانني . عند ذلك قال هيرش : « اليهود الاغنياء لن يدفعوا شيئا ، فالاغنياء تافهون ولا
يهتمون بمعاناة الفقراء » . فأجابه هيرتزل بحقق : « انك تتحدث مثل الاثراكيين » .

فأجابه البارون بنفس النبرة « بل أنا اثراكي . وأنا على اتم استعداد لاعطاء كل
شيء شريطة أن يفعل الآخرون مثل ذلك » .

وانتهت الزيارة عند هذا الحد ، مع ان هيرتزل لم يغط أكثر من ست صفحات من
مجموع التقرير الذي كان قد أعده لهذه المناسبة والذي بلغ طوله ٢٢ صفحة .

وفي اليوم التالي أرسل رسالة طويلة الى البارون يبلغه فيها بأنه اذا هو (أي
البارون) سيخيب أمه فيه مثل بقية الاغنياء اليهود ، فانه هو ، هيرتزل ، سيتوجه الى
الجماهير اليهودية مباشرة . ثم قال ان الفرق بينهما هو : « انك يهودي المال ، وأنا
يهودي الروح » . وأضاف ان المشكلة في أيام موسى كانت الغذاء والماء ، أما في هذه
الايام فالمشكلة هي المال والمال والمال . فالمال ضروري لنقل المهاجرين وتوطينهم . ولم
ينس هيرتزل في رسالته أن يأتي على ذكر علم الدولة العتيدة ، وكان ذلك من المواضيع
العزيزة على قلبه ، فقد كتب : « الناس يعيشون ويموتون في سبيل العلم ، لانه حقا الشيء
الوحيد الذي يبذون استعدادهم للموت بالجملة في سبيله ، شريطة أن يتولى احد تربيتهم
على ذلك » .

ثم أكد لهيرش أن الشعب اليهودي في هذه اللحظة من تاريخه يحتاج الى رؤيا متجددة
أكثر من أي شيء آخر : « تأمل اذا شئت ، في كل ما احتلمه اليهود خلال الفتي عام ،
من أجل الرؤيا . فالرؤيا وحدها تشد نفوس البشر ، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع
الرؤيا ، قد يكون شخصا ممتازا وجديرا وعمليا ، بل وحتى محسنا على نطاق واسع ،
لكنه لن يصبح زعيما للرجال ، ولن يخلف وراءه أثرا » .

وواصل محاضرتة ليذكر لأول مرة فكرته الداعية الى الخروج الجماعي Exodus
الى أرض الميعاد . ان مشكلة النقل ستكون بلا مثيل في العالم الحديث (كتب هيرتزل)
والحاجة تدعو الى انشاء هيئة أركان من بين المثقفين في صفوف الكادحين اليهود ،
وهؤلاء سيكونون كوادر الجيش . انهم سيسعون الى الأرض لاكتشافها ومن ثم
الاستيلاء عليها . وعرض على هيرش أن يصبح قائدا عاما لهذا الجيش ، اذا ما هو
أبدى استعدادة لدفع خمسين مليون مارك حاليا يتم جمع مئة مليون مارك من مصادر
أخرى . وذكر ان المبلغ الاجمالي المطلوب سيصل الى عشرة مليارات ، بينما المطلوب
للبنية هو مليار مارك فقط . « بهذا المبلغ سنبنى البيوت والقصور ومساكن العمال
والمدارس والمسارح والمتاحف وبنيات الحكومة والسجون والمستشفيات والملاجئ ،
وباختصار : المدن . ومنجعل الأرض خصبة السى حد انها ستستأهل لقب أرض
الميعاد » . واخيرا كتب : « المال اليهودي متوفر لتسليف الصينيين ، ولبناء الخطوط
الحديدية للزئوج في افريقيا ، ولابعد المشاريع مكانا . افلا يوجد المال لاعمق حاجة
اليهود أنفسهم ، ولاكثرها اضطرارية ومرارة ؟ »

ولم يرد هيرش على هذا الكتاب ، فاتبعه هيرتزل بآخر قال فيه : « اننا سننحط درجات أخرى نحو الحضيض ، ستزداد الشتائم علينا ، وكذلك البصاق والسخرية والضرب والسرقة والقتل ، الى أن ننضج للفكرة » .

هذه المرة أجابه هيرش على رسالته ودعاها الى زيارته ، ولكنه مات قبل أن تتم المقابلة . قرناه هيرتزل في مذكراته : « كان هو الوحيد بين اليهود الاغنياء ، في استعداده لعمل الكثير للفقراء . ربما لم أعرف كيف أتصرف معه . ان منشوري (الدولة اليهودية) قد صدر منذ أشهر ، وقد وزعت النسخ على الجميع ، الا هو لم أرسل له نسخة . ان تعاونه كان من شأنه أن يساعد دعوتنا على احراز النجاح السريع ، ولذا اشعر بأن دعوتنا قد أصبحت الآن أضعف مما كانت في السابق . كنت دائما أعتقد بأنني قادر على كسب هيرش لخطتنا » .

ومما يدلنا على مكانة هيرش بين اليهود البارزين هو أن هيرتزل لم يتصل بالروتشيلد ويطلب معونتهم الا بعد موت هيرش . كما يبدو واضحا من مذكرات هيرتزل انه كان يأمل في الحصول على الكثير من هيرش . وهذا يطرح السؤال الرئيسي حول موقف هيرش من الحركة الصهيونية ، ذلك الموقف الذي تتضارب الآراء حوله . فهناك من يدعي بأن البارون كان مدفوعا بدافع انساني صرف عندما عمل على توطيّن اليهود في الأرجنتين ، وان تهجير اليهود من أوروبا الشرقية وإعادة توطيّنهم في العالم الجديد كان بلا أي هدف سياسي . وفي تدليلهم على ذلك ، يشير أصحاب هذا الرأي الى رفض هيرش مساعدة اليهود على الاستيطان بـ فلسطين ، وذلك عكس ادّعاء روتشيلد الذي يرجع اهتمامه بـ فلسطين كماوى للمهاجرين اليهود الى عام ١٨٨٢ . ويضيف هؤلاء أن هيرتزل نفسه لم يكن اختياره النهائي قد وقع على فلسطين بعد عندما قابل هيرش . فقبل اسبوع من المقابلة الشهيرة ، كان هيرتزل يسجل في مذكراته الحجج المؤيدة والمضادة لاختيار فلسطين . والحجة المؤيدة الوحيدة التي وجدها كانت الاسطورة القوية . أي التعلق اليهودي التاريخي بـ فلسطين كارض الميعاد لهم . اما الحجج المضادة فكانت : (١) قرب روسيا وأوروبا . (٢) عدم وجود فرصة للتوسع . (٣) الطقس الذي لم يعتد اليهود عليه .

ان غرونفالد ، مؤلف سيرة هيرش ، هو أحد معتنقي الرأي القائل بأن هيرتزل لم يكن قد استقر نهائيا على اختيار فلسطين عندما قابل البارون ، ولذا لا يمكن القول بأنه عرض فكرة الاستيطان بـ فلسطين على هيرش ، وان الاخير رفضها . وللتدليل على ذلك ، يستشهد غرونفالد بما ذكره هيرتزل في كتابه « الدولة اليهودية » الذي صدر بعد المقابلة بستة أشهر عندما كتب : « سنأخذ ما يعطى لنا ، وما يختاره الرأي العام اليهودي » .

اما الكاتب الصهيوني ا. غولدربرغ فقد بين في كتابه « رواد وبنائون » بأن الفرق بين هيرتزل وهيرش هو الفرق بين رجل الرؤيا والفيلسوف والحالم (أي هيرتزل) وبين الرجل الواقعي العملي الذي لا يفكر بالخطط البعيدة المدى ، وانها بالاصلاح الفوري والعلاج السريع للمشكلة اليهودية . فالمعروف عن هيرش انه كتب مقالا نشرته احدى المجلات ، عين فيه البلدان الواقعة تحت الدرس كأماكن استيطان ، وهي الأرجنتين و استراليا وكندا ، بينما لم يأت على ذكر فلسطين مطلقا . ويميل غرونفالد الى الظن بأن هيرش كان واقعا تحت تأثير صديقه المقرب كارل نيتر (١٨٢٦ — ١٨٨٢ أحد أثرياء اليهود ، وقد ساهم مع هيرش في تأسيس جمعية الاليانس ، وكذلك أسس المدرسة الزراعية ميكفه اسرائيل بالقرب من يافا) فان نيتر كان قد نشر مقالا عارض فيه اختيار

فلسطين ، مشيراً الى الصعوبات التي ظل المهاجرون الالمان والاميركان يعانون منها* . ولما اثار هذا المقال ثائرة المستوطنين اليهود في فلسطين ، الذين كانوا أساساً يعارضون مشروع الارجتين بشدة ، ذهب نيتز الى فلسطين ليصالحهم ، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . ومن الجدير بالذكر ان شماريهاو ليفين الذي قاد الطلاب اليهود في مظاهرات ضد مشروع الارجتين ، اعترف هو نفسه في كتاب له صدر عام ١٩٢٧ بعنوان « شباب في ثورة » بصعوبة الظروف التي كان المستوطنون اليهود الاوائل يعانون منها في فلسطين ، قائلاً ان هذه الظروف لم تسمح بدعوة اليهود الذين طردوا من موسكو عام ١٨٩١ الى الاستقرار في فلسطين .

ويذكر غرونفالد ان هيرش كان على علاقة وطيدة بجمعية هوفيفي صهيون ، وهي الجمعية الصهيونية التي سبقت حركة هيرتزل ، وان البارون اعترف بالصلة التاريخية التي تربط اليهود الى فلسطين . ولكنه يفسر فتوره تجاه المشروع الفلسطيني بنفوره من وقوع الدولة اليهودية العتيدة تحت السلطة العثمانية ، تلك السلطة التي كانت له معها تجربة غير سارة . ثم يبين غرونفالد ان موقف اللورد ناتانيل روتشيلد (البريطاني) كان مماثلاً لموقف هيرش وذلك لنفس السبب ، ولكنه تحول بعد ذلك ليصبح أحد أتباع هيرتزل المتحمسين . أما ابن عمه الفرنسي البارون ادمون فقد قاد حركة تسلسل هادئة في فلسطين تحت ستار الهجرة الطبيعية التي لا تحمل في طياتها هدفاً سياسياً ، وهذه الحركة جعلت يهود فلسطين يلقبوه : ابو اليسوف . ولكن غرونفالد يعود فيقول ان ادمون استمر يعارض الصهيونية السياسية حتى انه أرسل مبعوثاً شخصياً يدعى سيلفين ليفي الى مجلس الحلفاء الاعلى المنعقد في فرساي عام ١٩١٩ ، ليعارض فكرة الدولة اليهودية** . (قصة غير معقولة) . ولم يكن خوف هيرش من توطين اليهود في فلسطين ناجماً عن نفوره من العثمانيين ، فحسب ، بل كانت خشيته الرئيسية هي من قرب روسيا . فهيرش ، مثله في ذلك مثل بقية اليهود آنذاك (واليوم) كان يعتبر روسيا عدوة اليهود اللدود ، ويتوقع أن تترث يوماً ما أملاك الدولة التي لقبها أحد القياصرة : رجل أوربا المريض . فروسيا القيصرية ذات مطامع واضحة في سوريا ، لا سيما انها نصبت نفسها حامية للمسيحيين الاورثوذكس ، وتغلغلت في فلسطين بواسطة الارساليات . وبينما استمرت رقعة الدولة العثمانية في التقلص والتضاؤل على مدى القرن التاسع عشر ، كانت الامبراطورية الروسية تتوسع على نطاق هائل . ففي الغرب ابتلع الروس بولنده وفنلنده واقتطعوا جزءاً من رومانيا . وفي الجنوب اكتسحوا اقاليم القفقاص وضموا جورجيا وارمينيا وداغستان وغيرها ، وكان توسعهم هذا على حساب الامبراطوريتين الاقلتين : العثمانية والفارسية . وفي الشرق القريب ضموا الاقاليم الواقعة شرقي بحر قزوين ، أي تركستان وأوزبكستان وبلاد القرغيز الخ . . . وفي الشرق الاقصى توسعوا على حساب الصين ، فضموا بلاد المغول واقليمي أمور وأوسوري الى أن تاخمت حدود امبراطوريتهم المتراصة الاطراف جزر اليابان وكوريا . وهكذا أصبحت الامبراطورية الروسية تأتي بعد الامبراطورية البريطانية مباشرة في حجم الممتلكات .

الا ان سادة بطرسبرغ لم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يطمعون بالتوسع في اتجاه البحر

* هؤلاء المهاجرون كانوا من المسيحيين الاتقياء الذين اختاروا العيش في فلسطين لانها وطن المسيح ، ولم يكن لهم أي هدف سياسي . وقد طردهم اليهود من البلاد حال تأسيس اسرائيل .

الابيض المتوسط ، حيث توجد المرافئ ذات المياه الدافئة . ولما كانوا يعتبرون انفسهم ورثة الاباطرة البيزنطيين ، فالدولة العثمانية التي قامت على انقاض الامبراطورية البيزنطية بقيت عدوتهم التاريخية على مدى القرون ، وظل القياصرة يحلمون باسترجاع القسطنطينية .

هذا كله كان جليا كل الجلاء بالنسبة لرجل مفرط الذكاء وواسع المعلومات مثل هيرش . وهو بقدر تعلقه بأبناء جلدته ، كان يكره الروس من أعماق قلبه ، ولعل النادرة التالية تبين ذلك بوضوح : اجتمع البارون مرة مع يهودي روسي ثري ، وأخذ هذا اليهودي يتباهى بانجازاته ، قائلاً انه يشغل عددا كبيرا من العمال (الروس) في مصنعه ، وأنه قد بنى مستشفى لليهود . . . وعند ذلك قاطعه هيرش بسخرية مريرة : يا ليتك شغلت اليهود في مصنعك ، وبنيت مستشفى للروس . فهل اذن كان خوف هيرش من روسيا هو الذي جعله يتردد في توطين اليهود بفلسطين ؟ انه أولا كان على علاقة سيئة مع السلطات العثمانية ، وذلك بسبب مشروع الخط الحديدي السيء الصيت ، مما كان سيشكل حائلا بينه وبين الاشراف المباثر على مستوطناته ، فيما لو هو اختار فلسطين موقعا لها . ونحن نعلم من دراستنا لشخصية البارون كم هو مولع بدوره كملك غير متوج لليهود المقيمين في مستعمراته بالارجنتين ، فهل كان بمقدوره ان يلعب نفس الدور فيما لو هو وجه سيل الهجرة نحو فلسطين ؟ وحتى لو افترض هو ، بينه وبين نفسه ، بأن الحكم العثماني سائر في طريقه الى الزوال ، فهل هناك ضمان بأن روسيا لن تمد ظلها ليقع على فلسطين ؟

لقد أنفق الملايين على تهجير اليهود من البلاد التي اضطهدتهم ، فهل يجازف في توطين هؤلاء اللاجئين في منطقة تقع ضمن المطامع الروسية الواضحة ؟

ويقول ك. ن. بودينهامر في كتابه « مقدمة الى اسرائيل » ان هيرش كان يفكر في تحويل مستوطناته في الارجنتين الى دولة ، الا ان صهره البارون بشوفسهايم حثه على صرف النظر عن ذلك ، لئلا يكون له تأثير سلبي على حركة اليهود الرامية الى الحصول على حقوقهم المدنية في الدول الاوربية التي يعيشون فيها . فما هو مدى صحة هذا الادعاء ؟ ان غرونفالد يظن (او على الاقل يقول انه يظن) بأن المبدأ الاساسي في تفكير هيرش هو مساعدة اليهود المضطهدين على الهجرة جماعيا ، وتحرير انفسهم بأنفسهم . وهذا التحرير الذاتي لا يتم الا بالعودة الى الارض ، الى التربة . (أي ان هيرش سبق الف داليد غوردن ، شاعر العمل بالنسبة للصهيونيين ، عندما بشر بالعودة الى الطبيعة الام) . وبرأي غرونفالد ، تدل هذه الدعوة على وجود بذرة صهيونية أصيلة في تفكير هيرش . الا أنه في موقع آخر من كتابه يصف بطل سيرته بأنه مواطن عالمي لا يأبه للحركات القومية ، ولا يؤمن بوجود وطن قومي ينتمي اليه . ويستشهد بعبارته اللاتينية المأثورة التي كان يرددتها عندما يسأله أحدهم عن جنسيته الاصلية (اذ كان يحمل أربع جنسيات) وهي تعني : حيث أكون مرتاحا ، هناك موطني . .

أما الصحفي البريطاني اليهودي لوسين وولف ، فقد كتب يصفه اثر مقابلة صحفية معه ، فقال انه يمتلك قلبا يهوديا حقيقيا ، وهو فخور بقوميته اليهودية ، و« شوفينيتها اليهودية واضحة » . كما ان هيرش أبدى اعتزازه وفخره بمساهمة اليهود الكبيرة في الحضارة ، ولا سيما في ميادين الطب والعلوم والموسيقى والادب ، وذلك في مقال نشرته له احدى المجلات . وقد شدد في هذا المقال على احتمال زيادة هذه المساهمة في عالم تسوده الحرية . وفي هذا المقال نرى التناقض الاصيل في شخصية البارون . فهو من ناحية يعلن نفوره من المفكرين اليهود ، وينادي بالعودة الى الارض ، ويفضل الغلام

الذي يرمى الغنم ويهتم بالحقل ، على الغلام المولع بالقراءة والكتابة ، ومن ناحية أخرى يتباهى بطول باع اليهود في العلوم والفنون والآداب . ثم لتتذكر حديثه مع هيرتزل ، عندما أبدى نفوره من طموح اليهود واندفاعهم الى الامام . ألم يكن هو نفسه أكبر نموذج للطموح والاندفاع ؟! انه لم يكتف بثرائه الفاحش ، وبالنفوذ العظيم الذي ناله بواسطة هذا الثراء ، بل ظل طول حياته يسعى وراء الأوسمة والالقاب . وليس لنفسه فقط ، وإنما حتى لأولاده غير الشرعيين ، ولحفيدته غير الشرعية ! وحتى الدولة العثمانية التي كان يجاهر باحتقارها ، هذه الدولة اشترى منها وساما رفيعا ! وهو عندما فكر في تزويج ابنه لوسين ، لم يقع اختياره الا على فتاة بريطانية ارستقراطية* (غير يهودية) ، فظل يلاحقها ليقنعها بأن تقبل بابنه زوجها لها بعد أن لوح أمامها بثروته الطائلة . الا أن هذه الفتاة رفضت العرض شاكرة ، وتزوجت بعد ذلك اسكويث الذي أصبح رئيسا لوزراء بريطانيا .

هنا أذن يكمن المفتاح في شخصية هيرش ذات التناقضات الحادة . فبالرغم من الحياة الباذخة التي كان يعيشها ، كانت نوبات البخل فيه تثير عجب الناس . فإنه مثلا كان ينزل في الفنادق الممتازة ، ولكنه لا يتناول وجبات الطعام فيها لانها غالية . وكان يتبضع في فيينا وليس في باريس لان العاصمة الاولى أرخص . وكان دائما يوبخ موظفيه بسبب المصروفات التي يتكبدها بحكم العمل ، ويتهمهم باستغلاله . بل حتى عربات الاجرة ، لم يكن يستقلها الا بعد المساومة والمفاصلة . ويتذكر احد معارفه كيف وقف البارون مدة دقائق طويلة تحت المطر الشديد ، وهو يجادل سائق العربة حول الاجرة ، دون أن يأبه لتبلب ملابسه وتعرضه للاصابة بالرشح .

اذن كيف يمكن توفيق هذا البخل المضحك مع حياة البذخ التي كان يحيها ، ومع الملايين التي تبرع بها ؟

الجواب على ذلك هو ان البخل كان متأصلا في طبيعته ، أما البذخ فلم يكن الا الوسيلة التي التجأ اليها ليخفي مركب النقص في نفسه . ومركب النقص هذا كان وليد الرفض الذي واجهه في الاوساط التي تمنى من صميم قلبه أن ينتمي اليها . فبالرغم من كل ثرائه ونفوذه ، ظلت بعض الاوساط الارستقراطية التي طمع في الانتساب اليها ، ترفضه بازدراء . وقد حدث أن رفض ناد ارستقراطي في باريس ، طلب العضوية الذي تقدم به ، فثارت ثائرة البارون ، واشترى البناية التي يقع فيها النادي المذكور ليحلبه عنها . ولعله كان مثل غاتسبي الكبير ، لا يقيم الحفلات الكبرى حبا بها ، وإنما ليجتذب الي داره تلك الطبقة العليا التي افتتن بها .

ولعله أيضا مركب النقص نفسه هو الذي جعله يتردد في مساعدة هيرتزل . فان هيرتزل السنوب** ، الذي كان يشعر بالمرارة في قلبه لفشله كمؤلف ، ويحس بمكانته المتواضعة أمام البارون الشهير ، هيرتزل اختار أن يلعب دور النبي القائد ، وصاحب الرؤيا ، فافرضا بذلك على هيرش أن يلعب دور رجل المادة الضعيف الخيال ، والقليل الطموح . وشستان بين صاحب الرؤيا ، وصاحب المادة ! ولم يكتف هيرتزل باتخاذ هذا الموقف المترفع ، بل انه طعن البارون في أعز شيء على قلبه . فقد انتقد مشروعاته

* Margot Asquith: My Autobiography (Penguin Books, London, 1936)

** ان الرواية المدونة الوحيدة لما قيل في مقابلة هيرتزل مع هيرش هي تلك التي ضمنها هيرتزل في مذكراته . ولذا علينا أن ندخل في اعتبارنا احتمال بعدها من الصحة ، ولو ان هذا الاحتمال ضعيف ، وذلك لانفاق اقوال كل من الرجلين مع شخصيته ونظرته الى الحياة ، مما يحمل على الظن بان هيرتزل كان عموما امينا في روايته .

الخيرية الكبيرة ، ومع ان البارون وافقه على رايه ، الا ان اقوال الصحفي المغفور حزت في نفسه . ولعله كان يزد التحية لهيرتزل ، عندما غمز من قناة المفكرين اليهود .

اننا من خلال دراستنا للمبارزة اللفظية بين الرجلين ، نشعر بان التناقض بينهما مبغته الغيرة والحسد المتبادلين ، قبل أي شيء آخر . فلنبدأ بالبارون : انه شديد الاعتزاز بمكانته كرأسمالي كبير ، وكزعيم لليهود . وقد سبق له ان انفق الملايين على تهجير ابناء جلدته ، واعادة توطينهم ، ورفع مستواهم الاجتماعي ، مما جعل صورته تحلي جدران مئات البيوت في اكثر من قارة . ثم انه ينحدر من أسرة لعبت دورا قياديا في مساعدة اليهود على نيل حقوقهم المدنية ، اضافة الى أعمالهم الخيرية في اوساط الفقراء اليهود . ولكن بعد ذلك كله يأتي هذا الشاب المغفور (كان هيرتزل في الخامسة والثلاثين من عمره عند المقابلة) ليحاضر في أمور كانت تشغل بال هيرش حتى قبل مولد هيرتزل . بل ويلعب دور النبي وصاحب الرؤيا التاريخية امامه ، وكان هيرش لم يفكر في انشاء دولة يهودية !

انه ببساطة ينتزع صولجان القيادة من يده ويلغي كل تاريخه المجيد في مساعدة ابناء جلدته . ومع ذلك ، فهو لا يملك الا ان يحسد هيرتزل . فهيرتزل شاب ، وهو عجوز . وهيرتزل صاحب رؤيا ، بينما هو لا يعدو ان يكون صاحب مال ، أي رجل مادة . ومهما كان اليهودي بعيدا عن التدين ، فهو يظل يكن التعظيم للانبياء ، لا سيما وان التاريخ اليهودي زاخر بهم ، وكان الويل دائما يلحق بمكذبيهم . ثم ان هيرتزل يحمل برنامجا كاملا شاملا ، بينما لم يكن هيرش قد وصل الى تلك المرحلة بعد . صحيح انه فكر في استحصا الاستقلال لمستعمراته في الارجننتين ، الا ان تلك الفكرة لم تنضج بعد في ذهنه .

اما بالنسبة لهيرتزل ، فحسده كان منصبا على ثراء البارون ونفوذه العظيم . فقد أدرك بان الرؤيا مهما كانت عظيمة ، فهي لا تجتريح المعجزات التي يجترحها المال والنفوذ . وهو في الدور الذي اختاره لنفسه كنبى لليهود ، يحتاج الى المال ، بقدر ما يحتقر هؤلاء الذين سبهم . انه يلفت نظر البارون بوضوح الى الفرق بينهما ، عندما يقول : الرؤيا وحدها تشد نفوس البشر ، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع الرؤيا ، قد يكون شخصا ممتازا وجديرا وعمليا ، بل وحتى محسنا على نطاق واسع ، لكنه لن يصبح زعيما للرجال ، ولن يخلف وراءه أثرا » .

ويواصل هيرتزل العزف على هذه النغمة ، فيعرض على هيرش منصب القيادة العامة لجيش الدولة العتيدة ، مقابل خمسين مليون مارك ! نكتة ؟ أفلا يعلم هيرتزل ان هيرش لم يحمل في حياته بندقية سوى بندقية الصيد ، ثم انه في سن لا تسمح له بالانخراط في السلك العسكري ، وأخيرا وليس اقل اهمية ، فالدولة اليهودية المقترحة كانت ما تزال في طيات الغيب ؟

ثم اننا نلاحظ تلميحات هيرتزل المستمرة الى وجود مصادر اخرى للمال فيما لو امتنع هيرش عن المساعدة . فهيرتزل يعرف مدى التنافس بين هيرش وروتشيلد على تزعم اليهود . وهذه التلميحات تغيظ هيرش وتجعله يقول : « اليهود الاغنياء لن يدفعوا شيئا ، فالاغنياء تافهون ، ولا يهتمون بمعاناة الفقراء » .

وطبعا يعرف هيرش حق المعرفة انه ليس الثري اليهودي الوحيد الذي ابدى اهتماما بمساعدة ابناء جلدته . الا ان طعنه بالاغنياء اليهود يشير الى اهتمامه بمشروع هيرتزل ، ورغبته في ان يلجأ هيرتزل اليه ، واليه فقط ، بقدر ما يشير الى غيرته من آل روتشيلد .

ثم هناك تهديد هيرتزل بالجوء الى « القيصر الالماني الذي غرست فيه تربيته المقدرة على التفكير بالاشياء الكبيرة » أي مرة أخرى يخز هيرتزل مضيفه في مكان حساس ، وذلك من خلال التركيز على المقدرة على التفكير بالاشياء الكبيرة، وكان ذلك خارج طاقة البارون . وفي مذكراته ، سجل هيرتزل ملاحظته بأن عيني البارون برقتا عند سماعه اسم القيصر ، وفسر ذلك بأنه ناجم عن اعجاب هيرش بجراته في حمل القضية اليهودية الى أكبر شخصية أوروبية . ولكن سوكلوف في كتابه عن « تاريخ الصهيونية » طرح تفسيراً مخالفاً لبريق ، أو رمشة عين هيرش ، اذ بين ان ردة فعل البارون كانت في الواقع ساخرة . فهو بحكم علاقته الوثيقة بأمر ويلز ، (ولي عهد بريطانيا الذي اعتلى العرش بعد المقابلة بستة أعوام باسم ادوارد السابع) كان يعلم ان الدولة التي ستساعد الحركة الصهيونية حقاً ، ستكون بريطانيا وليس المانيا . كما كان يعرف مدى النفور بين ادوارد ، وخاله الامبراطور الالماني ، والاثر الذي ستركه ذلك على العلاقات بين البلدين . ولذا لم يشاطر هيرتزل آماله بالحصول على مساعدة فيلهم . ويلمح سوكلوف الى أن تردد هيرش في مساعدة هيرتزل كان مبعثه سلوك الأخير ، عندما لم يثن على انجازات البارون ذلك الثناء الذي كان المحسن الكبير يتمنى سماعه . وهنا علينا ان نطرح السؤال التالي : هل كان هيرش سيساعد هيرتزل فيما لو امتدت به الحياة ؟

الجواب على ذلك نجده واضحا في رسائل للامبراطور فيلهم ووزارة خارجيته ، عثر عليها قبل سنوات . وكانت هذه الرسائل معنونة الى أرشيدوق بادن ، وهو قريب الامبراطور الذي قام بدور الوساطة بين هيرتزل والعاقل الالماني . من هذه الرسائل نفهم بأن هيرش يؤيد الأستيطان اليهودي في فلسطين ، وبأن الامبراطور نفسه يميل الى تأييد الصهيونية ، الا انه لا يميل الى هيرش ، اذ وصفه بأنه رجل سيء الصيت . وهذه الرسالة مؤرخة في ٢٦ كانون الثاني ، عام ١٩٠٤ ، أي بعد وفاة هيرش بثماني سنوات ، وقبل وفاة هيرتزل بأشهر قليلة .

اذن فبالرغم من التناقض بين شخصيتي هيرش وهيرتزل ، فان هيرش كان في نهاية المطاف سينضم الى هيرتزل ، فيما لو امتدت به الحياة . لقد كانت له تحفظاته : وقوع فلسطين تحت السلطة العثمانية — قريبا من روسيا — اضمحلال دوره هو أمام بروز هيرتزل المتزايد . ولكن هذه التحفظات كانت ستزول من نفسه تدريجيا ، كما زالت من نفوس الكثيرين من اليهود الذين لم يتحمسوا لدعوة هيرتزل في البداية ، ثم انتهوا الى أن يصبحوا من أخلص أتباعه . فالبارون لم ينس يهوديته ولا لحظة واحدة . وهذه الحقيقة يشدد فرونفالد عليها ، ولا ينسى تذكير القارئ بأنه مهما كان التضارب كبيرا في الرأي حول مدى انتماء هيرش للحركة الصهيونية ، فان الأرجنتين أصبحت موردا بشريا لإسرائيل ، حتى درج القول بين الصهيونيين بأن :
The Way Leads From A(rgentine) to Z(ion).

أي ان الأرجنتين كانت مجرد محطة استراحة بين أوروبا الشرقية وفلسطين ، لا أكثر .

الحزب الاشتراكي الفرنسي والقضية الفلسطينية : نظرة تاريخية

الدكتور فيصل دراج

العالم ليس جامداً ومحكوماً بقوانين سرمدية، بل خاضع وباستمرار لقوانين الحركة والتطور ، والتغير هذا لا يخضع فقط الى موضوعية القانون التاريخي بل هو مشروط ومحكوم ايضا بممارسة الانسان وحركته ، فالممارسة الثورية تفرح وتنشط التطور والحركة ، ويعني هذا على المستوى السياسي ان موقف ونظرة أية قوة سياسية الى القضية الفلسطينية لا يعتمد فقط على قانون الحركة التاريخية الموضوعية بل يعتمد ايضا على الممارسة الثورية للشعب الفلسطيني التي تدفع هذه الحركة وتسرعها باتجاه معين .

أمر آخر يجب ان ننوه اليه ، هو سيادة المنطق الشكلي على محاكمات البعض السياسية ، وهذا يعني ان هذا البعض ينظر الى موقف القوى السياسية ازاء القضية الفلسطينية كموقف نهائي غير خاضع للتبدل او التغير ، وبالتالي فمن هو ليس معنا هو مع عدونا بالضرورة ، ويعامل بالتالي كقوة عدوة . ان هذه المحاكمة تنسى ان العالم هو عالم متحولات وليس عالم جوامد ، وانه يتغير وينبدل محكوماً بحركة النضال المتصاعدة .

كما يمكن ان نلمس حقيقة أخرى في ضوء العمل الفلسطيني في اوربا الغربية . وتقدم الحقيقة هذه جملة معطيات . المعطى الاول ، ان العمل الفلسطيني كان محكوماً بعاطفية بدائية ، فقد احتضن كل من كان يقول « فلسطين ستنتصر » دون ان ينظر الى موقع هذا المؤيد سياسياً ، ولا الى دوره الحقيقي في النضال السياسي في بلده ، ولا الى السلبات والمعطيات الضارة الناتجة عن التعامل معه ، فالبعض كان يتعامل مع الشراذم المتطرفة موصداً بذلك الباب امام أية امكانية للتعامل مع الشيوعيين والقوى الديمقراطية الأخرى .

أما المعطى الاخر فيتجلى من خلال برغماتية فجأة ، تتمثل بالتعامل والتنسيق مع القوى « الشراذم » المقتنعة مسبقاً بقضيتنا ، اما القوى التي تحتاج الى حوار وايضاح فقد بقيت خارج اطار الذاكرة ، لان العمل معها يحتاج الى بعض الجهد والمواظبة . كل ذلك جعل العمل الدعائي الفلسطيني محدود الردود لانه لم يكن يتجه الى القوى الفاعلة سياسياً والمعيرة عن الشارع السياسي ، بل اتجه فقط — مع بعض الشواذ — الى القوى السياسية الهامشية والتي تقع على تخوم وخارج الحياة السياسية الفاعلة . ان العمل الدعائي الهادف فعلاً الى مردود ايجابي ، يجب ان يتجه الى القوى الفاعلة سياسياً والحاملة في طياتها بذور المستقبل وهويته ، من هنا تأتي أهمية التركيز على الحزب الاشتراكي الفرنسي كفضيل من فصائل اليسار الفرنسي وكقوة مؤثرة على الحقل السياسي في فرنسا .

التعريف بالحزب الاشتراكي

يمثل الحزب الاشتراكي نيار الاشتراكية الديمقراطية ، وهو عضو في الاممية الثانية (الاممية الاشتراكية) . والحزب في شكله الراهن نتيجة لتطور طويل لجملة جمعيات اشتراكية - ديمقراطية أهمها الـ (SFIO) (الفرع الفرنسي للاممية العمالية) . وبسبب خصوصية الحركة العمالية الفرنسية يعتبر هذا الحزب أكثر أحزاب أوروبا الغربية الاشتراكية يسارية ، ويعود هذا الوضع بلا شك (يسارية الحزب) الى قوة ونشاط الحزب الشيوعي الفرنسي الذي استطاع من خلال نضال طويل ان يجعل مفاهيم الحزب الاشتراكي أكثر رديكالية .

ويرتبط الاشتراكيون الفرنسيون الان بتحالف مع الشيوعيين متوج به « البرنامج المشترك » . ولم يكن التحالف هذا معطى مباشرا أبدا بل نتيجة لنضال مستمر من قبل الشيوعيين والعناصر اليسارية في الحزب الاشتراكي ، حيث ان هذا الحزب كان يحتوي دائما وحتى توقيع البرنامج المشترك على اتجاهين ، الاول يهدف الى تحالف جبهوي مع الحزب الشيوعي ، والاخر يريد تحالفا مع الرديكاليين والديمقراطيين المسيحيين . لكن الاختيار الاول أخذ يتقدم على الاخر بدءا من عام ١٩٦٥ (١) .

وجد في فرنسا ومنذ عام ١٨٩٣ اربعة تجمعات اشتراكية بالاضافة الى الاشتراكيين المستقلين ، وقد استطاعت هذه التجمعات ان تتجاوز تفرقتها نسبيا في ايار ١٩٠١ في مؤتمر عقد في مدينة ليون نتج عنه قيام حزبين اشتراكيين . الاول الحزب الاشتراكي الفرنسي ويضم المستقلين المناهضين لاية ميول ماركسية ، ويركز هذا الحزب على العمل النقابي الثوري . اما الحزب الثاني فيضم أنصار غيد وفيان وهو حزب ماركسي معاد لاية مشاركة في حكومة بورجوازية وبالتالي لاية مساومة مع الاطراف البرجوازية . لكن الاممية الثانية عادت فأجبرت هذين الحزبين على الاندماج في نيسان ١٩٠٥ مولدة بذلك الفرع الفرنسي للاممية العمالية (SFIO) الذي اعتبر نفسه حزب الطبقة العاملة المعادي للبرجوازية بكل مؤسساتها . لكن هذا التنظيم كان هشاً بسبب عدم تجانسه الايديولوجي والاتجاهات السياسية المختلفة التي تحكمه ، لذلك شهد باستمرار انشقاقات عديدة في صفوفه أهمها انشقاق عام ١٩٢٠ ، الذي حرمه من زعيم مرموق جوريس ومن صحيفة الاومانيتيه وثلاثة ارباع اعضائه . حيث شكل المنشقون الحزب الشيوعي الفرنسي . لكن الفرع الفرنسي للاممية العمالية عاد فنظم صفوفه في عام ١٩٢٤ تحت قيادة ليون بلوم وتحول الى حزب جماهيري وتحالف مع الشيوعيين في عام ١٩٣٦ لمناهضة الفاشية . لكن هذا التحالف انتهى بانتهاء الحرب بسبب نمو الاتجاهات الاصلاحية في الحزب الاشتراكي . وتحول الحزب ابان الحرب الباردة الى قوة سياسية يمينية ، وخلال حكم الجمهورية الرابعة كان الحزب الاشتراكي محورا لاية اغلبيه حكومية ، كما دعم السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية ، وأيد الحلف الاطلسي والبناء الاوروبي ، ومارس سياسة معادية للسوفييت والشيوعية . وبعد وصول ديغول الى الحكم ناهضه الاشتراكيون بكل عنف وقوة . وفي خلال رحلتهم اليمينية هذه وجد الاشتراكيون في الحزب الرديكالي نصرا ومؤازرا طبيعيا .

لعب فشل السياسة الكولونيالية الفرنسية والتي دعمها الاشتراكيون بحزم دورا رئيسيا في زعزعة وتفسخ الحزب الاشتراكي ، فانشق عنه جناحه اليساري الذي شكل فيما بعد الحزب الاشتراكي الموحد «PSU» ، في حين بدأ الـ (SFIO) بالانقراض من الشيوعيين . تابع الاشتراكيون بعد ذلك مسارهم المنقلب والشائك حتى تولى رئاسة حزبهم فرنسوا ميتران في ١٦ حزيران ١٩٧١ ، الذي بدأ مباشرة بالعمل من أجل

خلق حزب قوي يتبنى سياسة التحالف مع الشيوعيين كاستراتيجية من أجل انتصار الاشتراكية في فرنسا .

ويحتل الحزب الاشتراكي الآن مكانا هاما في الحياة السياسية ، ويمثل في الانتخابات البرلمانية حوالي ٢٣ ٪ ، كما حصل مسكرتيره العام في انتخابات رئاسة الجمهورية في ١٩ ايار ١٩٧٤ على ٤٩ ٪ من الاصوات ، وتشير الدلائل الآن على نمو مؤيديه وشكله التنظيمي ، ومن الجدير بالذكر ان ميتران جابه ديفول في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٥ وحصل على أكثر من ٤٧ ٪ من الاصوات . وي طرح الحزب خطه السياسي من خلال مجلته الاسبوعية « لونيته » L'Unité التي أسسها في خريف ١٩٧١ ، وله مجلة نظرية هي المجلة الاشتراكية الجديدة « لا نوغيل ريفو سوسيا ليست » .
La nouvelle revue socialiste.

أما على مستوى التنظيمات الجماهيرية فدور الحزب الاشتراكي محدود ، فاتحاد الطلبة الاشتراكيين بدأ في التكون عام ١٩٧١ ، وعلى الرغم من عدم سيطرته على (CFDT) الا ان تأثيره عليها ملموس ، وله تأثير على فيدرالية التعليم القومي ، وعلى اتحاد المعلمين والرياضة . ومهما يكن من أمر فانه من الصعب رؤية حاضر ومستقبل الحياة السياسية في فرنسا بدون الحزب الاشتراكي .

موقف الحزب الاشتراكي من الصهيونية منذ بداية القرن وحتى قيام اسرائيل

نسجت الحركة الصهيونية علاقات وطيدة مع الاشتراكيين منذ بداية هذا القرن ، ويعزى ذلك الى عوامل موضوعية أهمها الموقف الانساني للحزب الاشتراكي من جموع اليهود التي كانت ترزح تحت ثقل اللاسامية . لذلك كان من الطبيعي ان يهرع العديد من اليهود الى صفوف هذا الحزب الذي يرفع صوته عاليا ضد اضطهادهم ، أي ان قيم الحزب الانسانية ومنطلقاته العلمانية خلقت جسورا واسعة بين الطرفين . وقد تجلى هذا الموقف ازاء قضية دريفوس التي وصفها ليون بلوم بـ « تعاسة كبرى سقطت على اسرائيل ، عاناها اليهود بدون ان ينبسوا بكلمة بانتظار ان يمحو الزمان والصمت آثارها » (٦) . ان كلمات الزعيم الاشتراكي هذه تعكس التعاطف الموضوعي والايجابي مع اليهود . ولا يعني هذا الموقف ضمن شروطه التاريخية تحيزا للصهيونية وانما يتطابق مع قيم الاشتراكيين المدافعة عن تحرير الانسان . لكن هذا الموقف المدافع عن اليهود انسحب بعد ذلك على الحركة الصهيونية ، وهكذا وقع الحزب في تطابق باطل ، تطابق بين اليهودي والصهيوني . ومما لا شك فيه ان شبغ اللاسامية الثقيل في تلك الفترة سهل عملية التطابق تلك ، فالصهيوني لم يكن يرى كقوة سياسية كولونيلية عرقية ، بل مناضلا من أجل تحرره وانعتاقه ، أي ان ركاب اللاسامية قد أعطى اشارة مرور سهلة للمشروع الصهيوني ، وان بؤس اليهودي هو الذي منح المشروع الصهيوني « شرعيته » وحركته .

ان هذه الخلفية التاريخية من ناحية والموقع الايديولوجي والاجتماعي للحزب من ناحية ثانية ، بالإضافة الى أوروبية هذا الحزب ، كل ذلك مهد لعلاقة وطيدة بينه وبين الحركة الصهيونية ، وقد لعب ليون بلوم دورا هاما في خلق وتطوير هذه العلاقة ، فالصلة بين بلوم والحركة الصهيونية بدأت في عام ١٩١٦ واستمرت حتى موته . وقد ساهم بلوم في عام ١٩١٦ وكان آنذاك وزيرا في خلق صلة بين سوكلوف ممثل الحركة الصهيونية ووزارة الخارجية الفرنسية ، وكانت هذه الصلة تهدف الى جعل فرنسا تساهم في خلق « وطن قومي لليهود » في فلسطين حال تحررها من النير العثماني . وقد ناضل بلوم منذ اوائل العشرينات من أجل دعم ودفع الحركة الصهيونية الى الامام ،

كما انه كان عضوا نشطا في جمعية فرنسا - فلسطين ومساهما في تحرير المجلة الصهيونية « فلسطين » ، والجدير بالذكر انه كان آنذاك زعيما للحزب الاشتراكي . معنى ذلك ان بلوم تبني كليا الحركة الصهيونية وآمن بكل منطلقاتها(٣) . لذلك فقد بذل كل ما في وسعه من أجل الصهاينة خاصة عند توليه رئاسة الحكومة ابان فترة الجبهة الشعبية . ونسج من خلال ذلك علاقة وثيقة ومستمرة مع وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، ولا شك ان تأثير هذا الاخير كان عميقا على الزعيم الاشتراكي .

يقول بلوم في أحد رسائله « لم أرفض أبدا أي طلب لوايزمان ، وعندما عرفته كنت أجهل الصهيونية تماما ، فجعلني أعرّفها وكسبني الى جانبه »(٤) .

عاد بلوم الى فرنسا بعد انتهاء الحزب ، وبدأ يستفسر عن تطور الحركة الصهيونية في فرنسا ، كما سارع الى تأمين التنسيق بين الحركة الصهيونية والفرع الفرنسي للاممية العمالية (SFIO) وكان يعتقد آنذاك ان الجهد الرئيسي يجب ان يتمحور حول أمرين : اولهما استقطاب الرأي العام ، وثانيهما العمل من أجل تأمين موقف الجامعة العربية ازاء المشروع الصهيوني(٥) .

ولا شك ان يهودية بلوم وموقعه الايديولوجي ، فقد كان يهوديا كما نعلم ، سرعت ووقفت وراء نشاطه اللاتناهي في خدمة الصهيونية وفي جعل الاشتراكيين يتبنون بشكل كامل المواقف الصهيونية(٦) ، لهذا نرى بلوم يهتم ويمارس في كل حقول العمل الصهيوني ويدفع منظمته للعمل معه . لذلك فقد ساهم بعد الحرب في «اسبوع الطفولة اليهودية الشهيدة » والواقع في ٥ تشرين الاول ١٩٤٥ ، كما تدخل لدى الحكومة الفرنسية من أجل تسهيل عمل اللجان الصهيونية في فرنسا والنمسا . اذ ان الصهيونية كانت بالنسبة له تعبيرا عن « متطلبات الجماهير اليهودية العادلة » .

وقد لعب بلوم والاشتراكيون دورا نشطا ايضا في دفع الحكومة البريطانية الى تبني مواقف الصهاينة ، واعتبر أكثر من مرة موقف بريطانيا غير عادل ازاء الهجرة اليهودية ، فكتب مرة « كيف لا نسمح لمن تبقى من يهود لوبلان وغيتو فارصوفيا ، ولينامي ضحايا غاز أوشفيتز ان يذهبوا الى الارض التي يريدونها وطننا جديدا »(٧) . وكان بذلك ولا شك يردد الدعاية الصهيونية الهادفة الى جعل اغتصاب فلسطين عملا قوميا تحرريا ، أي حركة تحرر ولدت وانتصرت بعد طرد الغزاة البريطانيين !! . كما كان بلوم ومن لف لفه يلون عنق حقيقة أخرى ، فارهاب شتيرن والارغون لم يكن بالنسبة لهم موجها ضد سكان البلاد الاصليين ، بل كان عملا قوميا وجهه « المناضلون اليهود » ضد المعتدي البريطاني الذي يحول بينهم وبين « وطن مستقل » . فالعمل الارهابي هو ممارسة يائسة قهربية ضد غزو خارجي مستبد « اني اقول ان الارهاب ليس الا شكلا يائسا من التمرد ، وان الحكومة البريطانية هي المسؤولة عن اثاره هذا الارهاب بسبب افعالها المستمر لساحات الامل أمام يهود فلسطين وصهاينة العالم كله »(٨) .

ان التركيز هنا لا يتم على ليون بلوم من حيث هو فرد ، بل من حيث هو زعيم للحزب الاشتراكي أي الـ (SFIO) آنذاك ، أي كفرد يعكس في مواقفه وممارساته موقف المؤيدين له ، ويتدخل من خلال ثقله السياسي ودوره القيادي في صياغة وتعديل هذه المواقف بحيث تصبح دعما لمشروطا للمشروع الصهيوني .

كما يضاف الى ذلك أمر آخر متأت عن ما سميناه « اوروبية » الحزب الاشتراكي ، أي رؤيته للصراع في فلسطين كصراع بين الشرق والغرب ، أي بين حملة الثقافة الاوروبية الكولونيالية ومناهضي هذه الثقافة وشكلها السياسي . لذلك فان رؤية بلوم

للصراع كانت وحيدة الجانب ، رؤية ملتزمة بالمشروع الصهيوني كظل اوروبي ضد ثقافة الصحراء و « الاظلام العربي » ، لذلك فقد كان يندد باستمرار بـ « تعصب العالم العربي » و« غاشيته » . ان رؤية بلوم وغريقه على الرغم من « انسانيته » الاوروبية مثلت امتدادا للرؤية الصليبية بكل تبريراتها الحضارية . وقد تجلى ذلك في تهجم بلوم وحزبه على قرار اقتسام فلسطين ، لانه اعتبر ارض فلسطين برمتها وطقا تاريخيا لليهود ، كما كان يطالب بالقدس كعاصمة للدولة اليهودية .

ولقد تركت مواقف بلوم بصماتها الواضحة على موقف الفرع الفرنسي للاممية العمالية ازاء الصهيونية ، فقد كان مارك جارلوم بعد الحرب مناضلا فسي صفوف « الحزب العمالي الفلسطيني الصهيوني » وممثلا لهذا الحزب في فرنسا ، ومناضلا في الوقت نفسه في صفوف الـ (SFIO) ، اي ان هناك تطابقا في موقف التنظيمين ، خاصة ان كليهما ينتمي الى الاممية الاشتراكية . لهذا كان من الطبيعي ان يتبنى الاشتراكيون الفرنسيون في مؤتمر النقابات العالمي في ١٩٤٥ الموقف التالي : « يجب وضع الامكانيات للشعب اليهودي حتى يتابع بناء فلسطين كوطن قومي له ، وذلك عن طريق الهجرة والاستيطان الكولونيالي والتطوير الصناعي » .

كل ذلك جعل من الساسة الاشتراكيين أمثال بلوم ، ليون جوهر ، بيير اوليفيه لابي ، دانييل ماير دعاة مخلصين للحركة الصهيونية في فرنسا ، ومحامين بدأب عن ممارساتها وتطلعاتها العدوانية .

وهكذا فان الاشتراكيين الفرنسيين قد لعبوا دورا لا يستهان به ، في الدعوة للصهيونية ، وفي دعمها لتحقيق مشروعها الكولونيالي - العرقي ، حتى ظهر بشكله النهائي في عام ١٩٤٨ ، أي باغتصاب فلسطين .

الحزب الاشتراكي والتحالف اللامقدس

منذ قيام اسرائيل وحتى نهاية ١٩٧٢ بقي التكافل قائما بين الحركة الصهيونية والاشتراكيين ، اي ان الاشتراكيين مارسوا دعما مستمرا لاسرائيل باعتبارها كيانا اشتراكيا وحضاريا في الشرق ، وكما يعرف فان غزو مصر « حملة السويس » والتي شاركت فيها فرنسا تمت عندما كان الاشتراكيون ممسكون بزمام الحكومة . ان دعم الاشتراكيين لاسرائيل لا يعود فقط الى العلاقة التاريخية بينهما ، بل يرتبط ايضا بسياستهم الكولونيالية والتي أخذت كل ابعادها في حرب الجزائر .

غاصت القضية الفلسطينية ما بين ٤٨ - ١٩٦٧ في بحر من الصمت في العالم الاوروبي ، لانها ارشفت كقضية لاجئين وليس حركة تحرر وطني ، لذلك لن نعثر في مواقف الحزب على أمور ذات دلالة ، فالحقيقة الوحيدة عند الاشتراكيين هي اسرائيل ككيان مقدس يجب صيانته ورعايته حتى النهاية .

أخذت القضية الفلسطينية تطفو على السطح من جديد بعد حرب ١٩٦٧ بفضل المبادرة التاريخية للشعب الفلسطيني المتحورة على البندقية . ويمكن ان نتلمس موقف الاشتراكيين من القضية الفلسطينية بشكل لامباشر ، أي من خلال ردود فعلهم ازاء الحرب من خلال الصحف التي تقاسمهم مواقفهم السياسية ومواقفهم الايديولوجية . ولنر الان ما تقولته مجلة التوفيل ابرزفاتور بتاريخ ٧ حزيران ١٩٦٧ : « وحتى لو انتصر الاسرائيليون غدا في سيناء ، وغزة والسويس ، لن يظل عليهم ان يدافعوا فيها بعد ، ضد تحالف الجيوش العربية وان يذودوا عن مدنهم حجرا حجرا ، كما دافعت

ستالينغراد ، وكما دافع الحي اليهودي في فارصوفيا « (٩) . وهكذا فان العدوان الاسرائيلي يأخذ هنا بعدا انسانيا وبطوليا مع دفقة كبيرة من العاطفية المتاجرة بأحزان الحرب العالمية الثانية ، بل ان حرب اسرائيل تصبح موجهة ضد فاشية جديدة .

أما كلود آفلين فقد ذهب الى وضوح أكثر « ان ثمة بين أوائل رجال المقاومة من يعتقدون بأن فرنسا لا تستطيع ان تظل ساكنة بعد الان . . . ، اذ ان عبد الناصر يطمع الى ان يتم ما بداه هتلر » (١٠) .

وهذا المنطق بلا شك امتداد لاطروحات الفكر الصهيوني الميتافيزيقية ، فكل مناهض للصهيونية مناهض بالضرورة لليهودية ، أي لاسام وبالتالي فاشي ، وضمن هذا الإطار فان التاريخ لا وجود له ولا الفلسطينيين أيضا ، فالمحاكمة تبنى على خلفية فكرية « أوروبية » ، فهناك حضور لليهودي المضطهد وحضور نظير له الفاشية ، ولتبرير الدعم المطلق للصهيونية تخرج الفاشية من رموسها وتلبس لعبد الناصر والعرب ، مما يوحي بأن « متاهة اليهودي » ما تزال قائمة وافناءه محتتمل . ومنطق المحاكمة هذه ذات الكابوس الكولونيالي ينفي أي وجود للشعب الفلسطيني . وأكثر من ذلك فسان منظري الاشتراكيين جعلوا من حرب حزيران محاولة عربية لاغتصاب « أرض » اسرائيل وحدودها الشرعية « ومنذ زمن طويل تعترف الحكومات المولعة بالعظمة والامجاد ، مبدأ « أرض الوطن ذات المساحات القابلة للتغير » (١١) .

أما « الاتحاد الفرنسي الديمقراطي للعمال C.F.D.T. » والذي يعتبر أحد الاجنحة اللامباشرة للحزب الاشتراكي ، فقد تدخل لدى رئيس الجمهورية طالبا أن « تستمر فرنسا في العمل وتوسعه في سبيل الحفاظ على حياة اسرائيل وانقاذ السلام » (١٢) .

وقد حافظ موقف الحزب الاشتراكي المنحاز الى اسرائيل على سمته هذه على الرغم من انكشاف الوجه العدواني الفاشي لاسرائيل بعد الحرب ، وبعد مرور أكثر من خمس سنوات على عسف اسرائيل وتشبيها بالمناطق العربية المحتلة ، صرح فرنسوا ميتران زعيم الحزب ابان زيارته لاسرائيل في ١٤/٣/١٩٧٢ بما يلي : « كونوا واثقين بأننا سنكون أصدقاء مخلصين لاسرائيل عندما نصل الى الحكم ، مخلصين لكم كفرنسيين واشتراكيين . . . وان فرنسا والفرنسيين يعتبرون أنفسهم قريبين جدا من اسرائيل (١٣) . ثم عاد فصرح في ٢١/٣/١٩٧٢ فقال : « ان موقفنا واضح كل الوضوح ، فنحن مع الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود ، ونأمل ان تصل الى شاطئ الامان ، كما اننا لسنا مع كل تطل غير مشروط ومسبق عن الاراضي المحتلة » ، واعلن انه يتفق مع مشروع بيبغال لون « (١٤) . كما صرح ميتران « ان الحزب الاشتراكي لا يتفق مع قرار حظر الاسلحة الفرنسية لاسرائيل ، وانه من المستحيل ان نقبل ان تقوم فرنسا بمساعدة اعداء اسرائيل كما ان الحزب الاشتراكي ينظر بعطف وتفهم الى رغبة اسرائيل في اجراء تعديلات في الحدود والاحتفاظ بالقدس كمدينة موحدة » (١٥) . ويمكن ان تلخص موقف ميتران اعتمادا على مقابلة له مع مجلة «كراسات برنارد لازار» في آذار ١٩٧٣ . يقول ميتران : ١ - كل سلام عادل لا يمكن ان يتم الا من خلال مفاوضات مباشرة بين الاطراف المعنية .

٢ - انني أعتزف باسرائيل ، واعترف ايضا بالواقع القومي الفلسطيني والذي هو معطى تاريخي وجغرافي ، وموقفنا هذا من الطرفين مبدئي ولا يعتمد على اعتبارات تجارية مثل الديغوليين .

٣ - ان الحزب الاشتراكي يدافع عن حق يهود الاتحاد السوفييتي في الهجرة الى

اسرائيل وموقفى هذا معروف من خلال مراسلاتى مع السفير السوفىيى ابراسيموف .

{ — ان الحزب الاثتراكى ضد اى تسليح فرنىسى للعرب ، وان بيع طائرات الميراج الى لىبىا يهدد امن اسرائيل ، لان لىبىا تشكل جزءا من الدول المتصارعة فى الشرق الاوسط . ان بيع السلاح الى لىبىا يخالف القانون الفرنسى الرسمى ويعبر عن نفاق وخداع . ان بيع السلاح الى لىبىا وابقاء الحظر على بيع السلاح الى اسرائيل امر لا يمكن السكوت عليه .

٥ — ان وصولى الى السلطة ، يعنى ان تكرس فرنسا كل امكانياتها من اجل سلام عادل فى الشرق الاوسط(١٦) .

ان ميتران يريد شرق اوسط يعيش فى سلام ، سلام يكون على حساب العرب والفلسطىنيين ، لان اسرائيل بالنسبة له كيان مقدس لا يمس كما ان ممارستها صحيحة ومفهومة ومبررة !!

اندلاع حرب رمضان وعدم انتصار اسرائيل وصمود الجيوش العربية اظهر من ناحية كلاسيكية منطق الحزب الاثتراكى و « اوروبيته » ، كما اظهر فى الوقت نفسه عدم تجانس مواقف هذا الحزب . فبالنسبة لـ « جاستون دوغمر — احد زعماء الحزب الاثتراكى فان « المصريين مسؤولون عن اندلاع الحرب فهم بادروا بالهجوم . . . وان الزعماء العرب اعلنوا اكثر من مرة عن نيتهم فى ازالة اسرائيل ، وهذا ما سيفعلوه اذا ربخوا الحرب . وعندئذ ماذا سيحل بالاسرائيليين ؟ سيدبحون ؟ ومن سينجو منهم فهل عليه ان ينتظر ٢٠٠٠ عام حتى يجد وطناً ؟ » (١٧) . ثم يعود بذلك لرسم رؤيته لاسرائيل « فهي دولة ديمقراطية ، انتخاباتها حرة ، كما ان الحريات السياسية والفردية محترمة فيها ، بينما اعداء اسرائيل دول ديكتاتورية » .

أما منطق ببير موري، الشخصية الثانية فى الحزب فلا يختلف كثيرا عن منطق سابقه « فجيوش اسرائيل يقاتل ضد اعدائه من قبل العدو ، الذى يرفض بعناد حق اسرائيل فى الوجود منذ ١٩٤٨ . واسرائيل تعطي مثالا كاملا عن الديمقراطية الحقة ، كما ان الزعماء العرب عاجزون عن حل الامور سواء بالسلم أو بالحرب ، ويتوجب على أية مفاوضات ان تستند على الاعتراف باسرائيل وامن حدودها . . . ان الهجوم العربى الكثيف والمفاجىء يجعل مطلب اسرائيل بالاحتفاظ بالمنطق المحتمل مقبولا » (١٨) .

وهكذا فان صهيونية الاثتراكىين تطفح بانفعال على السطح ، وعندئذ تتوارى كل ممارسات اسرائيل ولا يبقى فى ساحة الرؤيا الا « اليهودى التائه » و « ديمقراطية اسرائيل المثلى » . وهذا ما أثار « المجاهد » الصحيفة الجزائرية ، عندما ردت على تصريحات دوغمر بمقالة تحت عنوان « أبطال القضية الصهيونية » (١٩) ، مظهرة ان الحزب الاثتراكى — وعلى الرغم من مبادئه — يطرح من خلال تبريراته المتعددة كامل مسؤولية الحرب على كاهل العرب .

وعبر الحزب الاثتراكى عن موقفه الرسمى كما يلى : « ان الحزب لا يعتقد ان ميزان القوى هو الذى سيحل الامور ، ولن يكون استمرار الحرب مفيدا لاي من الطرفين » (٢٠) . وكما يرى هنا فان الحزب لا يثير اطلاقا قضية الشعب الفلسطينى ، مما جعله يتعرض لنقد مباشر من الحزب الشيوعى الفرنسى شريكه فى تحالف اليسار .

لم يكن موقف صحيفة الحزب الاسبوعية « لونيته » يختلف عن موقف اليسار الصهيونى الرسمى فى الحزب ، فهي تعتقد ان سبب الحرب هو « رفض العرب المتعنت

الاعتراف بإسرائيل وحقتها في الوجود بسلام وأمان ، كما ان أي اعتراف يجب ان يتضمن ضمانات سياسية واقتصادية وبدون شك اقليمية » .

أما فرنسوا ميتران الذي يجد صعوبة كثيرة في الخروج من جلده الصهيوني فقد صرح بما يلي : « لو ان الجيوش العربية بدأت هجومها — في يوم السبت — منطلقاً من غزة والجزلان والاردن لوصلت الى قلب تل أبيب . فكيف نعرف ونميز الحدود الآمنة من تلك التي ليست آمنة » (٢١) .

يتناسى ميتران هنا جوهر القضية وطبيعة السياسة الاسرائيلية ليتحول الى مدافع ومبرر لسياسة اسرائيل التوسعية ، فهو هنا مسوغ ومبرر لضم الاراضي العربية المحتلة .

أظهرت حرب اكتوبر الطبيعة السياسية اللامتجانسة للحزب الاشتراكي . فهو يمثل الجزء الاعظم من البرجوازية الصغيرة ، التي يسحقها شيئاً فشيئاً النظام الرأسمالي ، فهي لذلك تعاديه ، لكنها بحكم موقعها الطبقي المتأرجح وبسبب التربية الايديولوجية المعادية للشيوعية ترفض الحزب الشيوعي ، لذلك فان موقعها الطبيعي هو ضرب البرجوازية الصغيرة ، الحزب الاشتراكي . لذلك يمكن القول بان الحزب الاشتراكي هو تراكم لفئات ترفض النظام الرأسمالي لكنها لا تملك الوضوح الكافي لتجاوزه ، وان تم ذلك فهو من خلال وسيط (الحزب الشيوعي) .

وينعكس غياب وضوح الرؤيا هذا على مجالات عدة ، منها الصراع العربي — الاسرائيلي . ان موقف القيادة الموالية للصهيونية ، والذي في حزب المابام زميل له في الاممية الاشتراكية ، لا يعكس بالضرورة موقف الحزب كله . لذلك نجد في صفوف هذا الحزب الموالية المطلقة لاسرائيل ، كما نجد العطف الكامل على القضية الفلسطينية . وقد ظهر هذا الموقف اللامتجانس بكل أبعاده ابان حرب اكتوبر . فبعد الدعم المطلق لاسرائيل الذي لمسانه في مجلة الحزب ، طلعت علينا المجلة نفسها بمقال آخر تقول فيه « ويعود استمرار الحرب الى رفض اسرائيل الاعتراف بالواقع القومي الفلسطيني والذي هو عنصر أساسي باية تسوية شاملة في الشرق الاوسط » (٢٢) .

وقد انكشف موقف الحزب اللامتجانس الى العيان عندما صدرت فيدرالية باريس للحزب الاشتراكي في ١٧ اكتوبر بياناً يخالف البيان الصادر عن الهيئة الادارية للحزب على المستوى الاقليمي والصادر في ١٣ اكتوبر . وبيان الهيئة الادارية والمعبر عن الموقف الرسمي للحزب جاء كما رأينا مؤيداً لاسرائيل بدون شروط ، في حين جاء موقف فيدرالية باريس — والمعبر عن يسار الحزب CERES — ناقداً لاسرائيل ، فهو يقول « نأمل بعد وقف اطلاق النار ان تعيد اسرائيل مباحرة كل الاراضي التي استولت عليها ، واقامة دولة فلسطينية ذات سيادة مطلقة واذا كان الرأي العام قد تضامن مع اليهود بسبب شهدائهم خلال الحرب ، فان مئات الالوف من الفلسطينيين الذين يعيشون في ظروف بائسة تشكل وصمة عار في جبين الانسانية ان رفض اسرائيل المستمتر للتخلي عن الارض التي احتلتها في عام ١٩٦٧ جعل المجابهة مع العرب امراً حتمياً » (٢٣) .

ان هذا الموقف يمثل الجناح اليساري والشباب من الحزب ، أي الجناح الذي تجاوز اقدانيم منديس فرانس وغي موليه الكولونيالية ، الغائصة رغم « اشتراكيتهما » في ايديولوجيا « الرجل الابيض » ذي المهمة التبشيرية في العالم « البدائي » .

الحقيقة وعملية التاريخ

لا تقبل الحقيقة دائما اراديا ، بل تفرض ذاتها من خلال مصداقيتها الداخلية ، أي ان الذات لا تقبلها بالضرورة بسبب اقتناعها بها ، بل لان هذه الحقيقة تصبح جزءا موضوعيا من الحقيقة التاريخية التي تنمو يوما بعد يوم . يصدق هذا بشكل دقيق على موقف الحزب الاشتراكي من القضية الفلسطينية التي بدأت تفرض نفسها عليه على الرغم من تقاليد الصهيونية العريضة .

حدد الحزب الاشتراكي موقفه من الشرق الاوسط في برنامجه الحكومي الصادر في عام ١٩٧٢ بالشكل التالي « ١ - الاعتراف بحق اسرائيل في البقاء والامن ، وكذلك بحق جميع الامم الاخرى في الشرق الاوسط بما فيها الامة العربية الفلسطينية . ٢ - تثبيت الحدود بشكل نهائي وذلك عبر مفاوضات بين الجوانب المعنية ، مع الانسحاب من المناطق المحتلة . وتعتمد هذه المبادئ على قرار الامم المتحدة الصادر في عام ١٩٤٧ والذي كرس ولادة اسرائيل ، والقرارات الصادرة في عام ١٩٦٧ » .

ويلاحظ هنا ان الحزب الاشتراكي يشير الى حقوق الشعب الفلسطيني ولكن بشكل غامض يفقده أية دلالة محسوسة ، وعلى نقيض ذلك نرى ان موقفه ازاء اسرائيل دقيق كل الدقة ، فهناك « الحق في الوجود والامن » و « تثبيت الحدود » و « المفاوضات » . ان قراءة سريعة لدلالة المفردات المستعملة تظهر - الى حد ما - تطابقا بين هذه المواقف وموقف الحكومة الاسرائيلية .

كما ان اشارة الحزب الاشتراكي الى قرارات الامم سائهة ومحرفة ، فهو يتكلم عن « تثبيت حدود نهائية بالمفاوضات بين الاطراف المعنية » ثم الانسحاب من الاراضي المحتلة « في حين ان قرار مجلس الامن حدد الانسحاب الشامل كشرط رئيسي للبدء في أي عمل آخر(٢٥) .

طرا على هذا الموقف تغير عند صدور برنامج مشترك بين الشيوعيين والاشتراكيين ، فاصبح كما يلي : « العمل من أجل اعادة السلام والامن الى الشرق الاوسط ، مع احترام حق كل دولة من دول المنطقة بالوجود ، واحترام سيادتها وخاصة دولة اسرائيل ، وكذلك احترام الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني » (٢٦) .

ويعود اعتدال الاشتراكيين هنا الى الدور الذي مارسه الشيوعيون - ولا يزالون - في كبح المواقف الصهيونية عند الحزب الاشتراكي . وقد كان الموقف من الشرق الاوسط من أكثر المسائل تعقدا ابان محادثات الطرفين - الشيوعي والاشتراكي - وكاد ان يؤدي الى تعثر ومراوحة المحادثات وذلك بسبب تعنت صهيوني الحزب الاشتراكي . ان تطور القضية الفلسطينية كحركة وطنية تحررية تقاوم رجعية كولونيالية ، اجبر حتى احزاب الامة الاشتراكية على الاعتراف « بواقع الشعب الفلسطيني » . ان هذا المعطى الجديد جعل منطلق الاشتراكيين يسير باتجاه ايجابي رغم تعثراته ، وتتوارى هذه الفترات كلما تقدمت الحركة الفلسطينية . نعثر على دائرية الاتجاه الايجابي والعثرات في لحظتين اساسيتين لميتران في عام ١٩٧٤ .

تظهر اللحظة الاولى ، عندما ارسل رسالة بتاريخ ٢٤ نيسان الى هنري بولافكو ، السكرتير العام لحلقة برنارد لازار الصهيونية والناطقة باسم حزب المابام بشكل خاص واسرائيل بشكل عام . يقول ميتران في رسالته « ان مواقفي السابقة والتي دافعت عنها بثبات ودأب تشكل ضمانا لوجود ومستقبل دولة اسرائيل . واذا انتخبت رئيسا للجمهورية ، فان فرنسا ستكون على أعلى مستوى من المسؤولية من أجل الدفاع عن امن اسرائيل » (٢٧) .

وكانت الحلقة المذكورة قد وجهت دعوة الى ميتران لحضور اجتماعاتها ، فاعتذر بسبب انشغاله بالحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية .

بعد هذه اللحظة التي يعتبر فيها ميتران عضو شرف في الحركة الصهيونية ، نصل الى لحظة اخرى أكثر تعقلا ، يبدو فيها كحكم يحاول قدر جهده ان يكون نزيها ، ففي مقابلة له في ١ كانون الاول ١٩٧٤ مع مجلة « نوفيل اوبزرفاتور » قال ميتران « اعترف الحزب الاشتراكي بالواقع القومي الفلسطيني ، واذا لم يقل على أي أرض ستعيش هذه الامة ، فانه كان يفكر بأرض ممكن الحصول عليها ويقرها القانون الدولي : بعض الاراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب الايام الستة ، وتعتقد اسرائيل انه يتوجب على الفلسطينيين ان يطولوا مشاكلهم مع الاردن وفي الاردن ، وهذا كما نرى ليس معقولا . . . ، يجب ان يعيش الاسرائيليون والفلسطينيون في دولتين متجاورتين تتبادلان الاحترام ، والا فان اقتتالهم سيؤدي الى الموت والفتناء . . . ، ان اسرائيل تخطيء عندما ترفض ان يكون للفلسطينيين وطن » (٢٨) .

ان ميتران أصبح يعترف بالوجود الفلسطيني وحقوقه القومية وكما قلنا فان هذا الموقف الجديد تدفع اليه الاحداث دفعا ، فهو ليس تنساعة نظرية ذاتية ، بل تفهم لحركة الواقع التي تلغي كثيرا من المفاهيم المسبقة والمغلوطه ، ومعنى تلغي هنا هو ان تجعل هذه المفاهيم عاجزة عن التصريح عما تريده فعلا ، لذلك فهي حالة انفصام « تريد ان تسمع الفلسطينيين ، وترى كيف يفكرون ، لكن هذا لا يعني القبول بأرائهم أو رفضها » (٢٩) .

ان تطور موقف الحزب الاشتراكي يعني امرا واحدا هو ضرورة اقامة حوار مع هذا الحزب ، واقامة جسور اعلامية معه . فهو حزب يتطور في مواقفه السياسية ، وتطوره هذا سيرتك صدى في بلد الحزب وخارجها .

- | | | | |
|---|------|---|------|
| L'Humanité : 17-3-1972 | — ١٥ | Les partis politiques dans la | — ١ |
| Cahiers Bernard Lazare : Mars 1973 No. 39 | — ١٦ | France d'aujourd'hui : Francois Borella Eds: Seuil 1973, p. 147-165 | |
| Le monde : 9-10-1973 | — ١٧ | Michael R. MARRUS : Les Juifs de France à l'époque de l'affaire Dreyfus Eds: Calmann-Lévy, p. 11. | — ٢ |
| المصدر نفسه . | — ١٨ | David Lazar : L'opinion française et la naissance de l'Etat d'Israël 1972, Eds : Calmann-Lévy, p. 150-170 | — ٣ |
| الجاهد الجزائرية ، ١١/١٠/١٩٧٢ . | — ١٩ | Léon Blum : Pour la Justice Eds: Al Bin Michel - 1963; p. 442 | — ٣ |
| L'Humanité 12-10-1973 | — ٢٠ | L'opion française, p. 145 | — ٥ |
| Unité 12-10-1973 | — ٢١ | Le populaire, 21 août 1946 | — ٦ |
| نفس المصدر . | — ٢٢ | نفس المصدر . | — ٧ |
| Le monde 9-10-1973 | — ٢٣ | نفس المصدر . | — ٨ |
| Programme socialiste de gouvernement 1972 | — ٢٤ | Le nouvel observateur 7-6-1967 | — ٩ |
| L'Humanité 12-10-73 | — ٢٥ | Le monde : 6-6-1967 | — ١٠ |
| Programme commun de gouvernement Eds: Sociales, p. 182-1972 | — ٢٦ | Le monde : 30-5-1967 | — ١١ |
| Cahiers Bernard Lazare Avril-Mai 1974 | — ٢٧ | Le monde : 28-29-5-1967 | — ١٢ |
| Le nouvel observateur 1-12-1974 | ٢٨ | Le monde : 16-3-1972 | — ١٣ |
| La nouvelle Revue Socialiste No. 5, 1974. | — ٢٩ | Le monde : 23-3-1972 | — ١٤ |

جنوب إفريقيا واسرائيل علاقة خاصة

الدكتور سميح فرسون

خلال فترة حرب أكتوبر ، كما في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، علق وزير مالية جنوب افريقيا ، الدكتور ديدريكس ، فوراً وعلى وجه التخصيص جميع القيود على تصدير الراسمال الى اسرائيل . وجمع نحو ثلاثين مليون دولار وارسل المبلغ الى اسرائيل . ومع ان الدولة كانت محايدة رسمياً في ما يتعلق بحرب الشرق الاوسط ، فان وزير الدفاع بوثا قال لاجتماع في بورت اليزابيث ، بجنوب افريقيا ، ان جنوب افريقيا ستجد طريقاً « ضمن تدرتنا ، ودون اعلان حرب » لمساعدة اسرائيل . ومضى يقول : « ثمة شعور عميق نحو اسرائيل من جانب الوف الجنوب افريقيين في معركتها ضد قوى العسكرية الشيوعية التي تشكل خطراً علينا ايضاً » (فري بالستين ، كانون الاول - ديسمبر ، ١٩٧٤ ، ص ٩) وقدرت احدى صحف جنوب افريقيا ان نحو ١٥٠٠ شخص ذوي صلات جنوب افريقية اشتركوا في حرب اكتوبر كجزء من القوات المسلحة الاسرائيلية . وتطوع عدد كبير من الجنوب افريقيين للمشاركة في الجهود العسكرية وغير العسكرية في اسرائيل . وبالإضافة الى ذلك تلاحظ الروايات الصحافية ان بعض الاعتددة العسكرية الجنوب افريقية ارسلت الى اسرائيل خلال الحرب . « ابان الحرب ، اعلنت الحكومة المصرية انها اسقطت طائرة ميراج تملكها دولة اجنبية على جبهة السويس ، وأشارت مصادر عسكرية في القاهرة الى ان هذه الدولة هي جنوب افريقيا . وفي حين ان كلا من جنوب افريقيا واسرائيل نفى التقرير ، فقد صرح رئيس جمهورية زامبيا ، كاوندوا ، في آذار (مارس) ١٩٧٤ ان جنوب افريقيا لم ترسل طائرات ميراج لمساعدة اسرائيل ولكتسب (الخبرة من أجل حروب مقبلة)

بحلول نهاية ١٩٧٢ كانت اكثر من ٣٠ دولة افريقية قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . وكانت سبع منها قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية بين حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وتشيرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، بينما فعلت ذلك الدول الباقية خلال حرب اكتوبر العربية-الاسرائيلية للعام ١٩٧٣ ومنذ ذلك الحين ، ووجدها جنوب افريقيا ، مع ليسوتو وسوازيلاند ومالوي ، وجميعها تعتمد على جنوب افريقيا ، حافظت على صلاتها الدبلوماسية مع اسرائيل . ومنذ تأسيس منظمة الوحدة الافريقية كان التضامن الافريقي الناشئ قد سبب قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والثقافية وغيرها لعدد من الدول مع الدولتين الاستعماريتين البرتغال (قبل الثورة) وجنوب افريقيا . وآخر عمل من أعمال قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة مع اسرائيل قامت به الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية ، لا يعكس التضامن الافريقي محسب بل يعكس ، كذلك ، نظرتها الى اسرائيل كدولة استعمارية عدوانية في الشرق الاوسط . وكون جنوب افريقيا والدول المعتمدة عليها وجدها حافظت على علاقاتها باسرائيل انما يزيد من تعزيز هذه الرؤية . وبالفعل ، في آذار (مارس) ، ١٩٧٤ ، تحركت حكومة اسرائيل لتعزيز صلاتها باعلانها أنها في سبيل رفع مستوى بعثتها في جنوب افريقيا الى سفارة . وأشارت جنوب افريقيا هي كذلك الى نيتها رفع مستوى تمثيلها في اسرائيل الى مستوى سفارة .

* لم يتم اي بلد افريقي علاقات مع حكومة روديسيا العنصرية البيضاء بعدما اعلن ايان سميث الاستقلال من جانب واحد .

افريقيا ووسعتا نطاق علاقتها في العهد اللاحق لحرب اكتوبر . مثال ذلك ان غرما تجارية جنوب افريقية - اسرائيلية اقيمت في اسرائيل وجنوب افريقيا . وقد صار التوظيف الاقتصادي السري للرأسمال الجنوب افريقي في اسرائيل معلوماً أخيراً (اكتوبر ، ١٩٧٤) مع كشف النقاب عن فضيحة تحيط بانتهاء احدى شركات الاستثمار ، وهي اسرائيل كوربوريشن (تقارير مريب MERIP العدد ٢٢) . وتشتمل المشروعات الجنوب افريقية الاخيرة على تمويل مجمع مكاتب وتسويق يتألف من ٢٦ طبقة في تل ابيب سيمسى « بيت جنوب افريقيا » ، ومجمع بتروكيميائي في حيفا ، ومجمع مصانع قرب تل ابيب ، والمنطقة التجارية الحرة التي يجري تشييدها في ايلات . وفي ايار (مايو) ١٩٧٤ رفع الحد الاعلى للتشتر المباشر من قبل الشركات الجنوب افريقية في اسرائيل من سبعة ملايين راند الى عشرين مليون راند . ومن الناحية الاخرى أعلنت شركة صناعات كور الاسرائيلية عن خطط لتأسيس مصنع مواد كيميائية زراعية في جنوب افريقيا بالشراكة مع شركة جنوب افريقية وبمساعدة مالية من حكومة جنوب افريقيا . ولعل انضل مثل على المصالح الاقتصادية المتبادلة هو تصريح بنيامين فينشتاين ، الجنوب افريقي الذي اشترك في « مؤتمر اللبونيريين » في حزيران (يونيو) ، بالقدس ، وقال ان الشركات الجنوب افريقية ستوظف اموالها في اسرائيل بغية صنع اقمشة قطنية مطبوعة يصار الى تصدير جزء منها الى الدول الافريقية المستقلة بغية تجنب المقاطعة الافريقية لسلع جنوب افريقيا . وقال ايضا : « ان اسرائيل هي بمثابة قاعدة مفيدة جدا للشركات الجنوب افريقية التي لا يمكن ان تورد مباشرة الى افريقيا » (قري بالستين ، ديسمبر ، ١٩٧٤ ، ص ٩) . وبالإضافة الى ذلك تنظر المصالح التجارية الجنوب افريقية الى اسرائيل على انها قاعدة باب خلفي الى السوق الاوروبية ، خصوصا اذا لم يكن باستطاعة جنوب افريقيا ان تتوصل بالتفاوض الى اتفاق مباشر .

الأمثلة الالفة الذكر لا بد وان تكون بالضرورة وصفا انتقائيا وجزئيا جدا للعلاقة بين جنوب افريقيا واسرائيل . كما أشار س. ل. سلزيفر في نيويورك تايمز ، فان الدولتين لاسباب كثيرة

غصب ، بل ان اسرائيل ارسلت ضابطاً برتبة لواء الى جنوب افريقيا لتدريب القوات الجنوب افريقية على مقاومة الفدائيين « قري بالستين ، ديسمبر ١٩٧٤ ، ص ٩ » .

ان تبادل الزيارات للمسؤولين رفيعي المستوى بين البلدين أمر واضح وبارز . فخارج امريكا الشمالية وبعض بلدان شمال غربي اوروبا ، نلاحظ أن جنوب افريقيا هي البلد الوحيد الذي يتلقى مثل هذه الزيارات الرفيعة المستوى . وهي مماثلة بنوع خاص لنمط الزيارات بين اسرائيل والولايات المتحدة . قبل حرب اكتوبر ذهب اسحق رايبين وحاخام اسرائيل الاكبر في زيارات « خاصة » لجمع الاموال الى جنوب افريقيا في حين جاء وزير داخلية جنوب افريقيا كوني مولدر الى اسرائيل في « زيارة خاصة » . كذلك زار اسرائيل في ايلول (سبتمبر) ، ١٩٧٢ ، الدكتور ا. رودى ، ناظر اعلام جنوب افريقيا . بيد أن اهم زيارة كانت زيارة الجنرال فان دن برغم ، رئيس مكتب امن الدولة (المسمى اختصارا بوس) ، وهو جهاز المخابرات الشهر بجنوب افريقيا ، وقد كشف النقاب عن هذه الزيارة في آب (اغسطس) ، ١٩٧٣ . وبعد حرب اكتوبر اشتمل المكتب ، بالإضافة الى موظفين تجاريين اسرائيليين رفيعي المستوى ، على الجنرال موشي دايان طبيباً لدعوة « الاتحاد الصهيوني لجنوب افريقيا » و « مؤسسة جنوب افريقيا » ، وهي منظمة العلاقات العامة الخاصة التي خلقها رجال اعمال جنوب افريقيون لتحسين صورة بلدهم في الخارج . وفي اكتوبر ، ١٩٧٤ ، قام الجنرال حاييم هيرتوغ ، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الاسرائيلي ، بزيارة ايضا كضيف على حكومة جنوب افريقيا . في الماضي ، عندما كانت اسرائيل ما تزال تحتفظ بعلاقات عديدة مع دول افريقية سوداء ، كان الزائرون الاسرائيليون البارزون يجيئون الى جنوب افريقيا ، نظريا ، كضيوف على المنظمات الصهيونية المحلية ، وهي « حقيقة » حافظت بتهديب على ابتعاد معين عن نظام التفرقة العنصرية الذي يشجبه الجميع . ويبدو ان البلدين تخليا عن هذا الوهم الدقيق والمؤدب فيما عزا صلاتها سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .

من الناحية الاقتصادية نوعت اسرائيل وجنوب

[كذا] [بزيارة اسرائيل وهو ما يزال في منصبه «
(ب. ليتينوف ، استشهد به الدكتور جورج
طعمه ، ١٩٧٣ ، ص ٢٠ - ٢١) . هذا التغيير
الكامل والمغايب في مواقف الزعماء الجنوب
افريقيين لا يمكن ادراكه كذلك الا عن طريق فهم
الاصول التاريخية والبنية الراهنة للبلدين .

وهكذا ، لكي نجيب عن السؤال المتصل بأسس
العلاقة الخاصة بين اسرائيل وجنوب افريقيا ،
علينا ان نستقصي الوجوه التاريخية والبنوية
والايدولوجية في اطار الترابطات المباشرة وغير
المباشرة . والفرضية العامة لهذه الدراسة هي
ان طبيعة العلاقة بين البلدين هي نتيجة الاصول
والادوار والاختبارات المماثلة التي ادت الى بنى
اجتماعية معاصرة مماثلة والى علاقة مفيدة للبلدين
موضوعة في نطاق الامبريالية المعاصرة .

الخلفية التاريخية

ان اصول الدولتين متشابهة في التاريخ الامبريالي
البريطاني للقسم الاول من القرن العشرين . كانت
هذه هي فترة التوسع الامبريالي الاوروبي
والاستيطان الاستعماري . وكانت بريطانيا مهتمة
بنوع خاص في تأمين طريقي الوصول الرئيسيين الى
الاقطار الخاضعة لسلطانها الامبريالي في شبه
القارة الهندية والى الصين . غير ان سلامة هذين
الطريقين كانت مستحيلة دون السيطرة على
المنطقتين الاستراتيجيتين : رأس الرجاء الصالح
في جنوب افريقيا وقناة السويس والطرق الاخرى
في المشرق العربي . وحتى قبل افتتاح قناة
السويس كانت المصالح الاستراتيجية البريطانية
في المنطقة بالغة الاهمية . فكما لاحظ الحاكم السابق
لجنوب استراليا ، الكولونيل ج. فولر عام
١٨٥٣ : « لقد وضعت العناية الالهية سوريا
ومصر في عين الفجوة بين انكلترا واهم مناطق
تجارها الاستعمارية والاجنبية - الهند ، الصين ،
الارخبيل الهندي واستراليا ... وهي بحاجة ملحة
جدا لاتصر خطوط المواصلات واكثرها سلامة الى
الاقطار التي تملكها الان ... ان دولة اجنبية
معادية وقوية في اي منها ، لن تلبث ان تهدد
بالخطر التجارة والمواصلات البريطانية عن طريق
الآخري » (استشهد به جورج جيبور ، ١٩٧٠) .

كذلك في ١٨٥٣ كتب الكولونيل س. ه.

تعمدان التقليل من شأن علاقتهما ونطاقتهما
(النيويورك تايمز ، ٣٠ نيسان - ابريل ، ١٩٧١) .

وهكذا ، خلافا لجميع العلاقات بين اسرائيل
والدول الافريقية ، فان نمط وطبيعة العلاقات
بين اسرائيل وجنوب افريقيا يشران الى علاقة
« خاصة » بين البلدين . وهي مماثلة في الجوهر
للعلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة واسرائيل ،
علما بان هذه الاخيرة هي على نطاق اوسع بكثير .
وكما هي الحال مع الولايات المتحدة واسرائيل ،
فان صلات وثيقة حميمة تربط الشعب بالشعب ،
والمنظمة بالدولة ، والدولة بالدولة تقوم بسين
اسرائيل وجنوب افريقيا . ان العلاقة الخاصة بين
اسرائيل والولايات المتحدة مدممة دعما حسنا
بالوثائق وقد أكدها بصورة دراماتيكية أعظم جسر
جوي لنقل الاسلحة الحربية في تاريخ العالم ابان
حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وقد احييت العلاقة الخاصة
بين الولايات المتحدة واسرائيل بابحاث مستفيضة
وليس من الصعب شرح قواعدها . ولكن ما هي
قواعد العلاقة الخاصة بين اسرائيل وجنوب
افريقيا ؟

قد يكون من السهل نسبيا انجاز وضع ثائمة
بالروابط العديدة بين اسرائيل وجنوب افريقيا .
بيد ان تفصيل هذه العلاقات ببساطة دون محاولة
فهم أساسها لا يفي بالغرض . ولهذا الامر دلالة
خاصة اذ ان الحزب الوطني لجنوب افريقيا ،
وهو الحزب الحاكم منذ ١٩٤٨ ، والذي كان
زعماؤه رؤساء وزراء ذلك البلد ، له سجل
باللاسامية وبالمشاعر الموالية للنازية (ر. ستيفنز)
و. ا. هيل ، ١٩٦٩) . وكانت السياسات اللاسامية
الوقحة للحزب الوطني التي استمرت حتى عام
١٩٤٥ يقودها خصوصا الدكتور ه. ف. فرفورد
وزميله الحميم وسلفه الدكتور د. ف. مالان .
ومع هذا فقد كانت حكومة مالان الجنوب افريقية
هي التي منحت دولة اسرائيل الجديدة اعترافا
« شرميا »* (ر. ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٥٤) عام
١٩٤٨ وكانت زيارة مالان لاسرائيل في حزيران
(يونيو) ، ١٩٥٣ « المناسبة الوحيدة [اي
الاولى] التي قام فيها رئيس حكومة اوروبية

* كانت حكومة سمطس قبل ذلك قد اعترفت
بدولة اسرائيل الجديدة اعتراف الامر الواقع .

.. وكتب مسؤولون بريطانيون امثال اللورد شافنبري في ١٨٧٦ ، يضيفون التصديق على الحجة : « ستصير سوريا وفلسطين قبل مضي وقت طويل في غاية الاهمية .. فالبلد يريد الرأسمال والسكان . وبامكان اليهود ان يعطوه كلا الامرين . اوليس لانكلترا مصلحة خاصة في تشجيع هذه الاعادة الى الوضع السابق ؟ .. فان امبراطوريتها الممتدة من كندا في الغرب الى كالكوتا واستراليا في الشرق الجنوبي ستقطع الى نصفين .. عليها ان تحتفظ بسوريا لنفسها .. وان تعزز الصفة القومية لليهود وتساعدهم .. ليعودوا كثوة تخير الى بلدهم القديم ؟ .. غالى انكلترا اذا ، وبطبيعة الحال ، يعود دور تاييد استيطان اليهود في فلسطين » (استشهد به جورج جيور ، ص ٢٢) .

غير انه لم يبرز برنامج عملي لاستيطان فلسطين الا عند صعود الصهيونية ، وهي حركة سياسية بورجوازية ليهود اوربا . وكانت الصهيونية غارقة كلياً في الايديولوجيا الاستعمارية لذلك الزمن . وقد ضرب الفلاسفة والساسة اليهود الصهاينة على نفس الوتر . وكتب جوسس هيس ، احد اوائل المفكرين الصهيونيين ، يقول : « بعد انجاز العمل على قناة السويس ، فان مما لا ريب فيه ان مصالح التجارة العالمية ستتطلب تأسيس مستودعات ومستوطنات على طول الطريق الى الهند والصين ، مستوطنات من شأنها ان تحول الاحوال المهللة والفوضوية للبلدان الواقعة على طول هذه الطريق الى دول شرعية ومهذبة . ولا يمكن ان يحدث هذا الا تحت الحماية العسكرية للدول الاوروبية » . وقال هس مخاطباً اليهود : « ان دعوة عظيمة محفوظة لكم : ان تكونوا طريق مواصلات حية الى الشعوب البدائية لاسيا .. يجب ان تكونوا الواسطاء بين اوربا واسيا التصوى ، وتلتصوا الطرق المفضية الى الهند والصين - تلك المناطق التي لا يد من فتحهما للجنسية في النهاية » (م . هيس ، استشهد به س . هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢) .

وهيرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية التي كان هدفها استعمار فلسطين ، لاحظ كذلك ان مستعمرة يهودية « سيكون لها فائدة اخرى [للدول الاوروبية] في الزيادة الهائلة لتجارة صادراتها ؟

تشرشل ، وهو ضابط اركان الحملة البريطانية الى سوريا ضد محمد علي المصري يقول : « .. لا بد ان يكون جلياً لكل عقل انكليزي ، لاسباب واضحة ، انه اذ اريد دعم سيادة انكلترا على الشرق ، فيجب جعل سوريا ومصر تخضعان لها الى حد ما ، او لنفوذها .. وانه عندما لا تعود فلسطين تركية ، يجب اما ان تصير بريطانية او ان تؤلف جزءاً من دولة مستقلة جديدة .. تكون قادرة على تعزيز الهدف العظيم الذي ستوجد من اجله .. وهو خلق وائماء ودعم علاقات تجارية في الشرق » (ه . س . تشرشل ، استشهد به جيور ، ١٩٧٠ ، ص ٢٢ - ٢٣) .

كان الاستثمار الاستيطاني قد سبق ان برز كالية اوروبية لفتح البلدان الاغريقية والاسيوية للتسلل الاقتصادي والسياسي . وابتدأ الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا منذ عام ١٦٥٢ عندما اسست شركة الهند الشرقية الهولندية محطة بحرية في رأس الرجاء الصالح . وسرعان ما اتسمت هذه المحطة البحرية متحولة الى مستعمرة من المزارعين الذين اغتصبوا الاراضي الاهلية ودفعوا الى الورا او ابادوا افراد شعبي البوشمان والهوتنتوت الاهليين . ومع انحطاط هولندا وصعود بريطانيا ، احتلت انكلترا المنطقة في اوائل القرن التاسع عشر . واستمر التوسع الاستيطاني معظم القرن التاسع عشر الى ان عززت الحرب بين الانكليز والبوير السيطرة البريطانية عام ١٩١٠ . واثاء ذلك تم استثمار الافريقيين المحليين ، الذين يسمون الان البانتو ، واغتصاب اراضيهم .

وفي المشرق العربي برزت الدعوات الى الاستيطان الاوروبي في القرن التاسع عشر . فالدكتور طوماس كلارك كتب عام ١٨٦١ ملاحظاً : « اذا كانت انكلترا .. تمتد على تجارتها بوصفها حجر الزاوية لعظمتها ، واذا كان احد اقرب وافضل الطرق لتلك التجارة هو عبر محور القارات العظيمة الثالث ، واذا كان اليهود في الاساس شعباً .. تجارياً ، فاي شيء طبيعي اكثر من ان يصار الى زرعهم على طول الطريق الرئيسية العظيمة للتجارة القديمة » . (الدكتور كلارك ، استشهد به جورج جيور ، ص ٢٣) .

١٩١٧ ، الاول يسمى قانون الاتحاد لجنوب افريقيا والثاني اعلان بلفور ... فلسطين وجنوب افريقيا — بلدان يبعد احدهما عن الاخر مسافة نحو ٢٥٤٠٠٠ ميل لكن كلا منهما موضع اهتمام نفس السلطة ، وضحي بكل منهما باسم الشعوب الغربية والمصالح الامبريالية البريطانية وقد رتب تفاصيل التضحية نفس رجال الدولة ... في التحليل الاخر ربما كان يمكن تعقب قرار بريطانيا التضحية بحقوق الشعوب المحلية في جنوب افريقيا وفلسطين الى الاعتبارات الامبريالية . فالذي سيطر على تفكير الحكومة البريطانية عام ١٩٠٩ كان ان قناة السويس يمكن ان تغلق في وجه السفن البريطانية في زمن الحرب ، وفي تلك الحال سيتمعيد طريق رأس الرجاء الصالح اهميته التجارية والاستراتيجية السابقة ، وستكون جنوب افريقيا ودية شيئا ثمينا وحيويا . وفي اعقاب تفكك الامبراطورية العثمانية اعتبرت السيطرة البريطانية على فلسطين ، بمستوطنها الصهاينة ، افضل ضمانا على ان طريق السويس لن تحرم بريطانيا العظمى منها ابدا في الواقع ... وكان سمطس من المؤيدين الاشداء للسيطرة البريطانية والاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وكانت صداقته مع هاييم وايزمان ستكون اهم صداقة في حياته . وبالفعل كان بسبب سمطس بقدر ما كان بسبب اي شخص ان نظام الانتداب نفسه برز وليس امرا عديم الاهمية ان سمطس لعب دورا بارزا في تحويل ملكية كل فلسطين وجنوب افريقيا من شعب الى شعب بموجب ذلك النظام (ر . ستيفنز ، ١٩٧١) .

لم يكن سمطس وايزمان حليين سياسيين في اطار التوسع الامبريالي البريطاني فحسب ولكنهما صارا صديقين حميمين ايضا . فقد اصبح سمطس اول رئيس وزراء لاتحاد جنوب افريقيا في حين اصبح وايزمان اول رئيس دولة لاسرائيل . وثمة اسباب كثيرة للصداقة التي ربطت سمطس وايزمان ولتبنى سمطس للصهيونية . « ليس اقل هذه الاسباب اعتراف وايزمان الصريح بان الصهيونية مرتبطة ارتباطا طبيعيا وعضويا بالمصالح الامبريالية البريطانية » (ر . ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٣٦) . ويكتب مؤرخ اعلان بلفور ، لينارد شتاين : « لدى مرض الصهاينة تضيقهم على البريطانيين ، لن يقتربوا منهم كمتوسلين ، ولا حتى

فيما ان اليهود المهاجرين (هناك) سيكثرون لفترة طويلة مقبلة معتمدين على المنتجات الاوروبية ، فانهم بالضرورة سيستوردونها » * (استشهد به في س . هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢) .

وياختصار فان « الاستعمار اليهودي لفلسطين سيقتدم للامبراطوريات الاوروبية مخفرا امامها مخلصا لحراسة الطرق الى الشرق ... لكبت التومية العربية ... ويزود أوروبا بالمواد الخام والاسواق » (س . هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢) .

وبعدما تحول هرتزل من بلد اوروبي باتي للامبراطوريات الى بلد اخر طالبا المساعدة والدعم في محاولة استعمار فلسطين ، وقع اختياره اخرا على بريطانيا التي كانت اكثر استجابة . وفي البداية استجدى مساعدة واهتمام سيسيل رودس رئيس وزراء مستعمرة الكاب في العقد العاشر من القرن التاسع عشر والمفامر الافريقي الذي ساعد في استعمار بريطانيا لروديسيا وجنوب افريقيا . فرغض رودس . غير ان الامر ترك لخليفة هرتزل في قيادة الحركة الصهيونية العالمية ، هاييم وايزمان ، ليجد الالتزام الامبريالي البريطاني بالبرنامج الصهيوني ، الذي توسط له ودعمه بقوة الجنرال ج . س . سمطس ، عضو الحكومة الامبريالية البريطانية ورئيس وزراء جنوب افريقيا . ويلاحظ ر . ستيفنز : بين القرارات المختلفة للعالم الغربي التي اثرت في حيوات ومصير شعوب ما يسمى بالعالم الثالث ، ما من قرار كشف بمزيد من الوضوح عن عين جوهر الاستعراق الغربي * على تحويل دفع قوته الاساسية وجعلها شرعية تحت ستار القانون الدولي والاخلاقية ، اكثر من ترارين ثم التوصل اليهما في لندن عام ١٩٠٩ وعام

* جادل هرتزل بان الصهيونية ستساعد في حل بعض مشكلات الراسمال — اليد العاملة — لاوروبا : « لموازنة هذه الحالة ، تستطيع حركتي المساعدة على جبهتين : عن طريق تعريف البروليتاريا اليهودية الفاعلة ، وعن طريق استخدام الراسمال الدولي » (ث . هرتزل ، استشهد به س . هالبروك ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥) .

كمتوسلين لشيء يبدو انسجامه واضحا مع المصالح البريطانية . وكما كتب [اي وايزمان] لاسرائيل زانغويل في العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) ، ١٩١٤ ، فقد اعتقد انه من اليديهي ان انكلترا تحتاج الى فلسطين من اجل حماية طرق الوصول الى مصر ، وانه اذا ما فتحت فلسطين امام الاستيطان اليهودي فانه سيكون لانكلترا حاجز فعال ، وسيكون لنا نحن بلد « ل . شتاين ، ص ١٤ - ١٥ » .

احد الاسباب الاخرى التي جعلت الصهيونية تروق لسبسطس كان ايدولوجيا ، فهي تسوغ استعمارها ، جزئيا ، بنفس الطريقة التي تسوغ بها الاوروبيون توسعهم « التمديني » (انظر ح . وايزمان ، ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ، استشهد به ر . ستيفنز ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧) . وعلى الصعيد المحلي اعتبر سبسطس اليهود الجنوب افريقيين جزءا مهما من الوحدة البيضاء في الدفاع عن « المدنية » الجنوب افريقية ، اي البيضاء .

اسرائيل واfrica : تعاون وتناقض

ان احد اسباب رغبة جنوب افريقيا وخصوصا رغبة اسرائيل في التقليل من شأن علاقتهما ، كما لاحظ سالزبرغر ، كان مرتبطا بالحقائق الجديدة للقارة الافريقية . ففي اواخر الخمسينات ، ولدت عشرات من الدول الافريقية المستقلة الجديدة . كانت هذه الدول اهم العهد اللاحق للاستعمار البالغة الوعي والحساسية والريبة ازاء الدول الاوروبية وانظمة الاقلية البيضاء العنصرية . وكانت تنتقد وتعادي بنوع خاص نظام التفرقة العنصرية لجنوب افريقيا . والى ذلك ، كانت دول افريقية تنضم الى منظمة الامم المتحدة وترجع الميزان في الجمعية العامة لتلك المنظمة لمصلحة العالم الثالث ، وبخاصة الدول الامرو - اسيوية . ومنذ الصد الامرو - اسيوي لاسرائيل في مؤتمر بانديونغ عام ١٩٥٥ ، شنت اسرائيل جهدا سياسيا - دبلوماسيا عائد العزم لاثامة صلات متعددة الوجوه مع الدول الافريقية المستقلة حديثا . وفي فترة قصيرة صارت هذه الصلات متوترة بسبب رفض اسرائيل الاشتراك بصدق وخالص في نضال افريقيا السوداء ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا . وحاولت اسرائيل القيام بعملية توازن خطيرة موجهة نحو المحافظة على علاقتها الخاصة بجنوب افريقيا وعلاقات متعددة الوجوه مشفرة مع دول افريقيا السوداء . وتعذر الدفاع

كان الامر ذا الدلالة في نمو الصهيونية وتجاحها هو دور سبسطس في صياغة اعلان بلغور والدفاع عنه . ويقول ل . شتاين ان سبسطس « يجب ان يعتبر بين مهندسي الاعلان » (ل . شتاين ، ص ٤٨٢) . فقد كان عضو الحكومة الحربية التي اصدرت الاعلان الشهير . وقد لاحظ الجنرال سبسطس نفسه اسهامه المهم في صياغة اعلان بلغور بعدما ساعد في وضع قانون اتحاد جنوب افريقيا . بيد ان اهم اسهاماته في قضية الصهيونية كانت في ممارسة نفوذه في الدفاع الشديد عن فكرة وطن تومي ودولة يهوديين في فلسطين . ويصل ر . ستيفنز هذا النشاط السياسي والدبلوماسي في الخلفية والعلاوة غير الاعتيادية مع وايزمان من عام ١٩١٧ وحتى فترة مداوات الامم المتحدة ، وقرار تقسيم فلسطين ، وتأسيس دولة اسرائيل في ١٩٤٨ . ويبدو ان سبسطس ظل احد اشد انصار البرنامج الصهيوني طوال الفترة التي تخللت الحربين العالميتين عندما تمكنت المقاومة الشعبية العربية الفلسطينية من حمل الانتداب البريطاني على نقض وتعديل موقفتين للسياسات البريطانية المؤيدة للصهيونية (ر . ستيفنز ، ١٩٧٣) . وبناء على تعليمات سبسطس ، لعب الوفد الجنوب افريقي في الامم المتحدة دورا حاسبا في نجاح خطة

الاسرائيلية - الافريقية هو في اسوا الاحوال تحييد افريقيا عن النزاع العربي - الاسرائيلي ، وفي افضل الاحوال تأمين الدعم الافريقي للموقف الاسرائيلي (الايكونوميست ، ٢٧ آب - اغسطس ، ١٩٦٠) . والى ذلك فان **الحوالية الاسرائيلية** (The Israel Yearbook) (١٩٦٠/١٩٦٥ ، ص ٣٩) ، استشهدت بقول بن غوريون ان الان الوطني هو النقطة المركزية التي تركز حولها السياسة الخارجية الاسرائيلية . واحد وجوه هذه السياسة هو اقامة علاقات ودية مع جميع الدول وخصوصا في اسيا وافريقيا .

قدمت اسرائيل نفسها لافريقيا بوصفها بلدا صغيرا لا ينتمي الى الغرب الراسمالي ولا الى الشرق الشيوعي ، وبوصفها معتمدة على نفسها ، مما يجعلها نموذجا للطور والتقدم السريعين ، وكمثال على الديموقراطية والاشتراكية الحقيقية (ل. لوفر ، و أ. ريفكين ، ١٩٦١) . وكانت تعزز هذا الادعاء الايديولوجي حساسية البلدان الافريقية المستقلة حديثا ازاء مستعمراتيسا الاوروبين السابقين . وهكذا تحولت هذه البلدان بسهولة اكبر نحو اسرائيل من اجل الراسمال والطاقة البشرية الماهرة والمعونة الفنية . وفي بعض الحالات سهلت مركز اسرائيل الاتفاقيات التفضيلية والتجارية الثابتة والموروثة من العهد الاستعماري (اسعد عبد الرحمن ، ص ٣٥) . وكان هذا التطور من السرعة بحيث انه صار لاسرائيل ، بحلول ١٩٦٣ ، عدد من البعثات الدبلوماسية في افريقيا يفوق عدد البعثات الدبلوماسية لجميع البلدان الاخرى باستثناء بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

بين عام ١٩٦٠ واوائل السبعينات ، اقامت اسرائيل علاقات قوية وواسعة النطاق مع افريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . والجدولان الاحصائيان ١ و ٢ في اللحق ادناه يلخصان طبيعة هذه العلاقات ونطاقها . ولن ننظر هنا الا في الوجوه البارزة . فالعلاقات التجارية بين اسرائيل والقارة الافريقية ارتفعت من لا شيء تقريبا في اواخر الخمسينات الى ٧٢ مليون دولار في ١٩٧١ . وارتفعت الصادرات الاسرائيلية من ١٠٠٢٥ ملايين دولار في ١٩٦٠ الى ٤٧٠٢٥ مليون دولار في ١٩٧١ . الا ان الواردات الاسرائيلية من افريقيا لم ترتفع

عن هذا السبيل بصورة متزايدة لا سيما في اطار منظمة الوحدة الافريقية وبنوع خاص بعدما اتضحت سياسات اسرائيل المؤيدة للامبريالية والمناوئة للثورات . كانت هذه الوجوه بين العوامل الخلفية المسهمة في القطع الجماعي للصلات الرسمية بين الدول الافريقية واسرائيل وتعزيز الروابط الاسرائيلية - الجنوب افريقية ابان حرب أكتوبر ، ١٩٧٣ ، وبعدها . فلننظر في هذه التطورات بمزيد من التفصيل .

الامتداد الاسرائيلي في افريقيا : ان اسباب الجهد الاسرائيلي لاقامة علائق مع افريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، وهي الاسباب التي ظلها كل من المتعاطفين مع اسرائيل ونقادها ، تشتتل على اعتبارات دبلوماسية واستراتيجية واقتصادية . فعلاء المحللون يقولون ان اسرائيل حاولت ان تخرج من العزلة الاستراتيجية والتطويق اللذين فرضهما عليها العالم العربي المعادي ، وان تنمي اسواقا لسلعها وخدماتها بغية خفض او تحطيم المقاطعة الاقتصادية العربية ، وان تجند التأييد الدبلوماسي الافريقي ، وان تجمع الاصوات الى جانبها في الامم المتحدة المتغيرة بسرعة (انظر ل. لوفر ، ١٩٦٧ ، وعواطف عبد الرحمن ، ١٩٧٤) .

تددت مقررات مؤتمر باتدونغ باسرائيل واكدت حقوق الشعب الفلسطيني . فاثار ذلك القلق الاسرائيلي في حالة دولية متغيرة . واعتبر راسبو السياسة الاسرائيلية ان امن الدولة بات في خطر . وهنا يجب ان تكفي الاشارة الى تصريح غولدا مئير ، وزيرة الخارجية آنذاك ، في الكنيست لدى عودتها من رحلة الى افريقيا عام ١٩٥٨ : لا نستطيع ان نقصر صداقتنا على اوروپا وامريكا خصوصا وان ثلثي اعضاء الامم المتحدة هي بلدان نامية . ولذا من الطبيعي ان تسعى اسرائيل الى كسب تأييد بقية العالم ، ان هدف علاقتنا بالدول الجديدة هو تثبيت وتعزيز مركزنا في العالم الجديد (كتبت عن هذا التصريح **الجروساليم بومست** ، ١ نيسان - ابريل ، ١٩٥٨) . وكذلك الامر ، قال ديفيد بن غوريون عام ١٩٦٠ في خطاب بالكنيست ان الدول الافريقية ليست قوية ولكن اصواتها في المنظمات الدولية مساوية في قيمتها لاصوات الدول الكبيرة . وان هدف الصداقة

سوليل بونيه . انظر الجدول رقم ٣ من اجل التفاصيل . بيد ان احد الامثلة الشهيرة عن مثل هذه المشروعات المشتركة هو شركة سفن النجمة السوداء الغانية . فقد كسنت شركة سفن اسرائيل ، تسيم تملك ٤٠ ٪ من شركة النجمة السوداء ، والحكومة الغانية تملك ٦٠ ٪ . وكانت اسرائيل قدمت المعرفة الفنية ايضا . وكان هذا نمط نموذجي للطريقة التي صنعت بها اسرائيل ، التي يقل فيها الراسمال ، الكثير من الاستثمارات الافريقية المربحة وسيطرت عليها .

في ١٩٦٠ ، لم تكن اسرائيل قد وقعت غير اتفاقية معونة فنية واحدة في افريقيا ، ولكن العدد ، بحلول ١٩٧١ ، كان قد ارتفع الى ٢٤ (انظر الجدول رقم ٤) . بيد ان اهم ما في العلاقات مع الدول الافريقية هو ان برامج المعونة الفنية الاسرائيلية لافريقيا هي انواع ثلاثة : تدريب الافريقيين في اسرائيل ، خبراء اسرائيليون يعملون في افريقيا ، ومؤسسات تدريب فني في افريقيا . وبين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٩ تم تدريب ٦٢٧٢ افريقيا في اسرائيل . وكان هذا نحو نصف مجموع عدد الاشخاص الذين دربوا في اسرائيل خلال الفترة ذاتها . ويظهر الجدول رقم ٥ حقول التدريب المختلفة للافريقيين في اسرائيل لعام ١٩٦٩ . وتجب الملاحظة ان الحقل الذي يضم اكبر عدد من المتدربين كان قيادة الثغبات والتعاونيات . كذلك ارسلت اسرائيل ، بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٠ ، نحو ثلثي خبراء معونتها الفنية الاجنبية - ٢٤٨٣ من اصل ٣٩٤٨ - الى افريقيا . ويشير الجدول رقم ٦ الى ان الحقل الذي عمل فيه اكبر عدد من الخبراء الاسرائيليين كان منظمات الشبيبة يليه الزراعة . وكان هذا يعود جزئيا الى المؤسسات التعاونية والاستيطانية التي حاولت اسرائيل تصديرها بتشجيع ودعم غربيين . وكانت هذه مؤسسات شبه عسكرية تتبع نموذج الجاندانغ، كتائب الشبيبة ، والنحال ، منظمات الشبيبة العسكرية، لاسرائيل . وفي اسرائيل نفسها اوجدت مؤسسات عدة لتيسير مثل هذه المعونة . وبرز هذه المؤسسات واهمها المعهد الاثرو - اسيوي للدراسات العمالية والتعاون في تل ابيب . واخرا ، زودت اسرائيل الجيوش والحكومات الافريقية بخبراء ومستشارين عسكريين ، كما دربت الضباط

الا بصورة معتدلة في الفترة نفسها ، من ١٨ مليون دولار الى ٢٥٤٥ مليون دولار . ولا بد من الملاحظة ان جنوب افريقيا لها اكبر حصة من هذه التجارة : ٨٠٨٠٠٠٠٠ دولار من الواردات الاسرائيلية من افريقيا من اصل مجموع ٢٥٢١١٠٠٠ دولار ، او ٢٢٢ ٪ ، و ٩٣٩٨٠٠٠٠ دولار في الصادرات من مجموع ٤٧٤٢١٠٠٠ دولار الى افريقيا ، او ١٩٨ ٪ . وتنبغي الاشارة ايضا الى ان اتوى العلاقات التجارية بين اسرائيل وافريقيا مالت الى ان تكون مع دول جنوب الصحراء الكبرى الاوثق ارتباطا وتصالفا مع المصالح الرأسمالية الغربية : جنوب افريقيا ، ليبيريا ، اثيوبيا ، جمهورية افريقيا الوسطى ، كينيا واوغندا . هذه الارقسام التجارية لا تعكس الى حد كاف نطاق المصالح الاقتصادية الاسرائيلية في افريقيا . فمن الامور المهمة ايضا : نشاطات الشركات الصنامية والهندسية والاستثمارية الاسرائيلية التي يبلغ مجموع عقودها مئات الملايين من الدولارات . مثال ذلك ان سوليل بونيه ، شركة البناء شبه العامة ، كان لها في ١٩٧٠ عقود افريقية بقيمة ٤٤ مليون دولار . وغيريد ، شركة انهاء موارد المياه ، كان لها عقود بقيمة نحو ١٠٠ مليون دولار بحلول ١٩٧٠ وكانت تستخدم نحو ١٠ الاف افريقي في نيجيريا والنيجر وسيراليون وكينيا . وتشتمل الشركات الاخرى التي لها مصالح واستثمارات في افريقيا على مشروعات كيميائية ، وللانماء الزراعي ، وللتنظيم الصناعي وللانسبتوس - الاسمنت (المصادر هي نشرات الحكومة الاسرائيلية وغيرها من المعلومات المجموعة في مركز الابحاث الفلسطينية ، في بيروت ، لبنان) .

ربما كانت اكثر الجهود الاسرائيلية نجاحا هي الاشتراك في شركات ومشروعات افريقية - اسرائيلية مشتركة . فبالاضافة الى الارباح ، كانت هذه المشروعات تستخدم ٥٠٠ خبير اسرائيلي على متوسط سنوي . وبين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٣ كانت اسرائيل قد دخلت في شراكة مع ٤٢ شركة افريقية بقيمة ٢٠٠ مليون دولار . وبحلول ١٩٦٦ كانت اسرائيل قد صارت مشتركة في نحو ٢٠٠ شركة بقيمة ٥٠٠ مليون دولار (س . ديكالو ، استشهدت به عواطف عبد الرحمن ، ص ٧١) . وكانت اكثر هذه الشركات تعقيدا هي مشروعات

جميع أنحاء البلاد حيث احترقت عشرات القرى
احراقاً تاماً وقتل مئات ، وربما الوف « (استشهد
بها في (ساوث أفريقيا اند اسرائيل ، ١٩٧١ ،
ص ٢٧) .

لقد احتفظت اسرائيل في افريقيا بشبكة مهليات
مخابرات واسعة النطاق ، وانضج جهد اسرائيلي
معروف يتركز في أسبرا ، بارتريا . وتلاحظ جماعة
الابحاث الافريقية Africa Research Group
ان العمليات السرية الاسرائيلية « مرتبطة بعمليات
اكبر لوكالة الاستخبارات المركزية والمخابرات
الغربية « (David and Goliath, ARG)
Collaborate in Africa», 1969, p. 14).

وتلاحظ ايضا ان اسرائيل متورطة في « عالم
المؤامرات السري والمناورات السياسية الخفية »
(المصدر نفسه ، ص ١٤) .

خلال الستينات ، باغت اسرائيل اعتدة عسكرية،
وخصوصا رشيشات عوزي ، للكثير من البلدان
الافريقية ، وبنوع خاص البلدان الوثيقة الارتباط
بالمصالح الغربية . وتؤكد الاعتدة الاسرائيلية
والتدريب الاسرائيلي على قوات النخبة والقوات
الضاربة التي هي فعالة ضد الفدائيين
و« المتربين » ، اي القوى الثورية . وفي هذا
المجال كانت اسرائيل تطعب دورا مكملا للبرامج
المضادة للثورات الاوسع بكثير التي طورتها
الولايات المتحدة (انظر م. كلاير ، حرب
بلا نهائية ، ١٩٧١) . وكان هذا مقيدا بنوع
خاص في قارة حاولت فيها الولايات المتحدة
المحافظة على « بروفيل منخفض » . وكانت كل
من جنوب افريقيا والولايات المتحدة (فضلا عن
الدول الاوروبية الاستعمارية . سابقا الاخرى) لا
تقبل بجهود اسرائيل في افريقيا بحسب بل تدعمها
بنشاط أيضا . فقد اعتبرت ان مثل هذه الجهود
تسهم في الصراع ضد حركات التحرير الوطني
الافريقي والحركات الثورية (« الشيوعية
الاممية ») التي تهدد بالخطر مصالحها المنفصلة
والمتحدة لبعضها البعض (انظر س. سميت ،
١٩٧٤ و. ل. لوفر) .

داود وجليات يتعاونان في أفريقيا. هذا هو عنوان
مقالة تنقل على أفضل نحو جهود اسرائيل والولايات
المتحدة لمناهضة الثورات والشيوعية في افريقيا.
وتوجد جهود مماثلة بوسائل مختلفة بين الولايات

العسكريين ورجال الشرطة الافريقيين على ترابها
هي . وهذه هي الناحية التي نجد اكبر سمعية
في العثور على معلومات عنها . غير ان احد باحثي
الجيش الاميركي «مركز ابحاث الانظمة الاجتماعية» ،
المسمى اختصارا «كريس» ، وهو الدكتور سيلفربيرغ
كتب اطروحة لدرجة استاذ علوم في الجامعة
الامريكية بواشنطن ، العاصمة ، محلا «المساعدة
العسكرية وشبه العسكرية الاسرائيلية لافريقيا»
الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى : رائدة لسدور
العسكريين في الدول النامية » . وتشير المعلومات
التي يقدمها الى ان هذا الجهد شمل خمسة عشر
بلدا افريقيا . فقد اسست اسرائيل وادارت كليات
طيران وبحرية وشرطة في غانا ، وقد قدم الكثيرون
من الضباط الاسرائيليين في هيئات تدريس الكليات
العسكرية والبوليسية لاثيوبيا . ومنذ ١٩٦٦ ،
وحتى ١٩٧٢ ، كانت اسرائيل تتولى المسؤولية
الكاملة للتدريب العسكري في اوغندا . وتلقى
الرئيس الاوغندي عيدي امين والرئيس الزائيري
الجنرال مويوتو التدريب في اسرائيل . وفي ١٩٦٥
اعلنت وزارة دفاع سيراليون ان اسرائيل وافقت
على تقديم خبراء لتدريب جيشها (مواطن مبد
الرحمن ، ص ٧٧) .

والاجر الاكثر خطورة هو ان المستشارين
العسكريين الاسرائيليين كانوا ناشطين في تشاد
واثيوبيا في عمليات مقاومة الثوار ضد حركة
التحرير الوطني التشادية . (افريكاسيا ، ٢٠
تموز (يوليو) ١٩٧٠) وضد جبهة التحرير
الارتيرية في اثيوبيا . وكتبت الواشنطن ستار
الصادرة في العاصمة الامريكية في السادس عشر
من ايار ، ١٩٧١ : « جانب المعونة العسكرية
الامريكية ، يتلقى هيلاسيلاسي كذلك كميات كبيرة
من المعونة من الاسرائيليين . والاسرائيليون ،
رسميا ، لا يديرون الا شرطة المغاوير الارتيرية ،
وهي قوة متحركة ، لكن النفوذ الاسرائيلي ملموس
صعدا على طول سلسلة القيادة الاثيوبية . وفي
أعقاب موت الجنرال تيشومي ارغيتو في كمين في
تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ، وضع معظم
هذا الاقليم تحت القسطنون العربي ، ويقول
الدبلوماسيون ان المستشارين الاسرائيليين حثوا
الفرقة الثانية الاثيوبية على الفرار لوت ارغيتو
بسلسلة من الاجتياحات التي قام بها المشاة في

والى حد أقل البلدان الرأسمالية الأوروبية ، الكثير من النشاط الاسرائيلي : لقد ساعدت فرنسا مشاريع الشبيبة في ساحل العاج ، ويقال ان بريطانيا العظمى والمانيا الغربية قدمتا المعونة لمشاريع في اماكن اخرى من افريقيا . (ل . لوفر ، ص ٥٠) . « ان انجاز اسرائيل في كون اكثر من نصف جهدها ممولاً من مصادر غير اسرائيلية هو ، على الأرجح ، فريد في التاريخ المتشابك لعمليات المعونة الفنية اللاحقة للحرب » (ل . لوفر ، ص ٦٢) .

وفي حين ان الاموال لهذه البرامج لا تأتي جميعها مباشرة من مصادر قريبة ، فان بعضها مستمد من البلدان المضيفة الافريقية التي تلقت هي نفسها « معونة » غربية . وبرامج « المعونة » هذه هي التي كانت احدى الطرق الاكثر فعالية لخلق الاعتماد على البلد الواهب . يلاحظ ل . لوفر : « ان على الأرجح اكثر من مجرد صدفة ان اكبر الزيادات كانت في الصادرات الى تلك البلدان الافريقية (اثيوبيا ، غانا ، كينيا ، نيجيريا ، واوغندا على سبيل المثال) التي لها أيضا برنامج تعاون غني ناشط مع اسرائيل ، (ل . لوفر ص ٢١١) ، هناك الكثير من النصوص حول قضية المعونة الفنية والاعتماد والاستعمار الجديد ، (انظر على سبيل المثال A. G. Frank, 1971) . ان الحقل الاكثر اشارة للاهتمام بين حقول التعاون الاميركي - الاسرائيلي (والاوروبي - الاسرائيلي) المستخدم لاسلوب « القوة الثالثة » هو ذلك الذي يتناول تهريب زعماء ومنظمي النقابات الافريقية . فقد كان « المعهد الافرو - اسيوي للدراسات العمالية والتعاون » الاسرائيلي المؤسسة الرئيسية لتدريب الزعماء العماليين ، وقد دشّن هذا المعهد في اوائل الستينات بنحة تبلغ ٦٠ الف دولار من « الاتحاد الاميركي للعمال - مؤتمر المنظمات الصناعية » (AFL - C 10) . والى ذلك تلقى بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٦٢ اكثر من ٣٠٠ الف دولار في شكل منح مالية ودراسية من الاتحاد الاميركي الانف الذكر ومن زميله المتحالف معه « اتحاد العمال البريطاني » (BTU) . ومنذ ذلك الحين كشفت مصادر مختلفة عن أن برامج العمل الدولية للاتحاد الاميركي قد وحدتها وكالة الاستخبارات

المتحدة وجنوب افريقيا (رغم بعض النقد الاميركي الرسمي للفرقة العنصرية) في كل من جنوب افريقيا والدول السوداء المعتمدة عليها في الجزء الجنوبي من القارة (انظر هـ . س . روجرز ، ١٩٧٢) . هذان النموذجان المتوازيان للتعاون المرتبط بالولايات المتحدة هما في الواقع جزءان من مرحب ثلاثي يربط اسرائيل وجنوب افريقيا بصورة غير مباشرة . ويحتل هذان البلدان الاخيران مركزين مهمين ويلعبان دورين مهمين في اطار الرأسمالية الدولية ، ويتوزع خاص من الامبريالية الاميركية ، في افريقيا .

وكان كلاهما ناشطا في الحقل العسكري وحقل المخابرات ضد الثوريين الافريقيين في مناطقيهما الافريقية الخاصة . فقد تدخلت جنوب افريقيا بطرق متنوعة ، بما في ذلك الاعمال العسكرية قسي روديسيا . والى ذلك لعبت اسرائيل دورا بارزا في الجهود الايديولوجية والمتصلة بالتنظيم المضاد للثورات في افريقيا . وفي ١٩٥٩ كتب ارنولد ريفكين وهو كان أحد باحثي هيئة الخبراء الاميركيين ، وقبل موته ، رئيس « مشروع افريقيا » في معهد ماساشوسيتس التكنولوجي ، ان الشكل الاسرائيلي المعتدل للنمو الاشتراكي يمكن ان يكون بمثابة مثال مهم للامم المتحدة النامية الفائزة ضد الغرب : « قد يثبت النموذج الاسرائيلي انه « قوة ثالثة » اقتصادية من نوع ما - بديل يختلف عن النمط الغربي ، ولكنه يقينا اكثر انسجاما مع مصالح العالم الحر من أي نموذج شيوعي » (ورد ذكره في « داود وجليات » ، ص ٢) .

ويلاحظ الى ذلك : « ان دور اسرائيل كقوة ثالثة قد يعززه ايضا الاستخدام الواسع الخيال لاسلوب البلد الثالث . فان دولة من دول العالم الحر ترقب في توسيع تدفق مساعدتها لافريقيا قد تحول بعضها عن طريق اسرائيل نظرا لمؤهلات اسرائيل الخاصة ومقبوليتها بالنسبة لامم افريقية كثيرة » . (أ . ريفكين ، ١٩٦١ ، ص ٨٩ ، مذكور أيضا في ARG ص ٢) .

ولم تعكس مقترحات ريفكين السياسة النامية بحسب ولكنها شجعته أكثر . فقد كانت برامج العمل السري الاميركية تحول الاموال والمعرفة الفنية الى « القوى الثالثة » منذ اندلاع الحرب الباردة . وفي افريقيا ، مولت الولايات المتحدة

الائتلفة الافريقية الرجعية ، وبخاصة جنوب افريقيا ، بيد ان هذا التحالف لم يكن مفاجئا ولا ظلوا من الاضطراب في الماضي . وقد بذر تغلغل اسرائيل في افريقيا السوداء منذ الستينات بذور النزاع في علاقاتها مع جنوب افريقيا حتى عام ١٩٧٢ . كانت هذه هي اعوام النجاح الاسرائيلي في القارة السوداء . وكان الاسفين الذي وسع نجوة التناقضات بين الدول الافريقية واسرائيل وقرب اسرائيل من جنوب افريقيا هو الموقف الاسرائيلي من عدد من المسائل الافريقية . وكانت هذه المسائل هي القضايا الافريقية للتحريير الوطني ، ومناهضة حكم الاقلية البيضاء ، ومناهضة سياسة التفرقة العنصرية .

في نظر الافريقيين السود ، صار نهط الاعمال الاسرائيلية اوضح بصورة متزايدة واكد ارتباط اسرائيل بالقوى الامبريالية والرجعية المحلية . مثال ذلك ، ان اسرائيل صوتت ضد الاستقلال الجزائري في الامم المتحدة عام ١٩٥٦ ، وضد برنامج الامم المتحدة لاجراء انتخابات عامة في الكاميرون عام ١٩٥٩ . كذلك صوتت اسرائيل ضد شجب تفجير فرنسا لقبلة نووية في الصحراء الكبرى . وعام ١٩٦٠ امتنعت اسرائيل عن التصويت على استقلال تنغانيكا ، رواندا وبوروندي ، بعد سنة واحدة فقط من تصويتها ضد الاقتراح الليبري لمنح الحكم الذاتي للمستعمرات الافريقية .

كما ان تأييد اسرائيل للحركات الانفصالية في افريقيا اكسبها بعض العداوة . فقد دعمت اسرائيل بياغرا في نيجيريا (هـ . س . روجرز ، ص ٤٢) مما حدا بعدة صحف نيجيرية لدعوة الحكومة النيجيرية الى اعادة النظر في علاقاتها باسرائيل . وحول أزمة الكونغو ، وقتت اسرائيل موقفا غامضا . فقد علم الافريقيون بزيارة طوماس تشومبي ، شقيق موز تشومبي زعيم حركة كاتانغا ، الى اسرائيل التي قال خلالها انه بحث مع المسؤولين الاسرائيليين الاعتراف بكاتانغا مستقلة (ميدل ايست ريكورد ، ١٩٦٦ ، ص ٣٦ - ٣٧ ، جيء على ذكرها في عواطف عبد الرحمن) . كذلك امتنعت اسرائيل عن التصويت لقبول الوغد الكونغولي في الامم المتحدة . ودعمت اسرائيل بنشاط متوردي الانيانيا الانفصاليين في جنوب

المركية وتسلمت اليها . فان هدف البرامج الدولية للاتحاد الامركي هو مواز لاستراتيجية العمل الدولية لوكلالة الاستخبارات المركزية وموحد معها (انظر فيليب آجي ، ١٩٧٥ ، من اجل بحث مغفل لاستراتيجية عمل وكالة الاستخبارات المركزية في امريكا اللاتينية ، وخصوصا المحقق رقم ١ من اجل ثوائف تضم منظمات العمل الدولية المنتسبة الى وكالة الاستخبارات المركزية ، ج . موريس ، ١٩٦٨ ، د . داود ، ١٩٧٤) . وبالفعل ، ساعد الاتحاد الامركي في تنظيم اتحاد دولي للعمال (الاتحاد الدولي للنقابات الحرة) هو على وجه التحديد مناهض للشيوعية وناشط في مقاومة نقابات واتحادات موازية اوحى بها الشيوعيون وتقوم بنشاط سياسي (ف . آجي ، د . داود) . ويلاحظ ذلك وهو مسؤول في الاتحاد الدولي للنقابات الحرة : « التوكيد هو على التعاون مع اقسام اخرى من المجتمع ، ويكرس وقت قليل نسبيا لمهارات بناء النقابات العمالية كقوة فعالة في البلاد » (ا . زاك ، ١٩٦٧) .

وباختصار ، فان المعهد الاسرائيلي لتدريب الزعماء النقابيين يدرّب على وجه التخصص قيادة لا سياسية ومناهضة للشيوعية لنقابات العمال الافريقية . وتكتب جماعة الابحاث الافريقية : « ان نقابات العمال الافريقية هي أدوات سياسية للغاية والتدريب الذي يحصل في اسرائيل يسمى الى نزوع السياسة منها عن طريق اعتماد توجيهه « تعاوني » اكثر منه توجيه طبقة عاملة ثورية » (داود وجليات ... ص ٦) .

ومن جهة ، كسبت الاعمال الاسرائيلية ووظيفة اسرائيل الامبريالية في افريقيا تأييد جنوب افريقيا والغرب الراسمالي . ومن جهة اخرى ، فيما اميط اللثام اكثر فأكثر عن هذه الاعمال وهذا الدور ، فقد كسبت عداة افريقيا السوداء التي صارت بصورة متزايدة مناهضة للامبريالية (خصوصا في الاجتماعات والمنتديات العالية) ومعادية للتفرقة العنصرية في جنوب افريقيا وحكم الاقلية البيضاء في روديسيا .

اسرائيل ، والتفرقة العنصرية و افريقيا .

انهارت لعبة التوازن الاسرائيلية في ١٩٧٢ وحولت نفسها منذ ذلك الحين الى تحالف مكشوف مع

(نوفمبر) من ذلك العام الى جانب مقترحات خاصة لفرض عقوبات اقتصادية على نظام الفترة العنصرية في جنوب افريقيا . وربما كان هذا تصويتا لم يكن بوسع اسرائيل تجاهله نظرا لرغبتها في اقامة علاقات مع الدول الإفريقية السوداء . وصدرت عن حكومة جنوب افريقيا ردة فعل غاضبة ، وأعلن فيرنورت انه اذا كانت اسرائيل ترى عيبا في سياسات جنوب افريقيا فان استمرار اسرائيل في العالم العربي هو أيضا خطأ (استشهد به في . س . منصور ، ١٩٦٦ ، وذكر في عواطف عبيد الرحمن) . ولكن رغم هذا ، ورغم قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الآنف الذكر والداعي الدول الاعضاء الى قطع العلاقات مع جنوب افريقيا ، ومقاطعة سلمها ، والإمتناع عن تصدير السلع اليها ، فان العلاقات التجارية والاقتصادية بين اسرائيل وجنوب افريقيا نمت بسرعة (انظر الجدول رقم ٧) وصارت تشكل اكبر حصة من التجارة الاسرائيلية - الإفريقية . وكذلك ، على الرغم من خطاب اسرائيلي في تشرين الثاني ١٩٦٧ في الامم المتحدة هاجم الفترة العنصرية بجنوب افريقيا علنا ، فان المنظمات في كل من البلدين ضغطت من اجل توثيق العلاقات وتحسينها بينهما . وقد لاحظت افتتاحية لصحيفة دي فانولاند حول زيارة بن غوريون الى جنوب افريقيا لجمع الأموال في ١٩٦٩ ان « بناء اسرائيل في الشرق الاوسط هو جزء جوهري من امننا » (استشهد بها جورج ظميه ، ١٩٧٢) .

ابان حرب يونيو ، ١٩٦٧ وفي اعقابها جمع « نداء الطوارئ الاسرائيلي » في جنوب افريقيا في غضون اسابيع ٢٨ مليون دولار في شكل تبرعات . وتخلت حكومة جنوب افريقيا عن القيود العائدية التي تفرضها على العملة . وفي اب (أغسطس) من ذلك العام قال وزير النقل الجنوب افريقي ان تصريح الحكومة السابق عن الحياد « لا يعني اثنا لم نعطف على اسرائيل . فبعد كل شيء ، هناك أوجه شبه بين جنوب افريقيا واسرائيل . فكلانسا دولتان تواجه بلدانا معادية في القارة الإفريقية ولدينا حق في الاستقلال والبقاء . ونظرا لذلك العطف ، انتقنا على ان الاموال من جنوب افريقيا يجب ان ترسل للمساعدة في تخفيف الضيق في اسرائيل » American Jewish Yearbook, 1968, p. 325.

السودان (الصندي تايمز ، استشهد بها روجرز ، ص ٤٢) . وهذا التورط الاخير الذي اشتمل على تدريب متهمدي الانيانيا وامدادهم بالاسلحة كان مرتبطا ارتباطا مباشرا باهتمامات اسرائيل الاستراتيجية - العسكرية في العالم العربي .

كان احد اهم وجوه الاعمال الاسرائيلية في افريقيا هو التعاون مع اليهود البرتغالية الرامية الى المحافظة على حكمها الاستعماري في غينيا - بيساو والموزمبيق وانغولا . وقد أشار الزعيم الثوري الغيني الراحل العظيم أميلكار كابرال على وجه التخصيص الى تدريب اسرائيل للقوات البرتغالية التي تشن حربا استعمارية ضد الشعوب الإفريقية وتزويدها بالعتدة . كذلك لاحظ التدريب الاسرائيلي للعناصر الغينية المناوئة للثورة على التسلسل الى الصفوف الثورية . وتدّد تحالف البرتغال واسرائيل والولايات المتحدة (الديلي مستاندارد الصادر في تنزانيا ، ٧ اكتوبر ، ١٩٧٢ ، استشهدت بها عواطف عبد الرحمن ، ص ١٠٢) .

وفي تصريح ادلى به لويس كابرال ، شقيق أميلكار من المكتب السياسي للحزب الإفريقي من أجل استقلال غينيا والرأس الأخضر ، قال : « فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه الامبرياليون الامريكويون والصهيونيون وناتو دعما للبرتغال ، احب أن اذكركم ... بأن معظم اسلحة البرتغاليين هي اسرائيلية » (ذكرها روجرز ، ١٩٧٢ ، ص ٤١) .

مثل هذا النشاط الاسرائيلي في افريقيا لم يكن مجهولا لدى حكومة جنوب افريقيا التي تدعّم جميع الجهود المضادة للتحرير والمناوئة للشورات في افريقيا . وبالفعل ففي تموز (يوليو) ، ١٩٦٧ ، اثر حزب حيزران (يونيو) من تلك السنة ، صرح وزير العمل الجنوب افريقي بان اخفاق العرب في هزم اسرائيل يعزز مركز جنوب افريقيا اذ انه سيجعل الزعماء الإفريقيين المتطرفين يعيدون النظر في تهديداتهم لحكومة جنوب افريقيا (ذكر ذلك في مواظف عبد الرحمن ، ص ١٠١) .

بيد أن الانسجام الاسرائيلي - الجنوب افريقي تمزق منذ عام ١٩٦١ ، عندما اقدمت اسرائيل ، بعد امتناعها عن التصويت في الامم المتحدة السنة السابقة ، على التصويت في تشرين الثاني

الاسرائيلية والجنوب افريقية ومحاضرة الجنرالات الاسرائيليين في جنوب افريقيا ، في دراسة A R G (جنوب افريقيا واسرائيل ، انظر ايضاً تريكونتيننتال بوليتين ، حزيران - يونيو ، ١٩٦٨) . كما ان تقرير الوكالة الجغرافية اليهودية ، في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ، ١٩٧٠ ، يلاحظ : « لقد ابتدأت الحكومة الجنوب افريقية تنظيم تصدير الدبابات الى اسرائيل مشيرة الى « مرحلة جديدة لتعاونها » . والدبابات الجنوب افريقية ماردة تزن خمسة وستين طناً «مجهزة بمدفع ثقيل ومصممة وفقاً لطراز الدبابات الجديدة البريطانية » (استشهد بها في جنوب افريقيا واسرائيل ، ص ١١ - ١٢) . وكما يستنتج سالزبرغر : « تبقى الحقيقة الاساسية وهي ان هذا البلد ، جنوب افريقيا ، الذي ليس له اصدقاء كثيرون في الخارج ، يعتبر اسرائيل واحداً منه . ولبعض الوقت كانت سياسة اسرائيل الرامية الى كسب ود الاسم الافريقيّة السوداء موضع استياء جنوب افريقيا . وقد نسيت هذه السياسة الان اعتقاداً منها بان وقوف اسرائيل ضد روسيا ومن ينوب عن روسيا فسي الطرف القوي من هذه القارة يساعد في التحضير للوقوف موثقاً مماثلاً ، اذا دعت الحاجة ، عندما يأتي اليوم لمثل هذا الموقف في أقصى الجنوب » (نيويورك تايمز ، ٣٠ نيسان - ابريل ١٩٧١) . يعني موقف مماثل ضد اي نضال للتحريرو الوطني المناوئ للامبريالية .

في ١٩٦٩ ، لا بد ان تكون اسرائيل شعمرت بالاطمئنان الكافي في افريقيا للامتناع عن التصويت في الامم المتحدة حول مقررات تونج ، وتفرض عقوبات اقتصادية وعسكرية ضد ، نظام الاقلية البيضاء في روديسيا ، حليفة جنوب افريقيا . واثار هذا من جديد التساؤلات بين الدول الافريقية السوداء . ومن هذا فان اخر شائبة اعترت الاتفاق الجنوب افريقي - الاسرائيلي قبل ١٩٧٣ كانت تتعلق بدعوة يوثانت عام ١٩٧١ ، البلدان التي تقاوم الاستعمار والعنصرية الى تقديم تبرعات للجنة التحرير الافريقية بواسطة منظمة الوحدة الافريقية . وتعمدت اسرائيل بدفع مبلغ ١٠ الاف ليرة اسرائيلية . ومع ان لجنة التحرير رفضت هذا التعمد - على اساس ان اسرائيل نفسها هي بلد عنصري واستعماري هدفه زيادة تسلله في افريقيا

نمت العلاقات الاقتصادية بين جنوب افريقيا واسرائيل في حقول اخرى غير التجارة . مثال ذلك تجارة الماس الخام البالغة الاهمية بالنسبة الى اسرائيل . فمناجم جنوب افريقيا تنتج نحو ٨٠٪ من انتاج الماس العالمي في حين تحتل اسرائيل المرتبة الثانية بعد بلجيكا في تصدير الماس المصقول على نطاق العالم . في حين يأتي الماس الخام الذي يتقاعه اسرائيل من مصادر مختلفة ، فانسه يشتري بصورة رئيسية من منظمة البيع المركزية التي تسيطر عليها جنوب افريقيا . وقالت رانسد دييلي ميل في الثالث من شباط (فبراير) ، ١٩٧٢ ان « واردات الماس المشتري من جنوب افريقيا الى اسرائيل فاقت قيمتها ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٧١ ومطلت نحو نصف امداد اسرائيل ... كانت العلاقات مع جنوب افريقيا ودية جداً وكان السيد شنيترز ، رئيس بورصة الماس الاسرائيلية ، وافتا من انه سيحافظ على الامدادات لاحتياجات الصناعة النامية » (ورد في جورج طعمه ، ص ١٦) .

والاماس المصقول هو اكبر صادرات اسرائيل ، ووفقاً للاحصاءات الاسرائيلية يمثل ٤١٫٨٪ من مجمل الصادرات غير الزراعية للبلاد و ٣٥٪ من صادراتها الاجمالية عام ١٩٦٩ . وبالإضافة الى ذلك كان تصدير الراسمال الخاص من جنوب افريقيا الى اسرائيل وبالعكس آخذاً في النمو (انظر ساوث افريكان فايفاننشال غازيت ، اعداد ١٩٧١ وفايفاننشال ميل الصادرة في جوهانزبرغ ، ٤ ايلول - سبتمبر ، ١٩٧٠) .

حافظ على العلاقات السياسية - العسكرية بين اسرائيل وجنوب افريقيا وعززت خصوصاً بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . وأشار س.ل. سالزبرغر من النيويورك تايمز (٣٠ نيسان - ابريل ، ١٩٧١) ، الى هذه الشراكة الوثيقة (ولكن المخفية) : فجنوب افريقيا تصنع الرشيش الاسرائيلي عوزي بموجب رخصة منوحة عن طريق بلجيكا . وكتب عن تقارير غير رسمية مفادها ان النسخ الترقساء لطائرة ميراج الثالثة التي حصلت اسرائيل عليها ، وضعت في متناول جنوب افريقيا وان العسكريين الجنوب افريقيين كانوا يذهبون الى اسرائيل لطقي دروس خاصة في التكتيكات الاسرائيلية . واشهر الى تعاون اخر فيما يتعلق بصناعات الطائرات

الاستيطاني . وعلى الأقل ، فإن البنى الاجتماعية المتماثلة تميل إلى توليد إيديولوجيات وآراء عالمية متشابهة ، مما يفضي إلى تعاطف وتفاهم متبادلين . وتسهل الأوضاع الداخلية والخارجية أوجه الشبه البنيوية هذه ، فتولد ضغوطا إيديولوجية وعملية من أجل التحالف النشط .

لم يدرس الاستعمار الاستيطاني والدول التي شيدها المستعمرون دراسة كافية ولم يحللا تحليليا نظريا (تشتمل المحاولات الأخيرة المقسمة بنفاد البصيرة على ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧ ، أو إيمانويل ، ١٩٧٢ ، جورج جوبور ، ١٩٧٠ ، إبراهيم أبو لغد و بهاء أبو لين ، ١٩٧٤) . وفي هذا القسم سنحلل المعالم البارزة للبنى الاجتماعية المتماثلة في إسرائيل وجنوب إفريقيا .

لقد درست طبيعة الاستعمار الاستيطاني لجنوب إفريقيا من الناحيتين التاريخية والمعاصرة دراسة وأغنية من منظورات مختلفة . ودرست إسرائيل إلى درجة أقل ، ربما بسبب التمييز الغربي التقليدي . ولكن منذ يونيو ، ١٩٦٧ ، وبروز « اليسار الجديد » على الصعيد الدولي ، جرى تطييل إسرائيل مباشرة من هذه الناحية . وفضل مثال هو كتاب المؤرخ والعالم الاجتماعي الفرنسي تاكلتيسم رودنسون المتعنون إسرائيل : دولة استعمار استيطاني ؟ (انظر أيضا أ. لويل ، ١٩٧٠) .

المستعمرون الاستيطانيون ؛ كما يجادل إيمانويل ، هم عامل مستقل مهم في فهم الظاهرة الاستعمارية . فالمستعمرون انفسهم « يتدخلون بين الرأسمالية الإمبريالية وشعوب البلدان المستغلة » وهم في الأساس معادون للآثنين (إيمانويل ، ص ٣٦) .

وتتناقض مصالح المستعمرين الاستيطانيين مع كل من مصالح سكان البلاد المحليين ومالية رأسماليين « البلد الأم » . وعندما يبدأ تفاهم بين الدولة المستعمرة والسكان الوطنيين في البروز (مؤدية عادة إلى استقلال سياسي للسكان الوطنيين) ، يشعر المستعمرون بالخطر ويقاومون بعنف . « هذا العنصر التقهطري والرجعي تباد الصراع [تاريخيا] على جبهتين - بعناد وحماسة ضد السكان الوطنيين ... ونسبيا ومن حين لآخر ،

السوداء لمصلحة الإمبريالية - فقد فضبت جنوب أفريقيا وردت بتقييد التحويلات المالية إلى إسرائيل . وسارعت إسرائيل إلى التفسير قائله ان مثل هذه الاموال ليست لحركات التحرير بل للجنة الأمم المتحدة من أجل صندوق تعليم اللاجئين .

بالإضافة إلى العوامل الأتفة الذكر التي اماطت اللثام عن موقف إسرائيل حول قضايا الوحدة الإفريقية المتنوعة ، فإن انتقاد دور إسرائيل الموالي للإمبريالية (فكرة حسان طروادة الإمبريالية) في أفريقيا من قبل المصادر السوفياتية والمسؤولين على الأضدة الشعبية والرسمية وغير الرسمية اسهم في بلورة نظرة جديدة إلى إسرائيل في البلدان الإفريقية . كذلك فإن الانتقادات القوية التي وجهها الزعماء الصينيون اسهمت في توضيح تلك النظرة . وادت الصلات الوثيقة بصورة متزايدة التي تربط بعض الدول الإفريقية مثل الكونغو - برازافيل وإلى حد أقل تانزانيا بالبلدان الاشتراكية إلى إعادة تقييم . وتطعت الكونغو علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل حتى قبل حرب ١٩٧٣ .

والى ذلك فإن التيسير السابق للملازمات الإسرائيلية بإفريقيا الناطقة بالفرنسية بسبب العداء الفرنسي للمغرب اخذ يتغير جذريا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . وفرنسا نفسها اتخذت موقفا أكثر انصافا وان لم يكن أكثر موالاة للمغرب . وقد يكون هذا اثر على بعض البلدان الإفريقية المرتبطة بفرنسا . وأخيرا ، وليس الأقل أهمية ، هو الجهد الناشط الذي بذلته الدول العربية على الصعيدين الإفريقي والدولي للنضال ضد إسرائيل وفضح طبيعتها . ولذا يجب ان يكون واضحا الآن كيف صار متعذرا الدفاع عن مركز إسرائيل في أفريقيا ، الأمر الذي أدى إلى قطع العلاقات مع الدول السوداء وتعزيز العلاقات الخاصة مع الأنظمة الرجعية ، وبخاصة جنوب أفريقيا .

الاستعمار الاستيطاني : أوجه شبه بنيوية

بالإضافة إلى العامل التاريخي ، وعامل الأدوار والصلات الدولية ، فإن العامل الثالث المسهم في العلاقة الخاصة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا هو بناهما الاجتماعية المتشابهة . وينبثق هذا التوازي من طبيعتهما كدولتين من دول الاستعمار

ومن الناحية السياسية ، يؤسس المستعمرون الأوروبيون ما يسميه فان دن برغ « ديموقراطية هيرنفولك » ، ثانية سياسية مع ديموقراطية برلمانية للمستعمرين المستوطنين ونظام استعماري للسكان الوطنيين (انظر ب.ل. فان دن برغ ، ١٩٦٥ ، أيضا ب.ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧) . وهذا « نظام برلماني تقصر فيه ممارسة السلطة وحق الاقتراع ، في الواقع ، وحيانا كثيرة بموجب القوانين ، على الجماعة المسيطرة » (فان دن برغ ، ١٩٦٧ ، ص ٢٩) . وباختصار ، فان المستعمرين يحكمون انفسهم حكما ديموقراطيسا ويفرضون استبدادهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي على السكان الوطنيين .

اكتساب الاراضي ، الاستيطان الاستعماري
يحتاج الى الاراضي . وهكذا ينفجر عداء غوري مع السكان الوطنيين عندما يأخذ المستعمرون الارض (ينتزعونها او حتى يشترونها) . ولضمان الحصول على المستعمرة ، يقتضي الامر المزيد من المهاجرين ، وهكذا يزداد ضغط السكان والارض على السكان الوطنيين . وتتبع ذلك مقاومة السكان الوطنيين . ولكن يتم اطلاق عملية ديناميكية : تسمية استعمارية ، هجرة ، وطرد او اخضاع وفصل عنصري للسكان الوطنيين . وتعتبر هذه العملية الديناميكية عن نفسها في سلسلة من المعارك والحروب التي تبلغ اوجها في السيطرة على الارض ، وطرد السكان الوطنيين واخضاعهم . وحيانا تصير نزاعات كهذه ابادة جماعية للشعب . فسي امريكا الشمالية تسمى هذه الحروب الحروب الهندية ، وفي جنوب افريقيا « حروب الكفري » « Kaffir Wars » وفي الشرق الاوسط النزاع العربي - الاسرائيلي (ولا ننكر هنا ان عوامل اخرى دخلت الصورة هنا) .

تفاصيل هذه العملية الديناميكية تخلف في حالات الاستعمار الاستيطاني المختلفة ، لكن الجوهر والنتاج لا يتغيران . ففي جنوب افريقيا تم اكتساب الاراضي بقوة تدعمها الدولة الامبريالية (وحيانا تتجاهلها) . وبالفعل ، بدءا من القرن التاسع عشر ، ادى النزاع بين المصالح الامبريالية البريطانية وجالية المستوطنين الافريكانيين الى المزيد من التوسعية الواسعة النطاق (انظر روايات عن هذا النزاع في ل. ماركاند ، ١٩٦٦ ، و. فانتشر

ولكن احيانا كثيرة بعنف بالغ ، ضد الرأسماليين الكبار « في الوطن الام » (ايمانويل ، ص ٢٩) .

يحاول المستعمرون الانفصال عن الوطن الام واتامة نظامهم التفوقي الخاص الذي تكون سمته المميزة الاضطهاد الشديد للسكان الوطنيين . وروديسيا هي اخر مثل على هذه الظاهرة . وقد أعلن الجنرال الفرنسي سالان ، الذي قاد انصار « جزائر فرنسية » ، من فرنسيين جزائريين يسمون Pieds Noirs ، ومنظمة الجيش الفرنسي السري ، « خلال مقابلة في راديو لوكسمبورغ ان نوع الوجود الفرنسي في الجزائر الذي كان في ذهنه في ذلك الحين كان (مثل روديسيا ، ولكن دون تفرقة عنصرية) » (ايمانويل ص ٤٨) . وفي حين ان الصراع العنيف بين المستوطنين الجنوب افريقيين وبريطانيا كان اقتصاديا في الجوهر ، فقد كانت له صلة ايضا بالسياسة البريطانية المتعلقة بالسكان الوطنيين . وعندما غاز البيض المحليون اخيرا بالاستقلال والسيطرة على الدولة ، فرضوا احدى البنى الاكثر جورا واستبدادا في التاريخ : التفرقة العنصرية : « في ما يتعلق باسرائيل ، كثيرا ما ينسى الناس انه اذا كان هذا البلد يمثل رأس حربة للامبريالية في السياق الدولي الراهن المعين من العداة بين الكتلتين الكبريين ، فليس هذا الا نتيجة ظروف خاصة . فطبيعته الحقيقية هي ان يكون كتلة من المستوطنين « البيض » الصغار تنتشر اكثر فاكثر لتستعمر منطقة متخلفة . وهذا هو الذي يجعل نزاعهم مع شعوب المنطقة تاسيا الى هذا الحد ، حتى حيث تعيش تلك الشعوب في ظل انظمة جوارية للغرب هي نفسها تابعة للامبريالية ... ورغم تحالف اسرائيل مع الامبريالية الامريكية ... فهي دولة استعمارية انفصالية . وقد كان اساسها موضع صراع طويل ودهوي مع انكلترا التي لعبت دور البلد الام الامبريالي » (ايمانويل ، ص ٤٧) ، هذا هو الصراع الذي شجسح الصهاينة على وصف اسرائيل بانها مناهضة للامبريالية ، والصهيونية بانها حركة تحرير يهودية) .

لدى انفصال المستعمرين ، او استقلالهم ، تكون الصفة المميزة المحورية لانظمة الاستعمار الاستيطاني هي علاقتها بالسكان الوطنيين والارض .

بأكملها (انظر تحليلا دقيقا « لديناميكيات تحويل ملكية الاراضي » لـ ج. رودى ، ١٩٧١) . ولكن في ١٩٤٨ كان عدد السكان المستوطنين في فلسطين يدنو من ٧٠٠ الف نسمة ، نحو ثلث مجموع سكان البلاد (انظر ج ، ابو لغد ، ١٩٧١) . ولم يتم الامتلاك الصهيوني للاراضي بالجملة في فلسطين الا بعد الحرب الفلسطينية ١٩٤٧ - ١٩٤٨ . وهنا ايضا تم امتلاك الاراضي بالقوة . لا بد من الاشارة الى ان الامم المتحدة التي كان الغرب يسيطر عليها آنذاك وفرت الاساس الرسمي لدولة الاستيطان الصهيوني ، دون الرجوع الى رغبات السكان المحليين ، في قرار لتقسيم فلسطين اتخذ في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٤٧ . وفي ما عدا جنوب افريقيا ، لم تصوت لخطة التقسيم غير امة افريقية واحدة وامة اسبوية واحدة . وقد اقر القرار بفضل تصويت بلسدان اوروبا ونصف الكرة الارضية الغربي ، ووسعت دولة الاستيطان الجديدة الصهيونية اراضيها في فلسطين من الـ ٦٥٪ التي خصصتها لها الامم المتحدة الى ٧٧٪ في ١٩٤٨ . واستمر التوسع الاسرائيلي في ١٩٦٧ في اعقاب حرب يونيو . فقد استولت اسرائيل على اراضي بقية فلسطين واراضي دولتين مجاورتين ، وضمت اسرائيل اليها ، من جانب واحد ، القدس العربية والمناطق الحيطية بها . واسس الاسرائيليون اكثر من ديزتسي مستوطنات جماعية وشبه عسكرية ، لا في بقية فلسطين (الضفة الغربية) فحسب بل ايضا في الاراضي السورية والمصرية . وبالفعل ، فان الاموال التي جمعت في جنوب افريقيا ساعدت الجهد الاستعماري الاسرائيلي : « لقد انجز الصندوق في جنوب افريقيا مشروعا في منطقة باتياس في هضبة الجولان ، وبمناسبة الذكرى السبعين ، شرع في مشروعات عدة ، منها ابناء نؤوت هاكيكار » (تقرير بعنوان « سبعون سنة من الصندوق الوطني اليهودي » جيء على ذكره في جورج طعمه ، ص ٤٧) .

لطالما ادعت الايديولوجيا الصهيونية حتى الاستيطان في ما تسميه ارض اسرائيل ، التي تشتمل على فلسطين التاريخية واراضي عربية من لبنان وسوريا والاردن .

وما ان تقام دولة مستوطنين على ارض وطنية

١٩٦٥ ، ب. ل. فان دن برغ ، ١٩٦٧) . ولا حاجة الى القول ان هذه التوسعية كانت على حساب السكان الوطنيين ، اولا البوشمسان والهوئتوت ، وغيا بعدد البانتو . وقد دفع الافريكانيون ، الجنوب افريقيين السود الى اراض معينة « حفظت » لهم . وقد خصص « ثاسون اراضي السكان الوطنيين » لعام ١٩١٣ للسكان السود ٧٪ من الاراضي (زيدت فيما بعد الى ١٣٪ عام ١٩٣٦) التابعة لجنوب افريقيا ، علما بان الافريقيين كانوا يفوقون الافريكانيين البيض عددا باربعة اضعاف . وتكرر هذا النموذج في روديسيا باستثناء انه تم في فترة اقصر من الوقت ، بدءا من عام ١٨٩٠ وكانت نسبة الافريقيين الى البيض اقرب الى ٢٠ الى ١ .

في العالم العربي ، كانت التفاصيل مختلفة بعض الشيء . فالمستعمرة الصهيونية الاولى في فلسطين ، رغم دعم بريطانيا الامبريالية لها ، لم تنجز بالفزو اذ انها كانت ستولد حربا مع امبراطورية قديمة العهد وقوة اقليمية ، هي الامبراطورية العثمانية . فقد تم اكتساب الصهاينة الباكر للارض عن طريق عملية شراء مولها الصهاينة الاوروبيون والمتعاطفون معهم . ولكن كل هذه النشاطات لم تكن ذات بال قبل ان يفرض الانتداب البريطاني على فلسطين في اعقاب الحرب العالمية الاولى . « بحلول ١٩٠٠ كان نحو ٥٠ الف يهودي يسكن فلسطين ، جميعهم تقريبا مركززون كاتليات في مناطق مدينتي القدس ويانا حيث لم يكونوا يزرعون الارض ولا يطالبون بملكيتها (ج . ابو لغد ، ١٩٧١ ، ص ١٤٠) .

وقد سهل الانتداب البريطاني على المستوطنين امر اكتساب الاراضي ، وكان بذلك يتصرف بانتسجام مع قصد اعلان بلغور اقامة « وطن قومي » للصهاينة . واطلق هذا نمط تدوم المهاجرين الاستيطانيين وتجريد الفلاحين الفلسطينيين من اراضيهم . وشعر السكان العرب بخطر هذه العملية وتاقوموها بطرق عدة ، بما في ذلك شن ثورة شاملة ضد البريطانيين والصهاينة بين عام ١٩٣٦ و١٩٣٩ . ومع هذا ، بحلول ١٩٤٧ ، عندما احال البريطانيون المسألة الفلسطينية على الامم المتحدة ، لم يكن امتلاك الصهاينة واليهود للاراضي في فلسطين يزيد على ٧٪ من المساحة

صاغ احد اوائل الفلاسفة الصهيونيين ، وهو اسرائيل زانغويل ، الشعار القائل ان فلسطين هي ارض بلا شعب تعطى الى شعب بلا ارض (اي اليهود الاوروبيين) . وفي ١٩٢٨ كتب ت. ر. غايوبيل : « ان تاريخ السياسة الصهيونية نحو العرب هو تاريخ هذا الوهم ، ولكنه وهم مؤيد بتعصب ، ان عرب فلسطين لا وجود لهم ، على الاقل كامة منفصلة لها اهدانها للبقاء الوطني الذي لا بد من اخذه في الاعتبار ... » (استشهد به في تشيلدرز ، ص ١٧٧) .

وبالفعل ، فحتى عام ١٩٦٩ تالت فولدا مثير ، رئيسة وزراء اسرائيل آنذاك ، في احدى المقابلات : « لم يكن الامر وكأنه كان هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعتبر نفسه شعبا فلسطينيا فجئنا نحن وطردهنا واخذنا بلده منه . لم يكن له وجود » (الصنداى تايمز ، لندن ، ١٥ يونيو ، ١٩٦٩) .

كان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، مدفوعا بايديولوجيا دينية - تاريخية ومقرونا بالرغبة في ان تكون له امة حديثة يوجد فيها يهود من جميع الطبقات ، معنا على نحو خاص بالرغبة في بلد خلو من الوطنيين ، اي خلو من العرب . ويحلل تشيلدرز في مقالته التاريخ والخلط والحروب (العسكرية والاقتصادية والتنسية) التي جعلت من الممكن وجود فلسطين ، على حد تعبير بن غوريون ، « مفرقة تقريبا من اصحابها السابقين » . (الحوالية الاسرائيلية ، ١٩٥٢ ، ص ٢٨ ، انظر التفاصيل في الكولونيل لورثس ، المؤرخ العسكري الاسرائيلي ، « حد السيف » ، ص ٨٧ ، م. بيغن ، « الثورة : قصة الايرغون » ، ١٩٥١ ، ص ١٦٢ - ١٦٥ ، ا. كويستلر ، « الوعد والتحقيق » ، ١٩٤٩ ص ٨٩ ، ١٦٠ ، ٢١٥ ، ا. او بالانس ، « الحرب العربية - الاسرائيلية ، ١٩٤٨ » ، ص ٥٢ ، ٦٣ ، ول . هايمان ، مارين كوريس غازيت ، يونيو ، ١٩٦٤ ، ك. بيلبي ، ١٩٥٠ ، ص ٤٣) . وفي ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، صرح موشيه دايان ، وزير دفاع اسرائيل آنذاك ، علنا وفي مناسبات عدة على التلفزيون الاميركي ان اسرائيل يجب ان تكون يهودية مثلها هي بريطانيا البريطانية وفرنسا فرنسية . وبكلام اخر ، يجب ان تكون خلوا من الوطنيين . وقد رفضت اسرائيل ان

حتى يبدأ تنفيذ عملية اكتساب الاراضي من طريق قوانين دولة المستوطنين . وهناك قوانين من شأنها تحويل ملكية الاراضي الوطنية وتنظيم اكتساب الاراضي . كما انها تجعل مثل هذا النمط « شرعيا » ، مثال ذلك « قانون ملكية الغائبين » لعام ١٩٥٠ في اسرائيل ، فهذا القانون وتشريعات اخرى مثل المادة ٢٥ من « تنظيمات الطوارئ » ، التي تجيز للحكومة العسكرية ان تطرد القرويين وتغلق مناطقهم ، اسهمت في نقل الاملاك العربية الى ايدي المستوطنين الاسرائيليين (انظر رواية هذه العملية في « العرب في اسرائيل » ، ١٩٦٩ لصيري جريس ، المحامي الفلسطيني) . وكان هذا النمط من اقتصاب الاراضي والتشريعات القانونية التمييزية المتعلقة بالاراضي ، من الواضح بحيث دفعت اساتذة الجامعات الاسرائيلية الى الاحتجاج والى انتقاد هذه القوانين (جاكوب لاندو « العرب في اسرائيل » ، ١٩٦٨ ، ص ١١٧) . ولم ينته هذا النمط بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . فمئذ ذلك الحين صادرت الحكومة الاسرائيلية المنازل العربية داخل مدينة القدس القديمة ، اولا في كانون الثاني (يناير) ثم في نيسان (ابريل) ، ١٩٦٨ . وخسر ٣٠٠ و ٥٠٠ فلسطيني اراضيهم ونقلوا فيما بعد الى الضفة الشرقية للاردن . ولم تكن هذه العمليات « القانونية » لاستيلاء المستوطنين على الاراضي تختلف في الجوهر او النتيجة من قوانين اراضي الوطنيين في جنوب افريقيا وروديسيا .

الهجرة : فضلا عن اكتساب الاراضي ، فان الاستعمار الاستيطاني معني بهجرة مستوطنين جدد للمساعدة في ضمان وتقوية مجتمع المستوطنين . وهذا جهد يناقض السكان الوطنيين مناقضة مباشرة . ولذا فان وجود الوطنيين هو مشكلة . وكما يقول باتريك كيتلي من الروديسيين البيض : « لا يسع المرء الا الشعور ... ان الروديسيين البيض يحملون في اعماق قلوبهم امنية صامتا وهي ان يحتن الاثريقيون » (استشهد به في ا. ب. تشيلدرز ، ١٩٧١) .

« الامنية الصامتا » في جنوب افريقيا تتخذ شكل فصل جغرافي واجتماعي عنصري قمري للسود . وكذلك فان الصهاينة في خطبهم وسياستهم يظهرون هذه « الامنية الصامتا » نفسها . لقد

استعادة ما هو لهم تورانيا وتحقيق النبوة النوراتية . وتستمر تصاريح زعمائهم في التكلم عن أرض اسرائيل التي تشتمل على الكثير من الاراضي الحالية التي احتلت منذ حرب ١٩٦٧ .

النظام الاستعماري للسكان الوطنيين . كما يشير فان دن برغ ، يقيم المستعمرون المستوطنون «ديموقراطية هرنفولك» ويفرضون فيها على السكان الوطنيين - الذين يبقون منهم تحت سيطرتهم - نظاما استعماريًا يتميز بثلاث صفات رئيسية :
(أ) حرمان الحقوق السياسية والسيطرة السياسية (ب) الفصل الاجتماعي ، (ج) الاستقلال الاقتصادي . ووسائل تحقيق السيطرة السياسية على السكان الوطنيين وحرمانهم حقوقهم السياسية هي مباشرة وغير مباشرة مما . يفضل الادعاء المتناقض بالديموقراطية البرلمانية ، تلجأ أنظمة المستوطنين ، أكثر الاحيان ، الى وسائل دقيقة وغير مباشرة لكبح الحريات السياسية للسكان الوطنيين . وفي جنوب افريقيا وروديسيا حيث السكان السود الوطنيين يشكلون الاكثرية العددية ، يحرم الوطنيون صراحة حق التصويت . وفي اسرائيل ضمن حدود ١٩٤٨ حيث يشكل ما تبقى من السكان الوطنيين اقلية (نحو ١٢٪) ، فانهم لم يحرموا الحقوق السياسية ولكنها قيدت الى حد كبير .

لقد قيدت حرية التعبير والاجتماع تقييدا شديدا عن طريق قانون المنشورات والتصلية لعام ١٩٦٣ وقانون قمع الشيوعية لعام ١٩٥٠ في جنوب افريقيا . وتحدد « الشيوعية » بانها اي مبدأ « يهدف الى احداث اي تغيير سياسي ، صناعي ، اجتماعي او اقتصادي ضمن الاتحاد عن طريق تشجيع الاضطراب او اختلال النظام ، وعن طريق اعمال او افعال غير قانونيين او من طريق التهديد يمثل هذه الاعمال او هذا الاهمال » (انظر جورج جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٦٧) . وقد عني مثل هذا التحديد الواسع للقانون قمع اي نشاط للسكان الوطنيين . ففي سنة ١٩٦٣ وحدها ، حظرت ٧٥٠٠ منشورة . اما القوانين الاسرائيلية التي تكبح حرية التعبير عند السكان الوطنيين فهي اكثر حذرا وتفظفا ولكنها لا تقل من قوانين جنوب افريقيا فعالية . فالمنشورات الفلسطينية المستقلة في اسرائيل اما لا يسمح باصدارها او تقيد ويسيطر

تعيد مئات الالوف من اللاجئين العرب الفلسطينيين بعد حرب ١٩٤٨ ومرة ثانية بعد حرب ١٩٦٧ . وبعد هذه الحرب الاخيرة ، سمح لقسم رمزي من اللاجئين بالعودة الى بيوتهم على الضفة الغربية . وكان اللاجئين غير المهادين هم السذين صدرت اهلاكهم بموجب قانون ملكية الغائبين .

وتسهل دول المستوطنين مجيء مهاجرين مؤهلين : اوروبيين بيض لجنوب افريقيا ويهود لاسرائيل . ويعطي قانون العودة الاسرائيلي الحق لاي اسرائيلي (محدد شرعيا وفقا للقوانين الدينية) في الاستقرار في اسرائيل واكتساب المواطنة . وكما هي الحال في جنوب افريقيا ، فالهاجرون يحصلون على مساعدة اجتماعية واقتصادية في الاسكان . وفي الوقت ذاته تميز قوانين المواطنة ضد السكان الوطنيين (انظر جورج جبور ، ص ٦٤) . وباختصار فان حركات الاستعمار الاستيطاني تغتصب الارض الوطنية ، وتطرد او تحصر السكان الوطنيين وتشجع مجيء مهاجرين مستوطنين مؤهلين . وهم يسوغون هذا في اطار ايدولوجيا تشتمل على افكار تقول انهم يمدنون السكان الوطنيين ، ولكن كثيرا ما يكون هذا التسويغ تورانيا . ويبرز هذا بنوع خاص في جنوب افريقيا واسرائيل .

كانت الكنيسة المصلحة الهولندية ، كنيسة المستوطنين الافريكانيين ، اعتادا على بعض عبارات العهد القديم ، تعتقد ان عدم المساواة بين الاجناس هو امر مقدر من الله . اما السود ، الذين تعتبرهم الكنيسة من سلالة حام ، فيقدر لهم ان يخدموا البيض . وفكر البوير في الفاء الاستعباد بوصفه مناقضا لمفاهيم الكتاب المقدس (انظر جورج جبور ، ١٩٧٠ ، ص ٥٨) . ونظر الافريكانيون الى السود على انهم ادنى مرتبة منهم ومنحطين وغير متمدنين . . ورسالة البيض هي تديينهم .

والصهاينة ، ايضا ، يعتمدون على مقاطع من التوراة لتسويغ ادعائهم واستعمار فلسطين . فبالاضافة الى وظيفة الصهاينة لحمل المدنية الى منطقة اسيوية مختلفة (كما كتب هرتزل في مذكراته) فقد اعتبروا فلسطين ارض الموعد ، المعطاة لهم من الله . وليس استعمارهم البلاد اكثر من مجرد

« النشاطات التخريبية » . ورفضت السلطات الاسرائيلية تسجيل قوائم انتخابية عربية مستقلة . ورتع اعضاء احدى هذه القوائم امرهم السى الغضاء لكن المحكمة الاسرائيلية ايدت القرار على اساس ان « الجماعة عرضة لتخريب الدولة بمحاولتها استغلال اي منفذ في القانون لتحقيق اهدافها السياسية » (استشهد به لاندو ، ص ١٠٠) .

وتخضع الاندية والجمعيات الرياضية والثقافية والترفيهية العربية لرقابة دقيقة ويتعرض زعمائها للمضايقة والاعتقال والتحقيق الخ . وبالفعل ، يبدو وكان السياسة الاسرائيلية ترمي الى منسح واحباط اي نمو للحركات السياسية العربية المستقلة ، مهما كانت غير خطيرة . ففي ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ، على سبيل المثال ، تأسست لجنة طلبة عرب في الجامعة العبرية بالقدس ولكن الجامعة واتحاد الطلبة الاسرائيليين رفضا الاعتراف بها . وحكم على امين عام اللجنة بالسجن بتهم القيام « بنشاطات تخريبية » . وكانت السلطات دائما تحبط تشكيل احزاب سياسية عربية مستقلة . وكما لاحظ امون لين ، رئيس دائرة الشؤون العربية في ائتلاف حزبي سياسي اسرائيلي يدعى الرصف Alignment : « ثمة خطر عظيم في عين وجود حزب عربي غير متحد مع اي حزب يهودي » (لاندو ، ص ٧٢) . وكلمة « متحد » يجب ان تعتبر تعبيرا ملطفا لعبارة « خاضع لسيطرة » . ذلك ان « السلطات الاسرائيلية ، كالسلطات الجنوب الافريقية ، كانت جميعا تؤيد جمع المتعاونين معها وانصارها من السكان الوطنيين ، واعطاءهم الدعم الكامل . وبهذه الطريقة حاولت ان تصور السكان الوطنيين كمشاركين في العملية الديمقراطية » (جورج جبور ، ص ٧٣) .

ربما كانت احدى الاليات الاكثر فعالية للسيطرة السياسية والاجتماعية على السكان الوطنيين في جميع دول الاستعمار الاستيطاني بما فيها جنوب افريقيا واسرائيل هي تقييد وتنظيم حرية تحركهم . ويسوغ مثل هذا التقييد بحجج مختلفة ، بما فيها الامن . فالفترة العنصرية الجنوب افريقية تحصر السكان الوطنيين في مناطق معينة عن طريق قوانين عدة ، مثل « قانون مناطق الجماعات » ، و « قانون

عليها . وفضل مثل موضح لهذا النمط هو حال منشورة الارض (انظر ج . لاندو ، ص ٩٦ ، وصبري جريس ، ١٩٦٩) .

ويقلص المستعمرون كذلك حرية التجمع والتنظيم السياسي للسكان الوطنيين . ففي جنوب افريقيا نجد ان « قانون التنظيم غير الشرعي » لعام ١٩٦٠ (وهو مماثل لقانون اخر في روديسيا) و « قانون حظر التدخل غير اللائق » لعام ١٩٦٦ ، لا يخولان السلطة اعلان منظمات افريقية وطنية مثل « مؤتمر عموم افريقيا » و « المؤتمر الوطني الافريقي » غير شرعية محسب ، ولكنها ايضا منعا للجماعات العنصرية المختلفة من المشاركة في نشاطات سياسية مشتركة . والى ذلك يفرض « قانون المحافظة على النظام » قيودا على حرية الاجتماع . فما من افريقي يستطيع عقد اجتماع او الخطابة فيه او ترأسه دون اذن كتابي من مندوب الحكومة الابيض في المنطقة . وفي حين ان هذه هي قوانين معلنة للسيطرة السياسية على السكان الوطنيين في جنوب افريقيا ، فان اسرائيل تستخدم اجراءات غير رسمية ولكن تمكن ملاحظتها لتقييد وتقليص النشاط السياسي الفلسطيني المستقل . وقد احبطت الحكومة الاسرائيلية جميع المحاولات لتأسيس احزاب عربية مستقلة (انظر ج . لاندو ، ص ٥٤ ، صبري جريس ، ١٩٦٨) . وتشتمل الاساليب الاسرائيلية ضد النشاط السياسي للسكان الوطنيين على اعتقال الزعماء وسجنهم ، مضايقة القائمين بنشاط سياسي مضايقة قانونية ومن انواع اخرى ، الامتناع عن تسجيل الجمعيات الخ . . . احد الامثلة على ذلك هو « الجبهة العربية » ، المؤسسة عام ١٩٥٨ ، وقد سميت في ما بعد الجبهة الشعبية : « اتخذت السلطات الاسرائيلية بدورها خطوات لتثبيط النشاطات السياسية للجبهة التي اعتبرت انها ممكن ان تكون تخريبية . ورفضت الادارة العسكرية ان تمنح بعض اعضاء الجبهة النشيطين تصاريح سفر . . . حتى ان بعضهم احتجز للتحقيق » (لاندو ، ص ٩٤) .

اشتمل الرفض الاسرائيلي تسجيل الجماعات الوطنية النشيطة سياسيا على جماعة الارض الوطنية عام ١٩٦٠ ، وقد اعتقل زعماء الارض وضويقتوا وابعدوا عن البلاد بتهم مختلفة تشمل

في ١٩٤٨ أرغم العرب الذين ظلوا في مناطق المدن على الانتقال إلى مناطق معينة مخصصة لهم، مع التخلي على ممتلكاتهم . هذا الوضع الشبيه بالغيثو القصري أدى إلى عزل عرقي للاقلية العربية المخلوطة حديثا . وبرزت هذه العملية إلى جانب نظام الحكم العسكري كأساس للعزل العرقي الاجتماعي للعرب .

وكما هي الحال في جنوب إفريقيا هناك ، بالطبع ، عدد رمزي من السكان الوطنيين في وظائف رسمية وتأسيسية معينة ، ولكن هؤلاء وطنيون «مأمونون» و «مخلصون» . ويلاحظ لاندو ، وهو استاذ جامعي اسرائيلي يكتب عن العرب في اسرائيل بصورة مؤاتية : « كان معظم المرشحين (العرب الذين يزكيهم حزب الماباي) . . . من الطبقات العليا للاميان المحليين والمتعاونين بصورة وثيقة مع الحكومة الاسرائيلية والماباي » (لاندو ، ص ١١٣) . كما ان الاعضاء العرب في البرلمان الاسرائيلي « في حالات كثيرة . . . يتوقعون على الأرجح موافقة الماباي مقدما على الاسس العامة لخطبهم على الاقل » (لاندو ، ص ١٩٥ - ١٩٦) . وتذهر أحد هؤلاء المتعاونين « من ان المتحالفين العرب في ائتلاف الرصف لا يستشارون أبدا ، مع انهم يؤمرون حول كيفية التصويت » (استشهد به لاندو ، ص ١٧٩) .

هذا النهج لتشجيع ودعم القيادة الوطنية المحافظة والمتعاونة لا يختلف عن النهج الجنوب افريقي لدعم الزعماء القبليين الافريقيين السود .

واخيرا فان السيطرة السياسية والاجتماعية على السكان الوطنيين هي ضرورة للاستغلال الاقتصادي لهؤلاء القوم . فالسكان الوطنيون في كل من جنوب افريقيا واسرائيل متركون في مثلات العمل الدنيا : الاعمال الحقة ، وغير الماهرة ، وشبه الماهرة . وهذه القيود هي اما موضع ممارسة او احيانا يوفرها القانون . وبالفعل ، لا يدفع للسكان الوطنيين في اسرائيل غير جزء مما يكسبه المستوطنون لنفس العمل (صبري جريس ، استنادا الى مناقشات برلمانية ، انظر ايضا ب. بوراث ، ١٩ ، و ١٠ ، كوهن ، ١٩٦٤) . ويمارس هنا ايضا النهج المعتاد لكون العربي آخر من يستخدم وأول من يصرف من عمله .

مناطق المدن الموحدة للبانو » ، و « قانون تعديل تشريعات البانتو » . وتسيطر السلطات سيطرة شديدة على مفادرة المناطق الإفريقية ، المردة للسود ، ودخولها . ولا يستطيع الإفريقيون السفر او الإقامة في المناطق البيضاء (اكثر من ثلاثة ارباع البلاد) الا اذا استطاعوا ان يثبتوا سببا رسميا لذلك . ويجب ان يتم هذا بواسطة وثائق سفر رسمية .

وفي اسرائيل تفرض مثل هذه القيود على العرب الفلسطينيين . منذ خلق دولة اسرائيل في ١٩٤٨ ، عاش اكثر من ٨٠٪ من عرب فلسطين ، لفترة من الوقت على الاقل ، تحت الحكم العسكري . والقوانين التي تحكم هذه « المناطق العسكرية » هي قوانين حالة الطوارئ التي اصدرها الانتداب البريطاني في فلسطين عام ١٩٤٥ . وسنت اسرائيل في ١٩٤٩ قوانين اضافية : «قوانين مناطق الامن» . وتعطي مواد هذا القانون الحاكم العسكري حقوقا شبه دكتاتورية لا في تقييد حرية الحركة فحسب بل في تقييد جميع الحريات المدنية . وليس ثمة ملاذ للسكان الوطنيين غير السلطات العسكرية - الادارية العليا . وقد طبقت هذه القوانين وهذا الحكم العسكري في المناطق التي فيها اعظم كثافة سكانية للعرب : الجليل ، النقب ، و « منطقة المثلث » في المنطقة الوسطى من البلاد . ودام هذا الحكم العسكري من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٦ ، عندما اعيد الى سيطرة الشرطة . وخلال حرب ١٩٦٧ ومنذ ذلك الحين اعيد فرض الحكم العسكري في هذه المناطق ، كما في منطقة الضفة الغربية . ولم يكن هذا الحكم مطبقا قرب الحدود الاسرائيلية فحسب ، بل ايضا في المناطق البعيدة عن الحدود . وكان الخروج من هذه « المناطق المغلقة » والدخول اليها يتم بواسطة جوازات مرور عسكرية بالنسبة الى السكان الوطنيين . ويتوسع صبري جريس في شرح نظام السيطرة هذا الذي تمارسه السلطات الاسرائيلية ضد السكان الوطنيين . ويتبني تجديد هذه الجوازات دوريا في اجراء متعب ، مستهلك للوقت ، واذا حرم العربي هذا الجواز لا يمكنه الرجوع الى احد . وكثيرا ما كانت تمنع اذونات السفر بغية منع العرب من التنافس مع الاسرائيليين على العمل ، خصوصا في المدن (د. بيرتس ، ١٩٥٠) .

كما ان مؤسسات ومنشآت التربية الخاصة بالوطنيين هي بشكل واضح احط مستوى وتشكو حرمانا في الثقافة الوطنية . ويقول جريس ان التلاميذ الوطنيين الذين درسوا في مدارس ابتدائية لا يكادون يعرفون قراءة وكتابة لغتهم الوطنية . ويجري تعليم التاريخ الوطني بطريقة مشوهة في حين يصور تاريخ المستوطنين على نحو مجيد (صبري جريس ، ص ١٤٦ - ١٥٥) .

وفي الختام نقول ان «ديموقراطية الهير نفولك» التي اقامها المستوطنون المستعمرون في كل من جنوب افريقيا واسرائيل متماثلة تماما في هدفها وصفاتها العامة ، وان لم يكن في جميع التفاصيل . وتبيل البنى الاجتماعية المتشابهة ، والمعضلات في معاملة السكان الوطنيين ، والتسويات لامتيطاتهم والتواريخ اللاحقة الى ايجاد ايدولوجيات ماثلة ، وازاء عالمية ماثلة ، وتعاطف متبادل . واحد الامثلة الجيدة على ذلك هو الفترة التالية في بوسنيكتيف (اب - اغسطس ١٩٦٧) ، مجلة « مؤسسة جنوب افريقيا » : « اثار الحرب الاخيرة في الشرق الاوسط اهتماما محبوما وقلقا شديدا في اجزاء كثيرة من العالم ، ولكنها لم تثر الا في قلة من الاماكن مثل الشعور العميق بالتورط الشخصي الذي اثارته في جنوب افريقيا . غير ان العطف على اسرائيل لم يكن محصورا في الجالية اليهودية . فالجنوب افريقيون البيض بوجه عام اعتبروا انفسهم معنيين شخصيا بمحنة الاسرائيليين ... وكانوا جميعا يعنون التشابه بين حالة اسرائيل ، التي يحيط بها جيران معادون ، وحالة جنوب افريقيا ... وفي هذه الظروف ، بدا من الطبيعي تماما ان ينظر الجنوب افريقيون البيض بوجه عام الى الاسرائيليين بوصفهم رفاق الخطر ، وان يسعوا الى اسعافهم ومساعدتهم تبعا لذلك » (استشهد به في A R G ، ١٩٧١ ، ص ٩ - ١٠) .

قبل ذلك ، في اعقاب التصويت الاسرائيلي ضد سياسة التفرة العنصرية في الامم المتحدة السذي اغضب الجنوب افريقيين ، تساءلت صحيفة دي ترانسفالر : « وهل هناك اي فرق حقيقي بين الطريقة التي يحاول بها شعب اسرائيل ان يحفظ نفسه وسط شعوب غير يهودية والطريقة التي يحاول بها الافريكاني البقاء هو نفسه ؟ ان شعب

ونموذجيا ، نان العمال العرب اما يحرمون حسق تنظيم انفسهم او ان هذا الحق يقيد تقييدا شديدا . وفي جنوب افريقيا ، يحدد « قانون التوفيق الصناعي » لعام ١٩٥٦ العمال الافريقيين بطريقة تحرمهم حق التنظيم النقابي . وفي اسرائيل كان لمنظمة المستوطنين النقابية القوية ، الهستدروت ، تاريخ عدااء طويل للعمال العرب . ففي ايام الانتداب ، كان شعار الهستدروت ينادي بالعمل لليهود فقط ، وبعد خلق دولة اسرائيل ، صار الشعار الجديد ينادي باستخدام « العمال المنظمين » . وبما ان العمال العرب لم يكونوا منظمين في نقابات وغير مسموح لهم بالانتماء الى الهستدروت ، فقد عنى هذا الشعار الاخر رفض توظيف العرب وفي ١٩٦٠ سمح للعرب اخيرا بدخول الهستدروت ، ومع هذا فان قوة كسبهم المادي ما تزال جزءا ضئيلا من قوة كسب العمال الاسرائيليين المساوين لهم . « كان العامل العربي ... محصورا في الاعمال الكريهة التي لا يقبل بها العمال اليهود ، كالعامل في البواليع او البناء . ولم تكن الاجور التي تدفع للعمال العرب مساوية ابدا للاجور التي تدفع لليهود ، حتى وان كان العرب يقومون بالعمل نفسه . وعمليا ، كان الكثير من الاعمال مغلقة في وجه العمال والموظفين العرب ... وكان العمال العرب مجبرين على اخذ اقسى الاعمال واكثرها تحقيرا » (١ . كوهين ، استشهد به في صبري جريس ، ١٩٦٨) .

ومعظم العمال العرب في اسرائيل هم من النوع « المتنقل من مكان الى مكان » ويقطع احيانا مسافات طويلة ليصل الى عمله ولا يعود الى منزله الا دوريا . ومنذ ١٩٦٧ صار نحو ٧٠ الف عربي من الاراضي المحتلة يسافرون كذلك يوميا من وإلى اسرائيل للعمل . وقد استخدم هؤلاء العمال العرب كأيد عاملة رخيصة جدا في اسرائيل (انظر س . ريان ، ١٩٧٤) .

ويظهر بوضوح تمييز ماثل في الحقل التربوي . ففي جنوب افريقيا ، رغم بعض التقدم ، نجد ان ٦٠٪ من السكان الوطنيين الذين هم في سن المدرسة الابتدائية خارج المدرسة ، في حين ان المعدل في اسرائيل هو نحو ٣٠٪ (جورج جيبور ، ص ٨٣ ، صبري جريس ، ص ١٤٦ F F) .

كبير في تطوير الصلات الاقتصادية والتنظيمية والبشرية والثقافية المتبادلة . وهذا الوجه ايضا يعزز اساس العلاقة الخاصة .

لقد تفحصت في هذه المقالة اساس علاقة غسر اعتيادية ، كانت حتى الونة الاخيرة مخفية ، بين دولة اسرائيل وجنوب افريقيا ، واطهرت ان لهذه العلاقة جذورا تاريخية عميقة وحميمة ، تنطوي على صلات مالية واقتصادية وتجارية وعسكرية مباشرة ، كما تنطوي على تعاون دولي غير مباشر خاصة في ما يتعلق بفرق ثالث ، هو الولايات المتحدة . والى ذلك يوجد للدولتين نظامان اجتماعيان وايدولوجيان مماثلان خصوصا في ما يتعلق بالسكان الوطنيين . وغوق ذلك تجتهد جماعات معينة داخل كل من البلدين بنشاط لتقوية الروابط بينهما .

ومما لا ريب فيه ان العلاقة بين الدولتين خلال عقد الستينات واجهت صعوبة غيرمسا تفلست اسرائيل في افريقيا السوداء وعززت علاقاتها بها . ولكن بالنظر الى الموقفين المعادين والمستقطبين بسرعة لافريقيا السوداء وجنوب افريقيا ، باهت لعبة التوازن الخطرة التي قامت بها اسرائيل اخيرا بالفشل بصورة دراماتيكية في ١٩٧٣ عندما اقدمت جميع دول القارة تقريبا على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع ذلك البلد .

هذه الدراسة لا تتناول الاوضاع المفضية الى قيام علاقة خاصة بين دولة ودولة بحسب ، بل تتناول ، كذلك ، تلك الاوضاع التي ترتبت عليها . وهي دولية واقليمية والى حد اقل ثنائية — والتي ادت الى قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة . وتعتمد كل من العمليتين على الاخرى . والطريقة التي تم بها قطع العلاقات الدبلوماسية بالجملة مع بلد واحد لم يسبق لها مثيل في التاريخ . ولا تهتم الدراسات الراهنة للعلاقات الدبلوماسية والدولية اهتماما جديا كافيا بتحليل القطع السريع والنجائي للعلاقات الدبلوماسية .

بين الدراسات الطويلة المتوارة ، يبحث ليرتس وسعيد (١٩٧٣) دلالة قطع العلاقات كعناصر اكرام في العلاقات الدولية . وتؤكد المحاولات الاخيرة لتحليل العمل الدراماتيكي الذي قامت به الدول الافريقية توكيدا كبيرا على دور شخصية

اسرائيل يرتكز على العهد القديم ليشرح لماذا لا يرغب في الاختلاط بقوام اخرى : والامريكاني يفعل هذا ايضا » . (ورد في ستيفنز ، ١٩٧١ ، واعيد طبعه في كتيب ، ص ٢٥) .

وهاجم الدكتور فيرغورت التصويت فادلى بتصريح قال فيه ان اليهود : « اخذوا اسرائيل من العرب بعدما عاش العرب هناك الف سنة . وفي ذلك اوافتهم على ان اسرائيل ، كجنوب افريقيا ، هي دولة تفرقة عنصرية » راند ديلي ميل ، ٢٣ تشرين الثاني — نوفمبر ، استشهد به ستيفنز ، ١٩٧١ ، ص ٢٥) .

وباختصار ، ينبغي النظر الى اوجه الشبه البنيوية بين النظامين الاجتماعيين الجنوب افريقي والاسرائيلي على انها عامل اخر ترتكز اليه العلاقة الخاصة بين الدولتين .

وكان العداء الذي ظهر علنا ورمسيا من جانب الجنوب افريقيين نحو الاسرائيليين عداء مؤقتا في الواقع ، واحد الاسباب هو ان اليهود الجنوب افريقيين المنظمين ، والموالين بقوة للصهيونية ، سعوا الى تسوية الخلافات ، ويقول ستيفنز ان المصالحة بين جنوب افريقيا واليهودية المنظمة ادت ، في الواقع ، الى تقوية جهود اليهودية المنظمة للدفاع عن جنوب افريقيا في الخارج . وحتى قبل التصويت في الامم المتحدة سنة ١٩٦١ ، « كان مجلس النواب اليهود الجنوب افريقيين قد نصح المنظمات اليهودية في الخارج بالامتناع عن التعليق على المشكلات الجنوب افريقية ... وكجنوب افريقيا ، امتنعت جميع المنظمات اليهودية غير الحكومية التي لها صفة استشارية في الامم المتحدة ... من بحث مسألة التفرقة العنصرية » (ستيفنز ، ١٩٧١ ، ص ٢٩ — ٣٠) .

لقد لعبت الجالية اليهودية الصهيونية في جنوب افريقيا دورا مهما في توثيق العلاقات بين اسرائيل وجنوب افريقيا . وفي اسرائيل قام الصهيونيون الجنوب افريقيون المهاجرون ، وابرزهم وزير الخارجية السابق ابا ايان والسفير الاسرائيلي السابق في الامم المتحدة ميخائيل كوماي ، بممارسة الضغط ايضا من اجل علاقات اقوى بين البلدين . وكانت هاتان الجاليتان هما اللتان ساعدتا الى حد

المزدوجة المفضية الى قيام دول عديدة بقطع العلاقات وتعزيزها مع قلة معينة . كما ان مثل هذا التحليل يتجاهل التضامن النامي لبلدان العالم الثالث على نطاق عالمي - في المنظمات الدولية الرسمية وفي ككل التصويت على السواء - في النضال ضد الدول الامبريالية الجديدة ، وجليفاتها والدول التابعة لها . وربما كان اعتبار هذا الصراع المتعدد الجوانب مظهرا من مظاهر التناقض الاساسي في العالم اليوم ، هو خطوة اولى في فهم التحولات المعاصرة التاريخية في علاقات الامة - الدولة - والانماط المتغيرة لقطع العلاقات الدبلوماسية والتضامن . وفي نطاق هذا التصور العقلي يمكننا ان نفهم فيها كانيا علاقات اسرائيل بجميع الدول الافريقية - الشمالية منها والواقعة جنوب الصحراء الكبرى .

واسلوب رؤساء الدول، وعلى الدافع الفظ لكسب المنح والقروض المالية من البلدان العربية المنتجة للنفط والثروة حديثا ، وعلى محاولة الزعماء لاسترضاء الجماعات السياسية الداخلية (جيتلسون ، ١٩٧٤) . ويشير جيتلسون الى « التضامن الواضح » في اعمال الدول الافريقية ضد اسرائيل ولكنه يقول « ان مثل هذا الاجماع في العمل كان ممكنا لان اسرائيل ليست دولة كبرى » وان « الحالة التي احاطت بحرب [١٩٧٣] كان لها فعل متغير معترض عجل في احداث تأثير كرهة الثلج » (جيتلسون ، ١٩٧٤ ، ص ٤٧٥ ، انظر ايضا جيتلسون ، ١٩٧٣) .

مثل هذه التفسيرات ليست تحليلا كانيا لاسباب القطع الجماعي للعلاقات الدبلوماسية ولا للعملية

الجدول الاول

صادرات اسرائيل الى افريقيا
الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى
بالوف الدولارات الامريكية*

موزمبيق	٢٣	غيرمحدد
ناميبيا	غيرمحدد	غيرمحدد
النيجر	١٠	—
نيجيريا	٢٤٢٥٥	٤٤٩٥٠
رواندا	—	٧٦
روديسيا (مع مالواي وزامبيا)	٧٢٩	—
(مع مالواي)	١٦٦	—
السنيغال	٥٥	٣١
سيراليون	—	٧
الصومال (الفرنسي)	غيرمحدد	٧٠
جنوب افريقيا	٢٤٠٠٨	٩٤٣٩٨
تنزانيا	٤٠١	١٤٤٠٢
توغو	٥	٣٢
اوغندا	١٩	٧٤٩٨٥
فولتا العليا	—	٣٠
زائر	٣	٢٤١٣٣
زامبيا	—	٣٤٠٢٠
غيرها	٨٤٢	١٤٩٧٤
المجموع	١٠٠٧٢٩	٤٧٤٤٢١

* تقديرات .

البلد	١٩٦٢	١٩٧١
جمهورية الكونغو الشعبية	٧	١
انغولا	٧	—
كامرون	٤	٩
جمهورية افريقيا الوسطى	٤	٢
تشاد	٢	٥
الداعومي	١٥	٩٨
اثيوبيا	٩٧٧	٣٤٥٧٤
الغابون	٢٩	١٦٦
غانا	١٤٤٣٥	٣٤١٠٣
غينيا	١٥	١٦
ساحل العاج	٥٥٤	١٤٢٥٥
كينيا	٣١١	٤٤١٨٧
ليبيريا	٦٨٦	٣٤٣٤٧
مالاغاسي	٢٢٠	٢١
مالي	١٢	١٣
موريشوس	—	٢٥٣

الجدول الثالث

قيمة نشاطات سوليل يونيه المشتركة
مع الحكومات الافريقية ١٩٥٧ - ١٩٧٠
بالوف الدولارات الامريكية

البلد	قيمة المشاريع المنجزة (١٩٥٧-)	قيمة المشاريع الراهنة (١٩٧٠)
اثيوبيا	١٩٤٤٠٠	—
غانا	١٧٤٥٠٠	—
ساحل العاج	٢٠٤٧٤٠	٢٤٣٥٠
كينيا	٩٤٥٠٠	١٤٩٠٠
النيجر	٢٤٤٠٠	١٧٤٢٠٠
نيجيريا (المجموع)	٦٧٤٤٥٠	١٤٧٢٥٠
سيراليون	١٢٤٢٥٠	—
الصومال (الفرنسي)	٥٤٥٠٠	١٤٣٠٠
تنزانيا	١٢٤٢٠٠	٧٤١٠٠
اوغندا	٢٧٠	٩٤٥٣٠
زامبيا	٧٤٣٠٠	—
المجموع	١٧٥٤٥١٠	٤٣٤٦٥٥

الجدول الرابع

البلدان الافريقية التي وقعت اتفاقيات معونة فنية
مع اسرائيل

البلد	السنة
بوروندي	١٩٦٢
الكاميرون	١٩٦٢
جمهورية افريقيا الوسطى	١٩٦٢
تشاد	١٩٦٤
الدااهومي	١٩٦١
القابون	١٩٦٢
غامبيا	١٩٦٢
غانا	١٩٦٢
ساحل العاج	١٩٦٢
كينيا	١٩٦٦
ليسوتو	١٩٧١
ليبيريا	١٩٦٢

الجدول الثاني

واردات اسرائيل من افريقيا
الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى
بالوف الدولارات الامريكية*

البلد	١٩٦٢	١٩٧١
الكاميرون	٣٠	غير محدد
جمهورية افريقيا الوسطى	٦١٢	٣٤٢٩٠
جمهورية الكونغو الشعبية	٢٤٣	١٩٣
الدااهومي	غير محدد	١
اثيوبيا	١٤٥٣٩	٢٤١٩٤
القابون	٣٤٦٤٤	٨٣٧
غانا	٨٨٨	٨٤٧
غينيا	٢٤٦	١١٨
ساحل العاج	٣٧٠	٤١٣
كينيا	١٤٥٤٠	١٤٠١٢
ليبيريا	٢٤٧٥٢	٣٤١٨٠
مالاغاسي	٢٢	١٣
مالاوي	غير محدد	٣٢٦
مالي	٦	٨
موزمبيق	٢٨٩	غير محدد
النيجر	غير محدد	٢
نيجيريا	١٨٦	٣٠
روديسيا	—	٥٥
(مع مالاوي وزامبيا)	٢٩٠	—
السنغال	١	—
جمهورية الصومال	٥٠	—
الصومال (الفرنسي)	غير محدد	٢
جنوب افريقيا	٥٤٥٣٨	٨٤٠٨٠
تنزانيا	١٤٥	١٩٧
اوغندا	٣٥٤	١٤٤٣٥
زائير	غير محدد	١٣٦
زامبيا	٢٨	—
غيرها	غير محدد	٢٤٨٠٤
المجموع	١٩٤٩٢٥	٢٥٤٢١١

* تقديرات .

الجدول السادس

الخبراء الاسرائيليون في افريقيا
بحسب حقل الخبرة (١٩٦٩)

العدد	الحقل
٦٨	منظمات الشبيبة
٤٤	الزراعة
٢٠	الادارة
١١	البناء
١٠	الفني
٣	الاجتماعي
١٥٦	المجموع

الجدول السابع

التجارة بين اسرائيل وجنوب افريقيا
بالوف الدولارات الاميركية

التجارة من جنوب افريقيا الى اسرائيل	التجارة من اسرائيل الى جنوب افريقيا	وفقا للمصادر للإسرائيلية
٤٤٣٠٠	٢٤٧٠٠	١٩٦٥
٤٤٥٠٠	٢٤٣٠٠	١٩٦٦
٣٤٤٠٠	٤٤٠٠٠	١٩٦٧
٥٤٢٠٠	٥٤٧٠٠	١٩٦٨
٥٤٧٩٠	٨٤١٨٠	١٩٦٩
غير محدد	١٠٤٦٠٠	١٩٧٠
٧٤٩٧٤	٩٤٤٠١	١٩٧١
١١٤٥٨٩	٨٤٨١٥	١٩٧٢
٢٤٤٨٦٣	٩٤٢٠٢	١٩٧٣ (الأشهر التسعة الاولى)

١٩٦١	مالاغاسي
١٩٦٠	مالي
١٩٦٣	النيجر
١٩٦٢	رواندا
١٩٦٢	سيراليون
١٩٦٢	سوازيلاند
١٩٦٣	تنزانيا
١٩٦٤	التوغو
١٩٦٢	اوغندا
١٩٦١	غولتا العليا
١٩٧١	زائير
١٩٦٦	زامبيا

الجدول الخامس

المتدربون الافريقيون في اسرائيل
بحسب حقل التدريب (١٩٦٩)

العدد	الحقل
١٢٨	التعاونيات والعمال
١١٣	الزراعة والهندسة الزراعية
٦٧	الانماء البيئوي
٤٧	قيادة الشبيبة
٣٩	الطب والصحة
٣٥	طلبة جامعات وكليات
٣٤	الادارة
١٢	غيرها
٤٧٥	المجموع

المصادر : مكتب اسرائيل المركزي للإحصاءات ،
فورين تريند ستاتيستيكس ، المجلد الخامس ،
العدد ١٢ ، كانون الثاني - آذار (يناير -
مارس) ، ١٩٧٣ ، الجزء الاول والثاني ،
جنوب افريقيا واسرائيل ، ١٩٧١ ، مأخوذة من
دايركتشن أوف تريند ، مارس ، ١٩٧٠ .

مراجع البحث

Abu-Lughod, I. *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الابحاث بعنوان « تهويد فلسطين »] .

Abu-Lughod, J. «The Demographic

عبد الرحمن ، عواطف ، اسرائيل وافريقية (بيروت)،
مركز الابحاث في م.ت.ف. ، ١٩٧٤ .

Abu-Lughod, I. & B. Abu-Laban, eds. *Settler Regimes in Africa and the Arab World*, Wilmette, III. : Medina University Press, 1974.

in I. Abu-Lughod & B. Abu-Laban, eds, *Settler Regimes in Africa and the Arab World*, Wilmette, III. : Medina University Press, 1974.

Heiman, L. «All's Fair...», *Marine Corps Gazette*, June 1964.

Herzl, T. *The Diaries of Theodore Herzl*, New York : Grosset and Dunlap, 1962.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الأبحاث بعنوان

« يوميات هرتزل »]

Hepple, A. *Workers Under Apartheid*, London, 1969 (pamphlet).

Israel Yearbook, 1952, 1960/1965.

Jabbour, G. *Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East*, Beirut : PLO Research Center, 1970.

Jerusalem Post, April 1, 1958.

Jiryis, S. *The Arabs in Israel*, Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الأبحاث بعنوان

« العرب في إسرائيل »]

Klare, M. *War Without End*, New York : Vintage, 1972.

Koestler, A. *Promise and Fulfilment*, New York : Macmillan, 1949.

Landau, J. *The Arabs In Israel*, London: Oxford University Press, 1968.

Laufer, L. *Israel and the Developing Countries*, New York: Twentieth Century Fund, 1968.

Lerche, C. O. & A. A. Said, *Concepts of International Politics*, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, 1963.

Lobel, E. «Palestine and the Jews», in A. El-Kodsy and E. Lobel, *The Arab World and Israel*, New York : Monthly Review Press, 1970.

Lorch, N. *Edge of the Sword*, Jerusalem : Massada Publishers, 1968.

Marquand, L. *The Story of South Africa*, London : Oxford, 1966.

MERIP Reports, No. 32, Washington & Boston : Middle East Research and Information Project, Inc., November 1974.

Middle East Record, 1960.

Morris, G. *The CIA and American Labor*, New York : International Publishers, 1968.

New York Times, April 30, 1971.

O'Ballance, E. *The Arab-Israeli War*, 1948, London : Faber & Faber, 1956.

Peretz, D. *Israel and the Palestine*

Transformation of Palestine», in I. Abu-Lughod, ed., *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

Africa Research Group, «David and Goliath Collaborate in Africa», *Levithan*, September, 1969.

Afrique-Asie, July 20, 1970.

Agee, P. *Inside the Company: CIA Diary*, London : Penguin, 1975. «Agent Meany», *New Republic*.

American Jewish Yearbook, 1968.

Ben-Porath, Y. *The Arab Labor Force in Israel*, Jerusalem : Falk Institute, 1966.

Begin, M. *The Revolt : Story of the Irgun*, Tel Aviv : Hadar Publishing Co. 1964.

Bilby, K. *New Star in the Near East*, Garden City, N. Y. : Doubleday, 1950.

Childers, E. B. «The Wordless Wish: From Citizens to Refugees», in I. Abu-Lughod, *The Transformation of Palestine*, Evanston, III. : Northwestern University Press, 1971.

Cohen, A. *Israel and the Arab World*, Paris, 1964.

Decraene, P. «Is the Romance with Israel Over?» *Africa Report*, May/June, 1973.

Dowd, D. *The Twisted Dream*, Cambridge, Mass. : Winthrop Publishers, 1974.

Economist, August 27, 1960.

Emmanuel, A. «White Settler-Colonialism and the Myth of Investment Imperialism», *New Left Review*, No. 73, May-June, 1972.

«Financial Credit Agreement between South Africa and Israel», *Africa Diary*, August 20-26, 1970.

Financial Mail, Johannesburg, September 4, 1970.

Frank, A. G. *Latin America : Underdevelopment or Revolution*, New York: Monthly Review Press, 1971.

Free Palestine, December 1974.

Gitelson, S. A. «Israel in Africa : Success and Setback», *Jerusalem Post*, January 12, 1973.

«Why do Small States Break Diplomatic Relations With Outside Powers? Lessons from the African Experience», *International Studies Quarterly*, Vol. 18, No. 4, December 1974.

Halbrook, S. «The Philosophy of Zionism : A Materialist Interpretation»,

[صدرت الدراسة في شؤون فلسطينية ، عدد ٢٨
South African Financial Gazette, 1971.
 «South African Trade Mission Visits
 Israel», *Africa Diary*, February 26 -
 March 4, 1971.

Standard of Tanzania, October 7, 1972.
 Stein, L. J. *The Balfour Declaration*,
 New York : Simon & Schuster, 1961.

Stevens, R. «Settler States and Western
 Response», Manuscript, 1971.

«Smuts and Weizmann», *Journal of
 Palestine Studies*, Autumn, 1973, vol.
 III, No. 1.

«Zionism, South Africa and Apartheid:
 Paradoxical Triangle», *Phylon*, Vol. 32,
 No. 2, 1971.

[صدر الكتاب بالعربية عن مركز الأبحاث بعنوان
 « الصهيونية وجنوب افريقية والتبويض
 العنصري »]

Sunday Times, London, June 15, 1969.

Tricontinental Bulletin, June, 1968.

Tomeh, G. J. *Israel and South Africa*,
 New World Press, 1973.

Van Den Berghe, P. L. *Race and
 Racism*, New York : Wiley, 1967.

South Africa, A Study In Conflict,
 Middletown, Conn: Wesleyan Univer-
 sity Press, 1965.

Vatcher, W. *White Laager*, New York:
 Praeger, 1965.

Zack, A. *Labor Training in Developing
 Countries*, New York : Praeger, 1967.

Arabs, Washington, D. C. : Middle East
 Institute, 1958.

Rivkin, A. *Africa and the West*, New
 York : Praeger, 1961.

«Israel and the Afro-Asian World»,
Foreign Affairs, April 1959.

Rodinson, M. *Israel : A Colonial Set-
 tler State ?*, New York : Pathfinder
 Press, 1973.

Rogers, H. S. «Imperialism in Africa»,
The Black Scholar, January 1972.

Ruedy, J. «Dynamics of Land Aliena-
 tion», in I. Abu-Lughod, ed., *The Trans-
 formation of Palestine*, Evanston, III:
 Northwestern University Press, 1971.

Ryan, S. «Israeli Economic Policy in
 the Occupied Areas : Foundations of
 a New Imperialism», *MERIP Reports*,
 No. 24, Washington & Boston: Middle
 East Research and Information Pro-
 ject, Inc., January 1974.

[صدرت الدراسة في شؤون فلسطينية ، عدد

٢٧ و ٢٨

Silverburg, S. «Israeli Military and
 Paramilitary Assistance to Sub-Saharan
 Africa : A Harbinger for the Role of
 the Military in Developing States»,
 M. A. Thesis at American University,
 Washington, D. C.

Smith, S. U. S. *Neocolonialism in
 Africa*, New York : International
 Publishers, 1974.

South Africa and Israel, Research Re-
 port by Madison Area Committee on
 South Africa, 1971

حزب العمال البريطاني وقضية فلسطين

ديفيد واتكنز

« المجلس العمالي للشرق الأوسط » تجمع لعدد من نواب حزب العمال البريطاني الراقضين للسياسة المتحازة التي يتبناها حزبهم في الصراع العربي - الإسرائيلي . وقد قام ستة من أفراد هذا التجمع ، برئاسة العضو في البرلمان ديفيد واتكنز ، بزيارة لبنان وعددا من الاقطار العربية في اواخر ١٩٧٤ ، واطلعوا على حقائق الامور والمواقف والسياسات الفلسطينية والعربية . ثم قام رئيس المجلس باعداد دراسة تستعرض مواقف حزبه من قضية فلسطين وتضع الاسس لتفهم صحيح لهذه القضية . وقد خص ديفيد واتكنز شؤون فلسطينية بنشر الترجمة العربية للدراسة في الشهر نفسه الذي تنشر في نصها الاصيل في لندن .

الديموقراطية . وهذا الامر يلزمنا بان نتحدث وندرس ، لكي نعرف كيف اتيح للصهيونية ان تحقق كل هذه السيطرة القوية على حزب العمال البريطاني . وهذا هو ما ترمي اليه الدراسة الحاضرة ، اي متابعة ودراسة مسيرة التطور للتفوذ الصهيوني في الحزب .

بدأ التدخل البريطاني في النزاع الهائل في الشرق الأوسط ، في الحرب العالمية الاولى ، وهو تدخل لا يقدم صورة مشرقة في اي حال . فالاقطار العربية التي كانت حينئذ جزءا من الامبراطورية التركية ، قطعت لها عهد بالاستقلال ، لقاء قيامها بمساندتنا في الحرب . وفي ذلك الوقت نفسه ، كانت كل من بريطانيا وفرنسا تيرمان اتفاقية سايكس - بيكو لتقطيع هذه الاقطار واقتسامها بين الطرفين بعد انتهاء الحرب ، بما يخدم اغراضهما الامبريالية . ثم جاء تصريح بلفور ، في عام ١٩١٧ ، بعد مفاوضات سرية بين الحكومة البريطانية وبين الحركة الصهيونية ، وهو تصريح كان منطلقا لسلسلة من الاعمال انتهت بتأسيس دولة صهيونية على تراب فلسطين .

كان تصريح بلفور فاتحة عهد التواطؤ والمحابة . وهذه هي أول مرة تقوم فيها المؤسسة البريطانية

تأسس المجلس العمالي للشرق الأوسط في عام ١٩٦٩ ، كتعبير عن الطلق المتنامي في صفوف حزب العمال البريطاني ، من التوجه الرسمي المتحيز للحزب حيال مشكلات الشرق الأوسط . ان باب الانتساب الى هذا المجلس مفتوح امام جميع أعضاء حزب العمال البريطاني ، وغاياته هي المسمى الى اقرار السلم والعدالة في الشرق الأوسط ، والى تطبيق قرارات الأمم المتحدة ، وذلك بتقديم رؤيا ببناء ومتوازنة للنزاع العربي - الإسرائيلي ، الى أعضاء الحركة العمالية البريطانية .

ينبع هذا الخط من تفكير اشتراكي ينسجم تماما مع ما التزم به حزب العمال في دستوره من تعهد بخدمة السلام ، وتسوية النزاعات الدولية ، والدفاع عن الحقوق الانسانية ، وذلك بتعزيز هيئة الأمم المتحدة ودعمها . ورغم ان الصهيونية قد أصبحت ثابتة على نهجها المعادي للأمم المتحدة ، فان توجه حزب العمال أضحى أشد مساندة للصهيونية ، مما يعني ان تأييد حزب العمال للصهيونية يتناقض وفلسفة الحزب الاساسية .

لقد كانت الصهيونية منذ انبثاقها ونشأتها المبكرة ، فلسفة توموية ، الامر الذي يجعلها تتناقض أصلا والمفاهيم الاساسية للاشتراكية

الشائع عالميا لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين ، وبين حقيقة القضية ، بل ووجدت ان هناك تناقضا في عدة نواح وأوجه ، بين ذلك الفهم والواقع .
 وحين بدأت بدراسة الجوانب الاساسية للعلاقات العربية - الاسرائيلية ، اكتشفت الامر نفسه ، أي هذا الاعتماد عن فهم الحقيقة ، بل والتعارض معها ، وخاصة فيما يخص بالفهم السائد لسبب النزاع» (١).

الواقع ان الحركة الصهيونية بذلت مجهودات جبارة وناجحة على امتداد العالم قاطبة ، لخلق الموقف المشار اليه ، اي موقف عدم الفهم ، أو الفهم المماكس للحقيقة . وحققت الحركة الصهيونية في حزب العمال البريطاني نجاحا لم تعرف له مثيلا في اي مجال اخر . لكن الحقيقة بدأت بالتقدم والانكشاف على مدى العالم كله . وبالنسبة للحركة العمالية في بريطانيا ، أذفت ساعة الامتحان الحاسم للنفوذ الصهيوني ، وضرورة ارساء دعائم سياسة تقوم على معطيات أكثر انفتاحا وشمولاً وملاءمة من السياسة السائدة حتى الان .

كان من مقاصد وسياسات الفروع البريطانية للحركة الصهيونية العالمية ، على الدوام ، التسلل الى حزب العمال البريطاني . اما غاية الصهيونية فلقطد كانت ولا تزال ، طرد الشعب الفلسطيني من أرض وطنه ، واقامة دولة استيطانية يهودية على تلك الارض . وكان الصهيونيون ولا يزالون ينطلقون في نشاطهم من فرضية أن معهم حقا الهيا بالوصول الى هذا الهدف ، وعلى أساس ان تحقيق هذه الغاية يبرر اللجوء الى أية وسيلة . والحقيقة ان الغاية التي سمعت اليها الصهيونية ، مثلها كمثل الوسائل التي استعملت لتحقيقها ، تتناقض والمبادئ الاساسية للديمقراطية الاشتراكية .
 ويرغم ذلك فسان التسلل الصهيوني الى حزب العمال البريطاني حقق نجاحا مدهشا ومثرا الى أبعد الحدود .

لقد وصل الامر بأعضاء حزب العمال البريطاني ان يؤمنوا بأن الصهيونية والاشتراكية صنوان ، وان العرب غزاة ومعدون . الا ان الفلسطينيين هم الذين طردوا من ارضهم . كان الفلسطينيون يشكلون ٩٢٪ من سكان فلسطين في عام ١٩١٧ ، أما اليوم فان مليوناً ونصف المليون من الفلسطينيين

يبني شعب لا تملك عليه حق السيادة ، لصالح جماعة اخرى افضل تنظيلا .

لا يمكن تشييد السلام في الشرق الاوسط ، الا على دعائم العدالة . ان هذا السلام القائم على العدل ، سوف ينهي بؤرة للتوتر تهدد بحريق عالمي خطير ، كما سيفتح الباب امام امكانيات عظيمة لتحقيق التقدم ، سواء في الغرب او في الشرق ، في النصف الشمالي من الكرة الارضية او في نصفها الجنوبي على السواء . وعلى الحركة العمالية في بريطانيا أن تبرهن على ان جل ما يتبغيه في الشرق الاوسط ، هو المساهمة بخدمة التزامها بتضحية العدالة والتقدم ، وليس المساندة الفورية والآلية لأي من الفريقين .

وقت لاعادة التفكير

كانت حرب الشرق الاوسط في اكتوبر - تشرين الاول ١٩٧٣ ، نهاية عصر ، اذ انتهت هذه الحرب أسطورة الجيش الاسرائيلي الذي لا يقهر ، كما أنهت حقبة مديدة من التوسع الصهيوني الذي بدأ لفترة بلوية وكانه لم يكن يواجه اية مقاومة . واستنهضت هذه الحرب معارضة شبه اجماعية للسياسات الاسرائيلية بين أهم آسيا وأفريقيا الناشئة ، كما كشفت للعالم الغربي ان حقائق الموقف في الشرق الاوسط تختلف كلياً عن المعطيات التي يعرفها ويؤمن بها على نطاق واسع . لكن هذه الحرب كانت بالنسبة لقادة حزب العمال البريطاني مناسبة اخرى لاعادة تأكيد التزامهم الكامل والفوري بالخط الاسرائيلي ، مما ألحق بالحزب اضرارا في الوطن (بريطانيا) ، وأذى كبيرا على صعيد العالم الثالث . ومع ذلك فلقد كانت حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، فاتحة أول تحد ناجح للهيمنة الصهيونية على حزب العمال البريطاني ، وانتشار قناعة على نطاق واسع في صفوف الحزب، بانه لا بد من مراجعة السياسة حيال فلسطين وشعبها .

كتب الدكتور جون هـ. ديفيس ، المرجع الموثوق والمشهور عالميا ، والاميركي البارز الذي تولى المفوضية العامة لوكالة هيئة الأمم المتحدة لاغثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين طليعة خمس سنوات ، يقول : « لقد وجدت ، بصفتي المفوض العام للامم المتحدة ، ان هناك تفاوتاً كبيراً بين الفهم

بين الصهيونيين في أوروبا الشرقية ، وبين الاشتراكيين في بريطانيا .

كان المندوبون الذين التقوا في لندن ، خليطاً متنوعاً من الناس . وكما يحدث بين أفراد أية جماعة من الناس تلتقي على هدف عمومي واحد ، فلقد برزت بينهم اختلافات في الآراء ، سواء حول طبيعة الهدف ذاته ، أو حول الوسائل المتفاهة لتحقيق الهدف . وكان ما يوحد هذا الحشد من الناس هو إجماعهم على إزالة الفقر ، والمرض ، والجهل ، والاستغلال البشع ، وهذه كلها كانت من نصيب جماهير الشعب البريطاني العامل .

لكنهم كانوا أصحاب رؤيا أوسع ، إذ أدركوا أن الاستغلال والقمع يمتدان بعيداً إلى ما وراء حدود وطنهم . ولهذا أعلنوا معارضتهم لحرب البوير التي كانت في أوجها في ذلك الحين ، لأنها كانت امتداداً للامبريالية والاستغلال ، كما كانوا معادين بالغيرة للاحياء « المغتلة » - الجيتو ، وللذابح المذبرة التي كانت تنظيها الإمبراطوريات الاستبدادية في القارة الأوروبية ، لأن هذه النواحي كانت تجليات وتعبيرات من الحالة العامة .

أما الصهيونيون الذين اجتمعوا في مؤتمر بال فلقد كانوا أيضاً شديدي اليقظة قبل كل شيء لتخليص شعبهم مما يعانونه من اضطهاد ، انهما ، وبسبب خلفيتهم المختلفة كثيراً ، فإن نظرتهم كانت شديدة الاختلاف . كان السادة الأوائل للحركة الصهيونية ، على وجه الحصر ، من أبناء تجربة « الجيتو » ، والذهنية الناشئة والمقولة في جو « الجيتو » . وكان اليهود في وسط وشرق أوروبا يتعرضون للقمع والاضطهاد ، ومحرورين حتى من تلك الحقوق المدنية الهزيلة التي كانت مباحة لهم في إمبراطوريات استبدادية مثل النمسا - المجر وروسيا القيصرية . وكان المندوبون المجتمعون ، وجيهمهم من أصحاب هذه الجذور « الجيتوية » ، بلا الملم بالنظام البرلماني ، وعلى غير دراية بالمعارضة المنظمة ، التي كانت تقوم في بريطانيا على حركة اتحاد النقابات ، وكانت تقود نحو « ديمقراطية » البرلمان .

كان ثيودور هرتزل مدفوعاً بخلفيته هذه حين ألف كتاب « دولة اليهود » ، الذي طرح فيه فكرة إقامة دولة يهودية والدعوة إلى عقد المؤتمر . وهذا ما كتبه موسى مبنوحن في شهادته البارزة

يعيشون كلاجئين ، وعلينا آخر منهم يعيش في ظل الاحتلال العسكري الإسرائيلي . وهؤلاء الفلسطينيون لم يطبق عليهم أبداً مبدأ حق تقرير المصير ، وهو المبدأ الركن في فلسفة حزب العمال البريطاني ، لم يطبق عليهم في تصريح بلفور في عام ١٩١٧ ، ولا في قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في ١٩٤٧ ، ولا في عام ١٩٤٨ عندما أعلنت إسرائيل وجودها ، طاردة أول فوج من اللاجئين . ولا يزال من الأهداف الرئيسية للسياسة الصهيونية حتى يومنا هذا ، عزل وإبعاد الفلسطينيين عن أية مفاوضات مقررّة لتحقيق السلام العادل والدائم .

وهكذا فإن حزب العمال البريطاني يجد نفسه منذ أكثر من نصف قرن ، تحت تأثير قائمة بضرورة ان « يفصل » موافقه وسياساته بما يتمشى و « الزي » الصهيوني . وتجاهل الحزب ، أو - كما هو أسوأ - جهل ، أن إقامة دولة إسرائيل ، قد أنزلت بالشعب الفلسطيني ظليلاً مريعاً لا تقبله الجديء الاشتراكية الأساسية . وهكذا فإن تأييد حزب العمال البريطاني ، لإسرائيل والصهيونية ، قاده إلى وضع ناشز ، يتعارض مع مبادئه الأساسية ، وتتجلى فيه ازدواجية المواقف في قضايا إنسانية وأخلاقية كبيرة . وأصبح حزب العمال البريطاني منعزلاً بصورة متزايدة عن الرأي العام العالمي ، وعلى الأخص في دول العالم الثالث . ولا بد الآن من إعادة تقويم لهذه المواقف وتناول كل النواحي الأساسية للقضية .

الصهيونية والاشتراكية

انتظمت كل من الصهيونية العالمية والاشتراكية البريطانية في إطار حركة سياسية ، في ظروف متشابهة ، الأمر الذي يفسر إلى حد بعيد نفوذ الأولى (الصهيونية العالمية) في الثانية (الاشتراكية البريطانية) . ونشأت الحركتان في الوقت نفسه تقريباً . ففي عام ١٨٩٧ التقى في بال في سويسرا مائة وسبعة وتسعون مندوباً في المؤتمر الصهيوني الأول . وفي عام ١٩٠٠ التقى في لندن ، مائة وتسعة وعشرون مندوباً في مؤتمر تأسيسي لإنشاء حزب العمال البريطاني . وفي كل من الحالتين ، كان هناك التقاء وتجمع بين الناس الذين تتعرض مصالحهم لعداء النظام القائم ، بهدف خلق الآداة التي تمكنهم من رسم مستقبلهم . ولكن كان هناك اختلاف كبير وحاسم في الخلفية والتجربة ،

للإهمية عن تنافر وتعارض الصهيونية مع القيم العالمية لليهودية : « ان ما عانته بحق جماهير العالم غير اليهودي ، وما رزحت فيه واثرت عليه من ظن وجور واستغلال ، لم يعانته هو بل تهرب منه كليا . انه لم يكن قادرا على ، ولا راغبا في ان يرى تطور التاريخ ، ولا أن يكافح من اجل اعتاق العالم كله ، والاخاء الانساني الذي كان يتقوى ويتدعم بالتاكيد ، وان كان مصحوبا بالهم العظيم » (٢) .

لقد اقتنع هرتزل بان جميع اليهود ، وهيئها كانت مواطنهم ، كانوا هدفا للاضطهاد من جانب غير اليهود ، ومن اجل هذا الوضع مك مبارته المشئومة « المسألة اليهودية » ، وتصور حل هذه « المسألة » باقامة دولة يهودية يجمع فيها اليهود من أربع رياح الارض . وهذه الفكرة كانت مصدر وحي المؤدبين الذين اجتمعوا في مؤتمر بال ، لكن هؤلاء — كما هرتزل من قبلهم — فانهم استيعاب الرؤيا الشاملة للامور ، وهكذا اطلقت الصهيونية في مجرى عنصري زادت في قوته التطورات واحداث العقود التالية .

ومن الامور الواردة والمسجلة « ان شخصين اشتراكيين حضرا المؤتمر الصهيوني الثاني » (٣) . وهذه بيئة ساطعة على ان الاشتراكية لم تكن سوى جزء ضئيل الاهمية في الصهيونية . على ان الثورة الصناعية كانت في سبيلها الى النمو في اوروبا الشرقية ، وولقت طبقة عاملة يهودية اضيفت الى اصحاب الدكاكين والحرثيين المستقلين والنزر اليسير من اصحاب المهن ، الذين كانوا يشكلون الاغلبية السكانية بين اليهود . وفيما شرع هؤلاء العمال بتنظيم صفوفهم ، عاجلتهم الصهيونية ، فغمرتهم بتأثيرها ، وسيطرت على منظماتهم .

التسلل الى حزب العمال البريطاني

كان المجتمع اليهودي في بريطانيا ، مع اطلالة القرن العشرين ، منقسما طبقيا بالحدة نفسها التي انقسم بها بقية ابناء بريطانيا . من ناحية كانت هناك اقلية صغيرة من الامر الثرية ، كانت جزءا لا يتجزأ من المؤسسة الحاكمة . ومن الجهة الاخرى كانت هناك تجمعات بأحجام مهمة في لندن وبقية المدن ، تتكون في الغالب من المهاجرين أو من ابناء واحفاد المهاجرين الذين غادروا بلاد — الجيتو ولنجأوا الى بريطانيا سعيا وراء جتمع أكثر حرية . وكان هؤلاء يشعرون بنسب ضعيف يربطهم باليهود . من ابناء الطبقة الحاكمة . وكان ارتباطهم الاوثق مع بقية ابناء الطبقة البريطانية العاملة ، وظهروا درجة قوية من الساندة لحزب العمال الوليد . وكانوا يمثلون بالنسبة لنشطاء « عمال

من اربع رياح الارض . وهذه الفكرة كانت مصدر وحي المؤدبين الذين اجتمعوا في مؤتمر بال ، لكن هؤلاء — كما هرتزل من قبلهم — فانهم استيعاب الرؤيا الشاملة للامور ، وهكذا اطلقت الصهيونية في مجرى عنصري زادت في قوته التطورات واحداث العقود التالية .

يبدو ان اسم « يوعالي زيون » ظهر لأول مرة في مينسك في عام ١٨٩٧ ، ويعني « عمال صهيون » . وفي عام ١٩٠٥ تأسست منظمة « عمال صهيون » كحزب قام بايفاد سبعة واربعين مندوبا عنسه في العام التالي الى المؤتمر الصهيوني السادس . وفي عام ١٩٠٧ ظهر الاتحاد العالمي لعمال صهيون ، الذي اعلن في عام ١٩٠٩ برنامجا رسميا دعا الى التضامن على الرأسمالية ، والى اخضاع وسائل الانتاج للملكية الاشتراكية ، والى « الحل الاقليمي

صهيون « تحديا محتملا وتهديدا كامنا
 تأسست الحلقات الأولى الصغيرة من « عمال
 صهيون » بين أبناء الطبقة العاملة اليهودية في
 بريطانيا ، في عام ١٩٠٢ ، أحداها في إيست آند في
 لندن ، والأخرى في ليدز ، وكان عمر هذه
 التجمعات قصيرا ، لكن في غضون سنوات قليلة ،
 وبعد عدة انشقاقات و بدايات زائفة او مغلوبة ،
 تكونت منظمة قومية . و انعتد مؤتمر في ليفربول
 في ديسمبر — كانون الاول ١٩٠٦ ، أعلن عن هذه
 المنظمة باعتبارها الفرع البريطاني لعمال صهيون ،
 و « بنى برنامجا اشتراكيا صهيونيا جذريا ،
 لا يشتمل على عدد من المبادئ النظرية فحسب ،
 بل وكذلك على خطة للنشاط العملي في جميع حقول
 العمل والنشاط في فلسطين » (٥) . وهكذا فلان
 التسلسل الصهيوني الى الحركة العمالية بدأ في العام
 ذاته الذي شهد انتخابات عامة جذرية في بريطانيا
 أنتت بحزب العمال البريطاني الى البرلمان لأول مرة .

حاييم وايزمان الذي استقر في مانشستر عام
 ١٩٠٤ ، صب كراهيته على اليهود الاثرياء
 « المندمجين » ، لكنه لم يبد أدنى إكتراث أو اهتمام
 بمطامح الشعب العامل . ولقد روى ريتشارد
 كروسمان كيف انه أثناء بحثه في مراسلات وايزمان
 في أرشيف رهوبوت في إسرائيل ، لم يجد فيها غير
 إشارة وحيدة الى الاجوال الاجتماعية نسي
 مانثستر ، التي عاش فيها وايزمان لعدة
 سنوات ، بل وكانت إشارة عابرة الى « ما يبدو
 على العمال من نظرة حزينة وهم في طريقهم الى
 المصنع » (٦) .

المقاييس المزدوجة

شن « عمال صهيون » قبل اندماجهم بحزب
 العمال عام ١٩٢٠ ، حملة مستمرة للتأثير على هذا
 الحزب . « ولقد شنوا على نطاق واسع حملة
 توعوية حول المطامح الصهيونية الاشتراكية نسي
 فلسطين وغيرها » وبلغت الحملة ذروتها في إعلان
 تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، عندما « نظم عمال
 صهيون عددا كبيرا من الاجتماعات في جميع أنحاء
 بريطانيا ، أعدت لإلقاء خطابات من قبل قادة
 الحركة العمالية البريطانية » (٧) .

وبعد عيد الميلاد مباشرة في العام ١٩١٧ ، تبنى
 مؤتمر خاص لحزب العمال بيان الحزب الشهر
 بشأن أهداف الحرب . وأدرجت في ذلك البيان
 إشارة تنص على وجوب ان تصبح فلسطين « دولة

وبرغم عدم ايمان وايزمان بهذه الحقيقة ،
 وتقديره لهذه المسألة ، فلقد كانت الحركة الصهيونية
 مجاللا للصراع الطبقي ، مثلما كانت الدول الصناعية
 الأوروبية تماما ، وكان طلابيو عمال صهيون في

وقبل ان يقيم وايزمان في بريطانيا ، تعاطى
 التدريس في ميوسيرا ، ويروي كروسمان عن جدال
 وقع هناك بين وايزمان وبين منظمة الطلبة الروس
 الماركسيين ، وان وايزمان ابلغ هؤلاء « بكل برودة ،
 ان الثورة العالمية كلام فارغ وتهرب ، وان الطريقة
 الوحيدة التي يستطيع بها اليهودي ان يحقق الحرية
 لنفسه ولشعبه هي بالعودة الى صهيون ، وتحويل
 فلسطين الى دولة قومية يهودية » (٧) .

وبرغم عدم ايمان وايزمان بهذه الحقيقة ،
 وتقديره لهذه المسألة ، فلقد كانت الحركة الصهيونية
 مجاللا للصراع الطبقي ، مثلما كانت الدول الصناعية
 الأوروبية تماما ، وكان طلابيو عمال صهيون في

فلسطين من مقاعد العمال . والواقع ان مجلس العموم لم يكن حتى ذلك الحين ، اي بعد مرور أربعة أعوام ونصف العام على تصريح بلفور ، قد تطرق الى اية مناقشة حول فلسطين على الاطلاق . وكان الناطق العمالي في تلك الجلسة المستر جوزيا ودجود ، النائب عن منطقة نيوكاسل ابن ليم (الذي أصبح فيما بعد اللورد ودجود) . ولقد بسط المستر ودجود الرأي عن الصهيونية باعتبارها القوة التي ستجلب الديموقراطية والتقدم الى فلسطين ، وان جماهير الشعب العربي ترحب بها في فلسطين ، ولا يعارضها سوى أصحاب الاراضي الإقطاعيون . وان العرب العاديين « وقفوا ينتظرون المناهج الهائلة التي سيقطفونها بسبب التنمية التي سيوفرها الشعب اليهودي في فلسطين » (١) .

الواقع ان هذا « الخط » ، وما لحقه من تنويعات ، أصبح منذ ذلك الحين أحد أبرز الموضوعات الصهيونية المألوفة ، وساهم الى حد بعيد في التأثير على تناعات جيل كامل من اعضاء حزب العمال . ومع ذلك ، فبينما كان هذا الخط في ذروة طرحه على أوسع نطاق في بريطانيا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، كانت الهستدروت في فلسطين حريصة على ان تكفل عدم تشغيل عمال من غير اليهود في مصادر العمل القائمة برأسمال يهودي ، وفي حال شراء ارض من مالكا العربي ، كانت حريصة على استبدال العمال العرب فوق هذه الارض بعمال من المهاجرين اليهود .

وفي وقت اقرب اليانا ، اي في العهد الذي نعيشه ، شهد هذا « الخط » بعض التنويع ، وأضيف اليه « تأكيد » بأن المقاومة الفلسطينية قاصرة على جماعات صغيرة محدودة من «الإرهابيين» وانها بلا سند من الشعب . ان أي شخص أتيح له ان يختلط بالفلسطينيين على مختلف مستوياتهم الاجتماعية ، سواء في الشرق الاوسط او في بريطانيا او في أي مكان آخر ، ودون ان نستثني الشبيبة التي تشق طريقها ضد جميع أشكال التمييز والنحيز ابتداء من المدارس القائمة على نظام المناوبات في مخيمات اللاجئين ، وانتهاء بالجامعات ، ان أي شخص أتيح له ان يتحدث بهؤلاء الناس ، يعرف مقدار الكذب في « التأكيد »

حرة » في ظل ضمانات دولية ، يمكن للراغبين من الشعب اليهودي العودة اليها ، ليحققوا فيها خلاصهم ، بسمل عن اي تدخل من قبل الاجناس والاديان المغايرة » . لقد اخفق الحزب في أن يدرك أن ما كانوا يفعلونه بالضبط ، هو تقديم فلسطين الى جماعات تنتمي الى دين مغاير وجنس مغاير ، كانت تستهدف ليس فقط التدخل في حياة السكان المحليين الفلسطينيين ، بل وطردهم خارجا . ومما يضفي على المسألة روح المغارقة والسخرية ، العبارة التالية التي وردت في البيان : « ليس هناك من معنى لاعلان حقوق الشعوب في تقرير المصير ، اذا ما ترك هذا الحق تحت رحمة انتهاكات جديدة ، ولم يشمل بحماية سلطة دولية فوئية » .

لكننا نعلم من وقائع التاريخ عن اعتداءات الصهيونيين النامية وانتهاكاتهم الفظة لحقوق شعوب فلسطين والبلدان المجاورة في ان تقرر مصيرها ، وازدراءهم لـ ، وخروجهم على ، مساعي السلطة الدولية الفوئية ، هيئة الامم المتحدة ، لحماية هذه الحقوق . وهكذا تبنى حزب العمال - بتأثير النفوذ الصهيوني - مواقف ازدواجية حيال الشرق الاوسط في عام تصريح بلفور ، رغم انه يمكن القول - بهدف التلطيف والتخفيف - ان المقاصد الحقيقية للصهيونية لم تكن قد فهمت على نطاق واسع في ذلك الوقت ، كما لم يكن قد توفر استيعاب والملم بما في مصطلحات ومفردات اللغة الصهيونية من الفواء .

ومنذ انضمام « عمال صهيون » الى حزب العمال البريطاني ، تدفق سيل عارم من القرارات على مؤتمرات الحزب ، كما كان انضمامهم نقطة انطلاق لولادة العديد من منظمات الواجهة الصهيونية : المكتب السياسي ، جماعة الدراسات الفلسطينية في حزب العمال ، مجلس فلسطين العمالي السياسي ، بالإضافة الى جماعات شبيبة متنوعة ، وأصدقاء اسرائيل في حزب العمال ، الى آخره . . الى آخره !

واستنادا الى السجلات ، لم يكن هناك اي نائب من حزب العمال ، قد أثار في مجلس العموم قضية فلسطين ، لكن العام ١٩٢٠ شهد بداية سيل ثابت من الاسئلة الموجهة بها من الصهيونية ، في مجلس العموم . ولم يمض وقت طويل ، ففي العام ١٩٢٢ التي أول خطاب في مجلس العموم عن قضية

عدة سنوات في الشرق الأوسط ، يطلب إعادة تقدير الموقف برمته . وقال في خطاب بارز الأهمية : « إذا نظر المرء الى الشرقيين الأدنى والأوسط ، أمكن له ان يقول بصدق اننا استطعنا بشكل عام ان نرسم سياسات تقوم على التشاور ومحاوله تلبية رغبات السكان في هذه البلدان ، باستثناء بلد واحد هو فلسطين . ذلك اننا في فلسطين نتجاهل كليا رغبات شعبها (. . .) ان تعداد السكان يبلغ حوالي ٧٥٠ ألفا ، بينهم ٦٥٠ ألفا من المسلمين . وان نحو ٥٠ او ٦٠ ألفا من المسيحيين ، والبقية من اليهود . ومما لا ريب فيه قطعيا ان المسلمين والمسيحيين في فلسطين معادون بقوة لاجل السياسة الصهيونية في فلسطين . كما ان هناك عددا لا بأس به من اليهود الارثوذكس يعارضون هذه السياسة . ان أكثر من تسعين بالمائة من شعب فلسطين يعادي السياسة التي ننتهجها في ذلك البلد (. . .) ومن الجلي ان السياسة الراهنة تقوم على ادارة شؤون البلد بما يخدم مصالح أقلية متمتعة بامتيازات . واني لاقول موجها كلامي الى الوزير ، ان هذه سياسة اقل ما يمكن ان يقال فيها انها متناقضة لمبادئ حزبنا » .

وحين تطرق الدكتور وليامز في الخطاب نفسه الى عرض بلفور تأسيس « وطن قومي » للمهاجرين اليهود في فلسطين ، أكد ان الحجج ضد الصهيونية هي ان الشعب الفلسطيني موجود فعلا في وطنه القومي ، وانه لا توجد أية أهمية لكون هذا الشعب من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين . وخلص الى القول : « اذا كنت على صواب فيما أقول ، فمن الجلي انكم ترتكبون ظلما شديدا باخضاعكم رغبات هؤلاء الناس [الفلسطينيين] الموجودين في وطنهم القومي ، لرغبات اولئك الذين لم تكن [فلسطين] وطنيا قوميا لهم في أي يوم من الأيام » (١٢) .

وكان هناك شخص آخر رفع راية العدالة في الشرق الأوسط ، هو المستر ف. سيمور كوكس ، نائب بروكستو ديفينج أن نوتنجهامشير . فبلا جدوى حاول هذا النائب ، خلال عهد حكومة الأقلية العمالية الثانية ، أن يتقنع الحكومة بنشر المراسلات السرية التي تبودلت في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ بين سير هنري مكماهون المفوض البريطاني الاعلى في

الآنف الذكر من ناحيته . ويمكن القياس على هذه الحالة بالخط المألوف الذي تنتجه المؤسسة البريطانية ، بشأن الاضطرابات التي تحدث في ميدان الصناعة والتي يقوم بها ملايين العمال ، اذ تصور الامر على انه محدود ومحصور بفئة قليلة من « المتطرفين » ، وان الاغلبية الساحقة من العمال قانعة ومرتاحة وتحترم الوضع القائم .

كانت حكومة الأقلية العمالية الاولى التي تسلمت الحكم في اعقاب الانتخابات العامة في شهر ديسمبر - كانون الاول ١٩٢٣ ، قليلة التعاطي - نسبيا - بقضية فلسطين . كان الانتداب قد بدىء العمل به قبل ذلك بوقت قصير ، ويبدو انه في اعقاب مرحلة انشاء الانتداب التي شهدت نشاطا كثيفا ، جاءت مرحلة تفتحي الانتظار لمراقبة تطور الموقف . وحدث في أوائل أيام هذه الحكومة التي كان عمرها قصيرا ، ان سئل وزير الدولة لشؤون المستعمرات ، المستر ج. ه. توماس ، عما اذا كان أي قرار قد اتخذ بشأن مستقبل فلسطين ، فاجاب باعلان استمرار التزام الحكومة بسياسة تطبيق تصريح بلفور . ومن الأهمية بمكان في هذا المجال قوله أيضا ان الحكومة توصلت الى هذا القرار « بعد تقدير دقيق للموقف من كافة جوانبه » ، ثم انه حرص على ان يضيف انه لا يجب ان يحدث شيء يمس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في ذلك البلد (١٣) .

الذين عارضوا الصهيونية

على انه كان هناك بين أعضاء حزب العمال من هموا طبيعة الصهيونية في وقت مبكر ، أي منذ الأيام الاولى التي بدأت بتوجيه ضغوطها على الحزب . ويسمى هؤلاء الى كشف التناقضات في الموقف الذي كانت الصهيونية تقود الحزب اليه بدهاء . وكان هؤلاء فئة في عددهم من ناحية ، ولم يعطهم الحزب - من الناحية الاخرى - غير أقل التفات واكترات . ودخلت ثلاثينات هذا القرن قبل ان يرتفع أي صوت في مؤتمرات حزب العمال ، لكن كان هناك ثواب عماليون لم يترددوا في رفع أصواتهم في البرلمان ، منذ عهد حكومة الأقلية الاولى .

ها هو المستر ت. اس. بي. وليامز ، النائب العمالي عن لامبيث كينجتون ، والطبيب ، والجندي الذي قضى في وقت سابق

٦٠٠ جريح من كلا الطرفين اليهود والعرب ، وهكذا وجد سيدني ويب نفسه متورطا في المشكلة . ثم انه اصبح على الفور هدفا للضغوط الصهيونية .

كتبت بياتريس ويب في يومياتها في الثاني من سبتمبر - ايلول ١٩٢٩ : « استيقظ مذعورا على الاحداث المفجعة في فلسطين ، وحوله كان اليهود وأنصار اليهود ، من الكبار والصغار ، يتحركون ويضحجون ويئزون وهم في حالة من الهياج والاسى العنيف ، مطالبين بالانتقام والتعويض . ومما هو جدير بالملاحظة ، انه لم يكن هناك قط أي ممثل للعرب ، ولا حتى نصر واحد للعرب ، ظهر ولو صدفة وعرضا » .

كتب الدكتور دراموند شيلدز (الذي حمل لقب سر فيها بعد) ، نائب منطقة ادنبره ايسن ووكيل وزارة الدولة لشؤون المستعمرات ، كتب في وقت لاحق يقول انه « لم تكن هناك قط اية فرصة للراحة او التهرب » من قضية فلسطين : « وكان ممثلو الصهيوينيين في لندن يطلبون بلا انقطاع اجراء مقابلات مع وزير الدولة ، ومع رئيس قسم فلسطين (. . .) وكانت هناك حملة دعاوية صهيونية عنيفة في الصحافة وفي البرلمان . لم تكن هناك أية وكالة عربية او تمثيل للعرب في لندن في ذلك الحين ، ولم يكن هناك أي طرف يعرض القضية العربية على الرأي العام (. . .) ولم يكن هناك سوى صوت الجانب الصهيوني في قضية فلسطين يردده في كل مكان ، وكان هذا الجانب الصهيوني يوجه ضغطه بلا هوادة على مكتب المستعمرات ، سواء من خلال أعضاء البرلمان او غيرهم (. . .) ومن اليسير ان تتخيل ان سيدني ويب وجد المسألة عويصة . لقد كانت هذه قضية تعطل فيها أي حوار عقلاني » (١٥) .

وحاول ويب ان يكون عقلانيا في الكتاب الابيض الذي أصدره ، الوثيقة الرقم ٣٦٩٢ ، والذي نشر في اكتوبر - تشرين الاول ١٩٣٠ . كان هذا الكتاب بيانا سياسيا بارزا ، نتج عن تحقيق دقيق وتقييم متمم بعد دراسة واعية لدقائق الامور على الطريقة الغاببية ، بقيادة الجمعية الغاببية . واحتوى الكتاب الابيض على اول اعتراف من الحكومة البريطانية بما نزل بالفلسطينيين من مظالم ، وأكد بقوة ان الحكومة ملزمة بحماية مصالح الفلسطينيين مظلما هي ملزمة بتأييد الهجرة اليهودية . وعرض

مصر ، وبين حسين ، شريف مكة ، الناطق المسلم به باسم القضية العربية ، تلك المراسلات التي توصلت الى اتفاقية تعهدت فيها بريطانيا بالاعتراف بمساعدة استقلال العرب ، بعد اندحار تركيا ، لقاء دعم العرب لبريطانيا في الحرب [العالمية الاولى] .

وادعى ونستون تشرشل ، عام ١٩٢٢ ، عندما كان وزيرا للدولة لشؤون المستعمرات ، ان عهد مكماهون لم تشتعل على فلسطين (١٦) . وأشار سيهور كوكس الى ان ادعاء تشرشل لا يستند الى ما جرى في المراسلات ، واقتبس مقاطع تظهر حيازته لنسخ مضبوطة من المراسلات التي كانت حتى ذلك الحين وثائق مكتومة . ومن الواضح الان ، ان تشرشل كان يضل البرلمان بمحاولته تبرير السياسات الإزدواجية ازاء الشرق الاوسط ، التي انتهجتها الحكومات الائتلافية برئاسة ديفيد لويد جورج خلال الحرب وفي اقبائها .

وبين سيهور كوكس ان اليهود قطعها بريطانيا للعرب قبل تصريح بلفور بعامين ، وان تلك العهد كانت تتعارض بصورة مطلقة مع ادعاء الصهيوينيين ان لهم حقا في ان يجعلوا من فلسطين دولة يهودية ، تماما مثلما هي انجلترا انجليزية . وأضاف سيهور كوكس : « ان كل وضعنا في بلاد الشرق ، كما يمكن لأي شخص ان يقر ويعترف ، لا يستند الى قوتنا العسكرية المجردة ، ولكنه يقوم على ايمان الشعوب الشرقية بان حكما لهم يرتكز - اجمالا - على مبادئ العدالة . لكن العرب لديهم احساس متزايد باننا حصلنا على معونتهم في الحرب لقاء ما قطعناه على انفسنا من عهد ووعود ، وان الحرب قد انتهت دون ان نبدي الرغبة بالوفاء بمهودنا ، بل تمنا بطمس وكتمان المراسلات » (١٤) .

« بيان منصف ومتوازن »

كان سيدني ويب وزير الدولة لشؤون المستعمرات في حكومة الائتلافية العمالية الثانية . كان في ذلك الحين قد اعتزل مجلس العموم في انتخابات عام ١٩٢٩ ، لكنه وافق على تسليم وزارة الدولة لشؤون المستعمرات ، والانضمام الى مجلس اللوردات باسم البارون باسفيلد . وفي اغسطس - آب ١٩٢٩ ، أي بعد تأليف الحكومة بأسابيع قليلة ، تسبب الاستنزاف الصهيوني بحوادث عنف في فلسطين ذهب ضحيتها أكثر من ٢٤٠ قتيلًا وحوالي

للادارتين البريطانية والفرنسية ، ثم أتبعته المراسلات بتصريح بلفور ، ووقفت الآن تعارض الكتاب الأبيض الذي هو اول مسعى بريطاني لمعالجة عواقب هذه الارتدادات وحنث اليهود ، وهكذا حملت مطالبة « المؤسسة » بالتزام بريطانيا بكلمتها ، كل معاني الرياء والنفاق .

وتعرض اعضاء البرلمان لضغوطات كثيفة من جانب الصهيونيين . وعندما طرح الكتاب الأبيض للنقاش في البرلمان في السابع عشر من نوفمبر - تشرين الثاني ، وقف سيمور كوكس ليكشف كيف ان « داغار » الصحيفة الصهيونية الصادرة في فلسطين كانت تعمم على اعضاء البرلمان ، وتحثهم على « فتح أبواب شرق الاردن كلياً أمام العرب الذين لا يملكون اراض ، وأمام استيطان اليهود » (انظر هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٥ ، الاعمدة ١٦٣ - ١٦٧) ، وكان ما كشفه سيمور كوكس غيضاً من فيض الضغط الصهيوني على النواب . وانطلقت مدفعية الخطابة الصهيونية في حومة الجدل . ووقف لويد جورج يرغى ويزيد ويوجه أقسى توبيخ للحكومة ، لكن خطابه الثوق كان فارغاً من أي مضمون ، وقام بدحضه وتعريته دراموند شيلدز في خطاب باهر . (انظر هانزارد [سجلات مجلس العموم] ، الاعمدة ٨٨ - ١٠٤) . والواقع ان النقاش في مجله لم تظهر فيه أية هجج مقنعة ضد الكتاب الأبيض .

الا ان رامزي مكدونالد لم يكن من ذلك الطراز من رؤساء الوزارة الذي يقف الى جانب وزيره المعنى ليشد أزره ، وكانت هناك بالاضافة الى هذا تطورات أخرى تجري وراء الكواليس . كان النجم الصاعد في حزب العمال في ذلك الحين البروفيسور هارولد لاسكي ، الذي كانت تربطه علاقات وثيقة بقيادة الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة . وقام لاسكي بمقابلة ارثر هندرسون وزير الخارجية سرا ، ثم قابل مكدونالد الذي طلب اليه « ان يؤكد لاصدقائه الامريكيين ان الحكومة البريطانية سوف تبذل كل ما في طاقتها لتتصرف بطريقة منصفة » . لكن لاسكي رفض ان يفعل هذا « ما لم يتم مكدونالد بعزل سيدني ويب ، او ان يسحب الكتاب الأبيض » (١٦) .

والذي حدث ان الاشراف على السياسة المتعلقة بفلسطين نقل من يد سيدني ويب ، الى لجنة من

الكتاب ضرورة توفير اموال لاشغال الري والتجفيف في الاراضي . وقال دراموند شيلدز تحت ذلك العرض : « لا بد من عمل شيء للطبقة الدنيا من العرب الريفيين الذين اصبحوا بلا ارض ، والذين أصبح قسم منهم في ذلك الوضع نتيجة لقيام اليهود بشراء الارض لصالحهم وانتفاعهم . ولا بد بعد ذلك من توزيع الارض بين اليهود والعرب » . ولخص شيلدز رأيه في الكتاب الأبيض بهذه العبارة : « لقد قدم الكتاب الأبيض كما يوسع المرء ان يتوقع من وثيقة خرجت من بين يدي سيدني ويب ، بياناً منصفاً ومتوازناً بشأن الوضع في فلسطين » .

وأعلن الكتاب الأبيض : « لقد حاول البعض ان يجادل ، تعريزاً للادعاءات الصهيونية ، بأن الفقرات المتعلقة بالوطن القومي اليهودي هي المحور الرئيسي لصك الانتداب ، وبأن الفقرات التي تستهدف ضمان مصالح غير اليهود ، انما هي اضافات ثانوية تقيد ، الى حد ما ، ما يزعم بأنه الغرض الاساسي الذي وضع صك الانتداب لتحقيقه . ان حكومة جلالته كانت ولا تزال تعتبر هذا المفهوم لصك الانتداب خطأ كلياً » .

كان الكتاب الأبيض بالنسبة للصهيونيين كفراً ولعنة . فبالنسبة اليهم ان السياسة الوحيدة التي يقبلونها على انها منصفة ومتوازنة ، تعني الانصياع غير المشروط لمطالبهم . ولهذا كان رد فعلهم على الكتاب الأبيض عداثياً ، وتصدت له المنظمة الصهيونية العمالية على امتداد فروعها ، بالنقد والهجوم . ونظمت تظاهرات ضد القنصليات البريطانية في كل مكان بدءاً من وارسو وانتهاء بشيكاغو . وانهمرت على الحكومة برقيات الشجب ، في غضون ساعات قليلة من نشر الكتاب الأبيض ، الامر الذي يدل على ان مرسلها لم يكونوا حقاً قد تمكنوا من قراءة الوثيقة التي عاجلوا بادانتها .

وكانت هناك أيضاً حملة صحافية كثيفة منظمة ، وانضمت المؤسسة البريطانية الى الحملة ، رغبة في اصطياد الفرصة واستغلال اية مناسبة او مسألة يمكن ان تسيء الى حزب العمال وتشوه صورته . وكان الخط الذي قامت عليه الحملة « ان بريطانيا لا يجوز ان تحث بكلمتها » . وكانت المؤسسة البريطانية قد حنثت بكلمتها اذ الحققت مراسلات مكماهون بانفاقية سايكس - بيكو السرية لتقسيم الشرق الاوسط ، الى مناطق تخضع

وراء تحويل حزب العمال الى أداة تسعى لتحقيق الاشتراكية عبر الديمقراطية البرلمانية ومن خلال ارادة الشعب . وكان من رأيه دائما ان السياسة يجب ان تبنى على دراسة معمقة وعين كُتب للوقائع ، لا على الآراء المسبقة والمعلومات الناقصة . وحين سعى الى تطبيق هذا المبدأ على فلسطين ، قام الصهيونيون بتدمير جهوده لانهم كانوا قد شددوا قبضتهم الخائفة على الحزب الذي كان ويب قد صنع الكثير من اجل انشائه وبنائه ، ووجد ويب نفسه محقرا على الملا .

وغير سيدني ويب بالاستقالة . وشعر أصدقاؤه الحميمون وزملاؤه بالأشمزاز من الطريقة الجائرة والخسيسة التي عومل بها ، لكنه لم يستقل ، حرصا على وضع حكومة الائتلية العمالية الدقيق ، وولاء لقضايا أشمل ، وكان أسف محبيه عظيما لانه لم يستقل . كتبت بيساتريس في يومياتها في الرابع عشر من ديسمبر - كانون الاول ١٩٢٠ : « يرغب سيدني في الاعتزال . وحيث انه لا بد من وجود وزير دولة في مجلس اللوردات ، فان استقالته ستزعج مكدونالد ، كما انها سوف تحتسب انتصارا لليهود على العرب ، الامر الذي قد يخلق متاعبه في فلسطين » . لقد كان يوسعه ان يستقيل . وان يحول المسألة الى حملة كتابية واسعة ، لكن مثل هذه الطرائق في العمل والنشاط لم تكن من طبيعه ومزاجه ، ثم انه كان ، على أي حال ، يقترب من بلوغ الواحدة والسبعين ، وكان في الواقع راغبا في التقاعد حتى قبل وقوع هذه الاحداث الخطيرة .

وكان هذا انتصارا للصهيونيين ، وكبئل أي انتصار آخر لهم ، فانه أدى الى وقوع المزيد من الاضطرابات في فلسطين . أما بالنسبة لمكدونالد ، فان تواطؤه مع الصهيونيين سبق تواطؤه مع قادة حزبي المحافظين والاحرار ، وان خيانتة لسيدني ويب تثنتها خيانتة لحزب العمال مما قاد الحزب الى الهزيمة البادحة في الانتخابات العامة في اكتوبر - تشرين الاول ١٩٢١ .

الصهيونيون يمسكون بخناق الحزب

تمكن الصهيونيون خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، من تشديد قبضتهم أكثر وأكثر على حزب العمال البريطاني ، الى درجة انه صار في وسعهم ان يرسموا سياساته ازاء الشرق

مجلس الوزراء باشرت على الفور بإجراء اتصال بقيادة الصهيونية ، وشرعت باعداد رسالة مطولة الى حاييم وايزمان ، كانت في الواقع تنكرا كاملا للكتاب الابيض وتخلياً عنه . وأصبحت مسودة الرسالة جاهزة في فبراير - شباط ١٩٢١ . وكتب لاسكي الى صديقه نيلس فرانكفورتر احد قادة الصهيونية في الولايات المتحدة ، والذي أصبح فيما بعد قاضيا في المحكمة العليا ، يقول : « لقد أنهيت وهندرسون المسودة النهائية للوثيقة ليلة الثلاثاء » (١٧) . وفي الحادي عشر من فبراير - شباط ، وقف ألراند البحري جي . م . كنورثي (الذي أصبح فيما بعد اللورد سترابولجي) ، وهو نائب مكرس لخدمة الصهيونية ، وكان يعرف جيدا كل خفايا اعمال اللجنة الوزارية المشار اليها المعنية بقضية فلسطين ، وقف يسأل مكدونالد اذا كان لديه اي بيان بشأن السياسة في فلسطين ، وما اذا كان هناك كتاب ابيض آخر قيد الاصدار (هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٨ ، العمود ٢٨٩) .

اجتمعت الحكومة بضع ساعات قبل ان يحين موعد الرد على السؤال ، وهيئت على اعضاء الحكومة حالة شاملة تقارب الرعب . وكان الرد : « جوابا لسؤال في البرلمان طرح بعد الظهر ، يود رئيس الوزراء ان يوضح ان لجنة وزارية تقوم بتبادل الآراء مع قادة الصهيونية فيما يتعلق بتفسير بعض الفقرات في البيان السياسي الذي تقدمته الحكومة أمام البرلمان في اكتوبر - تشرين الاول الماضي . والاقتراح الوارد يقتضي تضمين التفسيرات التي تم التوصل اليها في رسالة توجه الى الدكتور وايزمان ، وهذه الرسالة ستسلم للصحف . واذا كانت هناك حاجة قموى لتقديمها الى البرلمان ، فان رئيس الوزراء يشير الى انه سوف يوزع نسخا من تلك الرسالة مع اجراء التصويت . وانه سوف يوافق في الحالة الاخيرة فقط على نشر الرسالة ككتاب ابيض » (١٨) .

والذي حدث ، ان الرسالة نشرت بعد ذلك بيومين في هانزارد ، ردا على كتاب خطي من كنورثي (هانزارد ، المجلد الرقم ٢٤٨ ، الاعمدة ٧٥١ - ٧٥٧) ، واكمل التقرير بسيدني ويب .

كان سيدني ويب من اعظم رواد الاشتراكية البريطانية . ووقف ذكاؤه اللامع وقدرته العقلية على توليد الافكار العملية ، أكثر من أي شيء آخر ،

هتشينسون نائب حزب العمال من دائرة روشولم ، الذي قال : « ان ما يجري في فلسطين ، هو صراع يقف في جانب منه العمال والفلاحون العرب ، وفي الجانب الاخر تكتل يتألف من الاقطاعيين العرب ، والامبرياليين البريطانيين والرأسماليين اليهود الصهيونيين (. . .) اني لأؤمن بأن المبدأ الصهيوني باتمامه وطن قومي لليهود ، هو في أساسه مفهوم رجعي ، من وجهة نظر اشتراكية » .

لكن الاقتراح تلالى عند رفع الايدي . وانصر اقتراح صهيوني ، بصورة كاسحة ، وقدم بالنيابة عن اللجنة التنفيذية الوطنية ، ونال تزيكاً أخرى من عمال صهيون (١٩) .

وفي مايو - ايار ١٩٤٠ ، بينما كانت ألمانيا النازية تكتسح غرب أوروبا بالحرب الخاطفة ، تشكلت الحكومة الائتلافية في بريطانيا برئاسة ونستون تشرشل ، وتولى وزراء حزب العمال عدداً من الوزارات المهمة . وبعد تشكيل الائتلاف الحاكم بأيام ثلث ، انعقد مؤتمر حزب العمال في بورنماوث . واقترح سي. هامبرلي عن فرع حزب العمال في وذنجتون ، تعديلاً لاقتراح صهيوني : « ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين لا يمكن ان يوفر حلاً كافياً للمشكلة اليهودية ، ومن الجهة الأخرى ، ان يتمكن من تأمين الاعتراف بحق العرب » .

ومرة أخرى ، أثنى لستر هتشينسون على تعديل هامبرلي باسم حزب العمال في روشولم ، وقال : « اني اعتقد بأن فلسطين نموذج ممتاز للسياسة الامبريالية « فرق تسد » . ففي مطلع الحرب الماضية حصل البريطانيون على دعم العرب ضد الاتراك ، بعد أن قطعوا لهم عهداً باتمامه مملكة عربية مستقلة . وحين احتاج البريطانيون مساندة المتولين اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية ، دعموا بفكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين . ولقد حققوا لليهود وطناً قومياً ، والان عادوا الى العرب من جديد . اننا نريد ان نقول ان الحركة العمالية لن تجيز هذا اللعب بشعب ضد شعب آخر ، بالطريقة التي يجري بها هذا اللعب في فلسطين وفي الهند وفي ايرلندا » .

اتقد هزم التعديل ، وغاز الاقتراح الاصلي الصهيوني « بأكثرية ساحقة للغاية » (٢٠) .

وفي مؤتمر عام ١٩٤٤ الذي انعقد في ديسمبر -

الايوسط . وكان العالم قد بدأ بالنتبه - في اواخر الثلاثينات - الى المراحل المبكرة من عملية اضطهاد النازيين للامان اليهود . وكان حزب العمال البريطاني على نفور من الفاشية عموماً ، لكن هذا الجانب بالذات من النازية - أي موقفها الاضطهادي من اليهود ، لاقى الاهتمام الاعظم ، واستغل الصهاينة بكل براعة هذه المسألة لما يخدم مصالحهم الخاصة . كانت أساليب الصهيونيين الاكثر تقدماً في فلسطين ، في تجريد الاهالي من اراضيهم ، مستورة وراء التاكيد الكاذب بأن الشعب العربي العامل يرحب بهم ، وان شيوخ الاقطاع وخدمهم يعارضونهم ، وانهم انما كانوا يبنون مجتمعاً اشتراكياً في فلسطين . وفي مؤتمرات حزب العمال السنوية ، كانت هناك أصوات ترتفع معترضة وشاجبة ، عاكسة أصداء التوجه المتوازن والمعقول الذي رسمه سيدني ويب ، لكن هذه الاصوات كانت كسابقاتها ، ضئيلة في عددها ، هزيلة في ما تخلفه من اهتمام وتأثير .

وفي عام ١٩٣٦ اشتملت « الثورة العربية » في فلسطين ، وفي اكتوبر - تشرين الاول من ذلك العام ، وقف اليكس جوسيب في مؤتمر حزب العمال في ادنبره ، يتحدث باسم اتحاد نقابات عمال الآثاث ، فقال : « ايماناً بأن مصالح الشغيلة اليهود والعرب في فلسطين واحدة ، وان المستغلين من الرأسماليين والاقطاعيين اليهود والعرب هم أهداء كل منهما ، فان هذا المؤتمر السنوي لحزب العمال يعرب عن عيبك أسفه لان عمال فلسطين سمحوا لانفسهم بأن يستغلوا كأدوات بيد قامعهم المشتركين ، ويحثهم على رص الصفوف للوقوف أمام الطبقات التي تستغل كلا الجنسين » .

وبعد ان أشار جوسيب في خطابه الى اضطهاد الفاشيين لليهود ، مضى الى القول : « ان العرب يقيمون في فلسطين منذ اكثر من الف عام . ولم يطلب أحد موافقتهم . ولم يتم احد بأخذ رأيهم بعين الاعتبار ، واني كعدو للامبريالية أفتأ أباكم لاهلن ، باسم الاقلية الساحقة من اعضاء اتحادنا ، اننا نشجب بأقصى قدر من القوة ، هذه المكيدة التأميرية التي تدبرها الحكومة البريطانية ، مستفيدة من المصاعب التي أحافت برفاقتنا اليهود ، من أجل ان تخدم مصالحها الخاصة » .

ولقد أثنى على هذا الاقتراح ه. لستر

كما سجل مؤتمر بلتيمور استبدال حايم وايزمان كقائد للحركة الصهيونية العالمية بشخص آخر أكثر تسوية ، هو دافيد بن جوريون الذي كان قد دعا منذ وقت بعيد إلى فتح أبواب شرق الأردن أمام العرب الذين كان بن جوريون منهمكا بتجريدهم من أراضيهم في فلسطين طيلة أعوام وأعوام . وكان هذا الرأي لبن جوريون قد جرى تعميمه على أعضاء البرلمان البريطاني في مطلع الثلاثينات ، عندما كان الكتاب الأبيض الذي أصدره سيدني ويسب ، موضع بحث ومراجعة . وعلى هذا نرى ان قرار حزب العمال البريطاني في عام ١٩٤٤ الذي أوردنا نصه قبل قليل ، كان انعكاسا امينا لسياسة بن جوريون الحقيقية ، التي أمكن لبن جوريون أن يمررها ويعطلها ، نتيجة لنفوذه المهيمن داخل حزب العمال البريطاني .

حكومة ١٩٤٥

لم تكن قد انقضت غير أيام قليلة من تسليم الحكومة العمالية للسلطة بعد النصر العظيم في الانتخابات العامة عام ١٩٤٥ ، عندما تعرضت الحكومة العمالية لهجمة صهيونية . ذلك ان دافيد بن جوريون توجه على رأس وفد ، الى وزارة المستعمرات الجديدة في « جورج هول » طالبا بلفة استقرازية ، تأمين الهجرة الفورية لمائة ألف يهودي الى فلسطين ، واصدار بيان علني فوري يؤكد ضرورة تحويل فلسطين الى دولة يهودية . ومن ناحية أخرى جاءت رسالة من واشنطن بعث بها الرئيس ترومان ، الى كليمنت اتلي رئيس الوزراء البريطاني ، تكرر الطلب الخاص بالمائة ألف مهاجر .

المائة ألف كان رقما تخمينيا لعدد اليهود الذين بقوا على قيد الحياة في معسكرات الشغل النازية ، والذين كانوا قد اصبحوا بلا وضع قانوني محدد ، انهم ضحايا النازية الذين اصبحوا مخالبي الصهيونية . ولم يكن طلب تهجيرهم الى فلسطين تابعا من الرغبة في انتقاذهم مما هم فيه من عناء ، بل جزءا من الهدف الإبعاد الرامي الى تأمين استيطان غير محدود او مشروط في فلسطين ، وكانت الإدارة الحاكمة في الولايات المتحدة حريصة على عدم هجرتهم الى الولايات المتحدة ، ولهذا فانها كانت تدعم بكل سعادة المطلب الصهيوني بتهجيرهم الى فلسطين ، ودون ان تراعي ما ستتحمل

كانون الاول في القاعة المركزية في وستمنستر ، تبنى الحزب السياسة التالية المقترحة في تقرير اللجنة التنفيذية الوطنية : « فلسطين : هنا في هذه القضية توقفنا في منتصف الطريق ، حائرين بين السياسات المتنازعة . لكن الذي أمكن لنا تأكيدده هو عدم توفر أي أمل او معنى في « وطن تومي يهودي » ما لم نكن مستعدين لنتيح لليهود ، اذا ما رغبوا ، ان يدخلوا الى هذا البلد الصغير [فلسطين] بأعداد تؤمن لهم ان يصبحوا اكرية السكان . لقد كانت الحججة قوية لسلوك هذا السبيل قبل الحرب . أما الان فلقد أصبحت الدواعي تاطمة وثابتة ، يعد الفظائع الشريرة التي تتجاوز في وحشتها حدود الوصف ، الناجمة عن المخطط الألماني النازي المبيت والمعتمد لتقتل جميع اليهود في أوروبا . وان لدينا هنا في فلسطين أيضا ما يدعو بالتأكيد - لاسباب انسانية ولاقامة تسوية مستقرة - الى نقل السكان . فلنشجع العرب على الخروج من البلد فيما نشجع اليهود على دخولها . ولنعرض العرب بسخاء لمن أراضيهم ، ولتكن اقامتهم في اي مكان آخر حسنة التنظيم ، وكريمة التحويل . ان لدى العرب مساحات شاسعة من الأراضي ، وليس لهم ان يطالبوا بإبعاد اليهود عن هذه المساحة الضخمة من فلسطين التي تقل مساحتها عن مساحة ويلز . والواقع ان علينا فعلا ان نعوم بدراسة امكان توسيع الحدود الراهنة لفلسطين ، بالاتفاق مع مصر وسوريا وشرق الأردن . ويتوجب علينا بالاضافة الى هذا كله ، السعي لدى حكومتي الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي لنيل تعاطفهما الكامل مع هذه السياسة في فلسطين ، ودعمها التام في اطار التنفيذ « (٢١) .

وهكذا نرى ان هذا البيان المذهل قد مضى في دعبه وتأييده للصهيونية الى حدود تجاوزت حتى الاهداف المعلنة للحركة الصهيونية نفسها ، رغم ان الحركة الصهيونية كانت قد صرحت أخيرا ، وذلك في عام ١٩٤٢ في مؤتمر انعقد في فندق بلتيمور في نيويورك ، بمطلبها تأسيس دولة يهودية في فلسطين . وكانت هناك وراء مطلب بلتيمور ، كما كتب جون هـ. ديفيس في كتابه « السلام المراوغ » (الصفحة ٣٤) : « استراتيجية لاستقاط السياسة البريطانية ذات الطابع الدفاعي ، وذلك باستخدام قيادة صهيونية هجومية من الولايات المتحدة » .

واشتدت الحملة الصهيونية على الحكومة البريطانية العمالية ، خلال تلك الفترة ، سواء داخل حزب العمال أو خارجه . وفي المؤتمر السنوي المنعقد في يونيو - حزيران من عام ١٩٤٦ في بورنماوث ، دعا قرار لعمال صهيون بشأن فلسطين الى « المساواة التامة بين حقوق جميع السكان من يهود وعرب » ، ودعا مع ذلك الى هجرة يهودية غير مقيدة الى فلسطين ، والى انشاء دولة يهودية (٢٣) . وبعد الجدل سحب هذا الاقتراح ، لكن المؤتمر التالي الذي انعقد في مارجيت في (مايو - أيار من السنة التالية (١٩٤٧) ، بنى قرارا مطولا لعمال صهيون اورد القرارات الصهيونية المتخذة بين ١٩٢٩ و ١٩٤٤ ، وبينما تحاشى هذا القرار ان يذكر بصراحة مطلب اقامة دولة يهودية في فلسطين ، فانه طلب الى الحكومة « ان تلتزم في تصرفاتها بروحية هذه البيانات ، سواء في غضون الفترة الفاصلة الى ان تتخذ هيئة الامم المتحدة قرارا نهائيا ، او لدى عرض الحكومة البريطانية لموقفها امام الامم المتحدة » (٢٤) .

عند تقديم ذلك الاقتراح ، جرى تطوير القرار بشأنه بطريقة اجرائية قد تكون موحى بها - وقد لا تكون - من خطة الحزب . ان تقرير المؤتمر يذكر على الصفحة ١٨٢ : « فيما يتعلق باقتراح عمال صهيون المقدم ، طرح احد المتدربين المسألة السابقة ، ونال تذكية ، وجرى تبنيه » .

وراء الكواليس

كان الصهيونيون ، بالاضافة الى نشاطهم العام الملثي الكثيف ، يمارسون ضغوطات ثقيلة وراء « الكواليس » . هارولد لاسكي الذي كان قد لعب ذلك الدور الرئيسي بالخفاء ضد سيدني ويب ، كان عضوا في اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني منذ ١٩٣٦ ، ثم اصبح رئيسا للحزب بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٦ . وماود الان نشاطه وتحركه ضد بعض اعضاء الحكومة بالطريقة نفسها التي تحرك بها في ١٩٣٠ . وفي خريف ١٩٤٥ كتب الى صديقه الامريكى الصهيوني فيلكس فرانكفورت ، ييلفه انه كان يحاول تنظيم «معارضة داخلية لحاربه اطي - بيغن اللذين خاننا اليهود » . والواقع ان ما كان يحاول تحقيقه هو ان ينظم اللجنة التنفيذية الوطنية بصورة تجعل منها قوة ضاغطة على الحكومة لاجراها على انتهاج الخط

بريطانيا من اعباء في هذا الشأن .

خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية ، وهي بلا منازع اعظم قوة اقتصادية وعسكرية في العالم . وخرجت بريطانيا منتصرة وعلى رأسها اكليل الفار ، انما مغلسة . وبقي معظم الشعب البريطاني عتدين من الزمان تقريبا يتغذى بأوهام العظمة الإمبريالية ، لكن الحقيقة ان دور بريطانيا كحكم في الشؤون الدولية كان قد انتهى فعلا .

وتعرض النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط للهجمات من كل حذب وصوب . لقد سعى الفلسطينيون الى تقليص هذا النفوذ رغبة بتحقيق استقلالهم . وسمنت الاقطار العربية الاخرى الى الحد منه لانها كانت تنتقل من الكولونيالية الى الاستقلالية . و اراد الصهيونيون الانتقاص منه لانهم كانوا عازمين على انشاء دولة يهودية . ورغبت الولايات المتحدة بتقليصه لانها كانت مطية للنفوذ الصهيوني ، ولانها كانت ترتاب في حزب العمال البريطاني ، ولانها كانت تعد الترتيبات الخاصة بالحرب الباردة . واصبحت بريطانيا لمي ظل هذا الوضع ، عاجزة عن فرض اية تسوية .

واذا صرفنا النظر عن القيود التي فرضتها الحقائق السياسية لعالم ما بعد الحرب على حجم بريطانيا ، فان الحكومة العمالية في بريطانيا واجهت كذلك معضلة اخلاقية شبيهة بالمآزق الذي وقعت فيه حكومات الاقلية العمالية قبل الحرب . فمن ناحية ، كانت الحكومة ملتزمة بما أصدره الحزب من سياسات تضمنت بيانات صهيونية ، قبل استلام السلطة ، ومن الناحية الاخرى ، ان تطبيق هذه السياسات الان وبعد أن اصبح العمال في السلطة ، وعلى حساب شعب فلسطين ، أمر يتعارض كلياً وثلثاً الحزب الاساسية القائمة على العدالة الاجتماعية . وفي النهاية لم يكن أمام وزير الخارجية ارتست بيغن ، غير ان يعلن اخفاق جميع مجهودات الحكومة « التي بذلتها بداب متواصل » ، بخفا عن حل ، وأن المخرج الوحيد المفتوح امام الحكومة هو طرح المشكلة على هيئة الامم المتحدة (٢٥) . وادى تتابع الاحداث التالية الى اعلان اسرائيل لقيامها ذاتيا ، بالتواطؤ الخفي مع ادارة ترومان في الولايات المتحدة ، في الرابع عشر من مايو - أيار ١٩٤٨ .

البيسبول ، استقبلته تظاهرات عنيفة مجرى تهريبه خوفا على سلامته . ونشرت الصحافة الامريكية على اوسع نطاق رأيا يقول انه « كان من العسير الاختيار بين المجرمين المعادين للسامية ارنست بينغ وادولف هتلر » (٢٦).

من الاساليب الصهيونية المفضلة ، المعادلة بين معارضة الصهيونية وبين معاداة اليهود كيهود ، ودمج نقاد الصهيونية بتهمة « اللاسامية » أو « معاداة السامية » . والواقع ان من الآثار المترتبة على النازية ، ان الاتهام باللاسامية أصبح سلاحا ماضيا من اسلحة التشهير والتحويل . ومؤخرا ، ويعمد تكاثر عدد اليهود أنفسهم المتسائلين عن الادعاءات الصهيونية ، يبدو ان الاتهام بمعاداة السامية قد استبدل بالاتهام الاكثر صراحة في عصره ، وهو اتهام « مناصر للعرب » الذي يمكن مقارنته بـ « مناصر للعبيد » *.

والواقع ان الصهيونيين ، في غمرة الاحداث والتطورات التي انتهت باتشاء دولة اسرائيل على تراب فلسطين ، لم يسيئوا معاملة معارضيههم فقط ، فكثيرا ما حدث ان اساءوا معاملة اصدقائهم بالمقدار نفسه . كان هيرت موريسون اجد اشد الصهيونيين حماسة في الحكومة العمالية عام ١٩٤٥ ، وكتب رواية سيرته يقولون : « لقد استخدم الصهيونيون موريسون الى حد بعيد » . لكن استغلالهم الوقح له ، انكشف مؤخرا بتسلم الكولونيل ريفلين رئيس تحرير مجلة الجيش الاسرائيلي الشهرية . والقصة ان الهاجاناه ، الجيش اليهودي السري ، اعتاد تهريب الاسلحة الى فلسطين بواسطة اشخاص متعددين . وحين جاء هيرت موريسون ، ادخلت الهاجاناه حقيبة ملاء بالاسلحة باعتبارها احدى حقائب موريسون ، ودون ان يعرف موريسون ، وتسلمها الراهبي كاتريل كاتز » (٢٧).

الصهيونية في مجدها العالي

عندما توأطا حزب المحافظين البريطاني مع كل من فرنسا واسرائيل في عام ١٩٥٦ لغزو مصر ، تتر حزب العمال معارضة حرب السويس برغم النفوذ الصهيوني القوي في الحزب . وكان ذلك

الصهيوني فيما يتعلق بمسألة فلسطين .

والحقيقة ان هارولد لاسكي لم ينجح في مساعيه هذه ، رغم انه « حصل على ترخيص » من اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب ، في مناسبتين ، كي يتوجه مع وفد من الحزب الى ارنست بينغ ليعرض امامه « بلغة حازمة وغير ودية » تضيته التي لم يتمكن من جمع آراء اللجنة وراء حولها . ولقد هدد بالاستقالة من اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب مرتين . وفي سبتمبر - ايلول ١٩٤٧ ، دعيت لجنة الشؤون الدولية الفرعية التابعة للجنة التنفيذية الوطنية ، الى اجتماع بتحريض ووسوسة لاسكي ، و « بناء لاقتراح ناي بينغ المدعوم بقوة من جانب شينويل » ، اوصى الاجتماع للجنة التنفيذية الوطنية للحزب بكامل هيئتها ، بان تحت الحكومة على انتهاج الخط الصهيوني . وفي عام ١٩٤٧ كتب لاسكي الى فرانكفورت يقول انه تبادل رسائل « غاضبة ومقيمة » مع اطي ، و « مهاترات واتهامات تاسية » مع بينغ ، و « ان ارنست بينغ قد وصل في عدائه للسامية الى مرحلة بعيدة للغاية » (٢٥).

وكان ذلك الزعم (اي اتهام بينغ باللاسامية) ، مجرد طرف صغير من الحيلة الشرسة التي شنت ضد بينغ . وان كاتب سيرة لاسكي نفسه ، اي كينجزي مسارتن ، كان صهيونيا قضى كل السنوات الطوال التي تولى خلالها تحرير صحيفة « نيوسيتيسمان » في بناء هذه الصحيفة للصهيونية . وفي كتابه الذي سجل فيه مسرة لاسكي ، كتب كينجزي عن بينغ يقول : « ان كراعية وزير الخارجية لليهود لم تكن مخفية ، لكنها كانت تتكشف بصورة مرعبة في نيويورك بالذات . وهذا الامر قدم تعزيزا للرأي القائل ان ارنست بينغ كان يتبنى سحق اليهود » .

الواقع انه لم يتوفر اي سند ملموس لهذا الادعاء . وحين زار بينغ نيويورك ليشارك في اجتماعات هيئة الامم المتحدة ، وضع نفسه في المكان غير المناسب ابدا ، واصبح ضحية لحملة صهيونية عاتية عالية التنظيم مشحونة بالتهديد والتحويل . رفض عمال ميناء نيويورك تفريغ حوائج الشخصية ، وحين توجه لحضور مباراة في

البرلمان البريطاني [أنه أفسح مجالاً لسبعة معترضين على كلام جرينيش ، وأنه كان هناك بالإضافة إلى ذلك ، أكثر من ثلاث وعشرين محاولة أخرى لمقاطعة وأخراسه (٢٨). وهناك النائبة العمالية السيدة مرجريت ماكاي التي اعتزلت النشاط في الانتخابات التالية بعد الحملة البيئية والسفينة التي تعرضت لها .

والواقع أنه كان في مجلس العموم في العام ١٩٦٧ ، وحتى في الوقت الذي بلغ فيه المد الصهيوني أقصى درجات ارتفاعه وزخمه ، رجال ونساء من حزب العمال ، اقتنوا بمسلكيتهم الآثار الجيدة لسابقهم من النواب الذين حرصوا على تحدي الصهيونية . وهؤلاء عبدوا الطريق أمام هزيمة المحاولة التي جرت لأخضاع الحزب وجعله يتحرك طبقاً للسياسة الصهيونية في أكتوبر ١٩٧٣ . وكان خطاب جرينيش شديد التأثير على نواب العمال الجدد بصورة خاصة ، الذين جاءت بهم إلى البرلمان ، الانتخابات العامة في عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والذين سمعوا الكثير منهم بما شاهدوه من غطرسة صهيونية .

قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢

بعد حرب يونيو - حزيران ١٩٦٧ ، وفي نوفمبر - تشرين الثاني من ذلك العام ، تبنى مجلس الأمن الدولي بالإجماع القرار ٢٤٢ . تقدمت بالقرار ورعته حكومة العمال البريطانية ، وكان تبنيه بالإجماع ، والموافقة عليه من كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي ، رغم معارضة كل منهما الشديدة لسياسات الدولة الأخرى في الشرق الأوسط ، انتصاراً للدبلوماسية البريطانية في ظل قيادة حزب العمال . ولا يزال هذا القرار يمثل الأساس الممكن الوحيد لايجاد تسوية . وفيما يلي النص الكامل لذلك القرار :

« أن مجلس الأمن ، إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط ، وأذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أراضٍ بواسطة الحرب ، والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمن ، وأذ يؤكد أيضاً أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقاً للمادة ٢ من الميثاق .

١ - يؤكد أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة

الموقف رصيداً إيدياً للحزب . وكانت غاية إسرائيل ضم سيناء وقطاع غزة . وجاء العدوان نتيجة لتأميم مصر لقناة السويس ، ومثل بالنسبة للمحافظين الضربة القاضية لعصر الإمبريالية .

انعدت جلسة طارئة للأمم المتحدة ، وجهت نداء لوقف الأعمال الحربية ، ووجه الرئيس اينهاور رئيس الولايات المتحدة ضغوطاً كثيفة دعماً لذلك النداء . وانسحب البريطانيون والفرنسيون بسرعة ، لكن الاسرائيليين واصلوا احتلال القطاع المصري لمدة أربعة أشهر ، ولم ينسحبوا الا بعد صدور خمسة قرارات أخرى من الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولقد وصف القائد المكدي لقوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة ، الجنرال اي . ل . م . بيرنز ، في كتابه « بين العرب والاسرائيليين » (هاراب ، لندن ، ١٩٦٢ ، الصفحة ٢٤٣) ، كيف قام الاسرائيليون ، أخيراً وبعد أن قرروا الانسحاب ، بتدمير منهجي متعمد لكل شيء وراءهم .

وفي عام ١٩٦٧ ، أي بعد عشرة أعوام من التهيئة الإعلامية والعسكرية ، شنت إسرائيل حرب ١٩٦٧ الخاطفة . ونجحت حملة اعلامية صهيونية واسعة باقناع العالم بأن « إسرائيل الصغيرة المسكينة » تتعرض لخطر الانهيار . وكان حزب العمال مرة أخرى في سدة الحكم في بريطانيا . وبلغ الضغط الصهيوني حدوداً هائلة ، بمؤازرة معظم كتلة المحافظين وصحافتهم الذين كانوا لا زالوا يتوهمون من ضربة السويس المذلة . ورغم ذلك ، فإن الحكومة العمالية ، حين جاء وقت العمل ، اعترفت بحقيقة تلاشي النفوذ البريطاني ، إلا أنها سعت مع ذلك إلى التصرف بصورة غير متحيزة . ولانطلاقة من هذه القاعدة السلبية ، تمكن حزب العمال من تقديم ورعاية القرار المشهور الصادر عن مجلس الأمن الدولي ، صاحب الرقم ٢٤٢ ، وأن يؤمنوا بتبنيه بالإجماع .

سجلت حرب ١٩٦٧ المد الأعلى للصهيونية ، ووجه الذين انتقدوها بهجمات وحملات تشهير لم يسبق لها مثيل . وحين وقف ويل جرينيش عضو البرلمان عن مانشستر اكستشينج ، وأحد دعاة العدالة في الشرق الأوسط ، ليتكلم في مجلس العموم ، قوبل بمقاطعات وهتافات معادية بلا انقطاع . وذكر سجل هانزارد [محاضر

الاحتلال

قام الاسرائيليون بضم القدس العربية ، وهدم منازل العرب ، وبناء عمارات ضخمة تتكون من شقق لسكنى المهاجرين اليهود . واصلوا انهم لن يتخلوا قط عن قطاع غزة الذي يشكل واحدة من أكثر المناطق العربية الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ازدحاما بالسكان . كما أعلنوا عزيمتهم على عدم الانسحاب من الجزء الشرقي من شبه جزيرة سيناء التي استولوا عليها من مصر . وشرعوا باقامة مدينة يهودية جديدة في شرم الشيخ على الطرف الجنوبي لسيناء . وبالإضافة الى ذلك أعلنوا عزيمتهم المقاطع على عدم الانسحاب من مرتفعات الجولان التي استولوا عليها من سوريا .

ورفض الاسرائيليون التفاوض مع الدول العربية عبر هيئة الأمم المتحدة ، وطلبوا اجراء مفاوضات ثنائية مباشرة مع كل دولة عربية على حدة ، وطبقا لشروطهم . وكان الامر مشابها لعرض ادولف هتلر التفاوض مع بريطانيا بعد معركة دنكرك .

ومع مرور الوقت ، كانت الاف المنازل العربية في المناطق المحتلة تتحول الى انقاض لتقوم في أماكنها مستوطنات يهودية جديدة . وأمام رفض يهود الدول الغربية القوي للهجرة الى اسرائيل ، نظمت الحركة الصهيونية حملة كبيرة لتأمين هجرة يهودية على نطاق واسع من الاتحاد السوفياتي ، لكتالة استيطان المناطق المحتلة . وصف الاسرائيليون هذه السياسة بأنها « سياسة خلق الوقائع » ، وغدا واضحا ان ما يريدونه في الحقيقة هو الحاق المناطق المحتلة . وقرأنا وصفا لهذا الموقف كتبه جون بولوك ونشره في الاول من يونيو - حزيران ١٩٧٢ في « الديلي تلجراف » البريطانية اليومية الممولة لحزب المحافظين ، والتي لا يمكن في اي حال من الاحوال الادعاء بأنها معادية للصهيونية ، وهي التي لم تنس قط المهانة التي تعرض لها حزبا في حملة السويس عام ١٩٥٦ ضد مصر . وذكر بولوك في تقريره ان الاسرائيليين انشأوا سبع عشرة مستوطنة جديدة في مرتفعات الجولان ، وان جنرالاً ظريفا في الجيش الاسرائيلي تساعل : « لماذا لن نكتبوا عن المناطق المحتلة بعد تسعة عشر عاما حين تحتلل بعيدها الخامس والعشرين ، تماما مثلما تحتفل اسرائيل بعيدها الخامس والعشرين هذا العام ؟ »

بسلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ويستوجب تطبيق كلا البندان التاليين :

١ - سحب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراض احتلتها* في النزاع الاخر ،

ب - انتهاء جميع ادعاءات او حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة اراضي كل دولة في المنطقة ، واستقلالها السياسي وحقوقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحررة من التهديد او اعمال القوة .

٢ - يؤكد ايضا الحاجة الى :

أ - ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة ،

ب - تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين ،

ج - ضمان المناعة الاقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق اجراءات بينها اقامة مناطق مجردة من السلاح .

٣ - يطلب الى الامين العام تعيين ممثل خاص للذهاب الى الشرق الاوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية ايجاد اتفاق ، ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لنصوص ولبادئ هذا القرار .

٤ - يطلب الى الامين العام ان يرفع تقريراً الى مجلس الأمن حول تقدم جهود الممثل الخاص في اقرب وقت ممكن .

ذلك هو نص القرار ٢٤٢ . وجرى تعيين الدبلوماسي السويدي البارز دكتور غونار يارنغ ممثلاً خاصاً ، وبدأ على الفور باتامة اتصالات مع الدول المعنية . الا انه لم يحدث اي تقدم . كان من رأي الدول العربية ان الاولوية يجب ان تكون لتحقيق الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة . ورفض الاسرائيليون الانسحاب ، بحجة انهم سوف يصبحون معرضين لتهديد الدول العربية التي كانوا قد كشفوا لتوهم عن تنوؤ عسكري كبير عليها .

* المترجم : هكذا ورد ونفا للنص الانجليزي ، لكن النص الفرنسي يقول كما هو - معروف « من الاراضي المحتلة » .

ثم التقوا بهم في الصحراء ، الى الجنوب من البحر الميت ، وتركوهم هناك . ولحسن حظهم ، عثرت عليهم بعد مضي عدة ساعات دورية للجيش الاردني . اما المنازل والوظائف والاعمال والممتلكات فقد « طارت » ، واما الزوجات والاطفال فبقوا بلا معين او معيل ، وعليهم أن يتدبروا شأنهم كما اتفق .

اسرائيل والمجتمع العالمي

وقف معظم العالم يعين تعاطفه مع اسرائيل ومساندته لها في أيام حرب يونيو ١٩٦٧ . لكن سلوكها أدى الى تبييد هذه المساندة ، وتآكل ذلك التعاطف ، بحيث غدت وحيدة فعلا في المجتمع العالمي . والواقع انه يمكن قياس هذا الانقلاب في مركزها الدولي من مظاهر الجمعية العامة للأمم المتحدة التي توجت قراراتها بهذا الخصوص ، باصدار القرار الرقم ٢٩٤٩ في ديسمبر - كانون الاول ١٩٧٢ .

كان ذلك القرار اقوى قرار يتخذ ضد اسرائيل حتى ذلك التاريخ في الامم المتحدة ، فيما يتعلق بتعد احتلالها المستمر واستيطانها التواصل لاراضي الدول العربية المجاورة . ودعا القرار اسرائيل الى اعلان التزامها ببدا عدم ضم الاراضي بالقوة ، واكد أن احترام حقوق الفلسطينيين هو عنصر ملازم لاقامة أي سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، كما دعا القرار اسرائيل الى الكف عن سياساتها وممارساتها التي تؤثر في التكوين الديموغرافي والخصيصة الطبيعية للمناطق العربية المحتلة . اتخذ ذلك القرار بأغلبية ٨٦ صوتا ، ضد سبعة أصوات ، وامتناع ٢١ صوتا . أما المعارضون السبعة فكانوا اسرائيل بالإضافة الى ست من جمهوريات امريكا اللاتينية هي : كوستاريكا ، الدومينيكا والسلفادور ونيكاراجوا وهايتي وارجواي . جاء الدعم الكاسح للقرار من أوروبا (شرقها وغربها) ، وآسيا وأفريقيا . وحتى الولايات المتحدة الامريكية نصرة اسرائيل الدائمة ومزودتها بما تحتاجه من أموال وأسلحة على نطاق هائل ، امتنعت عن التصويت .

ولقد تحدث المندوب الإسرائيلي الدائم في الامم المتحدة ، يوسف تكواع ، عدة مرات أثناء ذلك النقاش . بادىء ذي بدء هددت اسرائيل بتسرك

التييطرة هي البلدة الرئيسية في مرتفعات الجولان ، وكانت عاصمة اقليمية نشطة تضم حوالي تسعين الفا من السكان . ان حوالي ربع مساحة البلدة أصبح يستخدم كحقل تدريب ميداني للجيش الاسرائيلي . ووصف بولوك كيف تحولت المنازل والمساجد والدكاكين الى خرائب وانقصاص . واضاف : « لكنه لم يحدث قتال في التييطرة ، ذلك ان سكانها السوريين هربوا ، وان الجيش السوري توقف على مسافة منها . فالتييطرة جرى تدميرها بطريقة متعمدة ومنهجية وفعالة لمنع سكانها من العودة اليها » .

ولم يكن مثيرا للدهشة ظهور مقاومة ردا على الاحتلال . ووصف بولوك ردة فعل الجيش الاسرائيلي على المقاومة في منطقة الضفة الغربية لنهر الاردن : « عندما تقع « الحوادث » ، يضرب نطاق وحصار حول مناطق ، ويخضع الناس للتفتيش ، وتصبح الحياة بصورة عامة فسيحة مستتابة . وفي حالات معينة يفرض حظر التجول بطريقة اعتباطية كيفية على ترمي بأكلها ، ليس بسبب الحاجة لمنع التجول ، وانما كمقايب جماعي . وان منع القرويين من مغادرة منازلهم يعني الموت للدواجن والواشي ، والاهمال للحقول » . وكان في تقديره اكثر من ثلاثمائة شخصية عربية بارزة من قادة مجتمع الضفة الغربية المعروفين والمحترمين ، قد انتزعوا من بيوتهم تحت جنح الظلام من جانب الجيش الاسرائيلي ، وجرى طردهم عبر نهر الاردن .

بلغ عدد المبعدين حتى الحادي والثلاثين من ديسمبر - كانون الاول ١٩٧٤ ، ١٤٥٢٢ شخصا . ففي ذلك التاريخ التقى كاتب هذه السطور بصحبة شهود آخرين ، عددا من هؤلاء المبعدين في بيروت ، واستمع الى اقوالهم .

كان نونجا هؤلاء المبعدين ، رئيس بلدية مدينة صغيرة في الضفة الغربية . لقد ابلغ بأن يتوجه لاقابلة في مكتب الحاكم العسكري الساعة الحادية عشرة والنصف ليلا . واعتقل لدى وصوله الى هناك ؛ ووجد نفسه « مشحونا » مع آخرين في إحدى ناقلات الجيش ، وهو معصوب العينين . وخلال الرحلة التي امتدت ساعات ، كان الحراس الاسرائيليون المرافقون يسيرون على المبعدين المنبطحين على أرض الشاحنة ويديسونهم بأقدامهم

اسرائيل السياسيين « تلقوا هذا الاسبوع أنباء مريحة ومفرحة من بريطانيا بواسطة هارولد ويلسون . فلقد أبلغ زعيم المعارضة البريطانية أعضاء لجنة الخارجية والامن فسي الكنيست الاسرائيلي ، ان حزب العمال البريطاني يدعم ، من حيث المبدأ ، الاراء الاسرائيلية في الشرق الاوسط » وفي غضون ساعات قلائل من تصريحه ذلك ، كانت القاذفات الاسرائيلية الثقيلة تقصف من الجو عدة قرى في سوريا .

في اكتوبر ١٩٧٣ ، وبعد ست سنوات من الجهود العقيمة لحل المشكلة برؤيا الاسرة الدولية ، شنت كل من مصر وسوريا هجوما على المناطق المحتلة من وطنها ، في مسمى يستهدف اجبار الامم المتحدة على تقديم مبادرة جديدة من أجل التسوية . وبموجب اتفاقية فصل القوات التي تم التوصل اليها ، أخلت اسرائيل جانبها من مرتفعات الجولان المحتلة بما فيه مدينة القنيطرة . لكنهم قبل ان يغادروا القنيطرة ، قاموا بهدم كل ما كان قد تبقى من ابنيتها عند احتلالها عام ١٩٦٧ ، لقد هدموا كل شيء وساووه بالارض تماما . ونهبوا كل ما هو ثمين في الكنائس والمساجد . ونهبوا وسلبوا القبور في المدافن المسيحية ، حيث كان العرف يقتضي احيانا دفن بعض القطع الثمينة الى جانب جثث الميت . ولقد قطعوا الايدي التي تحمل أساور ، كما اقتلعوا الاسنان الذهبية من جماجم الموتى في القبور . وأورد « الان كاس » في « الغاينشمال تايمز » في الثامن عشر من سبتمبر ١٩٧٤ ، انه شاهد على احد جدران القنيطرة عبارة بالعبرية تقول : « تريد القنيطرة . سوف تأخذها انقاصا » .

مواجهة الحقائق

بدأ العالم بالتنبه الى أن الفلسطينيين قد ارتكبت بحقهم واحدة من أتمسى المظالم في القرن العشرين : فان الاقلية التي يقطن من الفلسطينيين ضمن حدود اسرائيل هم مواطنون من الدرجة الثالثة في اطار مجتمع عنصري ، أما اولئك الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري فانهم يرون بأن اعينهم ما يجري كل يوم من عمليات تدمير واستيطان في وطنهم ، لكن القسم الاعظم من الفلسطينيين يعيش في المهجر والمنافي كلاجئين ، بعد أن جردوا بالقوة من كل ما يملكون ، من

الجمعية العامة اذا ما وافقت على القرار . وبعد ذلك هدد المستر تكواخ بان اسرائيل سوف تسحب موافقتها على القرار الرقم ٢٤٢ ، وانها ستوقف كذلك أي تعاون مع بعثة الدكتور غونار يارنغ السلمية . ووصف تكواخ القرار بعد الموافقة عليه ، بأنه « وثيقة غير شرعية » . ولم يذهب وزير خارجية اسرائيل ابا ايبين الى الهيئة الدولية ، وعلل ذلك بأن ذهابه الى الامم المتحدة ، سوف يعطيها اهمية تفتقر اليها « (٢٩) » .

ان ذلك الجزء من القرار الذي دعا اسرائيل لتعلن التزامها بمبدأ عدم ضم الاراضي عن طريق استخدام القوة ، لم يكن اكثر من دعوة لقبول المبدأ الاساسي الاشد اهمية في ميثاق الامم المتحدة . تقول اسرائيل أنها انشئت من قبل الامم المتحدة ، ومع ذلك فانها رفضت بازدياد المبدأ الاساسي في شرعة الامم المتحدة . ومثل ذلك كان تهديدها بسحب موافقتها على قرار مجلس الامن الرقم ٢٤٢ . والواقع ان « موافقة » اسرائيل على ذلك القرار ، كانت دائما تحاط بكلام مطاط وعبارات مراوغة مواربة ، وشروط كثيرة بحيث لا تصبح موافقة . ومثل ذلك ايضا تهديدها بوقف الاتصالات والتعاون مع الدكتور غونار يارنغ في مهته السلمية . والواقع ان اسرائيل كانت قد رفضت اي مشاركة بمهمة يارنغ منذ فبراير - شباط ١٩٧١ . وهكذا أصبح مسلح اسرائيل الاعتيادي هو التلاعب بقرارات الامم المتحدة بما يخدم مصالحها الخاصة ، وللرفض الفهم بالازدياد للمجتمع العالمي بأسره حين تقتضي مصالحها الخاصة ذلك ، وهذا كله مرفق في الغالب بدعاوة مسمومة ضد أي شخص قد يوجه للدولة الصهيونية أي نقد .

وجد الصهيونيون حليفا اخر على المسرح العالمي . ونقلت « الجويش كرونكل » في عددها الصادر يوم ٢٩ ديسمبر ، ان هارولد ويلسون زعيم حزب العمال وزعيم المعارضة في بريطانيا في ذلك الحين ، وثناء زيارته لاسرائيل في عيد الميلاد في عام ١٩٧٢ ، « شبه وقفة بريطانيا في النقاش الذي دار في الجمعية العامة للامم المتحدة مؤخرا بذلك الموقف في ميونيخ عام ١٩٦٨ » . وفي ذلك اليوم نفسه ، ١٩٧٢/١٢/٢٩ كتبت « الجويش ابزورغر » تحت « مانشيت - ضخم » : « الحاج هارولد » ان قادة

العمل ومستوياته الاجتماعية والاقتصادية لشعوب العالم أجمع» .

وبرغم ذلك فإن حزب العمال يساند الدولة الصهيونية التي أهانت الأمم المتحدة مظلما أهانت المبادئ التي تقرها الفقرة السابقة من دستور الحزب . وإن الحزب يقيم أوثق العلاقات الشخصية والصلات التنظيمية مع الأشخاص الاسرائيليين والمنظمات الصهيونية ، لكنه لا يقيم أدنى صلة مع الحركات الاشتراكية المتطورة بثبات في العالم العربي .

وليس النزاع مع الصهيونية هو في أي حال النزاع الوحيد الذي يشغل العالم العربي ، الذي يشكل منطفة واسعة ومهمة تمتد من ساحل الاطلسي لشمال افريقيا الى الخليج . ان في ذلك العالم العربي صراعات داخلية عظيمة ، وفوارق هائلة بين مستويات الغنى والفقير ، وإن الامكار والحركات الاشتراكية في حالة تقدم . ويظلم الاشتراكيون العرب الاكثر تقدما الى اقلية ديموقراطية برلمانية ، وإن حزب العمال البريطاني بالنسبة اليهم مثال نموذجي يجسد ذلك الطموح ، لكن ارتباط الحزب بالصهيونية يفزعهم ويشط همتهم . ويزداد موقفهم صعوبة بسبب الماركسيين في العالم العربي . فإن ازدواجية مواقف حزب العمال البريطاني تمنح الماركسيين امضى سلاح ليظهروا وكأنهم هم الذين يمثلون الاشتراكيين الديموقراطيين لانهم طليعة المجابهة مع الصهيونية والامبريالية الغربية .

ان للاشتراكيين العرب ثقة كبيرة بحزب العمال لانهم يدركون انه الحزب البريطاني الوحيد الذي عارض الكولونيالية باستمرار ، وناضل من أجل انهائها . وإذا لم يحرر الحزب نفسه من القبضة الصهيونية ، فإنه سوف يضيع فرصة مهمة لتشجيع الاحتمالات العظيمة الموجودة لنمو وتطبيق أفكاره ، في منطفة من العالم ترتدي أهمية حيوية لبريطانيا ولاية حكومة عمالية في بريطانيا .

موقف سخيف

ان ازدواجية المعايير حيال الشرق الاوسط ، قادت اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني الى اتخاذ موقف سخيف ولا منطقي من «الجلس العمالي للشرق الاوسط» . فاللجنة

منازلم ، ومن مصادر رزقهم ، ومن وطنهم . لقد أصبح الشعب الفلسطيني على هذه الحال نتيجة لاعمال الصيويين وان مبادئ الاشتراكية الديموقراطية لا يمكن ان تقبل بهذا . ومع ذلك فإن هناك مساندة واسعة في داخل صفوف حزب العمال للابقاء على هذا الوضع . وتشكل هذه الازدواجية في المفاهيم والمفاهيم تحديا وانتهاكسا لاخلاقية الحزب الاساسية ، وتهديدا لمداقية الحزب خارج بريطانيا .

ان مساندة حزب العمال لاسرائيل قد حثت عليه الوصول الى تبني مفاهيم ومواقف مزدوجة نفي تضايحا عمالية مهمة كالكولونيالية ، والتمييز العنصري والتوسع الاقليمي ، واحترام قرارات هيئة الامم المتحدة .

وان الحزب على حق في هجومه على تمسح الاغريقيين في افريقيا ، لكنه لا يتحدث عن تمسح الفلسطينيين في فلسطين . وإن الحزب يدين مسا ترويه التقارير من تمييز عنصري ضد اليهود في الاتحاد السوفياتي ، لكنه لا يدين التمييز العنصري الذي يمارسه اليهود انفسهم بحق الفلسطينيين . وإن الحزب يشجب ويستنكر ضم جنوب افريقيا لجنوب غرب افريقيا ، لكنه لا يفتح فمه بشأن ضم اسرائيل للقدس العربية ، وهو الضم الذي أجمع مجلس الامن الدولي على ادانته . وإن حزب العمال يبدي تعاطفا مع حركات التحرير المناضلة ضد الكولونيالية ، لكنه لا يبدي شيئا من التعاطف مع كمناح الفلسطينيين من أجل وجودهم الوطني . وإن الحزب ينتقد انتهاك قرارات الامم المتحدة ، لكنه يفلت فمه حين تكون هذه الانتهاكات من جانب اسرائيل ، رغم أن اسرائيل انتهكت قرارات الامم المتحدة اكثر من أي بلد آخر في العالم ، وأجمعت الامم المتحدة على ادانتها في كثير من الاحيان .

ان الفقرة الرابعة في دستور حزب العمال التي تعرف اهداف الحزب ، تنص في البند الفرعي السابع على ما يلي : « على الصعيد العالمي ، ان يتعاون مع المنظمات العمالية والاشتراكية في البلدان الاخرى ، وان يدعم منظمة الامم المتحدة ووكالاتها المتعددة والمنظمات الدولية الاخرى لتقدم السلام ، وضبط وتسوية النزاعات الدولية بأساليب التوفيق والتحكيم القضائي ، وتوطيسد الحقوق الانسانية والدفاع عنها ، وتحسين اوضاع

المجلس العمالي للشرق الاوسط بحجة ان غاياته واهدائه تتفق مع غايات واهداف حزب العمال !! وهذا مبدأ عجيب يمكن ان يفهم منه ان جميع المنظمات المنتتمة الى الحزب حاليا ما كان يجب ضمها .

ويعتد اللجنة التنفيذية للمجلس العمالي للشرق الاوسط تطلب الى اللجنة التنفيذية لحزب العمال استقبال وفد من المجلس ليقام معها حوارات رفض طلب الانضمام . وجاء رد اللجنة التنفيذية للحزب مقتضيا وفظا : « قررت اللجنة التنفيذية الالتزام بقرارها عدم السماح للمجلس العمالي للشرق الاوسط بالانضمام » . وأرسل المجلس العمالي للشرق الاوسط يطلب احالة القضية الى المؤتمر السنوي لحزب العمال لطرح المسألة امام نقاش المتدربين . وأبلغ المجلس « بان طلب الانضمام لن يحال الى المؤتمر السنوي ، حيث ان العرف قد جرى على ان تحيل اللجنة التنفيذية الوطنية الى المؤتمر السنوي طلبات الانضمام التي لاقت قبولا » .

واعاد المجلس العمالي للشرق الاوسط محاولة الانضمام في عام ١٩٧١ ، ومرة اخرى في عام ١٩٧٢ . وفي كل مرة كان الجواب يأتي بالرفض ودون تفسير اخر . وان السبب الذي اعطى للرفض ، كالحيلولة دون الاستجواب في المؤتمر السنوي ، كان فريضة واهية ، وعلى الرغم من رفضها المتكرر ، اضطرت اللجنة التنفيذية الوطنية فيما بعد الى الاعتراف ببعض الشيء بأنه لم يعد في وسعها تجاهل الشعور المتناهي في الحزب الذي بلوره المجلس العمالي للشرق الاوسط . وفي عام ١٩٧٣ دعي « المجلس » لعرض وجهات نظره امام لجنة الشؤون الدولية التابعة للجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال ، فقدم « المجلس » مذكرة بهذا الخصوص في ابريل من ذلك العام .

بداية النقاش العظيم

لقد تضمنت مسودة وثيقة السياسة الخارجية المنشورة من جانب اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال ، لتقدمها الى المؤتمر السنوي للحزب لعام ١٩٧٣ ، توصيات جديدة مهمة . ان الصيغة في معظمها تم عن النفوذ الصهيوني السائد في اوساط لجنة الشؤون الدولية ، لكن الوثيقة تشر مع ذلك الى « ما يقوم به فرقاء النزاع

التنفيذية الوطنية للحزب تقبل « عمال صهيون » المنظمة المترتبة بدعم اسرائيل كمنظمة منتسبة الى الحزب [حزب العمال البريطاني] ، لكنها [اللجنة التنفيذية الوطنية لحزب العمال البريطاني] رفضت مرارا وتكرارا طلبات انتساب قدمها « المجلس العمالي للشرق الاوسط » ، هذا المجلس الذي يتبنى اراء أكثر توازنا ، والذي يحمل أعضاؤه صفة تمثيلية اكبر ، والذي يساند هيئة الامم المتحدة .

تأسس « المجلس العمالي للشرق الاوسط » في يناير ١٩٦٩ . وكان الداعي لانشائه ، القلق المتزايد الذي كانت تستشعره اوساط في حزب العمال بشأن التوجه الرسمي للحزب لاجزاء مشكلات الشرق الاوسط . باب العضوية في هذا المجلس مفتوح امام جميع الافراد الراغبين من اعضاء حزب العمال الذين يتقبلون اهدائه ، ودستوره ، واحكامه . والبند الثاني من دستور المجلس يوضح اهدائه كما يلي : « دعم وتعزيز اهداف حزب العمال بالعمل من أجل السلام والعدالة في الشرق الاوسط ، ومن أجل تطبيق قرارات الامم المتحدة المتعلقة بالشرق الاوسط ، وذلك بتقديم رؤيا بناءة ومتوازنة للنزاع العربي - الاسرائيلي ، الى اعضاء الحركة العمالية » .

وان البند الثامن من دستور المجلس يخوله حق الانضمام الى منظمات اخرى . وفي اول مؤتمر سنوي لاجزاء المجلس انعقد في ديسمبر - كانون الاول ١٩٦٩ ، اتخذ قرار اجماعي بالانضمام الى حزب العمال . وارسل طلب بهذا الخصوص الى الامانة العامة لحزب العمال حسب الاصول .

وفي الخامس والعشرين من مارس - اذار ١٩٧٠ ، وردت المجلس رسالة من مقرر اللجنة التنفيذية الوطنية للحزب تقول : « ان اللجنة التنفيذية الوطنية ترفض طلب الانتساب الذي تقدم به المجلس العمالي للشرق الاوسط » . وكان تعليلا لرفض ان اهداف المجلس « تختلف فقط فيما تؤكد عليه من اهداف الحزب الوطنية » ، وانه « كان هناك شعور بأن دستور الحزب واحكامه تعطي بصورة كافية الاهداف التي يملئها مجلسكم ، ومن أجل ذلك فان كل عضو في حزب العمال يقر ويؤيد البند السابع من الفقرة الرابعة في دستور حزبا » . وهكذا فانهم رفضوا انتساب

على الفور رفضهم لقرنسى مثل هذا الجدول للنقاش . وتقدم أعضاء مكتب العريف توصية اجماعية الى حكومة الظل برفض ذلك الجدول . وعندئذ اتخذت حكومة الظل القرار غير الاعتيادي، بأن يقترح وزراء حكومة الظل ضد الحكومة ، على ان تترك لبقية نواب الحزب حرية الاقتراع .

والذي حدث انه كانت هناك حرية كاملة في الاقتراع بالرغم من اسفزاز الضغوط الصهيونية . وعند توزيع الاصوات اقتنع خمسة عشر نائباً عمالياً في المسكر غير الصهيوني ، وامتنع خمسة وسبعون نائباً عمالياً بقي الكثيرون منهم في مقاعدهم في قاعة البرلمان خلال عملية توزيع الاصوات للدلالة على استيائهم من الطريقة التي عولجت بها المسألة .

وما حدث في البرلمان اظهر ان العناصر الصهيونية سوف تسمى لكفالة عدم توجه المؤتمر السنوي الى الالتزام بسياسة تكون اقل تحيزاً لجانب واحد فيما يتعلق بفلسطين ، او اساءة تأويلها ، فيما تشعر القيادة البرلمانية بعدم ارتباطها بالقرار . لكن هذه الاحداث نفسها تبين ايضاً ان مثل هذه الاساليب في العمل سوف تثير معارضة قوية . ولقد بدأ فعلاً النقاش الكبير الذي يستهدف جعل حزب العمال يعترف بأن التسلسل الصهيوني الى صفوفه قد تسبب « بخلق وقائع » معينة دعمت الحزب الى الانحراف عن مبادئه ، كما بدأت بالتأكيد الحملة العنيفة التي ترمي الى اعسادة الحزب الى خطوطه المبدئية .

خاتمة

ان تطورات الاحداث في الشرق الاوسط تستدعي إعادة نظر بموقف حزب العمال الموالي للصهيونية ، واعادة تأكيد لمبادئ الحزب الاساسية . فالصهيونية لم تتخض عن دولة مسالمة واشتراكية في الشرق الاوسط ، بل مجتزع عسكري تسببت سياساته العدوانية بصراع بين اليهود والعرب ، حيث عاشوا معاً لقرون طويلة خلت في سلام . وانه لصراع يتسبب بتهديد متواصل للسلام العالمي .

وان مساندة حزب العمال لاسرائيل والصهيونية تادت الحزب الى موقع باطل جعل الحزب في حالة نزاع مع مبادئه الاساسية تشبه حالة النزاع بين الصهيونية واليهودية . ولقد أصبح الحزب في عزلة

في الشهور الاخيرة - من ارهاب وارهاب مضاد « ، وتصف هذه الاحداث بأنها « ظواهر تكشف مما هو خامل » ، وبالاحرى عن العلة الجذرية المتمثلة في الاختناق في ايجاد حل منصف وانساني لمشكلات المجتمع الفلسطيني » . فالواقع ان هذه العبارة تجسد رفض الموضوعة الصهيونية الاساسية ، كما أكدت الوثيقة على « الحاجة لاشترك المجتمع الفلسطيني بصورة كاملة في أية تسوية يــــراد انجازها » .

لقد اقرت هذه الوثيقة في المؤتمر السنوي ، وبهذا أصبح حزب العمال ملتزماً لأول مرة ، بمراجعة مصالح الفلسطينيين ، وفيما كان مندوبو المؤتمر يقتلون عاندين الى بيوتهم ، اندلعت حرب ١٩٧٢ ، وأصبحت السياسة الجديدة للحزب موضع امتحان مبكر لتوايها ومراميتها .

لقد كانت حكومة المحافظين قد أعلنت سياسة الوقف الفوري لامدادات الاسلحة الى فريقي النزاع . وكانت هناك حملة صهيونية عاصفة غابتها دفع بريطانيا للوقوف الى جانب اسرائيل ، وكانت الحركة الصهيونية تنظم عملية كبيرة لنقل عشرات ملايين الاطراف من الاسلحة الى اسرائيل للاغراض الحربية . وفي مجلس العموم تبذل الجو واتفق بين جميع الاحزاب على اجراء مناقشة في الثامن عشر من اكتوبر - تشرين الاول استناداً الى اقتراح بالتأجيل - وهي وسيلة اجرائية لتعاشي التصويت - في ظروف كان فيها قراراً حساساً بصورة بارزة .

وقبل موعد جلسة النقاش في مجلس العموم بيوم واحد ، تلقى نواب حزب العمال مذكرة من « عريف » الحزب تكشف بجلاء من محاولة قوية لاختضاع نواب الحزب للسياسة الصهيونية . وتقول المذكرة : « أود ان ألفت انتباهكم مسبقاً الى انه خضوعاً لقرار من حكومة الظل ، يمكن تقديم جدول اعمال من ثلاثة خطوط لاجل النقاش » . وكان رد الفعل مثيراً ، فان اكثر من ثمانين عضواً أوضحوا

✽ المترجم : أي Chief Whip ، وهو عضو البرلمان الذي يعهد اليه حزبه متابعة الاتصال بنواب الحزب من اجل ان يحضروا الجلسات (المهمة) وأن يلتزموا بخط الحزب (عند النقاش أو التصويت مثلاً) .

التي ينبغي التفاوض معها هي منظمة التحرير الفلسطينية التي تستقطب مساندة الشعب الفلسطيني ، تماما مثل حالة المجلس الوطني الافريقي في روديسيا ، او منظمة كانت - قبل الاستقلال - حالة الحركة الوطنية الافريقية في كينيا ، وجبهة التحرير الوطني في الجزائر ، وجبهة فريليمو في موزامبيق .

ان صفحات التاريخ لا يمكن اعادتها الى الوراء . ان المشكلة اليوم هي كيفية التوفيق بين حقوق الفلسطينيين من جانب ، وبين احتياجات اليهود والعرب من العيش معا في سلام وكرامة . ان الانتصار في الحروب لم يؤمن لاسرائيل السلام ، وان السلام لا يمكن تسيده الا على دعائم العدالة . لقد بدأ الخلاف بالنزاع بين اليهود والعرب ، ولن ينهي هذا النزاع غير اتفاق اليهود والعرب .

متزايدة عن الرأي العام العالمي ، وانه يكاد يصبح محل مسخط وازدراء في العالم الثالث الذي طالما نظر الى الحزب باعتباره نصيرا للمضطهدين والواقمين في اغلال الكولونيالية .

وان على الحزب ان يعترف ، وان يعلن اعترافه هذا ، بان المظالم التي انزلت بالشعب الفلسطيني هي قلب النزاع في الشرق الاوسط وليه . ان هناك شعبا قد جرد من موطنه ، وهو لن يسكت بعد الان على هذا الظلم الذي صبر عليه طويلا . ومن الواجب الاعتراف بالكيان الوطني لهذا الشعب ، واشتراك مثليه في مفاوضات السلام .

ويتوجب على حزب العمال ان يؤكد اهتمامه بايجاد تسوية عادلة ، وذلك باتامة اتصالات مع العرب مثل اتصالاته مع الاسرائيليين ، وان يستخدم نفوذه لجعل الاسرائيليين يفاوضون الفلسطينيين . ان المؤسسة الفلسطينية الواضحة

١٢. — هانزارد ، المجلد الرقم ١٧٦ ، الاعمدة ١٩٥١ — ١٩٥٨ ، في التاسع والعشرين من يوليو — تموز ١٩٢٤ .
- ١٣ — هانزارد ، المجلد الرقم ١٥٦ ، الاعمدة ١٠٣٢ — ١٠٣٥ ، في الحادي عشر من يوليو — تموز ١٩٢٢ .
- ١٤ — هانزارد ، المجلد الرقم ٢٣٨ ، الاعمدة ١٠٨٥ — ١٠٩٦ ، في السابع من مايو — ايار ١٩٣٠ .
- ١٥ — دراموند شيلدز ، « سيدني ويب وزيرا » (مقالة) ادرجت في كتاب « آل ويب واعمالهم » الذي قامت بتحريره مارجريت كول (مولر ، لندن ، ١٩٤٩) ص ٢١٣ .
- ١٦ — كينجزلي مارتن ، « هارولد لاسكي » ، (نيكتور جولانز ، لندن ، ١٩٥٣) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
- ١٧ — المصدر نفسه .
- ١٨ — تفاصيل اجتماع الحكومة المنعقد في الحادي عشر من فبراير — شباط ١٩٢١ .
- ١٩ — تقرير رسمي عن المؤتمر السنوي ، ص ٢١٧ — ٢٢١ .
- ٢٠ — تقرير المؤتمر ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .
- ٢١ — تقرير المؤتمر ، ص ٩ .
- ٢٢ — هانزارد ، المجلد الرقم ٤٣٣ ، الاعمدة

- ١ — جون هـ. ديفيس ، « السلام المراوغ » (جون موراي ، لندن ، ١٩٦٨) ، الصفحة ٩ ، التوطئة .
- ٢ — موشي مينوحين ، « انحطاط اليهودية في عصرنا » ، الطبعة الثانية ، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٩) ، الصفحة ٣٦ .
- ٣ — س. ليفنبرج ، « اليهود وفلسطين » (باول زيون ، لندن ، ١٩٤٥) ص ١٢٣ .
- ٤ — المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- ٥ — المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .
- ٦ — ريتشارد كروسمان ، « امة تولد من جديد » (هاميش هاميلتون ، لندن ، ١٩٦٠) ، ص ٢٣ .
- ٧ — المصدر نفسه ، ص ٢٠ — ٢١ .
- ٨ — س. ليفنبرج ، « اليهود وفلسطين » ، ص ١٢٦ .
- ٩ — المصدر نفسه ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .
- ١٠ — هانزارد ، السلسلة الخامسة ، المجلد رقم ١٥١ ، الاعمدة ١٥٧٥ — ١٥٨٤ ، في التاسع من مارس — آذار ١٩٢٢ .
- ١١ — هانزارد ، المجلد رقم ١٧٠ ، العمود ٦٣ ، في الخامس والعشرين من فبراير — شباط ١٩٢٤ .

- ٢٧ - برنارد دونوج-وجي، ديليو جونز ،
 « هيريت موريسون ، سيرة رجل سياسي »
 وايدنفيلد ونيكولسون ، لندن ، ١٩٧٣ ، ص
 ٢٥٦ - ٢٥٧ .
- ٢٨ - هانزارد ، المجلد الرقم ٧٤٧ ، الاصدء
 ١٤٢ - ١٥٢ ، في الحادي والثلاثين من مايو -
 ايار ١٩٦٧ .
- ٢٩ - نقلا من جويش ابزفر ، في التاسع
 والعشرين من ديسمبر - كانون الاول ١٩٧٢ .
- ١٩٥ - ١٩٤ ، في الثامن عشر من فبراير -
 شباط ١٩٤٧ .
- ٢٣ - تقرير المؤتمر ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- ٢٤ - تقرير المؤتمر ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
- ٢٥ - كنجالي مارتن ، «هارولد لاسكي» ، ص
 ٢١٤ - ٢١٨ .
- ٢٦ - كريستوفر سايكس ، « طرق متقاطعة الى
 اسرائيل » ، كولينز ، لندن ، ١٩٦٥ ، ص
 ٣٥٧ .

صدر عن مركز الابحاث

فلسطين

في مذكرات الفاوقجي

١٩٤٨ - ١٩٣٦

اعداد الدكتورء خيرية قناسمية

شعر النسخة ١٢ ل.ل. يضاف اليها اجور البريد الجوي .

اطلب نسخك من : قسم التوزيع في مركز الابحاث

ص.ب ١٦٩١ - بيروت

Edgar O'Ballance, Arab Guerilla Power : 1967 - 1972
(London : Faber and Faber, 1974).

السيد ماهر الكيالي للكتاب المذكور في العدد ٤٣ من شؤون فلسطينية (مارس ٧٥) يغنيا عن ذلك الان .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى الملمه ، بالنالي ، وفي كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على ان ذلك لا يعني ان الدراسة خالية من الاخطاء ، الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت في معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها أقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية - الصهيونية - الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستوسع في ايضاح اشارتنا الى بعض اوضح المغالطات حول هذه المسألة في اواخر هذه المراجعة .

تعاني الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ومن اخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الاخطاء ، ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبدالله بن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز - يوليو ١٩٥١ . كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست في المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهاني الحسن وخليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (ص ٢٦) !! وفداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الإشارة اذ ان منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوي المستوى المعادي من الاطلاع . ثم ان ايهام الثاري بأن امير دولة الكويت السابق

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار اوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » ، حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الاخر . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع تشمل ابحاثا محددة عن جيوش معينة او عن جروب اقليمية او أهلية تغطي شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الأرضية: فقد كتب «اوبالانس» عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن « الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسي » و« الجيش الاحمر الصيني » ، كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرقة الاجنبية الافرنسية » بالاضافة الى سبعة كتب (آخرها الدراسة موضع المراجعة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت في الوطن العربي سواء في شمال العراق او الجزائر او فلسطين او اليمن زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الاسرائيلية الثلاث الاولى .

وكي تجنب انفسنا ، منذ البداية ، مغية اغفال السمات الايجابية الرئيسية التي يتتبع بها الكتاب ، نسارع الى القول بأن دراسة « اوبالانس » :

أولا : تمتاز بتسلسل منطقي وزمني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارئ عبر احد عشر فصلا دونما أي تشويش ، وتظهر معالم هذا التسلسل وذاك التنسيق لو كنا نعرض للبادئة الخفضمة في الدراسة . لكن استعراض

(أبو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطيني مستقل ، وفاروق تدموي وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « اوبالانس » أكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلا ، أن الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراء يقصد « حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعا من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما انه يقول ان الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائيا عنها . ومن أفدح الاخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا في قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد - كما اثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٩ - لم يكن في غزة فحسب بل وليس له اى علاقة تضالوية مباشرة بغزة . والشئ ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور انيس صليخ ، وهو شخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود اوبالانس ويقول بأن وديع حداد ، الذي سبق وان صنفته « كتائد في غزة » (ص ٢٠٨) ، هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى اوروبا الشرقية (ص ٢١٣) !! كما انه في مكان آخر (ص ٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتارا اراء الجبهة التي قتلت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلم ان « الجبهة الشعبية » و« الجيش الاحمر الياباني » اعلنا أكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

وعلى الرغم من ان كتابا عربيا واحدا على الاقل يعتبر « ادجار اوبالانس » من اشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأي العسكري ، [كما جاء في مراجعة ماهر كيالي للكتاب في مجلة شؤون فلسطينية عدد ٤٣] ، فاننا نبدي تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب « ان بعض الملاحظات والاراء الشخصية للمؤلف ، وان كانت قليلة ، قد تضلل القارئ لا سيما الغربي ، ففيها احكام جائرة وقر صحيحة » ، ان هذا القول في رأينا

كان ، في تلك المرحلة المبكرة ، خالقا ومحركا لحركة فتح ، قول فيه كثير من الجهل (ص ٢٧) . ثم ان « اوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهي احدى الوحدات النابضة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (ص ٢٢) .

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في (ص ٥٢) بأن حزب البعث في العراق قد قام باغتيال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و« معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة اذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في أي عام آخر . ولا يضاهي هذا الخطأ في المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية » في فلسطين (ص ٧١) ، وقوله بأن احمد جبريل ، الامين العام « للجبهة الشعبية - القيادة العامة » ، هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (ص ٧٢) . ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (ص ٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » . ولعل اوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها . مالينا (ص ٧٨ - ٧٩) ، وغني عن الذكر ان علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دوما علاقات قطعية كاملة . هذا وتكرر الشواهد على تشويش « اوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » التي يرئسها احمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشر المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر أيلول - سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى أن أحدهم ينتمي الى فتح في حين ينتمي الآخران الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم ان القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف

كذلك يقرر «أوبالانس» — ولا ندري ان كان ذلك ناجها عن سذاجة كلية او تساذجا مخابثا — ان «الغرور والتقدير السيء (من جانب الفدائيين) هو الذي أدى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان» (ص ١١) . اي ان المؤلف — مكذبا وبكل بساطة — يتجاهل دور أعداء العرب والعرب الإعداء في التحضير لتلك المجزرة وتفتيتها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول — في نظر « أوبالانس » — الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (ص ١٥) . ايضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنها يقصد القول بأن العربي هو فقط المسلم من أبناء العروبة او كأنها المسيحي بالضرورة غير عربي (ص ١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « مجبوسين بشكل عام » في لبنان (ص ١١٢) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين ثيراتهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من عوق الهقبية السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضي المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » و« عدوانية » و« ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارئ بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (ص ٧٦ ، ١٢٣ ، ٢١٢) . ثم ان الكذب — حسبما يقول « أوبالانس » — يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو للحظة في مصادقية البيانات الاسرائيلية (ص ١١٧) . كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية — بقدره ظم المؤلف — الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (ص ١٩٨ ، ٢٠٣) . أما استشهاد غنسان كفتاني فأمر يحيط به — وفقا « لامانة » المؤلف — غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراة ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (ص ٢١٣) !!! وأخيرا لا يفوت

هو اضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز «أوبالانس» . وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، ائذع العبارات وأشدها للهجوم على العرب ، وانما تصدنا القول بأن كتابا مثل كتاب اوبالانس واسلوبا مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطرا أكثر من غيره على القضية العربية وبمثل التالي تحيزا أمدح من زاوية قدرته على الاضرار بوجهة النظر العربية ، مالهجوم غير المباشر ، و« تحرير » المغالطات بشكل هادئ ، والدمس من خلال التظاهر بالسذاجة او البراءة ، هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هي « احكام جائرة وغير صحيحة » للقارئ (لا سيما الغربي) — كما ذكر اعلاه .

ويبدو ان المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة أحيانا . فان يجعل المؤلف عنوان كتابه : « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز ان تمر ببساطة ويجب ان تفهم ، ضمن سياق المغالطات التي يمتلئ بها الكتاب ، على انها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف في عرضه عند العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونيخ على وجه اكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنها يقصد به ان يتربخ في ذهن القارئ ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقته عند هذا الحدث يقول انه — أي الحدث — مثل « بداية جديدة » في العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » ، أو يتناسى ، أن يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونيخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (ص ١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص عيسى ان تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا إستراتيجية لها » و« فشلت كليا » وبدأت مرحلة « انحدارها العام » (ص ٢١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما اذا كان العمل الفدائي «ظاهرة مؤقتة » او « بداية لبطلة عربية » جديدة (ص ١٢ — ٢٢٣ — ٢٢٤) .

٣ - كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح » في لبنان ؟

٤ - ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟

٥ - وكذلك - والكلام للناشر - يوضح الكاتب « المسائل التي تهم المسالم العربي » ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ويستقرئ الماضي ويصف الحاضر ويعالج المستقبل .

أي عبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى سعيد آخر: يصف المؤلف كتابه - بتواضع يعكس الحقيقة - بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني - كما رأينا - من كثير من الأخطاء والمغالطات من جهة ثانية .

د. أسعد عبدالرحمن

المؤلف ان « يقرر » بأن العربي انسان لا يهمله الا « حبه الفردي للحياة وتحسين وضعه المادي » وان العرب يشتهرون بتقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (ص ٢٣٠) .

وبعد ، ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارئ ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع - وعلى الصفحة الداخلة للغلاف الخارجي للدراسة - الى الادعاء بأن المحتويات تجيب على الأسئلة المركزية التالية :

١ - ما الذي جعل الفدائيين يخطئون ، في تقدير الوضع ؟

٢ - ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثوي مع الجيش الأردني ؟

الدكتور صادق جلال العظم ، الصهيونية والصراع الطبقي (دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٥)

العنصرية التي تحمل لواء العداء للسامية اولا ، وعن الزوايا المتباينة التي نظرت ، من خلالها ، كل طبقة الى تلك المسألة ، والمواقف والوسائل المختلفة التي عالجتها بها ، وفق مصالحها وأطماعها ، وأوضاعها ، سواء اكانت هذه الطبقة طبقة سائدة ، او في طريقها نحو استلام زمام الحكم ، او متوسطة او محرومة كليا ثانيا .

تقسم المؤلف كتابه الى اربعة فصول ، يتناول ، في كل فصل منها ، مرحلة معينة من مراحل تكون المسألة اليهودية والنزعة العنصرية المضادة للسامية ، وليقوم ، بعدها ، بتسريحها والكشف عن مدى عمق العلاقة العضوية الجدلي ، الذي

يعتمد المؤلف ، في كتابه هذا ، اسلوب المنهج العلمي المستبد ، مباشرة ، من المصادر الرئيسية ، للنظرية المادية الجدلية ، في التاريخ والمجتمع ، وينتخذ منه اداة للبحث والتفتيح عن جذور « المسألة اليهودية » ومسبباتها المادية والتاريخية ، ثم يواصل ملاحقة تطوراتها المتماثلة ، في احضان المجتمعات الأوروبية ، منذ العصر الاقطاعي الوسيط ، وحتى عام ١٩٤٨ ، عام اعلان قيام « دولة اسرائيل » ، مروراً بالمرحلة البرجوازية القومية والراسمالية الاحتكاري ، كاشفاً النقاب ، خلال متابعتها هذه ، عن الاصول الطبقيّة البحتة ، لما سمي « بالمعضلة اليهودية » ، وعن بذور النزعة

يربط هاتين ، المسألة اليهودية ، والنزعة اللاسامية ، فيما بينهما ، بالصراع الطبقي الدائر في أوروبا ، وما نتج عنه من تباؤس مستعر بين الدول الاستعمارية ، لفتح اسواق جديدة أمام بضائعها ، والاستيلاء على اراض تنشيء عليها مستعمراتها بقصد حماية طرقها التجارية الهامة ، وتوفير المواد الخام لمصانعها ، من تلك الاراضي ، والتخلص ، ايضا ، من الفائض النسبي للبروليتارية ، بتشغيلها في تلك المستعمرات . ولقد دعم المؤلف رؤيته واستنتاجاته بالوثائق والمدكرات والوقائع التاريخية ، وسنمعرض مضمون كل فصل على حدة ، لنضع ملحوظات اولية ارتأينا ضرورة ابدائها ، ثم تنتهي الى مناقشة النزعة التي سيطرت على الكتاب ، مع التاكيد على ان هذه الملاحظات لا تقلل من شأن هذا الكتاب القيم ، ولكن تحرص على اثاره نقاط تخضع للحوار ، تحت شعار الموضوعية الشديدة وضغط المنهج العلمي الذي تعامل معه المؤلف ووجه خطه التحليلي .

١ - الفصل الاول . الطابع التاريخي للمسألة اليهودية : في هذا الفصل يبدأ المؤلف بحثه ، التاريخي والمادي ، عن جذور المسألة اليهودية ، والنزعة اللاسامية المترنة بها ، ومسبباتهما ، في طبقات علاقات الانتاج التي هيمنت على [المجتمع الاتطاعي خلال العصور المظلمة والوسطى] (ص ١٦) ثم يستعين بماركس ، ليبرر « منهجه الثوري » ، فيكتطف من كراسه المعروف « المسألة اليهودية » الفقرة التالية : [لن نبعث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي] (ص ١٧) ويضيف ماركس في كراسه نفسه [ان الفرق بين الانسان الديني والمواطن ، انما هو الفرق بين التاجر والمواطن ، بين الياوم والمواطن ، بين الملك العقاري والمواطن ، بين الفرد الحي والمواطن] (١) . وهدف ماركس الواضح من وراء تمريناته هذه هو الكشف عن المفارقة الشاسعة بين الانسان الديني او المواطن ، ككلمات مجردة وعهومية ، وبين التاجر والملك والعامل ، اي الانسان الذي يؤثر عليه وضعه الاجتماعي ومصالحه الاقتصادية والمعيشية ، وبجملته افضل ، الانسان الشخص ، وهكذا ينقلنا المؤلف الى نوعية التفاعل الحياتي الجدلي بين الانسان « الشخص » (٢) اليهودي والمجتمع الذي

يحيا فيه ومنه ، ويرى ، اي المؤلف [ان الاطراف التي سيطر عليها الرأسمال البضاعي ، هي المجتمعات الزراعية المنفصلة عن بعضها البعض ، والتي يقوم التجار بالتوسط التبادلي بينها ، والتي يستحيل على الرأسمال البضاعي ان يوجد ويتكون بدونها] (ص ١٧) وبما ان [الجاليات اليهودية في المجتمعات الوسطى « الزراعية » قامت بهذا الدور التجاري ، فقد حدد ماركس مكانها الاجتماعي بدقة ، في قوله ان اليهود كانوا يعيشون ، في مسام هذه المجتمعات مثلهم في ذلك مثل بقية الشعوب التجارية في العالم القديم] (ص ٢١) ثم يستشهد المؤلف ايضا بماركس ، مقتطعا فقرة من كتابه رأس المال [وكلما كان الانتاج متخلفا كلما زادت كمية الثروة النقدية المتركة بين ايدي التجار] (ص ٢٢) . ولقد مارس اليهود نشاطا اقتصاديا اخر هو الربا . [والربا كالتجارة ، يستغل نمطا معيناً للانتاج ولا يخلقه ، بل يحاول المحافظة عليه ، مباشرة ، كي يتمكن من استغلاله مجددا وعلى الدوام] (ص ٢٢) وبما ان هذه الجاليات كانت تمارس وظيفة ضرورية ، ومحرمسة في الوقت نفسه في المجتمعات الزراعية الاتطاعية ، فقد تمكنت من الاستمرار في الوجود ، ولم تنقرض ، او تندمج كلياً في الحياة الانتاجية السائدة والغالبة في محيطها ، وبما ان وظيفتها كانت هامشية ، اي انها تستغل نمطا معيناً للانتاج ولا تخلقه ، في حياة المجتمع واسالييه ، في انتاج الثروة ، لذلك يكون من الطبيعي [ان تنصف العلاقات بين هذه الجاليات والمجتمعات المضيفة لها ، بالتعايش المتوتر والحذر] (ص ٢٨) وهذا التفاعل او الاتجاه التاريخي العام ، لهذا النوع من العلاقات غير المستقرة ، راجع الى عدم رغبة المجتمع المضيف في هضم الجاليات كلياً بسبب وظيفتها الضرورية ، التجارة والربا ، لاجتماع زراعي ، من جهة ، وعدم ارتياحه لها ، بسبب قربتها عن اسلوب حياته الاساسي ، ونمط انتاجه السائد من جهة اخرى ، لتلك الاسباب مجتمعة ظلت [العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود خلال العصور الوسطى ، من هذا النوع المتوتر والقائم على علاقات التحلل والتسامح] (ص ١٩) ، فالكنيسة من ناحية ، كانت تمكس ، في تعاليمها وممارساتها تركيب المجتمع الاتطاعي وقيمته . [لذلك كانت

بل يتعلق به بقوة كالتفصيلات غيزيد من بؤسه [(ص ٢٥) لذا أدى بروز البرجوازيات التجارية المحلية، في أوروبا الغربية، إبان تلك الفترة، إلى صراع عنيف ودام ضد ممثلي الرأسمال البضاعي القديم، وحيث أن المجرى التاريخي لا بد إلا أن يسير إلى الأمام، حتمياً، ولا يمكن إبقائه، [كسر الاحتكار السابق للتجارة من قبل اليهود، وإخروجوا، تدريجياً، من السيطرة عليها في أوروبا الغربية] (ص ٢٤) فاتجه قطاع منهم نحو التمركز في ميدان الربا الخالص، وتعامل كبار المرابين اليهود مع الملوك والبراء والنبلاء، وتعاطى صغارهم العمل مع الجماهير الشعبية من حرفيين وفلاحين، نتيجة لهذا الوضع، اصطدم الرأسمال اليهودي، بكافة الفئات والطبقات الاجتماعية، وخصوصاً البرجوازية النامية، مما عرض اليهود لاسوأ أنواع الاضطهاد والمذابح الدموية، وأخذ يؤدي هذا الصراع، على نحو فكري، بحيث يبدو وكأنه صراع ديني جنسي أو عرقي، ولكن [الربا رافعة قوية، في نفس الوقت، في تطوير الشروط المسبقة للرأسمال الصناعي، من حيث أنها تقوم بالدور المزدوج التالي... أولاً إنشاء ثروة نقدية مستقلة، تأخذ مكانها إلى جانب ثروة التاجر بصورة عامة، وثانياً الاستيلاء على شروط العمل، أي تدمير ملكي شروط العمل القديمة] (ص ٣٥) من هنا تولد اتجاه آخر بين اليهود الإغنياء، عدا عن هجرة اليهود الفقراء إلى أوروبا الشرقية المتخلفة، هذا الاتجاه الهام [الذي سلكه قطاع من اليهود في أوروبا الغربية، بعد اقتلاعهم من مواقعهم الاقتصادية القديمة، كان الاندماج في النظام الرأسمالي، والدخول بشكل أو بآخر، في صفوف طبقته السائدة والمشاركة في صنعه وتطويره] (ص ٣٦)، وبصورة عامة، يمكننا القول، أنه مع مجيء القرن التاسع عشر، كانت الشرائح العليا من البرجوازية اليهودية مندمجة بصورة طليعية في الطبقة الرأسمالية، كما كانت الشرائح الأدنى والأفقر منها، التي لم تهجر، مندمجة أيضاً، ولكن بشكل أقل. وعبرت البرجوازية اليهودية الجديدة عن التلاؤم الذي حققته مع النظام الرأسمالي على أصعدة مختلفة، منها التصعيد الاقتصادي، فلم تعد بارزة [برؤسا خاصاً في عالم المال كما كانت في السابق]، (ص ٣١)

تنظر باحترار شديد وغداء متأصل، إلى كل ما يمت بصلة إلى التجارة والمال والربا [(ص ١٩)، كما كان الزبائن الأساسيون [للمرابين اليهود، هم النبلاء والقطاعيون من ملاك الأرض، والحرفيون والفلاحون أيضاً] (ص ٢١) وكان هذا سبباً أساسياً من أسباب العداء، بين الجاليات اليهودية والنظام القطاعي، إذ كان الأسياد يجدون أنفسهم مضطرين للتنازل، لصالح المرابي والتاجر، عن جزء هام من فائض القيمة، كما كان المرابي يستولي، أيضاً، على جزء آخر من فائض القيمة الذي ينتجه الحرفيون، وبصورة خاصة الفلاحين. إذن، فيذور المسألة اليهودية والنزعة العنصرية، كما يكتشفها الدكتور المعلم، تكن في نوعية علاقات الانتاج المسيطرة على مجتمعات العصر الوسيط القطاعية، وقد وجدت التربة الملائمة لإنائها، في المرحلة التالية التي تتسم بطابع ظهور البرجوازية، وبدء عملية تطور العلوم والصناعة الحديثة التي ولدت الرأسمال الاحتكاري، ولقد استمر الرأسمال التجاري والربوي اليهودي في تادية دوره ووظيفته، وفي الازدهار والتوسع، حتى [نهاية العصور الوسطى، أي حوالي القرن الحادي عشر للميلاد] (ص ٢٣) وستبين لنا، خلال رصد حركته، في الفترة اللاحقة، عملية انهياره في كل منطقة أوروبية أخذت تخرج من اقتصاد العصر الوسيط الزراعي، ومن ثم هجرته، وهذا يعني هجرة اليهود الطوعية والقسرية باتجاه المناطق الأكثر تخلفاً، اقتصادياً واجتماعياً، أي حيث ما زال نمط الانتاج القطاعي سائداً، ولم تنهدم أسسه بعد، في روسيا وأوروبا الشرقية.

مع بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، أخذت تتبدى، بوضوح، آثار التحولات البيئية والتراكمية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية [في أوروبا الغربية] (ص ٢٤)، وبعبارة أخرى [نمت البرجوازية التجارية المسيحية، داخل رحم مجتمع القطاع، استجابة لحاجة الانتاج الصناعي المتوسع في المدن، لبيع سلعه ومنتوجاته عن طريق تصديرها] (ص ٢٥). وكما يصف ماركس الرأسمال الربوي [أنه يفقر نمط الانتاج ويصيب القوى المنتجة بالشلل، عوضاً عن أن يطورها، كما أنه لا يغير نمط الانتاج،

هذا عيب فكري او دراسي ، ولكن نتج عن ذلك اننا كثيرا ما كنا نتابع فقرات المؤلف ، وكأنها تقارير انشائية ، لا تحسن موقفه الدراسي ، بقدر ما تنهك تسلسل موضوعاته ، وتلجئه ، بالضرورة ، الى استنباطات ميكانيكية بحتة ، وسنستعرض لهذه النقطة خلال نقدنا العام لهذا الكتاب ، والبديل الاساسي هو ان يأتي المؤلف بنماذج وقرائن من نصوص تاريخية تسجيلية محضة ، يستنتج منها ، جدليا ، ويقيم عليها نظريته ، هذه ملحوظة اولى .

ثانيا - لقد بنى المؤلف اطروحته على اسس بحث المسألة اليهودية ، منذ العصر الوسيط الاتطاعي ، ولم يرجع الى اسباب تبني اليهود لوظائفهم التجارية والربوية ، هذه الاسباب من أين نبعث ، ومن أي مخلفات اجتماعية إقتصادية تاريخية انحدرت ، ولو طالعنا بهذا الصدد كتاب يدعى امين^(٤) [المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية] ، لانتبهنا مع المؤلف الى احتمالات اخرى تقودنا الى نتائج ونظرية مختلفة ، ومعارضة مع احتمالات ونتائج ونظرية المؤلف ، سنعرض لها خلال نقاشنا لفصل قادم .

ثالثا - صحيح ان المؤلف وضع مقولة ماركس [لن نبعث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي] وهي مقولة نصادق على صحتها مائة في المائة ، غير أن ماركس اعاد تأكيد هذه الصيغة ، وقام باتماها ، باتجاهها المثقفي الجدلي حين سجل في كتابه العائلة المقدسة [انما يفسر انتعاش الدين اليهودي بالعوامل العملية للمجتمع المدني الذي انعكس وهيا في ذلك الدين]^(٥) ، وبإضافة المقولة التالية المعروفة جيدا لماركس « ان علاقات الانتاج القديمة تنفج حجر عثرة امام تطور القوى المنتجة النامية » نستطيع ، من ذلك ان نثبتين الاهمية الفائقة التي كان سيحدها المؤلف ، لو فغتش عن تأثيرات الدين اليهودي في خلق المسألة اليهودية ، ولنقرأ المقطع التالي الذي كتبه انطونيو غرامشي في مقاله « علامات استبدال اولية »^(٦) ، لنفسه ونحدد ما نعنيه بالضبط بمقولة الدين في مفهومنا ، يقول غرامشي [لاحظ مسألة الدين مأخوذاً ، ليس بمعناه اللاهوتي ، وانما بمعناه العلماني ، كوحدة ايمان تجمع بين رؤية العالم ، وبين نمط السلوك المتولد منها ... لماذا نطلق على وحدة

والصعيد الاجتماعي] ازداد عدد اليهود من ابناء البرجوازية الذين نخلوا عن دينهم واعتنقوا المسيحية . [(ص ٣١) والصعيد الثقافي .] انتجت البرجوازية اليهودية وقادت حركة الهاسكالا ، اي عصر التنوير اليهودي . [(ص ٤٠) ، كما هي الحال مع عصر التنوير الاوروبي ، والصعيد الرابع السياسي] اعطت البرجوازية اليهودية ولاءها الكلي للحركات القومية ، في البلدان الموجودة فيها ، واعتبرت ذلك جزءا من عملية تحريرها الاجتماعي العام . [(ص ٤٠) ، هذا على الرغم من أن عملية تكون طبقة عاملة يهودية ، كانت .] عملية بطيئة وهزيلة نسبيا ، كما يقول لينين [(ص ٤٣) .

اما في اوروبا الشرقية التي هاجر اليهود اليها ، حملت [البرجوازيات المحلية النامية ، بالتحالف مع الامراء الاتطاعيين ، لواء معاداة السامية ، باعتبارها الانعكاس الايديولوجي والسياسي الفوقي ، لانفعاها المادي باتجاه توسيع اعمالها] (ص ٤٥) فوقعت حجرة يهودية معاكسة الى اوروبا الغربية [حركت نوازح لا سامية قوية في صفوف الطبقات الوسطى] (ص ٤٦) ولقد وصل هذا الوضع حالة التفجر مع تدفق الجماهير اليهودية من روسيا ، وهي في معظمها ذات طابع حرمي وبرجوازي صغير ، يقاسم الطبقة الوسطى الاوروبية لقبه عيشها وينافسها في اعمالها وهذا يغسر اولاً ، قيام عناصر قيادية من البرجوازية اليهودية المندمجة ، في اوائل هذا القرن ، بدعم قوانين الحد [من الهجرة اليهودية التي سنتها حكومات الدول الاوروبية الغربية] (ص ٤٢) ، ثانياً ، تقديم اليهود الفقراء [نسبة مئوية مرتفعة من قادة الحركات الثورية] (ص ٤٢) في اوروبا الشرقية .

كان لا بد لنا من هذه الاستفاضة في استعراض المقدمات الطويلة التي وضعها المؤلف ، في هذا الفصل ، حيث يركز دعائم نظريته واطروحته التي سيوردها فيما بعد عبر الفصول الباقية ، ولكن لا بد لنا ، ايضا من التنويه ببعض الملاحظات النقدية التي ستقدم نقدنا الاجمالي .

اولا - ان المؤلف استند بصورة مكثفة جدا على المصادر الكلاسيكية للنظرية الماركسية ، واخرجه ايضا من قالبها الاساسي والتاريخي ، وليس في

اسعد رزوق حيث يقول [ان اهتمام اناس غير يهود بالمسألة اليهودية ، او من اصطلح على تسميتهم بصهيونية الاغيار ، هو ظاهرة تاريخية ودينية تصدر عن بواعث سياسية وامبريالية ، الى جانب الباعث الديني الموروث] ، (ص ٥٢) . ويعود الدكتور العظم على هذا الفهم الذي يديه الدكتور رزوق ، لنفي الجانب الديني كلية منه ، لانه يبصر في [الواقع ان صهيونية الاغيار لم تكن في يوم من الايام ، حليفا مستقلا للقسوى الابريالية ، بل كانت جزءا لا يتجزأ منها ، واداة هامة من ادواتها] ص ٥٣ ، وعلى هذا الاساس الوحيد ، لم يكن اهتمام كرومويل ، او نداء نابوليون بوناپرت الى اليهود الذي [دعا فيه جميع يهود آسيا وافريقيا للانضواء تحت رايته من اجل اقامة القدس القديمة] ص ٥٧ غير اطماع [كان موضوعها الرئيسي من سيجيم على القسم الاكبر والاهم من التجارة العالمية يوميا] ص ٥٤ ، لما في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد اشدت التنافس بين الدول الابريالية [على توسيع نفوذها في اراضي الامبراطورية العثمانية وحمايه مصالحها فيها] ص ٥٩ وهذا ما دفع للسورد شانتسبوري [لان يعمل ويخطط مع بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها حينذاك ، على دفع المشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين ، الى الامام] ص ٦٠ ومن الشخصيات الهمة والمؤثرة التي شاركت في هذه المداولات [الكولونيل تشارلز هنري تشرشل الذي شغل منصب القنصل البريطاني في دمشق] ، ص ٦٤ كما صدر ، في ذلك الحين ، كتاب لدكتور يدعى توماس كلارك يحمل عنوانا [يمتنى الوضوح بالنسبة لموضوعنا ، هو الهند وفلسطين : او احياء اليهود من وجهة نظر علاقة ذلك بطريق الشرق الادنى الى الهند] ، ص ٦٧ ، وبهذا فان الامثلة التي قدمناها تكفي [لتبيان المنشأ الابريالي والاستعماري للمشروع ، قبل ان تعره البرجوازية اليهودية اي اهتمام جدي] ، ص ٦٩ ، لهذا الغرض أسست جمعيات غير يهودية ، هدفها ترحيل اليهود الى فلسطين ، مثل جمعية استعمار فلسطين التي رعتها الابراطورة اوجيني زوجة نابوليون الثالث ، وفي بريطانيا لم تفقد [الطبقة الحاكمة اهتمامها الجدي بالمشروع الصهيوني منذ ان نضجت الاسس المادية] ص ٧١ ، وشارك دزرائيلي بكتاب قدمه كاقترح

الايمان هذه تسمية الدين ، ليس الاخرى بنا ان نسميها ايديولوجية ... او بصراحة اكثر سياسية [ان التفاضل عن العملية الجدلية والرابطة العضوية بين البناء الفوقي الاخلاقي والديني ، كما حددناه من جهة ، والبناء التحتي دفع بالمؤلف الى بلورة نظرة ميكانيكية احادية الجانب ، وغير مرجحة من قبل دارسين مثله ، وستناقش هذه النظرة الميكانيكية تفصيلا لاحقا ، وفي الحقيقة اننا لا نريد العودة الى المسائل الدينية ولكن طيننا ان نلمس ونشخص اثر « التدن » (٧) في المسألة اليهودية ونمط السلوك اليهودي واثره ايضا في اثارة النزعة اللاسامية .

٢ - الفصل الثاني : المنشأ الابريالي للمشروع الصهيوني : مهمة صعبة ، وغاية في التعقيد ، تلخيص هذا الفصل ، بالرغم من قصره ، هذا اذا اردنا الدقسة في العرض ، ومتانة التسلسل والاسلوب ، اذ ان المؤلف يزججه بالوثائق والمذكرات والاستشهادات ، ولكنها مهمة ينبغي القيام بها ، لا محالة لو حزمنا امرنا على استخراج المحور الرئيسي في نظرية يعمل المؤلف على بنائها ، حول المسألة اليهودية ، وهدفه اعادة ترتيب هذه المسألة في رؤية متباعدة ، مع انه وضع اسس هذه النظرية في الفصل السابق ، بمنحى تقريبي ميكانيكي ، الا انه يواصل تدعيم اتجاهه هذا بلغة الارقام والوثائق .

يعرض المؤلف ، هنا ، لواقع المسألة اليهودية وعملية تفتتها ، خلال اوضاع اليهود ، في عهد نضوج البرجوازية الرأسمالية ، ودخولها الى مرحلة الرأسمال الاحتكاري المتوسع باضطراد نحو فتح اسواق ، وانشاء مستعمرات جديدة ، لتصريف البضائع واستيراد المواد الخام ، وحماية المرات الاستراتيجية [ولايضاح ما يعنيه ، لا بد من الإشارة الى ان الفكرة التقليدية ، عن العودة الى الارض المقدسة او الموعودة لم تكن تعني عند اليهود ، في مطلع العصور الحديثة ، اكثر من تطلع عاطفي ديني عام ، ورفية مند بعض المتدينين اليهود في الاقامة في فلسطين للمتعبد] (ص ٤٩) . وهذه الحال لا تمثل اكثر من [تطلع الجماهير المسيحية او المسلمة اتجاه بيت لحم او مكة] ، (ص ٥٠) ، ويورد الدكتور العظم فقرة من كتاب الصهيونية وحقوق الانسان العربي(٨) للدكتور

ويدون مبادئ فكرية او سياسية ، الى القول بأن وعيا قوميا بدأ يحرك اليهود في ستينات القرن التاسع عشر ، هذا ما سيراه المؤلف في الفصل التالي ، ولكن كيف نستطيع ان نفهم جملة بقولها الكاتب اليهودي اسرائيل زانغويل (١١) مثل الجملة التالية [الدين التقليد الذي وحدنا حتى الان يجب ان لا نخسره وهو على اعتاب تجاوزه الديانات التي انبثقت عنه . . . من يدري فقد يولد ثانية فينا اذا صبرنا] كما يؤمن ايضا بانهم اي اليهود [ملينا العالم الذين كما علمته اليونان الجمال والعلم وان الله قد اختار عرقا واحدا ليكون رسله وتلاميذه] . لسنا هنا في مجال الاصرار على ان الدين اليهودي هو المحرك الاساسي للنزعة الصهيونية ، ولكن المتغيرات الاقتصادية ، التي اجتاحت اوروبا في القرن الماضي ، دفعت اليهود الى التفكير في وضعهم كيهود يحملون رسالة معينة الى العالم كما تحل أوروبا ذلك بادعاءاتها ، ولا بد ان المتغيرات الاقتصادية كان لها التأثير على الدين اليهودي ، ذلك التأثير الكافي لخلق ايديولوجية جديدة ، مهما كان نوعها .

٣ - الفصل الثالث : الصهيونية اليهودية :

في هذا الفصل يصف المؤلف عملية تبني الطبقة البرجوازية اليهودية للمشروع الصهيوني ، لانها رأت فيه امكانية التخلص من غائض نسبي من البروليتارية اليهودية والبرجوازية الصغيرة اليهودية ، هاتان الطبقتان اللتان كانتا تشاركان في حوض صراع ضد اخصامهما من البرجوازية الكبيرة اليهودية وغير اليهودية ، فبعد ان وعت البرجوازية اليهودية مصالحها العميقة في هذا المشروع للتخلص من اليهود الفقراء الذين كانوا ، ايضا ، عرضة لنقمة [الطبقة البرجوازية الصغيرة الأوروبية التي رأت فيهم خصما من خصومها الذين ينافسونها] (ص ٨١) على حصتها من السوق الداخلية ، مما زاد من اشتعال نار الحقد على السامية ، وجدت البرجوازية اليهودية ، بعد حين ممثلين لها في الفكر الديني ، كيهودا التالي ، وكالشر في بريطانيا وموسى هس في فرنسا ، للترويج لاطروحاتها ، ولقد أصدر هذا الاخير كتابا ادعى فيه [ان هذا الحل ، أي استعمار فلسطين ، لا يريح البرجوازية اليهودية ، الباقية محلها في اوروبا بل من شأنه ان يرضي القوى الاجتماعية الواثقة وراء حركة معاداة السامية] (ص ٩٤) . ويورد

للمسيطرة على قناة السويس تحت عنوان « المسألة اليهودية في المسألة الشرقية » ، وكل هذه المشاريع كانت تستهدف وجود الشعب الفلسطيني واقتلعه من أرضه ، تؤكد ذلك كل المخططات المقدمة ، ومنها مخطط متفرد ، احد متفذي الجهاز البريطاني لادارة المستعمرات الذي نشره في كتاب عام ١٨٤٥ وقال فيه [ان الضغط الذي يولده ادخال كتلة ، بهذا الحجم من الغريباء ، على السكان الفلسطينيين قد ترتب عليه نتائج مؤفية ، لذا يستحسن ان يتم اعداد البلاد ، بحث الحكومة العثمانية على العمل على جعل السكان يتراجعون صوب تلك البلاد] ص ٦٦ العربية الشاسعة .

هذا الفصل يحتوي على براهين قاطعة يأتي بها المؤلف ليثبت ان اليهود لم يولوا عناية فائقة لمشروع استعمار فلسطين ، بقدر ما حملت الاطماع الاستعمارية ، كبار المستعمرين على الترويج له ، بين اليهود انفسهم ، بغية تحقيق هذه الاطماع ، وفي نفس الوقت ، ينحي الدكتور العظم العامل الديني ، ولا يراه عنصرا مؤثرا في تحريك النزعة الصهيونية في نفوس اليهود نحو استعمار فلسطين ، ولكن هذا التفسير الذي يطرحه علينا الدكتور العظم لا يشفي وحده . فمثلا لم يهتم الدكتور بالجانب الاخلاقي من المسألة ، والا كيف نستطيع ان نفسر موقف الكاتب جورج اليوت المدافع عن حق اليهود في بناء قوميتهم من خلال الدين ، وكيف نستطيع ان نفوت موقف الكاتب الانجليزي سير ولتر سكوت الذي كان منحازا تماما الى الجانب اليهودي باعتبار اخلاقي محض (٩) . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يجب ان نرى في الدين اليهودي البناء الفوقي المتغير بمتغيرات البناء التحتي . يقول ماركس بهذا الصدد [في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، تتناقض قوى الانتاج مع علاقات الانتاج اذ ذاك تبدأ حقبة الثورة الاجتماعية ، ان تغير القائمة الاقتصادية يؤدي الى انقلاب سريع في مجمل البنية الفوقية ، وعندما نعالج مثل هذه الانقلابات ، لا بد لنا من ان نميز باستمرار بين الانقلاب المادي الذي يمكن رسده بدقة وبين الاشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية ، باختصار الاشكال الايديولوجية حيث يعنى البشر هذا النزاع ويخوضونه حتى النهاية] (١٠) . ولكن الكاتب لم يعر أي انتباه لهذا الجانب ، بحيث يتلنا فجأة ،

المؤلف كلاماً سجله لينين على لسان سيسيل رودس ، أحد دعاة الاستعمار ، حول الوضع المتفجر في أوروبا ، بعد أن كثرت البرجوازية عن انيابها أمام مطالب البروليتاريا [يقول رودس إذا كنتم تريدون تجنب الحرب الأهلية فعليكم ان تصبحوا امبرياليين] (ص ٩٤) . وقام كبار إقطاب المال اليهود من أمثال مونيفيري والبيرت كوهين وكل من آل روثشلد وفولد وشريم ، [بتأسيس جمعية هدفها استعمار فلسطين] (ص ٩٢) . وحولت هذه الدعوة الى دعوة ايديولوجية بكتابات هس حيث يقول في كتابه المذكور موجهاً كلامه الى اليهود [تحولوا الى مثقفي (بكسر القاف) القطمان العربية المتوحشة ومثقفي الشعوب الافريقية] (ص ٩٧) . لنا ملحوظة واحدة على هذا الفصل فان المؤلف يهدد به ليصنعه في مقولة تنسجم مع سياق « رؤيته » للمسألة اليهودية ، وهذه المقولة تشير الى ان البرجوازية اليهودية أخذت تتحرك ضمن [طباق قومي برجوازي] (ص ٩٩) . ونحن لا نتفق مع المؤلف على هذه المقولة النهائية ، وان كنا نؤيد ان البرجوازية اليهودية أدركت مصالحها الوعرة ، كبرجوازية ، في استعمار فلسطين وخلق أسواق خاصة بها ، ذلك ان الوعي القومي يتطلب روابط أخرى مثل اللغة والتاريخ والمصير المشتركين ، ولم تتوفر هذه الشروط أبداً لليهود ، بل بالعكس [ان القادة الصهاينة كانوا يشعرون بخطور تعرض دعوتهم الى الفشل والانهيار بسبب اتساع الحركة الاندماجية-كما تقول-بديعه امين(١٢)] . ثم ان [أي دراسة جدية لقضيةنا ، لا يمكن ان توصل الى نتائج مرضية ، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف والملابسات ، سواء أكانت اقتصادية او سياسية او ثقافية تكتنف تلك القضية(١٣)] ، وهذا ما لم يتطرق اليه المؤلف الا بشكل طفيف وغابر ، لا يبرهن على تأكيدات حول الطابع القومي ، ومن هنا فانه ليس من المعقول « ان نقبل قول هرتزل من ان اللامامية هي ثمرة تحرر اليهود »(١٤) ، ثم هل يمكننا اعتبار الصهيونية على انها الحركة القومية للبرجوازية اليهودية ، في أوروبا ، كما يعتقد الدكتور العظيم ، ام ان الحركة الاستعمارية هي التي خلقت الحركة الصهيونية(١٥) ولنذكر هنا ايضا موقف لينين من حق الشعوب في تقرير مصيرهم ، ورفضه القاطع ، في ذات الوقت ،

اعطاء [الاستقلال الذاتي للحزب الرجعي اليهودي المسمى باليوند]-(١٦) ورفض الحزب البلشفي الاعتراف باليوند بوصفه الممثل الوحيد للبروليتاريا اليهودية(١٧) ، ولو كان لينين رأى في ذلك الاستقلال استقلالاً حقيقياً لحزب يعزز عن شعبه في وضع قومي ، لتغير موقفه تغيراً تاماً .

الفصل الرابع : الحركة الصهيونية : في هذا الفصل يرسم المؤلف الملامح العامة لتطور كل من النظرية والحركة الصهيونية المنظمة في اطار [قومي برجوازي واضح] (ص ٩٩) ، ويؤكد ان كتاب ليو بنسکر « التحرر الذاتي » ، [عبر فيه عن تبلور الاتجاه القومي ، كما فعل هرتزل غسي كراسه الدولة الصهيونية] (ص ١٠١) على الرغم من ان المؤلف يرى المشروع الصهيوني أكثر فائدة [لليهود المندمجين « ويعني بالتحديد الطبقة البرجوازية » أكثر من المواطنين اليهود المؤمنين لانهم سيخلصون بذلك من مزاحمة البروليتاريا اليهودية المزعجة] (ص ١١٠) ، لذلك فان تشامبرلين ، الذي كان معروفاً بمواقفه العرقية ، وقيادته للحملة الداعية [الى سن القوانين العنصرية الموجهة ضد المهاجرين اليهود الى بريطانيا ، اظهر نفسه في البرلمان البريطاني ، من أكثر الناس حماسة للصهيونية ، حيث كالم المديح لهرتزل وأعلن اقتناعه بالحل الصهيوني المقترح للمسألة اليهودية] (ص ١٢٠) . وهذا الموقف بعينه ينطبق ، يوماً [على اللورد آرثر بلفور الشهير] (ص ١٢٠) . وهكذا ايضا استقطبت الحركة الصهيونية من النزعة اللامامية في دفع اليهود نحو الالتحام بها ، كما فعل فلاديمير جابوتنسكي الذي فاوض اعداء الثورة البلشفية الذين [سريكتيون المذابح ضد اليهود مهما كانت الظروف] (ص ١٢٧) . والمحرك المركزي الذي كانت تدور حوله مفاوضات هرتزل واتصالاته بالحكومات الأوروبية [هو التعاون العملي بين الحركة الصهيونية والدول المعنية ، لتتخلص من عناصر الشعب اليهودية المنظمة بالمنافسين والأشخراكيين المثقفين ، كذلك تعزيز قدرة الدولة المتصودة ، وتوسيع سيطرتها ، الا ان هرتزل الذي كان يفضل حماية الامبريالية الالمانية ، كان يدرك في نفس الوقت ان الدولة المرشحة اكثر من غيرها للقيام بهذه المهمة هي بريطانيا] (ص ١٥٣) ، وبهذا انتهى الامر بصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ أي

ادنى علاقة لارادة اليهود فيها ، وبدون أي تأثير من تعاليمهم ومعتقداتهم الفكرية والاسطورية والفلسفية ، وبذلك تناقض المؤلف عن جوانب مهمة انعكس فيها المنصر الاقتصادي والتطورات التاريخية ، كما كان لها الاثر ، بدورها ، على البنية التحتية التي نبعت منها ، ونعني بتلك الجوانب الثقافية والمدنية والايديولوجية ، وهي التي كانت تبقي وتربط رباطا متوترا ، لليهود ، كيهود ، بالمجتمعات الاوروبية وعلاقات الانتاج السائدة فيها ، ومن هنا ، أي من تحية المؤلف للجوانب الفكرية والدينية والارادية من المسألة اليهودية ، تولدت تلك النزعة التقديرية الميكانيكية التي سيطرت على سياق المعالجة ، بحيث بدت الحركة الصهيونية وكأنها حركة بدون بواعث وعوامل محررة يهودية ، ولكنها حركة ضرورية تفرزها المجتمعات الأوروبية ، في نفس الوقت الذي يناقض فيه المؤلف نفسه ، حين يصر على تبلور الخاصية القومية لليهود ، في ستينات القرن الماضي ، في لندن هذه الحركة التي ليس لها القدرة الذاتية ولا الفكر الايديولوجي الكامل والناضج ، وهذا انتقال كيني مناجيء ، حذر منه ماركس ولينين وغرامشي ، لقرارك عارض وغير جوهري ، وفي الحقيقة ان الفصل الاخير ، لم يأت حسبما شاء توجه المؤلف الفكري ، ولكنه جاء على النقيض ، بتبيان افرادية وانعزالية ارادة كل من هرتزل وينسك عن اليهود ، كما ان المؤلف على الرغم من استشهاده بقوله ماركس بأن لا نبحت عن سر اليهودي في دينه بل نبحت عن سر الدين اليهودي في اليهودي الحقيقي ، لم يتم باستعمالها على الاطلاق ، مما عرض بحثه ، للسقوط في النزعة الميكانيكية الخالصة كما ذكرنا آنفا ، فانصب بحثه على نمطية علاقات الانتاج وحدها ، بدون ان يسبر افرازات هذه العلاقات وأثرها في اليهود ، ثم أثر هؤلاء على علاقات الانتاج وتعاملهم معها ، ولقد اوضحنا في السابق ، ان الدين اداة سياسية ، ايضا ، في ايدي الافراد ، وهي مفهـج اخلاقي عملي لتجنب مواقف معينة او اتخاذها ، أم ان اليهود لم يندمجوا في المجتمعات الأوروبية ، على الرغم من مرور عصور طويلة ، لانهم مرابون نحسب ، بدون صيانة فكرية ومقائدية لموقفهم هذا ، فهو أمر غير معقول على الاطلاق حتى ضمن

[في الفترة الواقعة بين ثورتي فبراير واكتوبر الاشتراكية ، ولم يكن صدوره معزولا على الاطلاق عن-سقوط النظام الفيصري] (ص ١٦٤) في روسيا ، لان الامبراطورية البريطانية أرادت خلق خنادق ومعسكرات أمامية في وجه المد الثوري العمالي ، وتمكنت الوكالة اليهودية من توسيع دائرة نفوذها حيث أصبحت [تضم ممثلين عن يهود امريكا غير المتبعين ، رسميا ، الى الحركة الصهيونية] (ص ١٧٧) ، وبذلك جرى ربط أهداف متعددة - السياسة القومية ، والامن ، والاستراتيجية - بهدف [الاستيطان] (ص ١٧٩) ، كما تجاوزت الحركة الصهيونية مع الانظمة النازية والفاشية بقصد اشعار اليهود بعزلتهم وتوحدهم وحثهم الى الهجرة نحو فلسطين ، وينهي المؤلف كتابه بالقول بأنه [على الرغم من ضخامة جهاز القمع العسكري البريطاني الصهيوني لم تهدأ مقاومة الشعب العربي الفلسطيني التي اتخذت شكل ثورة مسلحة عام ١٩٢٩] (ص ١٨٣) . ولكن تمكن مجتمع [المستوطنين المتفوق عسكريا وتنظيما وسياسيا] (ص ١٩١) وله تاريخ طويل من التعامل والخبرة الاقتصادية ، من تحقيق اهدافه بطرد اكرية الشعب الفلسطيني ، وليس غريبا [ان تظهر اسرائيل بظهور « الجيتو » الرجعي المدجج بالسلاح والمرتبط عضويا بالمصالح الامبريالية ، والمستعد دوما للتوسع العنيف ، ولضرب أي تحرك ثوري او وحدوي في المنطلقة من شأنه ان يهدد استراتيجية هيمنة نظام العلاقات الامبريالية] (ص ١٩١) .

من هذا الاستعراض المطول ، لهذا الكتاب المهم ، وبعض تعليقاتنا التفصيلية عليه ، نرى ان الحركة الصهيونية لم تكن حركة ذاتية القدرة والتوجه ، بل على العكس ، فلقد خلفتها ظروف واوضاع اجتماعية واقتصادية عاشتها أوروبا ، وأنتجت تطورات اقتصادية لاحقة ومحددة ، ومن ثم وجهتها أهداف ومصالح امبريالية معينة ، ولكنها ، أي المسألة اليهودية تبقى مسألة جانبية ونسبية ملحقة بالمجتمع الأوروبي ، الا ان الكاتب لم يكشف او يحاول تبيان الجوانب الاخرى للمسألة اليهودية والحركة الصهيونية ، فبدت ، من خلال عرضه لها وكأنها مسألة حتمية التكون والنمو ، ثم الحل بطريقة انشاء الكيان الصهيوني ، بدون

في فلسطين ، وبدأ هذا الإطار وهذه البوتقة يفعلان فعلهما في الافراد ، لصهرهم ، في مصالح مشتركة تاريخ مشترك ، لغة مشتركة ، أهداف مشتركة ، وتوجه مشترك ، ومصير مشترك ، في مواجهة الأمة العربية بمجموعها . وعلى الأمة العربية ان تدرك هذا جيدا ، لا ان تتغاضى عنه .

دراسات فلسطينية ، رقم ٤٨ .

٩ - راجع بهذا الصدد كتاب « الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية » ، هاني الراهب ، صدر عن مركز الابحاث الفلسطينية ، سلسلة كتب فلسطينية ، رقم ٥٦ .

١٠ - مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ، ماركس ، الترجمة الفرنسية ، باريس ، ١٩٥٧ ، ص ٤ ، ٥ .

١١ - الشخصية الصهيونية ، في الرواية الانكليزية ، ص ٥٧ .

١٢ - كتاب بديعة امين ، ص ١٢٠ .

١٣ - نفس المرجع ، نفس الصفحة .

١٤ - كتاب بديعة امين ، ص ١٢٥ .

١٥ - كتاب بديعة امين ، ص ١٣٥ .

١٦ - كتاب لينين ، خطوة الى الامام خطوتان الى الورا ، ترجمة دار التقدم ، ص ١١ .

١٧ - خطوة الى الامام ، خطوتان الى الورا ، ص ٣١٤ .

١٨ - راجع بهذا الخصوص « نشرة أخبار » ، نشرة يصدرها المكتب الصحافي بالسفارة الصهيونية في بيروت ، وفق مواد وكالة انباء نوفوستي ، التاريخ ١ ايلول ١٩٧٢ .

هاني الزعبي

اطار المنهج العلمي الحقيقي ، واخرا نعترف ، بدافع علمي ، ان الشخصية القومية للمجتمع الصهيوني أخذت الان تدخل في مرحلة النضج والتطور الواقعي ، كما يشير الى ذلك علماء الاجتماع السوفييات (١٨) ، حيث يؤكدون ان المستوطنين اليهود وضعوا في اطار وبوتقة محددين

الحواشي :

١ - الارقام الصغيرة الموضوعة لوحدها بين قوسين تشير الى مراجع رجعنا اليها نحن شخصيا ، نعني هنا بالمصادر الرئيسية للنظرية المادية الجدلية ، مؤلفات ماركس ، انجلز ، لينين ، وغيرهم من كلاسيكي هذه النظرية .

٢ - كراس ماركس المعروف باسم المسألة اليهودية ، صدر عن دار الجبل بدون تاريخ ، ولم يشر فيه الى اسم المترجم .

٣ - نعني بهذه الكلمة ما يعنيه ماركس في الجبل السابقة .

٤ - صدر كتاب بديعة امين عن دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، تشرين الاول ١٩٧٤ .

٥ - العائلة المقدسة ، او نقد النقد النقدي ، كارل ماركس ، فريدريك انجلز ، ترجمة حنا عبود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ص ١٤٢ .

٦ - قضايا المادية التاريخية ، انطونيو غرامشي ، ترجمة فواز طرابلسي ، صدر عن دار الطليعة ، ص ١٣ .

٧ - التدين ، هذه الكلمة نستعملها كما حددها غرامشي ، كوحدة ايمان تجمع بين رؤية العالم وبين السلوك المتولد عنها .

٨ - صدر عن مركز الابحاث الفلسطينية ، سلسلة

سلمى حداد ، المساعدات الاميركية العسكرية لايران (دار القدس ، بيروت ، ١٩٧٤) .

الاستراتيجية السياسية . ولذلك بدأت بمد بعض الدول المتخلفة بالدعم الاقتصادي والعسكري كمقدمة لتقوم هذه الدول بدعم المخططات السياسية الاميركية في المناطق الحساسة من العالم . ومن هنا نفهم الدور الامبريالي الفرعي الذي تمارسه كل من البرازيل في امريكا اللاتينية ودولة جنوب افريقيا واسرائيل في الشرق الاوسط والان ايران في منطقة الخليج العربي .

اما بالنسبة للتصريحات التي ادلى بها الشاه مؤخرا حول عزمه على دعم العرب في المعركة المقبلة مع اسرائيل ليست الا محاولة للتعمية ، اذ سرعان ما كذب ناطق رسمي ايراني هذه الاشاعات ثم الحقها بتصريح اخر نفى فيه عزم ايران عن قطع دعمها البترولي لاسرائيل باعتبار « ان السياسة شيء والتجارة شيء » . وهذا خطأ طبعا لانه لا يمكن فصل السياسة عن الاقتصاد مثلما لا يمكن فصل السياسة عن الحرب . من هنا نرى انه لا مجال للمراهنة على تغيير الموقف الايراني من اسرائيل وبالتالي من الامم الحنون : الولايات المتحدة الاميركية .

بعد ان تقدم الكاتبة المعلومات الجيدة حول المساعدات الاميركية لايران ، ومخططات الامبريالية في منطقة الخليج العربي ، تحاول ان تعطي صورة سياسية عن شبكة العلاقات القائمة في المنطقة من خلال شبكة العلاقات الدولية والاطراف المتصارعة عالميا ، وانعكاس ذلك الصراع على وضع المنطقة . وهنا لا بد لنا من تسجيل بعض الملاحظات على الكتاب لعدم موافقتنا على المضمون والموقف السياسي رغم نوايا الكاتبة الحسنة . الا ان النوايا لا تبرر الاخطاء التي وقعت فيها .

فالكاتبة مثلا ، تعبر عن دهشتها كيف ان الولايات المتحدة تدعم بعض الزعماء في العالم لا يتمتعون بشعبية في بلادهم نفسها ، عدا عن العداء مع الدول المجاورة ، كايرون واسرائيل .

كما انها تدعو رؤساء امريكا الى وعي مصالح بلادهم القومية في المنطقة . وتطرح مشروع تعاون رؤوس الاموال العربية والايرانية مع التقنية

صدر من دار القدس كتاب « المساعدات الاميركية العسكرية لايران » لنانسة سلمى حداد ، وفيه تعالج قصة العلاقة الاميركية - الايرانية والصدائة المتبادلة بينهما والقائمة على اساس الدعم العسكري للشاه مقابل الدعم السياسي للمواقف الاميركية في منطقة الخليج العربي ، وفي مواجهة الاتحاد السوفياتي والدول العربية .

ويتبع الكتاب في مئة صفحة من الحجم المتوسط مع ملحق يعطي صورة مفصلة ، وبالارقام ، عن الدعم العسكري وتاريخه واسبابه في كل مرحلة من المراحل التي مرت على المنطقة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

تحاول الكاتبة في مقدمة الكتاب اعطاء لمحة سياسية لتوضيح مضمون العلاقة الاميركية - الايرانية ، وشكلها ، ومعنى الدعم العسكري لنظام الحكم « الشاهنشاهاني » وذلك بأسلوب صحفي مبسط ادى الى وقوعها في عدة عشرات سياسية ، سنسأتي على ذكرها فيما بعد . الا ان المقدمة رغم ذلك ، اعطت صورة علمية عن تلك العلاقات ، وكيف اتخذت عدة اشكال في فترات متتالية . يتضح منها ان ايران تشكل القاعدة الامبريالية الاساسية للولايات المتحدة الاميركية في منطقة الخليج العربي في وقت تزداد فيه التهديدات الاميركية باحتلال منابع النفط . فايران تكمل الدور الذي تلعبه اسرائيل وبأساليب مختلفة في منطقة اخذت تبرز اهميتها الاستراتيجية والاقتصادية في السنوات الاخيرة . وايران هي احدى الدول التي فززتها الولايات المتحدة على خانة البلدان التي يمكن تحويلها للعب دور امبريالي فرعي في العالم . فالسياسة الاميركية التي اصيبت بهزائم متعددة ومتكررة في عدة مناطق من العالم وخاصة في منطقة جنوب شرق اسيا ونتيجة للنكسات العسكرية التي لحقت بجيوش امريكا الدججة بالسلاح في مواجهة حركات التحرر الوطنية في البلدان المتخلفة ، اخذت هذه السياسة تتجه منذ سنوات قليلة نحو الانسحاب التكتيكي التدريجي - العسكري المباشر من بعض المناطق المتوترة في العالم متمسكة في الوقت نفسه باهدافها

امتيازاتها واحدا بعد الآخر» (ص : ٤١) .

وتحاول أيضا ان تستعمل كل وسائل الاغراء لجذب الولايات المتحدة الينا سواء بالنسبة الى النفط وحاجة السوق الاميركية اليه ، ام بالنسبة الى السوق العربية الاستهلاكية للبضائع الاميركية المصدرة الينا . وتعتبر ان هناك تناقضا بين اقوال رؤساء اميركا وأفعالهم وخاصة نيكسون ، فتقول : « ففي تقرير حول السياسة الاميركية لعام ١٩٧٠ وضع الرئيس نيكسون مبادئ واهدافا مثالية للسياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، تجعل كل من عايش التطبيق الفعلي لهذه السياسة ينفجر غاضبا من جسامة التناقض بين الطرح النظري المتزن والتدابير العملية المتخيزة » (ص : ٣٩) . وتقول في مكان اخر : « ولو ان الولايات المتحدة اتبعت سياسة مختلفة لجنبت كل من المسرب والاسرائيليين الكثير من الالام والتضحيات ، ولوجدت نفسها في مركز افضل في هذه المنطقة » (ص : ٣٥ - ٣٦) .

قلنا ان نوايا الكاتبة الصنعة وموافقنا التقدمية لا تبرر الاخطاء . فالعلاقات الدولية تحكمها المصالح قبل اي شيء اخر ، ومصالح الدول ليست انعكاسا لموجة البشر الذاتية بل نتاج النظام القائم وانعكاس لمصالح الطبقة الحاكمة ، هذا اولا . ثانيا ان الاخطاء في العلاقات الدولية وخاصة بين دولة كبيرة ودولة صغيرة ليست ناجمة عن صدق وسوء تقدير ، الا في حالات استثنائية جدا ، بل تعكس نوعية العلاقة بين الدولتين والمصالح المتبادلة بينهما . ثالثا ان الولايات المتحدة لا يمكن المراهنة عليها ، ولا يمكن التعويل على سياستها ولا يمكن الموازنة بينها وبين دولة اشتراكية ، لان السياسة الاميركية مرهونة بتأمين مصالحها في المنطقة وحماية مصالحها تعني سيطرتها على مرافقنا الاقتصادية وبالتالي توجيهنا موافقا للسياسة .

وليد نويهض

الاميركية . فتقول : « ولا يمكن للشاة ان يربح صداقة الدول المجاورة واحترامها الا اذا تخلى عن احلامه التوسعية ، وعمل في حدود امكاناته وطاقته . وعندئذ يمكن للولايات المتحدة ان تتخلى عن سياستها ، وان تستفيط سياسة خارجية متينة متوازنة بالنسبة الى الدول العربية وايران معا . ان مثل هذه السياسة تتيح امام الولايات المتحدة المجال للتعاون بشكل اكمل مع دول المنطقة ، وتنفيذ مشاريع تنمية مختلفة يمكن ان ينجم عنها دمج رأس المال العربي والاراني بالتقنية الاميركية بشكل يفيد العالم كله » (ص : ٨١) .

وتلح الكاتبة في عدة مرات على ضرورة تغيير السياسة الاميركية ، معتبرة ان تبشير هذا التغيير قد بدأت ، واعطت عدة امثلة على ذلك . الا انها لم تدرك انه بمقدار ما تتفرر سياستنا نحن اتجاه الولايات المتحدة وبمقدار ما نتقرب نحن من معسكر الابريالية ونبتعد عن معسكر حركات التحرر الوطني والاشتراكية ، تبدأ السياسة الاميركية بالتغير في اتجاهنا . وتقول في هذا المعنى : « ان الاختيارات المفتوحة امام مخططي سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط محدودة جدا . فالولايات المتحدة آلت الجماهير العربية كثيرا ، وتجاهلت لفترة طويلة حاجاتها الانسانية ، ولهذا فان اي تحول في السياسة الاميركية يتطلب امرين معا : ازالة آثار الاخطاء السابقة ، والتهيئة لعلاقات مستقبلية افضل » (ص : ٧٧) .

وتؤكد في بعض صفحات الكتاب ، ان السياسة الاميركية هي مجرد اخطاء باخطاء ، وليست من صلب المصالح الرأسمالية الامبريالية . بل انها ترى ان تحسن علاقات الغرب مع الاتحاد السوفياتي يعود فقط الى تلك الاخطاء وزلات اللسان التي يقع فيها بعض المسؤولين الاميركيين . فتقول : « ومن المفارقة التي تدعو الى السخرية ، ان الاخطاء المستمرة للسياسة الاميركية هي المسؤولة عن نجاح السياسة السوفياتية في المنطقة ، والنتيجة هي ان الولايات المتحدة تمدت

تعليق على تعقيب علي ماهر رشدي الشوا ورد حسين أبو النمل

بقتديم استقالته ، بحيث يصبح معها رئيس البلدية مستقيلاً بالتبعية . وتمهد احد وجهاء غزة لاعضاء المجلس البلدي ، نيابة عن الادارة المصرية ، باعادة تعيينهم جميعاً أن هم استقالوا ، لان المقصود هو ضرب رشدي الشوا فحسب . ولم تكن رغبة الادارة المصرية في ضرب رشدي ، آنذاك ، صادرة عن موقف تقدمي البتة ، بل انها ارادت كسر شوكة رشاد الشوا ، الذي توسع في كشف اخطاء الادارة المصرية وسلبياتها ، وهي اخطاء وسلبيات حقيقية في معظمها ، وبخض النظر عن شخصية قائدها . وكان الشيخ صوان هو رأس جماعة الإخوان المسلمين في القطاع ! أما المرحوم منير الرئيس فقد عينته الادارة المصرية نائباً لرئيس البلدية . ولم يلتفت التيار الوطني حول ثورة يوليو الا بعد تأميم قناة السويس في تموز ١٩٥٦ ، اذ كانت الثورة المصرية تضغط ، وحتى اذار ١٩٥٥ ، لاجبار اللاجئين على القبول بمشروع سيناء لتوطين اللاجئين ، وهو المشروع الذي تم الاتفاق عليه بين مصر والولايات المتحدة عام ١٩٥٣ .

فأي تيار وطني ذلك الذي يقصده الزميل حسين ؟ علماً باننا لم نسمع ان المرحوم منير الرئيس وقف ضد مؤامرات التوطين هذه . وبعد وفاة الشيخ صوان احلت الادارة المصرية المرحوم منير الرئيس محله . وان كان لم يقم بتطهير البلدية بعد توليه رئاستها ، ربما بسبب الحساسيات العائلية .

٥ - يذكر الزميل حسين في تقريره ان علاقة منير الرئيس « مع الناس لم تكن تخضع للمقاييس التي تحكم علاقة الزعامة التقليدية ب جماهير غزة ، اي العلاقات القطاعية ، ذلك ان منير الرئيس لا يعتبر من العائلات (المالكة) في القطاع » . وهذا مغاير للحقيقة ، فالمرحوم منير كان يعطي الاولوية للولاء للادارة المصرية صاحبة الفضل في وصوله الى رئاسة البلدية ورئاسة الاتحاد القومي في وقت لاحق . ثم هو مالك زراعي كبير ، وان فقد بعض املاكه في سبيل سند التزامات « القيادة » . على انه يختلف عن المرحوم رشدي ، في مجال العلاقات مع الناس ، فالرئيس سلك محورين لعلاقاته بالناس ، الاول عشائري ، والثاني في اتجاه القوى السياسية الجديدة في القطاع من شيوعيين ، نبعثيين ، واخيراً القوميين العرب ، حسب ظهورهم

في عدد حزيران ١٩٧٥ من « شؤون فلسطينية » الغراء ، عقب علي ماهر رشدي الشوا على تقرير كان الزميل حسين أبو النمل قد نشره في عدد أيار ١٩٧٤ من المجلة نفسها . ولاهتمامي بتاريخ قطاع غزة ، وبسبب ورود اسمي ، سرا ، ضمن رد الاخ حسين ، حيث ذكر انه اعتمد في بعض معلوماته عن رشدي الشوا على تقرير نشرته « الطليعة » القاهرية في عددها العاشر لسنة ١٩٧٤ ، وهو التقرير الذي كتبه ، في حينه ، عن رشاد الشوا ، لذا رأيت لزاماً علي الاسهام في هذا الموضوع .

وحتى نبدأ الموضوع من راسه ، ارى العودة الى تقرير الاخ حسين موضوع الخلاف . حيث لاحظت ما يلي : -

١ - لم يكن رشدي الشوا عضواً في حزب الدفاع ، كما يدعي التقرير .

٢ - كان فهمي الحسيني رئيساً لبلدية غزة في بعض سنوات الثلاثينات ، وان لم يكن في يوم من الايام عضواً في الحزب العربي .

٣ - يحتم علي واجب النقد لذاتي وشرفه ، الاعتراف بالتوسع في الخطأ ، اذ ان الشخص الذي قصده في تقريرتي بمجلة « الطليعة » ، وتسميت في وتوسع الزميل ابو النمل في خطأ معلومات ، كان حمدي الحسيني وليس فهمي . وتفصيل القصة ان السلطات البريطانية تسمت غزة الى اربع مناطق انتخابية ، واعطى المندوب السامي البريطاني نفسه حق اختيار واحد من المرشحين الاول في المناطق الاربعة لتولي رئاسة البلدية . وقد حدث ان نال حمدي الحسيني المركز الاول في دائرته ، ونال رشدي الشوا المركز الاول في دائرته ايضا ، فولى المندوب السامي رشدي الشوا رئيساً للبلدية وولى حمدي نائباً للرئيس ، بالرغم من ان حمدي نال نسبة اعلى في الاصوات من تلك التي نالها رشدي الشوا .

٤ - يذكر تقرير الزميل حسين ان الشوا اتيل اثر ثورة ١٩٥٢ المصرية ، وسلبت البلدية للشيخ عمر صوان ، وكان منير الرئيس عضواً في البلدية . والحقيقة ان رشدي لم تتم اثباته من البلدية ، بل اوعزت الادارة المصرية الى المجلس البلدي

المخابرات الفرصة للقبض على سعدي مطبسا . وجاءت الفرصة حين وصل بعض الفدائيين الحناجرة (قبيلة ابو مدين) بمنشورات من الاردن للتهديد للانتقال . وكانت المنشورات من نمطين : الاول كتب بأسلوب الشيوعيين والثاني في صياغة « وطنية » ، حسب تعبير المخططين الاردنيين ! وتطلت الخطة على توزيع المجموعة الاولى من المنشورات التي تهاجم الادارة المصرية ، بما يدفع الادارة الى اعتقال الشيوعيين ، فنتفد بذلك سندها الشعبي الرئيس آنذاك . وعندها تقوم مجموعة الانقلاب المنتظر بتوزيع المجموعة الثانية من المنشورات . وتنفذ انقلابها دون ما مقاومة تذكر ، بعد ان تكون الادارة المصرية قد ضربت اصدقائها الشيوعيين بنفسها .

وعند القبض على سعدي وجد لديه بندقية ومسدس غير مرخصين ، ومنتشور كانت السلطات الاسرائيلية قد وزعته في القطاع عند احتلالها له . وطبعاً ، اتهم سعدي بحيازة اسلحة بدون ترخيص ، بهدف استخدامها في قلب نظام الحكم بالقوة بالاضافة الى حيازة منشورات اسرائيلية وتعامل مع العدو !

ويقتضي الامر الإشارة الى ان مصطفى أبو مدين غرر بسعدي وشجعه ، بعد ان كان الأخير غضب النظر عن الانقلاب بسد ابراج السلطات المصرية عن أخيه رشدي . ويتأكد ذلك عندما قرر المتهم سعدي الشوا امام المحكمة انه سلم قياده لمصطفى . وعندما قرر مدير المخابرات المصرية في قطاع غزة ، في شهادته امام المحكمة ، ان المخابرات المصرية علمت بأمر الانقلاب قبل وقت من اعلام مصطفى أبو مدين لها !

١١ - الأخ ناهض منير الرئيس لم يكن في يوم من الايام « عضواً قيادياً في حزب البعث في قطاع غزة » ، تماماً كما لم يكن زهير الرئيس (الذي يقصده الاخ حسين) ، أغلب الظن ، بتسبيبه منير الرئيس) عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي . أما منير الرئيس فلم يوثق صلته بحركة التوحيد العرب الا بعد خلاف عبد الناصر مع البعثيين في اواخر العام ١٩٥٩ ، واحتضان الادارة المصرية لحركة القوميين العرب الكامل في القطاع ، مما دفع منير الرئيس من نقل صداقته من البعثيين الى القوميين .

١٢ - تم تعيين حيدر عبد الشافي ونساروق

في القطاع ، وبترتيب تحالف الرئيس مع كل منهم .

٦ - اثناء رئاسته للبلدية ، أبان الاحتلال الاسرائيلي لغزة (١٩٥٦ - ١٩٥٧) ، عجز منير الرئيس عن التصدي لاعتداءات الجنود الاسرائيليين على بيوت واعراض الاهالي . وهنا قاد الوسيط نفسه ، الذي سبق وأقنع أعضاء المجلس البلدي بالاستقالة ، قاد حشداً من وجهاء غزة الى منزل المرحوم رشدي الشوا ، حيث طالبوه بضرورة توليه رئاسة البلدية انتاذاً للبلد ، وقد كان . ولعب الشوا دوراً لا يمكن انكاره في وقف هذه الاعتداءات ، واصبح المرحوم الرئيس نائباً له .

٧ - أما ان منير الرئيس قام « بتشكيل جبهة وطنية بالتعاون مع الاحزاب الموجودة حينذاك في القطاع » ، فهو مجاف للصحة ، اذ شهد القطاع ابان الاحتلال الاسرائيلي الاول للقطاع جبهتين هما : « الجبهة الوطنية » و « جبهة المقاومة الشعبية » ، ضمت الاولى الشيوعيين وبعض المستقلين ، في حين جمعت الجبهة الثانية بين البعث والاشوان المسلمين ، ولم يكن المرحوم الرئيس عضواً في اي منهما .

٨ - اما المرحوم محمد علي المشرف (وليس شرف) فلم يصعد لرفع العلم ، بل كان يسير ضمن المظاهرة الطالبة بعودة الادارة المصرية وسقوط مؤامرة التدويل ، وقد سحب بجانبه دراجته ، حينما اصابته رصاصة من القوات الدولية التي فاجأت المظاهرة بوابل من الرصاص .

٩ - ولم تكسر الجماهير باب السجن لتخرج منير الرئيس « الذي قام بعدها بفتح بقية الزنازين وأخرج عن المعتقلين الموجودين فيها » . بل ان القوات الدولية هي التي اخرجت عن جميع المعتقلين السياسيين الموجودين في قطاع غزة .

١٠ - وللمؤامرة التي قادها سعدي الشوا لفصل قطاع غزة عن مصر قصة اخرى . وسعدي هذا أخ غير شقيق لرشدي ، ساءه ما أصاب أخاه في « السجن الحربي » من اهانات . وبسبب تفكيره اليميني وولائه السابق للاسترة الهاشمية ، أجرى سعدي اتصالاً بالنظام الهاشمي لتبدير انقلاب في القطاع . وتحالف لتحقيق هذا الهدف مع مصطفى أبو مدين ، الذي لم يكن سوى مندوب لدى المخابرات المصرية ، فوشى به . وانتظرت

الاخ مجدي ابو رمضان مديرا للمكتب المذكور منذ انشائه ، في العام ١٩٦٤ ، وحتى نكسة ١٩٦٧ .
 ١٥ - « اثر احتلال اسرائيل لقطاع غزة عام ١٩٦٧ شكلت في القطاع جبهة وطنية من كافة القوى الموجودة في القطاع ، باسم (طلائع المقاومة الشعبية) . وقد لعبت الجبهة الدور الاساسي في نضال قطاع غزة من شهر تموز ١٩٦٧ وحتى شهر شباط ١٩٦٨ » . هذا ما يقره ، بيقين يحسد عليه ، الزميل حسين . علما بأن « طلائع المقاومة الشعبية » لم تضم كافة القوى الموجودة في القطاع ، بل اقتصر على القوميين العرب واثنين من اصدقائهم هما : فاروق الحسيني وابن عمته منير الرئيس . كما لم تتشكل الطلائع الا في تشريين الثاني وليس تموز ١٩٦٧ . وثمة جبهة غيرها لعبت الدور الاساسي في نضال القطاع في المدة المشار اليها ، هي « الجبهة الوطنية المتحدة » .
 وبهما يكن من أمر هذه التحفظات ، فهي لا تسلب المرحوم منير الرئيس وطنيته ، التي مارسها بطريقته الخاصة .

عبد القادر ياسين

الحسيني في اللجنة التنفيذية الاولى لمنظمة التحرير ، في اعتقاد المجلس الوطني الاول عام ١٩٦٤ ، المنعقد في القدس ، وليس في المؤتمر المنعقد في غزة في العام ١٩٦٥ .

١٣ - يزعم التقرير ان منير الرئيس تحالف مع القوميين العرب في العام ١٩٦٦ ، اثناء انتخابات التنظيم الشعبي ، مقابل تحالف « جميع القوى والشخصيات الاخرى التي دعمتها الاجهزة الرسمية المصرية » . وهذا قلب للحقائق المعروفة للقاضي والداتي من ابناء القطاع . فالاجهزة الرسمية ، وبخاصة اجهزة الامن المصرية ، ظلت تحتضن حركة القوميين العرب منذ وفدت الى القطاع ، اواخر العام ١٩٥٧ ، وحتى وقوع نكسة ١٩٦٧ .

١٤ - يقول الزميل حسين ان احد اعضاء اللجنة التنفيذية سقط في انتخابات التنظيم الشعبي حين رشح نفسه عن احدي دوائر مدينة غزة . وفي حدود علمي ، لم يقم اي من اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بترشيح نفسه في تلك الانتخابات كما لم يعين مدير جديد لمكتب منظمة التحرير في القطاع بعد تلك الانتخابات ، اذ ظل

صدر عن مركز الابحاث كتاب

كفاح الشعب الفلسطيني

قبل العام ١٩٤٨

بقلم

عبد القادر ياسين

٢١٤ صفحة بثلاث ليرات لبنانية . تضاف اليها اجور البريد الجوي

اطلب نسخك من المكتبات او مباشرة من مركز الابحاث ، قسم التوزيع

ص.ب ١٦٩١ - بيروت

تقارير

[١]

تحليل لاتجاهات الدعاوة الصهيونية في شهر ابريل (نيسان) ١٩٧٥

لكن الذي كان أكثر أهمية هو الاستفادة منها من زاوية المفاهيم الدعاوية الصهيونية على ضوء ما تقدمه الدوائر الصهيونية والناطقون والمعلقون الصهيونيون لها من تفسيرات وتحليلات وتاويلات تقيدهم فيما يشحنون به الرأي العام العالمي . ان الصورة المألوفة التي يرسبها الصهيونيون لعلاقات المقاومة الفلسطينية بأية حكومة عربية معنية تقوم على الخطوط التالية : تتألف حركة المقاومة من مجموعة من « المخربين » والعناصر الإجرامية ، وهي تسعى للإطاحة بالنظام القائم تنفيذاً لأغراضها الخاصة وتتصلبها غير المشروعة ، وان الحكومة العربية المعنية تتسامح معها وتسكت عليها (اذا كان هناك اي تسامح أو سكوت على الإطلاق) بسبب قوة المقاومة عسكرياً ، أو لان هذه الحكومة رهينة خطها الإيديولوجي المتطرف الذي يفرض عليها دعم المقاومة الفلسطينية .

والتوقع ان الدعاوة الصهيونية استخدمت هذا الخط - كلياً أو جزئياً - في كل حالة من الحالات المتعددة مع الأردن أو مصر أو لبنان ، أو سوريا ، أي في بلد توأفر فيه أي شكل من التواجد لحركة المقاومة الفلسطينية . (ونشر هنا عرضاً للسي التقاطع الفاضح بين هذا التصوير للامور وبين أطروحات الدعاوة الصهيونية الأخرى المعروفة : مثل أطروحة التزام جميع الدول العربية بإبادة اليهود . على ان هذا التقاطع الجلي يجب الا يعطى وزناً كبيراً حيث ان من المؤلف في الأغراض الدعاوية استخدام موضوعات وخطوط متناقضة طالما لا تطرح في سوق الاعلام في الوقت نفسه وفي المجال نفسه) .

سنعالج في تقرير هذا الشهر موضوعين : في القسم الاول سنعرض للخط الصهيوني بشأن أحداث ابريل - نيسان - في لبنان ، التي تصدت فيها ميليشيا الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية والتقدمية الحليفة لاعتداءات ومؤامرات الكناش، وسنفرد في هذا القسم مساحة لتقارير الصحف الغربية الموالية للصهيونية ، من بيروت ، حول أحداث لبنان ، وكذلك حول مشكلة كيفية نشر المعلومات الدقيقة والصورة الصحيحة عن مجريات الامور خلال أزمات مماثلة . واما القسم الثاني والاخير فنخصصه للحلقة الصهيونية الدعاوية الكثيفة المرتبطة بما يسمى إعادة تقييم السياسة الأمريكية في منطقة « الشرق الاوسط » بعد انهيار جهود ومهمة كيسنجر . وبالإضافة الى التعرف على الموضوعات وإساليب الصهيونية المستخدمة في هذه الحلقة التي لم تعرف بوضاحتها مثلاً من قبل تقريباً ، نائنا سوف نبين كيف ان المنطق الاساسي في هذه الحلقة الصهيونية صحيح ، ولا يستدعي رد فعل خلاص .

أحداث ابريل - نيسان في لبنان : في الواقع

ان أية أحداث بارزة وخطيرة يشهدها العالم العربي ، تكون مناسبة لنشر الدعاوة الصهيونية . هذه هي الحالة في كل ما نعلقه بالتناقضات الغربية الداخلية ، لكن الاهتمام الصهيوني يكون أكبر بكثير حين تكون المسألة مجابهة بين حركة المقاومة الفلسطينية وبين قوات الرجعية العربية . فان أحداثاً مثل وقائع ايلول الاسود في الأردن ، أجهت الدوائر الصهيونية بصورة قوية ظاهرة .

سوف يقومون بالعمل « . وتفغل الافتتاحية أي ذكر لجزرة غين الرماننة المتعمدة، الا ان السطور التي اقتبسناها تكشف بحد ذاتها عن تسليم اسرائيلي ضمنى بأن الكتائبين هم الذين بادروا الى الاقتتال .

وإذا كانت افتتاحية الجيروزاليم بوست تشيد ضمناً بدفاع الكتائبين عن « سيادة لبنان » ، الا أنها تتجاهل كلياً بالطبع ما تقوم به اسرائيل من اعتداءات مدبرة ومواصلة على سيادة لبنان . والاكتر أهمية ان التعليق يظهر الكتائبين باعتبارهم الطليعة المسلحة لكل شعب لبنان الذي بدونهم كان سيصبح أعزل وبلا قوة دفاعية أمام « الإرهابيين المسلحين » . ثم أن المقاومة الفلسطينية كانت عازمة على خلق « مجابهة اسلامية - مسيحية » : « لقد سعى الإرهابيون في بخررة الصدام الى اثاره الشمور الاسلامي ، وتضعيد الحادثة لتتحول الى مجابهة اسلامية - مسيحية ، تماما كما كانوا قد فعلوا في عام ١٩٧١ عندما حاولوا تحريض الفلسطينيين في الاردن وخلق مجابهة بين جنسين والفلسطينيين . ولعلها رفض الفلسطينيين في الاردن من قبل جرهم الى صدام لم يكونوا مهياين له في عام ١٩٧١ ، فان مسلمي لبنان لم يقبلوا هذا الاسبوع المساهمة في حملة الارهابيين التصعيدية مع الكتائبين بحيث تتحول الحادثة الى قضية اسلامية - مسيحية . فلقد آثر المسلمون ان يكونوا لبنانيين اولاً » .

ان هذه « الفبركة » الخيالية المتقنة ، والتي تتصلح بالاستناد الى مقارنات تاريخية كاذبة وزائفة ، وتحذا القلب الكلي لحقائق الواقع ، كل هذا يبدو حكاية مقبولة ، ومعقولة ظاهرياً بالنسبة للغايء المخوذون الاطلاع والذي يفتر الى الملم جيد بمعطيات التوازن الطائفي القسائم في لبنان .

وهناك مقالات اخرى تعكس هذه المقولة نفسها ، مقولة لبنان الموحد الذي يحاول اتقاء التهديد الفلسطيني لسيادته . ومن هذا القبيل التحليل الاخباري الذي كتبه « مراسل الشؤون العربية » عنان صفدي في « الجيروزاليم بوست » في عددهم الصادر يوم الثامن عشر من ابريل . فلقد ذكر صفدي « ان بيروت بدأت باتخاذ موقف متصلب ازاء النفوذ المتزايد لمنظمة التحرير الفلسطينية »

وينبغي ان تسجل قبل كل شيء انه لم يكن لدى الناطقين الصهيونيين الرسميين ما يقولونه علناً تعليقا على احداث لبنان . وكان السبب واضحا : وهو عدم اتاحة الفرصة للرأي العام العالمي ليقتررب من الربط الصحيح بين المخططات الصهيونية وبين هذه الاحداث نفسها ، وإذا كان هذا الصمت المطبق للناطقين الصهيونيين الرسميين حيال احداث لبنان ، يساعد في عدم ربط السلطات الاسرائيلية بالاحداث ، الا انه لا يستطيع تغطية مصلحتها الحقيقية فسي نشوء اي وضع في أي مكان يحمل في طياته تهديدا محتملا للمقاومة .

لقد زودت احداث لبنان في ابريل الماضي المدفعية الاعلامية الصهيونية بفرصة ذهبية لاطلاق اكاذيبها . ان جهل الرأي العام العالمي بحقيقة الوضع السياسي في لبنان ، اتاح للمثقفين الصهيونيين الاستفادة من ميزة كبيرة ، ذلك انهم تمتعوا تماما بحرية التشويه وقلب الامور وتحريف الحقائق اكثر من المعتاد ، وقاموا باعادة « تأكيد » كل ما في التريانة الصهيونية من خرافات واساطير خبيثة كانوا قد نشروها ضد المقاومة الفلسطينية « الشريرة ذات الطبيعة التخريبية » .

وسنعرض فيما يلي كيفية معالجة الخط الصهيوني لاحداث لبنان في الصحافة الصهيونية نفسها ، ثم في الصحافة الغربية عموماً ، سواء تلك الصحف الصريحة في ولائها للصهيونية ، او الاخرى « الموضوعية » .

ومع ان التعليقات الصهيونية محدودة كما ، وهذا يعود جزئياً الى الاسباب التي أوضحناها منذ قليل ، الا ان التعليقات الصهيونية التي اتج لها النشر فعلاً ، كانت في الحقيقة ذات نغمة مثيرة ، تقوم الخلفية الاساسية لتلك التعليقات ، على الخطوط العامة نفسها التي أشرنا اليها بنسب القوسين آنفاً ، انما كانت هناك تنوعات فني الخطة والتنفيذ . فهذه الجيروزاليم بوست مثلاً ، في افتتاحيتها المنشورة يوم الثامن عشر من ابريل تذكر ان الاقتتال في لبنان كان نتيجة مباشرة « لنشاطات الارهابيين في لبنان » الذين « لم يتقيدوا بالاتفاقية التي عقدها مع الحكومة اللبنانية لتنظيم وجودهم في الدولة » . وان بيار الجبيل قرر لهذا السبب « انه اذا كانت حكومته لا تهب للدفاع عن السيادة اللبنانية ، فانه وكتابه

عموما خطأ مواليا للصهيونية ، فانها لم تلتزم بصورة دقيقة بالخط الاعلامي الصهيوني الموضح آنفا . وبدلا من ذلك ، فانها في تقاريرها المتحيزة عن الاحداث اللبنانية ، كانت « تعزف » على مقولة ان المقاومة الفلسطينية التي هي قوة « فلتانة » جامعة استغزازية وفوضوية ، تسببت باشغال أحداث ابريل لاسباب غير واضحة او موضحة . وان هذه هي تقريبا وجهة نظر الكتائب نفسها، وهي وجهة نظر ربما كانت الى حد ما ، انعكاسا لما تقوله المصادر الاخبارية للراسلين المعينين في لبنان .

امامنا مجلة نيوزويك في موضوعها الذي نشرته في عدد الثامن والعشرين من ابريل ، التي لا تترك مجالا للشك في نفس قارئها في أن الفلسطينيين كانوا ينشدون القتال . لقد استهلكت المجلة مقالها بالمقدمة التالية : « بسا ص مزدحم بركابه الفلسطينيين ، كان يشق طريقه في شوارع عين الرمانة الضيقة ، وهي الضاحية البيروتية التي يظلب فيها المسيحيون . وكان الركاب في حراسة من الهياج والصخب العاصف ، وينشدون أهزيج وشعارات منظمة التحرير الفلسطينية . لقد كان الامر تحديا مكشوفاً . وسرعان ما قبل الطرف الاخر التحدي ، وقامت ميليشيا حزب الكتائب ذي الاغلبية المسيحية ، بفتح النار على الياص » .

ومرة اخرى حين تعود نيوزويك في المقالة نفسها الى مجزرة عين الرمانة ، تظهر الفلسطينيين على أنهم الطرف المعتدي بلا ريب . فلقد نشب النزاع الاصلي عندما « اوقفت ميليشيا الكتائب فدائيا فلسطينيا هند حاجز على الطريق . ونشأ عن ذلك نشوب نزاع انتهى بنقل الشخص الفلسطيني الى المستشفى بعد ان اصيب بطلقة ، وبعد فترة وجيزة . جاءت الى المنطقة نفسها سيارة بجو كانت تغطي لوحة رقمها بشعار منظمة التحرير الفلسطينية ، وكانت تطلق النار بقزارة » .

ومثالا على الصورة الايجابية التي يرسمها المقال للكتائبين ، الوصف الذي يقدمه لبيار الجليل نفسه ، انه « رجل نحيل وزاهد متقشف ، كان بطلا للكناح من اجل الاستقلال في الثلاثينات والاربعينات ... » اما صورة الفلسطينيين في المقابل ، وبالذات منظمة التحرير الفلسطينية ، فهي : « تبقى مصدر القلاقل الرئيسي في العالم العربي » .

وفي المقالة نفسها التي تدور حول فكرة الانهيار المزعوم للوحدة العربية ، شخص صفدي الصراع على انه « بين اللبنانيين والفلسطينيين » . ومرة اخرى يؤكد صفدي الفكرة عينها الواردة في الانتحاحية السابقة ، ان الكتائبين هم طليعة وطنية مسلحة للشعب اللبناني : « امام العجز الرسمي اللبناني عن كبح النشاط الارهابي المستقل ، انشأ حزب الكتائب - وهو تجمع مسيحي رئيسي يضم حوالي خمسة عشر الفا من الوطنيين اليمينيين - ميليشيا خاصة أصبحت من القوة بحيث سعت الى معركة مسلحة مع الفلسطينيين » . (خط التشديد من عندنا) .

مرة اخرى هناك اغفال كامل لمجزرة عين الرمانة، ومرة اخرى هناك التسليم الضمني بمبادرة الكتائب الى افتعال المعركة ، وان كان ذلك « دفاعا » عن السيادة اللبنانية . بل ان صفدي كان اكثر جرأة من افتحاحية الصحيفة ، في الكشف عن المرامي النهائية للقيادة الكتائبية : « ان الموقف شبيه بالوضع الذي كان عليه الاردن في سبتمبر - ايلول ١٩٧٠ حين توجه حسين لسحق الدولة ضمن الدولة التي كان الفلسطينيون قد انشأوها على التراب الاردني » .

تدور الموضوع الرئيسية في المقال بعدئذ حول الكتائبين باعتبارهم حماة السيادة اللبنانية حيال حكومة ضعيفة عاجزة وحركة ارهابية عدوانية قوية ، تقوم - هذه الحركة اي المقاومة الفلسطينية - ولاسباب غير موضحة ، بجهود تستهدف اثاره صراع طائفي في البلد . ومن المؤكد انه اذا تبيض للكتائبين وحلفائهم الرجعيين ان يحاولوا من جديد تنفيذ مخططاتهم ذات الوحي الصهيوني ، ونشأت مجابهة عريضة ، فان هذا سيكون الخط الذي سيركز عليه الصهيونيون رسميا هذه المرة ، وعلى الاخص اذا اقتضى الامر قيامهم بتدخل فعال . ذلك أنهم في الوقت الراهن يرسمون الاساس الاعلامي التمهيدي لتدخل اسرائيلي عسكري محتبل في الشؤون اللبنانية مستقبلا . واذا ما حدث هذا فعلا في أي يوم من الايام ، فنحن على يقين من أن الاسرائيليين سيقومون بتدخلهم تحت شعار «الدفاع عن السيادة اللبنانية» .

كان ذلك عن الاعلام الصهيوني بشأن أحداث لبنان . أما وسائل الاعلام الغربية التي تبنت

المرسوم ، ام الجهل ووحداية الرأي ، فانه في الحالتين يرسم صورة للفلسطينيين باعتبارهم ضد اللبنانيين ، ومثري مشاكل ، وحشدا منفلتا من الرجال المسلحين الذين يعجز قادتهم عن ، اولا يريدون ، ضبط « المتطرفين » منهم . والواقع ان هذا التقرير للفلسطينيين نفسه ، هو الذي قدمته من قبل تبرا لاجداث سبتمبر الاسود في الاردن .

من المسلم به ان ما تقوله هذه الصحف عن الفلسطينيين لا يمت الى الواقع صلة ، لكن هذا ليس موضوعنا ، والمهم ان نتخذ خطوات لكبح انتشار هذه الاضاليل مستقبلا . انه لا يمكن فعل الكثير في حالة مجلة كالنيوزويك الحاسمة في ولائها الصهيوني ، انما هناك كلام كثير يقال حول ضرورة تقوية العلاقة مع معظم الصحف الاجنبية في بيروت ، بحيث يتاح لمراسليها الاطلاع على الاوضاع والاحداث بصورة مباشرة بما يمكنهم من تقديم تفسيرات اكثر دقة لاجداث كالتي عصفت بلبنان في ابريل الماضي ، كي لا يبقى الميدان حكرا للدوائر الرجعية توزع فيه ما تشاء من قصص واضاليل وتفسيرات زائفة .

« اعادة التقييم » الامريكية والضغط الصهيوني:
 هناك سبب مهم للمساحة الضئيلة نسبيا التي افرقتها الصحافة الصهيونية باللغات الاجنبية لاجداث لبنان ، ذلك هو انها كما شبه الكامل بانها محادثات كيمسinger بين اسرائيل ومصر ، وما اعقب ذلك من احاديث عن اعادة الولايات المتحدة تقييم سياستها في منطقة « الشرق الاوسط » ، بدءا من مارس - اذار المنصرم ، وخلال ابريل - نيسان ، ثم عبورا في مايو - ايار ، ومع ان اي تحليل سليم للعلائق بين اسرائيل والولايات المتحدة لا بد وان يقطع بأنه ليس من المحتمل احداث أي تغيير اساسي في السياسة الامريكية ازاء المنطقة في المستقبل القريب ، الا ان الدوائر الصهيونية تتناول موضوع « اعادة التقييم » بجدية كبيرة عموما ، ولو من باب الحرص النائق على المصالح الصهيونية والمخططات الاسرائيلية على المدى القصير .

والواقع ان اعادة الولايات المتحدة تقييم سياستها في منطقة الشرق الاوسط - الناشئة عن « زعل » اجارة فورد من « عدم المرونة » الاسرائيلية

على ان امثال هذه الكتابات المتحيزة ، لم تكن وقتا على صحف معروفة يتبنيها للخط الصهيوني بوجه عام ، كمجلة « نيوزويك » . ذلك ان « التاييمز » اللندنية ذات النهج الموضوعي نسبيا ، نشرت سلسلة من الرسائل من مراسلها في بيروت ، روت حكاية مجزرة عين الرمانة بطريقة ما كان يمكن ان يرويها غير الكتابيين أنفسهم . ولقد اشتمل التقرير الذي كتبه مراسل الصحيفة في بيروت بول مارتن ، والذي نشر يوم الرابع عشر من ابريل ، على الاتهامات الاستفزازية وغير المسنودة التي يطلقها بيار الجميل بشأن محاولة فاشلة جرت لاختطاف ابنه امين . فالصحيفة تورد هذا الاتهام باعتباره يقينا ثابتا وحقيقة ساطعة . وعلى هذا الشكل كانت رواية بول مارتن لمجزرة عين الرمانة ، مطابقة تقريبا لرواية الكتابيين : « وفقا لامدادات شهود عيان ، حاول الفدائيون المرور من جانب الكنيسة في قافلة من سيارات الجيب . وكان الكتابيون قد حولوا المرور عن ذلك الشارع ، فاحتجزوا سيارة جيب فدائية ونشب عراك . وبعد حوالي ساعة وصلت الى المكان تعزيزات من الفدائيين ، فيما كانت ميليشيا الكتاب قد استغلت الوقت باتخاذ مواقع مسيطرة في البنايات المحيطة وعلى اسطح العمارات ، ولقد مات معظم الفدائيين في النيران الغزيرة التي امطر بها الكتابيون الباص » .

وفي وسعنا ان نقدم نماذج مماثلة من التقارير التي نشرتها **الدلي تجراف** يوم ٤/١٧ وغيرها من الصحف الغربية الموالية للصهيونية و«الموضوعية» (مع ان هناك استثناءات لافتة للنظر كالواشنطن بوست في عددها يوم ٤/١٩) .

ويصعب على المراقب في بعض الحالات التأكد مما اذا كان هذا التحريف والطلب للحقائق ، ناتجا عن سياسة متعمدة من جانب الصحف ومراسليها بقصد التشويه المتصود ، أم ان الامر نتيجة للجهل والاكتفاء بتقديم وجهة نظر واحدة عن الاحداث ، هي وجهة النظر الكتابية ، اننا على يقين من ان التشويه في حالة نيوزويك متعمد ووليد الخط الثابت الموالي للصهيونية الذي تنتهجه المجلة ، لكن من العسير علينا قول الشيء ذاته بخصوص « التاييمز » اللندنية مثلا .

وسواء كان هذا التشويه نتيجة للتعمد

الولايات المتحدة ومصر ، عن تسبب عدم المرونة الاسرائيلية بانتهيار جهود كيسينجر للتفاوض من اجل اتفاقية اخرى في سيناء . ، وطبقا لما ورد في هذا التقرير ، فان الاسرائيليين قدموا في غضون محادثات السلام سلسلة من التنازلات البارزة ، بينما « بقيت مصر ترفع بعناد مطلبها الاصلية » . ويشير التقرير الى ان بعض الرهبيين الاسرائيليين كان يقول للاميركيين ان مصر لم تقبل الدخول في هذه المحادثات الا لتحقيق غرض وحيد ، وهو اساءة العلاقات الامريكية - الاسرائيلية .

وانخذت حملة اسرائيل لتبرير موقفها اثناء المباحثات مع كيسينجر ، وللقاء اليوم على مصر بالتسبب بنشل المباحثات ، وفي وقت لاحق لمجاهاة اعادة النظر بالسياسة الامريكية في المنطقة ، اتخذت هذه الحملة اشكالا متعددة ومتنوعة ، بما في ذلك النشر الكثيف لموقف اسرائيل في الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ، وكذلك في أجهزة الاذاعة والتلفزيون ، وفي الاجتماعات العامة ، وفي التقارير الموجزة التي ترسل الى الصحف بصورة خاصة . ولقد نقلت « نيوزويك » في الرابع عشر من ابريل عن -الجنرال الاسرائيلي حاييم هرتسوج قوله : « ان ميدان المعركة الرئيسي الان هو مسرح الرأي في الولايات المتحدة » . ولقد نقلت **نيوزويك** المكاسب الاعلامية السابقة التي حققتها مصر ، ثم وصفت « الحملة الاسرائيلية المضادة » بما يلي : « ... اجتمع في نيويورك اكثر من سبعمائة من قادة يهود الولايات المتحدة في الاسبوع الماضي ، لتنظيم حملة واضحة على نطاق الامة بأسرها ، بهدف تعبئة الدعم لاسرائيل ، وفي غضون ساعات قلائل كانت النوادي اليهودية في الكليات الجامعية على امتداد الولايات المتحدة من ادناها الى اقصاها تعقد اجتماعات مع الجماعات الطلابية البروتستانتية والكاثوليكية ، وكانت اللجنة العمالية اليهودية تجري اتصالات بالاتحادات النقابية ... بل وفي بعض المدن قامت الجماعات اليهودية بتهيئة حملة اعلامية في الاذاعة والتلفزيون ... وفيها كانت هذه الحرب المرعبة قيد التنفيذ ، كان القادة اليهود يسعون الى ان يستردوا لاسرائيل صورتها كضحية مضطهدة مطوقة ومحاصرة تخوض معركة شاقة امام اعداء اقوياء . ولقد قيل لراسلي نيوزويك في مختلف اتحاء الولايات المتحدة عدة مرات في الاسبوع

خلال محادثات كيسينجر - عدت موضوعا رئيسيا لوسائل الاعلام الصهيوني .

ان التساؤل المتعلق عن علاقات الولايات المتحدة باسرائيل ، قد انهب حملة دعوية صهيونية من غير ثقل وذات ابعاد غير اعتيادية ، في الولايات المتحدة بوجه خاص ، وفي اتحاء العالم الاخرى بدرجة اقل بكثير . والواقع ان ما اعطى هذه الحملة زخما دانعا قويا للغاية هو ما تمكن الدماء الدبلوماسي المصري من تحقيقه بصورة ظاهرة ، وذلك بانتاع قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي بعناد وتصلب اسرائيل ، وبرغبة مصر الحثيثة في تحقيق السلام . ولقد تحقق هذا الى حد كبير بسبب اعلان السادات من جانب واحد عزمه على تديد انتداب قوة الطوارئ التابعة للامم المتحدة لثلاثة اشهر اخرى ، وعلى فتح قناة السويس للملاحة الدولية في اوائل يونيو - حزيران .

لكن الصهيونيين كانوا قد بدأوا يستشعرون - حتى قبل اعلان الولايات المتحدة عزمها على اعادة النظر بسياستها في المنطقة - انهم في موقف دفاعي . يتبدى هذا في المقال الافتتاحي لصحيفة **الجيروزايم بوست** صنيحة الرابع والعشرين من مارس ، تحت عنوان « هكذا كسب تمهي » ، اذ اشتمت الصحيفة من ان مصر قد اتمتت بالمبادرة الدبلوماسية ، وذلك لانها نشرت روايتها عن انهيار مهمة كيسينجر قبل اسرائيل بعدة ساعات ، وانها تمكنت بذلك من استرعاء انتباه الصحافة العالمية . وتخصص **الجيروزايم بوست** الى القول : « لقد اصبح من الظواهر الدارجة في الاوتة الاخرى ، توجيه النقد الى نقص الجهد الاعلامي الاسرائيلي . انا اليوم ، وبعد انهيار المحادثات هناك اقرار عام بان قدرة اسرائيل على اقتناع الرأي العام العالمي ، وبالذات اعضاء الكونجرس الامريكي على وجه الخصوص ، بعدالة قضيتها ، قد أصبحت ذات اهمية من الدرجة الاولى » .

ولم تكد تتفصي سوى اربعة ايام على هذا الكلام ، حتى كانت **الواشنطن بوست** تنشر تقريرا من واشنطن في الثامن والعشرين من مارس ، ترد فيه « ان الرهبيين الاسرائيليين في الولايات المتحدة شرعوا بتنظيم حملة لمكافحة ما يقال في

يدعمونها بلا هوادة .

ولقد جرى « العزف » على النغمة الإعلامية الصهيونية - نغمة انه إذا انقضت الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل ، او حتى فكرت بانقاصه ، فسيعمل ذلك اضرارا كبيرة على المصالح الامريكية ، وسيؤدي الأمر إلى نشوب حرب جديدة - جرى العزف على هذه النغمة وتكرارها مرارا وتكرارا وبلا انقطاع . ولقد نقل تقرير الجيش **أبزرغر** المشار اليه آنفا (١٩٧٥/٤/٤) تصريحاً للشيخ هنري جاكسون الموالى للصهيونية قال فيه ان « تلويح الحليف الرئيسي لإسرائيل باحتمال اقتطاع بعض المساعدات ، امر كئيل بأن يمس بالتوازن العسكري ، ويشيزيد بالتأكيد من احتمالات النزاع المسلح ... ولن ينتج عن هذه التلميحات غير التسبب بزعة اضافية للموقف الراهن المشحون بالخطر » .

وفي ذلك اليوم نفسه ، أي الرابع من ابريل ، ظهر تحليل اخباري مطبوع في « **الجزوراليم بوست** » ينتهي الى تأكيد الاستنتاج ذاته ، انما باللعب هذه المرة على اثاره المخاوف الامريكية من الاتحاد السوفياتي : « ان قصر نظر واشنطن ، وردة فعلها الغاضبة على إسرائيل ، اديا الى تصليب الموقف المصري ، والى جعل الاتفاق أبعد ممالا ، والى صب الماء في طواحين الروس » .

والكلام نفسه نجده في تعليق للنيويورك تايمز الموالية للصهيونية يوم العاشر من ابريل . والصحيفة تقول ان أي تهديد بالانقطاع من المساعدات الامريكية لإسرائيل ، او حتى مجرد طرح الفكرة ، سيؤدي الى تصليب موقف مصر ، والى تظليل فرص السلام : « ان هناك خطرا من الركون أكثر من اللازم الى الضغط النفسي [على إسرائيل] . فكلما اتحنا للحكومات العربية أن تصور دعما أمريكيا أقل لاحتياجات إسرائيل الامنية - او حتى لموقف إسرائيل التفاوضي - كلما أصبح احتمال ان تقوم هذه الحكومات بخطوات حقيقية نحو المساومة ، أضعف » .

وفي هذه الاثناء ، كان اعضاء الكونجرس الامريكي اصحاب السجل الحافل بتقديم كل عون لإسرائيل ، يواصلون انتقاداتهم لكيسينجر وللرئيس فورد ، بسبب حتى مجرد التفكير بممارسة أي

المنصرم ان العرب ينفقون ٥٠ مليوناً من الدولارات على حملة تستهدف التأثير في الرأي الامريكي ، وان إسرائيل غير قادرة على مجاراة الغرب في هذه الحملة في العلاقات العامة » .

ان القراء المواطنين على قراءة تقريرنا التحليلي الاعلامي هذا ، يلاحظون في الفقرة التي اقتبسناها من مقال **نيوزويك** ، بعض الخطوط الاعلامية الصهيونية المألوفة ، مثل مقولة « إسرائيل المنكبة » ومقولة « قوة غرب دولارات النفط » . لكن جوهر الهجعة الدعاوية الصهيونية كان مختلفا . لقد كان التركيز هذه المرة ينصب على فكرة انه ليس من صالح الولايات المتحدة تليل الدعم الامريكي لإسرائيل ، لان هذا لن ينتج عنه سوى تصليب الموقف المصري ، وتلاشي احتمال التوفيق الناجح بين إسرائيل ومصر ، وبالتالي تشجيع المصريين والسوفييات على شن حرب جديدة .

وكما كان الوضع في حملة إسرائيل على اليونيسكو (التي عالجناها في تقرير سابق) ، كانت هناك في هذه المرة أيضا درجة ملحوظة من الالتزام بالخط من جانب جميع الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية المستقلة والمنوعة ظاهريا ، المساعدة للموقف الصهيوني . ومرد هذا ان الخط الاعلامي الصهيوني للحملة ، كان قد رسم بعناية في إسرائيل ، وما كان على جميع الصحف الصهيونية والموالية للصهيونية غير تطبيقه بحذافيره .

وهناك معلقون في محاولتهم التكرار لاسادة النظر بالسياسة الامريكية وتشويبها ، سعوا الى اظهار ان كيسينجر وحده هو المسئول عن توتر العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة ، لما لحق بمكائته وسمعته من اذى بعد انهيار « مهبطه السلبية » . وفي هذا الاطار كتب مراسل « **الجيش أبزرغر** » من واشنطن في الرابع من ابريل ، يتحدث عن « المعركة بين كيسينجر وبين مساندي إسرائيل » . ولقد قصر بعض الجامعات اليهودية الامريكية هجومه على وجه الحصر ، على كيسينجر فقط ، فيما اتخذ آخرون خطة الهجوم على كيسينجر وعلى الرئيس فورد معا مع التسمي لتقوية الموقف المساند لإسرائيل في اوساط الرأي العام الامريكي ، وفي اوساط الكونجرس حيث تتخذ القرارات النهائية بشأن تقديم المساعدات الامريكية لإسرائيل ، وحيث تجد إسرائيل انصارا

الحملة الصهيونية الدعاوية المضادة : « على أن أسوأ النتائج التي يمكن أن تنشأ من الإبقاء على الاحتكاك الأمريكي - الإسرائيلي ، قد يكون قيام العرب والسوفيات بإجراء حسابات خاطئة : أنهم قد يستنتجون ان واشنطن ستتخطى عسكريا ودبلوماسيا عن إسرائيل . وان هذا كفيل بتعبيد الطريق أمام العودة العربية الى الخيار العسكري ، واستئناف الحرب » .

وعلى الرغم من التناؤل الصهيوني بأن النتيجة المفترضة لاعادة التقييم أصبحت وشيكة ، فإن اعادة التقييم هذه امتدت فانقضى ابريل ثم دخل مايو والنتيجة لم تتكشف . وكانت ردة الفعل الاسرائيلية تصعيد ضغطها داخل الولايات المتحدة . وفي الرابع والعشرين من ابريل نشرت صحيفة الجروزاليم بوست تحليلا عكست فيه بوضوح الخط الذي تبناه اتمصار إسرائيل في الولايات المتحدة ، في هذه الاونة ، وكبرت فيه بلا ضجر موضوعة خطر الحرب . وكشفت التحليل عن « التوترات » التي قد تنشأ عن « الارتباب » بين الدولتين ، الذي « قد يشعل نار الحرب ، في ظل الموقف الهش في الشرق الاوسط » .

ومع ان هذا الكاتب ينظر بشك عظيم الى اي احتمال لتدهور جدي في العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية ، في هذه المرحلة التاريخية ، فإن هناك بعض الدلائل على أن الأحداث التي وقعت مؤخرا خلقت على المدى القصير تباعدا حقيقيا تماما بين الدولتين ، وان كان تباعدا عارضا ونفورا مؤقتا . ولقد حدث هذا التباعد بدرجة ذات شأن قياسا على الجهود الحثيثة التي بذلها الصهيونيون للتأثير في الرأي العام الأمريكي والكونجرس الأمريكي ومبادئهما ضد الادارة الأمريكية . وفي هذا الاتجاه ظهرت مقالة في النيويورك تايمز في الثاني والعشرين من ابريل ، بقلم مراسلها في إسرائيل ، يورد فيها ميل الرسميين الاسرائيليين الى الاعتقاد « بأن كل قصة اعادة تقييم السياسة الأمريكية هي مجرد « مقلب » دبلوماسي » [أي ان الامر صوري وليس جديا] ، وذلك لانهم على ثقة جازمة بأن فورد وكيسينجر ينصرفان دون مساندة من الكونجرس . وتعيد المقالة القول في موضع آخر ان الرسميين الاسرائيليين ينظرون الى اعسادة

ضغط على إسرائيل، وذلك بتأخير امدادات الاسلحة أو بآية وسيلة أخرى . ولقد حذر الشيخ كرانستون (من كاليفورنيا) من أن « حملة البيت الابيض القائمة على الغمز والتلميح ضد إسرائيل ، سوف تصعد خطر الحرب ، لانها سوف توهم الزعماء العرب بأن الدعم الأمريكي لاسرائيل يصف » . (انظر الجويش ايزرغر في عددها الصادر يوم الحادي عشر من ابريل) .

ويبدو أن رجال الدعاوة الصهيونيين قد شعروا في منتصف ابريل بأن حملتهم الاعلامية على اعادة التقييم الأمريكية ، قد حققت نجاحا كبيرا . فلقد نشرت الجروزاليم بوست في الخامس عشر من ابريل تقريرا مسبها من مراسلها في واشنطن ، عرض فيه لمقالة ظهرت في مجلة نيويورك الموالية للصهيونية ، التي تحدثت عن انتصار إسرائيل في « المعركة على واشنطن » . وبناء لما كشفت عنه مجلة نيويورك على ذمة الجروزاليم بوست : « لا يزال الكونجرس يغف بكل حزم الى جانب إسرائيل ... وان جميع الاستفتاءات الرئيسية تبين ان تأييد الرأي العام الأمريكي لاسرائيل وصل الى ذروة قياسية ... وان الحركة العمالية الأمريكية بها فيها الاتحادات النقابية الرئيسية تساند إسرائيل بثبات ... وان جميع الصحف الكبرى ، والمعلقين وصناع الرأي العام رفضوا دفع إسرائيل بأنها الطرف المتصلب ... وان حملة التعمية الاسرائيلية الهادئة في الضغوطات المعاكسة على الادارة [الأمريكية] تقترب من طفف الثمار المرجوة : العودة النهائية الى العلاقات الحميمة بين واشنطن والقدس » .

وفيما تمضي المقالة بعدد الى التسليم بأنه لم يتم بعد التوصل الى بلورة صيغة توفيقية لهذه العلاقات ، الا انها تمدد الاسباب التي تجعل هذا الامر قريبا المثال في المستقبل القريب . وتتضمن هذه الاسباب التي تحتم عودة العلاقات الودية الوطيدة بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وفقا لمقالة « نيوزويك » ، بين اسباب أخرى ، احتمال ان تخلق مجابهة طويلة بين الدولتين الحظيقتين ، هوبيا لرياح « اللاسامية » في الولايات المتحدة . هذا « السبب » هو بالطبع دعاوة محضة . أما السبب الاخر الذي تورده المجلة ، فهو بالضبط الخط الاعلامي الذي نكرنا من قبل انه محسور

بأساس عريض للنشر والتحريض ، إلا انه صحيح أيضا بالنسبة لاروبا الغربية ، كما ظهر في الحملة الصهيونية المعادية لليونسكو .

وليس من الواضح بصورة دقيقة في هذه الالوة ، ما اذا كانت الحملة الاعلامية الصهيونية شديدة التأثير ، فليس معروفا درجة نجاحها في توجيه ضغوط ثقيلة على الرأي العام والحكومة الامريكيتين في آن واحد معا ، في الوقت نفسه الذي يتعرض فيه الرأي العام والحكومة الامريكيتين لاضغوطات متعددة من قبل مختلف الفرقاء النشيطين في الشرق الاوسط . وقد تكون الاستراتيجية الصهيونية بالهجوم على ادارة فورد ، وفي الوقت نفسه مناشدة الرأي العام والكونجرس الامريكيتين ، ذات نتيجة عكسية ، وقد تكون تسببت في استمرار عملية اعادة التقييم التي تجري بتوجيه البيت الابيض بالطبع .

وهناك نقطة اخرى مدعاة للطرح والتساؤل ، وهي ما اذا كانت القضية كلها ، قضية اعادة النظر بالسياسة الامريكية في المنطقة ، والاستجابة الاسرائيلية ، تستحق اهتماما كبيرا وتوسع بذل عناية خاصة . ينبهي القول أولا ان هذه الحملة الاعلامية الصهيونية لا تبرر ولا تستوجب شن حملة دعاوية عربية مضادة ، اللهم الا ما يقتضيه التوضيح الاعتيادي للامور المتصلة بالموقف العربي . ومع اننا قد ابدنا شكنا مرتين في هذا التقرير باحتمال اقدام الولايات المتحدة على اجراء تخفيضات ذات شأن في دعمها لاسرائيل ، وباحتمال ان تكون هناك ضغوط جدية على اسرائيل ، الا ان هناك ناحية اخرى من المسألة تستحق التقدير : ذلك انه حدث هذه المرة ان المنطق الصهيوني الذي انطرح على الجمهور الامريكى يحتوي على بعض الصحة ، بعيدا بالطبع عن اللغة والمصطلحات الصهيونية التي سبب بها ذلك المنطق ، فاذا كانت اعادة النظر بالسياسة الامريكية ستؤدي فعلا الى اقتطاعات مهمة من المساعدات التي تقدم لاسرائيل (اقتطاعات يكون لها تأثير على قدرة اسرائيل الدفاعية) ، بسبب التصلب الاسرائيلي ، فان الامر سيشجع فعلا العناصر المناهضة في العالم العربي على أن تقنم دروب الحرب من جديد لاستعادة الاراضي العربية المحتلة . أما اذا لم يستتبع التصلب الاسرائيلي اجراء تخفيضات مهمة في

النظر الامريكية بالسياسة حيال الشرق الاوسط ، باعتبارها « مناورة دبلوماسية صغيرة » ، وانهم لذلك لا « يقبضونها » بجدية كبيرة .

هذا الاعتراف الاسرائيلي بعدم الاكتراث ، اذا اضيف اليه هجومهم المستمر على فورد ، وحملة التخويف التي يبثونها على نطاق الولايات المتحدة ، تسبب كما هو واضح باغضاب الادارة الامريكية بصورة عنيفة . يؤكد هذا ما نشر في **الانترفاشينال هيرالد تريبيون** في الثلاثين من ابريل بقلم اثنين من الصحافيين الامريكيتين وفيقي المصلة بالبيت الابيض . انها يصفان « المعركة بين فورد وبين اللوبي الاسرائيلي » . وطبقا لما ورد في هذا المقال . فلقد كان فورد وكيسنجر شديدي الانزعاج بسبب سلسلة المقالات التي تنشر في الصحفيتين الكبيرتين في اسرائيل ، **هارتس** ، ومعاريف شبه الرسمية ، وهي مقالات تضمنت هجوما مستمرا على كسلا الزجلين ، ودعمت كيسنجر الى الاستقالة . الا ان ما هو اخطر شأنا ، والذي أزعج البيت الابيض بصورة خاصة ، هو الافتراض الاسرائيلي الاساسي الكامن في خلفية الحملة الدعاوية الاسرائيلية ، وهذا الافتراض هو اعتقاد اسرائيل بأن « في وسع رجال الاعلام المواليين لاسرائيل التحكيم في الرأي العام الامريكى وفي الكونجرس وتوجيهها ضد الادارة . والحقيقة ان الكثيرين من أخلص أصدقاء اسرائيل في الكونجرس يعيرون — في نطاق خاص — الحملة الاسرائيلية » .

وتخلص المقالة الى سرد المخاطر التي ستعرض لها اسرائيل اذا ما واصلت حملتها على الادارة الامريكية بشدة ، وبملاحظة انه برغم ما تتمتع به اسرائيل من دعم عظيم في اوساط الكونجرس ، الا ان هناك مع ذلك شعورا بأنه اذا قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل كل ما تريد وتشتهي من عون ومساعدات ، فالتيجة الوحيدة لهذا هي زيادة معضلة الشرق الاوسط عمقا وتعقيدا .

على ان الحملة الاعلامية الاسرائيلية تثير عدة نقاط مهمة : أولا ، انها تبين انه برغم النكسات الجدية التي تعرض لها جهاز الاعلام الاسرائيلي خلال الشهور الاثني عشرة الاخيرة ، فانه لا يزال أهلا لشن حملات دعاوية فعالة ومؤثرة من الوزن الثقيل . واذا كان هذا الامر ينطبق بصورة خاصة على الولايات المتحدة حيث يتمتع الصهيونيون

هجومهم اكثر من نصر عسكري جزئي . ان اسرائيل تعرف هذه الحقيقة جيدا ، وكانت تقولها ضمنا وبالظهير . ومن الجلي ان الصهيونيين والناطقين بلسانهم يفرطون في المبالغة حين يشيرون الى ان مجرد التفكير بتقليص الدعم الامريكى لاسرائيل يزيد من خطر الحرب ويبقى مع ذلك ان النقطة الاساسية صحيحة .

ادريس الخالدي

العون الامريكى لاسرائيل ، فان اسرائيل تكون قد برهنت على صحة ما قالته من « صورية » سياسة اعادة النظر وعدم جديتها ، ولا تكون بالتالى قد خسرت شيئا .

الاحتمال الاول ، اي تعرض اسرائيل العنيدة ، لكن المستضعفة ، لهجوم عربي ، ليس من صالح الولايات المتحدة حتى ولو لم يحقق العرب في

[٢]

اوضاع العمال الفلسطينيين في برلين الغربية

يتناول هذا التقرير ظاهرة هجرة العمال والشباب الفلسطينيين الى المانيا الغربية ، فيتعرض لمسائل السكن والاقامة وما يسمى « باللجوء السياسي » وطبيعة الاعمال التي يتداولها الفلسطينيون هناك ، كما يتناول الوضع الاجتماعي والنفسي للمهمل والشباب الفلسطينيين هناك .

واجهت مكاتب « العمل الاسود » معارضة من قبل العمال المواطنين المحليين لثأثيرها على سوق الايدي العاملة المحلية ، ومعارضة شكلية من قبل الادارات الحكومية . ولكنها اغلقت قبل سنوات نتيجة الازمة الاقتصادية التي حلت بالنظام الرأسمالي العالمى والتي دفعت السلطات الى اتخاذ بعض الاجراءات الوقائية لمواجهة نتائج الازمة من بطالة وارتفاع كلفة المعيشة وانخفاض الاجور ، ولضبط عدد ونسبة العمال الاجانب في البلاد ، ولكن اغلاق تلك المكاتب لم يغير عملية استغلال العمال الاجانب بصورة جذرية من حيث ارتفاع الاجرة ارتفاعا ضئيلا وبقاء التعاقد على اساس يومي ومدد الاتابات الشرعية التي بقيت محدودة جدا .

وكان لهذه الاجراءات انعكاس سلبي على وضع الفلسطينيين ، فقبل ذلك كانوا يعملون من خلال تلك المكاتب بينما يحتاجون الان لاقامة شرعية .

وبدا التشجيع على « اللجوء السياسي » في تلك الفترة حيث تجاوب له بعض العمال الفلسطينيين بناء على الوعود الكاذبة والامل بتحسين اوضاعهم وبعد فترة قصيرة اندفع جميع العمال والشباب الفلسطينيين في هذا التيار وقدموا طلبات للجوء

اكتسب طابع عمل الفلسطينيين في برلين مميزات خاصة تتعلق ببعض المسائل السياسية كالتشجيع على الهجرة بهدف اجهاض او اضعاف الثورة الفلسطينية . ولكن هذا العمل لا ينفصل عن طبيعة « العمل الاسود » الذي ساد في العواصم الاوروبية ، او عن العمل الاسود المبطن بالشرعية بعد تدخل الدولة لضبطه ومراقبته . فقبل حوالي ٤ سنوات كانت مدينة برلين ، كغيرها من العواصم الاوروبية ، مرشحة بمكاتب « العمل الاسود » التي تقوم بتأمين الايدي العاملة الرخيصة ، واستغلالها بأبشع الصور ، حيث قلصت اجرة العامل الى ادنى حد ممكن حتى بلغت في معظم الحالات نسبة ٤٠ - ٥٠ ٪ من الحد الأدنى الرسمي للاجور (٢٥ ماركا بدلا من ٦٥ ماركا) ، خالية من كافة الضمانات العائلية او التعويض وعلى اساس تعاقد يومي وفي اصعب مجالات العمل واكثرها .

اشتمل الفلسطينيون من خلال « السوق السوداء » لانهم لم يحصلوا على اقامات شرعية نتيجة قطع العلاقات الدبلوماسية بين المانيا الاتحادية والدول العربية بعد حرب ١٩٦٧ . وقبل ذلك حصلوا على اقامات سياحية لم تخولهم الحق في العمل .

من الشباب الفلسطيني ان يدفع حوالي ١٨٠٠ ليرة شمن تذكرة ذهاب واياب لفضلوا البقاء هنا حتى لو حصلوا على اقامة عادية في برلين .

كيفية الحصول على الإقامة : يدخل الفلسطينيون برلين بصورة غير شرعية ولا يستطيعون مواجهة بوليس الاجانب الا عن طريق محامي يتوكل قضية طلب الإقامة على أساس « اللجوء السياسي » والا تعرضوا للطرده والاعتقال . ويتولى اكثر من عشرة محامين قضايا طلبات اللجوء السياسي ، وهم يقتصرون بأعمالهم على هذه العملية كبرود رزتهم الوحيد ، علما بأن المركز لا يدفع اكثر من ٢٥ - ٥٠ ماركا لقاء كامل اتعابهم ، ويحصلون بالاضافة الى ذلك على مكافآت خاصة من قبل الدوائر الرسية ، عدا عن الرعاية والدعم من قبل المخابرات الصهيونية . ولتسهيل مهامهم يوظفون لديهم عناصر فلسطينية او عربية يدعون لها معاشات مغرية على أن تكون متمكنة من اللغة الألمانية ولها علاقات مع الفلسطينيين . وتعطي الاتامات المؤقتة للفلسطينيين بناء على رسالة من المحامين يعلنون فيها تبنيهم لقضية لجوئهم السياسي .

١ - اللجوء السياسي : تكتسب هذه العملية **ظاهريا** طابع الاهمية والخطورة . اما جوهريا فلا يتعدى كونها المخرج الوحيد المتاح للفلسطيني الذي لا خيار له . قبل اغلاق مكاتب العمل السود لم تتمتع طلبات اللجوء السياسي عدد اصابع اليد وبعد ذلك انتشرت في صفوف الفلسطينيين ولكن الامر الخطير هنا يكون في استقطاب عدد اكبر من الفلسطينيين وخاصة الشباب في محاولة تبييض الحياة الاجتماعية للتجمعات الفلسطينية ، لقاء وعود واحلام خادعة لا يحقق منها شيء .

من الميزات الواضحة لعملية اللجوء السياسي، انه من النادر جدا ان تجد حالة من حالات اللجوء قريبة الى الواقع . فاذا اطلعنا على ملفات طالبي « اللجوء السياسي » نرى فيها الروايات المخلقة التي لا تثير من حيث عدم حقيقتها سوى الضحك ، ولكنها تورط بنجر اليه الفلسطينيون مما يسيء الى سمعة القضية الفلسطينية . فهذا يدعي انه « كان ملازما ثم فر من الخدمة » وخر « مناضل مطلوب للاهدام » الخ . الخ . . . وفي احيان كثيرة لا يعرف الفلسطيني ماذا يختلق من روايات فيتولى

السياسي . وان كان المسبب الاساسي لهذا الانتفاخ هو البحث عن العمل الا ان العملية لم تقتصر على هذا بل تعدتها الى انتشار الدعاية في صفوف الشباب الفلسطينيين في المخيمات وباتى مراكز تجمعهم . مما شجع الكثيرين على السفر بحثا عن « الحظ الموعود » ولكنهم صدموا بالوضع حيث لا تسنح لهم فرص العمل في المجالات المتخصصة فيها ولا يحصلون على حق اكمال تعليمهم في الجامعة او المعاهد التقنية والفنية كما ظن بعضهم ، بل وجدوا انفسهم مضطرين للعمل في المطاعم وورش البناء ومخطف الاعمال المرهقة في المصانع والمناجم ودفعوا باتجاه تقديم طلبات « اللجوء السياسي » مقابل لا شيء بل تحقيرهم واهانة كرامتهم الشخصية والقومية .

لماذا مدينة برلين ؟ يصعب التحديد لماذا أصبحت مدينة برلين ، وليس غيرها من مدن اوروبسا الغربية المركز الاول لاستقطاب العمال الفلسطينيين ولكن من المعروف أن في مدينة برلين اكبر وخطر وكر للصهيونية من بين باقي منظماتها في عواصم اوروبيا الغربية . ولهذا المسألة علاقة بعملية التشجيع على الهجرة التي استهدفت الشعب الفلسطيني . ولكن هناك عوامل اخرى تجعل إمكانية السفر الى برلين اسهل بكثير من السفر الى عواصم اوروبية اخرى نذكر منها :

١ - قدرة الاستيعاب للايدي العاملة الاجنبية التي تمتاز بها برلين وخاصة في قطاع البناء حيث أن معظم العاملين في هذا القطاع هم من بين العمال الاجانب ومنهم الفلسطينيون .

٢ - مشاكل الحدود بينها وبين القسم الشرقي منها . فالفلسطينيون لا يستطيعون الحصول بسهولة على تأشيرة مرور الى العواصم الغربية، بل يحصلون على تأشيرات مرور في اراضي المانيا الديمقراطية . ويتسللون الى برلين الغربية عبر المداخل التي يسيطر عليها البوليس الألماني الشرقي الذي لا يشترط وجود تأشيرات دخول الى اراضي المانيا الغربية ، اذ تعتبر برلين منطقة ترانزيت دولية .

٣ - انخفاض سعر التذكرة بواسطة الطيران الشرقي التي تصل الى حوالي نصف سعر التذكرة بواسطة الطيران الغربي حتى بعد مضاعفتها وهذا عامل ثانوي ولكنه مؤثر ، فلو استطاع الكثير

ج - محاكم « اللجوء السياسي » : من مهام المحكمة ان تطلب من « اللاجئ السياسي » اثبات ما ورد لديه من ادعاء من ضرورة لجوئه . والواقع اثبت انه من النادر ان تجد فلسطينيا اثبت ضرورة لجوئه . ونتائج المحاكمات انتهت الى رفض هذه الطلبات ولكن مع بقاء فرصة الاستئناف التي تعطي المدعي سببا للإقامة مدة اطول . ومن مصلحة السلطات الالمانية عدم الرفض القطعي لهذه الطلبات فهي بشكل اساسي تحافظ على وجودهم على أساس اقامات مؤقتة تعفيهم من تحمل المسؤولية تجاه عملهم او تحسين ظروف معيشتهم . فالمسألة كاملة الوضوح : ان القائم على رأس هذه العملية يدركون عدم جدية اللجوء السياسي للفلسطينيين ، ولكنهم يحاولون كل جهدهم لاعطائها الصفة القانونية والحقوقية . كما يستفيدون بالخداع والتزوير من انتزاع «اعترافات وتوقيعات» على استمارات وبيانات . ووثائق تحتوي على عدم حق الفلسطيني بالمطالبة بفلسطين او بأي املك له فيها او الايمان بأن فلسطين هي موطنه .

الإقامة والعوامل التي تحدد مصيرها : يحصل العمال الفلسطينيون على اقاماتهم ويجددونها من خلال تلك العملية الالمانية الذكر . اما العوامل الاساسي الذي يحدد مصير هذه الإقامة فهو حاجة البلد الى الالدي العاملة خاصة الرخيصة منها ، وليس نتائج طلب اللجوء السياسي . وتتعرض الإقامة لعدة تبدلات وتتم بمرحله مختلفة : فتعطي الإقامة في الفترة الأولى لمدة اقصاها ٣ أشهر تسميها الدوائر الرسمية مرحلة انتظار «المحاكمة» والنظر في القضية . ولكنها بالفعل مرحلة اختبار للمقيم لمعرفة ان كان سيعمل ام لا . فان لم يعمل يحصل على « مساعدة اجتماعية » من مركز بلدية الحي الذي يعيش فيه حيث يقدم هذا المركز تقريره عن المقيم الى دائرة البوليس ليشرح حالته وعن عدم امكانية توفير العمل له فهنا يصبح المقيم مرشحا لان يرسل الى غرب المانيا ليقيم في معسكرات اللجوء السياسي . او تجدد له الإقامة في برلين للانتظار . ورفض بعض الشباب امر السفر الى غرب المانيا واضطر للخروج عن القانون بمختلف الوسائل . ومن يحصل على العمل لا يأتيه الامر بحضور المحاكمة خلال سنة او سنتين وان دعي وفشلت دعوته يستأنفها وتجدد اقامته

المحامي ومساعدوه الفلسطينيون الجنسية - امر اخلاق قصة اكثر « إثارة » واساءة الى القضية . فملفات اللجوء أصبحت مادة غسنية للدعاية الصهيونية والمنظمات النازية في المانيا وغيرها . وبشكل خاص . عندما تتطور القضية الى مرحلة حضور محاكم اللجوء السياسي الرسمية في معسكرات خاصة في غرب المانيا .

ب - معسكرات اللجوء السياسي : يرسل الفلسطيني الى غرب المانيا لحضور محاكمة « اللجوء السياسي » التي تقام في معسكرات خاصة معظمها تحت اشراف القوات المسلحة للولايات المتحدة وتحت أسماء جبهيات « دولية » مختلفة كزراعة حقوق الإنسان وغيرها من العناوين المضللة . وتجمع هذه المعسكرات اناسا من قوميات مختلفة وخاصة الأوروبيين الشرقيين .

وفي معسكر مدينة - الترندورف - يقيم معظم الفلسطينيين . وهم يتعرضون الى شتى أنواع التحقير والاذلال ، كالقيام بأعمال السخرة ، تنظيف الشوارع والحدائق ومسح غرف الموظفين ومكاتبهم مقابل الطعام والنوم فقط . وهذا مما يؤدي دائما الى تخلي بعض الشباب عن طلبات لجوئهم السياسي قبل حضور المحكمة ويفرون عائدين الى برلين حيث يبدأون المحاولة من جديد للحصول على عمل وذلك لتأجيل الذهاب الى المحاكمة .

في الواقع تميز الشباب الفلسطيني في ذلك المعسكر بالتمرد بعكس باقي مجموع اللاجئين من البلاد الأخرى . فقد شب حريق في المعسكر أحرق الغرف والأثاث وسبب خسائر اخرى خلال شهر كانون الثاني عام ١٩٧٣ . وحمل الشباب الفلسطينيون مسؤولية الحادث وتعليقا على الحادث ذكرت بعض الصحف الموالية للصهيونية هناك ان الشباب الفلسطيني يأتي الى هذا المعسكر تحت اسم اللجوء السياسي ولكنهم في الحقيقة مخربون ومندسون ، وأن معظم الشباب هناك ما زالوا على علاقة تنظيمية مع فصائل منظمة التحرير . وان كانت هذه الصحف قد عبرت عن حقتها الاعمى تجاه الشباب والعمال الفلسطينيين فانها تكلمت عن وجه من الحقيقة بأن العمال الفلسطينيين غير جادين في مسألة اللجوء السياسي .

أما ضريبة العمل فتتميز طريقة تحصيلها من الفلسطينيين بالاشكال التالية : أولا - يدفع العامل الفلسطيني الضريبة نفسها التي يدفعها العامل الألماني ، علما بأن أجرته التصوى لا تعادل الحد الأدنى للاجرة الرسمية . ثانيا - يعود للمواطن الألماني قسم من الضريبة بطريقة غير مباشرة عن طريق الخدمات الاجتماعية المختلفة - تعليم - طب - الخ أما الفلسطيني فلا يعود عليه اي شيء من هذه الخدمات الاساسية . ثالثا - يظل قسم من الضريبة من حق العامل الألماني وتعود اليه كمدفوعات مباشرة كلما حان وقت استردادها - كضمان الشيخوخة او في حال تغير مكان العمل او الهجرة الى الخارج . بينما يحصل الفلسطيني على قسم ضئيل جدا من الضريبة التي يدفعها .

ان مقدار ما توفره أجهزة الدولة في برلين من أصل الضرائب المتوجب عليها اعادته للمعمال الاجانب ومن بينهم الفلسطينيين يبلغ حوالي عشرة ملايين مارك سنويا . ويعجب العامل الفلسطيني حين يحصل من الدولة على بطاقات سفر مجانية ومساعدة اجتماعية فيظن ان الدولة تتكرم عليه خاصة وانه ينظر الى الموضوع من منظور فردي ولا يرى خلفيته في استغلال جموع العمال الاخرين .

البطالة والمساعدة الاجتماعية : ليس للعمال الفلسطينيين بالرغم من « اللجوء السياسي » أية افضلية في الحصول على العمل ، بل يفضل عليهم أي عامل اجنبي . ودائرة العمل لا تقدم لهم الفرصة الا عندما يزداد الطلب على العمال . وهناك على الدوام حسب سجلات مراكز «المساعدة الاجتماعية» نسبة ٣٣ ٪ من طالبي اللجوء السياسي بدون عمل . ويكون العدد التقريبي حوالي ٥ الاف من أصل ١٥ ألفا ممن يحصلون بشكل دوري على المساعدة الاجتماعية . إذ أن اغلبية العمال قد مروا بفترة حصلوا خلالها على المساعدة الاجتماعية قبل عثورهم على العمل . وهم يعودون للحصول على هذه المساعدة اذا ما فقدوا عملهم من جديد .

والمقصود « بالمساعدة الاجتماعية » ان تغطي الحاجات اليومية الضرورية . ولكن حجم هذه المساعدة لا يغطي ثلث الحاجة كحد أدنى من

مدة أطول طالما ما دام يحافظ على مركزه غسي العمل .

لا يغيب عن بالنا ان هناك من « يريح » دعوى اللجوء السياسي ويحصل على بطاقة سفر جديدة بدل البطاقة الفلسطينية ولكنهم ثلة تعد على الاصابع . ونوع هذه البطاقة تعطى عادة غسي المانيا للفجر الذين لا وطن لهم ولا يحق للذين يحصلون عليها مغادرة البلاد قبل مرور (٥) سنوات على الحصول عليها .

من شروط طلبات اللجوء السياسي انه يحظر مغادرة البلاد خلال فترة الإقامة . ولكن العمال والشباب الفلسطينيين دائما في حركة تنقل بين برلين وأماكن اقامتهم الدائمة غسي الدول العربية ، ولا تعلم السلطات بهذا الأمر لانهم يغادرون عبر اراضي برلين الشرقية ، وهذه الظاهرة واضحة جدا وتعلم السلطات بها عن طريق معلومات خاصة . ومع ذلك فان الفلسطيني الذي يغادر برلين لاسباب مختلفة يعود اليها ويحصل من جديد على الإقامة دون التعرض للمشاكل بسبب طلبه « اللجوء السياسي » !

مسائل العمل : يحصل العمال الفلسطينيون ، كما ذكرنا ، على أكثر الاعمال مشقة داخل الورش والمصانع والمطاعم وغيرها تحت أقسى الشروط والظروف بدءا من طبيعة التعاقد وحجم الأجرور الى الضمانات وكيفية الحصول على العمل او كمية المساعدة الاجتماعية اثناء البطالة وكيف تسترد منهم بأبسط انواع الاستغلال وعمل المسخرة ولان التعاقد يقوم على أساس يومي مع الاجانب يلجأ الرأسماليون الى تقليص اسبوع العمل الى ثلاثة أيام في اوقات الأزمات الاقتصادية . والعمال الفلسطينيون هم من أوائل الذين ينطبق عليهم هذا النظام مما يجبرهم للوقوع في أزمات معيشية حادة دون أدنى حد من التمويض . وبذلك يشكل الفلسطينيون تقسما من قوة العمل الاحتياطي التي تستخدم ويستغنى عنها تبعاً لتقلبات أزمات العمل . ويجري تمييز العامل الألماني عن العامل الفلسطيني في كافة المجالات من حيث حجم الأجرور واجازات المرض حيث يسمح للألماني بتهديد اجازته المرضية حسب حاجته ولا يسمح للعامل الفلسطيني بتهديد اكثر من ثلاثة اسابيع حيث يفصل اوتوماتيكيا من عمله .

مع مركز البلدية يحافظان على نسبة معينة عاطلة عن العمل لكي تستخدم في اعمال السخرة . وقسم ضئيل من انتاج هذا العمل يقدم كمساعدات للفلسطينيين انفسهم على شكل بطاقات سفر مجانية اثناء طردهم من البلاد او لقاء اتعاب المحامين والحاكم التي تتولى امر طلباتهم اللجوء السياسي والمساعدة الاجتماعية . ولا يدرك الفلسطيني، غالبا، مصدر المساعدات التي يحصل عليها، فبعض العمال الفلسطينيين يذهب الى القول ان النظام الالمانى يعطيهم الامتيازات الخاصة مجانا . ومن هنا انتشرت الدعاية في صفوف الشباب الفلسطيني خاصة في مخيمات لبنان فاندفعوا في تيار الهجرة . ولكن معظمهم لا يستقر هناك واذ يعود قسم منهم على الفور ومنهم من يتردد الى برلين ٢ او ٤ مرات في السنة الواحدة .

وهناك نوع اخر من المساعدة تعطى على اساس فقدان العمل . ولا تدفع في هذه الحال الا بعد ان يكون العامل قد اشتغل مدة حددها الادنى ١٠ اسابيع . وقيمة المساعدة هي ٤٠٠ مارك، في الشهر الواحد وتحسم هذه المساعدة من اصل الضريبة التي يدفعها العامل على اساس تغطية الـ ١٠ اسابيع الاولى من العمل حتى لو استمر العامل في عمله مدة سنة او سنتين ، ثم يبدأ الضغط عليه للعمل بالسخرة لدى مركز البلدية لقاء ٤٠٠ مارك في الشهر بحجة عدم وجود فرصة اخرى للعمل .

الحالة الاجتماعية : يتكون المسافرون الى برلين من فئات اجتماعية مختلفة والنسبة الكبرى منهم قادمة من مخيمات الفلسطينيين في لبنان وقسم من الضفة الغربية والاردن .

١ - **فئات العمال :** وقد اضطروا الى السفر بحثا عن الرزق نظرا لقلة فرص العمل والتضييق على مجالات عملهم خاصة في لبنان والاردن وتبين ان جميع هؤلاء يمشلون البقاء في اماكن اقامتهم الاصلية لو فتحت لهم ادنى فرص للعمل لانهم لمسوا بتجربتهم ان بقاءهم في برلين ليس فيه أي امتياز . فالسفر الى ليبيا او السعودية والكويت يقدم لهم فرصا اكبر في سد حاجاتهم وحلجات ذوبهم المسؤولين عنهم . بينما في برلين لا يستطيع العامل ان يرسل الى اهله وعائلته اكثر من ١٥٠ - ٢٠٠ مارك شهريا في حال استلامه العمل

المصاريف اليومية . ونظرا الى تكاليف المواد الاساسية فنرى ان رغبان الخبز يكلف ٢ مارك - علبة بيض صغيرة ٢ مارك - كلفة مواصلات مرة واحدة في اليوم ١٤٤ مارك الحد الادنى لكلفة وجبتي الغذاء والعشاء ٧ مارك . علبة الدخان ٣٤٣ مارك ، شراب واحد في اليوم ١٤٤ مارك . فتبلغ تكاليف هذه الحاجيات اليومية الضرورية مبلغ ١٦٤١ مارك . هذا ما عدا الحاجات الاخرى لفظور الصباح زبدة ، جبنه ، او قهوة الخ . . اما قيمة « المساعدة الاجتماعية » اليومية مثلا تتعدى ٦ ماركات ، وازضافة الى ذلك هناك ٨٠ ماركاً في الشهر لقاء اجرة البيت . علما بأن الحد الادنى لاجرة السكن في حال المشاركة مع الاخرين تبلغ ١٢٥ - ١٥٠ ماركاً . والوضع في برلين صعب جدا لدرجة ان العاطل عن العمل لا يستطيع ان يحافظ على وجوده دون ان يحصل على المال من اهله في الوطن او ان يستدين من معارفه والا فانه سيغاثي الجوع الحقيقي والاهانة او يلجأ الى السرقة . وللحصول على المساعدة على العاطل الفلسطيني ان يكرر زيارته مرة ومرتين وثلاثة وكأنه يستجدي حسنة . وينتظر لانهاء المعاملة حوالي ٤ - ٥ ساعات . وتلك عملية مقصودة من اجل التأكد من تواجد طالب المساعدة تحت انظارهم منعا « للاحتيال والخداع » .

يحصل الفلسطيني على- المساعدة خلال مدة اقصاها ٦ اسابيع وبعدها يبدأ مركز البلدية بالملاحظة والتمنع عن دفع المبلغ الضئيل المذكور ، ويبدأ الضغط من اجل تشغيل العاطلين عن العمل لديهم في اعمال البلدية : تجميع الاوساخ من الاحياء وتنظيف الشوارع ومسح المكساتب وغيرها . ولدة ٤ او ٦ ساعات يوميا . كل هذا مقابل اجر قدره ١/٤ مارك للتساعة الواحدة . فيبلغ الاجر اليومي ٢ - ٣ مارك . مع العلم ان اجرة ساعة العمل في هذا المجال ٨ ماركات ويعتبر يوم العمل ٨ ساعات فيحصل العامل بمبلغ ٦٤ ماركاً ، وتضاف اجرة ساعات عمل السخرة هذه الى قيمة المساعدة الاساسية فتبلغ ٨ - ٩ ماركات في اليوم . ويشكل عمل السخرة هذا المصدر الرئيسي لما يسمى بالمساعدة الاجتماعية وفي غيبة وعي العامل والشباب الفلسطيني تنظم الدوائر الرسمية هذه العملية : فدائرة العمل بالاتفاق

مسائل السكن : تعتبر مشكلة السكن من اهم مشكلات العمال والشباب الفلسطينيين حيث يسكن معظمهم في بيوت جماعية او بالاحرى مفايسات جماعية حيث يشارك ثلاثة او اربعة افراد غرفة صغيرة غير مزودة بالماء او المراحيض ويشاركون جميعهم مع الاخرين في حمام واحد ومطبخ واحد لكل طابق . ويدفعون الاجرة تبعا لعدد الاشخاص . والشيء المميز لهذه النمايات أن معظمها بدون طلاء ودائما معرضة للرطوبة وخالية من اجهزة التدفئة الضرورية . بالاضافة الى تضييق مجال الزيارات حيث تعترض ادارة النمايات عن دخول الزائرين ، وهكذا يعيش المستأجرون في هذه الاماكن بعزلة شبه تامة .

والبعض الآخر يحصل على شقق مفروشة غير صحية ومنافية لقوانين البلد حول المساكن، وبدل ايجارها يبلغ حوالي ٣٠٠ مارك عدا مصاريف الكهرباء والغاز . فيضطر المستأجر ان يتشارك مع أشخاص آخرين ، هذا اذا سمح صاحب البيت . ويتم الحصول على هذه الشقق عن طريق مؤسسات صغيرة وكبيرة تدير عددا مسن الشقق المفروشة وتمارس شتى أنواع الغش . يدفع الفلسطيني لهذه المؤسسات عمولة اضافية تبلغ ١٥٠ ماركاً لقاء السكن . ثم يدفع « التامين » ٢٠٠ مارك . هذا بدون أي تعائد بين الطرفين مما يسمح لهـذه المؤسسات بطرد العمال من هذه المساكن بدون دفع مبلغ التامين تحت حجج كاذبة : كالادعاء بأن الشباك مكسور او فرن الغاز معطل . وعمادة يستغلون جهل العمال للغة الالمانية ويحصلون منهم على امضاءات تتعهد بالتنازل عن التامين او دفع تعويض لاضرار لا وجود لها ، تجرهم الى المحاكم وتحمل العقوبات . ولا يحصل الفلسطيني (الا في النادر) على شقق يستطيع التصرف بها ويعقد يحدد شروط علاقته بالملاك . واذا طالعنا الصحف التي تعلن عن وجود شقق للايجار ، وهناك الكثير ، لوجدنا ان معظمها يشترط عدم قبول الاجانب . واذا اتصل احدهم بالارقام او بالاعناوين المذكورة فلا يجد فرصة للسؤال لانه اجنبي . هناك شائعة تقول أن برلين تعيش ازمة سكن ولكن من الواضح ان هناك دائما حوالي ١٥ الف شقة غير مسكونة وتحجب عن المواطنين المحليين والاجانب بهدف رفع بدل ايجارها .

الخاتمة : تتضح من هذا التقرير العام عدة

بشكل دائم وهذا غير وارد . فيضطرون لسلك حياة التثقف الشديد . حيث يحرمون انفسهم من التمتع بالاجازة الاسبوعية ولا يتالون اية فرصة للترفيه (كالذهاب الى السينما) وبدلا من ذلك فهم يتبادلون الزيارات فيما بينهم والاكتفاء بشرب الشاي والتحدث عن الوطن ويلتفون حول المذباغ محاولين التقاط موجة من احدى المحطات العربية . وبالرغم من أنهم يكتفون في برلين سنة او سنتين فهم لا يجيدون اللغة الالمانية ولا يختلطون بالعمال الالمان ولا يدركون ما يجري حولهم وبالتالي لا يمارسون اية نشاطات نقابية او سياسية على الاطلاق ، لان السلطات الالمانية تمنعهم من القيام بمثل هذه النشاطات .

ب - فئات الشبيبة : قسم شليل من هؤلاء الشباب يتحمل مسؤوليات عائلية اما الاغلبية فقد اتدعت للسفر الى برلين لا بسبب البحث عن عمل بل كزوجة شباب وحب الاستطلاع عدا عن انجرارهم وراء الوعود والافراءات بأن الوضع في برلين سيحقق لهم احلامهم . ولكنهم لمسوا بالفعل مرارة العيش هناك . ويبدو أنهم وقعوا في تلك الدوامة التي من الصعب التخلص منها ، فأكثر من مرة يعود الشباب الى موطنهم ولكنهم لا يجدون عملا . فمنهم عمال فنون متخصصون في مجالات معينة لكنهم لا يجدوا مجالاً للعمل في تخصصهم بل يعملون في المطاعم والورش كغيرهم من فئات العمال والشباب . وبعضهم تركوا مقاعد الدراسة الثانوية او الجامعية املا في أن يكملوا تعليمهم في برلين وفشلوا في هذه المهمة ايضا .

ولا نستطيع فصل حالاتهم النفسية عن مجمل اوضاع الثورة الفلسطينية التي تواجه المؤامرات والتهديد اليومي عدا عن الهجمات الاسرائيلية على المخيمات في شمال لبنان وجنوبه بهدف تفتيت الحياة الاجتماعية والوحدة السياسية للفلسطينيين .

وما يميز فئة الشباب بشكل عام هناك أنهم يختلطون بالبيئة الاجتماعية ويتكيفون معها الى حد كبير بحيث تؤثر على نفسياتهم وعقليتهم حتى ان معظمهم اذا عادوا الى المخيمات يحسون «بغربة» . غير أن قسما من الذين عادوا واستقروا هنا استطاعوا ان يتخلصوا من وهم برلين ولكن بعد ان كلفهم ذلك الكثير من المشقة والمعاناة .

٣ - لا يملك الشباب او العامل الفلسطيني هناك الجرأة على القول بأنه يقم بسبب اللجوء السياسي وهذا ما ولد لديهم حساسية تجاه بعضهم البعض . حيث سرت روح التشكيك بوغائهم لتضييقهم . وان الازمات التي تمر فيها الثورة الفلسطينية تعطي دائما انعكاسا سلبيا على نفسية المقيمين هناك . فينبغي بالتالي زيادة النشاط السياسي في صفوفهم لايقائهم على علم بما يجري على واقع الثورة لكي يتعمق ايمانهم بثورتهم ويزيد ارتباطهم بها .

٤ - ان النتيجة السلبية الوحيدة التي يحصل عليها اعداء الشعب الفلسطيني تنحصر في انتزاع تلك التصريحات الفردية التي تعلن عدم اعترافه بالثورة وايمانه بوطنه فلسطين وهي بالرغم من عدم جدتها تظل مجالا لاستغلال الدعاية الصهيونية لها . ويظل الهدف وراء كل هذه العملية فحسم وحدة الشعب الفلسطيني وزيادة تشتته ، فينبغي التحرك قبل أن ينجح ذلك الهدف وقبل ان تنتزع البطاقات الفلسطينية من يد الشباب والعمال هناك .

عدنان الغول

مسائل هامة :

١ - ان السبب الرئيسي لسفر الفلسطينيين الى برلين هو البحث عن العمل وليس بهدف « اللجوء السياسي » كما تحاول ان تركز وسائل الاعلام النازية في المانيا الاتحادية . ويجري هنا خلط من بعض الجهات المسؤولة حول عملية اللجوء السياسي ففصل بعضهم الى حد اعتبار الفلسطينيين هناك في عداد الخونة لتضييقهم وثورتهم . وقد سرت بالفعل هذه الروح في صفوف سكان المخيمات حتى بدأ المسافرون الى برلين يحسون بالحرج عندما يعودون الى بيوتهم .

٢ - يستغل العمال والشباب الفلسطيني في مراكز العمل ومعسكرات اللجوء السياسي وأعمال السخرة أبشع الاستغلال من دون امكانية المطالبة بتحسين أوضاعهم او حق تكوين منظمات نقابية او اجتماعية كائونادي وغيرها . وان عملية « اللجوء السياسي » لا تضع ذلك الحاجز بين منظمات الثورة والفلسطينيين المقيمين هناك لعدم جدتها ، فيفتح ذلك المجال امام تدخل منظمات الثورة في شؤونهم ومتابعة اخبارهم وعدم اقبالهم او احراجهم .

[٣]

جاك دوكلو : مناضل نمونجي

وبعد انتهاء الحرب انغمس دوكلو في النضال السياسي ، مدافعا عن الطبقة العاملة مدفوعا باحساس عميق بوحشية النظام الرأسمالي . ومن خلال نضاله اليومي الدائب وصل دوكلو الى اختياره السياسي الواعي ، فانتمى الى الحزب الشيوعي عام ١٩٢١ اي عام تأسيسه . ولجعل اختياره منجبا وفاعلا دخل الى مدرسة الكوادر ليصبح عضو لجنة مركزية عام ١٩٢٦ . وفي انتخابات ذات العام هزم ليون بلوم زعيم الحزب الاشتراكي آنذاك ، لكن دوكلو لم يكن مناضلا يعرف الطريق السهل ، هاجم النزعة العسكرية

في الخامس والعشرين من شهر نيسان الماضي ، خسر الحزب الشيوعي الفرنسي احد ابرز قادته : جاك دوكلو ، الذي توفي في الثامن والسبعين من عمره وهو لا يزال يقف في صميم المعركة السياسية من اجل قضية الديمقراطية والتقدم الاجتماعي .

ولد جاك دوكلو في عام ١٨٩٦ في قرية صغيرة في جنوب فرنسا ، انحدر من اسرة فقيرة متواضعة ، لذلك بدأ يعمل عند بائع حلويات وهو لم يجاوز اثني عشر عاما بعد . وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى شارك فيها دوكلو جنديا وجرح .

لذلك لم يخسر تقريبا في حياته جولة انتخابية .
أصبح نائب رئيس البرلمان الفرنسي بين عام
١٩٣٦ - ١٩٣٩ وأعيد انتخابه بعد ذلك في مجلس
الشيوخ حيث احتفظ بمقعده حتى وفاته .

وكان مرشح الحزب الشيوعي لرئاسة الجمهورية
في عام ١٩٦٩ ضد بوبيدو حيث حصل على ٢٢٪
من أصوات الفرنسيين . من آخر جولاته الشهيرة ،
معركته مع وزير الداخلية الفرنسي بونياتوفسكي
حول الفاشية والشيوعية ، حيث نعت فيها دوكلو
بونياتوفسكي بأنه « فاشستي جبان » . وبغياب
دوكلو تتوارى ذاكرة الحزب وأنسان قاد الحزب
منذ نشأته الى جانب موريس تورييز ومارسيل
كاشان .

بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين يتوارى قائد حزب
صديق ، الحزب الشيوعي الذي بدأ يهاجم
المسيحية منذ اوائل الخمسينات « النقد الجديد
شباط - ١٩٥٣ » ، والذي وقف الى جانب النضال
العربي في بلد يحكمه اعلاميا الاعلام الصهيوني .
وفي الخامس من حزيران ١٩٦٧ كانت صحيفة
الحزب « الاومانيته » الوحيدة التي هاجمت اسرائيل
بينما كان جهاز الاعلام الفرنسي يرمته يتفنى
بالانتصار الاسرائيلي . وقد صرح مارشيه سكرتير
الحزب في ايار ١٩٧٣ « اننا لا نؤيد فقط حقوق
الشعب الفلسطيني ، بل سنناضل معه حتى
يستعيد هذه الحقوق » كما صرح مؤخرا بأن
« الشعب الفلسطيني شعب حقيقي وموجود وله
حقوق قومية مشروعة » .

وقد كرمت دوريات الحزب في هذا العام والعام
الماضي الكثير من صفحاتها للدفاع عن القضية
الفلسطينية وهتك حقيقة اسرائيل (يمكن مراجعة
مجلتي النقد الجديد وفرنسا الجديدة) .

ان حياة دوكلو رفيق بوليتزر ستكون صوتا
هاديا لكل مناضل ، وسوف يكون تراثه العظيم
منهلا لا ينضب لكل المناضلين من اجل الحرية
والاستقلال وكرامة الانسان .

ف. د.

« أي النظام » وهو نائب فلوق وحكم عليه
بالسجن .

وعند اقتراب الفاشية وصعودها كرس دوكلو
كل عمله لغارتها في فرنسا خاصة وفي اوربا
عامة . فذهب الى لشبونة سرا ، وانطلق بعد
ذلك الى مدريد عندما كانت ظلال الموت تخيم على
اسبانيا . وكان دوكلو رفيق درب ومؤازرا
لديمتروف في معركته ضد الفاشية الهتلرية .

لم يكن دوكلو يعرف التعب والكلل ، كان كظلة
من الحركة والنشاط المبدع ، فهو حاضر باستمرار
في بلده ، وحاضر ايضا في كل بلد يناطح الظلام .

في عام ١٩٢٦ أسهم دوكلو بشكل رئيسي في
اقامة الجبهة الشعبية للوقوف في وجه الفاشية .
ولما دخلت الجحافل النازية فرنسا كان دوكلو
متخفيا في سويسرا فعاد مباشرة ، حيث بدأ ينظم
الحملة السياسية والاعلامية للحزب في طول فرنسا
وعرضها ، ثم بدأ يقود المقاومة المسلحة مع جورج
بوليتزر ، كل ذلك في ظروف بالغة الصعوبة أعطى
فيها الحزب الشيوعي ٧٠ ألف شهيد .

لم يكن دوكلو رجلا سياسيا محترفا فقط ، أي
رجل حركة ، ورجل تنظيم ، بل كان انسانا
موسوعيا أيضا ، كان ذاكرة الحزب وذاكرة
الوطن ، أرخ لفرنسا كما أرخ لحزبه وللحركة
الشيوعية العالمية ، فمذكراته تغطي الحياة
السياسية خلال أكثر من نصف قرن ، ومن كتب
دوكلو « هجوم السماء ، قصة الكومونة ، فوضوية
الامس واليوم ، من نابليون الثالث الى ديغول ،
الظل والثور ، باكونين وماركس » وقد ساهم قلم
دوكلو بغزارة في الحياة السياسية من خلال مقالاته
التي كان ينشرها في جريدة الحزب « الاومانيته » .
كما كان مدير تحرير مجلة « الديمقراطية الجديدة »
ومجلة صوت الشرق .

دوكلو لم يكن لا السياسي المترفع البطر ولا
المثقف المتخلف ، بل كان مزيجا متجانسا من
الممارسة والنظرية ، كان يتكلم الى الشعب ويفهم
الشعب لانه ينتهي اليه ويناضل من أجل مصالحه ،

تطور العلاقات النيبالية الإسرائيلية

التمثيل الدبلوماسي الإسرائيلي في أفريقيا في اعقاب استقلال عدد كبير من الدول الامريقية .

وفي ١٢ أغسطس ١٩٦٠ قام كوارالا رئيس وزراء نيبال بزيارة اسرائيل وحضر المؤتمر الدولي لدور العلم في تقدم الدول النامية برحبوت ، وأشاد البيان المشترك بين الطرفين بالتجربة الاسرائيلية على أن يسافر وفد من الخبراء الاسرائيليين الى نيبال وتقام مؤتمرات مشتركة في المجال الاقتصادي وتقدم اسرائيل منح دراسية لطلبة نيبال . وفي ١١ يونيو ١٩٦١ قدم سفير نيبال غير المقيم أوراق اعتماده لدى السلطات الاسرائيلية (أ) ويدخل هذا في إطار تجسيد السياسة الاسرائيلية من خلال دبلوماسية القبة وذلك بالاتصال بين القيادة في البلدين واستخدام المؤتمرات العلمية كوسيلة من وسائل السياسة الاسرائيلية .

وتساعد اسرائيل نيبال في المجال الزراعي وقامت شركة سوليل بونيه الاسرائيلية باقامة شركة انشاء مشتركة بين حكومة نيبال واسرائيل تملك نيبال ٥١ ٪ من رأسمالها ، ويتدرّب في اسرائيل نيباليون في المجالين المدني والعسكري .

أي ان اسرائيل تتبع اسلوبا عاما مع الدول الصغيرة في آسيا وأفريقيا كالزيارات وحضور المؤتمرات وتقديم المساعدات واقامة بعض المشاريع الاقتصادية .

وقام الملك ماهندرا ملك نيبال بزيارة اسرائيل في سبتمبر ١٩٦٢ وركز البيان المشترك الصادر عن الزيارة على العمل من أجل تحقيق الوحدة الاقليمية للدول والتخلي عن التهديد باستعمال القوة (أ) ، ويعكس هذا البيان خصائص السياسة الاسرائيلية في ذلك الوقت ، بالسعي نحو ضمان الوجود الاسرائيلي والتخلي عن التهديد باستخدام القوة ، كما يوضح ذلك فاعلية السياسة الاسرائيلية تجاه نيبال وذلك باقناع الاخيرة بنطق السياسة الاسرائيلية .

وذكر مصدر اسرائيلي ان نيبال امتنعت عن التصويت على القرار الذي صدر ضد اسرائيل في

نيبال مملكة صغيرة داخل جبال الهمليا ، ولا توجد لها منافذ على البحار ، ويقدر عدد السكان فيها بعشرة ملايين نسمة ، وتجاورها دولتان كبيرتان هما الصين الشعبية والهند ، وهكذا أثر الوضع الجيوبوليتيكي لنيبال على سياستها الخارجية اذ انها عملت من اجل اتباع سياسة عدم الانحياز ولا يخفى انها تجاوزت الصين الشعبية ذات النظام الشيوعي بالاضافة الى انها دولة كبرى ، كما تجاور الهند الدولة التي قامت بدور يمتد به في سياسة عدم الانحياز والنظامين الإفروآسيوي بالاضافة الى قوتها المتزايدة ، الامر الذي أثر على الحركة الدولية لنيبال .

ركز المنطق الاسرائيلي تجاه نيبال على اشتراك الدولتين في العزلة وللإشتراك في الحركة الاشتراكية الآسيوية وان اسرائيل يمكن ان تقدم نماذج في التنمية تطبقها نيبال ، ويلاحظ ان هذا المنطق لا يستند الى وقائع سليمة ولكن اسرائيل نجحت في اقتناع الكثيرين به ، فعزلة نيبال ناتجة عن عوامل طبيعية في المقام الاول اما عزلة اسرائيل فقد ترتبت على وضعيتها الاستيطانية وقيامها على القوة وطردها للسكان الاصليين ، اما الحركة الاشتراكية الآسيوية فقد سمعت اسرائيل لاستغلالها لصالحها ، وغما يتعلق بالنماذج التي يمكن ان تقدمها اسرائيل فانها لا تلائم نيبال وغيرها من الدول النامية لان النماذج الاسرائيلية جاءت نتيجة طبيعتها الاستعمارية الاستيطانية ومواجهتها للسكان الاصليين . اما النماذج الملائمة للدول النامية فهي التي ترتبط بطروف حداثة العهد بالاستقلال ومظاهر التخلف والتبعية الاقتصادية ومشاكل البروز في المجتمع الدولي . . . الخ الامر الذي يوضح عدم ملائمة التجربة الاسرائيلية لنيبال وغيرها من الدول النامية .

وفي يونيو ١٩٦٠ صدر بيان في القدس وكاتماندو خاص باقامة علاقات دبلوماسية وتبادل السفراء ، وقام السفير الاسرائيلي في رانجون بتقديم أوراق اعتماده كسفير غير مقيم في كاتماندو وذلك في ٧ سبتمبر ١٩٦٠ ويتمشى هذا التوقيت مع تكثيف

اسرائيل فاذا كانت اسرائيل دعت الى انتهاء الاحتلال العسكري فان نيبال تأسف للعداء الموجه اليها مع العلم ان هذا العداء ناجم عن قيام اسرائيل بالقوة وباعتبارها تمثل حركة استعمارية استيطانية ، ويشكل عام يمكن القول ان التصريح في مجمله يعكس ميوعة الموقف النيبالي في ذلك الوقت رغم تأييد نيبال لمشروع قرار دول عدم الانحياز واعتراضها على مشروع قرار دول امريكا اللاتينية .

وفي اطار العرض السابق قال مندوب نيبال في الامم المتحدة ١٩٦٨ ان الوقت قد خان لكي يعترف بان اسرائيل موجودة ولا يمكن تحقيق السلام بدون انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة وتأييد نيبال لقرار مجلس الامن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ .

وقام ولي عهد نيبال بزيارة اسرائيل في سبتمبر ١٩٦٨ ، وفي فبراير ١٩٦٩ قال وزير خارجية نيبال ان بلاده ترهب بمحاولات الدول الاربعة الكبرى لاحتلال السلام في الشرق الاوسط وان السلام يمكن ان يتحقق في الشرق الاوسط من خلال تسوية عن طريق التفاوض واحترام سيادة جميع الدول في المنطقة وانهاء حالة الحرب ، اي ان نيبال ترحب بدور الدول الاربعة الكبرى في الصراع بعد ان كانت تطالب بعدم تدخلها .

وفي ابريل ١٩٦٩ قسالم رئيس وزراء نيبال ان نيبال تؤكد قرار مجلس الامن الصادر في نوفمبر ١٩٦٧ وتؤيد دور الدول الاربعة الكبرى (٥) .

لم يطرأ أي جديد ذات مغزى على العلاقات الاسرائيلية النيبالية في الفترة اللاحقة ، ثم تردد ان اسرائيل ستبعت برئيس الدولة افرايم كاتزير لتمثيلها في احتفالات تتويج ملك نيبال يوم ٢٤/٢/١٩٧٥ ، وتؤكد ذلك فيما نشرته الصحف الهندية في ١١/٢/٧٥ . وجاء اول اعلان من الغاء الزيارة في شكل تصريح لناطق رسمي باسم الخارجية الاسرائيلية في القدس مساء ١٨/٢/١٩٧٥ أعلن فيه ان زيارة الرئيس الاسرائيلي افرايم كاتزير الى نيبال للمشاركة في احتفالاتها قد تم الغاؤها لان الحكومة النيبالية قد أعربت عن قلقها بشأن احتمال قيام عناصر معادية بأعمال عنف . وازداد الناطق ان « جماعات هندية وصينية متطرفة » هي التي يتوقع أن تقوم بهذه الاعمال رغم ان هذه الاعمال لن تكون موجهة ضد اسرائيل .

مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز عام ١٩٦٤ (٦) مما يوضح قوة علاقاتها مع نيبال .

وفي اطار تبادل الزيارات ودبلوماسية القمة قام زلمان شازار رئيس دولة اسرائيل بزيارة نيبال فيما بين ١٥ - ٢٢ مارس ١٩٦٦ وذهب شازار الى ان أمل الدولتين هو ايجاد وضع عالمي من شأنه تمكين جميع الشعوب المحبة للسلام من تركيز انشطتها وعلاقاتها في خدمة بلادها والافادة من مصادر العلم الحديث والتقدم التكنولوجي لتحسين احوال البشر وان اسرائيل تشعر بتقدير خاص لصداقة دولة آسيوية مثل نيبال . وبين ما ذهب اليه شازار الفرق بين السياسة المعلنة لاسرائيل والسياسة الفعلية ، فالسياسة المعلنة تتمثل في الحديث عن السلام وتحسين احوال البشر والصداقة ، اما السياسة الفعلية فهي سعي اسرائيل لفرص نفسها من خلال القوة واستغلال الوسائل المختلفة لتأكيد هذا الفرض .

وركز البيان المشترك الصادر عن الزيارة على اداة الاستعمار وتأييد الحركات المناهضة له والاشارة الى تحسن العلاقات بين الدولتين في المجالات المختلفة (٧) ، أي ان اسرائيل تحاول ايجاد صيغة مشتركة بينها وبين آسيا وهي محاربة الاستعمار رغم ان اسرائيل تمثل الاستعمار الاستيطاني القائم على اغتصاب الارض وطرد السكان الاصليين .

عندما بحث العدوان الاسرائيلي في الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٦٧ أيدت نيبال مشروع قرار دول عدم الانحياز واعترضت على مشروع قرار دول امريكا اللاتينية اي انها تعتبر من الدول التي أيدت العرب في الامم المتحدة .

وفي ٦ اكتوبر ١٩٦٧ قال وزير خارجية نيبال في الامم المتحدة « ان اول مطلب لتحقيق السلام هو انتهاء الاحتلال العسكري وتنفيذ قرارات الامم المتحدة وان نيبال تعترف باسرائيل كدولة ذات سيادة وتأسف للعداء المستمر الموجه اليها وعلى اسرائيل ان تعترف باستقلال جيرانها ووحددة اراضيهم وعلى الدول الكبرى ان لا تتدخل في المشكلة » .

وهذا بين مؤشرات السياسة الاسرائيلية على نيبال وفي نفس الوقت موقف دول عدم الانحياز من

النيبالية المتزايدة في الدول العربية ، وهذا في حد ذاته يعد فشلا للسياسة الاسرائيلية تجاه نيبال .

يبين العرض السابق اعتراف نيبال بإسرائيل وقيام علاقات دبلوماسية بين البلدين ، كما انها ايدت الدول العربية بوجه عام في حرب ١٩٦٧ ، ويفسر موقف نيبال بدور السياسة الاسرائيلية واعتمادها على الاتصالات المباشرة والخبرة والتدريب ودور حزب المؤتمر النيبالي واشتراكه في الاشتراكية الاسيوية حيث تم الاتصال بينه وبين المايي الاسرائيلي ، والدعائية الاسرائيلية التي ارتكزت على ما يسمى باشتراك الدولتين في العزلة والنمو حيث يمكن لاسرائيل ان تقدم تجاربها .

ويعد الغاء زيارة رئيس اسرائيل لنيبال فشلا للسياسة الاسرائيلية وبداية لتطور في الموقف النيبالي من الصراع العربي الاسرائيلي في وقت بدأ فيه العرب يعملون على تحديث سياساتهم الخارجية حتى تصبح اكثر عصمية ويواجهون العالم بمنطق المصالح والعوامل المؤثرة ويعملون على الاستعانة بالكفاءات المتخصصة الاكثر تأهيلا للقيام بالعمل السياسي الخارجي الامر الذي يجب التأكيد عليه باستمرار مع الاهتمام بالدول الصغرى والكبرى على حد سواء من خلال الامام باهية الدول ذات الاوزان المختلفة في السياسة الدولية .

وفي أعقاب ذلك نشرت الصحف الهندية نقلا عن مصادر رسمية هندية هجوما على تصريح الناطق الاسرائيلي ووصفت الاسباب التي أوردتها لالغاء الزيارة بأنها « غريبة جدا » وان الهدد لم تسع اطلاقا للتأثير في الجماعات السياسية الموالية لها في نيبال ، وجاء تلميح الى احتمال ان تكون الهند وراء القرار النيبالي بالقول ان الحكومة الهندية تشاورت مع الحكومة النيبالية بشأن ما يجب اتخاذه لمنع حدوث أي حرج . وذهبت الى ان الحجج الاسرائيلية لا وزن لها على الاطلاق بدليل انه لو كانت هناك جماعات هندية وصينية تريد حقا ان تثير اضطرابات فلماذا كانت اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي رأت نيبال استبعاد حضورها .

وغسرت مصادر هندية ذلك بأن قرار الحكومة النيبالية قد يرجع الى الرغبة في عدم التسبب في أي احراج للشخصيات العربية التي ستحضر الى كاتماندو للاشتراك في احتفالات التتويج كما ان نيبال تدرس احتمال الحصول على امدادات بترولية من بعض الدول العربية .

وهكذا يبين العرض السابق ان التصريح الاسرائيلي يعد تبريرا غير صحيح لالغاء زيارة رئيس دولة اسرائيل لنيبال وان موقف نيبال يرجع الى دور الدبلوماسية العربية بالاضافة الى المصالح

٤ - دكتور محمد علي العويني ، مرجع سابق ، ص ٤٠٢ .

٥ - فيما يتعلق بموقف نيبال منذ حرب ١٩٦٧ انظر نفس المرجع السابق ، ص ٤٠٢ - ٤٠٤ .
— Misha Ouvish, Israel, American Jewish Year Book 1967, p. 429.
— News From Israel, Vol. XIX, No. 17, September 1972, Published by the Consulate of Israel, Bombay, India, p. 3.

الدكتور محمد علي العويني

١ - دكتور محمد علي العويني ، العلاقات السياسية بين اسرائيل ودول جنوب وشرق آسيا ١٩٤٨ - ١٩٧٢ . رسالة دكتوراه - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ص ٤٠١ .

٢ - الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل ١٩٦٢ / ١٩٦٤ ، ص ١٥٥ .

٣ - الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل ١٩٦٥ / ١٩٦٦ ، ص ١٧١ .

أضواء على زيارة دايان لليابان

عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية. بالإضافة الى هذه المعلومات فان الحكومة اليابانية اوعزت الى اجهزة التلفزة ، والصحافة ، لابرار زيارة موشي دايان بشكل ملموس في الوقت نفسه فقد اوعزت نفس السلطات لهذاه المؤسسات ان تغفل ذكر الاخبار والعمليات الفلسطينية بل طلب منها التركيز على قضية اللاجئين الفلسطينيين ومن هذا المنطق فان المسؤولين والرسميين، وقعوا في غرام الصهيونية العالمية والامبريالية الامريكية ، وذلك على حساب قضية الشعب الفلسطيني العادلة والمشروعة لكي يعود اليه وطنه الام فلسطين .

وآخر شاهد على عمق الصلات بين الكيان الصهيوني والحكومة اليابانية هو احتفال الحزب الحاكم ووزرائه بها يسمى بعيد « استقلال اسرائيل » في السادس عشر من ابريل (نيسان) ١٩٧٥ . فاصدرت الصحف الكبرى ملاحق ملونة خاصة بهذه المناسبة وحضر الاحتفال كبار رجال الدولة والحزب ورؤساء الشركات الكبرى : مثل شركة الصلب اليابانية وشركة ميتسوبيشي ، وطوشيبا وعلى رأس اولئك الامير ميكاسا شقيق الامبراطور، وغيرهم . وقد تحدث السفير الصهيوني الجديد « راماتي » محذرا اليابان من الخضوع للاقتزاز العربي وكرر قول السفراء الصهاينة اسلافه بان خمسمائة شركة امريكية سوف تقاطع اليابان اقتصاديا فيما لو لانت للسياسية العربية .

ويتضح بشكل بارز عداء اليابان الرسمي للسافر للقضية العربية الفلسطينية وذلك من خلال ملاحقة البوليس الياباني المستمرة لكل اولئك الاحرار الذين يساندون ويمطفون على الحق العربي الفلسطيني . ومن بين سلسلة الاجراءات التي تنتهجها سلطات الدولة ضد الاحرار اليابانيين تعيين عدد كبير جدا من رجال البوليس السري في عواصم اوروبا الغربية والشرقية الهدف منها تتبع نشاطات واخبار مؤيدي الثورة الفلسطينية والحق العربي .

ومنذ امد بعيد والحكومة اليابانية تبحث عن وسيلة تستطيع ان تنفذ من خلالها الى قلب زعماء

استقبلت الحكومة اليابانية وزير الحرب السابق الصهيوني موشي دايان استقبالا يليق بقيادة عظمة منتصرين ، ذلك عكس ما نعلوه مع وزير دولة بترولية عربية لسنوات خلت عندما قام بزيارة لليابان باسم الدول العربية لكي يشرح للمسؤولين انذاك القضية الفلسطينية والعربية .

لقد اتاحت لدايان فرص كثيرة اثناء وجوده في اليابان ، فقد اجتمع برجال السياسة والاحزاب بشكل عام والقي محاضرات في عدة اماكن من بينها الاكاديمية العربية « وزارة الحرب » وقد تناولت خطبه الطمن في العرب وقدراتهم واصفا اياهم بالعمل على تنفيذ خطة الاقتزاز الدولي وايضا كان يعز على السلطات اليابانية وينتقدها لانها وفعت فريسة الاقتزاز البترولي العربي ، مما جعل المسؤولين اليابانيين يعترفون بتسرعهم في تقديم العروض السخية لبعض البلدان العربية المنتجة للنفط وان اليابان في صدد تعديل ما وعدوا به الدول العربية على لسان المبعوثين الثلاثة الذين زاروا الشرق الاوسط اثر حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وعلى اساس ذلك فقد ابلغوا دايان ان الحكومة اليابانية ستجد عنرا متفرعة بالصعوبات المالية .

وقد ابدى اكثر من مسؤول ياباني من بينهم رئيس الوزراء والمستر فوكودا رغبتهم في عدم تقديم العون التكنولوجي والاقتصادي لبعض البلدان العربية علما ان اليابان الرسمي والتجاري والحزب الحاكم يعرفون جيدا بان مصالحهم الكبرى هي مع الدول النفطية غير انهم بضغط امريكي وصهيوني يديرون ظهورهم لهذه الحقائق .

ومن المعروف بان زيارة موشي دايان لليابان كانت غير رسمية ولم تات عن طريق الحكومة اليابانية ، بل عن طريق شركة فلوكساوا المستوردة للصل من فلسطين المحتلة . ولكن المستر تاكيو ناكاتاني - رئيس جمعية الصداقة العربية / اليابانية وهو من الحزب الحاكم ، ووزير مكارثي سابق قد شرح ذلك اثناء لثائه بوند من منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة اثناء زيارته للشرق الاوسط لتوجيه دعوة الى السيد ياسر

فيه الحكومة التأكيد على صحة علاقات اليابان
بإسرائيل وأنها ينبغي ان تكون في نفس مستوى
العلاقات مع البلدان العربية . ويبرر هؤلاء ذلك
انهم بحاجة الى النفط العربي .

ودليل اخر ناتى به هو N. H. K. التسي
تذيع بواقع عشرين لغة يوميا من بينها العربية وفي
هذه البرامج يتركز الاهتمام الاعلامي المقروء والمرئي
على إسرائيل ولخدمتها . ونحن نذكر على سبيل
المثال وليس الحصر فتح خط طيران بين طوكيو وتل
ابيب من قبل شركة جال اليابانية الرسمية ، هذا
ومعروف بان للشركة مكتبا في تل ابيب منذ صام
١٩٧٢ .

وتقوم الشركات الصناعية اليابانية وشركة
الطيران اليابانية (جال) هذه الايام بدعوة الالاف من
الاسرائيليين للتدريب في معاهدها وجامعاتها
ومؤسساتها العلمية والتقنية على نفقتها الخاصة
مع الملاحظة بان اعضاء سفارة العدو الصهيوني في
طوكيو قد ازداد خلال السنتين الماضيتين بحيث
اصبح في دائرة المحق العسكري اربعة مساعدين
والمحق الثقافي ثلاثة مساعدين والمحق التجاري
خمس مساعدين في الوقت الذي توجه فيه الدعوة
الى عدد يعد على اصابع اليد من المسؤولين
العرب بغية التفضيل وذر الرماد في العيون .

ففي الونة الأخيرة ، نشطت سفارة العدو
الصهيوني باليابان بالاتصال بالكتاب واتحادات
العمال والصحفيين وامتاتذة الجامعات والمفكرين
من اصحاب الرأي لدعوتهم لزيارة فلسطين المحتلة
وعلى نفقة سفارة العدو دون الالتفات الى خلفيتهم
السياسية او تاييدهم للقضية العربية والفلسطينية
.. بالوقت ، الذي يعتقل او يهتج اصدقاء العرب
والفلسطينيين من المخلصين الاحرار اليابانيين
ويستقبل في الوقت نفسه اولئك اصدقاء الصهيونية
ومؤيديها علانية وسرا .

أنور عبد الغني عبد الرحمن

الصهيونية العالمية ، فقد وجهت جل انشطتها
واهتمامها بواسطة تعيين ضباط امن سرين في
سفارتها بالبلدان العربية وبشكل خاص بدمشق
وبيروت حيث يوجد في هاتين العاصمتين العربيتين
حوالي مائة شخص ، ومن بينهم ، شركات يديرها
يابانيون تحت اسم ابحاث او دراسات او مكاتب
اعلامية وتجارية ، بعضهم تخرج من معهد سبيلين
للسنة العربية ، ومهمة هؤلاء متابعة ومراقبة أنشطة
اليابانيين الذين يعملون او يؤيدون منظمة التحرير
الفلسطينية كذلك مراقبة اعمال وأنشطة
الفلسطينيين في البلدان العربية والاجنبية لكي ترفع
هذه التقارير الى رئاستهم ويدورها تحولها الى
دائرة المحق العسكري الصهيوني في طوكيو ،
ثم يتم هضم هذه المعلومات بالتعاون مع السي
اي ايه ، الامريكية والمخابرات الصهيونية
والمخابرات اليابانية . وهذا يعتبر تدخلا صارخا
من جانب الحكومة اليابانية في الشؤون العربية .
وفي عام ١٩٧٢ في شهر فبراير اكتشفت السفارة
اللبنانية بطوكيو بان وزارة الخارجية اليابانية
تطلب تأشيرة لثلاثة اشخاص تبين أنهم موظفون في
وكالة المخابرات اليابانية ، يريدون السفر للبنان
من أجل متابعة أنشطة الفدائيين الفلسطينيين ،
وقد رفض قنصل لبنان ذلك واعتبره تدخلا في
الشؤون اللبنانية . مما دفع برئيس دائرة الشرق
الاوسط ان يفقد اتزانه ويهدد ويتوعد .

اما في الجانب الاخر فان موظفي كل من
الخارجية اليابانية والاذاعة والتلفزيون يعلنون
عداءهم للعرب ويقولون بانهم لن يكونوا اصدقاء
للعرب بل هم اصدقاء لاسرائيل والصهيونية
العالمية وان الدليل على ذلك يكمن في ازدياد حجم
العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية بين كلا
الجانبيين الياباني والصهيوني وذلك من خلال ارقام
بنك اوف طوكيو ، او من خلال التصريحات
والتصرفات للرسميين اليابانيين ، بل ان احزابا
تدعى الديمقراطية قدمت مشروعا للبرلمان تطالب

تجربة المسرح الفلسطيني في الأرض المحتلة

للتصدي للاحتلال بشتى الوسائل والاساليب، كل هذه مجتمة أسهمت في بلورة الحركة المسرحية وتناميها .

لقد كان للمسرح النصيب الاوفر في التعبير عن مزاج الجماهير الفلسطينية ، بل تثقيفها وتوعيتها على ضرورة التحرك ضد الظلم والارهاب الذي يفرضه واقع الاحتلال ، وصولا الى تصفية هذا الواقع وتغييره .

في أوائل السبعينات تشكلت في مدينة رام الله مجموعة من الشبان وبينهم فناة واحدة فقط ، واخذوا ينظمون امسيات يقرأون فيها أشعارا لناظم حكمت وغيره من الشعراء الثوريين ، مصحوبة بالموسيقى وبالحرركات التعبيرية التي يؤديها بعض اعضاء المجموعة .

وفي هذه الاثناء بالذات ، كانت هنالك مجموعة اخرى في القدس تلمس الطريق وتطمح في تأسيس فرقة مسرحية ، وكان يتزعم هذه المجموعة فرنسوا أبو سالم الذي درس الاخراج المسرحي في فرنسا ، وقد تم التنسيق بين المجموعتين ، وجرى اتفاق على تأسيس فرقة « بلالين » أول فرقة للمسرح الثوري في أرضنا المحتلة .

ان استعراض تجربة « بلالين » باعتبارها اقوى الفرق المسرحية في الأرض المحتلة يعطي صورة كافية عن ابعاد المسرح الفلسطيني تحت الاحتلال ، ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة السريعة الى بقية الفرق المسرحية ونشاطاتها .

تبعده ظهور فرقة « بلالين » ، أخذت تظهر فرق مسرحية متعددة ، فقد أسس عطية أبو رميلة فرقة المسرح التجريبي ، كما تأسست فرقة المسرح الفلسطيني التي قدمت مسرحية « مجمع القضايات » بالإضافة الى فرقة « دبائيس » وفرقة « بلا - لين » التي انشقت عن فرقة « بلالين » . وعموم هذه كلها هنالك فرق اخرى مرتبطة بالنادي والنقابات كما هو الحال في النادي الارثوذكسي في بيت ساحور وتقايسة عمال البناء في رام الله والبرية .

قبل الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية ، كانت الحركة المسرحية تخطو خطواتها الاولى على بداية الطريق ، فقد برزت من خلال المحاولة الجادة التي قام بها المخرج طارق مصاروة حيث أسس فرقة مسرحية تمكنت من تقديم عدة عروض كان من أبرزها مسرحية « مركب بلا صياد » للكاتب الاسباني اليخاندرو كاسونا ، ولم تلبث هذه الفرقة أن تبعثرت تحت وطأة هزيمة حزيران . كما أن بلديتي البيرة ورام الله ، أسهما في اضافة شيء ما الى الحركة المسرحية من خلال المهرجانات الصيفية التي كانت تقام في هاتين المدينتين ، حيث يتخلل هذه المهرجانات بعض اللقطات المسرحية التي لم تتطور الى اعمال مسرحية متكاملة ، وذلك لان الاهتمام كان منصبا في هذه المهرجانات على الاوبريت الغنائي والرقصات الشعبية .

وقد رافق هاتين الظاهرتين ظاهرة اخرى تتمثل بالاعمال المسرحية « الساذجة » التي كان يعرضها الطلبة الهواة في بعض المعاهد العلمية ، والتي كان جمهورها يقتصر على المدرسين والطلاب وأولياء امورهم في أحسن الاحوال .

بعد الاحتلال ، جرى تهايز واضح في داخل الحركة الثقافية والفنية في الأرض المحتلة فبينما ظهر انحسار ملموس في بعض النشاطات الادبية والفنية التي كانت مزدهرة نسبيا قبل حزيران سنة ١٩٦٧ ، فقد اتسمت الحركة المسرحية بالترعرج والنضج الى حد أنها أصبحت أبرز ظاهرة فنية في أرضنا المحتلة ، ولا يجاريها أي فن من الفنون الاخرى في استقطاب الجماهير والتأثير فيها .

وليس من شك ان البذور التي القيت في تربة بلادنا قبل حزيران قد تركت أثرها على الحركة المسرحية في الأرض المحتلة وان كان على نحو متواضع ، الا ان وجود عدد من الشباب الذين درسوا المسرح رغم قلة هذا العدد ، وتوفر عدد لا بأس من الممثلين الموهوبين ، وبالإضافة الى الارهاب الصهيوني الذي يمارس ضد شعبنا ، والذي دمع بالمثالية العظمى من هذا الشعب

هـ - تصوير للاوضاع القاسية التي تعيشها الجماهير في ظل الاحتلال ، وضرورة تجاوز هذه الاوضاع بتوحيد الجهود والتكاتف وتحمل المسؤولية - العتمة - .

و - ابراز الدور القيادي للطبقة العاملة في عملية بناء المجتمع وتطويره من حيث انها الطبقة الاكثر ثورية والمنتجة للخيرات المادية - العتمة - .
 واما مستوى الحركة المسرحية في الارض المحتلة، فهو ما زال من حيث الشكل الفني يتسم بالتواضع، ويحمل العديد من اخطاء التجربة الاولى . خاصة وان اغلب المنتمين الى هذه الحركة هم من الهواة الذين لم يلتحقوا بأي معهد للتبثيل ، ومع ذلك فان الحركة المسرحية تتجاوز اخطاها بسرعة وترفع باستمرار من المستوى الفني لاميالها . هذا ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ظروف العزلة عن المسرح العربي والعالمي التي يفرضها الاحتلال على الحركة المسرحية الفلسطينية في الارض المحتلة ، بالإضافة الى تضيق السلطات المحتلة نفسها ومراقبتها لاغلب النصوص المسرحية .

ومع ذلك فثمة لحاحات فنية تستحق الاهتمام والتقدير في تجربة المسرح الفلسطيني . ففي مسرحية العتمة يمتد التبثيل من خشبة المسرح الى القاعة ، حيث يكون عدد كبير من الممثلين « مندسين » بين الجمهور ، ويباشرون ادوارهم وكأنهم للوهلة الاولى جزء من الجمهور ، ثم ما يليقون ان ينتقلوا الى خشبة المسرح . ويظل التفاعل بين القاعة وخشبة المسرح مستمرا الى اخر المسرحية . وحتى انه في بعض المواقف تجري عملية اشراك شريحة للجمهور ، الى حد ان هذا الجمهور يتحول نفسه الى جزء من المسرحية . وثمة لحظة فنية اخرى برزت في مسرحية نشرة احوال الجو . ففي هذه المسرحية يجري التبثيل على اربع خشبات ، خشبة المسرح الرئيسية ، وثلاث خشبات اخرى موزعة على النحو التالي : اثنتان في وسط القاعة . والثالثة في الركن الايسر المقابل للخشبة الرئيسية ، وقد ربت المقاعد على نحو يتيح للمنتظرين ان يشاهدوا ما يجري على الخشبات الاربعة ، وقد أضفى تنويع المكان وتنقل الممثلين من خشبة الى اخرى حيوية بالغة على مشاهد هذه المسرحية التي قوبلت بالاعجاب والتقدير .

ان ابرز ما يميز الحركة المسرحية في الارض المحتلة هو اتجاهها الواقعي الثوري ، حيث ان اغلب المسرحيات التي تعرض تنطلق من أرضية الواقع الاجتماعي والقومي الذي يحياه الناس في ظل الاحتلال ، هذا الواقع الذي يجب رفضه والثورة عليه .

ومن هنا فان اغلب النصوص المسرحية التي قدمت كانت نصوصا محلية وضعها كتاب محليون او فنانون عاملون في صفوف الحركة المسرحية ، يستثنى من ذلك فرقة المسرح التجريبي التي قدمت مسرحية « الايدي الناعمة » لتوفيق الحكيم ، وفرقة بلا - لين التي قدمت مسرحية « القاعدة والاستثناء » لبريخت ، وفرقة بلالين التي قدمت من بين بقية اعمالها عملا واحدا مقتبسا وهو مسرحية « ثوب الإمبراطور » لاحد الكتاب المصريين .

اما بقية مسرحيات بلالين التي قدمت حتى الان: قطعة حياة ، العتمة ، نشرة احوال الجو ، الكرز، تع تأخرتك يا صاحبي ، فهي تعتمد على نصوص محلية يكتبها في الغالب سامح العبوشي او فرنسوا ابو سالم ، ثم يجري التدرب عليها وتعديلها وتنقيحها مرارا من خلال عمليات التدريب والمناقشة الجماعية لمشاهدتها وفصولها الى ان يجري اقرارها بصورة نهائية .

ولعل ابرز القضايا والمضامين التي طرحتها هذه المسرحيات تلخص في النقاط التالية :

أ - انتقاد التخلف الاجتماعي وتبسيط الفؤء على نماذج اجتماعية رجعية ومختلفة - قطعة حياة ، العتمة - .

ب - معالجة اوضاع المرأة في المجتمع الفلسطيني ، وضرورة اعطائها الفرصة لممارسة حريتها ومسؤولياتها في المجتمع - قطعة حياة ، العتمة - .

ج - نقد حاد للأفكار الغيبية التي تسهم في اشاعة الروح الاتكالية بين الجماهير - نشرة احوال الجو - .

د - ابراز اهمية الارض وضرورة المحافظة عليها وعدم التفريط فيها وصيانتها من طمع الغرباء والغزاة - الكرز - .

مشاهدة اعمال المهرجان من كافة المدن والقري في الارض المحتلة ، وقد برزت في هذا المهرجان مواهب عدد من الممثلين .

ورغم النجاحات التي احرزتها حركة المسرح الفلسطيني ، نشبة صعوبات جدية تعترض طريق تطورها . وعلى حل هذه الصعوبات يتوقف مستقبل تطور هذه الحركة نحو آفاق ارحب وأصق . فان تكاثر الفرق المسرحية على نحو ملفت للنظر وتشرذمها وانشقاقها كما حدث في فرقة بلالين أدى الى نوع من الفئور والتراجع لدى بعض العاملين في المسرح ، كما أدى الى خلق انطباع سلبي لدى الجمهور ، خاصة وان هذا الجمهور لا يملك تقاليد راسخة في الاهتمام بالمسرح ، وذلك لان المسرح نفسه حديث عهد بالنسبة لمجتمعنا الفلسطيني ، وقد ظهرت مؤخرًا محاولات جادة للتنسيق بين الفرق المسرحية المختلفة على أمل توحيدها في فرقة واحدة ، او على الاقل الاستفادة المتبادلة من خبراتها وتجاربها .

وهناك أيضا نقص فادح وخطير في الممثلات ، حيث أن الطبيعة المحافظة لمجتمعنا ما زالت تعيق الفتاة على الظهور على خشبة المسرح تحت اعتبارات لا تخدم اطلاقًا مصلحة جماهيرنا وشعبنا، وفي هذه الحالة فان الحركة المسرحية تظل تفتقر الى ركن أساسي من اركان العمل المسرحي .

كما ان الظروف المادية للفرق المسرحية تشكل لها آخر من هموم الحركة المسرحية ، فالممثلون ليسوا محترفين في غالبية الفرق الموجودة ، وهم مضطرون الى البحث عن عمل يعاشون منه . وهذا يأتي على حساب اهتمامهم بالمسرح وانقطاعهم عنه مما يؤثر على مستوى أدائهم الفني .

ونبة صعوبة أخرى وهي عدم توفر القاعات المناسبة في الكثير من مدن الارض المحتلة ، مما يعيق انتقال الفرق المسرحية التي تتواجد كلها تقريبًا في القدس ورام الله ، الى هذه المدن لتقديم عروضها المسرحية فيها ، علما بأن فرقة بلالين قامت بتقديم بعض اعمالها في عدد من القري الفلسطينية وفي الهواء الطلق . كما ان الفرق المسرحية تجد صعوبة في توفير مقرات لها للتدريب والاعداد ، مما يضطرها الى استئجار قاعات المدارس والاديرة لاجراء تمارينها ، وفي هذا ارهاق

ثمة جوانب أخرى في تجربة المسرح الفلسطيني في الارض المحتلة ، فقد قررت فرقة بلالين تأسيس « جريدة للمسرح » وتعني بذلك ان يقوم عدد محدود من الممثلين باجراء عرض مسرحي لا يتجاوز الخمس دقائق بالقرب من احدى المدارس او على ناحية اجد الشوارع او أي محتشد جماهيري اخر . وذلك بهدف تثقيف الجماهير وتدريب المسرح من دائرة اهتمامها ، ورغم ان الفرقة أجرت تمارين عديدة على هذه الفكرة الا أنها لم تنفذها حتى الان لاسباب تتعلق بظروفها وامكاناتها .

يضاف الى ذلك ان فرقة بلالين اسست مسما يسمى « اصدقاء بلالين » وتتكون هذه المجموعة من شباب وشابات يهتمون بالمسرح ويحرصون على تشجيعه ، حيث يقومون بالدعاية لاعمال الفرقة ، ويلصقون الاعلانات على الجدران ، ويوزعونها على الجماهير ، ويساهمون في نقل ديكورات الفرقة وغيرها مما يتعلق بنشاطها . وقد أسهم الناقد الادبي محمد البطراوي في تنظيم عدة محاضرات عن المسرح كان يستمع اليها أعضاء الفرقة وعدد كبير من اصدقاء بلالين ، كما انه ظهر من بين مجموعة الاصدقاء هذه نقاد مارسوا تقييم الاعمال المسرحية المختلفة على صفحات الصحف المحلية الصادرة في القدس .

ولكي تغطي فرقة بلالين الفترات الواتعة بين عروضها المسرحية ، فقد قدمت الكثير من العروض الخفيفة التي اطلقت عليها مجازا اسم « بستان بلالين » وذلك لان هذه الاعمال كانت تجري في مسي الهواء الطلق داخل الحديقة الواسعة التي تحيط بمقر الفرقة ، والى جانب هذه العروض التي كان من أبرزها « يونس الاعرج » لناظم حكمت ، فقد لفت النظر نشاط فرقة الفنون الشعبية التابعة لبلالين ، بما قدمته من رقصات شعبية تحت اشراف الفنان زكريا شاهين ، وأيضًا الاغاني الشعبية التي برع في تقديمها الفنان الشعبي مصطفى الكرد . وقد تجلت قدرات فرقة بلالين ومدى التطور الفني الذي احرزته في مسيرتها التي جاوزت الاربع سنوات ، من خلال المهرجان الكبير الذي نظمته في مدينة رام الله في صيف سنة ١٩٧٣ ، وقدمت خلاله ستة عشر عرضًا . حازت على اعجاب وتقدير الجماهير العريضة نسبيًا التي بادرت الى

الشبيبة الفلسطينية على أمل صرفهم عن الطريق الذي اختاره شعبهم بكل تصميم وهو طريق مقاومة الاحتلال وتحرير ارض الوطن ، وتقوم الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل بكشف المخططات الخبيثة التي تكمن خلف النشاطات الظاهرية لهذا المركز الصهيوني ، وذلك من أجل شل نشاطه وابعاد الشبيبة الفلسطينية عن أجوائه المسمومة.

وبعد ، فإن الحركة المسرحية الفلسطينية هي الأرض المحتلة تحظى باهتمام الحركة الوطنية هي الداخل ، كما تحظى باحترام وتقدير جماهيرنا الشعبية الفلسطينية ، وهي تادرة بالتزامها خط التعبير عن المصالح الاجتماعية والقومية للجماهير الشعبية ، ومعاداة الاحتلال الصهيوني وتعريفه والتحرير عليه ، أن تستقطب قطاعات اوسع من الجماهير ، وبذلك تصبح شوكة في حلق الغزاة ، وتستطيع ان تتطور لتصبح حركة مسرحية ناجحة الى حد كبير .

محمود شمير

جأدي لميزانياتها المتواضعة .

يضاف الى ذلك أن مسألة النص المسرحي تشكل عينا على كاهل الحركة المسرحية الفلسطينية ، حيث لا توجد نصوص محلية جاهزة ، وتزده بعض الفرق وخاصة بلالين عن تقديم نصوص اجنبية جاهزة ، وذلك حرما منها على الالتصاق بالواقع المحلي والتعبير عنه ، مما يضطرها الى تأليف نصوصها بنفسها ، وفي ذلك عدة محاذير منها التصيب من ضعف النصوص التي يكتبها اعضاء الفرقة ، وكذلك ارهاق الفرقة لنفسها بالقيام باعباء أكبر من طاقتها .

في الجانب الاخر ، هناك ظاهرة يجب الاحتراس منها تماما ، ذلك ان سلطات الاحتلال أتسمت في القدس مركز بيت داود ، وقد افتتح هذا المركز دورات لتعليم المسرح والموسيقى والرقص ، وتأسست فيه لفرقة مسرحية اطلقت على نفسها اسم « المسرح الحي » وقامت بعرض مسرحية « الحلاب » ، ويهدف هذا المركز الى اجتذاب

(١) المقاومة الفلسطينية

مليشيا مجهزة بأسلحة يجري الحصول عليها بكثافة ويتسهيلات من جهة معروفة ... هذه الحقائق كلها مهدت لمجزرة عين الرمانة وتأكدت بعد المجزرة المذكورة حين اتضح ان حزب الكتائب يرمي الى توسيع الصدام وتحويله الى صدام شامل من خلال طلب توريث الجيش وزج الدولة في عملية مواجهة مع الاخوة الفلسطينيين ومع الكثرة الساحقة من اللبنانيين الذين لا يرون رأي الكتائب .

لقد وضعت استقالة الصلح الازمة على أبواب مرحلة جديدة متطورة ، فهي من جانب فتحت المجال امام الكتائب في ظل غياب سلطة سياسية تمارس مسؤوليات الامن ، لتصعد استغزاتها المسلحة وتوسع عدوانها ، خاصة وقد امتنع الرئيس الصلح منذ لحظة استقالته عن « تصريف الامور » وهي المهمة التي يخولها الدستور للحكومة المستقلة بانتظار قيام حكومة جديدة . وهي من جهة ثانية وضعت الحلم الكتائبي بتدخل الجيش ليحسم الموقف ، لمصلحتها طبعاً ، على شفا التجسيد العملي بعد ان كانت الحكومة المستقلة ، او بتعبير أكثر دقة رئيسها بالتحديد ، قد أحجم عن انزال الجيش الى الساحة ليجنب البلاد أزمة شبيهة بتلك التي عصفت بها في ربيع ١٩٧٢ . وباستقالة الصلح الذي كان قد تجاوز مع الحركة الوطنية اللبنانية في عدم زج الجيش في الصراع انتمى الامل للكتائبي بتوريث الجيش في الصراع بعد ان انفضى المانع . كذلك فقد كشفت الاستقالة وما تبعها من احداث عمق الازمة التي يعيشها النظام اللبناني بجملة ، وهي أزمة تسفر عن وجهها — بسبب الوضع الطائفي المستحكم (وهو وضع له جذوره الاجتماعية — الاقتصادية) — بأن تشكيل حكومة جديدة في ظل صراع القوى التقليدية

الوضع في لبنان : في الخامس عشر من أيار (مايو) الماضي قدم السيد رشيد الصلح ، رئيس الوزراء اللبناني ، استقالة حكومته معلناً في مجلس النواب تحمیل الكتائب مسؤولية مجزرة عين الرمانة (في ١٣ نيسان — أبريل) والصدامات المسلحة التي تلت تلك المجزرة . وقد جاء في البيان الذي ادلى به أمام مجلس النواب « ان حزب الكتائب يتحمل المسؤولية الكاملة عن المجزرة وعن المضامعات التي أعقبتها والضحايا والأضرار المادية والمعنوية التي لحقت بالبلاد نتيجة لها ، وقد ثبت ذلك منذ اللحظة الأولى للجريمة البشعة ، ومن خلال اصرار هذا الحزب على عدم استنكار الجريمة وممانعته في تسليم المسؤولين عنها طوال ثلاثة ايام ، ثم اقراره الصريح والعلني بالمسؤولية من خلال تسليمه اثنين من مرتكبي المجزرة ووعده بتسليم آخرين » وأضاف البيان انه « منذ مدة طويلة دأب حزب الكتائب من خلال كل مواقفه على التحضير السياسي والمعنوي والمادي والعملي لكل هذه الاعمال . فالمذكرات التي توالت لمناسبة ومن دون مناسبة تطرح مسألة الوجود الفلسطيني في لبنان وتدعو صراحة الى التصدي له ، وتحرض عليه ، والدعوة المستمرة الى الخروج على سياسة الدولة الرسمية المتعددة حيال العلاقات اللبنانية — الفلسطينية واللبنانية — العربية ، وهي الدعوة التي تصاعدت بشكل مفضل مع رسوخ دور لبنان في مساندة النضال الفلسطيني كما تجسد في الالتزام بمقررات مؤتمرات القمة العربية وفي سفر فخامة رئيس الجمهورية الى الامم المتحدة لعرض القضية الفلسطينية باسم العرب جميعاً ، كل هذا التحضير السياسي الكثيف المتواصل اثاره الثمرات الطائفية ، كان يرافقه تحضير عسكري محموم تمهّل في اقامة

كان الهدف الكتابي من تصعيد الاشتباكات ومن حيلة الرعب التي قادتها بعد ذلك وتجلت بمبليات الخطف والارهاب والتعذيب السادي الذي تعرض له المواطنين والقيوم والذي غلب بغلاف طائفي ، كان الهدف واضحا : (١) على صعيد المقاومة ، استنزاف جهدها ، أولا ، بمعارك متصلة وبإزمات متلاحقة تذكر بما قام به النظام الأردني في الفترة ما بين شهري حزيران وأيلول من العام ١٩٧٠ ، وثانيا لحلال الصراع ، والصدام المسلح ، كمشبون للعلاقات الفلسطينية - اللبنانية بديلا للعلاقات المحكوم بجملة الاتفاقات التي تنظم هذه العلاقات ، وثالثا محاولة الاساءة للثورة بتأليب جزء من الرأي العام ضدها وهي مضطرة - في تصديها للقتال المفروض عليها - للرد على العدوان بعمل مسلح مماثل يصيب بالضرر ليس الكتاب وحدها وإنما قطاعات أخرى من الشعب اللبناني غير متورطة في القتال . وقد توضح هذا الهدف الأخير في تركز مسلحي الكتاب في بعض الأحياء السكنية (الدكوانة وعين الرمانة) وقصفهم المواقع الفلسطينية منها وهو أمر يحتم تعرض هذه الأحياء للقصف المضاد .

(٢) أما على الصعيد اللبناني فإن تفجير أزمة - وأطلعتها - تأخذ الطابع الطائفي من شأنه أن يعزز مواقع الكتاب الطائفية في القطاع المسيحي ، الأمر الذي يعطي للصراع بجملة ، سواء منه الموجه ضد المقاومة الفلسطينية أو الحركة الوطنية التقدمية الحليف الطبيعي للمقاومة ، مضمونا طائفيًا تظهر فيه الكتاب وكأنها المدافعة عن مصالح الطائفة التي تنتمي إليها ، كما تبدو فيها ، بحكم أنها الاثوى والاكثر تنظيما ، ناطقة باسم المسيحيين في البلد أو باسم تصف لبنان . وأن هذا الهدف بالتأكيد هو الهدف الاستراتيجي الذي تسعى الكتاب إليه لأنها بذلك تضمن ، من خلال هيبتها المعنوية والسياسية ، كبح أي اتجاهات تقدمية في الأوساط المسيحية يمكن أن تمس البنية الاجتماعية الاقتصادية للوضع اللبناني الراهن الذي يتيح امتيازات واسعة للطبقة البرجوازية اللبنانية التي تنتمي إليها الكوادر القيادية العليا في الحزب . وإذا نظر بعين الاعتبار إلى اقتراب موعد الانتخابات النيابية اللبنانية ، ومن ثم اختيار رئيس للجمهورية عند انتهاء ولاية الرئيس الحالي في العام ١٩٧٦ ، يصبح تكريس الكتاب نفسها ناطقة باسم المسيحيين وتمتعة بنفوذ منظم في صفوفهم مهمة مركزية راهنة

من جهة وتحالفاتها المصلحية من جهة ثانية يصبح أمرا يمر بمخاضات عميرة وخطرة في كل مرة ، يستفيد منها على الإغلب حزب الكتاب الذي هو القوة الأكثر تنظيما وتشرعا في البنية الطائفية في لبنان .

ان هذه الاعتبارات جميعها لا يمكن فصلها عن استئناف الكتاب تحرشاتها المسلحة بهدف إبقاء الوضع متفجرا منذ الساعات التي أعقبت استقالة حكومة السيد رشيد الصلح وفي الوقت نفسه الذي كان فيه الرئيس سليمان فرنجية يجري مشاوراته النيابية لتأليف حكومة جديدة . فعلى الرغم من ان حركة المقاومة كانت في صدد تهدئة الأوضاع وهو مسمى وصل قمته في اللقاء الذي تم عشية استقالة الوزارة (في ٥/١٤) بين الاخ ياسر عرفات والرئيس فرنجية وحضره السينفيران المصري والسعودي بهدف « البحث في مسألة وضع أسس ثابتة تحول دون تكرر الحوادث الأخيرة انطلاقا من تطبيق اتفاق القاهرة نصا وروحا » كما اوردت ذلك الأنباء الصحافية ، على الرغم من ذلك فقد كان تسخين الأزمة بعد استقالة الحكومة هدفا كتابيا يأخذ الاعتبارات السابقة في الحسبان .

فمنذ ليلة ١٨ أيار (مايو) بدأت عناصر كتابية مسلحة تتركز في الدكوانة تقصف مخيم تل الزعتر المجاور ، وفي الوقت نفسه ركزت الدعوة الكتابية على المطالبة بنقل المخيم إلى خارج المنطقة . وقد أصدرت قيادة الثورة الفلسطينية بياناً نشرته وفا (٥/٢١) اعتبرت فيه ان « ما يجري فوق الساحة اللبنانية حلقات من مسلسل متكامل يخضع لخطة شاملة ، تذكرنا بالمخطط التأمري الذي تعرض له شعبنا وثورته في الساحة الأردنية ، وهو المخطط الذي تحاول الكتاب اللبنانية تمريره في لبنان » .

وأضاف البيان « ان الحديث عن ترحيل أهبل تل الزعتر ليس الا زريعة وخديعة - تذكرنا بمطالب مماثلة كان يسوقها عملاء النظام الأردني - بقصد الاستفزاز وتصعيد التوتر ، بهدف التفجير الكامل للاوضاع وتجريد الساحة اللبنانية من التواجد الفلسطيني الثوري . وهذا ما يكشف عنه تركيزهم المستمر بالقصف والرمية بمختلف الأسلحة على أهلنا في هذا المخيم » . وحذر البيان من ان الثورة الفلسطينية « لن تسمح لاية مؤامرة ان تمر ولا لاية قوة معادية ان تنال من الشعب الفلسطيني وثورته » .

الحرية الأساسية للمواطنين والخشية على الحركة الوطنية التقدمية وانتهاء بالحفاظ على التقليد الديموقراطي البرلماني . وعلى الرغم من اختلاف البواعث فقد ظهر وكان هناك جبهة موحدة رافضة مارست مختلف الوسائل لاستقاط الحكومة . وقد دعم ذلك بالتوسط السوري الذي اخذه على عاتقه السيد عبد الحليم خدام ، نائب رئيس الوزراء وزير الخارجية السوري ، واللواء ناجي جبيل ، نائب وزير الدفاع قائد القوات الجوية السورية ، اللذان وصلا الى بيروت في ٢٤ أيار . وقد أسفر الضغط الشعبي والتوسط السوري عن حل استقالت به حكومة العسكريين في ٥/٢٦ بعد مضي ٦٥ ساعة على تأليفها . وبنسبة استشارات نيابية سريعة قام بها الرئيس فرنجيّة تم تكليف السيد رشيد كرهمي بتأليف وزارة جديدة .

ان الصورة حتى كتابة هذه السطور تبدو ملامحها كالآتي : على جانب المقاومة لم تتمكن الازمة من ابتزاز تنازلات منها ، كما ان المقاومة نجحت في تحييد السلطة (ظاهريا على الاقل) وحصرت الصراع مع الفئة الانعزالية المتمثلة في حزب الكتائب وحلفائها . ومن جهة ثالثة عززت الازمة وكرست التحالف ما بين حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية في لبنان . على الصعيد اللبناني ظهر واضحا ان اطالة أمد الازمة وهو هدف تسمى اليه الكتائب ووصلت من أجله فعلا من خلال عمليات الرعب التي قادتها ووضع العراقيل في وجه تشكيل الحكومة ، يخدم في المدى القريب الكتائب نفسها اذ تمكن في ظلها من القيام بحملات التعبئة الموجهة ضد كل ما هو تقدمي في البلد . غير ان استمرار الازمة الى الدرجة التي تصيب الاقتصاد بالشلل التام لا بد ان يجعل قطاعات مهمة في لبنان تعيد النظر في الموقف لغرض مصلحة الكتائب . من جانب مقابل فقد تأكدت قدرة الحركة الوطنية اللبنانية على تعبئة اوسع الجماهير من اجل الدفاع عن مكتسباتها والتصدي لخصومها . كذلك فقد ظهر ان الشارع الوطني في لبنان قادر على ان يجبر الى مواقفه المتقدمة حتى القيادات الاكثر تقليدية في البلد .

القيادة الفلسطينية - السورية الموحدة : في اثناء الازمة التي فرضت على المقاومة في لبنان طقت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (في ٥/٢٢) رسالة من الحكومة السورية بأسماء

تجعل المغامرة الكتائبية في اشغال حرب طائفية أمرا مفهوما .

اما بالنسبة لتوريط الجيش في الصراع ، فقد رحبت الكتائب بحكومة العسكريين التي تشكلت في ١٩٧٥/٥/٢٢ ، فلما منها ان الجيش بذلك قد رجع في الصراع . وقد جوبهت حكومة العسكريين بردة فعل شعبية اتسمت بالحدة والرفض الحاسم . وازاء ذلك حاولت الحكومة ان تطمئن المتألمة بأن الحوار سيظل قائما معها . غفي المؤثر الصحفي الذي عقده العميد موسى كنعان ، وزير الاعلام ، (في ٥/٢٤) قال « عندما استدعانا فخامة الرئيس كان توجيهه الاول هو استئناف الحوار . هذا الحوار واتول باستئنافه او متابعته لانه في نظرنا لم يتوقف على كل المستويات من اعلاها الى ادناها ، هذا الحوار مع الاخوة الفلسطينيين كنا نحن العسكريين قد حملنا الجزء الاكبر منه في ما مضى وما زلنا نحمله وسنتابعه بروح منفتحة اخوية شأننا قتيلا . هذا الحوار الذي كانت سدته الموقف الرسمي المعلن بلسان أعلى سلطة وطنية من على أعلى منبر دولي ، اعني الامم المتحدة ، هذه المهمة التي تولها وبكل جدارة واعتزاز فخامة الرئيس في الامم المتحدة . هذه سدة الحوار ، اما لجمته فهي الاتفاقات الماضية والمعقودة مع الاخوان الفلسطينيين ابتداء باتفاق القاهرة وانتهاء باتفاقات ملكارث . هذه الاتفاقات التي يحرص الجانبان على الالتزام بها والتمسك بضمونها والتي تهدي جميع المحاورين وهم يستقون منها ما يلزم من مواضع ومن طريقة للمعالجة ما يطرأ . فليكن معلوما عند الجميع انه لم يتبدل شيء نالوقف الرسمي هو هو والالتزامات هي هي والاتفاقات هي هي » . كذلك حرص العميد سعيد نصرالله ، وزير الداخلية ، على اصدار بيان قال فيه « ان نضال الشعب الفلسطيني وثورته الرائعة امانة في عنق لبنان لم يفرط بهما يوما ولن ننسح لاحد بالتصدي لهما ، فالتضحية الفلسطينية تبقى قضية لبنان الاولى . ومن أجل ذلك لا بد لنا من ان نشدد على التنسيق وقتا للاتفاقات السارية المعمول » .

على الرغم من هذه « التطمينات » فان الوضع الشعبي لم يكن ليحتمل وجود حكومة عسكرية . وكان رفض الحكومة متعدد البواعث بدءا من الحرص على المتابعة ومرورا بالحفاظ على

عرض تصورا محسدا للاهداف العامة لتجسيد
الهاديء الوحودية وثمن الدور الذي تلعبه سورية
لانهاء الازمة التي يجتازها لبنان بما يضمن سلامة
لبنان وحماية الثورة .

المجلس الوطني الفلسطيني : اتخذ المجلس
المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو الحلقة
الوسيلة ما بين المجلس الوطني الفلسطيني
واللجنة التنفيذية ، قرارا في اجتماعه الذي عقده
يوم ٥/١٩ بتأجيل انعقاد المجلس الوطني الذي كان
من المقرر عقده في حزيران الماضي . وقد أوضح
الاخ خالد الناهوم هذا القرار بتصريح ادلى به
لوكالة الانباء الفلسطينية « وفا » (٥/٢٠) قال
فيه ان المجلس المركزي استمع الى عدة آراء حول
الموضوع وتميد أحيلت هذه الآراء الى اللجنة
التحضيرية التي كلفها المجلس الوطني في آخر
اجتماع له في حزيران ١٩٧٤ . وذكر ان معظم آراء
اعضاء المجلس المركزي كانت تدور حول الإبقاء
على المجلس الحالي مع توسيعه بحيث يشمل
ممثلين عن الكنائس الفلسطينية المناضلة من مختلف
أماكن تجمع الفلسطينيين ومع إجراء بعض التوسع
في تمثيل المنظمات الشعبية الفلسطينية كما جرى
التأكيد على ضرورة تمثيل الفلسطينيين في الأراضي
الفلسطينية المحتلة في المجلس الوطني . وبالنظر
الى بعض الاجتماعات السياسية الهامة التي ستتم
في شهر حزيران وبشكل خاص لقاء سلازبورغ
ومؤتمر القمة العربي المقبل رؤي باجماع كافة
أعضاء المجلس المركزي انه من الأفضل تأخير عقد
المجلس الوطني لمدة اتصاها شهران بحيث يتم في
أوائل تموز وأوائل آب المقبل بدلا من أوائل
حزيران كما ورد في النظام الاساسي للمجلس
الوطني .

العلاقات الدولية

● اصدر الرئيس موبوتو ، رئيس زائيري ،
بيانا في ٥/١٥ أعلن فيه موافقته على انشاء مكتب
لمنظمة التحرير الفلسطينية في كينشاسا وقد جاء
ذلك في اثناء مقابلة تمت بينه وبين وفد فلسطيني
يزور زائيري .

● قررت م ت ف أن يشارك وفد فلسطيني
برئاسة الاخ عبد العزيز الوجيه ، عضو اللجنة
التنفيذية ، في اجتماعات منظمة العمل الدولية التي
بدأت أعمالها في جنيف في حزيران الماضي . ويضم

الوفد السوري الذي سيجري المباحثات مع وفد
المنظمة بشأن الوحدة السورية الفلسطينية . وكان
التوقيت اختيارا ذا معنى خاص تأكدت اهميته
ودلالته في الاشارة ذات المغزى التي أوردها السيد
عبد الحليم خدام اثناء زيارته الى بيروت عندما
سأله الصحفيون ان كان يحمل رسالة من الفريق
حافظ الاميد الى الاخ ياسر عرفات فأجاب بأن ثمة
قيادة واحدة ولا رسائل ما بين القيادة الواحدة .
كما تأكدت الاهمية نفسها في الاجتماع الطارئ
الذي عقدهته القيادة العسكرية الفلسطينية -
السورية وتناولت فيه بالبحث الاوضاع في لبنان
واتخذت القرارات المناسبة لمعالجة الوضع الراهن
(وفا ٥/٢٤) . كذلك تشكيل الوفد السوري بحد
ذاته كان اشارة الى الاهمية التي تعلقها سورية
على هذه المحادثات فقد تشكل الوفد من السادة :
عبدالله الإحمر ، الامين العام المساعد للقيادة
القومية لحزب البعث ، ومحمود الايوبي ، رئيس
مجلس الوزراء ، ومحمد علي الحلبي ، رئيس
مجلس الشعب ، ومحمد جابر جبجوج ، الامين
القطري المساعد ، وعبد الحليم خدام ، وزير
الخارجية ، ومحمد حيدر ، نائب رئيس الوزراء
للشؤون الاقتصادية ، وياقوت ياسين وفؤاد صياغ
وسهيل سكرية ، اعضاء القيادة القومية ، واللواء
مصطفى طلاس وزير الدفاع عضو القيادة
القطرية ، وعبد الغني قنوت ، عضو القيادة
المركزية للجبهة الوطنية التقدمية . وفي المقابل شكل
الوفد الفلسطيني من السادة خالد الناهوم ، رئيس
المجلس الوطني الفلسطيني ، رئيسا وعضوية عبد
العزيز الوجيه وحامد ابو ستة ، وياسر عبد ربه
وزهر محسن وعبد المحسن ابو ميزر ومحمد زهدي
النشاشيبي ، اعضاء اللجنة التنفيذية .

وقد عقد الوفدان خلال شهر أيار اجتماعين في
دمشق الاول في ٥/٢٥ صرح اثره الاخ عبد المحسن
ابو ميزر ، الناطق الرسمي الفلسطيني ، بأن
« الاجتماع كان ناجحا للغاية وسادته روح الاخوة
النضالية والتفاهم المشترك لطبيعة المرحلة التي تمر
بها القضية العربية . وقد استعرض الوفد
الفلسطيني مع الاخوة المسؤولين في القطر العربي
السوري تطورات الاحداث على الساحة اللبنانية
واحتمالاتها وآثارها وكان هناك تطابق في الرأي
بهذا الخصوص » . اما الاجتماع الثاني فقد عقد
يوم ٥/٢٧ وذكر « وفا » ان الجانب الفلسطيني

المقر الذي كانت تشغله السفارة الاسرائيلية في بنوم بنه .

● صدر بيان (٦/٦) عن وزارة الخارجية والدفاع في سري لانكا يقول ان الحكومة وافقت على السماح للمنظمة بفتح مكتب لها في كولومبو . وأعلن البيان ان الحكومة في سري لانكا وفتت دائها الى جانب الحقوق الشرعية للشعب العربي الفلسطيني وانها اعترفت اخرا بأن م. ت. ف. هي الممثل الوحيد لهذا الشعب .

● اجتمع الاخ ابو عمار (٥/١٦) في طرابلس اثناء زيارته الى ليبيا لافتتاح اسبوع فلسطين بالسيد اليكسي كوسيجين .

● في ٥/٢٢ تم لقاء في بيروت بين الاخ ياسر عرفات والسناطور الاميركي هوارد بايكر ، عضو لجنة العلاقات الخارجية . وقد ذكرت « النهار » (٥/٢٣) ان بايكر قال في اللقاء « جئت الى هنا لاسمع لا لاعطي نصائح . جئت لاسمع وجهة نظر رئيس اللجنة التنفيذية ل م ت ف ، لا لانتقل أي شيء خاص . ان من اهداف جولتي الحالية في بعض دول الشرق الاوسط الاجتماع بك » . وقال الاخ ابو عمار « ان اميركا التي تدعي انها واقعية في سياستها تتصرف في شكل غير واقعي وغريب جدا تجاه قضية الشعب الفلسطيني وحقوق هذا الشعب . ان اميركا تتجاهل هذه الحقوق ولا تعترف بالفريق الفلسطيني الذي يشكل العنصر الاساسي في النزاع والذي من دونه لا يمكن تصور حل . واميركا لا تريد الاعتراف بحقوق الفلسطينيين ولا تريد رؤية الحقيقة » . وتحدث بايكر عما سماه الازهاب الفلسطيني ورد ابو عمار « لماذا الشعب الفلسطيني هو الشعب الوحيد في العالم الذي يسمى البعض نضاله من اجل تحرير بلاده ارهايا ؟ حين تضرب اسرائيل النساء والاطفال والمذنبين العزل بكل انواع الاسلحة اليس هذا هو الازهاب ؟ لساذا الضحية هي دائما المذنب والمذنب الحقيقي هو البريء » . وأوضح ابو عمار الموقف الفلسطيني بكل تفاصيله وكان واضحا ودقيقا .

● استقبل ابو عمار على رأس وفد من م ت ف يوم ٦/٨ في بيروت وفدا من الحزب الشيوعي الفرنسي برئاسة السيد بول لوران ، عضو المكتب السياسي - امين سر اللجنة المركزية للحزب . وفي جلسة المحادثات التي عقدت في اليوم نفسه أكد

الوفد ممثلين عن الاتحادات الشعبية والمجلس الوطني الفلسطيني . وقد صوتت منظمة العمل الدولي يوم ٦/١٢ الى جانب قرار يقبل م ت ف عضوا مراقبا في المؤتمر وببجرد التصويت على القرار انسحب الوفدان الاسرائيلي والاميركي من المؤتمر .

● أعلنت مالطا موافقتها على فتح مكتب ل م ت ف في غاليستا وقد جاء ذلك في البيان المشترك الصادر في ٥/٢٠ في كل من طرابلس وغاليستا عقب الزيارة التي قام بها دوم متوفو ، رئيس وزراء مالطا ، الى ليبيا .

● طالبت اللجنة التنفيذية ل م ت ف بربد عربي حازم على الموقف العدائي الذي اتخذته دول السوق الأوروبية المشتركة بإبرامها اتفاقية تجارية مع اسرائيل . وقد أعلن ذلك الاخ عبد المحسن ابو ميزر في تصريح ل « وفا » (٥/٢١) قال فيه « ان اقدام دول السوق على توقيع الاتفاقية قد شكل ضربة للغاية المنشودة من الحوار العربي - الاوروبي ، وهي المساعدة على تطوير موافق الدول الأوروبية الغربية بما ينسجم مع المصالح التي تربطها بالدول العربية ، وبما يخدم مبادئ العدالة والشرعية الدولية . لقد جاء توقيع الاتفاقية مع الكيان الصهيوني بمثابة دعم مباشر لاغتصاب الاراضي العربية والحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني ، كما انسه يشكل تشجيعا مباشرا لسياسة اسرائيل التوسعية العدوانية » . وأعلن ابو ميزر « ان اللجنة التنفيذية ابلفت الدول العربية عبر اجتماع الخبراء العرب [الذي عقد آنذاك] في مقر الامانة العامة لجامعة الدول العربية بالفتاخرة مطالبتها بربد عربي حازم على هذا الموقف . وأوضح اللجنة في طلبها بأن كل دعم مالي او اقتصادي تقدمه اية دولة عربية لدول السوق الأوروبية المشتركة بعد هذه الاتفاقية انما يشكل دعما غير مباشر لاقتصاد الكيان الصهيوني» .

● أعلن الاخ جمال الصوراني ، ممثل م ت ف في مصر ، اثناء زيارته الى جاكارتا (٥/٢٤) انه تم الاتفاق خلال اجتماعه مع السيد آدم مالك ، وزير خارجية اندونيسيا ، على افتتاح مكتب ل م ت ف في جاكارتا .

● ذكرت « وفا » (٥/٢٨) ان الحكومة الكبودية طلبت من م ت ف ارسال وفد لاستلام

قطاع من قطاعات الشعب الفرنسي لتأييد ومساندة حركة التحرير الفلسطيني بقيادة م ت ف .

● أعلنت « وفا » (٥/١٨) ان ابو عمار تسلّم رسالة من السيد شو ان لاي ، رئيس الوزراء الصيني . وقالت الوكالة ان الرسالة « اتسمت بالوضوح والمودة ودعم الصين للثورة الفلسطينية » وحيث الرسالة انتصار الشعب الفلسطيني في كل المجالات وأكدت « حتمية الانتصار النهائي للقضية الفلسطينية العادلة » .

عصام سخيني

وقد الحزب الشيوعي الفرنسي (كما أوردت « وفا » ٦/٩) انه جاء لينسق مع م ت ف التي تقود نضال الشعب الفلسطيني من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة . كما أكد الوفد أيضا بأن الشيوعيين الفرنسيين ومعهم قطاع واسع من الشعب الفرنسي يتضامنون مع نضال الشعب الفلسطيني العظيم من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة والعودة الى ارض وطنه . وفي الاجتماع الذي عقد يوم ٦/٩ ناقش الوفدان العلاقات الثنائية بين م ت ف والحزب الشيوعي الفرنسي وأكد الوفد الاخير تصميمه على تصعيد وتكثيف نشاطه السياسي والاعلامي لحشد اكبر

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

خاصة على هذا اللقاء كونه الاجتماع الاول من نوعه بعد الهزيمة التي لحقت بالولايات المتحدة في الهند الصينية . ويبدو هنا تصرف حول الاجتماع (بالاضافة الى دلائل عديدة اخرى) ان التوجه الامريكى يميل نحو التصلب في مناطق نفوذ الولايات المتحدة نتيجة هزيمتها المذكورة . وقد ألح رئيس وزراء النمسا (كرايسكي) الى هذا الامر بقوله لغروميكو اثناء استقبله على المطار « بأنه سيجد الطقس حاراً جداً جداً في فيينا » . وأكد مصدر امريكى كبير في الوفد المرافق لكيسنجر ان الوزير الامريكى لم يعرض اية مقترحات ثابتة اسم غروميكو . كما تبين ان كيسنجر اصر على تأييد بلاده للموقف الاسرائيلي الرافض لمشاركة منظمة التحرير في مؤتمر جنيف . وذكرت اثناء صحفية ان كيسنجر هاجم المنظمة بعنف اثناء اجتماعه بالوزير السوفيتي واتهما بالتطرف والارهاب . ونذكر هنا ان الزيارة التي يفترض ان يقوم بها غروميكو للقاهرة بهدف التشاور مع الزعامة المصرية قبل انعقاد قمة سالزبورغ قد ألغيت .

(٢) الجولة التي قام بها الرئيس السادات - اعدادا لاجتماعه بالرئيس فوردي - والتي شملت زيارات لكل من سوريا والاردن والكويت والعراق

تركزت التطورات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية هذا الشهر في ثلاثة احداث هامة هي : القمة التي عقدت بين الرئيسين فوردي والسادات في سالزبورغ النمسا - افتتاح قناة السويس مجددا للبلاحة الدولية ، واجتماع رئيس الوزراء الاسرائيلي رايبين الى الرئيس فوردي في واشنطن استكمالاً لقمة فوردي - السادات ولعملية اعادة تقييم السياسة الامريكى في منطقتنا التي كانت قد بدأت بعد فشل مهمة كيسنجر الاخرة في تحقيق تسوية جزئية في سيناء . وستناول كل واحد من هذه الاحداث بالترتيب الوارد ذكره اعلاه .

قبل تناول قمة سالزبورغ نفسها لا بد من الاشارة الى عدد من التطورات التي طرأت قبل موعد انعقادها وعلى سبيل التمهيد لها وذلك من أجل وضع اجتماع القمة في سياقه الصحيح خاصة بالنسبة للتطورات المتلاحقة التي رافقته . وتلخصت هذه التطورات المههدة بما يلي :

(١) اللقاء الذي جرى بين كيسنجر وغروميكو في فيينا في النصف الثاني من شهر أيار حيث تناول الوزيران عددا من الموضوعات الدولية الكبرى بما فيها مشكلة الشرق الاوسط . ومما اضفى أهمية

على الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط لمدة خمسين سنة وان الخبراء السوفيات سيبقون من ٢٠ الى ٥٠ سنة في ليبيا مما يعني سيطرة عسكرية اجنبية على البلاد . كذلك أكد ان الاسلحة التي حصلت عليها ليبيا « تفوق في تطورها خيال أي كان » وان لا مصر ولا سوريا تد حصلت على اسلحة متطورة شبيهة بما ستحصل عليه ليبيا .

(و) استبعد السادات خطر نشوب حرب أخرى في الشرق الاوسط اذا تعثرت جهود السلام ومثّل مؤتمر جنيف « لان فشله ليس نهاية العالم » وجدد ثقته الكاملة بالدكتور كيسنجر وسياسته .

(٣) على الجانب الامريكى ادلت المراجع العليا بتصريحات عديدة قبل انعقاد قمة سالزبورغ . ففي مقابلة مع صحيفة الدايلي نيوز (٣ حزيران) أكد الرئيس نورد امكانية عودة السياسة الامريكية الى دبلوماسية كيسنجر المنتقلة لتحقيق تسوية جزئية على جبهة سيناء لان التقلب على الصعوبات التي تعترض الوصول الى تسوية شاملة يستغرق وقتا طويلا ، وبالإمكان تحقيق تسويات جزئية في هذه الاثناء . بالنسبة لقمة سالزبورغ قال بأنه يريد الاجتماع بالرئيس السادات « ليحصل منه شخصيا على تحليته واقتراحاته المتعلقة بالوضع في الشرق الاوسط » . أما كيسنجر فقد أكد من جانبه بأن نورد يريد الاستمرار في محاولة الوصول الى تسوية عن طريق التفاوض بين العرب واسرائيل . الا انه « لا ينوي فرض تسوية من عنده في الشرق الاوسط » .

وصرح وزير الدفاع شليزنغر بكلام ينصح باعتماد سياسة امريكية « اكثر تصلبا في مختلف المناطق الساخنة في العالم » . وأكد بأنه على الولايات المتحدة ان تحافظ على مواقفها في الشرق الاوسط لانه « ما من قوة أخرى قادرة على الوقوف في وجه الاتحاد السوفياتي هناك » . وطمان الوزير اسرائيل بقوله ان ميزان القوى في الوقت الحاضر يميل لصالح اسرائيل اكثر مما كان عشية حرب أكتوبر وان حكومته قادرة على نقل الاسلحة والامتدة اللازمة الى اسرائيل حتى لو منعت البرتغال اي استخدام لقواعدها لاجراء مثل هذه العملية اذ ستصل المواد الحربية من امريكا بعد ٣٦ ساعة من اصدار الرئيس أمرا بذلك . وعاد شليزنغر الى توجيه التهديدات المعهودة الى الدول العربية المنتجة للبتروال في حال قيامها باستخدام سلاح النفط مجددا . وبالإضافة الى كل هذه التصريحات

ويوغسلافيا والنمسا . وواضح ان هدف زيارة السادات للمعاصم العربية الرئيسية كان الاعداد لمخاطبة نورد من موقع من يمثل وجهة نظر عربية موحدة ومتناسفة قدر الامكان . وقد أدلى الرئيس السادات بعدد من التصريحات الهامة خلال جولته هذه كان أهم ما فيها النقاط التالية :

(ا) تأكيده بأن هدف زيارته هو الخروج بموقف عربي موحد في مواجهة مشكلة تحقيق السلام في المنطقة على يد الولايات المتحدة .

(ب) انه ينوي طرح سؤال اساسي على الرئيس نورد هو ما اذا كانت الولايات المتحدة تريد حماية اسرائيل داخل حدودها (أي حدود ١٩٦٧) ام داخل حدود الاراضي العربية المحتلة في ذلك العام . وأكد الرئيس المصري في هذا الصدد ان مصر تعترف باسرائيل داخل حدود ١٩٦٧ كحقيقة قائمة وموجودة . وقد أثار هذا التأكيد بعض ردود الفعل العربية القوية وخاصة في ليبيا وداخل صفوف المقاومة الفلسطينية . وعاد السادات الى تردد ما كان قد قاله سابقا حول « مسك امريكا بـ ٩٠ ٪ من أوراق هذه اللعبة » لان الولايات المتحدة تزود اسرائيل بكل متطلبات الحياة والدفاع ، ومن هنا اعتماده على الرئيس نورد الذي « يستطيع ان يحل هذه المشكلة اذا أراد ذلك » .

(ج) أكد ان اسرائيل تسعى الى كسب الوقت وتأجيل مساعي التسوية الى السنة المقبلة ، أي سنة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة مما سيشل السلطات الامريكية دوليا ويجعلها غير قادرة على التحرك لفترة طويلة .

(د) وجه سؤالا الى « اخواننا الفلسطينيين » حول ماهية تصورهم لمؤتمر جنيف وما اذا كانوا قد اتفقوا فيما بينهم قبل الذهاب الى المؤتمر ام لا . واذا كانوا قد اتفقوا فعلى أي اساس . وأكد بهذا الصدد ان مصر طلبت من الاتحاد السوفياتي دعوة منظمة التحرير للاشتراك في مؤتمر جنيف .

(هـ) هاجم الرئيس السادات الاتحاد السوفياتي متنها اياه بالاستمرار في رفض تسليح مصر والامتناع عن تبديد آجال الديون المستحقة عليها . كما هاجم ليبيا والاتحاد السوفياتي معا بسبب الصفقة التي عقدها البلدان معا ، وقال بهذا الصدد ان الصفقة المذكورة تعطي السوفيات حق الوجود العسكري

هذه الوثيقة النقاط التالية : (أ) يجب ان يكون هدف المفاوضات التوصل الى اتفاقيات سلام ثنائية تأخذ شكل المعاهدات . (ب) ان هدف الرئيس المصري هو عزل اسرائيل واثارة التوتر بينها وبين الولايات المتحدة بهدف جذب امريكا والاتحاد السوفياتي الى فرض حل على اسرائيل مشابه للحل الذي فرضه سنة ١٩٥٦ - ١٩٥٧ . (ج) ان رفض السادات التوصل الى حل شامل مع اسرائيل (اي في سيناء) لا يؤثر على استعداد اسرائيل للقبول باتفاق مرحلي ضمن اطار سياسة « الخطوة خطوة » . (د) ان عدم موافقة الرئيس السادات على الغاء حالة الحرب الا مقابل انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة يعني ان اسرائيل لن تحصل على علاقات دبلوماسية وتجارية . . . الخ طبيعية مع جيرانها مما يعني بدوره انها عقدت صفقة خاسرة . (هـ) ان استمرار الدول العربية في تأييد منظمة التحرير - التي تنوي تصفية الدولة اليهودية - يزيد الوضع خطورة .

عند انعقاد قمة سالزبورغ صدرت بعض التحديدات بالموضوعات التي ستتناولها . ذكر كيسنجر ان اللقاء سيكون خطوة اولى باتجاه مبادرة السلام لان « اول ما يجب ان نفعله هو ان نعرف ماذا يريد كل من الرئيس السادات واسحق رابين » . كما أشار الوزير الامريكى الى ان لقاء القمة لن يتناول الجبهة المصرية فقط بل سيشمل الجبهات الأخرى ومشكلات الحدود وما يمكن ان يقدمه العرب من التزامات سلبية محددة تجاه اسرائيل لتحقيق التسوية السلبية . هذا بالإضافة الى وضع الفلسطينيين والقدس . ووصف كيسنجر هذا اللقاء بقوله انه « مهم جدا » لان الوضع في المنطقة متفجر ، وألح الى ان الرئيس السادات يحمل معه مقترحات معينة ليعرضها على الرئيس نورد . اما الجانب المصري فقد حدد موضوعات اللقاء عبر صحافته بالقول انها تتناول الموقف العام في الشرق الأوسط واشترك الفلسطينين في اية مناقشات او مؤتمرات تجري لتحقيق السلام والعلاقات الثنائية بين البلدين والعلاقات الدولية بما في ذلك سياسة الانفراج . وتشمل العلاقات الثنائية هنا موضوع المساعدات الاقتصادية التي يمكن ان تقدمها الولايات المتحدة الى مصر .

وخلفا للتقاليد المتبعة لم يصدر اي بيان مشترك

رفع ٧٥ عضوا في مجلس الشيوخ الامريكى رسالة الى الرئيس نورد دعته الى دعم اسرائيل بتأكيدا النقاط التالية : (أ) ان التطورات الاخيرة في الهند الصينية تبين حاجة الولايات المتحدة الى حلفاء مستقرين ويمكن الاعتماد عليهم في انحاء مختلفة من العالم (اسرائيل في الشرق الأوسط) . (ب) ان اسرائيل القوية هي الحاجز الأكثر ضمانة للحيلولة دون تزايد التسرب السوفياتي الى المنطقة .

(ج) ان تدفق الاسلحة السوفياتية الى العالم العربي لا بد وان يثقل توازن القوى لصالح الطرف العربي مما يعني ان اي حجب للمساعدات العسكرية الامريكية عن اسرائيل سيولد وضعاً خطيراً ويشجع العرب على الحرب . لذلك لا بد لاسرائيل « من ان تحصل على المساعدات الاقتصادية والعسكرية الكافية لردع اي عدوان جديد » .

(د) ان يضمن برنامج الحكومة للمساعدات الخارجية كل ما هو مطلوب لتلبية حاجات اسرائيل الاقتصادية والعسكرية .

(هـ) ان تعف حكومة الولايات المتحدة بصلابة الى جانب اسرائيل لان في هذا الموقف خدمة لصالح امريكا القومية . كما انه يجب الا تخرج مراجعة السياسة الامريكية في الشرق الأوسط عن هذا الموقف . وقد اثارت هذه الرسالة والمطالب التي تنطوي عليها ردود فعل عربية قوية بما في ذلك داخل مجلس الامة المصري . الا ان رئيس المجلس السيد مرعي قال بانسه لا ينبغي اعطاء مسألة الرسالة « حجما اكبر من حجمها الحقيقي » معتبرا ان صدرها الان غير مناسب ليجاد حلول سلبية في الشرق الأوسط وناشد مجلس الشيوخ مراعاة المصالح الامريكية في تصرفاته .

(٤) : تهديد الحكومة السورية مدة انتداب قوة الطوارئ الدولية في الجولان ٦ اشهر اخرى . وقد تضمن هذا القرار شيئا من المفاجأة اذ ان المراقبين كانوا يتوقعون تمديدا سوريا لا يتجاوز الشهرين بحيث تنتهي مدة انتداب قوات الطوارئ في سيناء والجولان في وقت واحد .

(٥) تحديد الحكومة الاسرائيلية لموقفها العام من التسوية السياسية في المنطقة عبر وثيقة ملئية جرى توزيعها على السفارات الاجنبية وتضمنت

احاطة قمة سالزبورغ بها .

و جدير بالاشارة هنا ان معلومات كثيرة تسربت الى الاوساط الصحفية ونشرت حول ما جرى في اجتماع القمة . ولا شك ان بعض هذه المعلومات دقيق وبعضها الاخر قريب من الدقة في حين ان الكثير منها لا يتعدى التخمين والتكهن . وسنورد فيما يلي اهم المعلومات التي نشرتها الاوساط الصحفية حول قمة سالزبورغ . (ا) ذكرت مجلة نيوزويك الامريكية (٩ ايار) ان الرئيس الامريكى لم يقدم اية اجابة على سؤال السادات حول ما اذا كانت امريكا تريد حماية اسرائيل داخل حدود عام ١٩٦٧ ام داخل حدود الاحتلال الحالى . وقد قال غورد صراحة للسادات بانه غير قادر على الرد على هذا السؤال في الوقت الحاضر . وفي المقابل سأل ما اذا كانت مصر على استعداد لجولة ثانية من المحادثات للتوصل الى تسوية جزئية ، فكان جواب السادات بالاجاب . (ب) ان الرئيس غورد سيتولى شخصيا مسؤولية التحرك السلمى في المنطقة . (ج) ان الرئيس اتفقا من حيث المبدأ على تحقيق انسحاب جزئى على جبهة سيناء تتبعه خطوة مشابهة على جبهة الجولان علما بان بعض الانباء ذكرت ان الرئيسين درسا بعض الامور المحددة على الخرائط فيما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلى . (د) ان احتمالات عودة كيسينجر الى دبلوماسيته المثقلة واردة جدا وسيتم اتخاذ قرار نهائي حول هذا الامر بعد اجتماع غورد براين . (هـ) ان مصر قدمت تنازلا مهما بقبولها مبدئيا بتمديد تفويض قوات الامم المتحدة في سيناء لمدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات . في حين انه كان قد رفض تمديد هذا الانتداب لاكثر من سنة اثناء جولة كيسينجر الفاشلة الاخيرة . (و) ان القضية الفلسطينية بعد ذاتها غير واردة كبنء مستقل في اعادة تقييم الحكومة الامريكية لسياستها الشرق اوسطية . وعلى هذا الاساس تعهد غورد بأن توكل حكومته للرئيس السادات امر التصرف بالموضوع الفلسطينى مما يعنى ان كافة الاقتراحات الامريكية المتعلقة بالقضية الفلسطينية ستبلغ للسادات الذي سيبحثها بدوره مع الجهات الفلسطينية المعنية . وتتوقف بذلك الولايات المتحدة عن بحث الموضوع الفلسطينى مع اي جهة دولية اخرى وخاصة مع الاتحاد السوفياتى . (ز) ان

على اثر اختتام لقاء السادات وغورد بل استعيض عنه بمؤتمر صحفي مقتضب وسريع لم يفسح فيه المجال الا لطرح عدد قليل جدا من الاسئلة على الرئيسين . ويمكننا ان نقول بشكل عام ، ان المؤتمر الصحفى ، ببيانه واسئلته ، لم يكشف اى شيء مما دار في المحادثات او عن حقيقة الجو الذي سادها كما انه لم يشر الى ما تم الاتفاق عليه او الاختلاف حوله بين الرئيسين . واهم نقطة برزت في المؤتمر قول غورد بانه سيطرح مشروعا للسلام في الشرق الاوسط بعد انتهاء اعادة تقييم السياسة الامريكية . وقد اشاد الرئيس السادات كثيرا بغورد واغدى عليه المديح واصفا اياه « بالرجل الشريف والمحب للسلام والمكافح من اجل السلام » كذلك اكد غورد انه لم يتخذ اية قرارات بالنسبة للمرحلة المقبلة وان العلاقات الثنائية بين مصر والولايات المتحدة متينة . اما المصادر المصرية الرسمية فقد ذكرت ان الرئيسين توصلا الى اتفاق حول الخطوة التالية لتحقيق السلام في المنطقة وهي اجراء انسحاب اسرائيلى جديد في سيناء يتبعه انسحاب مواز في الجولان ، يعتقد بعدهما مؤتمر جنيف . كما ذكرت هذه المصادر ايضا ان السادات حقق هدفه في اعادة تنشيط جهود السلام واعطاء العلاقات المصرية الامريكية ديناميكية جديدة و « تطعيم طابع الجاهية في المنطقة الذي يضع الولايات المتحدة كليا وراء اسرائيل والاتحاد السوفياتى كليا وراء العرب » . ولا بد من الاشارة الى ان التصريحات الرسمية وشبه الرسمية التي صدرت حول مؤتمر القمة تتترك انطبعا بان الولايات المتحدة رفضت حتى الان اعلان اي شيء من افكارها وخطتها بالنسبة للتسوية في المنطقة ، ورفضت اعلان اي شيء عن النتائج التي وصلت اليها (ولو مرحليا) في اعادة تقييمها لسياستها في الشرق الاوسط ، كما امتنعت عن القول ما اذا كانت ستسير باتجاه عقد مؤتمر جنيف او العودة الى دبلوماسية الخطوة خطوة على يد كيسينجر . يضاف الى ذلك عدم تحديد اي شيء حول حجم الحدود التي تريد امريكا حماية اسرائيل داخلها وحول حجم المساعدات الاقتصادية لمصر ونوعها وغياب اي بيان مشترك عقب انتهاء المحادثات . ان كل هذه الظواهر تدعو المراقب الى التشكك باجراء النجاح التي عملت التصريحات المصرية واجهزة الاعلام المصرية على

مصر والولايات المتحدة على علم تام بحقيقة الاجراء الاسرائيلي ولكنهما لن تثيرا اية ضجة بغية عدم تعكير الاجواء الحالية استعدادا للخطوات القادمة نحو تسوية جزئية جديدة في سيناء .

■ في الخامس من حزيران ١٩٧٥ افتتح الرئيس السادات قناة السويس للملاحة الدولية في احتفال فخم وكبير شبيهه الصحافة باحتفالات الافتتاح الاول للقناة في القرن التاسع عشر . وقد حضر الافتتاح ولي عهد ايران (١٤ سنة) وقائد الاسطول السادس الذي شاركت سفينة القيادة التابعة له في الاحتفالات . ولم يشارك الرؤساء العرب في الاحتفالات . وجدير بالاشارة ان حضور سفينة القيادة التابعة للاسطول السادس مع قائد الاسطول كانا مفاجأة كبيرة للجميع . وقد دار لفظ دبلوماسي حول هذا الموضوع خاصة وان دولا مثل الاتحاد السوفياتي وفرنسا و انكلترا شاركت في عمليات تنظيف القناة واعادها للملاحة لم تدع لتكون ممثلة في حفلة الافتتاح على هذا المستوى الرفيع . وفي مقابلة اجراها التلفزيون اللبناني مع الرئيس السادات بمناسبة اعادة فتح قناة السويس قال السادات بالنسبة لهذا الحدث (ا) أنه يستبعد اقدام اسرائيل على اية مغامرة عسكرية ضد القناة . (ب) ان عودة النازحين الى مدن القناة هو اخطار لاسرائيل والولايات المتحدة العالم بان هذه المدن اصبحت اليوم من عمق مصر واي عدوان عليها هو عدوان على عمق مصر نفسها وسيرد عليه بالوصول الى عمق اسرائيل (ج) ان قرار اعادة فتح القناة يهدف الى اخطار امريكا والشعب الامريكي والكونغرس ان مصر لا تخاف السلام وهي تادرة على صنع السلام . يضاف الى ذلك ان ابقاءها مغلقة يعني معاقبة الاصدقاء في كل انحاء العالم « في حين تريد مصر ان تساهم في رخاء العالم » . (د) ان السماح للسفن الاسرائيلية بعبور الممر المائي لن يتم الا في مؤتمر جنيف ومن خلال الحل النهائي للنزاع وبحضور جميع الاطراف المعنيين . وواضح ان التطورات التي سبقت فتح قناة السويس والنتائج المترتبة على هذه الخطوة (خاصة مشاريع تعمير المنطقة وتثبيتها) هي خطوات تبعد مصر عن جو اية جولة عسكرية اخرى مع اسرائيل وتقربها اكثر من منطلق التسوية السلمية برعاية الولايات المتحدة . يضاف

الولايات المتحدة لا تريد لمؤتمر جنيف ان يكون مجالاً لاية مفاوضات جدية بين اطراف النزاع بل تجري المفاوضات خارج المؤتمر ويجري التوقيع عليها في داخله . ويبدو ان فورد ناقش فكرة تدعو الى تحويل مؤتمر جنيف الى مؤتمر شبه دائم لازمة الشرق الاوسط تستمر اعماله لفترة طويلة على غرار مؤتمر الامن الاوروبي او مؤتمر محادثات نزع السلاح . (ح) لم يطرأ أي تغيير خلال القبة او بعدها على الموقف الامريكي من منظمة التحرير . (ط) وعد فورد بالاهتمام بالوضع الاقتصادي المصري ومساعدة النظام على مواجهة العجز المالي الذي يعاني منه على ان تبدي مصر اعتدالا في مواقتها خلال مرحلة وضع أسس التسوية الجزئية في المنطقة .

بعد انتهاء قمة سالزبورغ مباشرة اعلن راين في مؤتمر صحفي ان الحكومة الاسرائيلية قررت اتخاذ خطوة من جانبها لتخفيف التوتر في المنطقة وذلك عن طريق تخفيف قواتها المتمركزة شرقي قناة السويس في المنطقة المحدودة التسليح بمقدار النصف . أي مستحب اسرائيل ١٥ دبابة و ٢٥٠٠ جندي وكل مدافعها بحيث تصبح القناة تقنيا خارج مرمى المدفعية الاسرائيلية . كما اعلن ان القوات الاسرائيلية لن تركز اية صواريخ في المنطقة المذكورة باستثناء تلك المضادة للدبابات وبين راين ان الولايات المتحدة كانت على علم بهذه الخطوة الاسرائيلية كما اضفى على هذا القرار صفة « التنازل » والرغبة في تحمل قدر من « المجازفة » اسهاما من حكومته في المحافظة على سلامة الملاحة في قناة السويس وتسهيلا لجهودات السلام في المنطقة . وعلق السادات اثناء وجوده في سالزبورغ على هذه الخطوة بقوله ان مصر ترحب بالاجراء الاسرائيلي وتعتبره خطوة باتجاه السلام . لكن من جهة اخرى نشرت صحيفة « النيويورك تايمز » الامريكية (١١ حزيران) استنادا الى مصادر عسكرية خبرا يفيد ان خفض القوات الاسرائيلية في سيناء الذي اعلنت عنه اسرائيل بضجة كبيرة شمل قوات كانت قد انسحبت منذ اشهر وقطع مدفعية لم تكن موجودة في خط الدفاع اصلا . وذكرت الصحيفة ان اسرائيل كانت قد خفضت عدد قواتها ودباباتها المسوح بها في منطقة التسليح المحدود منذ بضعة اشهر كما اكدت ان

المصري وان اسرائيل ستصرف « كجار مسؤول » وستفعل كل ما في وسعها لتأمين الملاحة بدون ازعاج . كما أكد ان الفكرة الاساسية التي ارتكزت اليها اتفاقات فصل القوات في سيناء هي فكرة اعادة فتح الممر المائي . وفي الوقت نفسه صرح الوزير اسراييل غاليلى بان سياسة اسرائيل في تطوير شرم الشيخ واستيطانها ما زالت مستمرة .

■ عشية سفر رابسين الى واشنطن اعلنت الحكومة الاسرائيلية الخطوط العريضة للموقف الذي تطلق منه في مواجهة مساعي التسوية الراهنة ، وكان اهم ما جاء في الاعلان الاسرائيلي الرسمي قوله : (ا) بان اسرائيل غير مستعدة لقبول الشروط التي وضعها السادات خلال جولة كيسنجر الاخيرة كأساس لتحقيق انسحاب جديد في سيناء . (ب) بان اسرائيل مستعدة لاعادة النظر في موقفها حول هذا الموضوع اذا عدلت مصر موقفها وتقدمت عروضاً جديدة . (ج) بان الاحتمال الاكثر واقعية في هذا الوقت هو تحقيق اتفاق جزئي مع مصر من خلال مساعي الولايات المتحدة . (د) بانها اذا تم التوصل الى مثل هذا الاتفاق فان اسرائيل ستبذل جهدها للتفاهم مع الولايات المتحدة على عقد اتفاقات اخرى مشابهة مع الدول العربية المعنية الاخرى « لتحقيق سلام يرتكز على حدود يمكن الدفاع عنها » . وأعلن رابين نفسه بأنه لا يحمل جيديدا الى واشنطن بل ينتظر من مصر ان تقدم هذا الجديد .

■ اما بالنسبة للجانب الامريكى فقد اعلن فوردي في مؤتمر صحفي بأنه يتوقع ان يحصل من رابين على « تقييمه الشخصي للوضع الشامل في الشرق الاوسط » وأنه سيبحث مع رئيس الوزراء الاسرائيلي البدائل المتعددة المطروحة من اجل استئناف جهود السلام ومنها مفاوضات الخطوة خطوة وانعتاد مؤتمر جنيف . اما كيسنجر فقد صرح امام لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب الامريكى ان موقفا جيديدا بناه قد تطور في الاسابيع الاخيرة بين الفرقاء المعنيين في نزاع الشرق الاوسط وان امكانيات تحقيق اتفاق مؤقت جديد قد تحسنت . كما الملح الى ان احتمالات استئناف مساعيه الدبلوماسية المنتقلة اصبحت واردا جدا خاصة وان انعقاد مؤتمر جنيف يواجه مصاعب كثيرة وان

الى ذلك ان اعادة فتح الممر المائي يشكل انقلابا على الموقف المصري السابق القائل بان القناة لن تفتح الا بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء او انسحابها جزئيا آخر على اقل تقدير بحيث لا تبقى الملاحة في القناة تحت رحمة التهديدات الاسرائيلية المباشرة . وجدير بالاشارة هنا ان الانباء ذكرت بأنه اثناء مهمة كيسنجر الفاشلة الاخيرة أعرب العسكريون المصريون عن رأي يقول بأن تأمين الملاحة في القناة يقتضي انسحاب اسرائيل من الممرات ومن الساحل الشرقي لطيج السويس . ولا شك ان فتح قناة السويس ضمن الشروط الحالية يعطي اسرائيل وامريكا ضمانات فعلية وعملية على « نوايا مصر السلمية » اقوى من اية تصريحات او وثائق مكتوبة . كما يبدو ان سياسة الخطوة خطوة تطبق الان بصورة مجزأة بحيث تتخذ مصر من جانبها خطوة (فتح القناة) تقابلها اسرائيل بخطوة من عندها (اعلان تخفيض القوات في المنطقة المحدودة المتسلح) ويجري جدل الان حول ما اذا كانت الخطوة التالية ستكون مرور الشحنات الاسرائيلية غير الاستراتيجية في القناة (على سفن لا ترغ العلم الاسرائيلي) . وعلى هذا الصعيد شنت اسرائيل حملة اعلامية ودبلوماسية مدعومة امريكيا للضغط من اجل السماح لشحناتها المحملة على سفن لا ترغ العلم الاسرائيلي بعبور قناة السويس . ووصلت هذه الحملة الى ذروتها في اعلان رابين بان مصر ملزمة بموجب الاتفاقات السرية التابعة لاتفاقية فصل القوات على جبهة سيناء بالسماح لمثل هذه الشحنات بالمرور عبر القناة . وذكرت مصادر دبلوماسية امريكية ان مصر في الواقع قدمت مثل هذا التعمد الى الحكومة الامريكية . ولكن ليس الى الحكومة الاسرائيلية نفسها . ولم يصدر اي نفي مصري لهذه الاتباء بل اورد الرئيس السادات تعليقا مبهما نوعا ما حول هذه المشكلة بقوله ان مرور الشحنات الاسرائيلية مرسوم بسلوك اسرائيل . وقد ذكرت انباء صحفية ان سفينة تحمل بضائع الى اسرائيل ستبر في القناة - كنوع من التجربة - وستسمح لها مصر بالعبور على ان تتم المسالة كلها بهدوء وبدون اية حجة اعلامية او تصريحات رسمية . وجدير بالذكر هنا ان وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز كان قد صرح في 1٨ ايار بان اسرائيل تنظر الى اعادة فتح القناة كخطوة لتحسين الاقتصاد

اي مشروع للتسوية الشاملة للنزاع في الشرق الأوسط في المستقبل القريب . الا ان المصادر الدبلوماسية في واشنطن ذكرت ان بؤادر مفاوضات جديدة بين مصر واسرائيل باشراف الولايات المتحدة قد اصبحت واضحة من اجل الوصول الى اتفاق جزئي جديد بشأن سيناء . وواضح جدا ان التصريحات الامريكية التي صدرت في أعقاب المحادثات مع رابين لم تحتو على اي جديد بل كررت المواقف الامريكية المعروفة والسابقة . على سبيل المثال لم يتعد تعليق غورد على المحادثات قوله بان هدف حكومته هو ضمان استمرار السعي « نحو السلام العادل والدائم في المنطقة » وعدم ترك الركود يخيم عليها . كما ان كيسنجر لم يقل اكثر من ان مصر واسرائيل « قد تكونان متجهتين نحو استئناف المفاوضات حول اتفاق جزئي جديد في سيناء » والمج الى امكانية استئناف مفاوضات المتقلة بين اسرائيل وبعض العواصم العربية . واكد كيسينجر ان حكومته لن تدخل في اية استشارات مع منظمة التحرير كما انها ستستمر في تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل بمعزل عن اي اعتبارات سياسية مثل اعادة التقييم المتعلقة بالمنطقة حاليا . أما رابين فقد وصف محادثاته مع كبار المسؤولين الامريكيين بانها كانت صريحة وودية جدا . وانه بين للرئيس غورد فوائد التوصل الى اتفاق مؤقت مع مصر يستمر لعدة سنوات ، كما اكد استعداد حكومته للاشتراك في مؤتمر جنيف اذا دعت الى الانعقاد ، ورفضها الدخول في اية مفاوضات مع منظمة التحرير . واشترط رابين للتوصل الى اتفاق مؤقت مع مصر بتبديل الاخرة لمواقفها المعروفة حول هذا الموضوع واكد في هذا الصدد تفهم غورد الكامل لحاجات اسرائيل العسكرية والاقتصادية واستجابتها لهذه الحاجات . وواضح من كل ذلك انه حتى هذه الساعة لم تظهر اية بوادر تشير الى حدوث اي تغير جدي في السياسة الامريكية نتيجة ما يسمى بعملية اعادة النظر في هذه السياسة وما انطوت عليه من اجتماعات ومباحثات ومفاوضات وتصريحات .

احتمالات الوصول الى اتفاق مؤقت بين مصر واسرائيل اصبحت الان اكثر من الا من اي وقت مضى . وذكرت مصادر دبلوماسية في واشنطن ان اسرائيل باتت على استعداد لقبول تعهد مصري بعدم اللجوء الى استخدام القوة لفترة يجري الاتفاق عليها (٣ - ٥ سنوات) بدلا من شرطها السابق الداعي الى انتهاء حالة الحرب .

في الاسبوع الثاني من شهر حزيران وصل رابين الى واشنطن حيث عقد مباحثات مطولة مع الرئيس غورد وكيسنجر ووزير الدفاع الامريكي ولجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ولجنة الشؤون الدولية في الكونغرس . ولا شك ان رابين يشعر نفسه في موقع قوة لان أيا من « النتائج الخطرة » التي كان من المتوقع ان تسفر من فشل جهة كيسنجر السابق لم تتحقق . على سبيل المثال على الرغم من تفشيل اسرائيل لمساعي كيسنجر الاخيرة (على حد التفسير المصري الرسمي لاسباب فشلها) جددت كل من مصر وسوريا مدة انتداب قوات الطوارئ الدولية في المنطقة واعيد فتح قناة السويس في الموعد السذي كان مقررا سابقا ولم يحدث اي تقارب مصري سوفيائي بل على العكس من ذلك شهدت علاقات مصر بالسوفييات تدهورا جديدا كما ان حدة التوتر على جبهات القتال لم ترتفع بصورة ملحوظة . بعبارة اخرى يرى المنطق الاسرائيلي ان التشدد الذي اتسم به - حتى الى حد اغتيال مسعى السلام الامريكي الرئيسي - لم يؤد الى اية نتائج مؤيدة للموقف الاسرائيلي او المصالح الامريكية وتوجهاتها السياسية الراهنة .

على اثر محادثات رابين مع الرئيس غورد ذكر بيان صادر عن البيت الابيض ان البحث تناول الوسائل الممكنة لاعادة الزخم الى مساعي التسوية عن طريق المفاوضات . ووصف البيان المحادثات بانها تميزت بروح الصراحة والود التي اتصفت بها دوما العلاقات بين البلدين . وقد قدم رابين الى غورد شروط حكومته لاستئناف المفاوضات مع مصر . ونفى الناطق الرسمي باسم البيت الابيض نية الرئيس غورد والوزير كيسنجر تقديم

(٣) المناطق المحتلة

[١]

بأنه سيتخذ أشد الإجراءات ضد الطلاب الذين يحاولون القيام بمظاهرات أو « الاخلال بالامن » ، كما اعتقلت السلطات عددا آخر من المواطنين (القدس ١٤/٥/١٩٧٥) .

وكانت « القدس » قد ذكرت في عدد سابق لها ، ان سلطات الاحتلال قد قامت بحملة اعتقالات واسعة في الضفة الغربية ، وفي رام الله حيث احرق باص اسرائيلي ينقل العمال ، ثم اغلق عدة محلات وفرض منع تجول في المنطقة . وقالت انه قد القي القبض على عشرين عربيا في القدس يوم ١١/٥/٧٥ ، على اثر انفجار قنبلة يدوية في حي المصراة . وبهذه المناسبة قالت « القدس » ان الانفجار لم يسفر عن خسائر مادية او بشرية ، اذ ان القنبلة كانت تستهدف منع العمال العرب من العمل في اسرائيل . فالمكان الذي انفجرت فيه يعرف كمحطة لتجمع العمال (القدس ١٢/٥/٧٥) .

وعلى اثر حملة الاعتقالات التي قامت بها سلطات الاحتلال في منطقة جنين ، عقد المجلس البلدي جلسة جرى خلالها التداول بشأن حملة الاعتقالات ، ثم قام جميع اعضاء المجلس البلدي بمقابلة الحاكم العسكري للمدينة ، وطلبوا منه سرعة التحقيق مع المعتقلين والإفراج عنهم ، وخاصة المعلمين من مدرسة الزهراء الثانوية والطلاب الجامعيين وطلاب التوجيهي لقرب بدء الامتحانات السنوية (الشعب ١٢/٥/٧٥) .

وامتدت حملة الاعتقالات هذه الى قطاع غزة على اثر وقوع بعض العمليات العسكرية هناك . فقد ذكرت صحيفة معاريف الاسرائيلية ان قوات الاحتلال في غزة اعتقلت العشرات من العرب بتهمة الانتماء للمقاومة الفلسطينية . وأشارت الصحيفة الى ان حوالي ٤٠ شخصا قد اعتقلوا كل شهر في غزة الاخيرة (الشعب ١٣/٥/٧٥) .

وفي نطاق حملة الاعتقالات هذه ، اعلن ناطق عسكري اسرائيلي انه جرى اعتقال ستة من السكان العرب في منطقة رام الله خلال الايام

كان شهر ايار (مايو) الماضي شهرا حاصلا بالعمليات الفدائية في المناطق المحتلة وخاصة الضفة الغربية . وقد تركز جزء أساسي من هذه العمليات في مدينة القدس ، الامر الذي أثار قلقا اسرائيليا تبدي من خلال موجات الاعتقال الجماعية وحملات التفتيش والمداومة للسكان الفلسطينيين العرب .

واذا ما اعتبر شهر ايار شهر التصعيد العسكري من جانب المقاومة الفلسطينية* ، فانه يعتبر بالمقابل شهر تصعيد القمع الواسع من جانب سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، فقد ادعى المراسل العسكري لصحيفة معاريف الاسرائيلية ، ان قوات الامن القت القبض في اوائل شهر ايار على « اكبر شبكة سرية » تابعة للمقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٧ ، وذلك في منطقة جنين . وقالت « معاريف » ان التحقيق الذي دار على اثر مصرع سائق اسرائيلي في اوائل الشهر - ايار - هو الذي أسفر عن اكتشاف هذه الشبكة التي تضم أكثر من اربعين شخصا أغلبهم من الشبان . وادعت الصحيفة انه عثر لدى عدد كبير منهم على مواد ناسفة وقنابل . وفي معرض ذلك قالت الصحيفة « ومعروف انه قد تمت عمليات اعتقال واسعة النطاق في الخليل ورام الله وجنين وتابلس من الذين سبق ان اعتقلتهم السلطات الاسرائيلية في حوادث مماثلة » . وقالت الصحيفة القدس التي نقلت هذه الابناء عن الصحيفة الاسرائيلية ، ان سلطات الاحتلال قد ضاعفت من رقابتها داخل الاراضي المحتلة وعلى الطرق المؤدية لاسرائيل ، لتلافي وقوع عمليات فدائية . كما قامت باعتقالات « وقائية » تحسبا لما تثيره ذكرى الخامس عشر من ايار . وفي هذا النطاق استدعى الحاكم العسكري لمدينة القدس مديري المدارس في المدينة وانذرهم

* راجع جدول العمليات العسكرية التي قامت بها الثورة الفلسطينية خلال شهر ايار (مايو) في العديدين السابق والحالي من « شؤون فلسطينية » .

هؤلاء طلاب . وكان قد اعتقل في صفا كل من احمد ابو جابر وبكر محمد الحجة واحمد خليفة . ومددت سلطات الاحتلال توقيف رضا هبال العزاونة وعلي ابراهيم جودة وعمر الشيخ وجميل الخطيب وامين محمد الباجس وهم من موظفي سلطة المياه . كما اعتقلت المواطن محمد سلمان قوار من البيرة . (الشعب ٧٥/٥/٢٦) .

وفي قطاع غزة ، وعلى اثر الانفجار الذي وقع في خط سكة الحديد بين رمح وخان بونس ، اعتقلت سلطات الاحتلال خلال ٢٤ ساعة اعدادا كبيرة من المواطنين العرب (الشعب ٧٥/٥/٢٢) .

وبعد وقوع الانفجار في مدينة العفولة ، قامت سلطات الاحتلال بحملة اعتقال واسعة للمواطنين العرب في المنطقة واغلب هؤلاء من عمال المناطق المحتلة . وتدرت « الشعب » عددهم بالعشرات (الشعب ٧٥/٥/٢٨) .

اليهودي المتعاون مع المقاومة

كشفت الناطق العسكري الاسرائيلي النقيب يوم ٧٥/٥/٢١ عن ان قوات الامن قد اكتشفت قبل شهرين مجموعة من رجال المقاومة في منطقة الخليل وبيت لحم ، وقامت باعتقال عشرين من اعضائها ومن بينهم الدكتور ابراهيم ابو هلال وهو طبيب اسنان من بيت لحم .

وقال الناطق العسكري ان هذه المجموعة تنتمي الى الجبهة الشعبية وان اعضاها كانوا ينوون القيام بنشاطات مسلحة ولكن تم اعتقالهم قبل تنفيذها . وتم العثور في حوزتهم على كمية كبيرة من المتفجرات التي سرقت من الجيش الاسرائيلي من قبل مواطن اسرائيلي يدعى داني سعييل . وقد زودهم بهذه المواد المتفجرة وهرب الى الخارج قبل اربعة اشهر . وقد عثر في قرية دورا في منطقة الخليل قبل بضعة اسابيع على مخبأ للأسلحة يشمل بنادق من طراز ف.م. وكهيسة كبيرة من الفخيرة (الفجر ٧٥/٥/٢٢) .

وفي اليوم التالي اوردت الصحف الاسرائيلية بعض المعلومات عن الشخص الذي تعاون مع الفدائيين ، ومنها : ان داني سعييل الذي يبلغ من العمر ٣٦ سنة قد هاجر من العراق الى اسرائيل سنة ١٩٥٠ وسكن في مدينة الرملة .

الآخرة للاشتباه باشتراكهم في نشاطات مسلحة . وكان قد اعتقل في اواسط شهر ايار ٦٩ عربيا في منطقة جنين للاشتباه بقيامهم بنشاطات مماثلة . وقال الناطق ان العرب المسمتة من منطقة رام الله ، اعتقلوا للاشتباه بقيامهم بعدة اعمال « تخريب » بينها اضرار النار في معمل اسرائيلي في قرية النبي صالح في الثامن من نيسان (ابريل) الماضي ، وزرع عبوة متفجرة نسفت سيارة ركاب كبيرة وهي في طريقها الى تل ابيب ، وهجوم على سيارة كبيرة نقل عمالا من منطقة رام الله الى اسرائيل في ٧٥/٤/٢٣ . وقال انه عثر على متفجرات مع عدد من المعتقلين . وكان قاضي التحقيق في مدينة الناصرة قد امر بتوقيف خمسة من « عرب اسرائيل » للتحقيق معهم بتهمة التجسس وحباسة اسلحة . وقال البوليس الاسرائيلي ان هؤلاء الخمسة علاقة بمجموعة من ٦٩ عربيا من الضفة الغربية كانت قوات الاحتلال قد اعتقلتهم في الايام الآخرة (الفجر ٧٥/٥/٢١) .

واعتقلت سلطات الاحتلال في منطقة الخليل اربعة اشخاص للاشتباه بانتماهم لفتح . وقد اتهموا بوضع عبوة ناسفة في رغيف من الخبز في سوق محاتيه يهودا قبل حوالي ٩ اشهر ، ووضع عبوة ناسفة اخرى قرب كنيس يهودي في التلة الفرنسية ، ووضع عبوة اخرى في باص رقم ١٢- بالقدس في نيسان الماضي .

وفي دير البليح وبعد ان القيت قنبلة يدوية باتجاه دورية اسرائيلية يوم ٧٥/٥/٢٤ قامت سلطات الاحتلال باعتقال عدد من المواطنين العرب في القطاع (القدس ٧٥/٥/٢٦) .

ومعدت سلطات الاحتلال متن اجراءاتها التعسفية في منطقة رام الله على وجه التحديد . فبعد وقوع عدة احداث في المدينة ، تراوحت بين التفجير وحرق السيارات وكتابة الشعارات على الجدران ، فرضت سلطات الاحتلال حظرا على معاملات وتصاريح اهالي المنطقة وحرمتهم من السفر الى الاردن . وقامت السلطات العسكرية بتفتيش قرية كفر نعمة في قضاء رام الله بيتا بيتا ، واعتقلت كلا من المهندس الزراعي صقر الياس سلامه وشقيقه محمد محارب ، واعتقلت موسى جودت الديك وحيدر لطفي العبد من صفا . وجميع

الدفاع الاسرائيلي في دعوته وتحركه لبعث هذا المشروع ، قد خفت حدته في الفترة الاخيرة ، نتيجة الفشل المتلاحق لكل محاولاته في هذا المجال .

غير ان مشروع الادارة المدنية هذه لم يصرف النظر عنه لدى المراجع الاسرائيلية الداعية له . اذ ان الصحف الاسرائيلية عادت في الفترة الاخيرة لتكتب عن هذا المشروع .

فقد ذكر مراسل صحيفة « دانار » في الاراضي المحتلة ان السلطات الاسرائيلية بدأت محاولات جدية لتطبيق سياسة الادارة المحلية بالنسبة لسكان الاراضي العربية المحتلة . وقال ان الحكومة الاسرائيلية وافقت على هذه السياسة التي ستنفذ على مراحل بحيث يعين في النهاية مدراء عامون عرب في دوائر مختلفة الى جانب ضباط الحكم العسكري . واضاف ان بعض الذين يعالجون هذا الامر في سلطات الحكم العسكري يشكون في مدى نجاح هذه السياسة الجديدة ، وذلك نظرا لتحفظ عدد كبير من الوجهاء العرب تجاهها .

أما شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي الذي كان المبادر لهذه السياسة فانه يعتقد بأنه يستطيع اعطاء السكان العرب الكثير من الصلاحيات الادارية . ويقول مراسل « دانار » ان سياسة الادارة المحلية مبنية على اساس امكانية تحول السكان العرب الى الحكم الذاتي في المستقبل بحيث تكون المناطق المحتلة (الضفة الغربية وقطاع غزة) مرتبطة باتحاد فدرالي مع اسرائيل . ويضيف المراسل ان بيرس لا يريد الصدام مع الحكم الاردني وانه سيبحث في الحالة في الضفة والقطاع على ما هي عليه حاليا بالنسبة للملاقات مع الاردن (نقلا عن دانار ، صحيفة الفجر ٧٥/٥/٩) .

وفي وقت لاحق ذكرت « الفجر » نقلا عن صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية ان شمعون بيرس سيجري خلال الاسبوعين اللاحقين سلسلة لقاءات مع رؤساء البلديات وعدد آخر من شخصيات الضفة الغربية للباحث معهم حول الاساليب المفضلة لتنفيذ مشروع الادارة المدنية . وجاء في الخبر ان بيرس سوف يشرح في تلك اللقاءات تفاصيل مشروع الذي خلص من وضعه تقريبا . وكشفت « يديعوت احرونوت » في خبرها ان ضباط الحكم العسكري في الضفة الغربية يحاولون اقتناع

وتدعي الشرطة بأنه كان منها عدة قضايا جنائية وأمنية ، وانها قد اتهمته في السابق بالقيام بأعمال عدائية للدولة ثم اطلقت سراحه لعدم وجود أدلة ضده .

وقد التحق سميل بحركة الفهود السود سنة ١٩٧٠ وكان متحمسا لهذه الحركة واشترك في عدة مظاهرات نظمها الفهود السود ضد الفقر واستغلال اليهود الشرقيين ، واشترك في جميع نشاطات الفهود السود في القدس . وانتقل بعد ذلك من القدس الى تل ابيب ليمتد في عمله السياسي ومن اجل تنظيم اوسع للحركة . وقد أسس فرعا لحركة الفهود السود في مدينة الرملة . وحاول في تلك الاثناء تجميع جنود من الاحتياط لاستنكار ما يواجهه الجنود المسرحون من مشاكل من قبل الحكومة .

وبعد انسحابه من حركة الفهود السود في الفترة الاخيرة ، اقام حركة « القوة السوداء الثورية » للقضاء على التمييز القائم ضد العرب واليهود الشرقيين .

وقبل ستة اشهر سافر سميل الى اوربوا ممثلا لحركته الجديدة لشرح قضية اليهود الشرقيين امام الجمهور الاوروبي . وفي ذلك الحين اصدرت الحركة الجديدة بيانا قالت فيه ان سميل موجود في اوربوا ويقوم بجولة لشرح قضيتهم وسيعود قريبا الى البلاد (الفجر ٧٥/٥/٢٢) .

وعتبت مزال سميل زوجة دائمي سميل على تهمة زوجها بتسليم اسلحة للفدائيين الفلسطينيين والتعاون معهم فقالت ، انها مستغلبة محاكمة الجميع ، الجيش الاسرائيلي ، الشرطة ، الصحافة ، وذلك لان هؤلاء جميعا لم يمكنوا زوجها من « الحياة بكرامة في اسرائيل » . وقالت مزال سميل ان زوجها قد سافر الى الخارج ليفتح صفحة جديدة في حياته ، ورفضت الانصاح عن مكان وجوده (القدس ٧٥/٥/٢٤) .

المزيد من الادارة المدنية

بالرغم من ان سلسلة المحاولات الاسرائيلية لاقامة مشروع للادارة الذاتية في الضفة الغربية لم تنقطع منذ صدور قرارات مؤتمر القبة العربي في الرباط ، الا ان الحماس الذي أبداه وزير

العسكري. في المناطق المحتلة بمنح صلاحيات اكثر لسكان المناطق المحتلة في نطاق مشروع الادارة المدنية (الشعب ٧٥/٥/٢٢) .

واذاع راديو اسرائيل بعد ذلك انه تم تعيين عبد القادر عرفة مفتش عام لمكاتب الشؤون الاجتماعية في شمالي الضفة الغربية . وهو اول عربي يشغل هذا المنصب الذي كان يشغله في السابق ضابط اسرائيلي . كما عين مدراء جدد لمكاتب الشؤون في رام الله ، نابلس وجنين (الشعب ٧٥/٥/٢٢) .

اما في مجال التربية والتعليم فقد عرض على احد المواطنين العرب تسلم منصب « ضابط للتربية » في نطاق الخطوات التمهيدية لمشروع الادارة المحلية . وقالت « الشعب » التي اوردت هذا النبا ان المدير المذكور يحاول الاسراع في احضار الموافقة الرسمية الاسرائيلية عن طريق احد التقليديين المعروفين في الضفة الغربية (الشعب ٧٥/٥/٢٧) .

ومن الجدير بالذكر ان شمعون بيرس قد قام في اواخر شهر ايار (مايو) الماضي بسلسلة زيارات شملت مختلف مدن شمالي الضفة الغربية . ورغم ما كان يوجهه من تحذير للسكان العرب خلال جولته هذه فقد جوبه باستنكار شديد لسياسة القمع والارهاب والامتقالات الجماعية التي تقوم بها اسرائيل ضد السكان العرب في المناطق المحتلة .

عيسى الشعيبي

رؤساء البلديات وكبار موظفي الدوائر الرسمية بأن المشروع يتعلق بإنشاء اطار اداري مدني هدفه ادارة تلك الامور لتقليص تدخل الاسرائيليين في هذه المجالات ، وانه ليس للمشروع اي هدف سياسي وهو لا يهدف الى انشاء كيان تابع لاسرائيل في المناطق المحتلة . وتقول الصحيفة ان حملة الاقناع هذه هدتها تشجيع تلك الشخصيات ومنع فشل المشروع كما حدث في السابق (الفجر ١٢/٥/١٩٧٥) .

ونقلت جريدة « الشعب » تفاصيل اخرى عن خبر صحيفة يديعوت احرونوت قائلة ان بيرس قد بلور مشروعه للحكم الذاتي الذي يتضمن امكانية توسيع صلاحيات ثلاثة موظفين عرب من رام الله ونابلس يعملون في مجالات الزراعة والصحة والتعليم ، بشكل كبير . ويشرح ممثلو الحكم العسكري ذلك الى رؤساء بلديات الضفة الغربية بتولهم : ان المقصود هو اقامة « اطار اداري مدني » فقط ، يكون مسؤولا وحيدا عن ادارة الشؤون المدنية والادارية ، مع محاولة تصوى لتقليص تدخل الاسرائيليين في هذه المواضيع . ويضيف ممثلو الحكم العسكري ان المقصود ليس خطة ذات صبغة سياسية وانه لا يجب رؤية ذلك كمحاولة لخلق شخصية سياسية في المناطق المحتلة (الشعب ٧٥/٥/١٣) .

أكد كل ذلك بيرس في تصريح له مع راديو اسرائيل بقوله ان هناك نية لدى سلطات الحكم

[٢]

سلطات الاحتلال تواصل عمليات نهب الاراضي وطرد البدو من مشارف رفح

وهضبة الجولان . ولكن هذه العمليات تزايدت احيانا في منطقة دون سواها . ويلاحظ ان النشاط الاستيطاني الاسرائيلي يركز حاليا على منطقة مشارف رفح وذلك ، كما يبدو ، لخلق اوضاع معينة في شمال غرب سيناء ، على الحدود الدولية الفلسطينية المصرية لجباية اية اوضاع سياسية قد تنشأ في المستقبل .

يصف الاسرائيليون مشارف رفح بأنها منطقة

تقوم سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، في الآونة الاخيرة ، بنشاط مكثف لخلق المزيد من الحقائق الاستيطانية في المناطق المحتلة ، وذلك بالاستيلاء على الاراضي العربية واقامة المستوطنات الاسرائيلية عليها . وعمليات الاستيلاء على الاراضي العربية لم تقتصر ، على اي حال ، على منطقة دون سواها ، بل شملت كافة المناطق المحتلة من مشارف رفح وقطاع غزة الى الضفة الغربية

خطرا أمنيا من الدرجة الاولى . وكشف النقيب ايضا عن ان هناك رأيا متفق عليه لدى العديد من الاسرائيليين « بأنه لا يجوز بأي حال السماح بعودة جيش عربي الى قطاع غزة . . . ان وجود مدرعات عربية في القطاع اخطر كثيرا من وجود الجيش السوري في هضبة الجولان . وليس هذا بحسب ، بل ان بقاء القطاع نظيفا من اليهود لا يدعم حكم الفدائيين في المنطقة فقط ، بل يؤدي بالسكان الى ان يطلبوا في المستقبل ، الحكم الذاتي والانفصال التام عن اسرائيل » (زئيف شيف - هآرتس ، ١٩٧٢/٢/٢١) .

وأضيف ايضا « مبرر اممي » آخر لعمليات السلب تلك، وهو ضرورة السيطرة الاسرائيلية على المنطقة للحيلولة دون نقل معظم الاسلحة والقتال والمتفجرات الى القطاع عن طريق مشارف رفح « بالتعاون بين الفدائيين والبدو » ، اذ يقال ان هناك مستودعات سرية ضخمة من الاسلحة كان الجيش المصري قد تركها في سيناء ، تشكل مصدرا كبيرا للسلاح الذي تزود به الفدائيون . وبواسطة فصل هذه المنطقة عن سيناء يتم القضاء على اكبر مصدر سلاح للفدائيين .

ومن الواضح ان هذه الاسباب والحجج لم تنطل على الكثيرين ، ولا حتى على الاسرائيليين انفسهم ، الذين رأوا في هذه الخطوة محاولة لعرقلة مساعي السلام في المنطقة ، وقد تكون لها علاقة باقتراح هرتسل اقامة دولة يهودية في منطقة العريش . ولكن هذا لا ينفي وجود فئات اسرائيلية عديدة ، تطالب بضم هذه المنطقة الى اسرائيل ، واقامة حاجز من المستوطنات اليهودية فيها ، لتكون بمثابة الدرع الذي يواجه اي هجوم عربي محتمل . ومن الواضح ايضا ان الدوافع التي عملت على اتخاذ مثل هذا القرار ، هي اسامسا سياسية وتوسعية ، تقوم الحكومة الاسرائيلية بتنفيذها ، بموجب « وثيقة فليفي » ، ولكن دون ضجة او تهليل .

كيف تمت عملية الاستيلاء ؟

بعد احتلال اسرائيل لقطاع غزة وشبه جزيرة سيناء بفترة قصيرة ، بدأت سلطات الاحتلال بتنفيذ مخططاتها الاستيطانية والتوسعية في تلك المناطق ، بصورة سرية ودون الاعلان عنها شيئا . ويبدو ان تنفيذ هذا المخطط تم من خلال الرأي المساند بأن

« مساحتها وحدودها غير معرفة تماما ، تقع على جانبي خط الحدود الانتدابي ، بين قطاع غزة ومنطقة العريش في سيناء . ويحد البحر المتوسط القسم الشمالي من مشارف رفح ، بينما يقع القسم الجنوبي منها ، جنوبي الطريق الرئيسي رفح - العريش . وأقرب مستوطنة اسرائيلية للمنطقة (اقيمت قبل حرب ١٩٦٧) هي كيرم شالوم . ويمكن القول ، بصورة عامة ، ان مشارف رفح هي بمثابة « اصبع » يفصل قطاع غزة ويعزله عن شبه جزيرة سيناء » (هآرتس ، ١٩٧٢/٥/١٨) .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد اتخذت بعد حرب ١٩٦٧ قرارا (داخليا وليس رسميا) يقضي « بأن طرف المنطقة ذات المليون دونم ، وهي طرف البلاد « المحررة » ، يجب ان يكون الحدود الغربية لاسرائيل مع مصر .

« واذا كان المقصود بلادا « محررة » - اضافت وأقرت الحكومة - فانه يجب عدم ترك حدودها مفتوحة للبدو الرحل ، ولجامعي السلاح والمتاجرين به ومهربى المخدرات وللشركاء المحتلطين مع منظمات التخريب . لهذا يجب توطين المنطقة باستيطان [يهودي] قروي ومدني كثيف ، يشكل حاجزا بين الصحراء ودولة اسرائيل » (آرييسه أفنيري - داغار ، ٧٥/٢/٢٦) .

تشهد منطقة مشارف رفح ، في هذه الفترة ، الحملة شبه النهائية في طرد البدو وسلب اراضيهم ، بعد ان تم اغلاق معظم الاراضي وابعاد اصحابها عنها بواسطة كافة وسائل الضغط والارهاب . ولم يبق من السكان هناك سوى عدد قليل ، بعد ان ابعدت حتى الان نحو ١٥٢٨ عائلة من المنطقة . ويبدو ان اسرائيل قد اقرت نهائيا عدم التخلي عن هذه المنطقة ، ولهذا تعمل على زرعها بالمستوطنات الاسرائيلية ، واخلائها من اصحابها الشرعيين .

الحجج والمبررات الاسرائيلية لعملية الاستيلاء

وكما درجت العادة في اسرائيل لتبرير مخططاتها التوسعية وعمليات النهب والطرود التي مارستها منذ قيامها بالعامل الامني ، كان لهذا العامل ايضا نصيب كبير في تبرير قيامها بسلب الآلاف الدونومات وطرود الآلاف من السكان العرب من تلك المنطقة . ولتبرير عمليات السلب هذه ، ادعى البعض بأن ابتداء الطريق مفتوحا بين قطاع غزة وسيناء ، يعتبر

أقامة المستوطنات في تلك المنطقة لن يفيد شيئا من الناحية العسكرية ، إذ كانت القرى العربية منتشرة داخلها. ولهذا بدأت السلطات الاسرائيلية ، بحملة تنويه واسعة ، فقامت بتسييج مساحات معينة من الاراضي في هذه المناطق بحجة الضرورة الامنية . واتعمت السلطات الاسرائيلية ، في البداية ، اسلوبا لينا ومرنا مع اصحاب هذه الاراضي ، فسمحت لهم بعد تسييجها بفلاحتها وزراعتها ، وبعد ذلك بفترة منعهم من الدخول اليها ، ثم اجبرتهم على التوقيع على وثائق تنازل عنها . وهذا ما كشفته مذكرة قام وفد من حزب ميام بتسليمها الى رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، مؤكدا فيها ان السلطات العسكرية « تستعمل الضغط والتهديد والاعتقال والاجبار على توقيع وثائق تنازل ، بما في ذلك توقيع مزورة ، واجبار الاولاد (حتى أبناء ٩ سنوات) على توقيع وثائق تنازل كهذه » (معاريف ، ٢٦ / ٨ / ٧٤) .

وتم خلال عام ١٩٦٩ ، تسييج نحو ٢٠ الف دونم اقيمت عليها مستوطنات دكله وسدوت وثيف هعسراه . وخلال عام ١٩٧٢ تم تسييج نحو ١١٠ آلاف دونم اخرى ، وياشرت سلطات الاحتلال باقامة المركز الاستيطاني الاقليمي افشلوم ، وهو عمليا المدينة « بيت » ، التي من المقرر ان تتوسع كثيرا بحيث ستصبح مركزا صناعيا ، وربما تتحول مع الوقت الى « مدينة ميناء جنوبية » تتم عن طريقها تجارة اسرائيل (دافار ، ٢٦ / ٣ / ٧٥) . ومن جهة اخرى اعلن المقدم شموئيل ، الناطق باسم الحكم العسكري في قطاع غزة (الذي يشمل مشارف رفح) ان نحو ١٢٣ الف دونم من الاراضي العربية قد صودرت منذ ١٩٦٩ وحتى الان ، منها ٢٠ الف دونم مزروعة بالفواكه ، و٤٩ الف دونم ارض بور او مزروعة بأشجار النخيل و٥٨ الف دونم صالحة لزراعة التمح والشعير بمزورة خاصة (المصدر نفسه) . كذلك هدمت عشرات البيوت وردمت عشرات الابار التي يحصل منها السكان على مياه الشرب .

حملة ضد مصادرة الاراضي

كانت السلطات الاسرائيلية ، كما ذكرنا ، قد بدأت بنهب هذه الاراضي وطرد اصحابها منها بمزورة سرية ، بينما منعت الرقابة العسكرية نشر

ومن ناحية ثانية ، قام السكان في مشارف رفح بحملة اعلامية واسعة اتصلوا خلالها بالصليب الاحمر ، وبعثوا ببرقية الى الامم المتحدة مطالبين فيها بالعمل على افشال المخططات الاسرائيلية التوسعية وايقانهم في اراضيهم .

وازاء هذه الحملة العنيفة ضد السلطات الاسرائيلية سواء في داخل اسرائيل او خارجها ، لم يعد بوسع المسؤولين الاسرائيليين تجاهل ما حدث او التفاضي عنه ، فلجأوا الى اتخاذ اجراءات استعراضية « مضادة » ، بحيث قام رئيس الركان

مسبق ومدروس ، بل بطريقة عشوائية ، وان أسلوب تسييج الأراضي واجلاء البدو كان غير سليم ، لانه بدلا من تخطيط قري البدو من جديد بأوضاع ملائمة ، « كان اول ما فعلناه ابعاد [البدو] من املاكهم وتركهم بدون مصادر عيش ، واثارتهم ضد الظلم الذي ارتكب ضدهم ... وبدلا من الاقتراح على البدو اراض اخرى قبل الاجلاء ، او الاقتراح عليهم تعويضات يقبلها العقل ، ابعدوا بالقوة من الارض » (ارييه افنيري - دافار ، ٧٥/٤/١) .

ويبدو ، من جهة اخرى ، ان المطالبة باصلاح الوضع في هذه المنطقة ، اسفرت عن تحرك في هذا المجال ، اذ قدم الدكتور رengan فايتس ، رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، مشروعا الى اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان يقضي بدمج البدو في مشاريع تطوير منطقة رفح . ويهدف هذا المشروع الى اعادة اسكان كافة البدو الذين طردوا من مشارف رفح ، في قري خاصة بهم ، تدمج مع الموشافيم والكيوتسات التي اقيمت وستقام في هذه المنطقة . وسيتم اسكان نحو الف عائلة من التي تم اجلاؤها ، في بلدة ستقام في « المنصورة » شمال شرق مغرق افشلوم (معارف ، ٧٥/٥/٧) .

ووزعت مؤخرًا في الدهنية ، الكائنة في مشارف رفح ، اراض زراعية على عائلات البدو في المنطقة . ومن الجدير بالذكر هنا ان البدائل التي تقدم لصاحب الارض هي : (أ) ، مساعدة مالية مرة واحدة ببلغ ٧٥٠٠ ليرة اسرائيلية ، (ب) الحصول على وحدة سكنية في الهي الذي اقيم خارج المنطقة المسيجة ، (ج) الحصول على ٥ دونمات ارض (بدون بيت ووسائل انتاج) ، (د) ارض اخرى (بعل وبور) خارج مشارف رفح . وعلق احدهم على نوعية البيوت التي تقدم للبدو بقوله : « ان هذا البيت هو عار لدولة اسرائيل ولائحة اتهام بأيدي اعدائنا في الخارج ومعارضي الاستيطان في الداخل ، وان التعمير ببلغ ٧٥٠٠ ليرة مضحك » (ارييه افنيري - دافار ، ٧٥/٢/٢٦) .

حمدان بدر

« بتوبيخ » اثنين من كبار الضباط ونقل ضابط آخر من مركزه ، لايهام الراي العام ، بأن العملية كانت مجرد مخالفة ، قام بها بعض العسكريين ، وان الامور ستعاد الى مجراها الطبيعي . ولكن الواقع يشر الى عكس ذلك تماما ، اذ ان السلطات السياسية هي التي امرت الجهات العسكرية بتنفيذ ذلك (ويقال ان الجنرال شارون هو الذي نفذ عمليات الطرد تلك ، عندما كان قائدا للمنطقة الجنوبية ، ومن خلال « تجاوز صلاحياته ») . كذلك اصدرت محكمة العدل العليا في القدس لمرين مع وقف التنفيذ (الغيا فيها بعد) ضد حكومة اسرائيل وقائد المنطقة الجنوبية وقائد قطاع غزة وشمالسي سيناء ، تطلب فيهما توضيح مبررات عدم السماح للقبائل البدوية التسع بالعودة الى املاك سكناهم في مشارف رفح . وصدر الامر ان بناء على طلب تسعة من رؤساء القبائل الذين تقدموا بشكوى الى المحكمة (دافار ، ١٩٧٢/٨/٨) .

ويذكرنا هذا القرار الشكلي الذي لم يكن له أي مفعول بذلك القرار الذي اتخذته المحكمة نفسها في بداية الخمسينات ، ضد حكومة اسرائيل ، عندما امرت باعادة اهالي قريتي اقرت وكفر برعم الى بلديتهما ، بعد ان طردوا منها ، ولكن كما هو معروف لا يزال هذا القرار الصادر من اعلى محكمة في اسرائيل ، حتى اليوم حبرا على ورق . ولم تكن السلطات الاسرائيلية عاجزة ، على اي حال ، عن تبرير هذا الاجراء التعسفي ضد القبائل البدوية ، اذ قدم الجنرال يسرائيل طال ، رئيس شعبة العمليات في ذلك الوقت ، جوابا خطيا الى محكمة العدل العليا ، شرح فيه اسباب اجلاء البدو عن مشارف رفح بقوله « ان مشارف رفح استخدمت خلال فترة طويلة بركانا وبؤرة لنشاط تخريبي نفذه سكان المنطقة او غرباء بمساعدة السكان . وقد قرر قائد المنطقة الجنوبية ، عزل قطاع غزة عن مصادر الاسلحة والذخيرة في سيناء ، للسيطرة على النشاط التخريبي في القطاع » . (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٢/٩/١٩) .

المطالبة باعادة تخطيط مشارف رفح

انتقد البعض الوضع القائم في مشارف رفح بقوله ، ان كل ما يحدث هناك تم بدون تخطيط

ان الاتحاد السوفياتي يريد « اغراء » اسرائيل للذهاب الى جنيف ، ويتحدث عن « الضمانات » لها بهدف جعلها على الانسحاب الى حدود عام ١٩٦٧ ، ولذلك حاول ايضا اقتناع المسؤولين العرب وياسر عرفات بالاعتراف بحدود عام ١٩٦٧ . ولاحظ البعض تغيرا بسيطا في موقف الاتحاد السوفياتي من الانسحاب من الاراضي المحتلة بموجب القرار ٢٤٢ ، وبدا لهم انه يقبل الان بتعديلات طفيفة في الحدود ، ولكنهم يعتقدون ، رغم ذلك ، ان « هدف الاتحاد السوفياتي هو خلق حالة من الضغط على اسرائيل » (يوئيل ماركوس — هارتس ، ٧٥/٥/٩) .

ضجة حول فتح السويس ... والجبهة الاردنية

بعد اعلان الرئيس السادات عن نيته بفتح قناة السويس في ٥ حزيران ، اثارت وسائل الاعلام الاسرائيلية ضجة حول عبور قوات مصرية الى شرق القناة ، بهدف حماية الملاحه فيها . واثارت بعض الدوائر الاسرائيلية الى ان مصر قد لا تقوم بذلك ، لان هذا العمل سيكون مناقضا « لخط الاعتدال » الذي اتبته السادات حتى الان ، وان الولايات المتحدة تعتقد ان مصر لن تقوم بذلك للاعتبار نفسه ، وسترى في ذلك — فيما اذا وقع — خرقا لاتفاقية فك الارتباط من قبل مصر . ولكن جهات اخرى تعتقد ان مصر قد تستغل لقاء سانزبورغ « كسبتر للقيام بهتل هذه العملية » (اهود يفرى — دانار ، ٧٥/٥/٧) . ويؤكد البعض ان مصر تفكر في الخيار العسكري وتخطط له بالتنسيق مع سوريا وغيرها من الدول العربية . « نأذا نجح السادات في دفع مورد الى الاعلان ان امريكا لا تؤيد احتلال اسرائيل ، واذا رفضت اسرائيل الانسحاب ، فستكون هذه افضل ارضية للحرب الخامسة بالنسبة للعرب » (عوديد زراي — هارتس ، ٧٥/٥/٨) . ويبدو ان القصد من افتعال هذه الضجة هو تشويه « مظهر الاعتدال » الذي يبدو فيه السادات لامريكا ، « حيث ان واضعي السياسة الامريكية ، يصرّون على اعتقادهم ، ان اسرائيل تظهر التصلب في حين يظهر العرب الاعتدال » (يوهان لاهاف — يديموت ارونوت ، ٧٥/٥/٦) .

ورافقت هذه الضجة حول قناة السويس ، ضجة

الاتحاد السوفياتي متفق مع الولايات المتحدة حول الانسحاب الى حدود حزيران ١٩٦٧ ، مع تعديلات طفيفة » (المصدر نفسه ، ٧٥/٥/٧) . وازداد اخر معلقا على هذه الناحية بقوله ان الولايات المتحدة ترى وجوب وضع الحدود النهائية حسب « خطة دين راسك المؤلفة من ٦ نقاط » او حسب « خطة روجرز » والخطتان « تدعوان الى الانسحاب الكامل تقريبا » (المصدر نفسه) ، وعليه ، يعتقد البعض (دان مرغلث — هارتس ، ٧٥/٥/٩) ، ان ما تسمى اليه اسرائيل حقيقة هو تأجيل مؤتمر جنيف وترغب في أن لا يحدث غروميكو وكيسنجر في لقاء غيننا ، بتاريخ ١٩/٥/٧٥ ، موعدا لاتعاذه . واما الولايات المتحدة ، فمتهمة بالحصول على مقترحات جديدة حول « تسوية شاملة وليس جزئية . ويبدو ان امريكا منفتحة حول ذلك مع الاتحاد السوفياتي ، وان حفظ الملك حسين اثر لجهة اتخاذها هذا الموقف الجديد . ويبدو ايضا ان امريكا تريد ان تعرف من اسرائيل الان ما هي الحدود التي تريدها » (المصدر نفسه) .

ومن ناحية ثانية ، ورغم ان البعض يعتقد ان الولايات المتحدة لم تتخل عن فكرة الحل الجزئي ، يرى انها « في نطاق اعادة تقييم سياستها ستقرر ضرورة انسحاب اسرائيل الى حدود حزيران ١٩٦٧ ، مع تعديلات طفيفة » (اريئيل غيناي — يديموت ارونوت ، ١٩٧٥/٥/٩) . ولهذا ينبغي على حكومة اسرائيل تقديم مقترحات جديدة ، بدون الاعلان عنها مقدما . وذكر معلقون آخرون ان الولايات المتحدة فحمت الحل الجزئية حسب مبدأ يتسحاق رابين : « قطعة ارض مقابل قطعة سلام » ، لانها ارادت لنفسها ثمنا جديدا من العرب ، مقابل كل « تنازل » اسرائيلي جديد ، ولكن هذه السياسة فشلت . ولذلك « بدأت السياسة الامريكية تعود الى خطة روجرز » (جدمون سامط — هارتس ، ٧٥/٥/١٥) .

اما بخصوص العلاقات مع الاتحاد السوفياتي فيرى معظم المعلقين الاسرائيليين ان موقفه الاساسية من قضية الشرق الاوسط لم تتغير ، رغم وجود « نبرة جديدة » في التصريحات السوفياتية الاخيرة تجاه اسرائيل . ويعتقد هؤلاء

السابق ابا ايبن الى الحكومة الاسرائيلية ، معتبرا انها المسؤولة عن فشل مهمة كيسنجر ومطالبها بالقيام بـ « مبادرة سلام » جديدة . ففي مقابلة مع معاريف ٧/٥/٧٥) اعلن ايبن انه كان يعارض تسوية جزئية مع مصر ، « ولكن اذا كانت اسرائيل قد بدأت المفاوضات ، فقد كان عليها ان تقبل بالاتفاق ... ونتيجة لموقف حكومة اسرائيل هذا ، أصبحت العلاقات مع اميركا اسوأ مما يبدو للعيان . فهي لا تتسق مع اسرائيل قبل تزويد الاردن بالاسلحة ، كما كانت تفعل دائما . وبدلا من ان تتسق مع اسرائيل قبل لتناء فورد السادات ، نسقت مع مصر قبل مقابلة فورد رايبين » . واضاف ايبن : « لقد كان جليا كالمشمس ان مصر لن تقبل بالغاء حالة الحرب . وحتى في سنة ١٩٧١ قدم لي رجل تاتون اسرائيلي مذكرة ، جاء فيها ان مصر ، فيما اذا وافقت على الغاء حالة الحرب لغاء انسحاب اسرائيلي من بعض المناطق في سيناء ، فان هذا يعني حسب كل السوابق التاريخية انها تنازلت لاسرائيل عن بقية المناطق واعطتها الحق في ضمها » (المصدر نفسه) .

وذكر بعض المرسلين الاسرائيليين ان تصريحات ايبن هذه « لاقت ارتياحا واهتماما من قبيل المسؤولين الاميركيين الذين يتوقعون ان يحدث ضغط داخل اسرائيل ، يدفع رايبين الى جلب مقترحات جديدة الى واشنطن » (شموئيل سيفغ - معاريف ، ١١/٥/٧٥) . وكان موشي دايبان أيضا قد دعا الحكومة الاسرائيلية الى تجديد المفاوضات مع اميركا قبل ان تتوصل الى اتفاقات مع مصر ومع السوفييت ، فتجد اسرائيل نفسها امام الامر الواقع (معاريف ، ٥/٥/٧٥) .

وعلمت بعض المصادر على تصريحات ايبن « المعادية » للحكومة الاسرائيلية ، التي اشارت نقاشا واسعا داخل التجمع العمالي الحاكم ، بقولها ان ايبن يهدف من وراء تصريحاته تلك الى منافسة رايبين على رئاسة الحكومة المقبلة . وذكر آخرون ان كيسنجر « التقى مع اعداء لرايبين مثل ايبن ودايان ، اللذين يقدمان مقترحات مناقضة لمواقف الحكومة » (يديعوت احرونوت ، ٥/٥/٧٥) . وذكر ايضا ان الوزير السابق بنحاس سابير يعارض سياسة الحكومة الحالية ، وان حزب ميام ، المتحالف مع حزب العمل في اطار

اخرى حول الجبهة الاردنية ، بينما « اتهمت » دوائر اسرائيلية مختلفة الاردن بتقريب قواته المدرعة الى نهر الاردن . كذلك كثر الحديث عن تقارب اردني - سوري ، وعن وعد سوري للاردن بتوفير مظلة جوية له ، وعن تصريح للملك حسين حول اشتراكه في الحرب القادمة . وشارت هذه الضجة بعد نشر معلومات حول قرار اميركا ببيع ٢٠٠ صاروخ هوك للاردن ، الامر الذي استدعى تقديم « احتجاج » الى واشنطن بواسطة سفير اسرائيل هناك . وشكا العديدون من موقف الولايات المتحدة ، بعد الاعلان عن صفقة الصواريخ تلك ، لانها لم تجر اتصالا مسبقا مع اسرائيل حسب هذه « السابقة » ، مما يدل على تغيير في سياستها تجاه هذا الموضوع من جهة ، بينما لا تزال « تؤخر » مقد صفقات اسلحة جديدة الى اسرائيل « بحجة » اعادة تقييم سياستها في الشرق الاوسط ، ولكنها رغم ذلك تباع الاسلحة الى الاردن والسعودية ، من جهة ثانية (يديعوت احرونوت ، ٧/٥/٧٥) .

وهنا أيضا تد تكون هذه الضجة حول الجبهة الاردنية نوعا من « الضغط » على اميركا بهدف حملها على الاسراع في ارسال صفقات جديدة من الاسلحة لاسرائيل او لخلق ظروف اسهل بالنسبة لاميركا للقيام بمثل هذه الخطوة لحفظ « التوازن » .

ومن ناحية ثانية اشار بعض المرسلين الاسرائيليين في واشنطن ان تصريحات الملك حسين المعتدلة اثناء زيارته الاخيرة لواشنطن « جعلت حياة الدبلوماسيين الاسرائيليين صعبة » (شموئيل سيفغ - معاريف ، ٩/٥/٧٥) . وقد يكون القصد من الحديث عن توتر عسكري على الجبهة الاردنية بالذات تشويه « طابع الاعتدال » هذا الذي تركه الملك حسين لدى الاميركيين . وعلى أية حال طالبت معظم الدوائر الاسرائيلية « بمزيد من الانتباه الى ما يجري على الجبهة الشرقية » (افتتاحية داغار ، ٥/٥/٧٥) .

صراع في المعراخ حول التسوية

تشير الاتباء الواردة من اسرائيل مؤخرا الى وجود صراع داخل المعراخ (التجمع) الحاكم حول التسوية السياسية . وكل من أبرز علامات هذا الصراع الاتهامات التي وجهها وزير الخارجية

القادمة بدعم اميركي حقيقي ، دون أن تدرك ان الخيار الوحيد اليوم هو : الاستعداد للتسوية الشاملة » (جدعون سامط - هارتس ، ٥/١٥ / ٧٥) . و اضاف المراسل نفسه ، مذكرا حكومته ، « لم تكن هناك سابقة رفض الجمهور الاسرائيلي بموجبها قرارا سياسيا اتخذته [الحكومة] وانسحاب اسرائيل من سيناء عام ١٩٥٧ يثبت ذلك ... ان الخيار امام راين اليوم : اميركا او المندال » (المصدر نفسه) . ولهذا يبدو ان ضعف موقف راين داخل حكومته وخوفه من تفسخ الائتلاف الحكومي (حيث ان الحزب الديني القومي دخل الائتلاف بشرط اجراء انتخابات جديدة قبل التوقيع على أي انسحاب من الضفة الغربية) ، بالإضافة الى الوضع العام داخل الأحزاب الاسرائيلية الأخرى ، هو العامل الرئيسي في كون حكومة اسرائيل مشلولة ازاء اتخاذ قرارات حاسمة .

ورغم ذلك ، هناك اصوات اخرى في اسرائيل تنطلق في تعليقاتها من الدعوة لاستمرار تصلب الحكومة الاسرائيلية ، وهي لذلك ترى ان الحرب الخامسة حتمية : « لقد كان واضحاً منذ نهاية الحرب الماضية ان الحرب القادمة لا مفر منها . وهذه الحرب ستبدأ عندما تكف اسرائيل عن الانسحاب بدون مقابل . وان حسين الذي أقام جيشاً يلفت النظر ، سيشارك في هذه الحرب ... لذلك علينا ان نكون مستعدين في كل وقت ، وليس في « التواريخ » المحتملة فقط ... » (أوري دان - معاريف ، ٧٥/٥/٩) .

يوسف حمدان

المعراخ (التجمع) ، يهدد المعراخ بالانسحاب منه اذا لم تقم اسرائيل بمبادرة سلام جديدة ، ولم ترسم الحدود النهائية التي تريدها .

وأيد بعض المراسلين الاسرائيليين قول كيسنجر ان السبب الرئيسي لفشل وساطته في المفاوضات الاخيرة هو ضعف حكومة راين ، مكتب احدهم (يونيل ماركوس - هارتس ، ٧٥/٥/٩) معلقاً على هذا الموضوع بقوله : « هناك وزراء ليس لديهم رأي واضح . توجد لدى الون خطة محددة بخصوص الضفة الغربية ، أما رابنوفيتش وبارليف وعوفر وتسادوك وشمطوف ويديلين [وزراء المالية والتجارة والصناعة والاسكان والعدل والصحة والمعارف والثقافة] فيدعون الى تنازلات اقليمية بعيدة المدى . وفي الحزب نفسه [الممسل] اعضاء مثل دايان واين ، لديهما رؤيا واضحة ، ولكنهما لا يناضلان من أجلها داخل الحزب ... » ولهذا ، في مثل هذا الوضع « من الصعب على راين ان يقترح اجراء نقاش في حزبه حول خطة محددة قبل لقائه مع فوردي ، لانه لا يشعر بأن لديه القوة الكافية لان يتحمل نتائج هذا النقاش المصري . فحزبه مفكك ، ويخشى ان يتحطم الائتلاف الحكومي » (المصدر نفسه) .

ودعا اكثر من معلق يتسحاق راين الى قيادة اسرائيل لمبادرة جديدة ، من خلال الاعتراف بأن مرحلة الحل الجزئية قد انتهت ، خاصة وان الدلائل تشير الى ان اميركا فقدت الاجل بمثل هذه الحلول . « ان الخطر وهم يمكن ان تقع اسرائيل فيه هو [اعتقادها] انها تستطيع خوض الحرب

[٢]

الفساد في المؤسسات الاسرائيلية يصل الى جهاز الامن تقرير مراقب الدولة يكشف عيوب الادارة الاسرائيلية

الفضائح . وادى اكتشاف قضايا الرشوة هذه الى اعتقال عدد من كبار العاملين في جهاز الامن بتهمة الحصول على رشوات من بعض الشركات والمصانع لتسهيل حصولها على المناقصات التي تعلن عنها وزارة الدفاع لشراء ما يلزمها من

كان جهاز الامن الاسرائيلي ، الذي يشمل وزارة الدفاع والجيش ، مسرحاً في الاونة الاخيرة لعدة قضايا رشوة وفساد ، أدت الى خلق عاصفة واستياء شديدين بين السكان ووسائل الاعلام في اسرائيل ، بعيداً كل البعد عن ارتكاب مثل هذه

وشركة المياه مكوروت . ويبدو ان هذه القضايا ليست جديدة على المجتمع الاسرائيلي ، اذ لا زلنا نذكر قضايا الاختلاس والسرقة في شركة النفط الاسرائيلية « نتيقي نط » وشركة المقاولات « نيرد » وشركة السيارات « اوتوكارز » ، التي اكتشفت جميعا في عهد الحكومة السابقة . غير ان الجديد في قضايا الفساد الراهنة هو كثافتها ، التي تجاوزت ما يمكن اعتباره « حالات شاذة » على حد قول رئيس حكومة اسرائيل يتسحاق رابين (هارتس ، ٧٥/٤/٢٤) ، ثم وصولها الى جهاز الامن الاسرائيلي ، « غامام ايغينا نحت البقرة المقدسة » ، التي تربت على الدلال خلال الـ ٢٧ سنة الاخيرة - انها جهاز الامن ، الذي استثمرت به اكثر الاموال والامكانات . والان اتضح ان الحليب الذي تمنحه هذه البقرة المقدسة فاسد قليلا ، ربما لعدم توفر رقابة كافية عليها « (ارييه اغنيري - يديعوت اهرنوت ، ٧٥/٥/٤) . ويبدو ان قضايا الفساد هذه ليست جديدة في جهاز الامن الاسرائيلي ، بل هي وليدة سلسلة من الاخطاء حدثت في الماضي . ويعتقد مراقب الدولة ، دكتور ي. نفتسائيل (من مقابلة معه في دافار ، ٧٥/٥/٢) انه « اذا كان هناك شعور بان كل شيء على ما يرام في الجيش ، فان هذا الشعور ليس له تغطية . لقد اشارت رقابة الدولة في الماضي والحاضر الى اخطاء في جهاز الامن ... لا اعتقد ان قيادة جهاز الامن نفسها اعتقدت ان كل شيء حسن عندها . حدثت تحقيقات ومحاكمات عسكرية واستنتاجات رقابة داخلية ، تشهد كلها امام القيادة ، ان الامور لم تكنصالحة ... »

تقرير مراقب الدولة - وثيقة حول انتشار الفساد

اعقب اكتشاف قضايا الفساد في جهاز الامن ، نشر تقرير مراقب الدولة الخامس والعشرين للسنة المالية ١٩٧٣ / ٧٤ ، الذي جاء بمثابة وثيقة هامة تدل على انتشار الفساد والعيوب في الادارة الاسرائيلية ، خاصة في الوزارات والمؤسسات الاقتصادية والامنية . ويصدر تقرير مراقب الدولة سنويا على شكل مجلد ضخم يضم ، عادة ، مئات الصفحات التي تحتوي على استنتاجات وتعليقات جهاز رقابة الدولة على سير العمل في الوزارات والمؤسسات الاسرائيلية الرسمية المختلفة ومستوى ادارتها . واثار التقرير الاخر عاصفة شديدة بين

اجدادات عسكرية ومدنية . كذلك اعتقل اصحاب الشركات والمصانع صاحبة العلاقة . وكان من بين ابرز المعتقلين المسكرين الرائد مثير بن - اهرن ، الضابط في قسم المشتريات في سلاح الجو ، والرائد (احتياط) يوثيل ميرون ، موظف كبير في وزارة الدفاع ، والعميد ثاني (احتياط) حاييم يارون رئيس قسم المعدات في سلاح الجو سابقا ، ومردخاي هرتيل ، عضو بعثة وزارة الدفاع في الولايات المتحدة سابقا ، ويتسحاق روبين العامل في قسم النقل في وزارة الدفاع ، ويسرائيل روزنتسايج من سلاح الجو (معاريف ، ٧٥/٤/٢٧ و هارتس ، ٧٥/٤/٢٣) . أما ابرز المعتقلين المدنيين فهم امنون افني صاحب شركة الهندسة الهيدروليكية في كريات غات ، الذي استغل علاقاته الشخصية بموظفي وزارة الدفاع وبعض ضباط الجيش وقدم لهم رشوات للحصول على طلبات من الجيش تقدر بملايين الليرات . كذلك اعتقل يوسف ماهرشاك ، صاحب مصنع « هتخوف » في حيفا ، الذي ينتج صهاريج وقود لحساب قسم المعدات في سلاح الجو ، بناء على طلب وزارة الدفاع ، وذلك بتهمة رشوة بعض العاملين في الوزارة والجيش ، مقابل الحصول على مناقصات بملايين الليرات . واعتقل ايضا يوحنا رافياح ، وهو مستشار اقتصادي يمثل مصنع ماهرشاك في وزارة الدفاع (هارتس ، ٧٥/٤/١٧) . كذلك اعتقل فيمس بعد المدعو غوستاف ستيل وهو مهندس في وزارة المواصلات ، ودافيد رايتز صاحب مصنع « رادا » في حيفا (معاريف ، ٧٥/٤/٢٧) . وذكر مفوض الشرطة موريس كجارو ان وزارات التجارة والصناعة والمواصلات والخارجية ، بالإضافة الى مكاتب الاستثمارات ومسؤولين في سلاح الجو ، متورطين في قضايا الفساد في وزارة الدفاع . وأعلن ايضا ان الشرطة تحقق في موضوع امني آخر ، وصفه بأنه سري (هارتس ، ٧٥/٤/٢٤) .

تعتبر قضايا الفساد التي اكتشفت مؤخرا في جهاز الامن الاسرائيلي ، استمرارا لتلك القضايا التي اكتشفت خلال السنة الاخيرة على نطاق واسع ، سواء في المؤسسات الحكومية او العامة ، واهمها قضايا الاختلاس والرشوة وسوء الائتمان في كل من بنك اسرائيل - بريطانيا ، « والشركة لاسرائيل » ، وشركة البناء الحكومية سوليل بونييه ،

تطرق الى الدين القومي الآخذ بالازدياد سنة بعد اخرى ، وأوصى بأحداث اصلاح شامل في الادارة المالية في الدولة . أما بالنسبة لبنك اسرائيل فقد وجد المراقب ان البنك لا يملك سياسة واضحة بالنسبة لمنح الاموال . وعلق على نشاط وزارة التجارة والصناعة بقوله ان هناك اخطاء كثيرة في المعلومات ومراقبة الاسعار . وبالنسبة لوزارة المواصلات اشار المراقب الى ان استئجار الشاحنات في الخارج ، التي احتاجتها اسرائيل خلال الحرب وبعدها ، سبب خسائر مالية كثيرة للوزارة . وتطرق المراقب ايضا الى وزارتي الاستيعاب والاسكان ، فوجد ان مهاجرين جدد ، مثلا ، قد حولوا الى مساكن غير ملائمة للسكن ، كذلك فان هناك تأخرا في اخلاء الاحياء الفقيرة ، وهو ما تعتبره وزارة الاسكان احد مهامها الاساسية (داغار ، ٧٥/٤/٢٩) .

أما بالنسبة لاستنتاجات المراقب حول القضايا الداخلية والاجتماعية ، فأهبطها تلك التي تتطرق الى وضع السلطات المحلية الذي وصف بأنه غير مرض . فالسلطات المحلية لا تستطيع الصمود تحت عبء النفقات المطلوبة منها لتمويل امهالها المتنوعة ، بحيث تضطر الى الحصول على قروض بشروط غير سهلة ، بعضها مرتبط بجدول غلاء المعيشة . وتشكل هذه القروض الان عبئا ثقيلا على السلطات المحلية ، اذ انها مدينة الان بنحو ٣٥ مليار ليرة لصندوق القروض ، عدا الفوائد والزيادة نتيجة الغلاء ، بحيث ارتفعت هذه الديون الى ٦ مليارات ليرة . ولواجهة هذا العبء تضطر السلطات المحلية الى اللجوء لمصادر تمويل من سوق المال الحرة ، حيث يقوم المرابون باستغلال اوضاعها والتشديد في شروط منح القروض . ويلقي المراقب اللوم في ذلك على وزارة الداخلية التي لم تنجح في فرض الرقابة المكنة والضرورية حسب القانون والانظمة (١١ ، ٧٥/٤/٢٨) . كذلك اشار تقرير المراقب الى الوضع السيئ في وزارة المصارف والبنوك ، حيث لم يؤد اصلاح الذي اتبعته الوزارة الى رفع مستوى الطلاب . ويذكر ايضا ان سكان مدن الاعمار ما زالوا متخلفين في المجال النقابي (يديعوت ارونوت ، ٧٥/٤/٢٩) .

وبعد نشر تقريره ، عقد مراقب الدولة مؤتمرا صحافيا هاجم فيه بشدة النظم الادارية في جهاز

اوساط الرأي العام ، خاصة وأنه جاء بعد اكتشاف تضاييا الفساد في جهاز الامن ، وتناولته معظم الصحف ووسائل الاعلام بالشرح والاسهاب ، خلافا لما يحدث في كل سنة حيث يقتصر الاهتمام به على بعض الدوائر الحاكمة ووسائل الاعلام ، ثم يتناساه الجميع .

تعتبر استنتاجات المراقب بالنسبة لوزارة الدفاع والجيش اهم ما ورد في تقريره الآخر ، اذ ذكر المراقب ان هناك عيوباً وتأخيرات ونفقات لا لزوم لها صرفت على اقامة تصنيعات ومراكز الجيش والمستوطنات في هضبة الجولان . كذلك اشار الى وجود « استخفاف » بالمعدات العسكرية داخل الجيش وخاصة سيارات النقل . أما بالنسبة للخدمة الاحتياطية ، فقد وجد المراقب انها لم توزع بشكل صحيح بين افراد القوات الاحتياطية خلال الحرب الاخيرة وبعدها . كذلك اشار الى وجود نقص في اللجوء العامة . وبالنسبة لوزارة الدفاع ذكر المراقب ان هناك اخطاء كبيرة في اساليب العمل وانظمة المشتريات واستغلال الميزانيات ، وتناول بشكل خاص ادارة قسم المشتريات ، فأشار الى التقاعس والاهمال الشديدين اللذين يسودانها ، والنفقات التي لا لزوم لها ، ثم الشكوك حول الغش والخداع داخلها . وازداد المراقب ان وزير الدفاع تنقصه الاجهزة الكافية لتعتب ما يحدث داخل وزارته . أما بالنسبة للصناعة العسكرية فقد اشار المراقب الى عدم وجود خطة لديها لشراء مواد احتياطية ، وذلك بالاضافة الى ان الصناعة العسكرية متعلقة بشكل خطير بعدد قليل من المزودين في الخارج (هارتس ، داغار ، يديعوت ارونوت ، ٧٥/٤/٢٩) .

أما بالنسبة للاستنتاجات الاخرى التي توصل اليها المراقب ، فأهبطها تلك التي تتعلق بالوزارات الاقتصادية مثل وزارات المالية ، والتجارة والصناعة ، والعمل والمواصلات . وانتقد المراقب وزارة المالية بقوله ان ميزانية الدولة تتخللها عيوب كثيرة ، والجهاز المالي مطلق جدا . فالميزانية لا تعكس ما تفعله الحكومة ، وبدلا من تقليصها ، حيث كان بالإمكان توفير مليار ليرة خلال هذه السنة ، تم توسيعها . وأشار المراقب الى ان « سباسة » كثيرين يربحون أموالا طائلة خلال عملية نقل الاموال بين المالية والجمهور . كذلك

ينبغي اصلاح مكتب مراقب الدولة « وملايمته لسد الحاجة في دراسة شاملة لاعمال الحكومة وشركاتها في المجال الاقتصادي والمالي . ولذلك ثمة ضرورة لدراسة امكانية تعيين مراقب جديد ، وادخال هيئة قوية الى مكتبه ... لكي يستطيع القيام بمهامه المطلوبة بشأن الاقتصاد والمجتمع » (المصدر نفسه) .

الفساد واسبابه

تعود عوامل الفساد التي ظهرت في المجتمع الاسرائيلي خلال الفترة الاخيرة ، خاصة في جهاز الامن ، الى الازواج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تسود اسرائيل خلال السنوات الاخيرة . ورغم ان هذه العوامل تختلف بين مؤسسة وأخرى من تلك التي انتشر فيها الفساد ، الا ان هناك عدة نقاط مشتركة بينها ، منها : (١) تنحصر حوادث الفساد في المؤسسات الاقتصادية وفي جهاز الامن ، (٢) ظهر ان المتورطين في هذه الاعمال هم ، عادة ، من كبار المسؤولين والموظفين في هذه المؤسسات ، (٣) تتمثل حوادث الفساد في الرشوة والاختلاس وسوء الائتھان . لذلك يمكن الاستنتاج ان هناك عوامل عامة فسي اسرائيل تؤدي الى مثل هذه الاعمال ، وأخرى خاصة تساعد او تدفع الى ارتكابها . ومن اهم العوامل العابرة اسلوب التعامل الاقتصادي فسي اسرائيل . لقد واتى المحظ هذه الدولة فحصلت كل حياتها على أموال [تبرعات ومساعدات] تفوق انتاجها . ان هذه الاموال التي وزعت بصورة انتقائية بواسطة بعض الفئات المركزية ، لم تمنح تلك الفئات القوة فقط ، وانما الشعور بالوفرة الزبيفة . لقد شجع هذا الشعور التبذير ، وخلق لدى الكثيرين الاعتقاد بأن دافع هذه الاموال ، اي اميركا ، سيدعمها ولن يخسر شيئاً (يونيل ماركوس - هارتس ، ٧/٥/٧٥) . وعلى خلفية الوفرة المالية الزبيفة هذه ، ساد جو من التساهل . فاموال كثيرة جدا تدفقت الى اشخاص عديدين ، بحيث كثرت الحفلات والهدايا والرشوات على مختلف انواعها واشكالها . كذلك فان عدم وجود قوانين ملائمة تبين المحظور والمسموح به في مثل هذه الحالات قد ساعد على انتشار الفساد « وقد وصلنا الى وضع يصعب معه ايجاد اي زعيم ليس في ماضيه اي عيب . لذلك كان من الطبيعي ان

الحكومة والجهاز المالي في اسرائيل ، اللذين يؤديان الى كثرة ظواهر الفساد . واكد المراقب انه لا يجوز لاي شخص « ان يخدع نفسه ، بأن هناك خيارا امامنا لادارة الدولة بصورة صحيحة او غير صحيحة . ان خيارا كهذا غير قائم . اذا سمحوا لظواهر الفساد بالانتشار ، فانها ستؤدي الى تاكل حقيقة وجود هذه الدولة . وربما تؤدي الى هدمها والقضاء على وجودنا كمجتمع » . واضاف انه « من المستحسن ان تمنح قيادة الدولة افضلية كبيرة لاصلاح الادارة العامة والرسبية ، من خلال ظواهر الفساد » . وتطرق المراقب الى اولئك المتورطين باعمال الفساد فاشار الى « ان الضرر الذي يسببه هؤلاء شبيه بالضرر الذي يسببه الخونة » (المصدر نفسه) . كذلك اعلن المراقب خلال مقابلة معه (داغار ، ٢/٥/٧٥) ان تقدما سريعا طرأ خلال السنين الاخيرة على جميع مجالات الادارة في العالم ، وهذا التطور « وصل الى جيراننا ايضا . لذلك اذا كنا لا نلنا نتعثر في مكاننا او نتقدم بصورة بطيئة فقط - فان ذلك يعد انسحابا من جانبنا . يحتلنا الشعور بأننا شعب مختار ، وقد حققنا الكثير من المكاسب في مجالات عدة بفضل هذا الشعور ، مثل العلوم والحياة الاجتماعية . ولكن في مجال الادارة فاننا لا نظهر تلك الرغبة في التقدم ، كما هو الحال في مجالات اخرى » .

دعا معظم المطلعين والكتاب الى الاهتمام باستنتاجات مراقب الدولة ، والتواحي التي تطرقت اليها ، نظراً لخطورتها ، وخاصة تلك المتعلقة بجهاز الامن وبالوزارات والمؤسسات الاقتصادية . « ان استنتاجات تقرير مراقب الدولة ليست مادة للواعظين . يجب ان يكون لها عنوان آخر : المستشار القضائي للحكومة، النيابة العامة للدولة ، الشرطة ، الوزراء المسؤولين عن العاملين داخل وزاراتهم » (جدمون سامط - هارتس ، ٢/٥/٧٥) . وانتقد كاتب آخر تقرير مراقب الدولة « لان الواقع اظهر ان الاسلوب « النبائي » واللين الذي انتهجه الدكتور ننتسائيل قد فشل . فطوال السنين التي عمل فيها امتنع المراقب عن الاشارة الى اشخاص معينين واكتفى بالاستنتاجات العامة في نقده ... بدون تفصيل او اشارة واضحة الى المسؤولية والمسؤولين ، ولذلك لا فائدة من تقاريره » (داننييل بلوخ - داغار ، ٤/٤/٧٥) . ولهذا

توانين ملائمة داخل الجيش للمحافظة على الاستقامة . لذلك هناك ثغرات كثيرة داخل جهاز الامن تكون غالبا دافعا لارتكاب اعمال الفساد . « فالجميع [مثلا] يتحدثون الآن عن تحسين انظمة المناقصات ، بسبب ظهور جميع اعمال الرشوة داخلها . . . ولكن هناك اعمال التخطيط التي لا يسري عليها واجب المناقصات ابدا ، خاصة وان جهاز الامن يطلب في كل سنة عدة خطط من جهات مختلفة بملايين الليرات » (يوسف لايبند - معارف ، ٧٥/٥/٢) . (٢) الانساع الكبير في جهاز الامن خلال سنين قليلة ، وخاصة منذ حرب ١٩٧٢ . « فليس سرا ان جيش اسرائيل ازداد بصورة كبيرة من ناحية عددية . ولكن وزارة الدفاع - وهي الهيئة المدنية التي تدير الجيش - لم تتسع بالنسبة نفسها . والاسوأ من ذلك ان الانساع الفجائي في جهاز الامن ادى الى استدعاء بعض الاشخاص الذين ما كانوا ليتولوا مهام ذات مسؤولية في الجيش في الايام العادية » (المصدر نفسه) . (٣) انعزالية جهاز الامن ، « وهنا يمكن القول ان وزارة الدفاع والجيش ، هما ، من عدة نواحي ، دولة داخل دولة . ان واجب السرية يستغل احيانا للقيام باعمال من السهل اخفاؤها عن اعين الجمهور » (المصدر نفسه) . (٤) ميزانية الدفاع الكبيرة وعدم توفر رقابة كافية عليها .

وتحدث عضو الكنيست سبحة ارليخ ، رئيس اللجنة الفرعية في الكنيست المشرفة على ميزانية الدفاع ، حول هذا الموضوع (في مقابلة مع يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٥) قائلا انه ليس هناك ادنى حد من الرقابة البرلمانية على جهاز الامن . وخلافنا لاي وزارة اخرى ، من تلك التي تتعرض ميزانيتها للسلوامة مع فرع الميزانيات في وزارة المالية ، فان المالية لا تملك الاجهزة الملائمة لفحص ميزانيات الدفاع ، « والنتيجة هي ان هذه الميزانيات تبقى الميراث الدائم لموظفي قسم الميزانيات في وزارة الدفاع . واذا اضفنا الى ذلك ستمار السرية الذي تحاط به ، سيفهم المرء ان جهاز الامن هو مكان معد للفوضى والتبذير وحتى لظاهر الفساد ، كما ظهر خلال الاسبوع الاخيرة . وازداد ارليخ ان اعضاء اللجنة التي يرئسها ، والتي تتمثل مهمتها الاساسية في فحص ميزانيات الدفاع ، لا يحق لهم الاطلاع مسبقا على ارقامها » والنتيجة هي انهم

كثيرا من الامور التي حدثت بسبب العادة المتبعة في البلد . . . قد دفعت عددا من الاشخاص الى الانحراف عن الطريق المستقيم » (المصدر نفسه) . كذلك يبدو ان العامل السياسي الداخلي قد اثر على انتشار الفساد ، « ومن المهم ان نذكر هنا ، ان الانحطاط في الاخلاق والاداب العامة قد حدث بين فئة صغيرة داخل الطبقة القيادية والغنية وذات الكفاءات ، وان مجرى الانحطاط حدث في الاساس بسبب الاسلوب الاقتصادي والسياسي » (امون روبينشتاين - هارتس ، ٧٥/٤/٢٥) . ويؤكد مطلق آخر ان عددا لا بأس من قضايا الفساد ، التي اكتشفت مؤخرا ، جاء نتيجة لاسلوب الحماية والمحسوبية الذي كان متبعاً خلال فترة طويلة في اسرائيل ، خاصة وان الاخلاص الشخصي والانتفاء السياسي كانا من اهم المقاييس للحصول على الوظائف الكبيرة . « ان هذا الاسلوب خلق مع الايام نظاما اقتصاديا وسياسيا مبنيا على « اصدقاء الجميل ورد الجميل » ، ثم تنظيم الامور في الداخل ، بدون الحاجة الى الشرطة - تماما كما يحدث في الجريمة المنظمة » (يوفيل ماركوس - هارتس ، ٧٥/٤/٢٣) . ولا ينطبق هذا الوضع على الاجهزة الحزبية فقط ، « فخلال السنين تكونت اجهزة فرعية للبيروقراطية ، عندما اتجهت مجموعات من المدراء وموظفي الحكومة ورجال الجيش الذين انضموا الى عالم الاعمال الى المحافظة على علاقاتها واخلاصها الشخصي « للامدقاء والرفاق » الذين بقوا في الخدمة العامة . . . ان العلاقات الشخصية - السياسية والمحسوبية في وضع ألزم تحويل اموال كثيرة من اموال الشعب الى مشاريع رسمية حيوية (مثل الحاجة الى بناء خطوط تصحينات ضخمة بسرعة ومهما كلف الامر) هي التي فتحت الطريق في نهاية الامر ليس فقط امام التبذير وانما امام الانحراف عن الطريق المستقيم ايضا ، وتحويل اموال الشعب الى الجيوب الخاصة » (المصدر نفسه) .

عدم الرقابة في جهاز الامن هو سبب الفساد

بالنسبة لجهاز الامن ، يبدو ان هناك عوامل خاصة ساعدت على ارتكاب اعمال الرشوة التي اكتشفت مؤخرا ، رغم انه لا يمكن فصلها عن الجو العام المتمثل في « الركن وراء الريح » . واهم هذه العوامل الخاصة هي : (١) عدم وجود

الامن ، يكون ذا خبرة بما يحدث داخل الجيش ، خاصة فيما يتعلق بالمشترىات وبالواضع المالية الاخرى . وقد عرض بيريس هذا المنصب على عدة اشخاص منهم حايسم لاسكوف رئيس الاركان السابق ، والعميد (احتياط) سرائيل طلال ، والعميد رنائيل غاردي ، الا انهم رفضوا ذلك (داغار ، ٧٥/٤/٢٥) . وفي النهاية وافق شمعون اغيدان من رؤساء كتلة ميمام وقائد لواء جفعاتي في حرب ١٩٤٨ على تولي هذا المنصب . وسيعمل معه في هيئة الرقابة البروفيسور هانس كلينغفونر كمستشار قانوني ، والدكتور ارثور بيرفان مدير عام بنك الملاحه كمستشار للمواضع الاقتصادية والمالية . كذلك ستوضع وحدة الرقابة المالية في الجيش ووزارة الدفاع تحت تصرف هيئة الرقابة الجديدة، بعد تعزيزها بمزيد من العاملين (معاريف ، ٧٥/٥/٨) .

كذلك دعا وزير الدفاع بعض الخبراء في الشؤون الاقتصادية والقانونية الى التطوع للعمل في لجان المناقصات المختلفة التي ستقيمها وزارة الدفاع والجيش . ويقوم العميد ثاني شمعون تسلنر رئيس شعبة التنظيم في وزارة الدفاع بتنظيم حركة التطوع هذه (المصدر نفسه) .

ودعا معلقون عديدون الى ازالة حاجز الرقابة والسرية عن جهاز الامن ، خاصة فيما يتعلق بالامور المالية ، ومنح لجان الكنيست المختصة صلاحيات واجهزة ملائمة لمراقبة هذا الجهاز . جهاز الامن لا يستطيع القضاء على شهوة الطمع التي انتشرت بين الجمهور . ولكنه يستطيع بالتأكيد الاهتمام بان تكون المناقصات عادلة . كذلك عليه ان يهتم بتعليق اعمال التخطيط بالمناقصات ايضا ، وبالزام الضباط بدم الانضمام الى الشركات المرتبطة باعمال مع الجيش ، بعد تسريحهم . يجب على وزارة الدفاع توسيع جهاز الرقابة الداخلية بواسطة تقوية الجانب المدني في الوزارة ، ومنح صلاحيات واسعة للمراقب المالي . والاهم من هذا كله : على جهاز الامن ان يخرج من موقع السرية ، وهو بمثابة موقع لاختفاء الاخطاء والمخالفات « (يوسف لايبدي — معاريف ، ٧٥/٥/٢) .

الدعوة الى التشديد في عقوبة المخالفين

دعا الكثيرون من الاسرائيليين من وزراء واعضاء كنيست ومعلقين وكتاب الى التشديد في عقوبة

يجهلون تركيبها الحقيقي « (المصدر نفسه) .

ويبدو ، من ناحية ثانية ، انه ليس هناك تشجيع من جانب قادة جهاز الامن ، للنقد والرقابة العامة على هذا الجهاز ، وقد كان الرأي العام وأوساط عديدة على استعداد للتسليم بهذا الامر ، وقبلوا بالافتراض ان جهاز الامن مفيد ونزيه ومليء بالتوفير . لقد ساد هذا الافتراض بين الجمهور بسبب المديح الذي يكيله رؤساء جهاز الامن لانفسهم « (تيدي برويس — داغار ، ٧٥/٤/٢٤) . « ان هذا الوضع بحد ذاته — ميزانية ضخمة مع رقابة عامة ضعيفة — لم يكن سليما . وعندما اضيف اليه اعتراض رؤساء جهاز الامن على الاصفاء ولو لقليل من النقد ، لم يكن الاحتياط داخله مستعبدا « (المصدر نفسه) .

ويبدو ايضا ان ظاهرة انتقال عدد من كبار الموظفين والضباط من الخدمة العامة والجيش الى قطاع العمل الخاص ، وانضمامهم الى شركات مرتبطة باعمال مع دوائر في الحكومة او في جهاز الامن ، كانوا يتمون اليها في الماضي ، قد ساعدت على انتشار حوادث الفساد داخل جهاز الامن . « ان الضباط الذي يرأس قسم شراء المعدات في احد اسلحة الجيش ، وينضم بعد تسريحه من الجيش بأشهر معدودة الى شركة وكيلة لبيع الاسلحة ، يمكن ان يحضر معه ليس خبرة مهنية فقط ، وانما علاقات خاصة ومعلومات ، يمكن بواسطتها فتح ابواب مغلقة أمام آخرين « (ناتان ريبون — هارتس ، ٧٥/٤/٣٠) . ويظهر انه على الرغم من ان اسرائيل سنت في عام ١٩٦٦ قانون الخدمة العامة ، الذي عين فترة سنتين بين ترك الخدمة العامة والانتضمام الى القطاع الخاص ، فان هذا القانون لا يطبق بشكل صحيح ، وهو مليء بالثغرات (المصدر نفسه) .

تعيين مراقب جديد في وزارة الدفاع

ادى اكتشاف حوادث الرشوة والفساد في جهاز الامن الى اثاره المسؤولين عن هذا الجهاز وخاصة وزير الدفاع بيرس الذي وعد « باقتلاع جيبع الاعشاب الضارة » منه ومعالجة مثل هذه الحوادث « بيد من حديد » (هارتس ، ٧٥/٤/٢٤) . وقرر بيريس اتخاذ عدة اجراءات لاكتشاف حوادث الفساد ومنعها ، منها تعيين مراقب جديد داخل جهاز

حسابات ومحامين واصحاب مهن اكاديمية اخرى بـ
وجميعهم من المحققين الجريين الذين يستطيعون
الغوص في عمق القضايا الاقتصادية (المصدر
نفسه) .

كذلك هناك سبب آخر لتوقيت اكتشاف هذه
القضايا ، وهو الوضع الاقتصادي الذي ساد
اسرائيل خلال السنة الاخيرة ، والذي لم يؤد فقط
الى « شد الحزام » وانما ايضا الى « مراقبة
الاخرين » ، اذ بدأت تطرح اسئلة كثيرة وغير
منقطعة حول مستوى المعيشة الذي يعيشه مدراء
الشركات وبعض الموظفين والاشخاص المسيطرين
على ميزانيات ضخمة (المصدر نفسه) .

المقارنة مع فينتام الجنوبية

تثير موجة الفساد هذه في اسرائيل ، عدا
الاستياء والدعوة السى الكشف من الفاعلين
والتشديد في عقوبتهم ، نوعا من القلق ، يدفع
البعض الى مقارنة ما يحدث في اسرائيل مع الفساد
الذي كان ينتشر في فينتام الجنوبية ، خاصة الان ،
حيث « يتعقب الكثير من سكان اسرائيل بقلق
المسامة التي حلت في جنوب شرق آسيا . لذلك
ينبغي ان نذكر ان جنوب فينتام سقطت في الاساس
بسبب الفساد والغبخ في الحكم ، اللذين لم
يتعرضا الى اموال الشعب فقط ، وانما دمرنا
اساس رغبة وقدرة المواطن على منح كل ما
يستطيع من اجل دولته ... لذلك فان محاربة
التمغن الداخلي يجب ان تكون احد الاهداف
الاساسية لحكومة اسرائيل (بويليل جاركوس —
هارتس ، ٧٥/٤/٢٣) . اما الفرق بين اسرائيل
وفينتام في مجال الفساد ، فهو « ان نسبة قليلة من
السكان في فينتام قد اشتركت في عملية فساد
واسعة ، بينما عندنا نسبة كبيرة من السكان
اشتركت في عملية فساد صغيرة ... ولا اقصد
القول اننا جميعا مذنبون ، وانما اريد الاشارة الى
ان الفساد الذي حدث هنا ذو مقياس قومي »
(المصدر نفسه ، ٧٥/٥/٧) .

رغم هذه المقارنة ، تنبغي الاشارة الى ان
الاسرائيليين لا يزالون يعملون على جهازي الشرطة
والمحاكم ، اللذين لا يزالان يحظيان بثقة كبيرة ،
لكبح موجات الفساد تلك .

حسه شاهين

المخالفين « لان الاشخاص الذين سرقوا وفسدوا ،
او دسوا اموالا طائلة في جيوب المنتجين والمقاولين
مقابل رشوات — حكمهم كحكم من يسرق السلاح
والمعدات العسكرية ... واذا كانت عقوبة الجندي
الذي يفقد بندقيته بسبب الاهمال الحكم بالسجن
سنة اشهر — فماذا ستكون عقوبة شخص سرق
عن تصد من ميزانية الدفاع مبلغا يمكن بواسطته
انتاج بندقية او دبابة او طائرة ؟ » (ارييه اغنيري
— داغار ، ٧٥/٤/٢٥) . « ان من يسرق اموالا
من متطلبات الامن عندنا ، يسرق سلاحا وذخيرة من
جنودنا ، في اللحظات الحاسمة من المعركة » .
كذلك اعلن النائب سمح اريخ ، (من مقابلة معه
في يديعوت احرونوت ، ٧٥/٤/٢٥) انه يجب على
الحكومة والسلطات القضائية ان تتبع وسائل
شديدة ضد المخالفين « ليس فقط من اجل القضاء
على السوء ، وانما من اجل استعادة ثقة الشعب
بالحكم » .

التغير في الحكم ساعد على اكتشاف قضايا الفساد

ان الميز لقضايا الرشوة والفساد التي تم
اكتشافها مؤخرا ، سواء في جهاز الامن او في
المؤسسات الاقتصادية الاخرى ، هو كثافتها وظهورها
في فترة قصيرة نسبيا ، وبالتحديد بعد حرب ١٩٧٢ ،
رغم انها نفذت قبل بضغ سنتين . وكانت قد
اكتشفت بغض القضايا المماثلة في الماضي ، تم
على اثرها اعتقال عدد من كبار رجال الاقتصاد ،
الا ان قضايا كهذه ، وخاصة تلك المتعلقة بجهاز
الامن وبشركة الاستثمارات الاسرائيلية (الشركة
لاسرائيل) كان نشرها محظورا في عهد الحكم
السابق ، وهناك من يقول ان اكتشاف هذه القضايا
خلال السنة الاخيرة ، مرتبط بتغيير الاشخاص
الذين يتراأسون الحكم — اي رئيس الحكومة راين ،
ووزير الدفاع بريس ، ووزير العدل حايم
تسادوك ، ووزير المالية راينوفيتش ... وعلى أي
حال ، هناك ثلاثة اشخاص تصرفوا بحزم بكل ما
يتعلق بمعالجة قضايا الفساد ، وهم وزير العدل
تسادوك والمستشار القضائي للحكومة شمشار
والمفوض العام للشرطة روزليو (ارييه اغنيري —
يديعوت احرونوت ، ٧٥/٥/٤) . وتجدر الاشارة
هنا ان الشرطة انشأت قبل نصف سنة تقريبا قسم
تحقيق خاص بالمخالفات الاقتصادية ، يضم مدققي

(٥) القضية الفلسطينية عسكرياً

[١]

تخفيض عدد القوات والأسلحة الاسرائيلية في المناطق العازلة في سيناء

الاسرائيلية في منطقة تخفيض القوات (القطار الشرقي) والتي تبعد عن القناة مسافة ٢٠ كيلومترا وتبلغ عرضا (١٠) كيلومترا وتضم القوات التي اشترتها اليها اعلاه . ان ذلك يعني سحب نصفها الى نقاط تقع الى الشرق من الخط الاحمر على الخارطة ، أي الى مسافة ٣٠ كيلومترا عن القناة .

ويشمل ذلك : -

١ - الدبابات - حيث جرى تخفيض عددها من ٣٦ دبابة الى ١٨ دبابة .

٢ - المدفعية - تم نقلها الى مسافة ٣٢ كيلومترا أي الى خارج الخط الاحمر .

٣ - القوات الاخرى - خفضت هذه القوات من ٨ كتائب الى ٤ كتائب .

٤ - الصواريخ - ستقتيد اسرائيل بعدم وضع صواريخها ضمن مسافة (٤٠) كم من القناة كما وان اتفاقية الفصل اصلا تمنع اقامة مواقع للصواريخ الموجهة أرض - جو ضمن مسافة ٣٠ كيلومترا عن القناة وهذا يعني بالمقابل ان لا تقيم مصر اية مواقع لصواريخها الموجهة أرض - أرض وأرض - جو في الضفة الشرقية للقناة على الاطلاق .

ان القاء نظرة على خريطة شبه جزيرة سيناء وعلى مناطقها الغربية الواضحة بين القناة والمرتات وتعيين المواقع المحددة لمراقبة القوات الرئيسية لكل طرف ، يلجس عدم أهمية هذا الانتساب او التخفيض الذي تم . فالانتساب أولا يشمل مناطق ساقطة عسكريا ولا قيمة تذكر لها من الناحية العسكرية . ذلك لأنها تبعد مسافة تتراوح بين ٢٠ - ٣٠ كيلومترا عن المواقع الرئيسية التي ترابط فيها القوات الاسرائيلية . وترابط فيها قوات تعرف بالفهوم العسكري بنقاط المراقبة الامامية او بقوات حجاب . والتي يناط بها جمع المعلومات

مقد رئيس الوزارة الاسرائيلية الجنرال يتسحاق رابين مؤتمرا صحافيا في القدس في ١٩٧٥/٦/٢ اعلن فيه بصورة مفاجئة تخفيض عدد قوات واسلحة الجيش الاسرائيلي المرابط في المنطقة الامامية العازلة في سيناء ومما قاله بهذا الصدد « بمناسبة اعادة فتح قناة السويس واستئناف الملاحة الدولية في قناة السويس والتي من المقرر ان تستأنف طبقا لاتفاق فك التحام القوات بين اسرائيل ومصر اتخذت حكومة اسرائيل خطوات تأمل ان تساهم في تخفيف حدة التوتر العسكري في المنطقة . كذلك فهذه الخطوات ليست بديلة لاستمرار المساعي لاحراز تسوية اخرى بين اسرائيل ومصر . ان استعداد اسرائيل للتعاون في المساعي السياسية لا يزال قائما كما اوضحنا ذلك لحكومة الولايات المتحدة في مناسبات عديدة ، لقد قررت حكومة اسرائيل ان تخفف قوات جيش الدفاع الاسرائيلي المرابط في المنطقة الامامية في قطاع القناة » . هذا وقد جرى تنفيذ القرار فعلا في يوم ١٩٧٥/٦/٤ .

يأتي هذا القرار الدراماتيكي بعد يوم من بدء قمة سانزيبورغ بين الرئيس المصري والرئيس الاميركي . وقد تصدت به المحافل الاسرائيلية بتحقيق كسب اعلامي وسياسي بإعلانها عن هذه البادرة من جانبها في هذا الوقت حتى تثبت لمصر وللولايات المتحدة وللعالَم عن رغبتها في العمل من اجل تخفيف حدة التوتر في المنطقة والتقدم في طريق السلام . وقد اعترف بذلك اكثر من مسؤول اسرائيلي وعلى رأسهم رئيس الوزارة نفسه ووزير الخارجية ووزير الدفاع وغيرهم . ومهما تكن الابعاد والفايسات السياسية والاعلامية فان القرار لا قيمة له من الناحية العسكرية .

ما هي تفاصيل الخطوة التي اقدمت عليها اسرائيل ؟ لقد اعلنت كما اشترنا الى ذلك في بداية البحث عن قرارها بتخفيض عدد القوات والأسلحة

الدفاعية تغييرا اساسيا » . كما ان وزير الخارجية ايجال لون ردد التعابير نفسها بقوله « الحقيقة التي ينبغي ذكرها ان هذه الخطوة لم تكلفنا اي شيء ، وصحيح اننا تحملنا مخاطرة معينة ولكنها مخاطرة مدروسة » اما رئيس الاركان الجنرال « بردخاي فور » فقد عبر عن التخفيض واطراف الجبهة بقوله « حسب ما قيل حتى الان ان المعنى الاساسي لكل هذه العملية سياسي على الاغلب ولقد اعدنا قوة كافية للرد بالقوة الكافية وبالسرعة المطلوبة اذا تغيرت الاحوال بشكل حاسم . ان الجيش يظل متأهبا في الخطوط الاساسية كما كان قبل ذلك (يعني اتخاذ الخطوة) ولكن قوات معينة منه طبعا لما اعلن تجتاز تغييرا في التشكيل وهي الان موجودة صباح اليوم في « الواقع الجديدة » . اما الجنرال حاييم هيرتزوغ فقال عنها « لا اريد التحدث بعبارات الضعف او القوة ، لان عدد القوات المسموح بها بناء لاتفاق فك التحام القوات لا تشير في نهاية الامر الى القوة بل انها في الواقع شيء رمزي ومتبادل ولا يمكن استخلاص عبر عسكرية لا من القوة الموجودة حاليا ولا من القوة التي ستبقى بعد تخفيض حجم القوة بناء لقرار الحكومة » . ثم اضاف قائلا : « لا يوجد فرق فعلي من الناحية العسكرية بين القوات الموجودة حاليا وبين القوات التي ستبقى في منطقة تخفيض القوات بعد تنفيذ قرار الحكومة . وهذه ليست المشكلة المطروحة . ان المشكلة هي ما يوجد لدينا من قوات في سيناء وليس ما نحتفظ به في منطقة فك التحام القوات » .

اذا ان تخفيض القوات لا قيمة استراتيجية له وان اسرائيل تصدت من وراء ذلك مجرد القيام بخطوة عسكرية في الجبهة ذات بعد سياسي .

الرائد الطيار حسين عويضة

من التحركات والنشاطات العسكرية في الجانب المصري ، اما في حال اندلاع القتال فتناط بها مسئولية مشاغلة القوات المصرية المهاجمة الى ان تصل القوات الاسرائيلية الرئيسية او حال تلقيها امرا بالانسحاب ، الانسحاب نمورا والاتحاق بالقوات الاسرائيلية الرئيسية . فانها ان الاسلحة والمعدات المسحوبة لا تؤثر بوجودها او عدمه على ميزان القوى في الجبهة وان سحب حتى كامل القوات مسافة ابعد من المسافة التي سحبت اليها فلن يؤثر ذلك على الاوضاع في الجبهة ولن يتبدل من الواقع شيء . ذلك لان مفتاح الموقف هي المبرات وحجم الوجود الاسرائيلي فيها . ان الدفاعات الاسرائيلية الرئيسية تقع في الممرات ، في حين ترابط القوات الاسرائيلية النظامية الضاربة في « نخل وبئر حسنا وبئر جنجاله » ، وهي قوات تكفي لصد اي هجوم مصري الى حين وصول الاحتياطي الاستراتيجي . واذا القينا نظرة على عدد الدبابات وقطع المدافع التي سحبت فلا تشكل هذه في مجموعها سوى سرية مدرعات (١٨) دبابة وكتيبة مدفعية (١٨) مدفعا . وهذه تيماسا الى حجم القوات الاسرائيلية والمصرية المرابطة على كلا جانبي خط المواجهة لا تشكل سوى نسبة ضئيلة جدا لا تكاد تذكر في المعادلة العسكرية .

لذلك ان ما يهم اسرائيل هو عدم المساس بمواقعها ودفاعاتها الرئيسية في الممرات وفي اطار النفط الاستراتيجية والتي تزودها بكميات النفط التي تحتاجها الى الحرب الاسرائيلية . وقد عبر عن ذلك وزير الدفاع بقوله « لم نكن لنقدم على خطوة مجردة من المسؤولية بان نخلق وضعنا يسلب اسرائيل قدرتها الدفاعية . ان هذا التغيير معين وكما سبق وقلت : الاعتبار السياسي في مثل هذه الحالة اصعب من الاعتبارات الامنية الاخرى . واعتقد ان هذا لا يغير قدرة اسرائيل

الاسرائيليون يناقشون مغزى الموجة الجديدة من النشاط الفدائي في الوطن المحتل

بالتأكيد مجال للقلق المتزايد في اسرائيل . اما سبب ذلك فهو انه « ... لم يتبق في الشارع العربي ظاهرة اليأس وخيبة الامل التي كانت قبل حرب تشرين ، كما وازداد عدد اولئك الذين يعتقدون ان الفلسطينيين المخلصين يجب ان يأخذوا دورهم في المعركة ، بما لا يقل عن دور جيشي مصر وسوريا . واصبح جو النشاط التنظيمي اسهل وذلك ازاء ازدياد العداء لاسرائيل ... ويمكن القول ان سكان الضفة الغربية والقدس الشرقية وعرب اسرائيل اصبحوا في الفترة الاخيرة اكثر « فلسطينية » من الماضي . ان شعور التماثل مع الايديولوجية الفلسطينية لمنظمة التحرير اصبح على ما يبدو ، موقف معظم السكان الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي . وهذا هو السبب الذي يخلق الجو الملائم للنشاط التنظيمي والتخريبي المتزايد بشكل كبير » (داني روبينشتاين - داغار ، ١٥/٥/١٩٧٥) . كما وذكر المراسل العسكري لصحيفة يديعوت اهرنوت (٢٩/٥/١٩٧٥) بان « ما يميز الذين اعتقلوا مؤخرا ان كثيرا منهم تنظموا بمبادرة محلية وخرجوا للقتال بوسائل بدائية وان جزءا منهم على الاقل صنع وسائل القتال بنفسه » . وازداد المراسل : « ... ان هذا لا يعني بانته ليس من الممكن ان تنفذ في المستقبل القريب عمليات كبيرة ... وعلى أي حال فان الاعتقالات الاخيرة لا تبشر بالهدوء في الضفة الغربية وقطاع غزة » (المصدر نفسه) .

ازدادت كذلك فهناك ارتفاع في عدد عرب المناطق المحتلة سنة ١٩٤٨ الذين ينضمون للمنظمات الفدائية (هارتس ، ٢٢/٥/١٩٧٥) . ويعزو المعلقون الاسرائيليون ذلك لثلاثة اسباب « اولها عدم امكانية الاختلاط اجتماعيا [بين العرب واليهود] ، بينما يكمن الثاني في طبيعة دولة اسرائيل ... لان العربي لا يستطيع ان يتجاهل هويته القومية ويتبع القومية الاسرائيلية ، وذلك لسبب بسيط هو انه ليست هناك قومية اسرائيلية . اما السبب الثالث فهو بالطبع البعث المتجدد

ازداد النشاط العسكري والجهادي للشورة الفلسطينية في المناطق المحتلة بشكل ملحوظ في الونة الاخيرة . وقد فطمت عمليات الثورة الفلسطينية جميع ارجاء الوطن المحتل ، بالرغم من اساليب القمع والارهاب التي يتبعها العدو ، القديمة منها والحديثة ، كالعودة لاستخدام اسلوب العتاق الجماعي ، وفرض منع التجول ، ونسف البيوت ، والتمشيط ، واقامة الحواجز على الطرق ، وتشديد الحراسات في الداخل وعلى الحدود ، والاعتقالات الجماعية والاحتياطية كالتي قام بها قبيل ١٥ ايار (ذكرى انشاء دولة اسرائيل) تحسبا من ازدياد موجة العمليات في هذه المناسبة . الا ان الثوار الفلسطينيين ، وبناء على اعترافات المناطق العسكري الاسرائيلي ، « استطاعوا تنفيذ ٣٠ عملية خلال شهر نيسان الماضي ، ثلاث عشرة منها في الضفة الغربية ، واثنان في قطاع غزة ، وسبع في القدس ، وعملية واحدة في كل من تل ابيب ، الرملة ، بئر السبع وقرية طبره في الشمال » (يديعوت اهرنوت ، ٩/٥/١٩٧٥) . وتشير احصائية اخرى الى « تنفيذ ٥٠ عملية فدائية في القدس منذ بداية هذه السنة » (هارتس ، ٢٩/٥/١٩٧٥) ، بينما اشار مصدر اخر (معاريف ، ٢٨/٥/١٩٧٥) اثر اعتقال مجموعة من الفدائيين ، مؤلفة من سبعة اشخاص ، بان تلك المجموعة قامت بعمليات بلغت مائة عملية في العام ١٩٧٤ والشهور الخمسة الاولى من العام ١٩٧٥ . وهذا بالطبع بعض ما اعترف به العدو ، الذي يحاول تجاهل عدد من العمليات وينسبها الى نشوب حرائق لاسباب قنية او حوادث الطرق وغيرها .

الاعتراف بتصاعد النضال الفلسطيني والفشل في مواجهته

أبدت أجهزة الاعلام الاسرائيلي اهتماما ملحوظا بالنشاط الفدائي المتصاعد في الاراضي المحتلة ، بينما حذر البعض من « ازدياد بروز التنظيمات المعادية في المناطق المحتلة وانه اصبح هناك

قتل عسكري وسياسي

بالرغم من ادعاءات سلطات الامن الاسرائيلية اثر الاعتقالات الاخيرة ، انها اكتشفت معظم منفذي هذه العمليات ، يبدو انه لم يكتشف سوى منفذي اثنتين من العمليات الخمسين التي حصلت في القدس (هارتس ، ١٩٧٥/٥/٢٩) . « ويشمل النشاط التخريبي في المناطق المحتلة عشرات العمليات التي تجد قوات الامن صعوبة في القاء القبض على منفذيها » (دافار ، ١٩٧٥/٥/١٥) .

وباشتداد ضربات المقاومة اخذت تطو في اسرائيل الاصوات التي تهجم المسؤولين الذين يحاولون التخفيف من تأثير الثورة الفلسطينية واهميتها فكتبت ، مثلا ، دافار (١٩٧٥/٥/١٥) معلنة « ان الصراع مع السكان الفلسطينيين في المناطق المحتلة ، هو في حقيقة الامر ، حلقة اساسية ، من الصراع العربي الاسرائيلي . وان اهمية هذا الصراع لا تقل عن الحروب مع الدول العربية ... يبدو لاول وهلة ان موجة العمليات الاخيرة لا تشكل خطرا على وجود اسرائيل ، الا ان كل عملية تسبب عبئا هزا اخرى في نظام الحياة في البلاد . ويترتب على كل عملية حملة تمهيد واعتقالات وتحقيقات وغرض منع التجول ويعاني من هذا الكثيرون ممن ليس لهم علاقة بالامر . كما وان المرارة تزداد في اسرائيل التي تتضرر من العمليات ، وتتصلب المواقف وتصبح ردود الفعل اكثر شدة » .

ولم يكن مصر الاجراءات السياسية افضل من العسكرية . وكانت السلطات الاسرائيلية المختصة قد اعلنت مؤخرًا عن نيتها العمل على نقل الصلاحيات الادارية الى سكان المناطق المحتلة ، بهدف تعيين مدراء عابرين عرب في مكاتب الحكم العسكري بحيث تقلص مهام ضباط المناطق الاسرائيلية الى ادنى حد ممكن ، وذلك كمرحلة اولى على طريق خلق قيادة سياسية بديلة لمنظمة التحرير . ولكن يبدو ان هذه الخطوة فشلت فشلا ذريعا ، لان « هناك خوف في اوساط القيادة العربية من تنفيذ السياسة الاسرائيلية الجديدة ، كما وان هناك شكوكا في اوساط الحكم العسكري » (هارتس ، ١٩٧٥/٥/٨) . وعلق ميخائيل اساف (دافار ، ١٩٧٥/٥/٢٣) على هذه المحاولة بقوله انها « تأتي الان وبالذات بعد النجاح السياسي

والنشاط للقضية الفلسطينية ، فكما ازداد نشاط المنظمات كلما طرحت القضية الفلسطينية بصورة اوسع في الهيئات المختلفة وبذلك تقوى الهوية الفلسطينية في كل مكان » (تسفي البيليج - دافار ، ١٩٧٥/٥/٢٣) .

كذلك اعترف وزير الدفاع الاسرائيلي ، اثناء زيارة قام بها لقطيعة وجنين ، بازياد تعاون سكان المناطق المحتلة مع المنظمات الفدائية ، واعلن ان السلطات « ستتبع جميع الوسائل للقضاء على الارهاب الفردي والجماعي » (معاريف ، ١٩٧٥/٥/٢١) .

ومن ناحية ثانية ، وبالإضافة لاعتماد الثوار الفلسطينيين في جزء من عملياتهم على الاسلحة المصنعة محليا ، اعلن في الاونة الاخيرة بان قوات الامن اكتشفت كمية كبيرة من مواد التخريب التي كانت قد سرقت من الجيش الاسرائيلي . واتضح اثناء التحقيق ان يهوديا اسرائيليا يدعى دانسي ساعيل كان عضوا في الخلية . وكان ساعيل في السابق عضوا في منظمة الفهود السود ثم انشق عنهم واسبس تنظيما متطرفا اسماه « القوة الثورية السوداء » (هارتس ، ١٩٧٥/٥/٢٢) .

وكانت عمليات الثوار الفلسطينيين في القدس قد استأثرت باهتمام اوساط العدو وذلك لشدة بعضها كالتصنف الصاروخي لجمع السوزارات والكثيست وتدمير المبنى الواقع على طريق الخليل داخل المدينة . وحاول احدهم تبرير ذلك بقوله ان بعض الاسباب تعود الى « التجمع الكبير للسكان العرب في هذه المدينة ، كما ويمكن الاقتراض ايضا ان قادة المخبين يفتقدون ان العمليات التي تنفذ في تلك المنطقة تحظى بصدى اكبر في العالم » (يعقوب كروز - يديعوت اهرنوت ، ١٩٧٥/٥/٩) . وأضاف آخز (حفاي أشد - دافار ، ١٩٧٥/٥/٩) « بان المعركة على مصر القدس بعيدة من نهايتها ... واصبحت الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، تؤخذ بالحسبان امكانية تجدد النزاع والقتال على مصرها ... ان القدس تنتظر حروبا دامية وصراعات سياسية ... ان العالم كله يطالب اسرائيل بالانسحاب الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ ... اضف الى ذلك ان العالم لم يعترف حتى الان بالقسم الغربي من المدينة الذي نسيطر عليه منذ سنة ١٩٤٨ ... » .

المعنويات « (معارف ، ١٤/٥/١٩٧٥) . وقد وجه البعض انتقادات شديدة للتلغزيون ، بقوله ان « عرفات يلقى خدمة مجانية من دولة اسرائيل » و « هناك انطباع بان المخربين يوجهون مصلحة الاذاعة » . وصرح تسمي برنشتاين ، سكرتير عام الحزب الديني القومي ، بان « يتضح من رد فعل الجمهور على البرامج ان الاستياء من التلغزيون يعم الجميع وينبغي العمل على تغيير قانون مصلحة الاذاعة ، بشكل يجعل الاجهزة الحكومية توجهها كأي قطاع آخر من قطاعات الخدمات ... كذلك على المعارضة في الكنيست ان تعمل مع الائتلاف الحاكم لاجتثاث الاعشاب الضارة التي انتشرت في اجهزة الاعلام ... ان هذه مشكلة امنية - ولا نبالغ في قيمتها ووزنها » (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى قدم النائبان شوشانا اربيلي - الموزيلينو (التجمع) ويوسف تامر (ليكود) ، اقتراحا لجدول اعمال الكنيست لتعديل قانون مصلحة الاذاعة ، ولكن النائبين بوعز - مواب (قائمة حقوق المواطن) ومئر باعيل (موكيد) طلبا اسقاط الاقتراح من جدول الاعمال بحجة ان السياسيين ليس هم الذين يقررون نوع البرامج المعدة للثب وان الكنيست لا يستطيع ان يكون منصة لبحث مضمون الكتب والمسرحيات والافلام ... » (داغار ، ١٥/٥/١٩٧٥) .

كذلك ارتفعت اصوات اخرى تعارض فرض المراقبة على البث ، ذلك ان « الاضرار التي تسببها لن تقل - بل العكس هو الصحيح » ، بينما اتهم اولئك الذين يلوحون باعلام « التامر والانزامية » بانهم « بلا من الانضمام للحرب التي تهدد كياننا ... يذهبون باتجاه خاطيء ، فهم الذين يهدمون المعنويات وهم المتخصصون بالتفليل والتمويه وهم الذين يتسلحون الآن بأدوات القصارين ويعملون على تغطية العورة بطبقات من الدهان اللامع ... ان مهمة وسائل الاعلام هي تغطية الاحداث في اطار العقل المستقيم والحاجات الامنية الحقيقية - اما اذا استجابت لغضب النائب تامر وغيره فانها ستخون واجبتها » (معارف ، ١٤/٥/١٩٧٥) .

واعلن وزير المعارف والثقافة ، المسؤول عن تنفيذ قانون مصلحة الاذاعة ، بأنه لم يصل الى استنتاج بضرورة تغيير قانون الاذاعة او زيادة

الكبير لمنظمة التحرير الفلسطينية في العالم العربي والخارجي ... ولايثبات فشل هذه المحاولات يكفي ان نشير الى الغاء سفر وفد وجهاء المناطوق لانتعزية بوفاة الملك فيصل » .

التحذير من اتساع نطاق العمل الفدائي

تحذر بعض الدوائر الاسرائيلية من اتساع نطاق العمل الفدائي في المستقبل القريب ، خاصة وانه « مقابل ازدياد العمليات على جانبي الخط الاخضر [حدود ١٩٤٩] فان النشاط من خلف الحدود قد خف مؤخرا ... ويمكن السبب الرئيسي لذلك في القتال الاخير بين الفدائيين وبين حزب الكتائب اللبناني ... او ربما يفضلون [الفدائيين] عدم تعريض لبنان لضربة انتقامية في هذه المرحلة ... خصوصا وان اسرائيل بقيت « مدينة » لهم منذ لينة سافوي » (يدبوعت احرنوت ، ٩/٥/١٩٧٥) .

ورغم انه « لم ينفذ اي هجوم ضد اهداف اسرائيلية يهودية في الخارج منذ كانون الثاني الماضي ... فان هذا لا يمنع ان تقوم جبهة الرفض بعمليات في الخارج بهدف اغتيال اشترك منظمة التحرير في اي حل سياسي في اطار مؤتمر جنيف او بطرق اخرى » .

« ... كذلك هناك اساس للافتراض بان فتح ومنظمات « معتدلة » اخرى تخطط وتعد لعمليات ضد الاهداف الاسرائيلية في الخارج ، ذلك ان تلك المنظمات قد تغير مواقفها لعدة اسباب ، منها فشلها في توجيه ضربات داخل اسرائيل ، او اذا لم تنجح بالاشترك في مؤتمر جنيف ، او لتوجيه انظارنا عن هجوم عربي شامل علينا . وهناك ايضا اهداف اخرى مثل ... ضرب ناقلات النفط التي تنقل البترول من الخليج الفارسي لاسرائيل » (المصدر نفسه) .

تضعف المعنويات

علاوة على الفشل السياسي والعسكري في مواجهة الثورة الفلسطينية ، منيت اجهزة الاعلام الاسرائيلي بفشل ذريع في تغطية نشاطات الثورة او التقليل من اهميتها ، مما اثار غضب بعض المسؤولين الاسرائيليين . فبعد الانفجار الذي وقع في احد الابنية في القدس وجه عضو الكنيست يوسف تامر (ليكود) سؤالا مستعجلا يحتج فيه على عرض التلغزيون الاسرائيلي لهذا « المشهد الذي يهدم

بدل اجبار الفدائيين على الاهتمام بأنهم ، وطلبوا باتخاذ خطوات ملائمة لردهم وانشغال مخططاتهم (يعقوب كروز - يديعوت احرونوت ، ٥/٩/١٩٧٥) . واقتراح احدهم طرقا جديدة لمجابهة الفدائيين بقوله : « ليس هناك اي عامل ردع فعال لوقف عمليات الارهاب والقتل ، مما يعتبر بمثابة تشجيع لزيادتها ... ولن يكون هناك مفر ، ان عاجلا ام اجلا ، من البحث عن طرق للرد والردع ... ويشك ان كانت عقوبة الاعدام تشكل علاجا كافيا للمشكلة ، وان كانت هناك اهمية للعودة وبحث هذه الامكانية . وفي المقابل علينا ان ندرس من جديد عمليات النفي والطردهم لمن لهم علاقة بالتخريب او الذين يؤيدونه بشكل مباشر وغير مباشر . ان النفي والطردهم يمكن ان تكون وسائل فعالة جدا ، خصوصا اذا رافقتها استيلاء الجيش الاسرائيلي او مدنيين يهود على المناطق والممتلكات التي ستصبح خالية بهذه الطريقة . فاذا ما ادركت منظمات التخريب ان استمرار اعمال الارهاب والقتل ... سيؤدي بصورة مباشرة الى تحويل المزيد من المناطق العربية الى احياء يهودية فسترتدع دون شك عن الاستمرار بعملياتها ... ذلك ان اكثر القيم قداسة لدى سكان المناطق هي الصمود والارتباط بالارض . ويمكن ان يشكل التهديد باقتلاعهم ونفيهم اكثر وسائل الردع فعالية » (حفاي اشد - دانار ، ٥/٩/١٩٧٥) .

سمير جريسي

صلاحيات الوزير ، ولكنه قال بانه سيعمل على تعزيز لجنة ادارة المصلحة (دانار ، ٥/١٥/١٩٧٥) .

ويبدو ان الداعين للمحافظة على المعنويات ، التي وصفها العميد احتياط اوري بن - اري (يديعوت احرونوت ، ٥/٢١/١٩٧٥) بانها « هي التي جعلت من الاسرائيلي مقاتلا لا يعرف الخوف ... وهي الثروة الوطنية الاساسية » [هم الذين نجحوا في النهاية ، وذلك عندما اصدر وزير الدفاع امرا بمنع الصحفيين من الوصول الى مواقع اي عملية فدائية فلسطينية في المستقبل ومنع اي وصف اذاعي حي لها .

البحث عن طرق جديدة لمواجهة النشاط الفدائي

مع فشل الاجراءات الاسرائيلية في مجابهة النشاط الفدائي ، انطلقت مجددا الدعوات بين اوساط الصمود لتطبيق عقوبة الاعدام بحق الفدائيين ، وكان اول من نادى بذلك - كالعادة - وزير الشرطة ، شلومو هيلل (دانار ، ٥/٧/١٩٧٥) . اما النائب سموئيل تامير (ليكود) فقد طالب « بوضع تقديرات جديدة في الصراع ضد المخربين وبضرورة تجديد كل الطاقة البشرية غير المشغولة من اجل هذا الهدف » (معاريف ، ٢٠/٥/١٩٧٥) . واعرب اخرون عن استيائهم لان المبادرة بقيت بأيدي الفدائيين ولان السلطات الاسرائيلية تكتفي بالعمليات الوقائية والدفاعية ،

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٥/١٤ - ١٩٧٥/٦/١٢

الرقم	تاريخ العملية	السماعة	موقعها	نوع العملية	السلح	البيشيرة	خسائر العدو	خسائر المقاومة	المصدر :
١	٥/١٢ - ١٠٤٠٠	تل ابيب	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	فجر محدد	تدمر جزء كبير من أحد الابنية - التي يرتادها جنود العدو ومخنداته	٧٥/١٤٤	البلدائع العسكري تاريخه
٢	٥/١٤ - ١٤٠٠	الرائم/شمال القدس	الرائم/شمال القدس	تفجير	عبوات ناسفة	-	تدمر سيارة ثروطة العدو والشمال النيران فيها كما تفجرت سيارات مجاورة	٧٥/١٤٥	٥/١٤
٣	٥/١٥ -	تل ابيب (١)	تل ابيب (١)	تفجير	عبوات ناسفة	فجر محدد	تدمر مركز صناعي في شارع رعتان والشمال النيران فيه	٧٥/١٤٦	٥/١٥
٤	٥/١٥ - ١٤٠٠	بناح تكفالا (١)	بناح تكفالا (١)	تفجير	عبوات حارقة موقوتة	-	اشغال النيران في منطقة الاحراش وامتدادها لمسكن توريب الضفادع البشيرة	٧٥/١٤٧	٥/١٥
٥	٥/١٥ - ٨٤٠٠	القدس	القدس	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	-	اكتشاف العبوة في اسفل مسودسج وتود يحيى «الميشيم» واطال مفعولها	٧٥/١٤٨	٥/١٥
٦	٥/١٦ - ١٧٤٠٠	مكرون/شمال شرق تل ابيب (١)	مكرون/شمال شرق تل ابيب (١)	تفجير	عبوات ناسفة	فجر محدد	تدمر عدد من الصانسخ العسكرية ؛ تدمر عدد من النفايات المحيطة بمنطقة الانتخارات	٧٥ ١٥٠٠-١٤٩	٥/١٧
٧	٥/١٧ -	البيرة/شمال القدس (٢)	البيرة/شمال القدس (٢)	تفجير	عبوات ناسفة	١ ١	تدمر سيارة عمسكوتية لاحد قباط الخابرات	٧٥/١٥١	٥/١٧

الرقم	تاريخ العملية اليوم	موقعها	نوع العملية	السلاح	خسائر العدو	خسائر المقاومة	المصدر :
٨	٥/١٧	رام الله (٥)	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	٥/١٧ ٧٥/١٥٢
٩	٥/١٧	أريحا	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد	تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	٥/١٧ ٧٥/١٥٢
١٠	٥/١٧	عين العفصية/ شاطئ البحر البيت (١)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير جزء من مقصف عين الناشخة	٥/١٧ ٧٥/١٥٤
١١	٥/١٨	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد	تدمير عبوة في مكان تجمع جنود العدو قرب مقصف روكفلر	٥/١٨ ٧٥/١٥٥
١٢	٥/١٩	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد	اصابة مبنى البلدية بأضرار تم اكشاف العبوات في كراج	٥/١٩ ٧٥/١٥٦
١٣	٥/١٩	القدس	تفجير	عبوات حارقة	—	سيارات جيش العدو قرب باب الخليل وابطال ممولها	٥/١٩ ٧٥/١٥٦
١٤	٥/١٩	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	تدمير ثلاث سيارات عسكرية للعدو	٥/٢٠ ٧٥/١٥٧
١٥	٥/١٩	بروحام/اللقب (٧)	تفجير	عبوات حارقة	—	تدمير وإشعال التيران في مصنع للزجاج	٥/٢٠ ٧٥/١٥٨
١٦	٥/١٩	مراد/اللقب (٨)	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	—	اشعال النيران في قسم المصانع بالمنطقة الصناعية وإعدادها الى القسم الأخرى	٥/٢٠ ٧٥/١٥٨
١٧	٥/٢٠	بين ريف وخان يونس	تفجير وكمين	عبوات ناسفة مختلفة	غير محدد	تدمير خط مسكة الحديد ١ والاشتباك مع أفراد العدو	٥/٢١ ٧٥/١٥٩

٥/٢١	٧٥/١٦٥	—	—	١	—	—	—	القدس	٨٤٠٠	٥/٢٠	١٨
٥/٢٢	٧٥/١٦١	—	—	—	١	—	—	القدس	—	٥/٢٢	١٩
٥/٢٣	٧٥/١٦٢	—	—	—	١	—	—	بهازم/عور الاردن	٢١٤٠٠	٥/٢٢	٢٠
٥/٢٥	٧٥/١٦٣	—	—	—	١	—	—	مخيم دير البلح/ غزة	٢٠٤٠٠	٥/٢٤	٢١
٥/٢٥	٧٥/١٦٥	—	—	—	١	—	—	بين بئر السبع ومرآة/الغلب	٨٤٠٠	٥/٢٥	٢٢
٥/٢٥	٧٥/١٦٦	—	—	—	١	—	—	ناطس	—	٥/٢٣	٢٣
٥/٢٧	٧٥/١٦٧	—	—	—	١	—	—	العمولة	٩٤٠٠	٥/٢٦	٢٤
٥/٢٧	٧٥/١٦٨	—	—	—	١	—	—	مصف	١١٤٠٠	٥/٢٦	٢٥
٥/٢٧	٧٥/١٦٩	—	—	—	١	—	—	بهاريا	٢٤٠٠	٥/٢٧	٢٦
٥/٢٧	٧٥/١٧٠	—	—	—	١	—	—	بين شتولا وزرमित	١٥٤٠٠	٥/٢٦	٢٧
٥/٢٧	٧٥/١٧١	—	—	—	٢	—	—	جذين	٩٤٠٠	٥/٢٦	٢٨

موقوتة

تتجر

تتجر

جذين

٩٤٠٠

٥/٢٦

٢٨

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعا	نوع المطبخ	السلح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتل جريح	خسائر المتارزة خسائر العدو المادية	البلاغ المسكوري تاريخه المصدر :
٢٩ - ٢٩	٥/٢٨	١٢٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة حارقة	—	اشغال النيران في محلات تجارية في حي ميلا	٥/٢٩ ٧٥/١٧٢ — — —
٢٠ - ٢٠	٥/٢٨	١٧٤٠٠	القدس (٩)	تفجير	عبوات حارقة	—	اشغال النيران في مستودع الخشب والحدادها الى المستودعات الجاورة	٥/٢٩ ٧٥/١٧٢ — — —
٢١ - ٢١	٥/٢٩	١٠٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	تدمر سيارة عسكرية وامبارة سيارات اخرى بافترار انفجار العبوة اثر اكشائها في احد باصات شركة ابجد	٥/٢٩ ٧٥/١٧٤ — — —
٢٢ - ٢٢	٥/٢٩	١٠٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	٢	تدمر أحد مصانع النسيج وأحد المستودعات الطبية في يتاح تكفا و اشغال النيران في مصنع للجلاد في بات يام والحداد النيران الى مقصات اخرى واشغال النيران في مصنع للدهانات بقرنفليا	٥/٢٠ ٧٥/١٧٥ — — —
٢٣ - ٢٣	٥/٢٧	٢٠٤٠٠	بناح تكفا وبات يام / جنوب تل اييب وقرنفليا/شمال تل اييب (٨)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمر أحد مصانع النسيج وأحد المستودعات الطبية في يتاح تكفا و اشغال النيران في مصنع للدهانات بقرنفليا	٥/٢٠ ٧٥/١٧٦ — — —
٢٤ - ٢٤	٥/٢١	—	بيسان	تصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد	امبارة بعض المقصات في المدينة	٦/ ١ ٧٥/١٧٨ — — —
٢٥ - ٢٥	٦/ ٢	—	غزة	القاه ثقيلة والمتفجرات	ثقيلة يدوية	٥ امباريات	بمد امبارة افراد الدورية ١ اشبك ومافنا مع افراد العدو	٦/ ٣ ٧٥/١٧٩ — — —
٢٦ - ٢٦	٦/ ٢	٢١٤٠٠	الخليل	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	اشغال النيران داخل مطعم قرب الحرم الابراهيمي	٦/ ٣ ٧٥/١٨٠ — — —

١/ ٤	٧٥/١٨١	— — —	تدمير أجزاء كبيرة من مبنى إذاعة العدو بجي مصرارة وإعداد القنارات الى احد (المشروعات الرئيسية الخامسة بالأرضية) سف والمعلومات والى المشروعات والاستديو هات	غير محدد	مبوات ناسفة حارقة	تفجير	القدس (١٦)	—	١/ ٤ — ٣٧
١/ ٥	٧٥/١٨٢	— — —	تدمير سياراتين عسكريتين والقضاء على أفراد حاجز في شارع صلاح الدين تدمير وإعداد سيارة لشربة العدو وإعداد القنارات الى سيارات اخرى في حي موشجرم	غير محدد	قتال يدوية	مجموم	القدس	٧٤٢٠	١/ ٥ — ٣٨
١/ ٦	٧٥/١٨٣	— — —	تدمير وإعداد القنارات الى سيارات اخرى في حي موشجرم	—	عبوات حارقة	تفجير	القدس (١٦)	٢١٤٠٠	١/ ٥ — ٣٩
١/ ٦	٧٥/١٨٤	— — —	تدمور قنار حديدي وخروجه عن الخط بعد ان تكون قوارنا من قطع خط سكة الحديد مما أدى الى تعطيله	غير محدد	—	—	كربات جات (١٦)	١٤٤٢٠	١/ ٥ — ٤٠
١/ ٧	٧٥/١٨٥	— — —	اصابة مدة أهداف ومنشآت مصرية في المدينة	غير محدد	موزايخ ثقيلة	قصف	العاصمة	—	١/ ٥ — ٤١
١/ ٨	٧٥/١٨٦	— — —	تدمير باص لشركة ايجد وقتل وجرح من فيه	غير محدد	عبوات ناسفة	تفجير	نابلس	١٦٤٠٠	١/ ٧ — ٤٢
١/ ٨	٧٥/١٨٧	— — ١	مهاجمة مجموعة من جنود العدو الجازين الذين يتنظرون على المشرق نقاطات لجهلهم الى ممشك ااتهم	غير محدد	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	كمين ومفرون	مشرق بيت ليد ومفرون	٧٤٠٠	١/ ٨ — ٤٣
١/ ٨	٧٥/١٨٨	— — —	تدمير سيارة عسكرية محملة بجنود العدو	غير محدد	الناسم	كمين	الرامه/الجولان (١٤)	—	١/ ٧ — ٤٤

الرقم	تاريخ العملية	الساعة	موقعها	نوع العملية	الاستعمال	الذخيرة	خسائر العدو	خسائر العدو	خسائر المتقاومة	المصدر :
٤٥ -	٦/٨	٧٤٢٠	موز حليم / بيسان (١٥)	تفجير	مبوات ناسفة	غير محدد	تدمير محطة المياه المركزية مما أدى إلى قطع المياه من المنطقة	خسائر العدو الذخيرة	٦/٨	٧٥/١٨٩
٤٦ -	٦/٨	١٢٤٠٠	كلر سابيا	تفجير	مبوات ناسفة	غير محدد	تدمير مستودع لاسطوانات الغاز واشتعال النيران في المبنى	الذخيرة	٦/٩	٧٥/١٩٠
٤٧ -	٦/٨	-	بيت ليد	تفجير	مبوات ناسفة	غير محدد	إصابة عدد من أفراد العدو الذين كانوا يلاحقون قوارنا (راجع عملية رقم ٤٣)	الذخيرة	٦/٩	٧٥/١٩١

١- ادعى العدو الصهيوني بأن حريقاً شديداً في مبنى صناعي وتسبب بانفجار في ورشات النجارة ومماثل لادوات التجهيل وذلك نتيجة لاحتكاك كبير بيني أو من عقب سبجارة في شارع رعتان في تل أبيب ، وأضاف بأن رجال الإطفاء في بناح تكنا قد أخذوا ١٦ حريقاً شبت في المناطق الزراعية والراعي خلال خمس ساعات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨١٩ ، صفحة ٢٢٢ ، بتاريخ ١٦/٥/١٩٧٥) .

٢ - ادعى العدو بأن ٢٥ شخصاً امسوا بجراح طفيفة اثر انفجار مخزن للذخيرة في مصنع للمناصعة العسكرية في منطقة السهل الساحلي وذلك نتيجة حريق أو انفجار مواد كيميائية قابلة للاشتعال « . وتجرر الإخمرة إلى انه في نفس الخبر اورد مواصل عقيم انه وجد في مكان الانفجار ذخيرة لم تتفجر بعد في حائط مبنى في المنطقة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٠ ، صفحة ٢٢٤ ، بتاريخ ١٧/٥/١٩٧٥) .

٣- اعترف العدو بهذه العمليات إذ اورد في ١٨/٥ انه حضر حفل الترحيل من اريحا في اعقاب الانفجار الذي وقع في حين الفتحنة بينما توامل قوات الامن الاسرائيلية لتحقيق في حادثي رام الله والبرية دون ان يورد أية تفاصيل . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢١ ، صفحة ٢٧٨ ، بتاريخ ١٩/٥/١٩٧٥) .

٨٧- اعترف العدو بالعمليتين في بروكهام وعراد وقر الضمائر في كلا المملكتين - ٢٥٠٠٠٠ ليرة اسرائيلية . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٢ ، صفحة ٤٠٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٠) .

٩- اعترف العدو بجناح الحريق دون ان يورد أية تفاصيل عن سببه (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٧ ، صفحة ٥٥٩ ، بتاريخ ٥/٢١/١٩٧٥) .

١٠- ادعى العدو بان الحريق في مصنع النسيج في بيتاح تكفا يعود من « شرارة انطلاقت من احدى المكائنات في المصنع » . كما اعترف العدو بان حريقا شبي في مصنع للمطاط في بيت تم اتي على المصنع بكامله واحترقت بنائية لشركة طيبور في مرسلبا . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٥ ، صفحة ٤٩٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٥/٢٩) .

١١- ادعى العدو بان حريقا شبي في ساحة مبنى الاذاعة في القدس في كوخ يحتوي على معدات محطات الطوارئ كما أكد النبا بان الحادث لم يكن نتيجة اية عملية عسكرية دون ان يحدد اسبابه . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣١ ، صفحة ٨٠٨ ، بتاريخ ١٩٧٥/٧/٥) .

١٢- ادعى العدو بان سيارة تد احترقت في حي حانة شمساريم ويان العرطة تحقق لمرعبة اسباب الحريق . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٢ ، صفحة ١٤٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٦) .

١٣- ادعى العدو بان حركة سكة الحديد توقفت في خط بئر السبع بعد ان انطبت عربة محملة بالفوسفات وذلك نتيجة خطأ فني . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٢٣ ، صفحة ١٩٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

١٤- ادعى العدو بان مواطنين اسرائيليين امسوا بجراح اثر انفجار اربعة العمام تحت المشاحنة التي تطلها بعد دخولها حفل العمام رقم السياح واليانغلث التي تحفر من وجود حفل الالعاب . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٤ ، صفحة ١٩١ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

١٥- ادعى العدو بانته نتيجة خطأ فني وقع انفجار في مفعة للمياه قرب كيبوتس موز حانيم في بيسان . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، عدد ٨٣٤ ، صفحة ١٩٠ ، بتاريخ ١٩٧٥/٦/٩) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٥/١٤ - ١٢/٦/١٩٧٥

الرقم	تاريخ العملية	الساعة	موقعها	نوع العملية	الاستعمال	خسائر العدو		خسائر المقاومة		تاريخ اليوم
						البشرية	تقليل جريح	خسائر العدو	خسائر المقاومة	
١	٥/١٤	—	شعولا	تصف	تذائف مارون	—	—	لم تقع أية أضرار	—	٥/١٤
٢	٥/١٥	—	العنسن	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة أسفل شاحنة تقل قناريات الغاز واطل مفعولها	—	٥/١٦
٣	٥/١٩	٨٢٠٠	العنسن	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة قرب مبنى البلدية واطل مفعولها	—	٥/١٩
٤	٥/٢٠	—	العنسن	طعن	سكين	١	—	—	—	٥/٢١
٥	٥/٢٠	—	بين رنج وخالينوفس	تفجير	عبوة ناسفة	١	١	لم يرد في النيا اية معلومات حول الاضرار	—	٥/٢١
٦	٥/٢١	—	الغزوة	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد	—	وقع الانفجار في سوق الخطار المركزي	—	٥/٢١
٧	٥/٢١	٢٤٤٠٠	معد وانغيم وتهاريا	تصف	تذائف كانيوشا	—	—	لم تقع أية أضرار	—	٥/٢١
٨	٥/٢٨	٢٤٤٠٠	شعولا	تصف	اسلحة رشاشة وقذائف باروكا	—	—	لم يصب أي من افراد دورية لحورس الحدود	—	٥/٣٠
٩	٥/٢٩	—	بين بيت لحم صور يامر	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	أحدث العبوة حفرة كبيرة في الطريق	—	٥/٣٠
١٠	٥/٢٩	١٢٤٠٠	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	١	—	انفجار العبوة في شارع شعبي يسير الليل	—	٥/٣٠

٦/ ٣	٦٢ عدد، ٨٢٩ ص ٠ ن	١	قام المناسل خليل ابراهيم بدوي بالتمهدي لدورية اسرائيلية	١	تبادل يدوية والسلحة رشاشة	الغتيك	قزة	٩٤٠٠	٦/ ٢ - ١١
٦/ ٤	٨٨ عدد، ٨٢٠ ص ٠ ن	١	امامية مطعم قرب الحرم الابراهيمي بانفسار طيبة اثر محاولة الجمال الليران فيه	١	الاشغال نيران	الغتيك	الحنبل	١٢	٦/ ٢ - ١٢
٦/ ٥	١١٣ عدد، ٨٣١ ص ٠ ن	١	اصابة مبنى حديقة الاطامل ومبان اخرى بانفسار	١	مزارع	قصف	كريات شمونة	١٣	٦/ ٥ - ١٣
٦/ ٥	١١٦ عدد، ٨٣١ ص ٠ ن	٢	امامية احد افراد حاجز في شوارع صلاح الدين	٢	تدبلة يدوية	الغناء	القدس	٧٤٣٠	٦/ ٥ - ١٤
٦/ ٩	١٩٥ عدد، ٨٣٤ ص ٠ ن	١	اصابة منزل بانفسار اثر انفجار في قرية الغوارير الغاز	١	اسلحة وخنفة	الغتيك	بيت ليد	١٥	٦/ ٨ - ١٥
٦/ ٩	١٩٥ عدد، ٨٣٤ ص ٠ ن	١	اصابة منزل بانفسار اثر انفجار في قرية الغوارير الغاز	١	عبوة ناسفة	تفجير	كحل سلبا	١٢٤٣٠	٦/ ٨ - ١٦

غازي خورشيد

٠ ن - نفرة ٨ رصد اذاعة اسرائيل « تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منطقة التحرير الفلسطينية »

دار الآداب تقدم

آخر منشوراتها

● عن علاقات الدائرة

رواية بقلم الياس خوري

● بيروت ٧٥

رواية بقلم غادة السمان

● امرأتان ... في امرأة

رواية بقلم الدكتورة نوال السعداوي

● قصائد مهربة الى حبيبي آسيا

قصائد للشاعر محمد علي شمس الدين

● ابتسمي حتى تمر الخيل

قصائد للشاعر محمد الفيتوري

● خليل مطران (مختارات من شعره)

اختارها وقدم لها أحمد ع. حجازي

دار الآداب ، ص.ب ٤١٢٣ ، بيروت